



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد خيضر بسكرة

كلية الآداب واللغات

قسم الآداب و اللغة العربية



مظاهر العولمة الثقافية في أعمال

واسيني الأعرج الروائية

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الطور الثالث

تخصص الأدب العربي المعاصر

إشراف الأستاذ الدكتور:

جمال مباركي

إعداد الطالبة:

صورية لعور

أعضاء لجنة المناقشة:

| الاسم واللقب | الرتبة العلمية | الجامعة | الصفة |
|--------------------------|-----------------|----------------------|--------------|
| أ.د/ بشير تاويريريت | أستاذ | جامعة بسكرة | رئيسا |
| أ.د/ جمال مباركي | أستاذ | جامعة بسكرة | مشرفا ومقررا |
| أ.د/ علي بخوش | أستاذ | جامعة بسكرة | عضوا مناقشا |
| أ.د/ إلياس مستاري | أستاذ | جامعة بسكرة | عضوا مناقشا |
| د . أحمد بزيو | أستاذ محاضر "أ" | المركز الجامعي بريكة | عضوا مناقشا |
| أ.د/ عبد الرزاق بن دحمان | أستاذ | جامعة بسكرة | عضوا مناقشا |

السنة الجامعية: 2023/2022م

الله أكبر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

سورة هود - 88 -

صدق الله العظيم

إهداء:

- إلى روح والدي الكريمين - رحمهما الله - ورزقهما الفردوس الأعلى،
عرفانا بفضلهما، وامتنانا على ما زرعا في من حب للعلم والخير.

- إلى زوجي الكريم، عضدي وسندي، اعترافا بسعة صدره، وطول
صبره، على انشغالي عنه.

- إلى ملائكتي، أبنائي: أسماء نور الهدى، إسراء نور اليقين، إسلام عبد
المؤمن.

- إلى إخوتي الأفاضل وأهاليهم، كل باسمه الخاص.

- إلى كل من عرفت، ومن وسعه قلبي وحيي، أهدي هذا العمل.

شكر وعرfan

الحمد لله الذي ذلل الصعاب، و أَمَطَ الحجب، وأَنار دروب العلم والمعرفة، ووفَّقني إلى إتمام هذا العمل، فلك الحمد ربي، كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك.

أتقدم بأسمى آيات الشكر والعرfan إلى أستاذي الفاضل الدكتور جمال مباركي الذي كما عهدناه رحب الصدر، كريم العطاء، لم يبخل علي بتوجيهاته السديدة، وملاحظاته المثمرة،، فكان نعم المُؤَطَّر والمُشرف.

- والشكر موصولٌ إلى كل القائمين على حقول البحث العلمي و المعرفة، السادة الفضلاء، أساتذة جامعة محمد خيضر -بسكرة-، وبصفة خاصة العاملين بقسم اللغة العربية و آدابها.

وعلى رأس كل هؤلاء أعضاء اللجنة العلمية، الذين تفضلوا بقبول مناقشة هذه الأطروحة، فهم أهل لتقويمها و كشف مواطن القصور فيها.

ولا يفوتني شكر كل من ساندني، أيا كان نوع المساندة،

الطالبة:

لعور صورية



مقدمة



الثقافة منظومة من الأنساق والقيم، التي تشكل وعي الجماعات البشرية وطرائق تفكيرها، وتصوغ قيمها و معتقداتها و سلوكياتها وممارساتها، لتعطي للحياة عمقها القيمي و الأخلاقي و الجمالي. وهي المعبر الأصيل عن المجتمع وهويته، تمنح المنضويين تحتها هوية خاصة و معنى متفردا ووجودا مستقلا، و قدرة على حماية التراث الثقافي و المخيال الجمعي الذي تشكل عبر التاريخ.

ونتيجة للتحويلات الكبرى التي يعرفها عالمنا اليوم، وفي ظل العولمة والتقارب العالمي بين الشعوب والثقافات، باتت الثقافة بما تحمله من قيم رمزية، موضع تهديد، حيث يسود اعتقاد غالب أن العولمة نظام عالمي شمولي وأيديولوجية تنميطية تطيح بالحدود والخصوصيات الثقافية للشعوب وتهدد التنوع الثقافي وتضع ثوابتها التقليدية الموروثة، وأنظمتها المركزية موضع الشك، وأنها تسعى إلى تعميم ثقافة كونية عالمية بمعايير وقيم أورو- أمريكية خاصة، تفرضها على العالم بالإكراه أو بالقوة الناعمة، معتمدة على ترسانة إعلامية احتكارية، تلغي إمكانية التناقص كخيار طوعي، وتؤسس لمقولة ابتلاع الأطراف داخل المركز المهيمن.

وعليه يكون المدخل الطبيعي لدراسة العولمة مدخلا ثقافيا، و هنا تكمن أهمية دراسة العولمة الثقافية كتحول فكري يطال الفضاء السوسيو ثقافي، ويؤثر في الهوية الثقافية تفكيكا و تشكيلا، في عالم مفتوح، تعرف فيه الثقافة مرونة وحركية دائمة، لم تعد تنفع فيه آليات الدفاع التقليدية، وأصبح الانكفاء على الذات والتقوقع في شرنقة الماضي مؤشرا ضعفا وتبعية، لا عامل تحصين وتطوير لقدراتها الانفتاحية وإسهاماتها في المشترك الإنساني.

وتقف وراء الخوض في هذا الموضوع الشائك، أسباب عديدة، منها الذاتي، ويكمن في الرغبة في فهم هذه الظاهرة فهما عميقا، وتكوين نظرة عميقة وموضوعية عن آلياتها ومظاهرتها و تداعياتها، قصد استيعابها و تحديد الموقف منها، وطريقة التعامل معها،

خاصة ونحن نشهد تأثيرها من خلال الانتشار الواسع لنمط الاستهلاك الغربي، الذي يختزل الثقافة في بعدها المادي، مع العلم أن تلك السلع المادية تحمل مضامين ثقافية حسب البلد الذي أنتجها. ونلمحه أيضا في جنوح فئة الشباب إلى تقليد النموذج الغربي، الذي تغلغل في نسيجنا الثقافي، وبدا تأثيره النسبي في وعيهم و سلوكهم ومعتقداتهم الدينية والفكرية.

ومنها الأسباب الموضوعية، فعلى حد قراءاتي المتواضعة، ومع كثرة المؤلفات التي تنظر لماهية العولمة الثقافية، ومظاهرها و تداعياتها وآثارها كل حسب رؤيته الأيديولوجية و حقل اشتغاله، نجد بالمقابل قلة في المؤلفات التي تتضمن مقاربات تطبيقية للظاهرة ككل في الروايات، وفي المنجز الروائي واسيني الأعرج تحديدا. وهي خطوة أطمح من خلالها إلى إثراء مكتبة الجامعة بهذا النوع من الدراسات، علما تسهم، ولو قليلا في مساعدة الطلبة الباحثين، الذين كثيرا ما يجدون صعوبة في الشق التطبيقي لدراساتهم.

ولاشك في أن الرواية تأتي في مقدمة الأجناس الأدبية التي تأثرت بالفكر العولمي، وقاربت موضوع الهوية الثقافية ارتباطاتها بالعولمة. وأنها الفن الأقدر على استيعاب القضايا الكبرى ومواكبتها، ومحاورة الواقع بخطاباته المتعددة والمتباينة، والإنسان بأشغالاته و توجهاته و تطلعاته.

وقد تبنى المنجز السردي لواسيني الأعرج هذا الموضوع، فصور برؤية فنية جمالية ما شهدته المجتمعات العربية و المجتمع الجزائري بصفة خاصة، من تغيرات في أنساقها الثقافية ونظمها التقليدية، تحت تأثير التحولات العالمية التي أفرزتها العولمة، تلك التداعيات الخطيرة، التي شكلت مجالا خصبا للبحث، وملمحا للتبصير في جدلية الوجود الإنساني و العلاقات بين البشر في إطار ثنائية الأنا و الآخر.

وانطلاقاً من هذا الطرح، تسعى هذه الأطروحة إلى الإجابة عن أسئلة، يمكن حصرها فيما يأتي:

1- كيف اشتغلت الخطابات العولمية في متون المنجز الروائي لواسيني الأعرج؟ وكيف توضحت الوجوه الهوياتية فيها، تزامناً مع المد العولمي؟.

2- ما مظاهر الصراع و التجاذب بين النموذج الثقافي المعولم و الهوية الثقافية في أعماله الروائية؟.

3- ما التحولات و التحديات التي فرضتها الثقافة المعولمة على الفضاء السوسيو ثقافي، وعلى الهوية العربية و الجزائرية؟.

4- هل تؤسس العولمة الثقافية للتقارب و التبادل الثقافي ثنائي القطب، أم أنها تهدد التنوع الثقافي وخصوصية الشعوب؟.

5- هل ترقى أطروحة الثقافة المعولمة إلى الإقرار بأن ثقافة عالمية متجانسة آخذة في الظهور والتشكل و التعميم، في ظل الصراع الأيديولوجي والتعدد الفكري و الأصولي؟.

6- في ظل الظروف الحالية لمجتمعاتنا العربية و الإسلامية، هل تتوفر الشروط التي تسمح بإنتاج قيم ثقافية عالمية مستمدة من عمق هويتنا الثقافية، تمكن من التبادل الثقافي والمشاركة الفعالة في إطار علاقة بين الكوني و الخصوصي، وعبر حوار متكافئ الثقافات؟.

وقد سار مشروع البحث وفق خطة نستعرضها كالتالي:

استهل بمدخل تمهيدي موجز، أشرت فيه إلى تلقي العولمة في الفكر العربي الحديث و المعاصر، وموقف المفكرين و الفلاسفة منها، والذي تآرجح بين المرحب بها والمبشر

بإيجابياتها، وبين الرفض لها و المحذر من خطورتها على الهوية، ثم تأتي الفصول الثلاثة، ولكل فصل عنوانه .

الفصل الأول: عنون ب: في فضاء المفاهيم المصطلحات: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية الثقافية، المفاهيم و الماهية، قسم إلى مبحثين:

أخذ المبحث الأول عنوان: في ماهية العولمة و مؤسساتها، أشرت فيه إلى التعريف اللغوية والاصطلاحية للعولمة في الفكرين العربي و الغربي، وإلى مفاهيمها الاقتصادية و السياسية و الإعلامية، مع ذكر آليات كل مفهوم.

وجاء المبحث الثاني تحت عنوان: ماهية العولمة الثقافية وعلاقتها بالهوية، عرفت فيه بمصطلحي الثقافة والهوية لغة واصطلاحا في الفكرين العربي والغربي، ومفهوم الهوية الثقافية، وآليات العولمة الثقافية'.

وعنون الفصل الثاني: ب العولمة الثقافية بين صراع الحضارات و تحاورها، في المنجز الروائي لواسيني الأعرج، قسم بدوره إلى مبحثين.

في المبحث الأول: تتبعت مظاهر الصراع الحضاري والصدام الثقافي، ولعل أبرزها: الإسلاموفوبيا، خطاب الكراهية، التطرف الفكري والديني، الإرهاب الدولي والجريمة المنظمة، الداء الأصولي و تفكك الذات، المركزية الغربية، وصراع الأديان.

وفي المبحث الثاني رصدت مظاهر الحوار الحضاري و الثقافي، وأهمها: الوشائج الإنسانية، حوار الأديان، المثاقفة، الترجمة، الفن و الموسيقى.

و جاء الفصل الثالث بعنوان: تجليات الثقافة المعولمة في روايات واسيني الأعرج. و قسم هذا الفصل إلى أربعة مباحث، هي:

المبحث الأول، حمل عنوان: العولمة الثقافية وسؤال القيم، رصدت فيه صور الأزمات الأخلاقية التي طالت الإنسانية جراء سطوة العقلانية المادية و سقوط المعنى و القيمة الأخلاقية، وتطرق في إلى امتهان جسد المرأة و تشيئه و تسليعه.

وأخذ المبحث الثاني عنوان: العولمة الثقافية و التغريب، أشرت فيه إلى تأثير الثقافة المعولمة على الهوية الثقافية ،وعلاقة ذلك بالتغريب الثقافي، وتناولت جوانب هامة من مقولات الثقافة المعولمة ،وهي : التمركز حول الأنثى و تقويض السلطة الذكورية، وعولمة الأسرة و تحرير الجنس.

و في المبحث الثالث. رصدت بعض صور تأثير ثقافة العولمة على ثوابت الشعوب و مرجعياتها الثقافية، اتخذ عنوان: الإطاحة بالمركزيات الكبرى و زعزعة اليقينيات. و فيه أشرت إلى القراءة الحدائثة للقرآن الكريم، وتهميش الدين و مسألة جلد الذات ،وتأثير الثقافة الاستهلاكية على التراث.

أما المبحث الأخير، فكان مجالاً للبحث في تأثير الاقتلاع المكاني على الهوية الثقافية للمبعد عن وطنه ، سواء تم ذلك اختيارياً ،في صورة الهجرة الطوعية ،أم قسرياً في صورة النفي الاجباري ،ولتقصي تجاذبات هويته المتصدعة بين فضاء الذات الوطن و فضاء الآخر، حيث تحضر الذاكرة، لتقيم جسر عبور إلى الوطن، و إلى تأسيس هوية رمادية بينية مفتوحة.

و ذيل العمل بخاتمة، هي خلاصة ما توصلت إليه من نتائج.

وقد اقتضت هذه الخطة المزوجة بين المنهجين التاريخي؛ لتتبع مسارات العولمة ،وبيان مظاهرها وآلياتها و تأثيراتها، والنقد الثقافي؛ للكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة ،نتاج تأثير الثقافة المعولمة، كما استعنت بالوصف و التحليل.

وفيما يتعلق بالدراسات السابقة، التي قاربت موضوع العولمة الثقافية، أذكر

منها :

1- عبد الغني عماد: سوسيولوجيا الثقافة، المفاهيم والإشكالية، من الحداثة إلى العولمة. استعرض فيه مقاربات مصطلح الثقافة من مداخل عدة: أنثروبولوجية، وأيديولوجية، وسوسيولوجية، و سيميائية، وبين محدداتها و خصائصها و مصادرها، وأشار إلى إشكالية القيم و البعد الرمزي للثقافة، وديناميات التغير الثقافي، والعلاقة بين العولمة و الثقافة و إشكالية الهيمنة الغربية، كما تطرق إلى مفهوم مصطلحي الحداثة و ما بعد الحداثة، و نظرية صدام الحضارات و نهاية التاريخ، وبيّن خطورة أدلجة الثقافة .

2- عبد الله إبراهيم: المطابقة والاختلاف، ج1، المركزية الغربية، إشكالية التمرکز و التكون حول الذات، عرف فيه بالمركزية الغربية وتمخضاته التاريخية، واستعرض الأسس الفلسفية و العلمية و العقلية و الدينية، التي أصل من خلالها الغرب لنزعة التمرکز حول ذاته، عند كثير من الفلاسفة، أمثال: لوك، ديكارت، بينوزا، هيغل...، وأشار إلى تفكيكية دريدا ودورها في نقض بؤر التمرکز الغربية، ذاكرا آراء الفلاسفة التفكيكيين أمثال: هابرماس العقلانية التقنية، ماركس نظرية تشيؤ الإنسان، ماركوز إنسان البعد الواحد، وتحدث عن الانتقال من العقل الأدوات إلى العقل التواصلي.

3- علي حرب: حديث النهايات، فتوحات العولمة و مآزق الهوية، ربط فيه العولمة بالتقدم الحاصل في المجال الإعلامي و تكنولوجيا الاتصال و تبادل المعلومات، واستعرض المواقف المتباينة تجاه ظاهرة العولمة، وانتصر لها، وتحدث عن العولمة الإعلامية ورهانات المستقبل مشيرا إلى دورها في الحفاظ على التنوع الثقافي بمساعدة العامل التقني، وسلطة المعلومة، ولم يفته الحديث عن النهايات.

4- عفيف البهنسي: الهوية الثقافية بين العالمية و العولمة، عرض فيه مفهوم العالمية و العولمة، و الحوار و الصراع الحضاري، وإشكالية الأصالة في ظل التغريب، و أشار إلى الحداثة الغربية و الشرقية و مصيرها، وإلى تراجع الإنسان العاقل، و ظهور الهويات البينية المولدة. كما نقد نظرية الصراع.

واعتمدت في دراستي على مجموعة من المصادر والمراجع، لا يسع المجال لحصرها، منها نماذج مختارة من روايات الكاتب واسيني الأعرج، وهي : 2084 حكاية العربي الأخير، أصابع لوليتا، مملكة الفراشة، سيدة المقام، أنثى السراب، رماد الشرق بجزيئه؛ خريف نيويورك الأخير و الذئب الذي نبت في البراري، الذئب الذي نبت البراري، سوناتا لأشباح القدس، كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، و البيت الأندلسي. ومنها أيضا:

1- شوقي جلال: العولمة، الهوية، المسار.

2- عبد الرزاق الدواي: في الثقافة والخطاب عن حرب الثقافات، حوار الهويات الوطنية في زمن العولمة.

3- عمار جيدل: حوار الحضارات و مؤهلات الإسلام في التأسيس للتواصل الإنساني.

4- محمد بكاي: أرخبيلات ما بعد الحداثة، رهانات الذات الإنسانية، من سطوة الانغلاق إلى إقرار الانعتاق.

5- محمد عمارة: مخاطر العولمة على الهوية الثقافية.

وكل عمل، لم تخل هذه الدراسة من الصعاب، أهمها تشعب الحقول المعرفية المرتبطة بهذه الظاهرة، وتعدد جهات النظر إليها، كل حسب توجهاته و ميدان اختصاصه، و كثرة المؤلفات التي تتناول الظاهرة، و مع أن الأمر إيجابي، إلا أنه أوقعني في مشقة الاختيار و الفرز، فضلا عن طول مدونات الكاتب، التي تفوق الواحدة منها الخمس مائة صفحة، كما أن انفتاح الرواية الحداثية على قراءات متعددة يتطلب جهدا مضاعفا. إضافة إلى وقوعي في بعض محطات الدراسة، أسيرة

المحاكمة الأخلاقية، انطلاقاً من عقيدتي الإسلامية، التي صاغت رؤيتي الخاصة للكون و الحياة ، فكل إبداع أو نقد لا محالة مسكون بقليل أو كثير من الأيديولوجيا ،وعليه يكون كمال الموضوعية في الطرح أكبر عائق يواجه الباحث خاصة المبتدأ مثلي.

أرجو أنني قد وفقت، و لو قليلا في هذا العمل،الذي لا أدعي كماله، فلا يزال موضوع العولمة الثقافية،و علاقته بالهوية يتنازل بالجديد، كما أن العولمة ظاهرة لم يكتمل تشكلها بعد.

و ختاماً، أتقدم بخالص الشكر و الامتنان لأستاذي المشرف،نظير التوضيحات والتوجيهات التي رافقت ميلاد هذا العمل الأكاديمي.



مدخل تمهيدي:

تلقي العولمة في الفكر العربي الحديث و المعاصر: العولمة بين
الرفض و الترحيب .



- تلقي العولمة في الفكر العربي الحديث و المعاصر: العولمة بين الرفض والترحيب.

يشهد عالم اليوم تغيرات سريعة و متلاحقة على كافة الأصعدة يصعب التكهن بتداعياتها وبناتئجها، بفعل تغير القيم و المفاهيم و المعايير، ما يفسح المجال لظهور فواعل فكرية ومعرفية تتجاوز السائد، وتطرح نمطا ونهجا مغايرا، وفكرا ووعيا جديدا في الممارسة و الوجود.أخلطت هذه التحولات الجذرية علاقة الفرد بمفردات وجوده، وزعزعت مرجعيات المعنى وأطر التجربة الإنسانية، كما أنبأت بظهور فاعل بشري جديد، يضع موضع الشك المركزيات القديمة.

وعالمنا العربي ليس بمنأى عن هذه التحولات بإيجابياتها و سلبياتها، وهو معني بالحراك الثقافي العالمي ومستجداته،وما من شك في أنه ملزم في ظل هذا الوضع بالانخراط فيه من جهة،و مطالب من جهة أخرى بالحفاظ على هويته وخصوصيته الثقافية،لأن التفكير بالثقافة المعاصرة يقتضي الأخذ بعين الاعتبار التجربة الإنسانية الأوسع،تلك التي يتشارك فيها العالم في إطار العولمة موضوع الساعة،ذلك الهم المستقبلي الذي فرض نفسه في الواقع الراهن، وتلك الحقيقة التي لا شك فيها، بفعلها وفاعليتها ووجودها الذي لا يمكن نكران تأثيراته.

وأصبح من المؤكد أن الثقافة أدرجت في قلب الرهانات التاريخية والاجتماعية والأيدولوجية، وبات"المجال الثقافي بكل أبعاده مجالا خصبا لتداعياتها، ولعل هذا المجال بالتحديد من أخطر النتائج المترتبة على العولمة، لاتصالها بالشخصية الثقافية و الهوية والانتماء للشعوب و الأمم،التي أصبحت مكشوفة أمام مؤثرات و تحديات لم تعد تنفع

معها الدفاعات التقليدية السابقة للحفاظ على الخصوصيات والهويات المحلية.¹ فلا شك في أن العولمة تقع "في القلب من الثقافة الحديثة، و تقع الممارسات الثقافية في القلب من العولمة (...)"، وليس هذا بالادعاء المبالغ فيه، فلست أقصد القول بأن العولمة هي المحدد الوحيد للتجربة الثقافية الحديثة، ولا أن الثقافة بمفردها هي المفتاح المفاهيمي الذي يفك مغالق القوة الدينامية الداخلية للعولمة، ولذلك فهو ليس ادعاء بأن سياسات و اقتصاديات العولمة ينتج عنها تقرير ثقافي يتخذ أولوية مفاهيمية، لكنه يتمثل في إثبات أن العمليات التحويلية (transformative) الهائلة لعصرنا الحديث، والتي تصفها العولمة لا يمكن أن تفهم على نحو صحيح حتى تدرك من خلال المفردات المفاهيمية للثقافة².

لذلك يجب أن نعطي الأهمية للبعد الثقافي للعولمة على اعتبار أن الثقافة هي نمط كلي للحياة، وأنها " كيفية خاصة لرؤية الوجود و الحياة، وأسلوباً في العيش و السلوك و الإحساس و الإدراك و التعبير و الإبداع، يتميز به مجتمع بشري معين فيما يملكه من أصالة عريقة و متجذرة في تاريخه، إنها نابعة من لغته و آدابه و من سائر تفاصيل حياته، نابعة من ظروفه وحاجاته و بيئته الجغرافية و تطور بلاده التاريخي و الحضاري، ففي مرآتها يتعرف كل إنسان على نفسه، و من خلالها يتعرف عليه من مناظير الثقافات الأخرى.³

¹ - حليم بركات: أزمة الحداثة و الوعي التقليدي، رياض الريس للكتب و النشر، دط، بيروت، لبنان، 2004، ص227.

² - جون توملسون: العولمة و الثقافة، تجربتنا الاجتماعية عبر الزمان و المكان، تر: إيهاب عبد الرحيم محمد، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية، العدد354، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، 2008، ص09.

³ عبد الرزاق الدواي: في الثقافة و الخطاب عن حرب الثقافات، حوار الهويات الوطنية في زمن العولمة، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، ط1، 2013، بيروت، ص31.

وما يهم هنا" هو الكيفية التي تغير من خلالها العولمة سياق المعنى، وكيف تؤثر في شعور الناس بالهوية وتجربة المكان و الذات في ما يتعلق بالمكان، وكيف تؤثر في المفاهيم و القيم و الرغبات و الخرافات والآمال والمخاوف المشتركة التي تطورت حول حياة قائمة محليا "1، وفي كل عوالم تجربتنا المحلية و العالمية.من منطلق أن الثقافة وجه من وجوه الهوية، أوهي التمثيل الحسي لها. وإن الحديث عنها هو حديث عن الهوية، وعن النظام القيمي الذي تنبثق منه المعتقدات والقيم والقوانين والأخلاق و الأفكار.

فالحديث عن العولمة وأهدافها و علاقتها بالهوية الثقافية، سيقود حتما إلى البحث في انعكاسات مراميها ذات الطابع الكوني في الثقافات، فمنذ "برز موضوع الهوية على وقع صدمة الحداثة و الاستعمار في القرن 19، بما أفرزته هذه الصدمة من اهتزاز في الوجود و الوعي، ومن اختلال في المعاني و الدلالات والقيم، احتل هذا الموضوع مكانة في الخطاب العربي الحديث و المعاصر حتى بات مركز الاستقطاب الأساسي في مناقشة التغير و التغيير، ترتفع وتيرته مع كل التحولات السريعة و التغيرات المادية و المعنوية."2.

وقد جرى الحديث عن إشكالية العولمة ووقعها على الفكر و الثقافة في العالم أجمع، و بصورة أكبر في العالم العربي والإسلامي، لأسباب تاريخية عقدية وسياسية. و خلق وعي جديد في تعريف الذات، تزامن مع انبثاق شعور القلق من العولمة، واستقبلت الثقافة العربية كغيرها من الثقافات الأخرى هذا السياق الجديد بتباين في الرؤى و اختلاف في الموافق، تراوحت بين الرفض القاطع ودعوات القبول والانخراط. و انقسم الوعي العربي

¹ جون توملنسون: العولمة و الثقافة، تجربتنا الاجتماعية عبر الزمان و المكان، مرجع سابق، ص35.

² -جليلة المليح الواكدي: مفهوم الهوية، مساراته النظرية والتاريخية في الفلسفة وفي الأنثروبولوجيا، وفي علم الاجتماع، مركز النشر الجامعي، دط، منوبة، تونس، 2010، ص4.

الحديث إلى تيارين متضادين" يقضي أحدهما على الآخر، ويدعي احتكار الحقيقة، ثمة تيار يذهب إلى أنه لا سبيل إلا الاندماج التام والكلي في ثقافة الآخر. وثمة تيار يقول أنه لا سبيل إلى الاعتصام بالذات والاصطدام بالآخر، التيار الأول يدعو إلى الذوبان في الغرب، حيث تصبح الذات جزءا منه لفظا ومعنى وشكلا وحقيقة، بحيث ينبغي علينا أن نُشعر الغربي بأننا " نرى الأشياء كما يراها نقوم الأشياء كما يقومها ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها، " أما التيار الثاني فيعلن أن هدفه هو إيجاد هوية ثقافية صافية نقية، تنهل عناصرها من الماضي الذي هو بالنسبة له ذخيرة المعرفة الحقيقية، مورد اليقين الذي لا ينضب والمجال الذي ينبغي أن يتأصل فيه كل شيء"¹.

والملاحظ على أن هذا الفكر، يكاد يجمع ولو بدرجات متفاوتة، بالنظر إلى تعدد قناعاته وتياراته الفكرية" على أن العولمة عبارة عن مخطط أو إستراتيجية محددة، يتم العمل لتنفيذها بوعي من طرف الفاعلين والمنظمين لها في العالم المتطور، من خلال رجال السياسة و الإعلام وغيرهم، والغرض من كل ذلك هو السعي إلى نشر ثقافة الغرب على بقية العالم، ولهذا فقد أدخلت عند البعض نوعا من القلق المتعدد الجوانب، فيما يتعلق بانتمائهم و حضارتهم و قوميتهم، وكل ما يعبر عن خصوصياتهم وهويتهم، من خلال الترويج المستمر لفكرة إسقاط حدود الزمان و المكان، فهي تهدد الجغرافيا و التاريخ على حد سواء، فضلا عن الخصوصيات الأخرى."² وأن الخطر الأكبر في الثقافة المعولمة التي يجري تشكيلها عالميا يكمن" في قدرتها على الاختراق والتأثير بفعل

¹ - عبد الله ابراهيم: المطابقة و الاختلاف، ج1، المركزية الغربية، إشكالية التمرکزالتكون حول الذات، المركز الثقافي العربي، ط1، المغرب، 1997، صص 6-7

² - رضا شريف: الهوية العربية الإسلامية وإشكالية العولمة عند الجابري، مؤسسة كنوز الحكمة، دط، الأبيار، الجزائر، 2011، ص7.

مكوناتها الذاتية وجاذبيتها الخاصة¹، وفي سيطرتها على الإدراك وسلب الوعي والهيمنة الثقافية، بفعل سلسلة التدفقات الثقافية، و التمدد العالمي أحادي الجانب، ففي حال انعدام التكافؤ، يغيب الحديث عن الحوار و التبادل الثقافي، الأمر الذي يؤدي إلى إفراز تجانس ثقافي، وكيان ثقافي منمط. علاوة على أن مبدأ الكونية المقترن بقيم الليبرالية الغربية، يستند إلى نزعة مركزية وعرقية ثقافية، ومنظومة أيديولوجية تمركزت حول نفسها، و اختزلت الغربية إلى مكون هامشي يعيش التبعية. وعليه "استهجنّت النزعة الكونية كمشرع ثقافي سياسي واسع النطاق بسبب معارضته المفترضة للثقافة نفسها، التي تفهم هنا على أنها تتمحور حول الاختلاف، وهكذا فإن الثقافة كطريقة للحياة تفهم - بشكل أساسي في صيغة الجمع - على أنها محلية ومحددة و مقيدة بالمكان ومعبرة عنه، وتعد النزعة العالمية سيئة بالقدر الذي تهدد به تقويض هذه التعددية الطبيعية لطرق الحياة المختلفة"².

وعليه ، فإن الثقافات في حال اتصالها ثقافيا أو تعرضها للاختراق و التهديد، تقف أمام خيارات، هي:

- إما التخلي عن خصوصيتها والانخراط ضمن الثقافة المتفوقة؛ ففي غياب المحدد و المرجع الثقافي، يحصل تغيير وتفكك في البنية الثقافية، تنتج عنه ثقافة غير واضحة المعالم، لا تتلاءم مع النموذج الثقافي الخاص، قد تتطور إلى اجتياح ثقافي، يؤدي إلى تبعية الطرف المغلوب للغالب، وإلى اكتساب هوية جديدة مفككة، لا هي مرتبطة بالأصل، ولا هي متماهية مع الآخر، بمعنى حدوث تهجين ثقافي، هو ثمرة إضعاف واستبعاد الأنساق الأصلية، و استبدالها باستهلاك قيم مستعارة، مزقت النسيج الداخلي للمنظومة الثقافية الأصلية. وأدت إلى تفرغ الأنساق التقليدية من مضامينها و شحنها بمعان

¹ - تركي الحمد: الثقافة العربية في عصر العولمة، دار الساقى، ط1، بيروت، لبنان، 1999، ص21.

² - جون توملنسون: العولمة و الثقافة، تجربتنا الاجتماعية عبر الزمان و المكان، مرجع سابق، ص142.

مستوردة. ذلك أن المواجهة بين الثقافات المتباينة، تخلخل التصورات الثابتة للثقافة، وتقود إلى أزمة فكرية وروحية، تتأرجح خلالها الذات بين هوية مترسخة داخل تقليد ثقافي أصيل معاند يتمظهر روحيا و فكريا، وبين حداثة مفروضة من الخارج عابرة ملتبسة، لكنها ضرورية. وهو حال مجتمعاتنا العربية، التي لم تعرف ثقافتنا إلا بوصفها نزعة تجديد فوق محاكاتية، لا تأخذ في عين الاعتبار السياقات الثقافية الأصلية، ولا تعنى بالأسس القيمة، إنما تتصل أفقيا بالمؤثر الغربي الذي أنجز حدثه، وقد جاءت العولمة لتسويق صورة شائهة عن من التحديث الذي يقوم على تعميم نسق ثقافي ذي مرجعيات غربية على العالم، هذا الأمر يترك المجتمعات التقليدية في حيرة حقيقية¹.

إن تطبيق الحداثة الغربية في مجتمعنا العربي الإسلامي، بحذافيرها كما وجدت في منبتها الأصلي غير ممكن، فهي "لا تستطيع الدخول في حوار نقدي تمردى مع معطيات الثقافة العربية، لكونها لا تنتظم في تاريخها. إنها إذا تقع خارج تاريخها، لا تستطيع أن تحاورها حوارا يحرك فيها الحركة من داخلها، إنها تهاجمها من خارجها مما يجعل رد الفعل الحتمي هو الانغلاق والنكوص"².

أوقع هذا الوضع المضطرب مجتمعاتنا العربية في حالة انفصام هويي حاد، لوجود بعدين: "بعد تاريخي مبني على الذاكرة الجمعية، ويعبر عن جوهر ثابت دائم سكوني سرمدى، وآخر عملي نفعي يقيم في الحاضر معنا، وقد اقتحم بيوتنا و محيطنا و فكرنا، نحن نعايشه، ونتعامل معه الآن، ويتم من خلاله التعامل مع الواقع و صوغ أفكارنا و رؤيتنا للكون و الحياة، من جهة أخرى يلعب العامل النفسي للهوية التاريخية دورا بارزا

¹ - عبد الله إبراهيم: المطابقة و الاختلاف، ج1، مرجع سابق، ص86.

² - محمد أركون، قضايا في نقد العقل الديني، كيف نفهم الإسلام اليوم، تر: هاشم صالح، دار الطبعة، ط3، بيروت،

في جر الحركة إلى الورا، مما يؤكد القول: "إن مجتمعاتنا تسير ورؤوسها إلى الخلف"¹. و تعيش ازدواجا خطيرا، تختلط فيه قيم روحية حبيسة النصوص المقدسة و العادات و التقاليد، وقيم مادية هي نتيجة إفرزات المؤثر الغربي. فلم تعد قادرة على الدخول في قلب الحداثة، و لا الانفصال عن الماضي، و برغم أنها تحمل منظومة ثقافية و قيمية و دينية عريقة، لكنها لم تستطع انجاز فهم تاريخي لها و عجزت عن إدراجها في صلب السلوك الاجتماعي و الحياة بمختلف جوانبها، وعن إعادة إنتاج ماضيها بما يوافق حاضرها، و لا التكيف مع الحضارة الحديثة المنبثقة من القيم الغربية أساسا، فشهدت انفصالا بين القيم المتعالية و القيم الغربية.

- أما الخيار الثاني، فهو استيعاب ثقافة الآخر و اكتساب هوية مزدوجة و موسعة، إذا وسع الشخص فهمه لذاته و لغيره، بمعنى التوفيق التام بين "نحن" و "هم". انطلاقا من النظر إلى الذات و العالم، بمنظورات مختلفة عن المرجعيات التقليدية المتوارثة، تتسم بالثبات، و تنتج فكرا متجددا يتخطى الهوية الثابتة السكونية. فالحوار الثقافي، إذا آمن بحق الاختلاف و التعددية الثقافية، سيكون حافزا للبحث و إيجاد تركيب خلاق للأفكار المتباينة، و سيمكن لامحالة من إيجاد تلاقح بين الأفكار و التصورات المتأرجحة بين النزعة الكونية و المحلية.

وخلص النقاش حول عولمة الثقافة إلى بروز تيارات و مواقف متباينة، وهي:

- أن الثقافة لا تعولم، و عولمتها تعني هيمنة ثقافة معينة على الثقافات الأخرى، و هذه الهيمنة تستمد قوتها من مجال خارج الثقافة كالكنولوجيا و الاقتصاد أو القهر السياسي، باعتبار العولمة أيديولوجية إقصائية، تحاول بناء نظام يؤكد قيمها على حساب

¹ - تركي الحمد: الثقافة العربية في عصر العولمة، مرجع سابق، ص 68.

قيم الآخر، وهذا الأمر لا يخلو من مواجهة ثقافية و عسكرية، مادام هناك هيمنة و تسلط و احتكار. كما أنها ترفع شعار التوحيد في القيم والتصورات والسلوكيات و الغايات و المعتقدات، وتختزل العالم إلى مفهوم واحد منمط موحد، متجاوزة حقيقة أنه تشكيلات متنوعة من الثقافات و الانتماءات، وهذا التوحيد و التضيق سيؤدي إلى تفجير النزاعات وتأجيج الصراعات و إحياء العصبية و الخصوصيات "إن القرن العشرين كان و بحق قرن التنازع والتناحر الدموي، بين ثقافات تبنت مروياتها الكبرى على أساس ما يجب أن يكون عليه الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي لمجتمعاتها، ولم تكتفي بعض المجتمعات بتبني مرويات شمولية معينة، بل حاولت تصديرها وفرضها بالقناع و بالقوة على مجتمعات أخرى مغايرة و متباينة في الثقافة و البعد التاريخي والسوسيولوجي،.حيث أنها تصبح مركزا لصراع القوى و الهيمنة"¹. وعليه، لن تكون ثمة ولادة ثقافية طبيعية عالمية، طالما أن العملية قسرية. ففي حال الإكراه تنمو آليات دفاعية لمواجهة الضغط والهيمنة، والحفاظ على النسق الثقافي التقليدي السائد، فضلا على أن مبدأ الكونية يقتضي أن يضع كل طرف نفسه في موضع الأطراف الأخرى، وأن يقر بالنقد المتبادل كشرط لقيام تفاهم متبادل، و حصول اتفاق في وجهات النظر، لا أن تكون الثقافة معطى جاهزا، ملزما للجميع. فدون اختلاف لن تكون الكونية سوى شكلا من أشكال الكليانية.

إن ادعاء العولمة" بتشكيل عالم تتوحد فيه المفاهيم والقيم و الأهداف يتضمن مغالطة،ذلك أنه في إطار فرضية التقارب التي تقول بها العولمة، تكمن سلسلة من ضروب التنافر وعدم الانسجام التي تقوض تلك الفرضية، فالحث على استيراد نماذج غريبة من قبل المجتمعات التقليدية يفصح عدم اتساق تلك النماذج مع نسق القيم

¹ - معن الطائي: المرويات الكبرى وجماليات تزييف الواقع في الثقافة الكولونيالية. <https://m.ahewar.org> /24-04 .2006

الأصلية في تلك المجتمعات، وإلى جانب أن تحريض تلك المجتمعات على التكيف مع القيم الغربية يجدد الآمال برود فعل خطيرة وغير محسوبة.¹

لقد ركزت حركة ما بعد الحداثة على تفكيك المرويات الثقافية الكبرى ذات الطابع الشمولي، التي احتكرت لنفسها الحقيقة، وحق تهميش الآخر المختلف. واجتهدت في كشف الزيف والمراوغة، وطرق التستر عليها، وفضح جماليات تزييف الواقع و تميطة، وكل ما تتطوي عليها الأفكار التنويرية و النزعة العقلية والإنسانية المخادعة، تلك الشعارات البراقة التي تتدثر بها الثقافة المعولمة و تقدمها بوصفها الواجهة للوعي الجمعي الغربي. واعتبرت تفكيكها خطوة حتمية في سعيها "إلى رفض الثقافة الغربية الليبرالية، وفضح ما تدعيه تلك الثقافة من عقلانية زائفة، ومحاربة النزعة الهيمنة و الشمولية الإنسانية التي تحاول تلك الثقافة أن تدعيها، فهي حركة تفتح على الآخر، وتؤمن بالتعدد و التنوع، وتتسع لتستوعب جميع الثقافات الإنسانية كما هي عليه، لا كما تحاول أن تعيد هي بناءه"².

ومن جانب آخر أكثر إيجابية، أيقظت العولمة الثقافية الهويات من سباتها، وأخرجتها من دائرة الجمود والإهمال إلى دائرة التذكر و الاهتمام، فاندفعت هذه الهويات تدافع عن نفسها، وتعرض وجودها، وحقها في الحماية والبقاء، في سابقة لم تحصل من قبل بهذه الصورة، وعادت الجماعات البشرية إلى جذورها و أصولها تبحث عن الثوابت والسمات اللغوية والعرقية والدينية، التي تمنحها نوعا من التمايز ترتفع به عن غيرها، و تعطيها معنى يشرح دلالات حياتها، وهوية تمنحها الفرادة و الحصانة الذاتية " فالهوية ترتبط

¹-برتراند بادي: الدولة المستوردة، تغريب النظام السياسي، تر: لطيف فرج، العالم الثالث، دط، القاهرة ، 1996، ص05.

²- معن الطائي: المرويات الكبرى وجماليات تزييف الواقع في الثقافة الكولونيالية. <https://m.ahewar.org> /24-04 .2006.

إجرائيا بخصائص الاختلاف والتميز بين عناصرها وعناصر ثقافة أو حضارة أخرى، أو أثنية، وتبدو تحديدا معبرا عن غيره من المقابلات في تلك الحضارات في الشكل والمضمون بالمعنى الذي يخدم ديناميتها، إظهار ذاتها في مقابل ذوات أخرى¹.

وأنبأت هذه العودة بفشل الثقافة المعولمة في تحقيق الدمج الثقافي الكلي، لأن الثقافة المعولمة" تفتقر بالضرورة إلى المكونات الحيوية للتجربة التاريخية المشتركة وإلى الإحساس بالتواصل الزمني، وبشكل حاسم إلى الذكريات المشتركة"².و" دفعت إلى الاعتقاد بأن طريق العولمة، باعتبارها إيديولوجية التجانس الكلي إلى الانتشار" وعرة رغم كل المؤشرات الدالة على تمكن بوادرها من الإنسانية عامة، لأنها تصطدم بالإنسان الفرد في أعماق محددات كيانه وهويته رغم المغريات وعالم الأوهام و الأحلام الذي تحمله إليه. و الإنسان لا يمكن إلا أن يكون واحدا وحيدا. ووحدايته من خصوصيته التي ترفض الذوبان و الانصهار في واحد منمط متجانس، محدود المعالم مقولب في علب جاهزة للبيع و الشراء. فالإيديولوجيات التقليدية بما في ذلك الأديان السماوية و الوضعية قد سعت إلى اختزال الإنسان بعولمته فتحا و غزوا، لكنها أذعننت لواقع التمايز و التغير و تخلت عن توق طوباوي إلى تملك الإنسان مقولبا في شكل واحد لا يفارقه"³، إذ لا يجب تجاهل الجوانب المتعددة للتجربة الثقافية، وارتباطات الشعوب بالسياق المحلي و توجهاتهم الدينية والعرقية والفكرية، و سلطة الأنساق التقليدية والمرجعيات الدينية والثقافية التي تقودهم و تشكل وعيهم ووجودهم المتميز. و عليه يجب الاعتراف بأن لكل فرد تجربة ثقافية خاصة تمنحه معنى، ولكل جماعة ثقافة وذهنية خاصة تجد فيها نفسها و منابع وجودها.

¹ - عبد الله ابراهيم: المركزية الغربية، إشكالية التمركز والتكون حول الذات، مرجع سابق، ص 6-7.

² - جون توملنسون: العولمة و الثقافة، تجربتنا الاجتماعية عبر الزمان و المكان، مرجع سابق، ص 138.

³ - جفال سامية: التجلي الثقافي لفلسفة العولمة المعاصرة، هل تقبل الثقافات التعولم ؟ حوليات جامعة الجزائر1، العدد33، الجزء الأول، مارس2019، ص773.

ومن هنا تصبح حماية التعدد والتنوع الثقافي و تنميته، و الإقرار بحق الجماعات الأقلية في الوجود و التعبير الحر ضرورة، وحاجة ملحة للخروج من الفضاء الخاص وتشكيل هوية مفتوحة. فبدلاً للبوتقة الصاهرة ظهرت مقولة المجتمع "صحن سلطة" المتنوع شكلاً ولونا و مذاقاً و مفعولية، وهو المجتمع الذي يعترف بواقعية الحالة البشرية، حيث يأتي التكوين بناء على التنوعيات الأصلية التي لا تنمحي، وتظل تحمل سماتها و صفاتها مهياً للصراع مثلما هي قابلة للتعايش، في ثنائية الصراع – التعايش تسير الثقافة مدفوعة بهذا تارة و بذاك أخرى"¹.

وهي وإن نجحت نسبياً في توحيد العالم حضارياً "بفعل التقنيات الجديدة، فلا يعني ذلك أنها ستوحده ثقافياً أو ستقضي نهائياً على الخصوصيات الثقافية، فما دام المرء يفكر و يتكلم أو يرمز و يتخيل فهو يتفرد عبر أعماله الإبداعية و ابتكاراته الأصلية. بهذا المعنى لن تصبح الثقافة واحدة حتى داخل الولايات المتحدة التي تصدر قوى العولمة، بل سيبقى المجال مفتوحاً أمام التكوثر المعرفي المتباين، و التباين الدلالي والتنوع البشري الخلاق"². و دول العالم التي تتدافع و تتنافس على الأخذ بسلع و منتجات وخدمات العولمة الاقتصادية، تبدو أقل اندفاعاً و إقبالاً، وحتماً أكثر تردداً و تمهلاً في اندفاعها نحو مفاهيم وقيم و أفكار العولمة الثقافية.

ويكاد يتفق غالبية الباحثين على أن الخوف الهوسي "من نتائج العولمة قضية مبالغ فيها، فمهما بلغت العولمة من شمولية ثقافية، فإنها لن تلغي الخصوصيات الثقافية تمام الإلغاء، فكما أنه لم يكن هناك ثقافة أصلية نقية تمام النقاء (خصوصية صرفة) في أي

¹ - عبد الله الغدامي: القبيلة و القبائلية أو هويات ما بعد الحداثة، المركز الثقافي العربي ، ط2، الدار البيضاء ، المغرب، 2009، ص44.

² - علي حرب: صدمة العلمنة في نظام النخبة، جريدة السفير، العدد 8012، 06 حزيران 1998، ص96.

مجتمع أو جماعة عبر التاريخ، فإنه لن يكون هناك ثقافة عالمية ملغية تمام الإلغاء للخصوصيات المحلية. بل إن العملية سوف تكون على مسارين للتفاعل و التداخل¹.

وهنا تطرح قضية النسبية الثقافية كحل لإشكالية العلاقة بين النموذج الثقافي المعولم و الخصوصيات الثقافية القومية، لإيجاد توازن بين محاولات الاندماج الكلي في الثقافة الكونية و التنوع الثقافي. فبدءا من النصف الثاني من منتصف القرن العشرين، ارتبط مفهوم الثقافة بقيم و مبادئ الديمقراطية و حقوق الإنسان، الأمر الذي دفع إلى إثارة تساؤلات عديدة حول مصير ثقافات الشعوب المغايرة للثقافة الغربية باعتبارها الأكثر تفوقا، وظهرت دعوات تنادي بضرورة الاعتراف لجميع الثقافات البشرية بالاختلاف الثقافي و المساواة و التكافؤ، و ساد الاعتقاد بالحرية الثقافية، واحترام التنوع الثقافي، و الحق في الاستفادة من التراث الثقافي المشترك للبشرية جمعاء، و تم التأكيد على " أن إتباع النسبية الثقافية يمكنه تعزيز حقوق الإنسان و حمايتها و صونها، من خلال تعزيز التقاليد و التراث و الأعراف و القيم و الموروث الحضاري و الطقوس القديمة، التي تحافظ على قومية الثقافة و خصوصية المثقف و هوية الثقافة في ظل المواجهة المحتدمة مع الثقافة الكونية، و هذا يقدم الالتزام بحقوق الإنسان في إطار التنوع الثقافي، كضمان لعدم فرض معيار واحد و السماح بتعدد المعايير الثقافية و منح الحماية الكافية للثقافات².

الأكد أن العولمة حقيقة وواقع، وأن العالم يمر الآن بمرحلة تاريخية انتقالية، تشوبها الفوضى و التناحر إلى جانب التقارب و التداخل الثقافي العالمي، بدت فيها الجوانب المادية و التقنية أكثر بروزا و تسارعا و انتشارا، مقارنة مع العناصر اللامادية التي تحتاج

¹ - تركي الحمد: الثقافة العربية في عصر العولمة، مرجع سابق، ص18.

² - مفيد كاصد ياسر: الخصوصية في مواجهة المركزية الغربية، مجلة آفاق عربية، العدد7-8، تموز، آب، 1996، ص74.

إلى زمن، فلا يمكن إغفال أن ثمة أساليب وممارسات و أذواق وعلامات تجارية ورموز ثقافية شعبية تماثلت عالميا شملت الطعام واللباس و فنون العمارة والموسيقى والأفلام...، ويمكن معها القول إن تفاعلنا مع هذه السلع الثقافية متغلغل في عوالمنا. ومع ذلك، لا ينبغي اختزال الثقافة في بعدها المادي فقط " إن مكونات النسق الثقافي رغم حالات الاهتزاز و الاختلال التي يمر بها، فإنه قد يكون قادرا على إعادة التوازن لمركباته و عناصره الثقافية الداخلية، أو إنه قد يكون قادرا على إعادة إنتاجها أو إنتاج نفسه، بأشكال و نماذج، يعيد إليها قدرا من التماسك و الصمود و الاستمرار في مواجهة الآخر، أو إنه قد يكون قادرا على إعادة إنتاج المركبات و العناصر المنظومات و الرموز الكونية في مكونات خطابه الثقافي أو السياسي أو الاجتماعي المحلي أو المغرق في المحلية"¹. وفي الوقت الذي تطبع فيه الثقافة المعولمة البعض بقيمها، فإنها تلقى رفضا من البعض، يتخذ أشكالا عدة منها العزلة والتطرف والعنف، تعزز فرضية استحالة قيام ثقافة العولمة، فالثقافة قادرة على الاحتفاظ بتنوعها بوسائل عديدة، طالما بقيت الفروق البشرية واختلاف المواقع و التجارب و التاريخ.

لكن ينبغي التنبيه إلى أن التشكيك في ظهور ثقافة عالمية واحدة متسقة، لا يعني أن العولمة متحررة تماما من الهيمنة وأنها تحرص على الاختلافات الثقافية، إنها عملية معقدة تتجاوز التقدم الغربي أحادي المسار.

¹- تركي الحمد: الثقافة العربية في عصر العولمة، مرجع سابق ، ص3.

الفصل الأول:

في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة ، العولمة الثقافية،

الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم و الماهية.

المبحث الأول: في ماهية العولمة و مؤسساتها.

المطلب الأول: إشكالية مصطلح العولمة.

أولاً: المفهوم اللغوي للعولمة.

1 - في اللسان العربي.

2 - في اللسان الأجنبي.

ثانياً: المفهوم الاصطلاحي للعولمة.

1- مفهوم العولمة السياسية.

2- مفهوم العولمة الاقتصادية.

3 - مفهوم العولمة الإعلامية.

المطلب الثاني: آليات العولمة و مؤسساتها.

أولاً: الآليات الاقتصادية.

1 - في الشركات المتعددة الجنسيات.

2 - البنك الدولي.

3 - صندوق النقد الدولي.

4- منظمة التجارة العالمية.

ثانياً: الآليات السياسية:

1- حقوق الإنسان

2- الديمقراطية.

ثالثا: الآليات الإعلامية:

1 - الأنترنت.

2 - القنوات الفضائية.

المبحث الثاني: في ماهية العولمة الثقافية و علاقتها بالهوية.

المطلب الأول: في تعريف الثقافة.

أولا: المفهوم اللغوي للثقافة

1- في الفكر العربي.

2- في الفكر الغربي.

ثانيا: المفهوم الاصطلاحي للثقافة.

1- في الفكر العربي.

2- في الفكر الغربي.

ثالثا: في ماهية العولمة الثقافية.

المطلب الثاني: في ماهية الهوية الثقافية.

أولا: المفهوم اللغوي للهوية

ثانيا: المفهوم الاصطلاحي للهوية

ثالثا: مفهوم الهوية الثقافية

المطلب الثالث: آليات العولمة الثقافية.

أولا: الثقافة المصنعة.

ثانيا: الثقافة العالمية المعولمة.

ثالثا: الثقافة الاستهلاكية؟

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

المبحث الأول: في ماهية العولمة.

المطلب الأول: إشكالية مصطلح العولمة:

أولاً: المفهوم اللغوي للعولمة:

1- في اللسان العربي:

العولمة كلمة مستحدثة، لم يرد ذكرها في القاموس اللغوي العربي القديم. وقد أخذ هذا اللفظ من الفعل عولم على وزن فوعل، وهو فعل ثلاثي مزيد بحرف واحد، جاء المصدر منه "عولمة" على وزن فوعلة"، وكلمة "عولمة" نسبة إلى العالم -بفتح العين -أي الكون - و ليس العلم -بكسر العين - و العالم جمع لا مفرد له كالجيش و نفر، و هو مشتق من العلامة على ما قيل: مشتق من العلم، و ذلك تفصيل مذكور في كتب اللغة. العولمة كالرباعي في الشكل فهو يشبهه (دحرجة) المصدر، لكن دحرجة رباعي منقول، أما عولمة فرباعي مخترع، إن صح التعبير، و هذه الكلمة بهذه الصيغة الصرفية لم ترد في كلام العرب، و الحاجة المعاصرة قد تفرض استعمالها. و هي تدل على وضع الشيء على مستوى العالم، فأصبحت دارجة على ألسنة الكتاب والمفكرين في أنحاء الوطن العربي¹، لتعني تعميم الشيء و توسيع دائرته ليشمل العالم كله.

والدلالة اللغوية للعولمة لا تخرج عن كونها جعل الشيء مادة العولمة عالمياً، وإضفاء صفة العالمية عليه، يقال: "عولم الشيء" أي جعله عالمياً².

¹ - محمد عابد الجابري: العولمة و الهوية الثقافية عشر أطروحات، ندوة العرب و العولمة، بحوث و مناقشات الندوة الفكرية، مركز دراسات الوحدة العربية، تحرير: أسامة أمين الخولي ، ط1، بيروت ، لبنان، 1998. ص135.

² - ممدوح محمود منصور: العولمة، دراسة في المفهوم و الظاهرة و الأبعاد، دار الجامعة الجديدة ، دط، 2003، ص11.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

والمفيد أن صيغة فوعل تفرض وجود فاعل يفعل، فهي تحتاج لمن يعممها على العالم، كما أنها من الأوزان التي تدل على القسر و الجبر الذي لا مفر منه إلا بالاختراع " إن مصطلح العولمة ذاته شاهد على أنها قسر و هو لا حرية فيه ولا اختيار،فهو مثل غيره من المصطلحات التي أتت و تأتي على " وزنه الصرفي" -فعله -... من مثل "القولبة" أي القسرو القهر على قالب غير ملائم-.. و"الفرنسة" -أي على القهر أن يصبح غير الفرنسيين فرنسيين-... ومثل ذلك "الروسنة" -جعل غير الروس روسا - ..و"الجلترة"- جعل غير الانجليز انجليزا -..و"الأمركة" .. وكذلك "الفبركة" ..و"العكننة" .. و"الشوشرة" ..إلى آخر ما يأتي على هذا "الوزن الصرفي" من مصطلحات ¹.

2-العولمة في اللسان الأجنبي:

عرفت العولمة في اللغة الفرنسية بلفظة Mondialisation، وفي الإنجليزية بلفظة Globalisation، وقد تباينت مفاهيم اللفظتين عندهما. وذكر حسن حنفي أنه " قد تم نقل لفظ Globalisation إلى الفرنسية " Mondialisation"، و لم يكن في ذلك قصور في اللغة الفرنسية، بل لفظ العولمة اشتقاق من العالم الذي يقابله "World"، و ليس الكوكب الذي يقابله "Globe" والبعض يفضل الكوكبة على لفظ العولمة ².

وأكد الجابري على أن مصطلح العولمة، هو ترجمة لكلمة "Mondialisation" التي تعني جعل الشيء على مستوى عالمي، أي نقله من المحدود المراقب إلى اللامحدود

¹ محمد عمارة: مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع، ط1، مصر، 1999، ص ص 14-15.

² - حسن حنفي: ما العولمة ؟ دار الفكر المعاصر، ط1، بيروت، لبنان، 1999، ص 21.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

الذي ينيء عن كل مراقبة، والمحدود هنا أساسا هو الدولة القومية، أما اللامحدود فالمقصود به العالم.¹

و تجاوز إسماعيل صبري عبد الله هذا المفهوم، وحصر دلالة المصطلح الفرنسي في البعد الجغرافي والإقليمي، و رأى أن "الكلمة الفرنسية "Mondialisation"، و الكلمة المرادفة لها في اللغة الأجنبية مثل "Universel" و "Planétaire" تدل كلها على النطاق الجغرافي والإقليمي، أما الكلمة الانجليزية "Globalisation" فتدل على وجهة نظر إستراتيجية و جغرافيا اقتصادية "Economie" ولها دلالة أوسع من الكلمة الفرنسية، فهي تعني انتشار مظاهر الحضارة في العالم أجمع²، فالعولمة بالمصطلح الانجليزي أشمل من ذلك، فهي الكرة الأرضية أو الكوكب الذي نعيش فيه.

و أيا كان المصطلح الكونية، الكوكبية، الشمولية، أو العولمة، فإنها تحمل معنى الانتشار و التعميم لنمط معين، و توسيع دائرة استخدامه، بحيث يسود العالم في النهاية، و في هذا تجاوز لطابع المحلية، و تحليق في آفاق العالم و كسر لحيز المحدود، و خروج إلى اللامحدود.

العولمة في اللغات الأوروبية سلوك و ممارسة على المستوى العالمي، يطمح إلى تسيير العالم في وجهة واحدة، في إطار حضارة واحدة، لتحقيق الوحدة الكونية، أو الكوكبية و إضفاء الطابع العالمي بدل المحلي أو السكوني على كل الأنشطة الإنسانية فعندما

¹ - محمد عابد الجابري: قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط2، بيروت، لبنان، 2003، ص136.

² - إسماعيل صبري عبد الله: الكوكب الرأسمالية، المرحلة الإمبراطورية، كتب الوحدة العربية، ط1، بيروت، لبنان، 1999، ص44.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

يذكر مصطلح العولمة "Globalisation" فإنه يجعل الذهن يتجه إلى الكونية أي الكون الذي نعيش فيه، و إلى وحدة المعمورة من الكوكب الذي نعيش فيه¹.

و يمكن القول أن العولمة نظام يعمل على تخطي العالم و صهره في بوتقة واحدة، من خلال فرض نموذج معين و تعميمه ، و هي رسمة للعالم. يشمل هذا النموذج الأنماط الفكرية و السياسية و الاقتصادية و الثقافية لجماعة معينة هي حتما الأقوى، وبهذا يصير المحلي عالميا، و يندمج الكل في خضم حضارة عالمية واحدة.

ثانيا: المفهوم الاصطلاحي للعولمة:

لأبد من الاعتراف أولا أن الاتفاق على تعريف دقيق و شامل للعولمة مسألة شاقة وأمر عسير، ذلك أنها عملية معقدة وظاهرة متعددة الأبعاد، تتشابك فيها وتتفاعل مجموعة من العمليات ذات امتداد عالمي. وهي حصيلة تطورات متتابعة و عمليات متداخلة متعددة الوجوه، وفضاء للتفاعل و إعادة التشكل، تعيش حالة من السيولة و عدم الثبات. فهي إذن مسارو ديناميكية كوكبية تاريخية تحديثية، و ليست مجرد مفهوم محض. لذلك يرى روزناو أنه "من المبكر وضع تعريف كامل و جاهز يلائم التنوع الضخم لهذه الظواهر المتعددة، فعلى سبيل المثال يقيم مفهوم العولمة علاقة بين مستويات متعددة للتحليل: الاقتصاد، السياسة، الثقافة، الأيديولوجيا، و تشمل إعادة تنظيم الإنتاج و تداخل الصناعات عبر الحدود، و انتشار أسواق التمويل و تماثل السلع المستهلكة لمختلف الدول، نتائج الطرح بين المجموعات المهاجرة أو المجموعات المقيمة"².

¹ -محسن الخضيرى: مقدمة في فكر و اقتصاد و إدارة عصر الدولة، مجموعة النيل العربية للنشر، ط1، القاهرة، 2000، ص 119.

² -ينظر: السيد ياسين: في مفهوم العولمة، ندوة العرب و العولمة، بحوث و مناقشات الندوة الفكرية، مركز دراسات الوحدة العربية، تحرير: أسامة أمين الخولي، ط1، بيروت، لبنان، 1998، ص 26.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

وعليه فإن فهم العولمة فهما دقيقا، يفرض استكشاف القوانين المتحركة بمسيرتها والإسهام في تشكيلها، خاصة في ظل الجدل القائم حولها، لأنها ظاهرة غير مكتملة تكشف يوميا عن الجديد، لها تاريخ قديم، لكنها ذات أبعاد و ملامح جديدة و عميقة " العولمة في الحقيقة نظام عالمي جديد له أدواته ووسائله وعناصره و ميكانيزماته و منجزاتها حصيلة تاريخية لعصر تنوعت فيه تلك التطورات، التي ازدحم بها التاريخ الحديث للإنسان -هكذا تأتي فلسفة "العولمة" لتجسيد حصيلة كل ما حفل به التاريخ الحديث للبشرية لتأسيس تاريخ عولمي جديد للإنسان"¹.

إن العولمة بوصفها ظاهرة كونية هي حصيلة مسيرة تاريخية وحصاد تقدم إنساني، شاركت فيها حضارات و شعوب متعددة، وهي عملية تكاملية وحدث كبير لا سبيل للتخلص منه و لا جدوى من تجاهله و القفز فوقه، والأمنع و الأجدر قراءته و تفسيره، و سبر أغواره للتمكن من التعامل معه تعاملًا صائبًا "تفرض العولمة نفسها على أهل الثقافة و الفكر الذين ينشغلون بالظاهرة بقدر ما يختلفون حول معنى المفردة، ذلك أن العولمة ليست شيئًا بسيطًا يمكن تعيينه ووصفه بدقة، بقدر ما هي عمليات تاريخية تتجسد في تحريك المعلومات والأفكار و الأموال و الأشياء و حتى الشخصيات، بصورة لا سابق لها من السهولة والآنية و الشمولية والديمومة"². فنحن اليوم نعيش حدثًا كونيا، و قفزة حضارية على درجة من الكثافة و التعقيد، انفتحت على كافة الاتجاهات و المجالات، أصبح فيها العالم سوقا للتبادل و مجالا للتداول الاقتصادي والثقافي والاجتماعي و السياسي، واتجه إلى الوحدة الكونية أكثر من أي وقت مضى، وأعيد فيه تشكيله و إنتاج الحقيقة و الثقافة،

¹ - سيار الجميل: تعقيب على مداخلة السيد ياسين، ندوة العرب و العولمة، بحوث و مناقشات الندوة الفكرية، مركز دراسات الوحدة العربية، تحرير: أسامة أمين الخولي، ط1، بيروت، لبنان، 1998، ص 38.

² - علي حرب: حديث النهايات، فتوحات العولمة و مآزق الهوية ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، المغرب، 2004، ص 29.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

ورسم أبنيته ونظامه، نحن اليوم إزاء إمكانيات جديدة للحياة، تنبثق و تتجدد على نحو لا نظير له ولا سابق له.

وفقد اتفق غالبية المفكرين و الفلاسفة على أن العولمة عملية و نظام عالمي يسعى إلى إدماج الإنسانية ضمن إطاره،من خلال توحيد القواعد و الممارسات و القيم نحو الثقافات،وهذا الفعل يقود إلى الاعتقاد أن هناك ميلا نحو التوحيد في الوعي و الإنتاج و السلوك والاستهلاك،و يؤدي إلى نشأة كيان عالمي موحد، توظف لتحقيقه مفاعيل هائلة،وتقام علاقات متعددة بين مستويات مختلفة متداخلة تشمل مجال المال والاتصالات و التسويق والسياسة و الفكر و الإيديولوجيا،والاجتماع،ويتحول فيها العالم إلى محطة تفاعلية كونية يتماشى فيها الكل مع الواحد، ويسيطر فيها نموذج واحد، هو نموذج المركز القوي.لذلك حذروا منها،وعدوها نظاما شموليا ذا أيديولوجيا تنميطية،تطيح بالحدود والخصوصيات، ويتجاوز كل ما هو خاص وداخلي، و يدفع الشعوب و الحضارات إلى المستوى العالمي الكوني.وعلى هذا الأساس تنتقل الحضارات من حالة الاختلاف و التمايز إلى حالة التماثل و التنميط.وذهبوا إلى اعتبارها "العمل على تعميم نمط حضاري يخص بلدا بعينه هو الولايات المتحدة الأمريكية بالذات على بلدان العالم أجمع. ليست العولمة مجرد آلية من آليات التطور التلقائي للنظام الرأسمالي، بل إنها أيضا و بالدرجة الأولى دعوة إلى تبني نموذج معين وبعبارة أخرى، فالعولمة إلى جانب أنها تعكس مظهرا أساسيا من مظاهر التطور الحضاري الذي يشهده عصرنا،هي أيضا إيديولوجيا تعبر بصورة مباشرة عن إرادة الهيمنة على العالم و أمرته"¹.

¹ - شريف رضا: الهوية العربية الإسلامية و إشكالية العولمة عند الجابري، دار كنوز الحكمة، دط، الجزائر، 2011، ص 39.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

و يرى السيد ياسين أنه "لكي نقرب إلى التعريف الشامل للعولمة، لا بد أن نضع في الاعتبار ثلاث عمليات تكشف عن جوهرها:

-العملية الأولى:تتعلق بانتشار المعلومات، بحيث تصبح مشاعة لدى جميع الناس.

-العملية الثانية: تتعلق بتذويب الحدود ما بين الدول.

- العملية الثالثة: وهي زيادة معدلات التشابه بين المجتمعات و المؤسسات¹.

فالفهم الحقيقي للعولمة ينطلق من إزاحة الحدود الجغرافية بمساعدة الثورة التقنية و التكنولوجيا في وسائل الاتصال، التي مكنت الجميع في أصقاع المعمورة من الحصول على المعلومات بأقصى سرعة و بأقل جهد و تكلفة، الأمر الذي سيزيد في معدلات التشابه والتقارب بين المجتمعات، ويهدد الخصوصيات الثقافية للشعوب و يحدث شروخا في نسيجها الهوياتي.

1- مفهوم العولمة السياسية:

تنفرد الدولة بمفهومها القومي عن غيرها من التنظيمات السياسية و الاجتماعية بمبدأ السيادة، التي تعني تمتعها بالسلطة العليا المستقلة، بموجبها تنظم الدولة شؤونها داخليا وخارجيا، وبها تحفظ وجودها وتؤكد ذاتها في المجالين المحلي و الدولي، و بموجب هذه السلطة يخضع الأفراد لقوانينها "إن الدولة ذات السيادة هي ذلك المجتمع السياسي الذي تجمع الهيئة الحاكمة فيه كافة مظاهر السلطة من داخلية و خارجية، بحيث لا يعلو على سلطتها سلطان، و بمعنى آخر هو إمكانية الدولة أن تقرر ما تريده، سواء في المجال

¹ -السيد ياسين: في مفهوم العولمة، ندوة العرب و العولمة ، مرجع سابق ، ص 27.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

الداخلي أو الخارجي¹. فالسيادة تعني قدرة الدولة على التنظيم و الهيكل الذاتية، و على وضع دستورها و سن قوانينها الخاصة، و تحديد نظام حكمها و سيطرتها على مواردها و سكانها، كونها الوحدة الارتكازية لكل القرارات والنشاطات و التشريعات.

وقد شهد العقد الأخير من القرن العشرين تحولات دولية كبيرة بفعل العولمة، ارتبطت بالاقتصاد والثورة الإعلامية و التكنولوجية، و أثرت في مفهوم السيادة الوطنية داخليا و خارجيا، و أسفرت عن سقوط الحدود السياسية والجغرافية للدولة الوطنية والقومية، وبرزت أشكال جديدة من العلاقات و التفاعلات بين الدول؛ بين أطراف حكومية و أخرى غير حكومية، و بفعل هذه التغيرات الدراماتيكية المتسارعة التي تشهدها الساحة السياسية في العالم، تمددت العولمة السياسية على الصعيد العالمي" وتضمنت حدوث زيادة غير مسبوقه في الروابط السياسية بين دول العالم"². و تجاوزت نطاق الدولة القومية التي ترتبط بمكان جغرافي معين و قوانين خاصة، و أجبرتها على التنازل قهرا عن جوانب من أدوارها التقليدية محليا وعالميا لصالح الدول العظمى المسيطرة على التوجهات و القرارات السياسية العالمية، و لصالح تنظيمات و تكتلات و تجمعات عالمية. و تحت نفوذها استباحت سيادتها الإقليمية و اخترقت حدودها السياسية لمصالح السياسة العالمية، فالعولمة" لا تقر بالوطن باعتباره الفسحة الوحيدة المتاحة، التي يستطيع فيها الناس ممارسة حقوقهم السياسية كاملة، كما أنه وبتحليل الخطاب السياسي في ظل العولمة، يمكن ملاحظة خلوه من كلمة استقلال أو كلمة وطني أو كلمة تقرير المصير"³.

¹ - ابن عامر تونسي: قانون المجتمع الدولي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية ، ط5، الجزائر، 2004، ص 90.
² - عبد الله عبد الخالق: العولمة جذورها، فروعها، كيفية التعامل معها، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد28، 1999، ص 12.

³ - أمل عبيد: العولمة و تطورات العالم المعاصر، مجلة الحوار المتمدن ، العدد 178، 2007، العراق، ص17.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

ويشير مفهوم العولمة السياسية إلى أنها:

1- نظام يتعدى الحدود الوطنية للدولة، ليس فقط عبر الأنظمة التكنولوجية الحديثة، ووسائل الاتصال، و إنما عبر فرض أنماط معينة من النظم الديمقراطية.

2- هي ظاهرة قائمة على التفكيك والتجميع، وإعادة الترتيب للوحدات الدولية لتسهيل إعادة تشكيل النظام العالمي بحيث يعم النموذج الديمقراطي الغربي على كل دول العالم.

3- التدخل في الشؤون الداخلية للدول من خلال وضع آليات مراقبة وإقرار معاهدات تضمن حق التدخل في القضايا الأساسية، وحتى الشؤون السياسية و الاقتصادية والاجتماعية للدول و الشعوب¹. وهي بهذا المفهوم تعني دخول البشرية في مرحلة سياسية جديدة، تتجاوز فيها الدولة النطاق السياسي المحلي إلى نطاق عالمي بلا حدود سياسية. فالسياسة في كل أرجاء العالم أصبحت مترابطة، و القرارات التي تتخذ في دولة ما سرعان ما تنتشر في كل دول العالم و تستحوذ على الاهتمام بحكم الرابط العالمي "معتمدة في ذلك على العامل التكنولوجي، لا على روابط الحوار الجغرافي أو الثقافة الوطنية، وعليه فقد أدت الثورة في تكنولوجيا المعلومات والاتصال إلى التقليل في اعتبارات الجغرافيا السياسية، زيادة على مضاعفة إمكانات و قنوات التفاعل داخل النظام الدولي"²، كما تعني تآكل الدولة الوطنية وإرباكها، وتراجع سلطتها لصالح منظمات ومؤسسات عالمية "إنها تقلص فاعلية الدولة و تقليل دورها، واعتبار الشركات متعددة الجنسيات، والمنظمات العالمية شريكا للدولة في صنع قراراتها السياسية، وهذا يعني أن مبدأ السياسة أخذ بالتآكل،

¹ - حسن عبد الله العايد: انعكاسات العولمة على السيادة الوطنية ، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر و التوزيع ، دط، الأردن، 2008، ص 42.

² - فاطمة قوال: "مفهوم السيادة في ظل المجتمع المعلوماتي"، مجلة فكر مجتمع، الجزائر، طاكسيج كوم للدراسات و النشر و التوزيع، الجزائر، عدد16 شهر أفريل، 2013، ص 215.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

نتيجة علاقات الدول فيما بينها في مختلف مجالات الحياة، و تصبح حرية الدول بحسب مشيئتها ناقصة، لذا فالعولمة السياسية تعني نقلا لسلطة الدولة واختصاصها إلى مؤسسات عالمية، تتولى تسيير العالم و توجيهه، و هي بذلك تحل محل الدولة و تهيمن عليها¹.

ولا شك في أن انتشارها عالميا مقترن بالنموذج الفكري السياسي الليبرالي الحر، الذي راج في العالم عقب انهيار الاتحاد السوفيتي و فشل الفكر الاشتراكي والنظام الشيوعي "فالعالم اليوم منجذب للنموذج الليبرالي الذي يؤكد على حقوق الإنسان، و حرياته السياسية و المدنية أكثر من انجذابه لأي نموذج حياتي وفكري آخر. إن الحرية هي الآن القيمة الصاعدة عالميا وستستمر في الصعود مستقبلا، بعد أن تراجعت معظم النماذج السياسية و الفكرية الأخرى"². وهو آخذ في الانتشار في العالم مدعوما بقدرات الدول المتقدمة والمجتمعات الصناعية، و بنجاحاتها في تطبيقه واقعا في أرضها و على مواطنيها، وبالحق في مجال التصويت والتشريع و التداول على السلطة و مراعاة حقوق المواطنين، و باعتماد الديمقراطية و الليبرالية السياسية و حقوق الإنسان و الحريات الفردية.

لكن ينبغي التنبيه إلى أن إعادة تشكيل البلدان والخرطة الجغرافية العالمية و السياسية، وفق متطلبات توسع النظام السياسي شكل أكبر خطر يهدد حضور الدول وكيانها و وحدتها، و لعل الخوف الأكبر الذي يترصد بالدولة القومية هو التفكك الذي بات أبرز سمات القرن الواحد و العشرين، خاصة إذا ضمت الدولة الواحدة أعراقا متعددة و طوائف دينية متباينة، إن "إحياء الهويات العرقية يعجل بزوال الدولة القومية باتجاه

¹ - ثابت أحمد و آخرون: العولمة و تداعياتها على العالم العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، لبنان، 2003، ص28.

² - حسن عبد الله العايد: انعكاسات العولمة على السيادة الوطنية، مرجع سابق، ص10.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

السيادة للكيانات الإثنية المتعددة، وغالبا ما يدور الصراع بين القوة الإثنية حول خلافات حضارية، أو رؤى حدثية، بقدر ما يكون باتجاه الاستئثار بسلطة الدولة¹.

نخلص إلى:

العولمة حسب رجال السياسة هي حركة تسير العالم بمنطق سياسي واحد و منطلقات قيمية مرتبطة بالمفهوم الغربي لحقوق الإنسان ومنطق الديمقراطية التشاركية والحكم الراشد. وهي إيدان بتكامل حقل الجغرافيا سياسيا و نهاية الحدود إقليميا، وبموجب هذه التطورات تتراجع السياسة المحلية للدولة لصالح السياسة العالمية وقوى المجتمع المدني "العولمة السياسية هي أكثر الأبعاد حيوية و حركية و خطورة للعولمة، إذ إنها لا تقوم فقط بإعادة النظر في المنطلقات الأساسية للدولة بجعلها أكثر ارتباطا بمجموعة الإنسان و حقوقه، و لكن أيضا بتمشيط مجموعة قواعد التفاعل السياسي الداخلي و الوطني مع فرض تصورات نمذجة لأساليب الحكم"². وبالموازاة مع تحول مفهوم الدولة، برزت مقولات من قبيل: نهاية السياسة ونهاية الخصوصية ونهاية الأيديولوجيات، ونهاية الدولة الوطنية، ونهاية الجغرافيا، فكرة المواطنة العالمية، الهوية الإنسانية، الانتماء العالمي، الوعي الكوني...

¹ - محمد حيدر: الدولة المستباحة، من نهاية التاريخ الى بداية الجغرافية، رياض الرس للكتب و النشر، دط، بيروت، 2004، ص 86.

² - امحمد برفوق: مفاهيم في السياسة المقارنة، كلية العلوم السياسية والعلاقات الدولية، مادة النظم السياسية المقارنة، جامعة الجزائر، 2008-2009، ص 06.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

2- مفهوم العولمة الاقتصادية:

أبرم العالم عقب الحرب العالمية الثانية عددا من الاتفاقيات العالمية، شملت جل القطاعات، كان لها الفضل في زيادة معدلات التقارب عالميا و انكماش الحدود الدولية، ما جعله وحدة كونية، وسوقا تحمل في طياتها فرصا و مخاطر .

و تأتي العولمة الاقتصادية باعتبارها ثمرة لهذا الانفتاح، حيث شهد الاقتصاد العالمي موجة تحرر شملت التجارة العالمية بكل جوانبها، و تم إزالة كل القيود التي وقفت عائقا في وجه حرية تنقل السلع، و الخدمات ورأس المال، أفضى ذلك إلى توسيع البعد الجغرافي للمعاملات الاقتصادية، و دفع إلى استحداث تنظيمات وسياسات جديدة في ميادين الإنتاج و طرق التسويق وتشكيل تكتلات اقتصادية عملاقة.

العولمة كما يراها كثير من الدارسين مفهوم اقتصادي، ظهر أولا في مجال التجارة و الاقتصاد ثم أضحى نسقا متعدد الأبعاد، فما حقيقة العولمة الاقتصادية، وهل اتفق الباحثون على تعريفها؟.

يعرفها صادق جلال العظم "بأنها وصول نمط الإنتاج الرأسمالي عند منتصف هذا القرن تقريبا إلى نقطة الاستقلال من عالمية دائرة التبادل و التوزيع و السوق و التجارة و التداول، إلى عالمية دائرة الإنتاج و إعادة الإنتاج ذاتها، أي أن ظاهرة العولمة التي نشهدها هي بداية عولمة الإنتاج و الرأسمال الإنتاجي و قوى الإنتاج الرأسمالية، وبالتالي علاقات الإنتاج الرأسمالية أيضا، و نشرها في كل مكان مناسب و ملائم خارج مجتمعات المركز الأصلي و دوله"¹. و يشير هذا التعريف إلى تداخل الاقتصاد العالمي و كونيته

¹ - حسن حنفي: صادق جلال العظم: ما العولمة؟ دار الفكر المعاصر، ط2، دمشق، سوريا، 2000، ص101.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

تحت مظلة النظام الرأسمالي في ظل تزايد الاعتماد الاقتصادي الحر، بعيدا عن نطاق المحلية.

ويرى عبد المطلب عبد المجيد أن العولمة الاقتصادية هي "عملية تعميق مبدأ الاعتماد المتبادل بين الفاعلين في الاقتصاد العالمي، بحيث تزداد نسبة المشاركة في التبادل الدولي والعلاقات الاقتصادية الدولية لهؤلاء، من حيث المستوى و الحجم و الوزن في مجالات متعددة أهمها: السلع و الخدمات وعناصر الإنتاج، بحيث تنمو عملية التبادل التجاري الدولي، لتشكل نسبة هامة من النشاط الاقتصادي الكلي، و تكون أشكالا جديدة للعلاقات الاقتصادية"¹. يركز هذا المفهوم على مبدأ الاعتماد المتبادل بين الفاعلين الاقتصاديين في مجال السلع و الخدمات وعناصر الإنتاج، بموجبه يكون الاقتصاد العالمي سوقا واحدة ومنظومة من العلاقات الاقتصادية المتشابكة.

فالعولمة تتجه نحو تشكيل سوق عالمي تنزع فيه الدول إلى الاقتصاد الحر المبني على المنافسة و الربح، و تعتمد فيه على آليات العرض و الطلب من خلال عمليات الإصلاح و التكيف الاقتصادي و الخصخصة وإعادة هيكلة النظم الاقتصادية، بما يتماشى و متطلبات السوق المفتوح، و تعاضم دور المنظمات الكبرى في توجيه الأنشطة الاقتصادية. وهو ما يؤكد تعريف جلال الشافعي، فهي عنده "تظهر أساسا في نمو و تعميق الاعتماد المتبادل بين الدول و اقتصاديات القومية، و في وحدة الأسواق المالية، و في تعميق المبادلات التجارية، في إطار نزعت عنه قواعد الحماية التجارية، بحكم ما نتج من دورة الأورغواي للجات و إنشاء منظمة التجارة العالمية، و نشاط الشركات المتعددة

¹ - عبد المطلب عبد الحميد: العولمة والاقتصاديات و البنوك، الدار الجامعية للطباعة و النشر، ط1، 2001، ص 17-18.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

الجنسيات و المؤسسات الدولية الاقتصادية، كالبنك العالمي و صندوق النقد الدولي و كذلك انتشار التجارة الالكترونية¹.

وقد مكنت العولمة الاقتصادية الوطنية و القومية من الانفتاح على بعضها في إطار سوق موحدة، تتيح حرية انتقال السلع و الخدمات و رؤوس الأموال عبر مجموعة من التكتلات الاقتصادية و المالية عابرة للقارات، و تنصهر فيها اقتصاديات البلدان بلا سياسات قومية و بلا سيادات وطنية، بما يخدم مصالح الجميع، وهذا يعني أن ما يحدث في أي اقتصاد وطني يؤثر حتما في الاقتصاد العالمي بسبب التداخل و الترابط.

لقد انهارت الحدود الجغرافية جراء الانفتحات الاقتصادية المتزايدة على الاقتصاد العالمي، إلا من الناحية الشكلية، و ازدادت موجة التجارة العالمية الحرة و التدفق الحر للعوامل الأساسية للإنتاج، و تم توفير فرص الاستثمار و توسيعها، فأعيد بذلك تنظيم العالم الإنساني وفق سياسات السوق الكوني، و حدث تبادل شامل إجماعي بين مختلف أطراف الكون، ليتحول على أساسه إلى محطة تفاعلية للإنسانية بأكملها و نموذج للقرية الصغيرة الكونية التي تربط بين الناس و الأماكن ملغية المسافات، و مقدمة المعارف دون قيود، وهي وليدة الرأسمالية أو السوق، إنها تقنيات الاقتصاد و السياسة و الاجتماع² و الثقافة و تتجاوز النظام و الأيديولوجيات، لتعد تشكيلة جديدة منوعة من النظم و البنى.

وتغير المشهد العام للعالم بعد تغير خارطة العلاقة بالأشياء، و تشكل واقع اقتصادي جديد لا مجال فيه لرسم الحدود بصورة قطعية، و تشكلت هويات جديدة متعددة الانتماءات و المشارب، و في ضوء ذلك "تكف العولمة عن كونها مجرد نشاط اقتصادي أو نسخة

¹ - جلال الشافعي: العولمة الاقتصادية و أثرها على الضرائب في مصر، مجلة الأهرام الاقتصادي، 2002، ص 19.

² - مجدي عزيز إبراهيم: موسوعة المناهج التربوية، مكتبة الانجلو المصرية، دط، القاهرة، 2002، ص 258.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

جديدة من المذهب الليبرالي أو المعتقد الرأسمالي، لكي تقرأ بوصفها عملية حضارية معقدة أو تحولاً تاريخياً ضخماً، تتبثق معه طريقة جديدة في التعامل مع الواقع، ونمط مغايرة في ممارسة الوجود الفردي و الجمعي"¹.

ولأنها نظام صاغته قوى الهيمنة الغربية، تم بواسطته رسملة العالم على مستوى العمق، بعد أن تم ذلك على مستوى السطح و المظهر، لإحداث نمط اقتصادي واحد تفرضه على المجتمعات الإنسانية، تلزم الدولة الوطنية و الحكومات التقيد به، نبه عدد من الباحثين إلى خطورتها، منهم صادق جلال العظم، الذي رأى فيها " حقبة التحول الرأسمالي العميق للإنسانية جمعاء في ظل هيمنة دول المركز و بقيادتها و تحت سيطرتها، وفي ظل سيادة نظام عالمي للتبادل غير المتكافئ"²، وهي " في جوهرها امتداد و تعميق للنظام الرأسمالي و نزوعه للهيمنة الكلية على الاقتصاد العالمي من خلال المؤسسات الدولية وعن طريق شركات دولية النشاط"³. فموجب هذه الأيديولوجية، قفز نمط الإنتاج الرأسمالي من دائرة عالمية التبادل و التوزيع و السوق والتجارة و التداول إلى عالمية الإنتاج و إعادة الإنتاج بحثاً عن أسواق جديدة خارج النطاق المحلي، وأعيد تشكيل النظم الاقتصادية وفق سياسات المنظمات الاقتصادية و المالية العالمية لتتناسب مع ثقافة السوق المعولمة خاصة في مكوونها الاستهلاكي.

¹ - علي حرب: حديث النهايات، مرجع سابق ، ص43.

² - صادق جلال العظم: ما هي العولمة؟، ورقة عمل بحثية، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، تونس، 1996، نقلاً عن: العرب والعولمة مشكلات الحاضر و تحديات المستقبل: ميهوب غالب أحمد، مجلة المستقبل العربي، العدد 256، السنة 23 حزيران، 2000، ص61.

³ - السيد ياسين: إعادة اختراع السياسة، من الحداثة إلى العولمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، القاهرة، 2006، ص117.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

وبإزالة الحدود الاقتصادية وتوجه الدول نحو التكامل الاقتصادي العالمي، تنفتح الاقتصادات الوطنية أسيرة لمفاهيم السوق الحرة و المنافسة الاحتكارية، إن "اندماج أسواق العالم في حقول التجارة والاستثمارات المباشرة وانتقال الأموال و القوى العالمية و الثقافات و التقانة ضمن إطار من رأسمالية حرية الأسواق وخضوع العالم لقوى السوق العالمية تبعا لذلك، يؤدي إلى اختراق الحدود القومية و إلى الانحسار الكبير في سيادة الدولة"¹، خاصة وأن عملية تبادل السلع و الخدمات و رؤوس الأموال تتم في إطار غير متكافئ، منزوع الحماية والعدالة، يعطي من قيم المنافسة و الإنتاجية بهدف المصلحة و الكسب. و يقتضي هذا النظام الليبرالي فتح المجال أمام تغلغل رأس المال الأجنبي و سيطرته على القطاعات الفاعلة في الدول، كالقطاع العام وقطاع الموارد و قطاع الأسواق و التصنيع و التجارة و التسويق...، و يتيح الحرية أمام القوى النقدية و المالية للهيمنة، كما يفرض اقتصاد القوة و الإكراه و الوصاية الاقتصادية، بما يخدم مصالح الدول العظمى، ممثلة في الشركات متعددة الجنسيات و البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، و منظمة التجارة العالمية و التكتلات الاقتصادية العملاقة " يشير مفهوم العولمة الاقتصادية إلى الانتقال من الاقتصاد الدولي الذي يقوم على مرجعية الدولة القومية... إلى الاقتصاد الكوني الذي يركز على الشركات متعددة الجنسيات و المؤسسات الاقتصادية الكونية التي تحل محل الدولة و تتولى إدارة و تسيير شؤون الاقتصاد العالمي، وبهذا التحول... يصبح عالم العولمة عالما بدون دولة، بدون أمة، بدون وطن، عالم بلا انتهاء، عالم لا يعترف بالوطن، وهكذا تهدف العولمة إلى إنهاء أو تقزيم دور الدولة بوصفها محددا للهوية

¹ - مجدي عزيز إبراهيم: موسوعة المناهج التربوية، مرجع سابق ، ص260.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

و مصدرا للسلطة الاقتصادية¹ "فتسقط هيبتها وتغصم الروابط الوطنية والقومية، و يكرس مبدأ التبعية بانقسام دول العالم إلى دول منتجة و مصدرة، وأخرى مستوردة ومستهلكة.

ومع تطبيق مبدأ فصل الدولة عن الشؤون الاقتصادية، سينحصر دورها في التنظيم و المراقبة، ولن يكون بوسعها إنتاج سياسات ضبط فعالة تتباين مع المعايير العالمية للاقتصاد الكوني، وتكون الكلمة الأولى لاقتصاد السوق و المال المخصص، فهو وحده الكفيل بتحديد "الحياة الثقافية و الاقتصادية و السياسية، بحيث يعمل على خلق قيم جديدة منبثقة عنها، و يكون السوق- في هذه الحالة- المسيطر الأوحد في المجتمع، وعليه يصبح المجتمع أداة لخدمة رأس المال و غايات توسعه خلافا للمنطق القائل أن رأس المال والاقتصاد جدا ليكونا مسخرين لخدمة الغايات الإنسانية و الاجتماعية"². فضلا على أن عولمة الاقتصاد والسوق الحر، تجعل القيم الإنسانية سلعة تسوق شأنها شأن المواد الاستهلاكية و السلع المادية، عن طريق استغلال التطور الحاصل في وسائل الإعلام الحديثة و مجال الاتصالات وعناصر القوة الاقتصادية و العلمية والتكنولوجية وهيمنة ثقافة الأقوى، فيمكن بذلك "تسليح كل شيء بصورة أو بأخرى، و في كل مكان إنها أممية رأس المال على الأصعدة كلها و على المستويات كافة، أي التعامل مع الإنسان على أنه منتج، وهي نزعة من هيمنة الفكر الاقتصادي والاتجاه الرأسمالي الغربي بنموذجه المعرفي على مسار الثقافة العالمية"³.

¹ - حميد الجميلي: العولمة الاقتصادية و آليات الهيمنة و الاحتكار الجديدة، مجلة المنتدى، منتدى الفكر العربي، المجلد 28، العدد 207، أيار، 2013، ص15.

² - مارتين، هانس بيتر وآخرون: فتح العولمة، الأعداء على الديمقراطية و الرفاهية، تر و تقديم: عدنان عباس علي، مراجعة و تقديم: رمزي زكي، عالم المعرفة، دط، الكويت، أغسطس، 2003، ص46.

³ - سعيد إسماعيل علي: الهوية و التعليم، عالم الكتب، دط، القاهرة، 2005، ص271.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

مما سبق نصل إلى:

- تعمل العولمة الاقتصادية على زيادة عمليات الدمج الاقتصادي للعديد من الدول و إعادة هندسة الاقتصاد العالمي، من خلال ربط الفضاء الاقتصادي الإقليمي بالفضاء الإقليمي القاري، ومن ثمة الاندماج بالاقتصاد العالمي عن طريق إزالة كل القيود في وجه انتقال السلع و الخدمات و عناصر الإنتاج و رؤوس الأموال و الأشخاص، كما تشجع الاستثمار الخارجي وحرية التجارة العالمية و تزيل القيود الجمركية و تعمق الاعتماد المتبادل بغية التوسع الخارجي، كما تسعى إلى تحقيق الأرباح و رفع حالة الكساد عن المستوى المحلي تحت ذرائع التكامل الاقتصادي.

- استفادت هذه الأخيرة من الثقافة و عصر المعلوماتية و النزوع نحو الاقتصاد العالمي الحر، هذا الأخير مثلته مؤسسات ليبرالية أبرزها البنك الدولي، صندوق النقد الدولي، منظمة التجارة العالمية و الشركات المتعددة الجنسيات.

3- مفهوم العولمة الإعلامية:

يحدث التقارب في عالم اليوم بمعدلات سريعة نتيجة التحولات الحضارية المتلاحقة التي يعرفها قطاع الإعلام و الاتصالات و تكنولوجيا المعلومات، وبسبب إزالة العوائق في وجه حرية تدفق المعلومات والأخبار و الأفكار السياسية و الاجتماعية والفنية و الثقافية، سواء على مستوى الإرسال أو على مستوى الاستقبال، عبر وسائل التثقيف والترفيه و مختلف وسائل الاتصال الجماهيري لفضاء التدفق الإعلامي، الذي يعرفه مانويل كاسيلز (Manual Caciles) عالم الاجتماع الثقافة و المعلومات البريطاني بأنه "فضاء يتمتع بحياة مستقلة أو باستقلال حيادي "بعيدا عن سيطرة الدول و تأثير الأقاليم وهيمنة الرأسماليين أو العمال، حيث تنهمر التدفقات الثقافية و المعلوماتية و المالية، ويؤكد على

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

أن العولمة الإعلامية قناة للتواصل بالآخرين دون قيد أو شرط، تمكن الجمهور من الاستفادة من التقدم التكنولوجي المتسارع، وتمنحه فرصا غير محدودة لحرية الاختيار، لأن لكل دفقة أو موجة -عبر هذا الفضاء- أو الأثير الكوني ملامحها الخاصة لكي تتفاعل دون تحكم من أحد، ولا من سلطة ثقافية أو سياسية مع الدفقات أو الموجات الأخرى¹.

وقد دفع هذا التطور التكنولوجي و الإعلامى العالم باتجاه الانكماش على الصعيدين المكاني بزوال المسافات الأمنية والجغرافية، وقارب على تلاحم الداخل بالخارج و انصهار المحلي في العالمى، ما يعنى أن انتماء المواطن لم يعد انتماء وطنيا أو قوميا فحسب، بل صار عالميا أيضا.

ومن المفترض أن يكون هذا التقارب تفاعلا صحيا بين ثقافات الشعوب المختلفة، بحيث تتحرك الثقافة في اتجاهين متقابلين متكافئين و متفاعلين في آن واحد بما يحقق مصالح الطرفين معا، ومن ثم تصبح وسائل الاتصال و تبادل المعلومات "أداة قوة فعلية لأنها تثير للشعوب طريقها، فتختار ما يناسبها، و يخدم مصالحها، وترفض ما يتعارض مع قيمها و جذورها التراثية و الحضارية، وبذلك يتحقق حلم القرية الكونية الصغيرة، التي تتكامل فيها الحضارات و القيم الإنسانية الايجابية التي تفتح الأبواب والأفاق لتقدم البشرية وازدهارها"². فمقولة القرية الصغيرة أو الجوار العالمى، تستدعي وجود قيم عالمية إنسانية قائمة على التواصل الحميمى، والاحترام المتبادل للخبرات و المعارف و الثقافات، تتشارك الحضارات المختلفة في صوغها، بما تقضي إلى تقارب فكري روحي إنساني بين البشر.

¹ - نبيل راغب: أفضة العولمة السبعة، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع، 2001، ص313.

² - المرجع نفسه، ص309.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

وخلافا لما يروج له،جددت العولمة الثقة في العلم و التكنولوجيا و عالم الاتصالات و المعلومات، فتحوّلت إلى قوى كاسحة تصنع الأحداث، و تشكل العالم و تديره على كل الأصعدة،خاصة وأن التدفق الإعلامي مستمر ليلا نهارا، حاملا في طياته مختلف التيارات المتناقضة من مختلف الاتجاهات، ولم يعد ممكنا الانغلاق على الذات.

ولد هذا التقدم التكنولوجي وعيا جديدا،انحصر بموجبه دور الدولة و سلطتها إعلاميا و ثقافيا،لصالح الشركات المتعددة الجنسيات المسيطرة على فضاء الاتصالات و المعلومة،والمتحكمة في مضامين الإعلام المحلي والعالمي إنتاجا وتسويقا،و قوضت هذه السيطرة مبدأ تكافؤ الفرص، وشرعية الوظيفة الرقابية الذاتية للدول، بعدها الفاعل الرئيس في تنظيم البيئة الإعلامية و تشريع قوانينها وفرض رقابتها على التدفق المعلوماتي عبر حدودها القومية، خاصة وأن المعلومات و المضامين و البرامج و التدفق القيمي و المعرفي أحادي الجانب، يسعى إلى الاجتياح و الفرض في مختلف المجالات الفكرية و الثقافية والاجتماعية و الاقتصادية والسياسية، وليس إلى الاستيعاب و التفاعل. وهو رأي أنتوني غيدنز (Antony Giddens) الذي عرفها " بأنها ضغط لكل من الزمان و المكان،و هي إحدى الخصائص البارزة للعالم المعاصر، كما أن عولمة الإعلام هي الامتداد و التوسع في مناطق جغرافية مع تقديم مضمون متشابه يسعى لأن يكون نمطا يحتذى"¹. وأكد" أن وسائل الاتصال التكنولوجية الجديدة و جعلت من الممكن فصل المكان عن الهوية،و القفز فوق الحدود الثقافية و السياسية،والتقليل من مشاعر الانتساب أو الانتماء إلى أي مكان"².

¹ - رضا عبد الواحد أمين: الإعلام و العولمة، دار الفجر للنشر و التوزيع، ط1، مصر، القاهرة، 2007، ص124.

² - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

وعطفا على ما سبق، تعرف العولمة الإعلامية بأنها " عملية تهدف إلى التعظيم المتسارع و المستمر في قدرات وسائل الإعلام و المعلومات على تجاوز الحدود السياسية و الثقافية بين المجتمعات بفضل ما توفره التكنولوجيا الحديثة، و التكامل و الاندماج بين وسائل الإعلام و الاتصال و المعلومات، وذلك لدعم عملية توحيد ودمج أسواق العالم من ناحية، و تحقيق مكاسب لشركات الإعلام و الاتصالات و المعلومات العملاقة متعددة الجنسيات، على حساب تقليص سلطة و دور الدولة في المجالين الإعلامي و الثقافي من ناحية أخرى"¹. ويتمشى هذا الطرح مع تعريف السيد مصطفى عمر "هي سلطة تكنولوجية ذات منظومات معقدة لا تلتزم بالحدود الوطنية للدول، و إنما تطرح حدودا فضائية غير مرئية، ترسمها شبكات اتصالية معلوماتية على أسس سياسة اقتصادية و ثقافية و فكرية، لتقيم عالما من دون دولة و من دون أمة، و من دون وطن، هو عالم المؤسسات و الشبكات التي تتمركز و تعمل تحت إمرة منظمات ذات طبيعة خاصة، و شركات متعددة الجنسيات يتسم مضمونه بالعالمية و التوحد، على رغم تنوع رسائله التي تثبت عبر وسائل تتخطى حواجز الزمان و المكان و اللغة"².

و يقف هيربرت شيللر (Herbert Sciller) موقف المحذر منها، و يعتبرها نوعا من الإمبريالية الثقافية، و يعرفها بأنها " تركيز وسائل الإعلام في عدد من التكتلات الرأسمالية عابرة الجنسيات التي تستخدم وسائل الإعلام كحافز للاستهلاك على النطاق العالمي، و يؤكد شيللر أن أسلوب الإعلان الغربي و مضمون الإعلام يدفع إلى التوسع العالمي

¹ - محمد شومان: عولمة الإعلام و مستقبل النظام الإعلامي العربي، عالم الفكر، العدد1، 02 أكتوبر1999، ص 161.

² - السيد أحمد مصطفى عمر: إعلام العولمة و تأثيره في المستهلك، كتاب: العولمة و تداعياتها على الوطن العربي، سلسلة كتب المستقبل العربي64، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، بيروت، 2004، ص ص166-167.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

لثقافة الاستهلاك عبر إدخال قيم أجنبية تطمس أو تزيل الهويات القومية أو الوطنية¹. و يوافقه الرأي ناعوم تشومسكي (Noam Chomsky) المفكر السياسي وعالم اللغويات، الذي رأى فيها توسعا" في التعدي على القوميات من خلال شركات عملاقة شاملة ومستبدة يحركها الاهتمام بالربح قبل أي شيء آخر، و تشكيل الجمهور طبقا لنمط خاص، مدمنا في إقباله على السلع المعن عنها"². و"ربطها بالزيادة الضخمة، بل و الاحتياج الواضح للإعلان في كل أجهزة الإعلام، خاصة الإعلان عن السلع الأجنبية المستوردة، والتركيز على وسائل الإعلام الدولية، و بالتالي انخفاض و انحسار المعلومات الحقيقية مقابل الزيادة في التوجه المعن."³

إن الإعلام في مجال العولمة مجال مستقل و متداخل في الآن ذاته مع المجال الثقافي و المجالين السياسي والاجتماعي، و يشير إلى وحدة المضمون الثقافي الإعلامي، وإلى تآكل الحدود الكلاسيكية للدول، وهو إعلام غير متكافئ، ويسعى إلى نشر ثقافة استهلاكية تشكل خطرا على الخصوصيات الثقافية لشعوب العالم في خطوة مدروسة لتنميط ثقافتها و توحيدها. ويمثل سلطة تكنولوجية ذات أنظمة معقدة، و أذرع متعددة، تتخطى فيه المعلومة الحواجز المكانية و الزمانية، لتشكل عالم متجانس، بلا دولة، و بلا وطن، و بلا هوية متميزة، يشكل فيه الجمهور المتلقي وفق نموذج خاص، هو قيم القوي الذي يملك المعلومة و يوجهها" النظام السمعي-البصري (نظام ثقافة العولمة) أصبح المصدر الجديد الأقوى لإنتاج القيم والرموز و صناعتها، و تشكيل الوعي والوجدان و الذوق، و لذلك آثاره خطيرة على الصعيدين: على صعيد مستوى التنمية الثقافية والقيمية

¹ - محمد شومان: عولمة الإعلام و مستقبل النظام الإعلامي العربي، مرجع سابق، ص 160.

² - المرجع نفسه، ص 318-319.

³ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

التي تقترحها العولمة على البشرية اليوم، وعلى صعيد درجة التناسب الطبيعي بين الثقافي والاجتماعي في المجتمعات المعاصرة والمستقبلية¹.

لقد تخطى حقل الإعلام والاتصال السياسة الداخلية، وبات مؤشرا فعالا في السياسة الخارجية العالمية، وفي النسبية الاتصالية الدولية، وفي التكريس لأطروحة الثقافة العالمية، التي بواسطتها يتم التأثير في المفاهيم والقيم والسلوكيات، وإعادة رسم الخارطة السياسية والاقتصادية والثقافية للدول، بما يحقق تراجع مكانتها، وإضعاف دورها في المجالين الداخلي والخارجي كنظام ومكون ثقافي "العولمة في المجال الثقافي هي قدرة ثقافة وحضارة المجتمع الأقوى تكنولوجيا على التواجد في الثقافات والمجتمعات الأضعف تكنولوجيا، ومن ثم إلغاؤها -إن أمكن ذلك- عن طريق نشر القيم والأفكار الثقافية والسلوكية في وعي الآخر من أجل إسقاط عناصر المقاومة ومؤسساتها، مما يؤدي إلى تأسيس هوية ثقافية وحضارة جديدة في المجتمعات معادية لهويتها السابقة"².

من جهة أخرى يهمل فريق من الباحثين للعولمة الإعلامية ويشيدون بإيجابيتها، فحسبها أنها أتاحت عمليات التدفق الإعلامي عبرا لحدود، وأنها فتحت الفرص أمام الجمهور ووسعت خياراته، بما تتيحه من وفرة وتعدد في البرامج والمضامين، وبما تمنحه من إمكانيات انقاء ما يعرض عليه من منتجات ثقافية وإعلامية وترفيهية، يختار منها ما يتناسب وقناعاته في إطار ثقافته. علاوة على انخفاض تكلفة استخدامها، الأمر الذي يمنح الجميع إمكانية استخدامها مع الاستفادة منها بما يدعم إمكانيات الأقليات، ويمكن من خلق

¹ - ينظر: عبد الإله بلقزيز: العولمة والعولمة الثقافية، عولمة الثقافة أم ثقافة العولمة، ندوة العرب والعولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، تحرير: أسامة أمين الخولي، ط1، بيروت، لبنان، 1998، ص315.

² - خليل نوري مسيهر العاني: العولمة الإسلامية في زمن العولمة الثقافية، سلسلة الدراسات الإسلامية المعاصرة، العدد58، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، بغداد، 2009، ص128.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

إعلام مواز لإعلام الحكومة أو إعلام الشركات الإعلامية الكبرى. غير أن هذا المشروع رهين بمدى فاعلية المجتمع المدني في البنية الاتصالية العالمية.

و قد قوبل هذا الرأي بالنقد، والتشكيك في وجود الجمهور النشط الواعي، والقادر على الاختيار بوعي كامل أمام الهجمة الشرسة للدعاية الإعلامية، لأنها تستهدف المشاعر والانفعالات و تتلاعب بها قصد السيطرة على الأفكار و الأفعال وتوجيهها إلى وجهة معينة، بدلا من التعامل الموضوعي مع العقل الواعي، فلا يخفى أن الصناعات الثقافية قد غدت "جزءا من أدوات السيطرة الاجتماعية السياسية، التي تسعد عندما تجد في الثقافة سلعة من سلع التجارة الهادفة للربح و تغييب الوعي العقلي، و ممارسة الحرية نحو قيم الجمال و الحق و الخير من خلال معرفة واسعة و عميقة"¹.

نخلص مما سبق إلى الاستنتاجات الآتية:

- تمكن العولمة الإعلامية إلى حد ما من تقليص الحدود الفاصلة وإذابة الثقافات الوطنية في إطار ثقافة العولمة أحادية المركز، بفعل التقنية الرقمية و الأقمار الصناعية التي لها القدرة على الوصول إلى أي رقعة جغرافية، كما نجحت في دفع الجماعات البشرية و المؤسسات نحو التماثل في مجالات عدة، و في تشكيل بنى اجتماعية و ثقافية شبه متجانسة، وأصبحت الهوية قابلة للاختزال بعد خروج الإنسان من جغرافية المكان إلى تاريخية الإنسان، و لم تعد لها القدرة على الحصانة الطبيعية التي احتتمت بها قديما. و انفصل جانب منها من ضمير الأمة و وجدانها، خاصة عند الشعوب التي تقتصر للمناعة الفكرية و الثقافية الكافية لصد تأثيراتها و تجاوز آثارها.

¹ - نبيل راغب: أفتعة العولمة السبعة، مرجع سابق، ص ص 318-319.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

- لقد أصبح عالم الاتصالات والإعلام مصدرا للسيطرة وممارسة القوة، مع تراجع دور الدولة التنظيمي محليا و عالميا، ومع اتجاهها المتزايد نحو التخلي عن ملكية وسائل الإعلام و الاتصال لصالح الخصخصة، استجابة لآليات السوق و إقبال الجمهور بغض النظر عن مستوى المضامين، فالشركات متعددة الجنسيات تمتلك قوى مادية و تكنولوجية عالية المستوى تساعدها على التحكم في تدفق المعلومات وإنتاج وترويج المضامين الإعلامية و الترفيهية.

- ثقافة الاستهلاك وعمليات التضليل المنظم والتسطيح الفكري، هي أبرز خصائص الثقافة المعولمة. والقرية الكونية إعلاميا مجرد وهم، لأن التدفق المعرفي و القيمي أحادي الجانب. و التفاعل الإعلامي الذي يبشرون به غائب تماما في ظل آلية التركيز و التكامل الرأسي بين الشركات "الذي لا يقتصر على كونه نشاطا اقتصاديا فحسب، وإنما ينطوي على بعد ثقافي، حيث تظل المضامين الإعلامية الواردة من هذه المؤسسات أسيرة النظرة التي يعتمدها مالكوها للعالم، باعتبارها تتعامل مع معلومات و نتاج فكري و ثقافي معين، مما يؤدي إلى تنميط المنتجات الإعلامية المعلوماتية، بهدف توحيد العالم وفق مقتضيات الاقتصاد وخصوصا اقتصاديات الإنتاج الإعلامي والترفيهي الأمريكي الذي يسيطر على السوق العالمي"¹، فالكتلة الإعلامية الأمريكية وحدها قادرة على ابتلاع كل الموجات الإعلامية و الثقافية المتدفقة من الدول و الشعوب الأخرى.

- صحيح أن الحق في الاتصال الحر مبدأ مكفول، لكن القدرة على ممارسته أمر محدود، لأن استخدام وسائل الاتصال و الإعلام الحديثة لا يتوفر لأغلب سكان العالم،

¹ - رضاعبد الواحد أمين: الإعلام و العولمة، دار الفجر للنشر و التوزيع، ط1، القاهرة، مصر، 2007، ص144.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

فضلا عن وجود فوارق اجتماعية و ثقافية وتعليمية بين الدول، وعلى مستوى الدولة الواحدة.

- حرية التدفق الإعلامي وسيلة لكافة أشكال التشويه، وحيلة لبث القيم والأفكار وأنماط السلوك الغربية، إنها استعمار ثقافي ونوع من التبعية الثقافية.

المطلب الثاني: آليات العولمة و مؤسساتها:

أولا: الآليات الاقتصادية:

لإحكام السيطرة على الاقتصاد العالمي و تضيق رقعة اتخاذ القرارات، أوجدت الدول الكبرى اقتصاديا كيانات و اتحادات اقتصادية و مالية تقوض مبدأ التعددية في سن النواميس الاقتصادية و ضبط القوانين، ومثلت هذه المؤسسات وسائل ضغط و هيمنة على الاقتصاد القومي و الوطني للدول الضعيفة، لعل أبرزها وأكثرها تأثيرا وبصورة مباشرة:

1- الشركات متعددة الجنسيات:

هي "شركات ذات مراكز إنتاجية، تتوطن في أكثر من دولة و تحمل جنسيتها، أي إنها شركات تعمل في أكثر من دولة واحدة، باحثة عن توفر المواد الخام، والأيدي العاملة الماهرة و الرخيصة، و التكلفة القليلة، أو للتمتع بالمزايا الضريبية في هذه الدولة أو تلك"¹. وتعد أداة مفصلية في تعميم العولمة الاقتصادية.

لذا يوفر اقتصاد العولمة كل الأسباب لحمايتها وتمكينها من بسط أذرعها الأخطبوطية، وقد نجحت في إيجاد إطار مؤسستي معولم يقوي مفاعيلها، عن طريق

¹- رجب مصطفى: العولمة ذلك الخطر القادم، أسبابها، تداعياتها الاقتصادية و أثارها التربوية، مؤسسة الوراق للنشر و التوزيع، دط، عمان، 2009، ص ص 27-28.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

إقامة تحالفات و تكتلات اقتصادية عابرة للقارات، تسيطر على "ثلث الاستثمارات الأجنبية المباشرة و ثلثي التجارة الدولية في مجال السلع و الخدمات"¹.

وتستحوذ هذه الشركات على الموارد الخام و الثروات الأولية لبلدان العالم النامي، أين تنشط أكثر وتوسع نشاطها لتشمل العالم بأسره، و تجاوز مداها " الحدود التي تفصل بين الدول والأقطار، كما تمكنت من إزالة كل الحدود الجمركية، و تغلبت على كل القيود التي تحول دون تدفق المعلومات، فسلبت بذلك الكثير من سلطات الدولة التي كانت تمارسها ضمن حدودها السياسية، التي تعد من أهم مقوماتها سيادتها الوطنية، فأصبحت هذه الدول اليوم عاجزة غير قادرة على بسط سلطتها و قراراتها على أراضيها"².

و لضمان الربح وتقادي خطر الصدمات الاقتصادية و تقلبات الأسعار و معدلات التضخم ومواجهة الصراع التنافسي،وسعت هذه التكتلات نشاطها الاقتصادي،فزادت بذلك مداخيل صادراتها،ومن ثم تحكمت في حركة التجارة العالمية ورؤوس الأموال و الاستثمارات الأجنبية، وتعاضمت قوتها الإنتاجية و التسويقية والإدارية والتجارية و التكنولوجية" حيث أن قيمة المبيعات السنوية لإحداها تتجاوز الناتج المحلي الإجمالي لعدد من الدول المتوسطة الحجم"³.

وقد انعكس تأثيرها الكبير على السياسة الاقتصادية للدول و على الخارطة السياسية للعالم، و بات بمقدورها السيطرة على الدول و الانتقاص من سيادتها و إضعاف اقتصادها،

¹ - الفتلاوي سهيل حسين: العولمة و أثارها في العالم العربي، دار الثقافة للنشر و التوزيع، دط، عمان، 2009، ص109.

² - بوبوش محمد: أثر التحولات الراهنة على مفهوم السيادة الوطنية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2008، ص4.

³ - محمد الأطرش: العرب و العولمة، ما العمل؟ ندوة العرب و العولمة، مركز الوحدة العربية، تحرير أمين الخولي، ط1، بيروت، 1998، ص 413.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

بلجونها إلى غلق نشاطها وتوجيهه إلى مناطق أخرى من العالم، أو إلزامها بإتباع معايير أداء معينة تحرم الدولة المتصلة بها من أنشطة النخب العلمي و التطوير، و تغريها بمنحها عائدا أكبر لاستثماراتها قصد إبعادها عن إرساء قاعدة إنتاجية خاصة بها، وإن هي لم تمتثل لقوانينها، جردتها من الاستثمارات و الامتيازات، الأمر الذي يقودها إلى الإفلاس و الاختلال المالي، فتكون الحصيلة اقتصاد ضعيف مهزوز، يفترق للحصانة و القدرة على مقاومة الصدمات الاقتصادية، ما يدفع البلدان المتخلفة إلى التفريط في قوميتها و استقلالها السياسي.

لهذه الشركات دور كبير في سياسة الدول واقتصادها، حيث ظفرت بالولاء الذي حظيت به الدولة الوطنية، وأحكمت قبضتها على الاقتصاد العالمي و فرضت قوانينها، سواء ما تعلق بالاستثمار أو الإنتاج أو الاستهلاك، فتجاوز تأثيرها السلبي المجال الاقتصادي إلى السياسي و الاجتماعي و الثقافي. لأنها تمتلك مطلق الحرية في سن القرارات، و وضع القواعد بما يخدم مصلحتها في ميادين التجارة و المال، بعيدا عن كل مراقبة ومحاسبة. وهذه القوانين لا تستجيب لمقاييس الإنتاج والاستهلاك المطلوبة و المعمول بها عالميا، و جزء كبير من تنظيماتها وإنتاجاتها الاقتصادية يقوم على موازين غير متكافئة، تفترق إلى الشبكة الواسعة من العلاقات والتحالفات و إلى تقنيات التسويق، و التحكم في وسائل الإعلام وإنتاج المعرفة و تصديرها، وهي بهذا الوصف تشكل مغامرة محفوفة بالمخاطر في حال دخول دول الجنوب إلى سوق المنافسة العالمية. إنها تقف عثرة أمام الانتعاش الوطني الداخلي و تسد الطريق أمامه، فكيف بهجرتها إلى الأسواق الخارجية.؟.

لقد كرسست هذه المنظمات للفروق و اللامساواة بين الدول، و خلفت فجوة كبيرة بين الدول الصناعية و الدول النامية التي أدخلت قهرا مجال استهلاك المنتجات المعولمة،

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

فمن المعلوم أن العولمة الاقتصادية تقوم على القيمة المادية المصرفية، وأن الأصل فيها هو قانون الربح، فكل قيمة لا تحمل سمة اقتصادية نفعية يتم استبعادها. إن نظام العولمة لا يحمل من قيم التعددية إلا اسمها، ولا يعترف إلا بخيار وحيد، هو نظام السوق المفتوح أمام حرية التبادل و المنافسة و إلغاء الحدود و ترحال الرساميل و المنتجات و احتكار الثروات على حساب التنمية الاجتماعية العالمية، تحت شعار الكل من أجل السوق. فنحن أمام قيم عابرة للحدود والقارات تتفق في الأذواق و الحاجات، و تتساوى فيها المنتجات في المعايير و تتجانس في الطلب. وإن قوانين الاستثمار والإنتاج و الاستهلاك معدة مسبقاً، في ظل غياب التوازن والتكافؤ في قيم المنافسة و التعددية. ووفق هذا المفهوم، يغدو استقلال الدول في تسيير شؤونها ضرباً من الخيال، و هذا يعني أن مبدأ السيادة قد أخذ بالتراجع لتتوب عنه مؤسسات عالمية تتولى تسيير العالم و رسم المشهد الاقتصادي العالمي. في حين تكتفي هذه الأخيرة بكونها مستهلكاً للإنتاج.

2- البنك الدولي:

هو وليد اتفاقية بريتون وودز (Bretton Woods) لعام 1944، وهو "مؤسسة مالية دولية تهدف بشكل رئيس إلى مساعدة الدول النامية في رفع مستوى معيشتها و تنمية اقتصادها، و جاء تأسيس البنك الدولي للحاجة إلى رأس المال لتمويل أعمال إعادة بناء و تعمير ما دمرته الحرب العالمية الثانية، وقد أعطى البنك حق فتح أوضاع القروض التي تقدم لمشروعات تخدم أغراضه"¹.

عدل هذا البنك عن دوره الرئيس، و صار وسيلة ضغط و تدخل في الشأن الداخلي للدول الضعيفة، بما صاغه من توجهات جديدة في صيغ القروض التنموية، تقلل من

¹ - السيد عاطف: العولمة في ميزان الفكر، دراسة تحليلية، مطبعة الانتصار، دط، الإسكندرية، 2001، ص 21.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

دعمه لها، وتزيد من معدل الخصخصة، وتجبرها على الدخول في معترك المنافسة الاقتصادية على المستوى العالمي. و توجه نحو تهميش اقتصادها وتحجيم دورها في إدارة و تسيير الاقتصاد العالمي، ومنعها من تحقيق التنمية الذاتية، و دخول مجال عصر التصنيع أو امتلاك وسائل الثورة التكنولوجية بصفتها فاعلة و منتجة، لا مستهلكة تابعة.

فبسبب القروض الممنوحة، تضاعفت انتكاسة التنمية، وتدهورت النسبة الاقتصادية للدول المقترضة، فسجلت ميزانيتها عجزا كبيرا، وتفاقت مديونيتها الخاصة، بسبب الضعف الكبير المسجل على مستوى التدفقات اللازمة للاستثمار، خاصة فيما يتعلق بالبنى التحتية، وباتت كل محاولات الإنعاش الاقتصادي في مهب الريح، ولم يبق سوى طريق التنمية خارج المحيط الداخلي و ربط الاقتصاد المحلي بعجلة الرأسمالية المركزية المهيمنة "الاندماج لا يقتصر فقط على تعميق الروابط التجارية فحسب، بل إنها تعني اندماجا يفضي إلى شبه تماثل في الهياكل التحتية، وإلى شراكة في شبكات الإنتاج و الاستهلاك وإلى نسج روابط متينة في علاقات التعاون على الحدود. بحيث إن الرهان المطروح سواء بالنسبة للدولة الوطنية أو المجموعة الجهوية إنما يتمثل في اقتصاد عالمي، و بالتالي أن تكون مادتها تستهدف الخارج و ليس الداخل"¹.

3- صندوق النقد الدولي:

هو " مؤسسة نقدية ومالية دولية قوية تضطلع بمهمة إدارة نظام النقد الدولي، حيث تعتبر برامج التثبيت الاقتصادي والتكيف الهيكلي، أحسن سياسة اقتصادية للصندوق

¹ - عباس برادة السني: العولمة الاقتصادية ملامح، أبعاد، اتجاهات، منشورات المعرفة للجميع، العدد 12، يناير 2000، ص 16.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

بهدف تحقيق التوازنات النقدية والمالية التي تسهل مهمة الدول للاندماج في الاقتصاد الدولي و المشاركة في حركة العولمة الاقتصادية¹.

أنشأ البنك بموجب اتفاقية بروتون وودز، وبدأ نشاطه في 1947، بهدف إزالة القيود أمام الاستثمار الأجنبي و ترقية التجارة الدولية و تحريرها، و دعم استقرار الصرف للدول الأعضاء، و تحرير أسعاره للمساهمة في الحفاظ على استقرار ميزان مدفوعات الدول العظمى اقتصاديا، عن طريق تغطية عجزها المالي.

وفي تعامله مع الدول يفرض شروطا أهمها فتح الحدود أمام حركة السلع و الخدمات ورؤوس الأموال، ويضطلع بمهمة المراقبة المستمرة لتنفيذ السياسة الاقتصادية للبلدان الأعضاء التي تعاني خلافا نقديا وماليا، ويملي عليها برامج تلزمها بتطبيقها، منطلقا من منطقته المالي التقني، غير آبه بالجانبين الاجتماعي والتنموي² إن هذه المعالجة الجزئية تجعل التوازن الاقتصادي أهم من التوازنات الاجتماعية فتهملها، الشيء الذي يؤكد بأن تطبيقها سيؤدي إلى اضطراب اجتماعي و ثقافي يحرم المجتمع من الاستقرار²، ويزيد من تبعية الدول النامية، والتي باتت ملزمة باتفاقيات و برامج إصلاح مفروضة عليها، تحت ذريعة التدخل لإصلاح ميزان المدفوعات، وفرض مبدأ الشمولية في اتخاذ القرارات في إطار المنافسة الحرة و الجودة و تعميق القدرات.

سيطر على هذا الصندوق "الولايات المتحدة الأمريكية، وتتفرد بـ20% من القوة التصويتية و تمتلك حق الفيتو و20% من رأسماله، ثم بريطانيا و قوتها التصويتية تمثل

¹ - عبد الحليم عمار غربي: العولمة الاقتصادية، رؤى استشرافية في مصطلح القرن الواحد و العشرين، مجموعة دار أبي الفداء العالمية للنشر والتوزيع والتر، حماة، سوريا 2013، ص 85.

² - صالح صالحي: أوام و تكاليف الانفتاح الليبرالي و العولمة العشرية، دار الخلدونية، دط، الجزائر، 1998، ص

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

حوالي 6.6 %، ثم ألمانيا 5.8 %، وفرنسا 4.8 %، و أخيرا اليابان 4.5 % . و بناء على ذلك، فإن الدول الخمسة الكبار تمتلك 41 % من القوة التصويتية في الصندوق، لذلك فهي تتحكم بالدول النامية المستدينة من خلال القروض¹. وتمارس عليها إملاءات اقتصادية و سياسية و ثقافية حتى تحكم سيطرتها وتحقق أهدافها الإمبريالية، لذلك شبهت بالاستعمار المنظم الذي يجتاح العالم و يستنزف خيراته و ثرواته المادية و البشرية و الثقافية.

4- منظمة التجارة العالمية:

أنشأت بديلا عن منظمة الجات، وورثت كل نشاطاتها و قوانينها. وتهدف المنظمة إلى تحرير التجارة العالمية، وخلق مناخ تجاري عالمي أكثر حرية و انفتاحا، و تحقيق انسجام عالمي في السياسات المالية و التجارية و النقدية. حررت وثيقتها النهائية "في شهر مارس عام 1994 في مدينة مراكش بالمغرب معلنة لها، حين وقعت 124 دولة و مؤسسة"².

روجت هذه المنظمة لفكرة أن التجارة الدولية غير المقيدة، و أنها قاطرة الدول النامية إلى التنمية عن طريق اندماجها في الأسواق العالمية المتحررة من القيود، الأمر الذي سيمكنها من خلق فرص للإنتاج و زيادة الاستثمار. و لضمان ذلك و جب على الدول المنظمة إليها توفير رأس مال نقدي و مالي و بشري ذي مستوى علمي راقى. وهي شروط تعجيزية بالنسبة للدول النامية، التي ما تلبث أن تقع أسيرة في يد الدول الأقوى صناعيا،

¹ - المرشدة يوسف: العولمة و أثرها على العالم العربي، مشروع الشرق الأوسط الكبير، دار الكندي للنشر و التوزيع، دط، بغداد، 2007، ص 88.

² - كمال الدين عبد الغني المرسي: الخروج من فخ العولمة، المكتب الجامعي الحديث، ط1، الاسكندرية، مصر، 2002، ص 75.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

وتتحول إلى أسواق لمنتجاتها، تفرض عليها أسعارها، وتملي عليها قوانينها وسياساتها بما وافق مصلحتها، ذلك أن هذه المنظمة هي " أول هيئة عالمية ذات دستور مبني على قواعد التجارة في حين أن كل دستور آخر مبني على سيادة الشعوب و الدول-وكل دستور هدفه حماية الحياة فوق الربح، بينما دستور منظمة التجارة العالمية يحمي الربح فوق حقوق الحياة للإنسان و الكائنات الأخرى".¹

نصل إلى:

- تدويل السيادة و توسيع نطاقها، أدى إلى إضعاف الدولة القومية، و أفقدها نفوذها على صعيد السياسة الدولية لصالح الشركات متعددة الجنسية، التي تجاوز مدها " الحدود التي تفصل بين الدول والأقطار، كما تمكنت من إزالة كل الحدود الجمركي، و تغلبت على كل القيود التي تحول دون تدفق المعلومات، فسلبت بذلك الكثير من سلطات الدولة التي كانت تمارسها ضمن حدودها السياسية، والتي تعد من أهم مقوماتها سيادتها الوطنية، فأصبحت هذه الدول اليوم عاجزة غير قادرة على بسط سلطتها و قراراتها على أراضيها"²، وتحت توالي الضربات الرأسمالية الاحتكارية الموجعة، تضعف هذه الدول وتتراجع سلطتها، وتتقلص حريتها والمسؤوليات المنوطة بها، فتضطر إلى التخلي عن جزء من حقوقها وواجباتها تجاه رعاياها وحدودها الجغرافية.

- أجندة العولمة وأهدافها الخفية تديرها و تحققها سياسات اقتصادية وضغوطات مالية يمارسها مجموعة من الفاعلين الكبار، تضم أمريكا و دول الاتحاد الأوروبي، و الشركات العملاقة متعددة الجنسيات والمؤسسات الدولية الكبرى، أهمها: البنك الدولي،

¹ - المرجع السابق، ص77.

² - بويوش محمد: أثر التحولات الرأهنة على مفهوم السيادة الوطنية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2008، ص4.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

منظمة التجارة العالمية، صندوق النقد الدولي. و إن الحرية المتاحة في ظلها هي حرية تحكمها الأقلية في العالم، وتتهب خيرات الدول النامية، هي حرية الأقوياء في ابتلاع الضعفاء و تدمير اقتصاد الشعوب الفقيرة.

ثانيا: الآليات السياسية:

1- حقوق الإنسان:

عرف العاملون بحقل القانون الدولي حقوق الإنسان بأنها "مجموعة من القواعد و المبادئ المنصوص عليها في عدد من الإعلانات و المعاهدات الدولية، والتي تؤمن حقوق الأفراد و الشعوب في مواجهة الدولة أساسا، وهي لصيقة بالإنسان و غير قابلة للتنازل عنها، و تلتزم الدولة بحمايتها من الاعتداء أو الانتهاك"¹.

نال هذا الموضوع أهمية بالغة على مستوى العلاقات الداخلية و الدولية، و من قبل القانونيين الداخلي والخارجي للدول والمنظمات العالمية. وأخذت حقوق الإنسان طابعا عالميا بامتياز، وانتقل المفهوم من مجرد شأن داخلي تضطلع الدولة بتطبيقه إلى قانون عام ينص عليه القانون الدولي، لأن الفكرة توحى بالشمولية وترتبط بحقيقة الانتماء إلى الجنس البشري و حماية الكرامة الإنسانية، وتقوم على أساس أخلاقي دون تمييز بين المجتمعات. وهي قانونية تؤكد امتلاك الإنسان لحقوق عالمية مهما اختلف النظام القانوني الذي يخضع له، فقد ورد في إعلان فيينا الصادر عن المؤتمر الدولي لحقوق الإنسان عام 1993 أن "جميع حقوق الإنسان عالمية، و غير قابلة للتجزئة و مترابطة

¹ - ابراهيم أحمد خليفة: حقوق الإنسان، أنواعها و طرق حمايتها في القوانين المحلية و الدولية، المكتب العربي الحديث، الإسكندرية، 2008، ص23.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

و متشابكة، وأنه يجب على المجتمع الدولي أن يعامل حقوق الإنسان على أساس شامل و بطريقة منصفة و متكافئة و على قدر المساواة و بنفس القدر من التركيز¹.

و على الصعيد الواقعي، ولأنه مفهوم غربي، عرف هذا المصطلح معارضة بدعوى الخصوصية الثقافية، وأن تطبيقه غير ممكن تحقيقه فعليا ما لم تتخذ الثقافات الأخرى عن هويتها الخاصة و تندمج كلية في المنظومة الثقافية الغربية "إن الغرب يعتقد أن حدود الآفاق الإنسانية تنتهي عند حدود نظرتة، كما أنه يظهر بوضوح شعور الغرب بتهديد دائم من طرف أي نظام اجتماعي وقيمي يختلف عنه، وعليه فالغرب له نظرة خاصة للحقوق... و يعتقد أن قيمة المتعلقة بحقوق الإنسان هي قيم مطلقة، ولا يسمح بتوجيه أي نقد لمنطقه أو فلسفته"².

ومع انهيار المعسكر الشيوعي وانتهاء الحرب الباردة، تصاعدت الدعوة إلى إقامة نظام عالمي جديد، يقوم على أسس أهمها: حقوق الإنسان و الديمقراطية. وقادت الولايات المتحدة الأمريكية هذه الحملة و سعت إلى عولمة حقوق الإنسان من خلال سن قوانين و شرائع عالمية تلزم الدول بتطبيقها. لا للمحافظة على الكرامة الإنسانية، بل لاستخدامها كورقة ضغط و سلاح في سياستها الخارجية، لتحقيق من خلالها أهدافها التسلطية و هيمنتها الأيديولوجية.

و اللافت للانتباه أنها تعاملت مع المفهومين على المستوى الخارجي بازدواجية في المرحلة الراهنة نجحت الولايات المتحدة الأمريكية في تسيير مجلس الأمن الدولي نحو إصدار قرارات مجحفة تجانب المبادئ أو المقاصد الأساسية لحقوق الإنسان، من خلال

¹ - بن قانة شانز: حقوق الإنسان بين العالمية و النسبية الثقافية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التنظيم السياسي و الإداري، كلية العلوم السياسية و الإعلام، الجزائر، 2005-2006، ص47.

² - المرجع نفسه، ص148.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

التعسف في تطبيق الجزاءات الواردة في الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة، و هو ما أدى إلى نتائج خطيرة في حالي العراق و ليبيا...، هذا و قد أصابت قرارات مجلس الأمن الدولي الحقوق الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية للشعوب بأضرار بالغة¹.

ويفسر ذلك بأن ما كان ينظر إليه سابقا على أنه ضمن الاختصاص الداخلي للدولة أضحي اليوم تزامنا مع التطورات الدولية الراهنة من اختصاص المجتمع الدولي وعلى حساب مبدأ السيادة الوطنية، و كل مخالفة للقواعد القانونية الدولية و لأحكامها يعرض الدول المخالفة إلى عقوبات صارمة، و عليه فإن مفهوم السيادة في ظل العولمة اختلف عن المفهوم التقليدي. ويكفي في هذا الشأن الإشارة إلى قضايا حقوق الإنسان وفكرة المحاسبة الدولية "فما يحدث اليوم في المنطقة العربية وبقاع مختلفة من العالم، من دعوات لنشر الديمقراطية وممارسة الضغوط على الدول لاحترام حقوق الإنسان، و تغيير القوانين و الأنظمة السائدة فيها، وتقويض أنظمة الحكم إلى المواكبة للنظام العالمي الجديد، هو خير دليل على أن العولمة السياسية هي فرض الهيمنة ونشر المفاهيم بعيدا عن احترام خصوصيات الشعوب"². وفي الوقت الذي " ينادي فيه مروجو العولمة بالحرية والعدالة وحقوق الإنسان، يقومون باسم القوانين الدولية بتدمير مقدرات مخالفيهم، و يقومون في الوقت نفسه بغض الطرف عن جرائم حلفائهم في انتهاك جميع الأعراف و القوانين الدولية"³.

¹ - محمد فائق: حقوق الانسان بين الخصوصية والعالمية، مجلة المستقبل العربي، القاهرة، العدد 245، يوليو، 1997، ص06.

² - عبد العزيز منصور: العولمة و الخيارات العربية المستقبلية، مجلة جامعة دمشق، دمشق، سوريا، العدد2، 2009، ص570.

³ - سعود آل سعود: لمحات عن العولمة من منظر إسلامي، جامعة الملك سعود، الرياض، السعودية، 2004، ص18.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

هذه الازدواجية في المعايير، أدت إلى عدم الثقة بقرارات الدول الغربية، فيما يخص الحرية و حقوق الإنسان و كل ما له صلة بمفردات الليبرالية الديمقراطية الحديثة "في عصر العولمة منحت الدول الغربية الكبرى وعلى رأسها الولايات المتحدة نفسها الحق في مطالبة دول العالم الثالث بالديمقراطية وحقوق الإنسان و حكم القانون، و حد أدنى من العدالة في توزيع الثروة القومية، والوضوح في الأفكار و التحركات، أو ما سمته بالشفافية، ولكن هذه الدول نفسها، خاصة الولايات المتحدة ترفض الديمقراطية على المستوى العالمي، واحترام سيادة الدولة احتراماً كاملاً، و إعادة توزيع الثروة على المستوى العالمي"¹.

مما سبق عرضه، نخلص إلى:

- حقوق الأقليات وحقوق الإنسان و الديمقراطية أوراق ابتزاز وذريعة للتدخل في الشأن الداخلي للدول القومية. وإن ضمان عالمية قوية وفعالة لهذه الشعارات، يكون بطرح كل المعايير المزدوجة والمنطق الذرائعي، و بتبني مبدأ عدم الانتقائية في التعامل مع القضايا المصيرية.

2- الديمقراطية:

تباينت مفاهيم الديمقراطية باختلاف اتجاهات وأطر المفكرين، وهي مفهوم يغلب عليه طابع المرونة والنسبية، فمن الصعوبة إيجاد تعريف موحد، لكن هناك انطباع غالب يقضي بأنها حكم الشعب و أنها تتأسس على مفهوم الحرية "الديمقراطية بمعناها البسيط هي حكم الشعب، وطالما هناك شعب، فإنها مرتبطة بالدولة القومية، لكن مع التطورات المختلفة أصبحت صلاحيتها بوصفها صيغة قومية للتنظيم السياسي مثار جدل ونقاش"².

¹ - نبيل راغب: أفتحة العولمة السبعة، مرجع سابق، ص205.

² - ديفيد هيلد: نماذج ديمقراطية، تر، فاضل جتكر، معهد الدراسات الاستراتيجية، دط، العراق، 2006، ص575.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

النظام الديمقراطي هو النظام الوحيد الذي يجسد فكرة المواطنة، ويكفل للمواطن حق المساواة في الحقوق والواجبات والمشاركة في كل الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية و السياسية، فالشعب يخضع لسلطة القانون و الدساتير و أنظمة الدولة ما دام هو واضعها و مهندسها. والمجتمع المدني بكل مؤسساته غير الحكومية و تشكيلاته السياسية و الاجتماعية و النقابية و الدينية... يسهم في اتخاذ التدابير وسن القرارات. والمواطنون بمختلف انتماءاتهم وأيديولوجياتهم لهم حق المشاركة السياسية والإدلاء بأرائهم في المسائل المصيرية، باعتماد الحوار والاعتراف بالآخر والشفافية و المساواة، كما يسمح لهم بمراقبة الشأن العام للدولة و محاسبة الفاعلين والممثلين السياسيين و المشاركة في صياغة السياسات، و بلورة الخطط ومناقشتها ولهم أيضا حق الموافقة أو الاعتراض.

و تتحدد ماهية الديمقراطية في محاور ثلاثة هي: احترام حقوق الإنسان، و تطبيق مبدأ التداول على السلطة، و سيادة قانون التعددية السياسية و الفكرية و الدينية. و عليه تكون الديمقراطية قيمة أخلاقية ومنجزا إنسانيا، ونظاما قائما على المساواة والحرية والعدل و الكرامة الإنسانية، وعلى احترام الآخرو الاعتراف بغيريته لأن "جوهر النظرية الديمقراطية يكمن في الروح الرياضية أي تقبل الرأي الآخر مهما كان نوعه ومصدره"¹.

ومع بروز الطابع الكوني وانهيار النظام الشيوعي، تصاعد مد الديمقراطية الليبرالية و انحصرت الديمقراطية التمثيلية التي أثبتت فشلها، وفقد المواطن الثقة في ممثليه و عزف عن المشاركة السياسية، بسبب انتهاج الحكومات لممارسات غير ديمقراطية، أفقدت المشهد السياسي الوطني فاعليته و سيادته. ودعم ذلك بروز فواعل مدنية محلية و عالمية قاسمت الدولة سلطتها و سياستها " وفي ظل هذه الظروف قد لا يكون للحكومة دور مباشر في

¹ - محمد أحمد علي مفتي: نقد الجذور الفكرية للديمقراطية الغربية، مكتبة الملك فهد، ط1، الرياض، 2002، ص22.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

القرارات الحيوية التي تؤثر على أمن ورفاهية مواطنيها، وقد لا يكون لقراراتها تأثيرات عميقة تتجاوز سلطانها و اختصاصاتها داخل حدودها الإقليمية، ففي نظام عالمي شديد الترابط تنتشر ممارسات القوة و السلطة عبر الحدود الإقليمية، و تقع بعيدا عن طائلة الآليات الوطنية للسيطرة و المساءلة الديمقراطية¹.

لقد تغلغت السياسة الأمريكية في كل المجالات وأخضعت عديدا من مفاهيم السياسة للمراجعة بهدف إقامة نظام سياسي عالمي يخدم مصالحها "نظام قائم على سيادة الديمقراطية، والتعددية و الملكية الفردية و حقوق الإنسان، و نظام عالمي جديد، يعيد النظر في العلاقات الدولية و مفاهيم و إيديولوجيات روجت لها الآلية الأمريكية، و تستعملها عنوانا للتدخل في الشؤون الداخلية للدول بطريقة مباشرة، تارة بدعوى نشر الديمقراطية و تحرير الشعوب، و تارة أخرى بدعوى محاربة الإرهاب و تحقيق الأمن الدولي تحت غطاء أممي و دولي كما حدث في أفغانستان و العراق، أمام تراجع دوو و تأثير هيئة الأمم، و مجلس الأمن الخاضعين لإرادة و سياسة الأقوى"².

فبذريعة حماية الشعوب من أنظمتها الدكتاتورية و أجهزتها القمعية، وسعيا منها إلى تسويق تجربتها الديمقراطية، باشرت القوى الليبرالية الديمقراطية بزعامة الولايات المتحدة في إجراء تعديلات و توسيع نصوص ميثاق الأمم المتحدة و مجلس الأمن الدولي بما يخدم مصالحها، واتخذتها حجة للتدخل في شؤون الدول و سياساتها، تحت ستار الشرعية الدولية و حفظ الأمن و السلام العالمي، و فض النزاعات و مكافحة الإرهاب و الحفاظ على المجال البيئي، و محاربة انتهاكات حقوق الإنسان و الديمقراطية... و غيرها من

¹ - ديفيد هيلد: نماذج ديمقراطية، مرجع سابق، ص 557.

² - نعوم تشومسكي: السيطرة على الإعلام، تر: أميمة عبد اللطيف، دار الشروق الدولية، ط8، القاهرة، 2003، ص7.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

الحجج الواهية. وما التهاب بؤر التوتر في العالم وارتفاع معدلات الصراعات الداخلية والخارجية، والحروب العرقية و الحدودية، وتنامي الجريمة الإرهابية دولياً، واستغلال تجارة المخدرات، و التصدعات السياسية الداخلية و الخارجية. إلا مظاهر للديمقراطية المزعومة. فالممارسات على أرض الواقع تفضح أكاذيب السياسة الليبرالية وتعري زيفها، وتشهد على أن ديمقراطية البيض أداة استبداد و استغلال، توظفها أدوات بشرية وأنظمة وحشية يقدم لها كامل الدعم" النموذج المثالي للديمقراطية على المستويين الداخلي والخارجي بسيط و بالغ الوضوح: لك الحرية في أن تفعل ما تشاء طالما أنك لا تفعل إلا الشيء الذي نريده نحن"¹.

الكيل بمكيالين و المراوغة والذرائعية هي ركائز السياسة الأمريكية لتمرير مصالحها و تنفيذ أجندتها"السياسة الأمريكية تتعامل مع هذه القصة بنوع من البراغماتية و الانتهازية السياسية، التي تتجلى أبرز صورها في المعايير المزدوجة التي تطبقها بهذا الخصوص، و عدم تردها في التضحية بقيم الديمقراطية و مبادئ حقوق الإنسان في حال تعارضها مع مصالحها الاقتصادية و التجارية، وهكذا يتبين أن العولمة الأمريكية لا تتبنى قضية الديمقراطية و حقوق الإنسانية كرسالة أخلاقية عالمية، بل تتخذها كأداة لخدمة مصالحها و سياستها الخارجية"².

و توظف العولمة حسب المفهوم السابق أداة لفرض العقوبات على الدول التي ترفض وصاية النظام العالمي الجديد ذي القطبية الواحدة، و هي نظام كرس لشن الحصار

¹ - نعوم تشومسكي: ردع الديمقراطية، تر: فاضل جتكر، دار كنعان للدراسات و النشر، ط1، سوريا، 1992، ص344.

² - حسنين توفيق إبراهيم: العولمة، الأبعاد و الانعكاسات السياسية، رؤية أولية من منظور علم السياسة مجلة عالم الفكر، الكويت ع27، 1997، ص190.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

الجوي و البحري و الغزو العسكري، لذلك هي بحاجة إلى الضبط لأنها تمثل تهديدا لنظم الدولة، ولا يمكنها أن تنتج أي نوع من السلام، إنها " نظام مليء بالانفجار المستمر، انفجارات وانتفاضات مستمرة، سياسته إدارة الأزمات تتم إما من خلال التدخل العسكري المباشر كما حدث في حرب الخليج الثانية، أو من خلال تحريك القوة التي تؤدي إلى التخلص من نظم الدولة باسم الإثنية أو الدين و اللامركزية، لدرجة أن الهدف هو إدارة الأزمة من خلال ضرب النظم الحكومية، نظم الدولة و كسرها نهائيا، و تفتت المجتمعات على أسس عرقية وإثنية و دينية وغيرها... و سياسة إدارة الأزمات لها جانبان: اقتصادي يتمثل في أسعار الفائدة و الديون الخارجية، وجانب سياسي يتمثل في الاستغلال الواعي للقوى التي تؤدي إلى تفتت نظم الدولة"¹. وعليه ستقع الدول أمام خيارين: إما إعادة هيكلة بنيتها و التكيف مع الظاهرة و التكتل في إطار الدولة القومية، فتنجو بذلك من التشرذم و التفكك، و إما الوقوع فريسة للتصدع و التمزق. و ستكون دول العالم الثالث أكثر الدول عرضة لمخاطر العولمة نظرا لهشاشة مؤسساتها، وضعف أجهزتها، و نقص إمكانياتها، و تفتت حدودها الوطنية، و وقوعها تحت طائل الصراعات الإثنية و العرقية.

في ضوء ما سبق، هل يمكن الحديث عن ديمقراطية عالمية كونية تحضي بإجماع عالمي، بغض النظر عن الفروقات العقدية و الثقافية للمجموعات البشرية المتباينة، مع توسع القانون الدولي و حتمية العولمة السياسية؟.

لقد فصل المفكر الياباني الأصل فرانسيس فوكوياما (Francis Fukuyama) الجواب متبججا في كتابه "نهاية التاريخ و الإنسان الأخير" حيث أقر أن النظام الديمقراطي الليبرالي هو أصلح الأنظمة على الإطلاق، فلا وجود لنظام بديل يمكن أن ينافسه، و أنه

¹ - سمير أمين: ندوة العرب و النظام العالمي الجديد، في الكتاب الصادر عن الأسبوع الثقافي الثالث لقسم الفلسفة بكلية الآداب، جامعة دمشق، 1997، ص5.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

النموذج الأصوب الذي وجب العمل به و تطبيق تصوراته، و أنه يشكل نقطة النهاية في التطور الإيديولوجي للإنسانية و الصورة النهائية لنظام الحكم البشري "مع سقوط الاتحاد السوفيتي ولد اعتقاد لدى الغرب، و خاصة الولايات المتحدة الأمريكية، بأن هناك ثورة ديمقراطية كونية في الطريق و أن المفاهيم الغربية عن حقوق الإنسان و الأشكال الغربية الديمقراطية السياسية سوف تسود العالم بسرعة"¹. وأصر شططا "أن البداهة التجريبية تشهد في الواقع أنه منذ مئتي سنة لم تتصرف الديمقراطيات الليبرالية تجاه بعضها بشكل إمبريالي، حتى و لو كانت قادرة على محاربة الدول غير الديمقراطية أو التي لا تقاسمها قيمها الأساسية"².

نصل إلى:

- القانون الدولي و النظام الديمقراطي الليبرالي كما تفهمه القوى العظمى، مجرد قناع زائف لإخفاء حكم القوة. فالحروب القذرة وحمات الدم و الإرهاب المسلط على شعوب العالم الضعيفة ممارسات إجرامية في حق الإنسانية، تغذيها الأنانية الفردية و التعصب الأعمى. لكنها في مفهوم الغرب الإمبريالي البراغماتي، عمل بناء وحنكة سياسية، و فن من فنون الإدارة و التسيير و أخطاء قابلة للفهم.

- الليبرالية كمنهج سياسي و الرأسمالية كنظام ديمقراطي لم تفيا بوعودهما، و لم تحميا الحريات و الحقوق، بل تحولتا إلى امتيازات و مظلات أخلاقية بيد ثلة من الرأسماليين

¹ - صامويل هنتجتون: صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي، تر: طلعت الشايب، تقديم: صلاح قنصوة، ط2، 1999، ص ص 309-310.

² - فرانسيس فوكوياما: نهاية التاريخ و خاتم البشر، تر: حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للتر و النشر، ط1، 1993، ص30.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

و السياسيين، تختفي وراءها مؤسسات عالمية و منظمات دولية، تسير وفق تكتيك محكم لتنفيذ أجندة براغماتية و مخططات نفعية.

- تحقق الديمقراطية منوط بقدره الشعوب على فرض إملاءاتها وإراداتها على الساسة، وفي غياب ذلك و مع تحكم أصحاب المال و النفوذ و الشركات الكبرى في مسائل التشريع، و انتفاعهم من تبعية العاملين بحقل السياسة لمصالحهم، ستنفرد الصفوة السياسية والاقتصادية بصنع القرارات، ويهمش الرأي العام بحجج مواجهة التحديات الخطيرة و المحافظة على الأمن القومي. و ستبقى الديمقراطية واقعا مجرد حلم، نظريات، يوتوبيا، ما بقيت قنوات الاتصال و الحوار غائبة بين المركز و الأطراف، و ستتواصل عمليات خرق الحقوق الإنسانية.

ثالثا: الآليات الإعلامية:

يضطلع الإعلام بدور كبير في مجريات الأحداث و حركة المجتمع إيجابا أو سلبا، وقد طفحت تداعياته وتأثيراته التي لا يستهان بها على المستويين المحلي و العالمي، وتعاضمت قوته وسطوته، فعجزت الحكومات والدول عن اعتراض سبيله و تحجيم خطورته. لقد غيرت الثورة المعلوماتية و التطور الهائل الذي شهدته وسائل الاتصال و تكنولوجيا انتقال المعلومة حياة البشر و سلوكياتهم و طرائق تفكيرهم و أنماط عيشهم و نسيجهم الثقافي بسرعة، خلافا للماضي أين كان التغيير بحاجة لعشرات من السنين.

وفتحت هذه القفزة النوعية آفاقا جديدة أمام البشرية، من خلال زيادة الترابط و الاندماج بين المجتمعات في شتى أنحاء المعمورة، عن طريق الملايين من شبكات الحواسيب و الأنترنت والأقمار الصناعية والقنوات التلفزيونية الفضائية، و عديد من الوسائل الإعلامية المسموعة و المرئية و الوسائط المقروءة، أو ما اصطلح على تسميته

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

بالإعلام المدموج " لقد غيرت تقنية الأقمار الصناعية العالم إلى الأبد و لم تصل النتائج الكاملة إلى نهايتها حتى تاريخ اليوم، فهذه الأقمار الصناعية تربط العالم الآن في بنية تحتية إلكترونية، وتنقل الأخبار و المال و البيانات إلى أي مكان في العالم و بسرعة الضوء، وهذه الأقمار لا تنقل إرسال التلفزيون والراديو و الهاتف حول العالم و حسب، بل إنها غيرت جذريا بفعالها هذا للأسوء أو الأحسن "ميزان قوى الإعلام " و أبعده عن الدولة في اتجاه الفرد"¹.

وتبعاً لهذه التطورات السريعة والاكتشافات العلمية التي يشهدها قطاع تكنولوجيا الاتصال و المعلومات، و الصناعات الإلكترونية غيرت المفاهيم و الوظائف في حقل الإعلام. فلم يعد إعلام العولمة يعنى فقط بنقل المعلومات و الأخبار إلى الجماهير، و لم يعد دوره مقتصرًا على جمع المعلومات و بثها، بل تعدى ذلك إلى وظائف مختلفة، واستخدامات جديدة حطمت الإعلام التقليدي، و قادتته إلى نمط اتصالي تفاعلي قائم على الحرية و المباشرة بين المرسل و المتلقي، مكن من تبادل الأدوار بين الطرفين، كما وسع من حرية المستقبل في الاختيار. واختلفت مضامين رسائله وتعددت أبعادها وأهدافها ضمن مفاهيم و إيديولوجيات متناقضة، سواء كانت سياسية أو ثقافية و اجتماعية، اتخذت من الفضاء المعرفي العالمي ومن الثقافة أساساً لتكرس منطق الربح الرأسمالي، واستهدف بعضها الهيمنة ضمن منطق إعاقة الدول و السيطرة عليها، من خلال التحكم في تشكيل الرأي و بلورة الوعي و السلوك، ذلك أن التدفق الإعلامي و الضخ الفضائي ينقل رسائل إعلامية تتكيف مع رغبات و أهداف مبيتة. ولا شك أن حقل الإعلام و الدعاية بيد عمالقة و أصحاب مصالح كبرى، يملكون القدرة على تلوين و توجيه حركته و مساره، لا

¹ - ولتر برستون: كيف تحول ثورة المعلومات عالماً، أصول السيادة، تر: سمير عزت نصار و جورج خوري، دار النسر للنشر و التوزيع، ط1، عمان، الأردن، 1995، ص150.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

سيما وأن الإعلام المعولم أحادي الجانب، يبيث ثقافة معلبة تتضمن منظومة من القيم والرموز والقناعات قد تتناقض مع البني التقليدية الأصيلة. وتدرج فيه "وسائل الإعلام في عدد من التكتلات الرأسمالية والشركات الدولية عابرة للجنسيات، تستخدم وسائل الإعلام كحافز للاستهلاك على النطاق العالمي، بحيث تتحول ثقافة الإنتاج الفكري والإبداعي إلى ثقافة الاستهلاك السلعي والتجاري"¹.

ويعتمد الإعلام أساساً على مؤسسات إعلامية عالمية وشركات دولية متعددة الجنسيات تتحكم في صناعة المعلومة وتوزيعها بما يخدم مصالح العولمة، حيث تحول هذا المجال إلى أداة طبيعة في يد جماعة من الرأسماليين، يهندسون سيناريوهاتهم ويخطون مضامينه الثقافية، ومن هنا تكتسب المعلوماتية خطورتها، في قدرتها على التأثير في الثقافة والمساهمة في صناعتها، لأن الإعلام المعولم يهاجم البني الفكرية والعقدية والثقافية والسياسية والاقتصادية للدول الوطنية والقومية، وهو "اعتداء صريح ومباشر على التعددية الثقافية وفرض قيم الربح والخسارة والسمسرة والمضاربة وآليات السوق على مجالات الإعلام والاتصال والمعلومات، كما أنه اعتداء على حرية وسائل الإعلام والحق في الاتصال، وتقويض سلطة الدولة لصالح الشركات الاحتكارية متعددة الجنسيات"².

ويسيطر على هذا الحقل الإعلامي الولايات المتحدة الأمريكية والدول الصناعية الكبرى، وتتمارس عليه احتكارات على مستوى الإنتاج والتسويق، فهي "تتبوأ بلا جدل مكان الصدارة في صادراتها من التكنولوجيا المتطورة. فالشركات الأمريكية تتحكم في (50%) من الشركات العالمية للألياف البصرية، و(73%) من صادرات الصناعة

¹ - نبيل راغب: أفتحة العولمة السبعة، مرجع سابق، ص 312.

² - المرجع نفسه، ص 317.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

المعلوماتية و(75%) من مبيعات المعدات الفضائية، و لم تفتأ الصادرات الأمريكية من التكنولوجيا المتطورة من تسجيل تقدم مطرد منذ عام 1990، إذ بلغ رقم معاملات شركة IBM وحدها 785 بليون دولار سنة 1997¹.

و قد ضاعفت التكتلات الإعلامية الدولية من هيمنة دول المركز على ملكية هذا القطاع، و سيطرت على المحتوى و المضامين و الأشكال المنتجة، و تمكنت من فتح فروع تابعة لها، و إيجاد موزعين لمنتجاتها الإعلامية، لقد" أفضت حركة التركيز في الملكية و عملية الاندماجات الكبرى إلى ظهور خمس مؤسسات عملاقة تعرف باللاعبين الخمس الكبار هي: ديزني، برتلسمان، تايم وارنر، فياكوم، وشركات الأخبار نيوز كوربريشن، و باستثناء الثانية و الأخيرة فكلها شركات أمريكية، مع ملاحظة أن شركة برتلسمان هي ملكية ألمانية لكنها أكبر شركة نشر في الولايات المتحدة"². و إلى جانب الشركات الإعلامية العملاقة، يرتكز الإعلام المعولم على الإذاعات الدولية، و الصحافة العالمية، ووكالات الأنباء العالمية، وعلى البث التلفزيوني عبر الأقمار الصناعية و شبكة الانترنت.

يقول شيللر (Herbert Schiller) أحد المنظرين لأطروحة الاستعمار الثقافي و الإعلامي: "لقد انشغل صناع القرار السياسي و المفكرون الغربيون بالبحث عن بدائل تضمن استمرار السيطرة الغربية و على وجه التحديد الأمريكية على الأوضاع الثقافية و الاقتصادية الدولية، فاستقر رأيهم على التكنولوجيا كبديل، و تتضمن هذه التكنولوجيا

¹ - عبد الغني رجواني: عصر المعلومات، سلسلة المعرفة للجميع، ع9، منشورات رمسيس الرباط، المغرب، 1999، ص ص 56-57.

² - محي الدين تيتاوي: العولمة و تحديات الاختراق الثقافي، في كتاب العولمة و أثرها في الاقتصاد العربي، دط، بيت الحكمة، بغداد، العراق، 2002، ص9.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

شبكات الكمبيوتر و نظم الأقمار الصناعية، و تقوم هذه الشبكات ببث كميات هائلة من الأخبار و المعلومات عبر دوائر عابرة للحدود القومية، وأكثر من ذلك فإنها سوف تصبح في منأى عن الرقابة المحلية، ولذلك فان هذا التوسع في الاستخدام العالمي للمعلومات من ناحية البث الإلكتروني و شبكات بنوك المعلومات سوف يكون له آثاره الخطيرة على الثقافات القومية في الأعوام القادمة"¹.

وتتولى هذه المهمة أجهزة إلكترونية عديدة لعل أشهرها وأكثرها خطورة:

1- الإنترنت:

غدت الإنترنت جزءا هاما لا يتجزأ من البنية الاتصالية العالمية، وهي فضاء كوني مفتوح يتشكل داخله نموذج تواصل جديد، يقوم على إنهاء الحدود بين منتج المحتوى الإلكتروني و بين متلقيه. مكنت هذه التقنية مستخدميها من الحصول على المعلومات بأقل جهد فكري و مالي، فغذت مداركهم العقلية ووسعت ثقافتهم و معارفهم و أشبعت رغباتهم النفسية و الاجتماعية من خلال خلقهم لعلاقات تواصلية جديدة عبر شبكاتها و برامجها الإدارية المتعددة، فكسبت بذلك جمهورا عريضا تزداد نسبته يوميا. و تمكنت هذه الأخيرة من منافسة وسائل الإعلام التقليدية و التفوق عليها، بما تتوفر عليه من ميزات، لعل أهميتها: سمة التفاعلية و إشراك المستقبل في إنتاج المحتوى عبر المنتديات الإلكترونية، و سجلات الزوار، وقواعد البيانات، و الوسائط المتعددة، و البرمجيات التي تقوم عليها، و شبكة الحواسيب الآلية المرتبطة فيما بينها عالميا، عن طريق خطوط الهاتف، أو عن طريق الأقمار الصناعية.

¹ - ينظر: عواطف عبد الرحمان: قضايا التبعية الإعلامية و الثقافية في العالم الثالث، سلسلة كتب ثقافية شهرية، المجلس الوطني للثقافة و الفنون والآداب، الكويت، 1990، ص41.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

لقد "جذبت هذه الشبكة العديد من وسائل الإعلام التقليدية conventional (media) إليها، و أجبرتها على التكيف مع طبيعة تكنولوجيا المعلومات، وقللت الفروق بين أشكالها المختلفة (كتاب، صحيفة، مجلة، وكالة أنباء، سينما، إذاعة، تلفزيون)، وشجعت هذه الأشكال على التوافر عبر الشبكة فقط، دون المرور من تجربة التواجد التقليدي (الورق-الشاشة-المذياع-التلفاز)"¹.

إن الخدمات التي تقدمها الأنترنت كثيرة يصعب حصرها، وهي في تزايد مستمر تزامنا مع التطورات السريعة في مجال الاتصالات و الإعلام، منها "الاستفادة من الرسائل العلمية والكتب والمعلومات الخاصة بالعلوم، التي لا يتيسر للإنسان وجودها في المكتبات العامة، سهولة و مشاهدة الأفلام و الأحداث المصورة السياسية و الرياضية والعلمية والثقافية، و متابعة الأحداث العالمية فور حدوثها وبتفاصيل أوفى من تلك التي يقدمها التلفزيون والراديو والصحف والتعليم والتعلم عن بعد"².

وقد أوجدت هذه الشبكة الدولية مجتمعات افتراضية ذات معايير خاصة، تختلف في كثير من الأحيان عن الثقافة الأصلية للمجتمعات المستقلة، يتعدى تأثيرها الجوانب التكنولوجية، ليلامس حقول الاجتماع والثقافة. ويحدث تعديلات في المحيط النفسي وطرائق تفكير و أنماط سلوك مستخدميها، يختلف مفعولها تبعا لتعاملهم معها وتفاعلهم مع محتوياتها.

و أسهمت تكنولوجيا الاتصال الحديثة في تحويل الثقافة إلى صناعة، و تجارة كونية تتخطى القوانين التي تعتمدها الدول لتوزيع المنتجات الثقافية أو لاستقبالها. و الثقافة التي

¹ - محمد الأمين موسى: توظيف الوسائل المتعددة في الإعلام الإلكتروني العربي، مؤتمر "صحافية الانترنت، الواقع و التحديات، الإمارات العربية المتحدة، نوفمبر، 2005، ص4.

² - محمد علي شمو: الاتصال الدولي والتكنولوجيا الحديثة، مكتبة الإشعاع، الإسكندرية، مصر، 2002، صص 242-243.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

تقدمها الأنترنت بنسب كبيرة هي "الثقافة السطحية القائمة على تمجيد الذات والفردية، أو ثقافة المأكولات السريعة كما يسمونها، لأنها ثقافة المتغيرات لا الثوابت، لا تضبطها قيم روحية أو تربوية، بحيث أنها تعتمد على الرغبات الإنسانية نحو التحرر والمصلحة والاستمتاع، وإن فسح المجال أمام هكذا نوع من الثقافة ناتج حسبهم، عن التسارع وعدم التوازن في استثمار تقنيات و مواقع ومعلومات الإنترنت، فاختيار العلم والبحث والتواصل بين المفكرين و الباحثين، يخف تأثيره أمام قدرة مؤثرات المالتيميديا¹* في فسح مجال التقنيات والخدمات القائمة على الألعاب الإلكترونية والصور الخلاعية وعارضات الأزياء...، وحتى تمجيد لاعبي الكرة وبعض المغنيين في أعين الشباب المراهق، الذي لم يع مخاطر هذه الثقافة الاستهلاكية"².

والأشد خطورة أن الإبحار في عالم الإنترنت يحدث دون جواز سفر و دون وثائق هوية، و تغيب فيه قوانين الرقابة و الضبط. وقد مكنت هذه الحرية الإلكترونية المواقع الإباحية من احتلال الصدارة عبر الانترنت من حيث الإنتاج ونسب المشاهدة، لأنها تلقى دعماً كاملاً و تشجيعاً قانونياً من الجماعات الافتراضية، ولعل رواجها يعود إلى عامل الإغراء الذي يرافق عرضها، إضافة إلى مشاهد العنف و القتل و الاختطاف، التي يمكن تحميلها و تداولها بكل سهولة.

ومن هنا أضحت الثقافة الاستهلاكية المبدأ الرئيس للرأسمالية المعلوماتية، وأضحت الرغبات و الأهواء هدفاً وغاية، وإشباعها ضرورة لتحقيق التوازن "لقد تمثلت أهم الملامح الرئيسية لهذه الثقافة في حب التملك، وتكريس حب الاستهلاك، كوسائل لتحقيق السعادة

¹ * المالتيميديا وهي وسائل الإعلام المتعددة، أو الوسائط الإعلامية المتعددة.

² - هاني شحاتة الخوري: تكنولوجيا المعلومات على أعقاب القرن الحادي و العشرين، مركز الرضا للكمبيوتر، ط1، دمشق، سوريا، 1998، ص ص 177-178.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

ونشر مذهب جديد وإطلاق العنان لعنوان الرغبة، وكان ذلك باسم الديمقراطية، فضلا عن تكريس مبدأ اعتبارية قيمة الأموال، وكأنها المعيار المهم على كافة القيم السائدة في المجتمع¹. لقد منحت هذه المواقع مستعملها الجنات والفردوس التي يعد بها الشيطان، وروجت إلى ضرورة استبعاد الأخلاقيات والديانات وقيم المجتمع، وكل أساليب الضبط الذاتي و المناعة الثقافية، وحثتهم على استغلال الفرص لإشباع الرغبات، فالثقافة التي تنتشرها ثقافة مادية بحتة تزري بالكرامة الإنسانية، و تنزل بالإنسان إلى مستوى الحيوانية " إن إنجيل الإعلام و القائمين عليه هو المادية و المال، والعمدة التي يقوم عليها هي الجريمة و الجنس و الاستهلاكية. هذا التلوث الحضاري و الثقافي هو ما تروم الجهود الرامية لعولمة الإعلام تصديره إلى دول العالم المتخلف. والعالم يصاب بنوبة جنون مفاجئة تجعله يقبل على هذا الذي يباع له و يولع به "².

إن وسائل الإعلام و تكنولوجيات الاتصال وسيط لنقل الثقافة و تشكيل المفاهيم، و إنتاج الرموز الثقافية في المجتمع، و بلورة الوعي و السلوك. وإن كثافة التعرض لمفاهيمها يؤثر في تكوين الأفراد فكرا و ذوقا و وجدانا، وقد زحزحت دور الأسرة و المدرسة ومؤسسات التنشئة الاجتماعية الأصلية، وغدت مصدرا أساسيا للمعاني و الإدراكات التي تتشكل بذواتنا.

¹ - عبد الحي يحيى الزلوم: نذر العولمة، هل بوسع العالم أن يقول لا للرأسمالية المعلوماتية؟، المؤسسة العربية للدراسات النشر، ط1، بيروت، لبنان، 1999، ص85.

² - المرجع نفسه، ص312.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

2-القنوات الفضائية، البث التلفزيوني المباشر.

القنوات الفضائية أو البث المباشر عبر الأقمار الصناعية هو أهم حدث حققه التقدم التكنولوجي في مجال الاتصالات وتكنولوجيات الإعلام. لقد استطاع البث الفضائي أن يرسم لنفسه بعدا عالميا، سواء تعلق الأمر بتغطية الأحداث أو معالجتها أو بالاستجابة لحاجات الجمهور المتلقي من خلال استخدام أقمارالاتصال ووكالات الإعلام العالمية. فمن خلال التسهيلات و الفرص التي يقدمها لشعوب العالم،ممكن من ربط أطراف العالم ببعضها،و سهل صور الاتصال السياسي و الثقافي و الاجتماعي، وساهم في مد جسور الحوار الحضاري،وتثقيف الجماهير،و ربطه بالعديد من القضايا و المشكلات المطروحة على الساحة المحلية والعالمية، ومنح الفرد القدرة على الانتقاء وعلى تكوين رأي مستقل نسبيا عن فكر الحكومات الاستبدادية.كما أن البث الحي والمباشر للأخبار وضع المتلقي في قلب الحدث لحظة حدوثه. دون إغفال جانب الترفيه والاستمتاع، وعليه وجب التنبه إلى أنه آلية هامة للإنتاج الثقافي ولتشكيل النسيج القيمي و الاجتماعي للشعوب،و قوة مؤثرة في رسم الملامح الرئيسية للمجتمع العالمي المعاصر، بما يبثه من صور و رسائل قادرة على صوغ الأفكار و السلوكيات.

لكن هذا الواقع لا يعدم حقيقة أن هذا الفضاء المعرفي المعولم قد وظف الثقافة توظيفا إيديولوجيا،وجعلها أداة للسيطرة الرمزية،وآلية من آليات التلاعب بالعقول، و طريقة معينة لإدراك العالم و التعبير عنه،ووسيلة لتكريس الربح بسلعنتها،و لزعة النظم الاجتماعية وتقويض أركانها، لتحل محلها قيم البراغماتية والأناية و الفردية و الثقافة الاستهلاكية "إن العولمة عالم بدون دولة، بدون أمة، بدون وطن، إنه عالم المؤسسات و الشبكات العالمية، عالم "الفاعلين" وهم المسيرون، و "المفعول فيهم " وهم المستهلكون للسلع والصور و المعلومات و الحركات و السكنات التي تفرض عليهم، أما وطنهم فهو

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

الفضاء "المعلوماتي"، الذي تصنفه شبكات الاتصال، الفضاء الذي يحتوي يسيطر و يوجه الاقتصاد و السياسة و الثقافة"¹. إن الإعلام الفضائي اليوم لم يعد أشكالاً رمزية للأنظمة الإعلامية، بل أضحت ناقلاً للثقافة، ولم تعد القضية تقنية بقدر ما صارت مسألة ثقافية و قضية سلطة بتعاقد ثقافة الصورة، التي شكلت قطيعة مع الثقافة المكتوبة، وهي "ثقافة إخبارية إعلامية سمعية و بصرية، تصنع الذوق الاستهلاكي الإشهار التجاري والرأي السياسي الدعاية الانتخابية، و تشيد رؤية خاصة للإنسان والمجتمع والتاريخ، إنها ثقافة الاختراق التي تقدمها العولمة بديلاً عن الطرح الإيديولوجي، إنها تسعى إلى تسطيح الوعي بهدف تكريس نوع من الاستهلاك لنوع من المعارف و السلع و البضائع"².

و للأسف أثرت هذه الثقافة فعليا في طرائق تفكيرنا، و نمطت إلى حد ما اهتماماتنا و رغباتنا و أذواقنا وأصبح عالم الصور الذي تصفه العولمة الإعلامية هو المتحكم في تأسيس الواقع، رغم أن منطق الصورة فاقد للمرجعية القيمة و للواقعية، فهو تجارة مربحة، تتحكم فيها المصالح و رؤوس الأموال، و تتحول فيها القيم إلى مجرد منتج مادي ذي قيمة مادية "يميل مهندسو العولمة الثقافية إلى التركيز على ما يعرف بثقافة الصورة، فقد أصبحت ثقافة الصورة في ظل العولمة - فهي المفتاح السحري لنظام إنتاج وعي الإنسان بالعالم، فالصورة هي المبادرة الثقافية التي يمكن تسويقها على أوسع نطاق جماهيري، إذ لا تحتاج الصورة إلى المصاحبة اللغوية كي تنفذ إلى إدراك المتلقي، إذ أنها تمثل لغة بذاتها و لعل ذلك مكن خطورتها... هكذا بات من الملاحظ - في عصر العولمة -

¹ - محمد عابد الجابري: العولمة و الهوية الثقافية، تقييم نقدي لممارسات العولمة في المجال الثقافي، ندوة العرب والعولمة، بحوث و مناقشات الندوة الفكرية، مركز دراسات الوحدة العربية، تحرير: أسامة أمين الخولي، ط1، بيروت، لبنان، 1998، ص303.

² - محمد عابد الجابري، العولمة و الهوية الثقافية، مجلة المستقبل العربي، العدد2، بيروت، لبنان، 1998، ص18.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

طغيان ثقافة الصورة على الوعي الثقافي الإنساني مع التراجع الشديد لمعدلات القراءة، واندثار ثقافة الكلمة أمام الهجمة الشرسة للإعلام السمعي البصري¹.

المبحث الثاني: في ماهية العولمة الثقافية و علاقتها بالهوية.

المطلب الأول: في تعريف الثقافة:

أولاً: المفهوم اللغوي للثقافة:

1- في الفكر العربي:

الثقافة في المعاجم العربية، مصطلح مأخوذ من الفعل الثلاثي «ثقف»، وقد حملت في اللغة العربية معاني عديدة منها:

1- يقال: « ثقفت القناة إذا، أقيمت عوجها، وثقفته بالثقل، أقيمت المعوج منه. ومنه قول الشاعر عدي بن الرقاع:

نظر المتقف * في كعوب قناته * حتى يُقيم ثقافه مُنادها *².

2- «وثقفت الرجل في الحرب أدركته، و ثقفته ظفرت به، ثقفت الحديث ، فهمته بسرعة ، و الفاعل ثقيف ، والنسبة إليه ثقفي بفتحيتين، وثقفته بالثقف، أقيمت المعوج منه³ .

¹ - ممدوح محمد منصور: العولمة، دراسة في المفهوم و الظاهرة و الأبعاد، مرجع سابق، ص85-86.

² -عدي بن الرقاع العاملي: ديوان عدي بن الرقاع العاملي، جمع وشرح و دراسة حسن محمد نور الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1990، ص38، *المتقف: هو الذي يصلق السيف. *القناة: هي الرمح. *منادها: هو المعوج منها .

³ -أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي: كتاب المصباح المنير في شرح غريب الشرح الكبير، ج1، مادة ثقف ،المكتبة العلمية ، بيروت، لبنان، ص82.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

3- وثقف الرجل ثقافة، أي صار حاذقا خفيفا مثل ضخم، فهو ضخم، و منه المثاقفة، ومنه أيضا ثقف مثل تعب، أي صار حاذقا فطنا¹. تحمل معنى الحذق و الفطنة و المهارة والذكاء.

تتفق التعاريف السابقة على بعض الدلالات اللغوية لكلمة ثقافة، فهي كلمة مأخوذة من الفعل الثلاثي ثقف لتدل على: معنى تقويم الاعوجاج و إصلاحه. و الثقاف هو الآلة التي يسوى بها اعوجاج الرماح، وتحمل معنى الملاعبة بالسيف و هو الخصام و الجلاذ، و تدل أيضا على الظفر بالعدو و غلبته، كما تعني من جانبا آخر معنى الفهم و الحذق و الذكاء و الفطنة.

وتحمل هذه الكلمة دلالتين:

1-حسية مادية: تتناسب مع أقوال العرب التي غلب عليها طابع البداوة وكثرة الحروب و الأدوات المستخدمة فيها: السيف و الرمح، وحال المخاصمة و المغالبة بين الأعداء، و إدراك الخصم خصمه والظفر به.

2- معنوية روحية: فالتقويم هنا مرتبط بجانب الفكر و السلوك و الأخلاق. فحين استقرت أحوال العرب و غلب عليهم طابع المدنية و التحضر، مالوا إلى ضبط معارفهم و الاستقامة في النفوس، فقوموا السلوكيات والمعارف و طوروها، و حذفوا كثيرا من أبوابها و شعبها.

¹ -أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفرقي المصري : لسان العرب، ج9 ، مادة ثقف ،تحقيق : عبد الله علي الكبير و آخرون، ،نشر أدب الحوزة ،إيران ،1405هـ، ص19.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

2- في الفكر الغربي:

الثقافة (La culture) مصطلح فرنسي المنشأ " برز في اللغة الفرنسية منذ عصر الأنوار قبل انتشارها عن طريق الاقتراض اللغوي في اللغات الأخرى المجاورة (كالإنجليزية و الألمانية)، وهي كلمة تعود في أصلها إلى اللغة اللاتينية (cultra)، التي تعني رعاية الحقول أو قطعان الماشية"¹. ومع بداية القرن السادس عشر، انتقلت الكلمة لتدل على معنى فعل فلاح الأرض بدل أن تدل على الحالة، أي حالة الشيء المحروث، وصار بإمكانها أن تدل على تطوير كفاءة وإنمائها. لكن هذا المعنى لم يدون في المعاجم ولم يحض باعتراف أكاديمي حتى منتهى القرن السابع عشر"².

وبحلول القرن الثامن عشر، استخدمت الكلمة مجازياً، و انتقلت من فلاح الأرض للدلالة على ثقافة الفكري تهذيبه و صقله، و استخدمت مضافة، ثم تحررت من المتمات الإضافية، لتدل على تكوين الفكر وتربيته، و باتت تدل على حال الفكر و قد أخصبه التعليم، و حال الفرد المثقف ذي المعارف، و ارتبطت بأفكار التقدم و التطور و التربية و العقل، و اقترب مفهومها من معنى الحضارة، ثم سرعان ما تم التمييز بينهما باعتبار الثقافة تعني التقدم الفردي بينما تربط الحضارة بالتقدم الجماعي"³.

وظهرت " الثقافة (kultur) بمعناها المجازي عند الألمان، ونالت رواجاً كبيراً في النصف الثاني من القرن الثامن عشر بسبب تبني الطبقة البرجوازية لها، و صارت وثيقة

¹ - ينظر دنيس كوس : مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، المنظمة العربية للترجمة ، ترجمة: منير السعيداني ، مراجعة الطاهر لبيب، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط1، بيروت، 2007.

² - المرجع نفسه، ص ص 16-17.

³ - ينظر: المرجع نفسه، ص ص 17-18.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

الارتباط بالطابع القومي للأمة الألمانية وعلامة مميزة لها و لوجودها الذي أوهنته الانقسامات السياسية. و مع القرن التاسع عشر، ركز المعنى على تحديد التباينات القومية و تثبيتها باسم العبقرية القومية، التي تميز الشعوب عن بعضها تمثلا لمقولة النسبية الثقافية ودحضا لنقيضتها العالمية التوحيدية¹.

مما سبق ، نخلص إلى:

ظهر مفهوم الثقافة لأول مرة في أوروبا في القرنين الثامن عشر و التاسع عشر، ودلالاته على عمليات الزراعة واستصلاح الأرض، و في القرن التالي ارتبط بتحسين المهارات الفردية للإنسان من خلال التربية و التعليم لإحراز تنمية عقلية و روحية، ثم ما لبث أن ارتبط عند الألمان بمفهوم الأمة القومية، و بحلول القرن العشرين أصبح مصطلح الثقافة مفهوما أساسيا في علم الأنثروبولوجيا، وارتبط بالشخصية و المجتمع و الهوية و المدنية، و صارت تعنى بطريقة حياة الجماعة البشرية و علاقاتها الاجتماعية و مظاهرها المادية و اللامادية.

ثانيا: المفهوم الاصطلاحي للثقافة:

1- في الفكر العربي:

تعددت تعاريف الثقافة حديثا، لكنها في الغالب اتفقت في مضمونها.

¹ - ينظر: المرجع السابق ، ص ص 20-23.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

يعرفها مالك بن بني بقوله: «هي مجموعة من الصفات الخلقية و القيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، و تصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه»¹.

وهي عند محمد عابد الجابري « ذلك المركب المتجانس من الذكريات و التصورات و القيم والرموز والتعبيرات و الإبداعات و التطلعات، التي تحفظ لجماعة بشرية تشكل أمة أو ما في معناها هويتها الحضارية، في إطار ما تعرفه من تطورات، بفعل ديناميتها الداخلية و قابليتها للتواصل و الأخذ و العطاء»². يقيم هذا التعريف علاقة بين علاقة بين الهوية و الثقافة، فما من هوية إلا و تختزل ثقافة، قد تتعدد إحداها و تتوحد الأخرى، بامتزاج عناصرها و تلاحق مكوناتها في إطار الوحدة في ظل التنوع، فالثقافة هوية سواء أكانت فردية أم جمعوية أم وطنية قومية، وهي كيان واحد ينمو و يتطور، و يغتني بتطلعات أهله و تجاربهم و علاقتهم بالآخر أخذا و عطاء.

والثقافة في تعريف آخر هي « مجموعة العلوم و الفنون و المعارف النظرية التي تؤلف الفكر الشامل للإنسان، فتكسبه أسباب الرقي والتقدم و الوعي عن طريق التهذيب الثقافي و التربية النفسية الخلقية»³. وفقا له تعد الثقافة سمة إنسانية تعكس الرقي الفكري و الاجتماعي و الحضاري للمجتمع. و تربي الفرد نفسيا وفكريا.

وكما عرفت بأنها « أنماط مستترة أو ظاهرة للسلوك المكتسب و المنقول عن طريق الرمز، فضلا عن الانجازات المتميزة للجماعات الإنسانية، ويتضمن ذلك الأشياء

¹ - مالك بن بني: مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، ط4، دمشق، سوريا، 1894، ص48.

² - محمد عابد الجابري: العرب و العولمة، المرجع السابق، صص 297-298.

³ - خضر أحمد عطاء الله: دراسات في آفاق الفكر الاسلامي، دار الفكر للنشر و التوزيع، دط، دبي، 1990، ص12.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

المصنوعة، و يتكون جوهر الثقافة من أفكار تقليدية، و كافة القيم المتصلة بها، أما الأنساق الثقافية فتعتبر نتاج السلوك من ناحية، و تمثل الشروط الضرورية له من ناحية أخرى¹. فهي - إذن - نهج من السلوك، تتميز به الجماعة البشرية تضم الأشياء المادية المصنوعة والرمزية في ضوء الثقافة الأصلية الخاصة بهم، ومعايير خاصة تأخذ شكل نماذج تمثل أنماط السلوك و أسلوب الحياة.

وعلى ضوء ما سبق، تكون الثقافة هي محصلة المعارف النظرية والعلمية التي اكتسبها الإنسان، وبناءا عليها حدد الكيفية التي يمارس بها حياته ومواقفه من الحياة والمجتمع والدين، وهي القيم التي توجه طريقة تفكيره وتحدد سلوكياته وتضبط أساليب عيشه، إنها « المعبر الأصيل عن الخصوصية التاريخية لأمة من الأمم، وعن نظرة هذه الأمة إلى الكون والحياة والموت والإنسان ومهامه وقدراته وحدوده، وما ينبغي أن يعمل وما لا ينبغي أن يعمل»²، وهي تضم المعارف والعقائد وطرائق التفكير وأنماط السلوك والعادات والتقاليد والتشريعات و الفنون والنظم والقيم و الأعراف وغيرها من المكونات التي تعبر عن خصوصية كل مجتمع وتمايزه، لذلك صح لها أن تكون "نظرية في فلسفة الإنسان وفلسفة المجتمع وفلسفة السلوك، ولشمولها يمكن اعتبارها مشروعا للتربية والشكل العام للحياة تصورا وتمثلا وممارسة"³ للحياة بوعي محكوم بمرجعية معينة، الأولى هي العقيدة والرؤية إلى الكون، والثانية هي القيم العليا.

¹ - محمد عاطف غيث: قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2006، ص97.

² - محمد عابد الجابري، العرب والعولمة، العولمة والهوية الثقافية: عشر أطروحات، مرجع سابق، ص298.

³ - ينظر: الحاج دواق: الثقافة من مسلووية الاحتواء إلى معقولية التعارف، كتاب جماعي حول الثقافة في زمن العولمة، منشورات مخبر حوار الحضارات و العولمة، جامعة باتنة، الجزائر، 2011، ص209.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

مما سبق، نصل إلى:

لا وجود لثقافة من دون مجتمع إنساني، فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يمتلك ثقافة، أيا كانت أدواته وأساليبه ونظمه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ومهما اختلفت أنساق معتقداته، ولكل مجتمع مفاهيم أساسية خاصة به، يسعى لترسيخها وغرسها و تأصيلها في أبنائه، هي في النهاية حصيلة لمقومات شتى وصورة لشخصيته بكل ما تحمله من تصورات وتطلعات. وكل ثقافة إقليمية تعبر عن هوية الجماعة البشرية المنتسبة إليها وعن مرجعيتها.

2- في الفكر الغربي:

مفهوم الثقافة اصطلاحاً أوسع من معناها لغوياً، فتتقلبه بين فروع معرفية عديدة أدى إلى توسع مجالاته الدلالية وتقاطعته مع مجالات أخرى كميدان علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، هو الحقل المعرفي الأول الذي ارتبط بدراسة الثقافات البشرية و مظاهر التشابه و الاختلاف بينهما. ويغيب الإجماع حول مفهوم هذا المصطلح في الأوساط الأكاديمية، فلكل حقل استشرافه الخاص لهذا الموضوع، كما أنه يحوي بداخله تعاريف واختلافات متعددة. فالثقافة كانت دائماً مفهوماً متلونا ديناميكياً، وعملية مستمرة أكثر منها كيان جاهز جامد، وهي دائماً في حالة تغير و إعادة خلق، تغذيها مؤثرات داخلية وأخرى خارجية، تتحرك و تتكيف وتتغير، هذا الأمر أوجد صعوبة في تحديد مطلق و نهائي لماهيتها.

يعرفها إدوارد تايلور (Eduiard Tylor) في كتابه الثقافة البدائية، بأنها «ذلك الكل المركب الذي يشمل على المعرفة و المعتقدات و الفن و الأخلاق و القانون و العادات،

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

أو أي قدرات أخرى أو عادات يكسبها الإنسان بصفته عضواً في المجتمع»¹. يشير المفهوم إلى أن الثقافة بناء متكامل له بعد لامادي، ممثل في العقائد و القيم و المعتقدات و الفنون و النظم و الأخلاق و العادات و الأعراف، و هي واقع فكري وسلوكي يميز الجماعة البشرية، وهي مكتسبة و إنسانية فلا مجال لقيام أية ثقافة دون وجود إنساني.

و يشير كلايد كلوكهون (Clyde Clok Hon) إلى أنها «مجموعة طرائق الحياة لدى شعب معين، أي الميراث الاجتماعي الذي يحصل عليه الفرد من مجموعته التي يعيش فيها، أو الجزء الذي خلقه الإنسان في محيطه، وهي التي تحدد الأساليب الحياتية، أو طريقة التفكير و الشعور والمعتقدات، إنها معلومات الجماعة البشرية، مخزونة في ذاكرة أفرادها أو في الكتب أوفي المواد و الأدوات»².

مجمل القول:

- تشمل الثقافة كل القيم و المعتقدات و المعايير والرموز و الأيديولوجيات، وجميع المنتجات العقلية التي توارثها الفرد داخل الجسم الاجتماعي الذي ينتمي إليه، وتلك التي اكتشفها و أبدعها وهو مفهوم معنوي، وآخر اجتماعي يربطها بنمط الحياة الكلي لمجتمع ما، و للعلاقات التي تربط أفرادها و توجههم.

- تمنح الثقافة المنضويين تحتها هوية خاصة، ومعنى متفردا وموضوعات و أفكار مشتركة، و قيما وممارسات و طرائق تفكير شبه موحدة، ووفقا لأنساق القيم و النماذج الثقافية السائدة في هذا المجتمع أو ذاك، وتعمل تلك النظم على تشكيل وعي و سلوك الأفراد

¹ - محمد السويدي: مفاهيم علم الاجتماع الثقافي و مصطلحاته، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، الجزائر، 1999، ص50.

² - ينظر: نصر محمد عارف: الحضارة، الثقافة، المدنية، دراسة السيرة المصطلح و دلالة المفهوم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2، عمان، 1994، ص20.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

و الجماعات، فتؤثر في تكوين أفكارهم و معلوماتهم وقيمهم ومهاراتهم واتجاهاتهم و خبراتهم، و تدفعهم إلى التكيف معها على اختلافها سواء أكانت: اقتصادية، أخلاقية، قانونية، دينية، سياسية، فهي مجتمعة تشكل الثقافة بتداخلها و تكاملها و ترابطها، بها قدرة على حماية التراث الثقافي، و مخيال المجتمع الذي يصنع هويته. والثقافات بمؤسساتها بما فيها الدين و الطقوس والأساطير و المعتقدات و الأعراف والرموز، هي ما يمنح المجتمع الانتظام في سلوك اجتماعي و الخضوع لنهج معين، فلولا هذه النماذج الثقافية لعاش الأفراد في عشوائية وفوضى وفق ما تمليه عليهم دوافعهم البيولوجية والغريزية. فهي إذا محيط يؤثر في تكوين الفرد روحيا و معرفيا و سلوكيا، و ينظم أشكال تفاعل أفرادها فيما بينهم و رؤيتهم للكون و الحياة. و نظام تربوي تهذيبي للفكر و السلوك، ومجموعة من القواعد الأخلاقية والاجتماعية تعطي للحياة عمقها القيمي الأخلاقي والجمالي.

ثالثا: في ماهية العولمة الثقافية.

العولمة الثقافية مشروع يطمح إلى توحيد العالم ضمن منظومة فكرية و قيمية واحدة تخضع لمتطلبات السوق العالمية، ثقافة كونية تهدد الهويات الثقافية للشعوب و الأمم و تحاول إلغاء الخصوصيات ومحو الفوارق، وهي شكل أشكال الإمبريالية الثقافية «لا تقوم على التكافؤ و احترام الثقافات الأخرى، بل إنها تدعو إلى إيجاد ثقافة كونية أو عالمية تحوي منظومة من القيم و المعايير لفرضها على العالم أجمع، لتحديث انقسامات و تفككا في الأبنية الثقافية للشعوب، فضلا عن محاولة تذيب معالم الثقافة

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

الوطنية و إظهارها بمظهر العاجز، و ذلك لنشر ثقافتها الدينية و اللغوية و مبادئها و قيمها الذاتية، معتمدة بذلك على امتلاكها التطورات التقنية¹.

وهي ظاهرة جديدة، لم تتضح تجلياتها تماما على أرض الواقع مقارنة بباقي العولمات خاصة الاقتصادية والسياسية و الإعلامية، ذلك أن الشعوب و المجتمعات تتخوف منها و غير واثقة في كيفية التعامل معها، وتتردد في الأخذ بالأفكار والقيم و المنتجات الثقافية التي تسوق لها وسائل الاتصال و نقل المعلومة، فالثقافة كانت ولا تزال أحد أهم مجالات الصراع بين الأمم و الحضارات، وقد تبوأ رأس المال الرمزي هذه المكانة، بوصفه الممثل للثقافة و الحضارة، و فعل ممانعة و حصانة للخصوصية الثقافية والهوية القومية.

استفادت الثقافة المعولمة من مكتسبات العلوم الثقافية في ميدان الاتصال و تكنولوجيا الإعلام و نشر المعلومة، فالعالم لم يشهد في تاريخه مثل هذا الانفتاح الثقافي الذي عرفه بدءا من التسعينات، وقد سمح هذا الأخير بانتقال الإيديولوجيات و الثقافة، و بروز قناعات و مفاهيم و سلوكيات إنسانية مشتركة قفزت فوق الحدود، حيث بلغت البشرية « مرحلة الحرية الكاملة لانتقال الأفكار و المعلومات و البيانات و الاتجاهات والقيم و الأنواق على الصعيد العالمي، و بأقل قدر من القيود و العراقيل و الضوابط. لقد فقدت الدولة في ظل العولمة الثقافية القدرة على التحكم في تدفق الأفكار و القيم و القناعات فيما بين المجتمعات و الأجيال، و فقدت الدولة السيطرة على التداول

¹ - حربي خالد: العولمة بين الفكرين الاسلامي والغربي، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، 2010، ص52- نقلًا عن: المعتصم بالله أحمد الخلايلة: أبعاد العولمة الثقافية على الهوية العربية في عصر الأحادية القطبية، مجلة التراث، جامعة الأردن، مؤتم، ع 01، 2018، ص59.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

الحر للأخبار و المعلومات، و الذي يتم عبر وسائل ووسائط و تقنيات جديدة لم تبرز إلا في التسعينات»¹.

وعليه أصبحت الشعوب و الأمم مكشوفة أمام تداعيات الانفتاح العالمي و تزايد الاندماج بين أقطاره، ولم تعد تنفع الدفاعات الذاتية التقليدية، فمفاعيل ثورة الاتصالات و الضخ الإعلامي المتواصل جعلت من محاولات الانغلاق والاكتفاء الذاتي مجرد محاولات فاشلة» يمثل التحالف بين التقانة و الثقافة ذروة القدرات التي تقدمها العولمة في الحقل الثقافي، فهي تمكنت فعليا من اختراق الحدود الثقافية انطلاقا من مراكز صناعة وترويج النماذج الثقافية ذات الطابع الغربي و الهوية المؤمركة، وألغت بالتالي إمكانيات التثاقف كخيار يعني الانفتاح الطوعي على المنظمات الثقافية و المختلفة عبر آليات التأثير و التأثير و التفاعل المتبادل، لصالح الاستباحة الكاملة للفضاء الثقافي الذي يعزز قيم الغالب، و يؤدي إلى استتباع المغلوب و اكتساح قدراته التقليدية، وبالتالي لا تترك أمامه من خيارات خارج حدود الانعزال أو الذوبان سوى هوامش محدودة في مواجهة تكنولوجيا الإخضاع و صناعة العقول و هندسة الإدراك لغرض اللعبة الحضارية وكسر الممانعة الثقافية، ودفعها إلى الانكماش و التحول إلى طقوس و أشكال فولكلورية»².

لقد سجلت العولمة خطواتها الأولى في مجال الاقتصاد، وهي الآن تطل وبسرعة شديدة «ثقافات الشعوب وقيمها وعاداتها وتقاليدها التي كانت إلى عهد قريب بمثابة عوالم تكتنفها الغرابة و القداسة والمثل والخصوصيات والرموز و المطلقات... تأتي العولمة

¹ - عبد الخالق عبد الله: العولمة: الجذور و الهوية و كيفية التعامل معها، تعقيب على مداخلة السيد ياسين (مفهوم العولمة)، عالم الفكر، ص 76.

² - عبد الغني عماد: سوسيولوجيا الثقافة، المفاهيم و الاشكالية، من الحداثة إلى العولمة، مركز دراسات العربية، ط1، بيروت، لبنان، 2006، ص290.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

الثقافية لكي تفتح العالم كله بعضه على بعضه الآخر وباتت الحياة البشرية بكل أصنافها تنزع شيئاً فشيئاً إلى أن تتعولم¹. ولا مجال إلى إنكار نجاحها النسبي، فالثقافة من فكر و فن وأدب أكثر العناصر عرضة للعولمة، و القيم و المفاهيم و القنوات تبدي استعدادا للانتشار الحر والانتقال عبر الحدود و التوسع عالمياً. فبسبب كثافة تعرض نسق القيم و الرموز في المجتمعات إلى الاختراق الثقافي، تضعف فاعلية الأمم في حماية أمنها الثقافي، ويعاد صياغة و إنتاج منظوماتها القيمة ومرجعياتها الفكرية خارج حدودها الجغرافية و ثقافتها القومية، عبر عمليات التمثل و الهضم و الامتصاص الثقافي، ما يؤدي إلى تشويش جهازها الهوياتي و خلخلة بنيتها الثقافية، إن هي لم تتكيف مع المستجدات لصالحها«الفئات المسيطرة على العمليات الاقتصادية والسياسية و الإعلامية، تحتكر التقنية و الإنتاج الإعلامي على المستوى العالمي، و لا شك أن ذلك من شأنه تشكيل نمط محدد من الوعي الثقافي، و فرض نماذج و فلسفات غريبة من خلال إنتاج و توزيع و استهلاك الموارد الإعلامية و الاتصالية»².

لقد أحدثت وسائل الإعلام شرحاً واسعاً في نسق حياتنا القيمي، الذي انساقت كثير من جوانبه مع الثقافات الوافدة، خاصة في عصر السماوات المفتوحة بما تنطوي عليه من تأثيرات عميقة على مستوى الفكر و الوجدان و الأذواق و السلوكيات. فالبعد الثقافي للعولمة هو أخطر أبعادها، كونها إستراتيجية قمعية و سياسة هيمنة وإقصاء لفكر المغلوب، و تمكين لثقافة الغالب و فلسفته « فهي اغتصاب ثقافي و عدوان رمزي على سائر الثقافات، و هي تعني أن ينشأ في وعي الناس ثقافة أو قيم ثقافية لا صلة بينها

¹ - سيار الجميل: العرب و العولمة، بحوث و مناقشات الندوة الفكرية، مرجع سابق، ص38-39.

² - ينظر: أحمد مجدي حجازي: العولمة وتهميش الثقافة الوطنية رؤية نقدية من العالم الثالث، عالم الفكر، المجلد 28، العدد2، أكتوبر1999، ص122.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

و بين النظام الاجتماعي داخل الكيان القومي، و هي ستحمل منظومات الأفكار والقيم التي لم تخرج من رحم التطور الاجتماعي الطبيعي»¹.

وممكن الخطورة في العولمة في شقها الثقافي يتمحور حول تبنيها لأفكار و سلوكيات من شأنها تحطيم الولاءات للقيم التراثية و الدينية و الثقافية الأصلية و إعداد العقول و النفوس لولاءات جديدة « حتى تكون العقول المستقبلية للمادة الثقافية أكثر انفتاحا و تقبلا لما يأتي من الخارج دون تفكير أو إعادة نظر، بعد أن حطمت كل بوابات المراقبة و النقد، يقوم النظام العالمي الجديد في مشروعه المعولم لكل شيء على اختراق الثقافات الوطنية و الثوابت الذاتية و يعمل على طمس معالم الذات و الأصل و الشرع، بطرح بدائل هجينة منمقة و مزوقة بحيث تجلب الأنظار، و من ثمة القلوب و العقول»².

والتحافة المعولمة لن تسمح لأي ثقافة محلية بالحضور و الاستمرار، ووضعت بصمتها في صياغة الثقافة العالمية ما لم تتنازل عن بعض مرجعياتها و ثوابتها و خصوصياتها، فهي ثقافة قهرية لم تأت نتيجة لتفاعل طبيعي بين ثقافات الحضارات و الثقافات الإنسانية، بل فرضت بالإكراه و القوة الناعمة «ليس صحيحا أن العولمة الثقافية هي الانتقال من حقبة -ومن ظاهرة- الثقافات الوطنية و القومية إلى ثقافة عليا جديدة هي الثقافة العالمية أو الثقافة الكونية، على نحو ما يدعي مسوقو فكرة العولمة الثقافية، بل إنها -بالتعريف- فعل اغتصاب ثقافي وعدوان رمزي على سائر الثقافات، إنها رديف الاختراق الذي يجري

¹ - عبد الإله بلقزيز: العولمة والهوية الثقافية، عولمة الثقافة أم ثقافة العولمة؟ العرب والعولمة، مرجع سابق، ص 318.

² - راضية الشرعبي: الإعلام العربي و تحديات العولمة الثقافية، مركز العهد الثقافي، مصر، أنظر الموقع على شبكة المعلومات الدولية www.alahd.com، يوم 24/02/2006.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

بالعنف المسلح وبالثقافة، فيهدر سيادة الثقافة في سائر المجتمعات التي تبلغها العولمة
«¹.

لذلك نبه فريدمان توماس (Thomas Fridman) ثقافات العالم و دعاها إلى أن تتعلم كيفية « تطوير مرشحات ثقافية و بيئية قوية و كافية حتي يتسنى لها التفاعل مع القطيع دون أن يسحقها، ويحول ثقافتها إلى عسيمة عالمية و بنيتها إلى هريسة عالمية»²، ففي ضوء قوة العولمة و سرعتها، سوف تنقرض تلك الثقافات التي لا تتمتع بالقوة الكافية لكي تفعل ذلك، مثلها مثل أنواع الكائنات الأخرى التي لا تستطيع التكيف مع المتغيرات التي تحدث في بيئتها.

وتوصف العولمة الثقافية، بأنها إمبريالية ثقافية تسعى إلى تهجين العالم و تجريده من خصوصياته، وهجمة رأسمالية ليبرالية و امتداد لنزعة استعمارية لا تحترم التنوع الثقافي أو الخصوصيات الفردية، وهي على استعداد لمحاصرة و تهديم كل حاجز يقف وراء مخططاتها، و تقدم بالمقابل حضارتها و نموذجها على أنه الكفيل بتحقيق الرقي و التقدم « الكونية المستقلة التي تسعى العولمة إليها ما هي في نظرهم إلا كونية استعمارية كاذبة لا تحترم الإنسان و لا تحافظ على جذوره و حضارته و موارده و تجاربه و ثقافته»³. تعمل على تشكيل مؤسسات اجتماعية و منظومات فكرية و بنى ثقافية عالمية، تكون في اتساق مع قيم المركز المهيمن، قصد الترويج لمفاهيمها و تصوراتها الثقافية، سواء بالضغط والقوة أو الإغراء و اللين الزائف «على غرار هيمنات النوع أو الإثنية، الإمبريالية الثقافية

¹ عبد الإله بلقزيز: العولمة و الهوية الثقافية، عولمة الثقافة أم ثقافة العولمة؟، مرجع سابق، ص318.

² - فريدمان توماس: السيارة ليكساس و شجرة الزيتون، محاولة لفهم العولمة، تر: ليلي زيدان، مراجعة: فايزة حكيم، الدار الدولية للنشر والتوزيع، ط2، القاهرة، مصر، 2001، ص325.

³ - سيار الجميل: تعقيب على مداخلة السيد ياسين: في مفهوم العولمة، العرب و العولمة، مرجع سابق، ص41.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

هي عنف رمزي يستند إلى علاقة تواصلية إكراهية لاغتصاب الخضوع، وتكمن خصوصيته هنا في أنه يعولم الخصوصيات المتعلقة بتجربة تاريخية فريدة، و يتجاهلها كما هي و الاعتراف بها لوصفها عالمية»¹.

و يؤكد بعض المفكرين أنها رديف الأمركة، ومرجع ذلك هو طابع التدويل الذي تعتمده الولايات المتحدة الأمريكية لمعتقداتها و قيمها و سلوكياتها من أجل تشكيل صورة واحدة للعالم. الولايات المتحدة" أعلنت بعد أن أصبحت الحاكم القوي في العالم أنها ستعمل على نشر القيم و السلوك الأمريكي، و نمط الحياة الأمريكي في العالم كله، و هو ما يفتح باب الغزو للشعوب وعقائدها و ثقافتها، فالعولمة بالرغم من الصبغة الاقتصادية لها، فإنها تعمل من أجل أهداف أخرى تطل ثقافة الشعوب و هويتها القومية و الوطنية ومصالحها وخصوصياتها في الصميم، وترمي إلى تعميم نماذج وأنماط من السلوك و العيش وفرض منظومات من القيم وطرائق التفكير و التدبير و تكوين رؤى و أهداف تعمل في خدمتها، و من ثم فهي تحمل ثقافة تغزو بها ثقافات و مجتمعات أخرى و تؤدي إلى تخريب منظومات و قيم و إحلال قيم أخرى محلها، ليست بالضرورة أفضل من القيم التي لحق بها التخريب، فضلا عن كونها لا ترتبط بخصوصيات الأمم و ثقافتها، و لا يخلو ذلك من توجه استعماري جديد، يتركز على احتلال العقل و الإرادة و جعلهما يعملان وفق أهداف المستعمر وفي إطار خطته و مصالحه، مع تحييد قوة الدولة أو إنهاكها و استلابها و انتزاع مقومات حضورها و تأثيرها الاجتماعيين، و فرض نوع من الإدراك الواقعي مع إلحاق شلل بالوعي المنقذ و الإرادة و القوة و طاقات الروح و الإيمان

¹ - أرمان ماتلر: التنوع الثقافي و العولمة، تر: خليل أحمد خليل، دار الفارابي و مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، ط1، 2008، ص104

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

¹ «إنها» تحمل في طياتها مشروعا لأمركة العالم، لأن القيم النفسية و السلوكية و العقديّة الأمريكية هي المهيمنة على هذه العولمة الثقافية، فالولايات المتحدة الأمريكية تهيمن على الإعلام، وتمتلك النسبة الأكبر من وسائل الإعلام العالمية، ومن ثم فهيمنتها ليست اقتصادية فحسب، وإنما ثقافية كذلك، وهذا أحظرما في العولمة أو "الأمركة"، لأن الذوق و السلوك و الأعراف... الأمريكية، ستعرف طريقها نحو العالمية مشكلة ضغطا وتحديا لباقي الأذواق و السلوكيات و الأعراف، بالإضافة إلى الأديان و العقائد المنظومة المتكاملة للخصوصية الحضارية لباقي الشعوب في العالم»². الأمر الذي أكده الرؤساء الأمريكيون أمثال: غروفر كليفلاند (Cleveland Grover)، و ريتشارد نيكسون (Richard Nixon)، «أن على أمريكا مسؤولية قيادة العالم، و على العالم أن يسعد بهذه القيادة، فالنموذج الأمريكي هو الأفضل»، و بيل كلينتون (Bill Clinton) الذي عدّ أمريكا صاحبة رسالة تاريخية تقوم على الحرية و العدل و الديمقراطية « يجب علينا أن نتابع رسالتنا التاريخية (...).، فإن محافظة الولايات المتحدة الأمريكية على صدارتها العالمية هو من أجل خير هذا العالم و الدفاع عن الديمقراطية والملكية الخاصة و السوق الحرة»³.

يقول المفكر البريطاني جون جراي (Gone Gray) بجامعة أكسفورد: «إن أمريكا تعتبر نفسها آخر نظم التنوير و الدولة التي تحمل راية الحضارة الإنسانية الجديدة، و لذلك فهي تعتقد أن مصير العالم كله سوف يؤول إلى حضارة واحدة هي الحضارة

¹ - سعيد يعقوب: الهوية و العولمة، مجلة الفكر السياسي، العدد 2002، 16، ص 264، نقلا عن: بوزعاية باية، وابن داود العربي: إشكالية الهوية و العولمة الثقافية، عدد خاص، الملتقى الدولي الأول حول الهوية و المجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري، مجلة العلوم الانسانية و الاجتماعية، ص 653.

² - الشيخ حبيب آل جميع: العولمة في المجال الثقافي، مجلة المناهج، العدد 23، السنة السادسة، 2001، ص 307.

³ - ينظر: لامية طالة: إشكالية التغريب الثقافي الأمريكي و المواقف العالمية منه، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، المجلد 33، العدد 01، 2019، ص 511-512.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

الأمريكية، وما نشهده الآن من تعدد في الثقافات الموجودة في العالم، ليس إلا مرحلة انتقالية يمر بها العالم في طريقه إلى الحضارة العالمية الواحدة على الطراز الأمريكي»¹.

في اتجاه مصاد يرى الدكتور علي حرب أن العولمة الثقافية فتح كوني، وخلق لعالم آخر اصطناعي يتحكم بالواقع، حيث يتم التعاطي مع العالم من خلال مفاعيل ثورة المعلومات. ويرفض أن تكون العولمة غزوا ونفيا للخصوصية « ومن المفارقات في هذا الخصوص أن أصحاب المشاريع الثقافية من دعاة التحرير للتراث والتحرير للبشر أو التغيير للعالم إنما يتعاملون مع حداثة العولمة بفتوحاتها و متغيراتها على سبيل السلب والنفي، بوصفها استباحة للقيم و غزوا للثقافات أو فحا للهويات و تسلطا على الشعوب و المجتمعات، في حين أن الأمر بحسب لغة الحدث و منطق المفهوم، إنما يتعلق بوقائع و أحداث علمية و تقنية، تحدث انقلابا وجوديا يتجسد في إنتاج سلع من نوع جديد ذات ماهية أثرية افتراضية أو شبحية، بات يتوقف عليها الإنتاج المعرفي و المادي على السواء »². فهي عنده فرصة و إمكانات تتيح ممارسة الخصوصية في إطار عالمي، و إثراء الثقافة عبر المساهمة في إنتاج المعرفة و السلطة و المعنى، و إدارة الواقع و معطياته و موارده و تحويلها إلى طاقات ومشروعات خلاقة « فكما أن الحداثة ليست نفيا للتراث بقدر ما هي قراءته قراءة حية و عصرية، وكما أن العالمية ليست نفيا للخصوصيات، بل ممارسة المرء لخصوصيته بصورة خلاقة و خارقة لحدود اللغات والثقافات، كذلك فإن العولمة لا تعني ذوبان الهوية إلا عند ذوي الثقافة الضعيفة

¹ - نبيل راغب: أقنعة العولمة السبعة، مرجع سابق، ص 403.

² - علي حرب: حديث النهايات، مرجع سابق، ص 10.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

و أصحاب الدفاعات الفاشلة، ممن يلقون أسلحتهم أمام الحدث فيما هم يرفعون شعار المقاومة و المحافظة»¹.

فالمشكلة عنده ليست في اكتساح العولمة و الأمركة عالمنا بل في عجزنا عن مجارة الأحداث والتحويلات الكبرى التي يشهدها العالم في ظل الفتوحات التقنية، و في فهمنا للهوية بمنطق العقل الأنثرو بولوجي القاضي بالنظر إلى الهوية الثقافية من زاوية حشر الآخر في غيريته، و حصر الأنا في دائرة الأصل والمحافظة، و الخوف من الذوبان في الآخر، و يؤكد ضرورة الخروج من الشكل المغلق لبناء علاقة مع الآخر، و ممارسة النقد الذاتي الذي يتيح تجديد الثقافة و إثراء المعرفة و معرفة الآخر للمساهمة في صنع الثقافة الكونية المتكافئة الأطراف. فالكشف عن الهوية الثقافية الذاتية و إغنائها يتم بالرجوع إلى الثقافة القومية التي تشكلت عبر التاريخ و اغتنت بالتبادل مع الثقافات الأخرى. فليس هناك تعارض بين الانتماء القومي الضيق و الانتماء العالمي، شريطة قيام التوازن بينهما كي لا نقع في الانغلاق و التقوقع على الذات، و كي لا نتوسع في الانفتاح، فتضيع هويتنا و نهدر خصوصيتنا.

نستنتج مما سبق:

لا يزال الجدل جاريا حول حقيقة العولمة الثقافية و هويتها، فالبعض يرى أنها تهديد و تدمير للهويات الثقافية الوطنية و القومية للشعوب لصالح نمط ثقافي موحد هو الثقافة الغربية الأقوى خاصة الأمريكية، في حين يرى البعض الآخر أنها عملية شاملة و عالمية تستوعب الاختلاف و لا تعني التماثل، و تضم الثقافة المحلية و الثقافة الكوكبية معا، ذلك أن وجود نمط عالمي موحد لا يعني البتة تغييب الثقافات المحلية للشعوب و الأمم

¹ - المرجع السابق، ص 13.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

أومحاولة محوها والقضاء عليها نهائيا، فقد يكون الأمر عكس ذلك، فالتباين و اللاتجانس و التعددية هي أبرز سمات المجتمعات الحديثة، وهي أبعد ما تكون عن النمطية و الشمول.

المطلب الثاني: في ماهية الهوية الثقافية:

الهوية مصطلح فضفاض، و«مفهوم لا يقبل التعريف، و ذلك لأن كل تعريف هو هوية في حد ذاته، فالهوية مفهوم أنطولوجي وجودي يمتلك خاصية سحرية تؤهله للظهور في مختلف المقولات المعرفية، وهو يتمتع بدرجة عالية من العمومية و التجريد، تفوق مختلف المفاهيم الأخرى المتجانسة و المقابلة له، و هو مع ذلك كله و على الرغم من الغموض الذي يلف مفهوم الهوية و يحيط به يمتلك هذا المفهوم طاقة كشفية لفهم العالم، بما يشمل عليه من كينونات الأنا والآخر»¹. و للاقتراب من مفهومه، كان لزاما المرور على دلالاته اللغوية.

أولا: المفهوم اللغوي للهوية.

عرف الفارابي هوية الشيء بقوله: « هو عينيته و شخصه ووجوده المتفرد له الذي لا يقع فيه إشراك»².

و رأى أحمد بن النعمان أن «مفهوم الهوية من ناحية الدلالة اللغوية، هي كلمة مركبة من ضمير الغائب "هو" مضاف إليه "ياء" النسبة، التي تتعلق بوجود الشيء

¹ - علي أسعد وطفة: إشكالية الهوية و الانتماء في المجتمعات العربية المعاصرة، مجلة المستقبل العربي، العدد 282، 2002، ص100.

² - بن حصير رفيق: الأمازيغية و الأمن الهوياتي في شمال إفريقيا، دراسة حالة الجزائر و المغرب، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم السياسية. جامعة باتنة-دفعة 2012-2013، ص39.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

المعنى كما هو في الواقع بخصائصه و مميزاته التي يعرف بها ¹، ومنه تكون الهوية بمعنى وجود صفات خارجية ثابتة للشخص يعرف بواسطتها.

و يضيف جميل صليبا أن للهوية «عند القدماء عدة معاني، وهي: التّشخص و الشخص نفسه والوجود الخارجي، قالوا ما به الشيء هُو هُو باعتبار تحققه يسمى حقيقة و ذاتا، وباعتبار تشخصه يسمى هوية»².

أما في الدراسات الغربية، فيمكن تحديد مفهوم الهوية انطلاقا من اللفظ الإنجليزي (Identity) المشتق من اللاتينية (identitand/identitas)، وقد استند «الأستاذ عفيفي البوني في تحديده لمفهوم الهوية في دراسته عن الهوية إلى القاموس الفرنسي "Larousse" وكذلك الموسوعة الشاملة "Encyclopedia universalis" على أساس أن مصطلح الهوية يقابل كلمة "Identite" في الفرنسية و "Identity" في الإنجليزية، حيث مرجعها الأصلي لاتيني، و يعني الشيء نفسه أو الشيء الذي هو ما هو عليه، أي أن الشيء له الطبيعة نفسها التي للشيء الآخر، كما يعني هذا المصطلح في اللغة الفرنسية "مجموعة المواصفات التي تجعل من شخص ما هو عينه شخصا معروفا أو متعينا" ³.

تجمع التعاريف الأنفة الذكر على أن الهوية في اللغة تعني التفرد و التمايز و عدم الاشتراك بأي خاصية مع شخص آخر أو شيء آخر، وهي تشمل الصفات الجوهرية

¹ - بن النعمان أحمد: الهوية الوطنية، الحقائق و المغالطات، شركة دار الأمة للطباعة و النشر، دط، الجزائر، 1995، ص10.

² - جميل صليبا: المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية و الفرنسية و الانجليزية و اللاتينية، ج2، دار الكتاب اللبناني، 1982ص53.

³ - بن حصير رفيق: الأمازيغية و الأمن الهوياتي، مرجع سابق، ص39.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

الثابتة التي تمنح الفرد الخصوصية، وتحدد صورته عن ذاته وإدراكه لها في إطار علاقته مع الغير، فهي كالبصمة بالنسبة للإنسان، إنها الشفرة التي تمكن الفرد من التعرف على نفسه في علاقته بالجسم الاجتماعي الذي ينتمي إليه، و عن طريقها يتعرف الآخرون عليه.

ثانياً: المفهوم الاصطلاحي للهوية.

يعرف المفكر الفرنسي أليكس ميكشيللي (Alex Machili) الهوية بأنها «منظومة متكاملة من المعطيات المادية و النفسية و المعنوية و الاجتماعية، تتطوي على نسق من عمليات التكامل المعرفي و تتميز بوحدها التي تتجسد في الروح الداخلية التي تتطوي على خاصية الإحساس بالهوية و الشعور بها، فالهوية هي وحدة من المشاعر الداخلية التي تتمثل في الشعور بالاستمرارية و التمايز و الديمومة و الجهد المركزي، و هذا يعني أن الهوية وحدة من العناصر المادية و النفسية المتكاملة التي تجعل الشخص يتميز بها عما سواه و يشعر بوحده الذاتية»¹.

وهي شعور داخلي متأصل في النفس، و مفهوم مركب من معطيات اجتماعية و سيكولوجية و مادية و روحية تمنح الفرد تمايزه و اختلافه عن الغير، و وعيه الذاتي و وجوده. و يتشكل مفهومها من الحاجة إلى الاعتراف و القبول و التميز بمجموعة الملامح و الأشكال الثقافية المكونة للجماعة البشرية، إنها "مركب متجانس من التصورات و الذكريات و الرموز و القيم و الإبداعات و التعبيرات و التطلعات لشخص ما

¹ - المرجع السابق، الصفحة نفسها.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

أو لمجموعة ما، وهي مجموعة تشكل أمة بهويتها و حضارتها التي تختلف من مكان لآخر في العالم»¹.

هي إذن صورة مثالية ترسمها جماعة بشرية لنفسها، تشمل التاريخ و المعارف و التراث الثقافي بشقيه المادي واللامادي، وتضم اللغة و العادات و التقاليد و التطلعات و التنوعات الأثنية، ولا نستثني منها الدين والقيم والأخلاق ومعاييرالعقل و السلوك، تتفاعل هذه العناصر مع الظروف التاريخية و البيئية، لتصنع الفريدة والتمايز و الانتماء، و تحدد العلاقة بالآخر.

و هذه المعايير بعضها ثابت لا يقبل التغيير، و بعضها الآخر يتطورو يتغير حسب الظروف والمستجدات، و عليه يمكن القول أن الهوية هي «وعاء الضمير الجمعي لأي تكتل بشري، و محتوى لهذا الضمير في الوقت نفسه، بما يشمل من قيم و عادات و مقومات تكييف وعي الجماعة و إرادتها في الوجود والحياة داخل نطاق الحفاظ على كيانها، و من هذا الشعور القومي ذاته، يستمد الفرد إحساسه بالهوية والانتماء و يحس بأنه ليس مجرد فرد نكرة، و إنما يشترك مع عدد كبير من أفراد الجماعة في عدد من المعطيات و المكونات والأهداف، و ينتمي إلى ثقافة مركبة من جملة من المعايير و الرموزو الصور، و في حالة انعدام شعور الفرد بهويته نتيجة عوامل داخلية و خارجية،

¹ - سعد الدين العلمي: الصحة النفسية و سيكولوجية الشخصية، المكتبة الجامعية، ط2، الاسكندرية، مصر، 2009، ص98.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

يتولد لديه ما يمكن أن نسميه بأزمة الهوية، التي تفرز بدورها أزمة وعي (Awarness Crisis)، تؤدي إلى ضياع الهوية نهائياً، فينتهي بذلك وجوده المعنوي»¹.

وترتبط ماهية الهوية بمفهوم الانتماء الوطني والقومي والإثني و الديني، و" مجموعة من السمات الثقافية التي تتصف بها جماعة من الناس في فترة زمنية معينة، و التي تولد الإحساس لدى الأفراد بالانتماء لشعب معين والارتباط بوطن معين و التعبير عن مشاعر الاعتزاز و الفخر بالشعب الذي ينتمي إليه هؤلاء الأفراد»².

وهي ما يصوغ وعي الإنسان و إحساسه بالانتماء إلى مجتمع أو أمة أو جماعة أو طبقة في إطار الانتماء الإنساني العام، إنها شعور جمعي لأمة أو لشعب ما يرتبط ارتباطاً مصيرياً ووجودياً ، فالهوية « ليست توها متوقفا على مجرد ذاتية الأعوان الاجتماعيين، إن بناء الهوية يتم داخل الأطر الاجتماعية التي تحدد موقع الأعوان، و توجهه في الوقت نفسه تمثلاتهم و خياراتهم، و فضلا عن ذلك، فإن البناء الهوياتي ليس توها، إذ هو ذو فعالية اجتماعية و ينتج آثارا اجتماعية »³، فهناك دائما هوية تبنى و يعاد بناؤها داخل التبادلات الاجتماعية.

ثالثا: مفهوم الهوية الثقافية.

يفترض مصطلح الهوية الثقافية وجود علاقة بين الهوية والثقافة، قائمة على طبيعة دور كل منهما، وعلى التأثير و التآثر المتبادل بينهما. فالهوية متضمنة في الثقافة،

¹ - المؤيد جاسم: أثر العولمة على الهوية الوطنية، مجلة قضايا سياسية، جامعة النهريين، كلية العلوم السياسية، بغداد، المجلد4، العددان 23/24/2011، نقلا عن شفيعة حداد و أسماء بلاغماس، تأثير العولمة في بعدها الثقافي الهوياتي المجلة الجزائرية للأمن الإنساني المجلد 04، العدد 02، جويلية 2019، ص236.

² دنيس كوتش: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، مرجع سابق، ص153.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

و لا يمكن تحديدها خارج نطاق منظور ثقافي، وما من هوية إلا وتختزل ثقافة، لذلك يتعذر تصور الثقافة والهوية كمفهومين واقعيين منفصلين، والثقافة في عمقها و جوهرها هوية قائمة بذاتها، ولا يمكن تمييز الثقافة إلا في إطار هوية تميزها و تمثلها، لذلك برز مفهوم الهوية الثقافية، ليؤكد أن وظيفة أحدهما لا تتحقق في غياب الآخر، فالثقافة هي علة وجود الهويات، وهي منتجتها و صانعتها، تصبغها بخصائصها و ميزاتها.

وينبغي التنويه إلى أن الهويات الثقافية للمجتمعات غير متماثلة، فهي متعددة و متباينة، و يعزى ذلك إلى تعدد الثقافات واختلافاتها، لأن الثقافة دائمة التشكل و التطور، وهي "ليست مجموعة مكونات ثابتة ساكنة جامدة مطلقاً منغلقة، تصلح لكل زمان و مكان، أو لكل مجتمع و بيئة، بل هي متطورة باستمرار، متغيرة، مغيرة، مرنة، نسبية، منفتحة، متحولة"¹

والهوية الثقافية «مفهوم معاصر تتبلور كإشكالية سوسيو-سياسية مع نهاية الخمسينات من القرن العشرين، وبرزت كمفهوم عالمي خاصة بالولايات المتحدة الأمريكية بظهور مشكل الأقليات "les minorities" ومسألة الإثنيات "le ethnies"، و البحث عن وسيلة مناسبة تسمح توضيح المشاكل الناجمة عن اندماج المهاجرين، و ظهور الصراعات الفكرية و الإيديولوجية التي أصبحت تهدد ثقافات الشعوب و حضاراتهم، كما ظهرت كانشغال اجتماعي أو سياسي، خاصة عندما بدأت التيارات الفكرية تتشغل و تهتم بثقافات الشعوب بعدما كانت مهمشة و غير مبرمجة في انشغالات المحافل العلمية الكبرى»².

¹ - حليم بركات: أزمة الحداثة و الوعي التقليدي، رياض الريس للكتب و النشر، بيروت، 2004، ص 227.

² - شفيعة حداد، أسماء بلاغماس: تأثير العولمة في بعدها الثقافي الهوياتي، مرجع سابق، ص 237.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

و هو الأمر ذاته في أوروبا التي فتحت أبوابها للهجرة و لاستقبال الوافدين للعمل خلال الستينات، أين خلق الوضع مناخا ثقافيا قائما على الطائفية و سياسية الإقصاء و التهميش طالت الجاليات المهاجرة، فتجسدت الهوية الثقافية كنوع من المطالبة باسترجاع الهوية الأصلية، والانغلاق على الذات حفاظا على الخصوصية السمات الثقافية المشتركة بين جميع الأفراد الذين ينتمون إليها، والتي يتميزون بها عن سواهم من أفراد الأمم الأخرى، باعتبارها «القدر الثابت و الجوهري و المشترك من السمات و القسامات العامة التي تميز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات، و التي تجعل للشخصية الوطنية أو القومية طابعا تتميز به عن الشخصيات الوطنية أو القومية الأخرى»¹. إنها روح المكون الاجتماعي و إطاره المرجعي لتقييم الأحداث و رسم التوجهات و التطلعات و فقا لمرجعيات معينة. و في إطار المجتمع المتعدد الإثنيات و الانتماءات تكون الهوية الرابط الذي يوحد العرقيات و الجماعات المختلفة، و يمنح أفرادها مشاعر الأمن و الاستقرار.

وتبعاً لما سبق، تكون الهوية الثقافية « تلك المبادئ الأصلية السامية و الذاتية النابعة من الأفراد أو الشعوب، و تلك ركائز الإنسان التي تمثل كيانه الروحي و المادي بتفاعل صورتها هذا الكيان، لإثبات هوية أو شخصية الفرد أو المجتمع أو الشعوب، بحيث يحس كل فرد بانتمائه الأصلي لمجتمع ما يخصه و يميزه عن باقي المجتمعات الأخرى. »². فلطالما كانت الثقافة عنوان الاعتزاز بالذاتية الحضارية، و لطلالما كان التراث الثقافي للشعوب و الأمم مصدر إلهام للإبداع، ينهل منه المفكرون والأدباء و الفنانون و الفلاسفة و الشعراء بما يعزز موقعها و حضورها في الساحة الثقافية العالمية.

¹ - فضل الله أحمد: مقاربات الأنا و الآخر، قاف لخدمات الطباعة المتكاملة، السودان. نقلا عن: سمير بولقدام: معالم الهوية الثقافية في ظل التباين الثقافي، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، المجلد 10، العدد 01، جوان 2019، ص 548.

² - ينظر: أسعد السحمرائي: ويلات العولمة على الدين و اللغة و الثقافة، دار النفائس، ط1، 2002، ص 82.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

وقد قدمت منظمة اليونسكو مفهوما للهوية الثقافية يقضي بأنها «تعني أولا وقبل كل شيء أننا أفراد ننتمي إلى جماعة لغوية محلية أو إقليمية أو وطنية بما لها من قيم أخلاقية وجمالية تميزها، ويتضمن ذلك أيضا الأسلوب الذي نستوعب به تاريخ الجماعة وتقليدها وعادات وأساليب حياتها وإحساسنا بالخضوع له والمشاركة فيه أو تشكيل قدر مشترك منه، وتعني الطريقة التي تظهر فيها أنفسنا في ذات كلية، وتعد بالنسبة لكل فرد منا نوعا من المعادلة الأساسية التي تقرر بطريقة إيجابية أو سلبية الطريقة التي ننسب بها إلى جماعتنا والعالم بصفة عامة»¹.

ووفق هذا التصور تكون الهوية مفهوما سائلا، ينظر إليها من حيث أنها مشروع مستقبلي أكثر من كونها إرثا ماضيا راسخا" ولتلك الثقافات تاريخ و سيكون لها تاريخ آخر وللجماعات وثقافتها وجود متحرك باستمرار، سائر دون توقف دائما في مد، ولديها حزم من المظاهر كثيرا ما تكون مستعارة ومتمثلة، تتحل دون انقطاع وتتركب بشكل آخر، وليس لديها جوهر واحد وثابت من شأنه أن يتحدى الزمن في تجانسه الذي لا يتغير"².

تتفق التعاريف السابقة على أن الهوية الثقافية هي مجموعة من السمات الثقافية التي تحدد الانتماء الثقافي لشخص أو لمجموعة بشرية، تتشارك فضاء جغرافيا محددًا و تراثًا مميزًا، يضم التاريخ المشترك واللغة والعادات والتقاليد والتطلعات المستقبلية، وهي الصورة المثالية التي تعرف بها الجماعة عن نفسها، وهي مصدر صناعة الانتماء الفردي والجمعي، فالشعور بالانتماء إلى هوية ثقافية معينة ضرورة نفسية واجتماعية

¹ - حمدي حسن عبد الحميد المحروقي: دور التربية في مواجهة تداعيات العولمة على الهوية الثقافية، مجلة دراسات في التعليم الجامعي، مركز تطوير التعليم الجامعي بجامعة عين شمس، القاهرة، ع7، 2004، ص164.

² - عبد الله العروي: الايديولوجية العربية المعاصرة، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 1995، ص8.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

وأيديولوجية لا غنى عنها. مسألة الهوية ليست البتة بالأمر الجديد، فهي استمرار قديم لسؤال ثنائية الأصالة والمعاصرة، صراع الأنا مع الآخر في دفاعه عن هوية الثقافة، و طابعه المحلي، توتر بين الكونية و الخصوصية، بين الخاص والعام، بين المحلي والعالمي.

وقد تعاضم الاهتمام بإشكالية الهوية الثقافية في الفكر المعاصر، و شحن بحمولة وجدانية واحتل الصدارة ضمن قائمة الأهداف و الأولويات للدول، و ازداد التشبث بها، فهي في عصر العولمة تختلف تماما عنها في عصر الكفاح ضد الاستعمار العسكري، فالعالم اليوم مترابط و يكاد يكون متكاملا، تحكمه فواصل إعلامية و سياسية و اقتصادية و ثقافية، يفرض على أية جماعة بشرية الاندماج فيه لتحفظ استمراريتها، بحسب قدرتها على الممانعة و الاستجابة لتحديات العصر. شكل الأمر خطرا محتملا يهدد الهوية و الخصوصية الثقافية، وينذر بغزو فكري وثقافي، و ينبه إلى ضرورة اليقظة و رفع التحدي لمجابهة الخطر و البحث عن حلول للتعاطي مع المشكلة.

و تزداد هذه الإشكالية عمقا و تعقيدا من خلال طرح فكرة الثقافة الكونية التي تركز للهيمنة الثقافية أحادية الطرف، وتلغي تاريخ تنوع مسارات الثقافة و تعددها، و تؤسس للنمطية، إنها ثقافة المركز المهيمن مقابل ثقافة الأطراف المهمشة، خاصة و أن الإنسان اليوم يجد نفسه " بين ثلاثة عوالم، لكل منها هويته و مركز استقطاب؛ الأول: هو العالم القديم بأصولياته الدينية و تصوراته اللاهوتية الغيبية أو الماورائية، الثاني: هو العالم الحديث بفلسفاته العلمانية و رواياته العقلانية أو بأدولوجياته العالمية و تهويماته الإنسانية، والثالث هو العالم الآخذ في التشكل الآن، أي عالم العولمة بفضائه السبراني و مجاله الإعلامي، بإنسانه العددي و مواطنه الكوني، هذه العوالم الثلاثة التي تتجاذب الوعي

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

بالهوية المجتمعية و الثقافية «¹، إنه ثالث الأصولية و العالمية و العولمة أو الأسلمة و الأنسنة و العولمة.

المطلب الثالث: آليات العولمة الثقافية:

أولاً: الثقافة المصنعة:

نالت الثقافة مكانا فوريا في مجتمعات عصر التنوير، وأعدت صياغة جملة من التصورات والقيم والرؤى، ورسخت للمرجعيات الفكرية و المعايير التفاضلية بين الشعوب، كما اعتبرت مقياسا لتثبيت ضروب من التراتبات. لكن قيمتها الفوقية تراجعت، بعد أن تم التزاوج بين الاقتصاد العالمي ووسائل التواصل وتكنولوجيا المعلومات، وتمخض عن هذا الاقتران ميلاد الرأسمالية المعلوماتية، و تحول الإعلام إلى مشروع اقتصادي للعولمة، هدفه المنفعة المادية دون اعتبار لمضمون الرسالة الإعلامية، و تبنى هذا المشروع مهمة صياغة عقل الإنسان وتشكيل منظوره ورؤيته للحياة، إذ لا يخفى أن وسائل الإعلام و الاتصال أدوات ثقافية تساعد على تعزيز الأنماط السلوكية و الفكرية و العاطفية، و تنظيم الذاكرة الجماعية للمجتمع و الحصول على المعرفة و الثقافة، لقد غدا " المجتمع التكنولوجي نظام سيطرة يعمل على نفس مستوى تصورات التقنية و انشاءاتها، وهذا المجتمع بدأ ينتج "مشروعا" يقوم على الإقصاء و الاستحواذ معا: إقصاء الفرد بوصفه كينونة و الاستحواذ عليه بوصفه عنصرا ضمن بنية محكومة بعلاقات صارمة، وهذا المشروع غايته خلق الحاجة ثم إشباعها، سواء كانت مادية أو فكرية، و أخذت تجليات هذا المشروع تمتد من التقنية و العمل و الإنتاج و الاستهلاك إلى السياسة و الفكر و الثقافة، وهذا المشروع كلما تطور، كيف و حدد في آن واحد عالم الكلام و العمل، عالم الثقافة

¹ - علي حرب: حديث النهايات، مرجع سابق، ص 11.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

على الصعيد المادي وعلى الصعيد الفكري، وعن طريق التكنولوجيا تلتغم الثقافة و السياسة والاقتصاد في نظام كلي الحضور¹.

لقد أصبحت صناعة الوعي أو تصنيع العقول و التلاعب باتجاهات الرأي العام و توجيه رغبات الناس، بما يتفق و سياسات أصحاب المؤسسات الإعلامية العملاقة فنا له ضوابطه و أسسه، اصطلح على تسميته في مجتمع ما بعد الحداثة بصناعة الثقافة أو ثقافة التصنيع، و تحولت بموجبه الثقافة من أسلوب للحياة إلى سلعة تداولية و صناعة بيد القوى المهيمنة إعلاميا.

و يرجع الاهتمام بالثقافة كصناعة إلى الاتجاه النقدي الراديكالي لمدرسة فرانكفورت، حيث انتقدت من خلاله الرأسمالية الليبرالية التي استغلت الثقافة لإضفاء قيمة مضافة على إنتاج السلعة، وتحولت بموجبه الثقافة إلى إنتاج صناعي خاضع لقانون السوق، تستخدم و تستهلك و يعاد إنتاجها، ثقافة مصنعة ذات بعد أيديولوجي "يستهدف الحياة الفكرية و الوجدانية و النفسية و الاجتماعية للبشر"²، و يخضع الملايين من الأفراد إلى عملية إنتاجها واستهلاكها مع موافقة تامة عليها، و دونما مقاومة منهم.

صناعة الثقافة أو تصنيع الثقافة، مصطلح صاغه الفيلسوف الألماني وعالم الاجتماع الألماني تيودور أدورنو (Theodor Adorno) رئيس قسم معهد فرانكفورت للدراسات الاجتماعية في كتابه "جدل التنوير". يشير المصطلح حسب واضعه إلى وجود ثقافة تُصنع من أجل الجماهير، من خلال منظومة عالمية لها أهداف واضحة تحتكر جميع قنوات نشر الثقافة، يمكن معها « معاملة المنتجات الثقافية خاصة الثقافة الشعبية

¹ - هربرت ماركوز: الإنسان ذو البعد الواحد، تر: جورج طرابيشي، دار الآداب، دط، بيروت، 1973، ص33.

² - نيبيل راغب: ألقنة العولمة السبعة، مرجع سابق، ص355.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

مثل أي صنف آخر من السلع الصناعية و المنتجة على نطاق كبير، لتوسيع أسواق المستهلك بصورة مستمرة، والاقتصاد الصناعي هو أساس الثقافة الحديثة. بينما تصبح الثقافة نفسها منتجا صناعيا و يُخضَع السوق الصناعي كل السلع ثقافية كانت أو غير ثقافية، لقوى الإمداد نفسها و الطلب و خفض تكلفة الإنتاج بزيادة تسهيلات الإنتاج¹.

و لم تكن الثقافة يوما إنتاجا صناعيا كما هي بعد اندماجها بالتكنولوجيا عن طريق الإنتاج الآلي الواسع وإعادة الإنتاج و الاستهلاك، و بات من الصعب التمييز بين الإنتاج الصناعي و محتواه الثقافي، لقد « سقط الفعل الثقافي في حلقة التسليع مثله مثل أي منتج ذو قيمة تبادلية، و هذا من شأنه أن يحوله إلى قيمة تجارية تقضي على قدرته النقدية، و عليه فالدور الوجودي للثقافة في أي مجتمع باعتبارها نظاما ضروريا لإنتاج المعاني و الرموز و القيم المحددة لسلوك أفرادها سوف يتراجع، بحيث تصبح هذه الأخيرة مجرد وسيلة لتعبئة الجماهير وحثهم على استهلاك مختلف السلع بعيدا عن بصمات التجربة الأصلية الكامنة فيها².

و تخضَع الثقافة المصنعة المضامين الإعلامية إلى نمط موحد من التصنيع « يعتمد بالدرجة الأولى الجماليات التشكيلية و الفنية و حتى التقنية، كما يضيفي سطحية المضمون على الرسالة، من خلال معالجتها المفتعلة للواقع وإغفاله لجوانبه المهمة

¹ - جون هارتلي: الصناعات الإبداعية، كيف تنتج الثقافة في عالم التكنولوجيا و العولمة ؟ تر: بدر السيد سليمان الرفاعي، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، 2007، ص227.

² - راضية فويال: العولمة الثقافية و مفهومها، ضمن الركن الثقافي لجريدة الخبر اليومية، 5 يونيو 2013، ص92.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

و المعقدة بالإضافة إلى تكريسها للترفيه و التماثل الاجتماعي، بمعنى إفقادها طابعها الفكري الأصيل مقابل اكتسابها طابعا صناعيا»¹.

ولتعزيزها، خلق النظام الإعلامي الليبرالي سياقاً اجتماعياً نفسياً يضمن الاستمرارية في توليد الرغبات الجديدة لدى جمهور المستهلكين، و يعكف المسوقون له على اختلاق جملة من الأوهام و الخيالات تسوق كمنتجات ثقافية أكثر جاذبية و متعة من الواقع، تفقد الثقافة جوهرها و تتلاعب بالرغبة و المتعة الحسية سعياً للمنفعة المادية، و تهندس السلوك البشري من خلال تكريس معايير ثابتة، تشكل تهديداً لقيمة الإنسان و وجوده بسبب القهر التقني « أضحت الاستهلاكية المبدأ و العقيدة الجديدين للرأسمالية الاستهلاكية، و تركزت حول إيجاد الجنات و الفرديس التي تعد بها الأديان في الحياة الآخرة، ليعيشها الناس في دنياهم هذه، من خلال مستويات معيشة أعلى، يمكن شراؤها بزيادة الاستهلاك، و التي تعود عليهم بالسعادة و الرضى»². و بهذا الصنيع تمكنت الثقافة المصنعة من تكوين جمهور يتفق مع توجهاتها و نجحت في استلابه فكرياً، بصورة ناعمة غير مدركة، و أعلنت من قيمة الاستهلاك إلى مرتبة الديانة، فخلقت ثقافة جماهيرية شعبية هدفها الوحيد، ضمان طاعة الجمهور العمياء لمصالح السوق « تغمر الأسواق اليوم ثقافة شعبية تجارية لا تنبع من حاجة الجماهير التي تستهلكها، و إنما من شركات رأسمالية كبرى عابرة للقارات، تصنعها و تسوقها و تدعمها وسائل إعلام و دعاية مبرمجة و مكثفة و مغرية، تجعل الإنسان يركض وراء بريقها الأخاذ لاهثاً عن طريق التلفزيون و السينما و الأنترنت و وسائل الاتصال و التواصل الاجتماعي الأخرى، و يعمل متخصصون من فنيين و صحفيين

¹ - لمياء طالة: الإعلام الغربي و التغريب الثقافي، دار أسامة للنشر و التوزيع، ط1، الأردن، عمان، 2014، ص119.

² - عبد الحي يحي زلوم: نذر العولمة، مرجع سابق، ص90.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

و مصورين بالدعاية و الإعلام التجاري الأخاذ، لتسويق هذه الثقافة الشعبية وترويجها و غسل العقول و تشكيلها وفق مقاسات استهلاكية معينة، تساعد على خلق ميول لتقبل البسيط و الساذج و حتى الرديء، و تشكيل عقل شعبي جمعي يتلقى الثقافة الشعبية المصنعة بدون تفكير وحس جمالي رفيع، تسيطر على آليات توجيهه و تحريكية اجتماعيا و سياسيا ضد مصالحه و بوسائل و أساليب ناعمة تدغدغ عواطفه وتثير غرائزه الأكثر بدائية¹. وترتكز مهمة العاملين في حقل التسويق في تعليب قصاصات من معاني الثقافة الشعبية، بمساعدة الأفلام والموسيقى والتلفزيون والفيديوهات والموضة و أكاديميات الفنون الجميلة و مدارس الديكور و حتى الألعاب و غيرها من الوسائط بطريقة إغرائية تجمع بين الجمال و التسلية و المتعة والأيدولوجيا، بما يتيح بيع التجربة في حد ذاتها.

و تعني الثقافة الجماهيرية في هذا السياق « الثقافة الهابطة التي تتملق أذواق الجماهير محدودة التعليم، وتعيد إنتاج الأذواق نفسها حتى تدمنها، أو تعتمد إلى تسطيح الأفكار و المشاعر، و إلى توحيد أو تمييط عناصر الجمال، و تحويل الترفيه إلى تغييب للوعي الإنساني و الجمالي و الأخلاقي و الاجتماعي و السياسي والفكري و الثقافي في آن واحد². لقد تحول الجمهور إلى سوق واسعة تم استثمارها، و تعددت الأسواق الثقافية والتجارية ذات المستوى الفني الهابط، و غدت الثقافة سطحية رهينة لحظة العرض و الطلب، تتركس للخمول و الابتذال و السلبية، بدل روح الإبداع و الابتكار، و تركز على الهامشي و الترفيهي وتعيد عن المضمون الثقافي الجاد، خاصة مع تعاظم سلطة الصورة

¹ - إبراهيم الحيدري: عولمة الثقافة وثقافة التصنيع، الحوار المتمدن، مواضيع وأبحاث سياسية، العدد 5118، 2016/03/30.

² - نبيل راغب: أفتنة العولمة السبعة، مرجع سابق، ص 355.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

المؤسسة على مبدأ اللذة، والتي أضحت معادلا موضوعيا للواقع والحقيقة، رغم انتقادها للمرجعية القيمة التي تؤسس للوصل بين منظومة المثل و منظومة الواقع.

ونخلص إلى:

تسعى صناعة الثقافة ذات التوجه العولمي نحو الشمولية الاجتماعية والثقافية، وإلى إفقار الشعوب من هويتها وانتماءاتها القومية بالصوت والصورة من خلال دمج الشعوب في فضاء إعلامي واحد هو بمثابة الوطن البديل، بحيث يعمل استهلاك الصور والسلع والمعلومات والتدفقات الثقافية على تقليص الفروقات الثقافية واختزال الرموز والمعاني الثقافية الأصلية، والترويج لنماذج ثقافية منمطة يسيء لمنظومة التصورات والقيم التي يؤمن بها أفراد المجتمع بوصفها مرجعيات تشكل خصوصيتهم الثقافية.

ثانيا: الثقافة العالمية المعولمة:

لكل حضارة بصمتها التي تميزها عن غيرها من الحضارات، ورؤيتها الخاصة للوجود والكون، هوية ثقافية تصنع خصوصيتها و تمنحها الحصانة، وتقيها الذوبان في الآخر. على أننا لا ننكر وجود تباين في إطار الثقافة المشتركة للجسم البشري الواحد.

و قد نزع الإنسان منذ القدم إلى التمدد خارج محيطه الجغرافي، وانفتح على الآخر في صور شتى، وازداد التقارب بين الشعوب بسقوط الفواصل بينها و تآكلها تدريجيا، بفعل ثورة الاتصالات و تكنولوجيا الإعلام، دفع هذا الأخير إلى الميل نحو تكوين ثقافة كونية واحدة، تتوحد شعوب العالم تحت بوتقتها، ثقافة ترسخ للتجانس والتماثل والوحدة، اصطلح على تسميتها بالثقافة العالمية.

تولد الحلم بالثقافة العالمية في القرنين الثامن عشر و التاسع عشر متساوقا نحو وعي ثقافي يدعو إلى التقارب و الأحداية الثقافية، و يتطلع إلى إقامة عالم يتسم بالسلام

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

و يؤمن بالوحدة العليا للجنس البشري، انطلاقاً من الفهم الإنساني المشترك و المسؤولية الأخلاقية العالمية، و يبتعد عن التقسيمات الأممية والارتباطات المحلية، تتوحد فيه الأذواق الثقافية، وتشتاع فيه الإبداعات الفكرية للجميع، توجه يدعم التفاعل بين الحضارات والتلاقح بين الثقافات، و يؤسس لعالم قائم على الاعتماد المتبادل و التعارف بين الشعوب «يرى العالم "منتدى حضارات" بينها مساحة كبيرة من "المشترك الإنساني العام"، لكل منها هوية ثقافية تتمتع بها، ومصالح وطنية و قومية و حضارية و اقتصادية و أمنية لا بد من مراعاتها في إطار توازن المصالح، وليس توازن القوى»¹.

وتقوض الكونية مقولات الفرادة والتفوق العرقي، والرجسية الحضارية والنزعة المركزية، وترفض تقسيم الإنسانية إلى مراتب ومنازل من باب التابع و المتبوع، فهي تعني " الخروج من القوقعات و الشرائق و الأقفاس المغلقة، أكانت طبيعة أو دينية أو قومية أو ثقافية و كسرهما نهائياً، ومحو خلفيتها التوراتية التأسيسية الدفينة "شعب الله المختار" (...)، نحو تأسيس كيانات إنسانية أعلى، تفتح فيها الحدود للتفاعل الخلاق بين الثقافات والقيم الإنسانية المتبادلة، وتعترف فيها كل ثقافة وكل جماعة قومية بالمشترك الإنساني الجامع، ولكن أيضاً بالاختلاف والتعدد بحسبانه عامل إخصاب وإغناء للتجربة الإنسانية"².

والعالمية مطلب إنساني و نزوع تلقائي نحو التعايش و التبادل، وإقرار بحق الآخر في الاختلاف والتمايز، واعتراف بالتنوع الثقافي والتعددية الحضارية في إطار المشترك الإنساني العام، فليس في تنوع الهويات وتعدد الخصوصيات ما يحول دون قضاء

¹ - محمد عمارة : بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية، مكتبة الامام البخاري للنشر و التوزيع، دار الكتاب المصرية، ط1، القاهرة، 2009، ص11.

² - عبد الإله بلقزيز: نقد الثقافة الغربية، في الاستشراق و المركزية الأوربية، العرب و الحداثة 4، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، لبنان، 2017، ص255.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

المصالح المشتركة بين الأمم و الشعوب، فالعطاء و البذل و التسامح والتبادل هي ميزة التاريخ الإنساني بوجهه الحضاري، و"الحضارات يتكئ بعضها على بعض، لكنها إذ تفعل، فإنها تمارس انتقائية بعضها تلقائي و بعضها متعمد تفرضها طبيعة تكوينها وظروفها البيئية و عمقها التاريخي بموروثاته و طموحاته، وليس هذا مناقضا للانفتاح الحضاري، و إنما هو مرشد ومنظم له سعيا للاستقلالية وحفاظا على التنوع و الاختلاف".¹

وتفرض هذه الثقافة العالمية «تجردا من الولاء لثقافة معينة ضيقة و متعصبة إلى ثقافة عالمية واحدة يتساوى فيها الناس و الأمم جميعا، و تحررا من التعصب لإيديولوجيا معينة، و الاتجاه نحو الانفتاح على مختلف الأفكار دون تعصب و تشنج، تحرر الصور اللاعقلانية الناتجة عن التحيز المسبق لأمة أو دين أو إيديولوجيا بعينها، و تتبنى عقلانية العلم و حياد الثقافة»²، فمن حيث المبدأ تحرص الثقافة العالمية على احترام الذاتيات و تشجعها على التحاور و التقارب والتواصل فيما بينها. وتوحي إلى «أن هناك خصائص ثقافية ذات طابع عالمي، خصائص ثقافية متحررة من تأثير ثقافة بعينها، تصلح لأن يأخذها بها الأفراد المنتمون إلى ثقافات ومجتمعات متباينة... يفترض في الخصائص الثقافية التي تناسب العولمة عدم تعارضها مع الأصناف المحلية للقيم»³.

لقد أضحى الحق في التنوع الثقافي قاعدة من قواعد القانون الدولي، أقرته العهود و الاتفاقيات التي أبرمتها هيئة الأمم المتحدة، وبموجبها تتحدد المعايير التي تنظم علاقات التعاون الثقافي بين المجموعات الدولية وتؤطرها، وفي كفالة هذا الحق ضمان للخصوصية

¹ - سعد البازعي: قلق المعرفة، إشكاليات فكرية و ثقافية، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 2010، ص166.

² - أمين جلال: العولمة و الدولة، ندوة العرب و العولمة، مرجع سابق، ص153.

³ - مصطفى عمر التير: الهوية الثقافية العربية و التعليم في الوطن العربي في ظل العولمة، مجلة الفكر العربي، السنة20، العدد97، بيروت، 1999، ص13.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

الثقافية المتباينة، و ترسيخ لقيم الحوار الهادف البناء، وتثبيت لقاعدة الاحترام المتبادل بالمعنى الأخلاقي الرفيع و بالمدلول الحضاري السامي، ذلك أن التنوع واقع تحدده الطبيعة البشرية، وأن تحقيق التسامح والتعايش لن يكون إلا بالإقرار بهذا الحق والتعمق في فهم الآخر" الحوار بين الثقافات في العالم تبرره الأواصر الثقافية بين البشر، ولأن جوهر الثقافة كائن في التحول، كان التباين بين الثقافات نتيجة حتمية، دون أن يعني هذا التباين فقدان اللغة الإنسانية المشتركة التي تحقق الحوار، إذ أن التحول الثقافي والتقدم المعرفي بين البشر إنما يجري من الداخل، و لهذا يتعين علينا أن نبحث عن هذا التحول في داخل الآخر، ضمن نزعة تبادلية بين الناس بوصفهم مستغرقين على نحو لا مناص منه، في علاقات مواجهة مباشرة مع بعضهم البعض"¹.

إن انتعاش الحوار بين الثقافات و الحضارات و تدعيم التعاون الدولي في إطار المنظمات الدولية والإقليمية، هو وحده الضمان لتعميق الاحترام المتبادل و تنمية الحس المشترك، فإذا فقدت العولمة العنصر الأخلاقي كانت أقرب إلى الأيديولوجية الشمولية منها إلى روح الإنسانية «و أقصد بالنزعة الكونية الحميدة benign التي تنطبق على كل البشر الذين يعيشون بعض حالات الوجود المستنبطة المشتركة، التي تنطبق على كل البشر الذين يعيشون على سطح هذا الكوكب، بغض النظر عن خصوصياتهم الثقافية، و أنه يمكن بناؤها في ما يتعلق بهذه العمومية. إن السعي وراء مثل هذه القيم الاتفاقية على سبيل المثال في الخطاب القانوني -السياسي- حول حقوق الإنسان العالمية أو في السياسة العالمية بشأن المشكلات البيئية الشائعة هو بالتأكيد أمر محمود، و لا يشترط بالضرورة-كما يتراءى لي- أن ينطوي على قمع الاختلاف. حتى أن الحالة قد تكون أن ثمة ضربا من المصلحة

¹ - عفيف البهنسي: الهوية الثقافية بين العالمية و العولمة، مرجع سابق، ص 04.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

الإنسانية الكونية، يعد جوهرها بالنسبة إلى إعادة تضمين الهوية المحلية في الحداثة العالمية»¹.

العالمية بعيدا عن الرؤى الأيديولوجية السياسية و الاقتصادية و الثقافية مساحة للعيش المشترك في وفاق ورفاه، يتساوى فيها البشر بموجب إنسانيتهم ويتقاربون في أهدافهم و تطلعاتهم و طموحاتهم بغض النظر عن اختلافاتهم، وهم يسعون إلى العمل الجماعي مستهدفين حل مشكلاتهم، فالعالم وحدة كونية متنوعة تضم تفاعلات متباينة تؤثر في بعضها البعض إيجابا أو سلبا، وهذه العلاقات هي ما يشكل البيئة الكونية.

وتحقيق المجتمع العالمي العادل الذي يحفظ الكرامة الإنسانية، و يلتف حول القيم و المبادئ الأخلاقية الكونية، لا يكون إلا بـ «تبني القضايا و الهموم المشتركة للبشر جميعا و السعي لتسخير إمكانيات العالم لصالح الإنسانية جمعاء، باعتبار البشر جميعا شركاء في هذا العالم، و هي بهذا المفهوم دعوة أخلاقية تسعى لجلب الخير للناس جميعا و تجنبهم المخاطر و الشرور، فالأديان السماوية كلها تدعو الناس جميعا وتنتشر الخير و الصلاح لهم أجمعين»².

إذا كانت العالمية المنشودة إقرار بحق الاختلاف و التمايز و اعتراف بالتنوع الثقافي و التعددية الحضارية و سعي لأخلة العالم، وإذا كانت العولمة تحول من الخاص إلى العام و من المحلي إلى العالمي و من الخصوصي إلى الكوني و من الوطني إلى الكوني، وميل نحو الشمول العام في الفكر و السلوك و الممارسة و الوجدان. ألا يحق لنا في ظل

¹ - ينظر: جون توملينسون: الثقافة والعولمة، تجربتنا عبر الزمان و المكان، مرجع سابق، ص96.

² - عبد الرشيد عبد الحافظ: الآثار السلبية للعولمة على الوطن العربي و سبل مواجهتها، مكتبة مدبولي، ط1، القاهرة، مصر، 2005، ص12.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

هذه المفارقة التساؤل عن إمكانيات تحقيق الثقافة العالمية دون إسقاط غياب التكافؤ الثقافي الذي يختزل إلى تدفق أحادي من جانب الغرب فقط؟

لقد تمكن الأخر الغربي من صوغ منظومة ثقافية و فلسفية و علمية أنتجت أيديولوجيا تمركزت حول خصوصيته الفكرية و الدينية والعرقية، و اختزلت الغير إلى مكون هامشي، و راح يبشر بقيمه الخاصة محاولا تعميمها و إصباغها بصبغة عالمية، و هو إسقاط غير مبرر للقيم الغربية على كل الثقافات العالمية، و حالة من الخاص الذي يتكرر في صورة الكوني، و إيمان بأن قيمه جديرة بالاعتماد و القبول من قبل كل الثقافات والشعوب.

إن نجاح هذا النموذج الثقافي سيؤدي إلى تدمير الصيغ الثقافية الأخرى، فالثقافة الكونية المزعومة لن تسمح لأي ثقافة محلية بالحضور والاستمرارية ما لم تتنازل عن بعض مرجعياتها القيمية و ثوابتها الأصيلة، أنها لم تكن أبدا محصلة تفاعل طبيعي بين الثقافات الإنسانية، ولم تقم على مبدأ التكافؤ و التفاعل المشترك. "ليس شعار عالمية الغرب إلا دعوة للانزلاق نحو استبداد يفرض على "الأخر"، أو يدفع الآخر إليه بحيث لا تتوفر فيه شروط الذوبان في ذلك الغرب الذي طور في الواقع مقومات استبعاد لكل ما هو غير غربي، و لكنه في الوقت نفسه قد دمر شروطه الذاتية، و هنا لا يجد "الأخر" غير الغربي إلا الخضوع المستمر لحالة توتر ثقافي و تشنج اجتماعي و انهيار اقتصادي، و يبدو الاختيار معدوما، و ليس ثمة إمكانية لمغادرة حالة التوتر الدائمة، الأمر الذي يؤدي إلى انهيار منظومة القيم"¹.

إن الثقافة العالمية التي يسوق لها إستراتيجية قمعية و سياسة هيمنة و إقصاء لفكر المغلوب وتمكين لثقافة الغالب وفلسفته، كونية كاذبة «تحاول باستمرار التمكين لثقافة

¹ - عبد الله إبراهيم: المطابقة و الاختلاف، المركزية الغربية و اشكالية التكون و التمرکز على الذات، ص36.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

الغرب وبسط نموذج في الحياة، فهي بالدرجة الأولى تكريس للهيمنة الفكرية المعرفية في الرؤية و النظر، قبل تكريسها في الواقع الاجتماعي والاقتصادي و السياسي، من خلال خلق أفضل الشروط، و تثبيت أحسن الظروف التي تجعل الشعوب الأخرى أكثر قابلية و أكثر استجابة لمتطلبات المركز الغربي على مستوى الإنتاج والاستهلاك، و حاجته لنظام عالمي تراتبي يبقى فيه الأطراف تابعة لا مستقلة، أو متساوية مع المركز، يجد هذا المنطق مرجعه فيما أسماه بالأصل المادي لحضارة الغرب في ذاتها، و هو الأصل الذي يجعل دائما وأبدا عالميتها مشروطة بإبقاء مسافة فاصلة بين الغرب والآخر، حرصا على أن يكون هذا الأخير (الآخر) سوقا وسلعة لا أكثر¹. وهي إمبريالية ثقافية، و«عنف رمزي يشير إلى علاقة تواصلية إكراهية لاغتصاب الخضوع، و تكمن خصوصيته هنا في أنه يعولم الخصوصيات المتعلقة بتجربة تاريخية فريدة بتجاهلها كما هي، و الاعتراف بوضعها عالمية»².

الثقافة الإنسانية من الأمور القومية التي لا يسمح بتعميمها أو هدر هويتها، لأنها أصلية مرتبطة بالتاريخ و بالتراث القومي، لذا وجب التمييز بين الثقافة التقنية المشاعة للعام و خصوصية الثقافة الإنسانية، بين المدنية العالمية و الحضارة القومية، وفي السياق ذاته، يؤكد أنتوني سميث (Anthony Smith) «أن الثقافة العالمية تفتقر بالضرورة إلى المكونات الحيوية للتجربة التاريخية المشتركة، وإلى الإحساس بالتواصل الزمني و بشكل حاسم إلى الذكريات المشتركة و يجادل بأنه لا توجد ذكريات عالمية»³، إذا فإن القول المطلق بعالمية الثقافة هو من الخطورة البالغة على الثقافة الذاتية لأمة من الأمم، والدعوة

¹ - عميرات عبد الحكيم: التنمية ومشروع التغريب، قراءة تحليلية، سوسيولوجية لبعض المعاني الكامنة في فكرة التنمية، ماجستير علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، جامعة الجزائر 2، 2005-2006، ص 198.

² - آرمان ماتلار: التنوع الثقافي والعولمة، تر: خليل أحمد خليل، دار الفارابي، ط1، 2008، ص 104.

³ - جون توملينسون: الثقافة والعولمة، مرجع سابق، ص 138.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

إلى الانتماء الثقافي العالمي هي دعوة إلى التبعية التي تأخذ بالانتشار والتوغل كالسرطان في الجسم التقدمي¹.

لقد أضحت الثقافة المعولمة خطرا حقيقيا على مقومات الأمة الروحية و دستورها القيمي و الأخلاقي و خصوصياتها الثقافية المتباينة، فما من شك أنه قد تم تسليع نسب كبيرة من الممارسات الثقافية بغرض المجانسة «إذا كانت العولمة في ظاهرها تدعو إلى توحيد الأفكار والقيم و أنماط السلوك على مستوى ثقافات العالم، إلا أنها تخفي وراءها إمكان تجريد الشعوب من مقوماتها الثقافية المتميزة والمنفردة، كما تتضمن تعريض ثقافتها لتأثير ثقافة عالمية واحدة، تتولى صياغتها و تشكيلها القوى الأكثر تقدما والأشد قدرة على نشر أفكارها بما تمتلك من تقدم في تكنولوجيا الاتصال و الإعلام، الأمر الذي يسلم في النهاية إلى هيمنة هذه الثقافة على بقية ثقافات العالم و تهميشها². فالخطر الذي يلاحق الثقافات هو ذلك التجانس الكبير والتشابه المتزايد في أنماط التفكير و المواقف وأساليب الحياة، نتيجة سقوط الحواجز و العراقيل أمام حركة التواصل بين المجتمعات البشرية.

حيث توفر التدفقات الثقافية عبر وسائل الميديا المتنوعة و تكنولوجيا الاتصالات المعاصرة حراكا ومرونة في الثقافة، و تقدم فرصا لبناء عوالم ثقافية جديدة، و تسمح بتدفق الأفكار و الايديولوجيات و الصور الذهنية، و تقدم صورا و أساليب و خطابات لحياة بديلة تؤثر في البنى الاجتماعية و الثقافية، فقد أصبح الاستهلاك الإعلامي صورة للمفاهيم الثقافية ووسيلة لإخضاع العقول و تتميط الأفكار و الأذواق و توجيه السلوكيات و الخيال بما ينشره من أفكار من شأنها اختراق التركيبة الثقافية للحضارات و الشعوب و زعزعة

¹ - عفيف البهنسي: الهوية الثقافية بين العالمية و العولمة، منشورات وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب، 2009، ص 43.

² - محمد عابد الجابري: العولمة والهوية الثقافية، ندوة العرب والعولمة، مرجع سابق، ص 198.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

الولاءات للقيم التراثية و الوطنية و القومية، و"تعمل العولمة في إطارها الثقافي على إنشاء مجتمع عالمي ذي ثقافة موحدة في إطار مجتمع العولمة الجديد، و تهميش الثقافات التقليدية، و سيطرة قيم علمانية غربية مثل المجتمع الاستهلاكي و المادية و الفردية، ولكن المشكلة في هذه الثقافة الجديدة، أن هذه النظرة العالمية لها تحمل الطابع المادي، الذي يقلل من دور الدين و يستبعد حقيقة تكوين الثقافات و يخضع الإنسان إلى مخلوق لخالق، هدفه الوحيد في الحياة هو الإنتاج و الاستهلاك".¹

نصل إلى:

يحمل مفهوم الثقافة العالمية المعولمة نقيضين ، فمن جهة هناك مواطن إغراء و جذب، متصلة بإنشاء عالم واحد لمصلحة السلام العالمي و العمل المتسق و الإنسانية المشتركة، عالم واسع يتحرر من الأفق الثقافي الضيق من الإطار المحلي، و من جهة أخرى هناك الخوف من التجانس و التتميط، و من اندثار الأنساق الثقافية الأصلية، و ذوبان الهويات الذاتية، إن هي لم تنتسب بالخصائص الذهنية والتاريخية و العاطفية التي تربطها بمحاضنها الثقافية، وإن هي عجزت عن تجديد نفسها و انكفأت عن ذاتها واحتمت بأسوار الأصل و النقاء .

وينبغي التنبيه إلى أنه قد ينتج عن التقارب الثقافي و عن دمج العالمي و المحلي ثقافات هجينة، لكن هذا الاندماج لا يؤدي بالضرورة إلى التجانس المطلق، طالما أن الرموز الثقافية هي جوهر كينونة الإنسان، وهي تحتل موقعها متجذرا في بنية الشخص و عمق كينونته و روحه.

¹ - عمر جاه: العولمة و التغيرات الاجتماعية و الثقافية في العالم الاسلامية، المعرفة مجلة إسلامية، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، بيروت، العددان 37-38، السنة 10، 2004، ص207.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

ثالثا: الثقافة الاستهلاكية:

الاستهلاك مفهوم اقتصادي بامتياز، و يعني " تدمير أو هلاك السلعة أو الخدمة المنتجة عن طريق استعمالها"¹. انتقل هذا المصطلح من المجال الاقتصادي إلى المجال الثقافي، فاقترن بالثقافة و بات جزء من العادات و الممارسات الاجتماعية، ونوعا من القيم التي تحكم مجتمعا ما.

وقد شكل السلوك الاستهلاكي للفرد والمجتمع موضوعا هاما للبحث في علوم مختلفة كعلم الاقتصاد وعلم النفس و علم الاجتماع وعلوم الاتصال و الإعلام. و لم يحظى مفهوم الثقافة الاستهلاكية بإجماع عام بين العلماء، خاصة علم الاجتماع الثقافي، بيد أن معالم المفهوم اتضحت في مرحلتي المجتمع الصناعي ومجتمعات ما بعد التحديث، أين اتخذ الإعلام منحى تجاريا تسويقيا ربحيا أكثر منه توعويا تثقيفيا، وأصبحت السلعة بوصفها عملا أحد أهم العناصر المتحركة في الإنسان المنتج و المستهلك لها، فظهرت المجتمعات الاستهلاكية و كثرت المتطلبات، وازدادت معها الحاجة إلى الإنتاج. ومع غياب معيار دقيق لمعنى الحاجة، غاب المعنى الحقيقي لقيمة السلعة " فكل ما ينتج يكتسب إذن معنى السلعة التي هي في الأصل جهد إنساني، فتعم السلع و الرغبات في علاقة إنتاج- استهلاك، دون مراعاة عقلية لقيم الإنتاج من ناحية إنسانية ولا تحديد لدوافع الاستهلاك استنادا إلى حاجات حقيقية، ومن الطبيعي أن هذا سيؤدي إلى ظهور علاقات جديدة بين السلعة و مستهلكها، وهي علاقة لا تخضع لشرعية معينة (...). الأمر الذي يؤدي إلى ظهور "وعي استهلاكي سلبي"، لا يعني أبدا بالإنتاج كفعل إنساني، إنما به

¹ - ينظر: جمعون نوال: ثقافة الاستهلاك و ضغوط العولمة، مجلة "دراسات في الاقتصاد و التجارة و المالية"، مخبر الصناعات التقليدية لجامعة الجزائر3، المجلد07، العدد1، 2018، ص154.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

كسلعة، كشيء يشبع رغبة حتى ولو لم تكن مشروعة، وتصبح الأشياء هي العنصر الفاعل في تحديد علاقات الأفراد، لأن الأفراد في جانب كبير منهم أصبحوا أشياء¹.

يعرف مارتن لي (Martin Lee) الثقافة الاستهلاكية بأنها "ترابط النشاطات الاقتصادية مع الممارسات الثقافية، تلك الممارسات التي يمكن تحديدها تماما بواسطة دوران رأس المال أو سيكولوجية الفرد"². ويرى أحمد زايد أنها "تمثل الجوانب الثقافية المصاحبة للعملية الاستهلاكية، و أنها مجموعة المعاني والصور و الرموز التي تصحب العملية الاستهلاكية، والتي تضي على هذه العملية معناها، وتحقق دلالتها في الحياة اليومية."³

وفقا للتعريفين، فإن للثقافة الاستهلاكية جانبين: جانب مادي وهو الأكثر جلاء، وجانب معنوي يرتبط باستهلاك الصور و الرموز و المعاني و القيم التي ترافق الاستهلاك المادي، وبموجبه تغدو الثقافة نظاما محكما، هدفه تحضير الفكر لاستقبال مخرجات السوق و السلع المتداولة.

و في ظل الترابط الكوني، عبر مفاعيل ثورة الاتصال و المعلوماتية والكشوفات العلمية، ارتبطت ثقافة العولمة بثقافة الاستهلاك، ما عزز نقل القيم الاستهلاكية من دولة إلى أخرى عبر السوق القومية المفتوحة التي تدعمها الوسائل الترويجية للشركات المتعددة الجنسيات و الوسائل الإعلامية، وأصبحت العملية الاستهلاكية أيديولوجيا

¹ - عبد الله ابراهيم: المطابقة و الاختلاف، مرجع سابق، ص344.

² - محمد الجوهري و آخرون: علم الاجتماع الاقتصادي، دار المسيرة للنشر و التوزيع، ط1، عمان، 2009، ص319.

³ - أحمد زايد و آخرون: الاستهلاك في المجتمع القطري، أنماطه و ثقافته، مركز الوثائق للدراسات الإنسانية، دط، الدوحة، 1991، ص28.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

و عقيدة فكرية ومجموعة منتظمة من الأفكار، ورؤية شاملة ونسقا من الرموز والعلاقات لها منطقتها الخاص، تعد الشعوب بالخلص والسعادة.

وفي هذا الصدد نقرأ لإدوار غاليتو (Edward Galley) قوله: « في العولمة تحل الأسواق محل الشعوب، والمستهلكين محل المواطنين، والمشروعات الصناعية محل الأمم (...). إن العولمة تصميم قسري لنموذج معادي للتعددية و التنوع الثقافي، يلغي التمايز و الشخصية الثقافية و يروج عن طريق وسائل الإعلام لقيادة قوانين السوق و قيم المجتمع الليبرالي الرأسمالي، و لفرض دكتاتورية الكلام الوحيد و الصورة الوحيدة والنمط الواحد من الحياة، و يحول الإنسان لمجرد مستهلك مستسلم و مشاهد متلق، يتم تصنيعه و ترويضه جماعيا"¹.

و يعمل النظام الرأسمالي العالمي على دمج كل المجتمعات في نطاق ثقافة أحادية رأسمالية استهلاكية، تحدها الشركات العابرة للقوميات، جاءت نتيجة الطابع التوسعي و التنافسي لنمط النتاج الرأسمالي، وقد أسهمت تكنولوجيا الاتصال الحديثة في تحويل الثقافة - التي كانت تعني سابقا مختلف ضروب النشاط الإبداعي و الفكري من أدب و فن و فكر، و شكلت جزءا من البنية الفوقية - إلى سلع تجارية استهلاكية، تسوق عالميا، بعد أن نجحت في تجاوز عقبات الرقابة التي تفرضها الدولة القومية على تسويق و توزيع المنتجات الثقافية.

وسعى مالكو المؤسسات الإنتاجية الكبرى إلى السيطرة على المؤسسات الإعلامية و الوكالات الإعلانية، و أضحى الاستهلاك أسلوبا في الحياة و حالة إدمان، تتحدد فيه

¹ - ينظر: رومية عيساني: ثقافة الاستهلاك و مخاطر تدمير الهوية الوطنية في زمن العولمة الثقافية، كلية العلوم الاجتماعية و العلوم الإسلامية، مجلة الإحياء، العدد 10، ص 340.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

قيمة السلعة لا بقيمتها الحقيقية وجودتها، بل بقدرة صانعيها على تحويلها إلى ثقافة ترغيب و تسويق لدى المستهلكين، و ارتكز هذا الجانب على فلسفة اقتصادية نفعية، على اعتبار أن الاستهلاك هو القوة الدافعة للنمو الاقتصادي.

انطلقت هذه الثقافة الاستهلاكية من الدول المتقدمة، و تحديدا الولايات المتحدة الأمريكية، ومن المراكز الصناعية الكبرى، و أسست لنفسها في دول العالم عبر الثقافات، فعدت ثقافة عالمية لها أبعادها الرمزية و النفسية و الاجتماعية، و لها مرجعيتها الخاصة المبنية على التنافس الحر بلا رقيب، و الهدف هو الربح على حساب الإنسان و البيئة " الاستهلاك في ظل العولمة لم يعد يشير على أنه إشباع للحاجات البيولوجية فقط، بل أصبح ذا معان رمزية، فقد تحول الأفراد إلى جزء من السوق العالمية، يتقاسمون معايير الاستهلاك الموحدة"¹.

ولهذا النوع من الثقافة قدرة رهيبية على إنتاج سلع ثقافية استهلاكية وعلى «اختراق جميع الحواجز العرقية و اللغوية و القومية و الجغرافية و الطبقة، وهي تقدم نفسها أيضا على أساس أنها الثقافة الوحيدة القادرة على إشباع الاحتياجات الثقافية للجماهير، فلا يعني الفهم الشامل لظاهرة الاستهلاك عمومية الظاهرة وارتباطاتها الثقافية فحسب، و لكنه يعني أيضا النظرة إلى الاستهلاك في جوانبه المادية و المعنوية و في جوانبه المنظورة و غير المنظورة، فالأفراد يستهلكون بجانب استهلاكهم السلع المادية الصو و المعاني المرتبطة بها، كما أنهم يتخذونها رموزا يتخاطبون بها خطابا صامتا في الحياة اليومية و سيشكل هذا الجانب البعد المعنوي غير المنظور من الاستهلاك»².

¹ - اسماعيل نوري الربيعي: التاريخ و الهوية، دار حامد، دط، عمان، 2002، 107.

² - مصطفى مرتضى: العولمة و ثقافة الاستهلاك لدى الشباب الجامعي، دراسة اجتماعية ميدانية، مجلة حوليات آداب، عين شمس، الجيزة، 2011، ص432.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

ثقافة الاستهلاك صناعة معدة للاستهلاك الجماهيري، وهي واحدة من الآليات التي تسلحت بها العولمة لفرض هيمنتها على الشعوب و المجتمعات، جرى الترويج لها لكسر احتكار المعرفة، وتأكيد حق الجمهور بالثقافة المبسطة وبهدف إمتاعه، ولكنها في حقيقتها تحويل للثقافة إلى سلعة تسوق شأنها شأن باقي السلع المادية الاستهلاكية.

لقد سيطرت الإمبراطوريات السمعية و البصرية على الإنتاج الثقافي العالمي، و احتكرت الرموز و القيم الثقافية التي تصنع فرادة الثقافات و تباين المجتمعات و تأخذ كل منها طابعها الخاص، و حولتها إلى طابع ثقافي عام عالمي، يطبع مختلف مستويات الحياة الثقافية الجارية، تستمد فيه الأشياء قيمتها وفقا لمعيار الاستهلاك و مبدأ اللذة و المتعة «إن البشر في كل مكان القادرون على الاستهلاك توحد بينهم و تجمعهم سلع و بضائع و منتجات تخلق فيما بينهم ميولا و أذواقا و رغبات مشتركة، ترفع من مستوى الاتفاق الثقافي فيما بينهم، و تدريجيا تجرد ثقافتهم من هويتها و خصوصيتها، و تلبسها ثوب الثقافة الاستهلاكية الجديدة»¹.

وفي المجتمع الاستهلاكي الموازي لعالم ما بعد الحداثة، أصبحت العملية الاستهلاكية إيديولوجيا و عقيدة فكرية و مجموعة منتظمة من الأفكار، و رؤية شاملة قادرة على خلق إنسان جديد مهووس بالاستهلاك، عبد للأشياء و للدعاية و الإعلان الذي لا يقدم أي حقيقة، إنما يعطي شعورا بلامسة الحقيقة، فكل رسالة إعلامية تهدف إلى استعراض الثقافة كسلعة و تحويلها إلى رمز معين، وهي بذلك ثقافة تقوم أساسا على النزعة الاستهلاكية، مهمتها تشجيع الاستهلاك الجماهيري، و خلق حاجات ركيزة مزيفة،

¹ - محمد عابد الجابري: قضايا الفكر المعاصر، مرجع سابق، ص 147.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

و تصنع بنزعة التجارة والربح مجالا وهميا من الرفاه ورؤى و أحلاما تسلب الوجود الحقيقي و الواقعي للبشر، وهي في جوهرها ثقافة قهرية، تدفع الفرد إلى الاستهلاك¹.

و تماشيا مع سياسية الأسواق المفتوحة والسموات المفتوحة للعولمة، تم عولمة الإعلان و تسليع التجربة الثقافية للمجتمعات، فمن المؤكد أن نشاط التسوق أصبح اليوم أحد أكبر الممارسات الثقافية الشعبية، وأن عنصر التسويق يشكل الغالبية العظمى من الأنشطة الترويجية المعاصرة «تُشَبَّه الثقافة نفسها اليوم بأحد أقسام العالم، عالم جرى تشكيله ليصبح قسما في مستودع تجاري ضخم، يعيش فيه أناس تحولوا إلى مستهلكين في المقام الأول... فالبضائع المعروضة على الرفوف و الإعلانات على مواضع دفع الحساب، تستهدف إيقاظ نزوات لا يمكن كبتها، ولكنها نزوات عابرة بطبيعتها، فهي كما وصفها جورج شتينر في عبارته الشهيرة: "معدة لأعظم تأثير و أقرب زوال"².

ويسهم الإعلان و هو فن خلق الاحتياجات المفتعلة في تشكيل جمهور مدمن على اقتناء السلع دونما حاجة إليها، و يدفعهم إلى الاستهلاك المتواصل تحت وطأة الإلحاح السيكولوجي المتواصل الذي يعطل وعيهم ويجرد الثقافة من كونها نتاجا فكريا و إبداعيا، تزامزا و تجربة ذات مغزى، مما يحولها إلى ثقافة استعراضية تجارية تنافسية لجذب الانتباه الخاطف المستنزف لدى الزبائن مظهرا ملامحها الرئيسية " بوجود عدد لا حصر له من السلع و المنتجات المتنوعة التي تستهلك أو تقتنى، أو يحلم بها عامة الناس و يخططون لاقتنائها، إلا أن هذا الاستهلاك ليس مجرد استهلاك لأشياء، أو منافع موجهة لتلبية احتياجات متنوعة، بمعنى آخر إن الثقافة الاستهلاكية تستطيع من خلال الإعلان

¹ - سمير إبراهيم حسن: الثقافة و المجتمع، دار الفكر، ط1، دمشق، 2007، ص82.

² - زيجمونت باومان: الثقافة السائلة، تر: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث و النشر، ط1، بيروت، 2018، ص23.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

و وسائل الاتصال و طرائق و أساليب عرض السلع أن تقوض أركان الفكرة الأصلية لاستخدام السلع أو معناها،و أن تلصق بها صورا و علاقات جديدة تثير عددا من المشاعر و الرغبات"¹.

لقد رُوض المجتمع الاستهلاكي على قبول القيم الاستهلاكية لثقافة العولمة دونما اعتراض عقلي أو ممانعة نفسية، حيث أبطلت تكنولوجيا الإثارة و التشويق فعل النقد بما تمتلكه من سحر و إبداع و إغراء "فالاستلاب العقلي، يقود بالضرورة إلى الاستلاب الفكري و الثقافي، و بالتالي يفرض نهجه على تلك السلوكيات، و الطبائع المرتبطة بتلك الذات المستلبة على كل المستويات: الاجتماعية والنفسية و الفكرية والثقافية و الحياتية اليومية، و تنتفي هنا بالضرورة مقولة ديكارت: "أنا أفكر إذن أنا موجود"².

و راهنت الثقافة المعولمة على ثقافة الصورة، وهي ثقافة إشهارية بصرية سمعية، تتولى التكنولوجيا هندستها و صناعة أسباب جاذبيتها و تأثيرها،وتتطوي مادتها المعروضة على قدر عال من الإغراء و التشويق، بحيث يزيد معه جمهور المستهلكين، و تزيد معه معدلات الاستهلاك، واتخذتها وسيلة لإنتاج القيم و تشكيل الوعي و الوجدان و التأثير في الإدراك، لأنها «المادة الثقافية الأكثر استهلاكاً، و الأقدر على الفتك بنظام المناعة الطبيعي لدى شعوبنا، إنها أكثر من مجرد شكل، إنها مادة مكتنزة بالخطابات و الرسائل والدلالات،

¹ - مايك فيذرستون: الثقافة الاستهلاكية و الاتجاهات الحديثة، تر: محمد عبد الله المطوع دار الفارابي، ط1، بيروت، 1991، ص98.

² - عماد يوسف: مفهوم الاستلاب العقلي، الفكري و الثقافي، الحوار المتمدن، العدد3271، 2001-02-08.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

وهي تُقدم للمستهلك في قالب جمالي يستوفى الشروط التي تجعلها على درجة كبيرة من الجاذبية و الإغراء»¹.

و تنتج ثقافة الصورة أحلاما اصطناعية تجمع بين الواقع و الخيال والرمزية، و تقدم غالبا تصورات ومفاهيم غير واقعية، وتمرر كثيرا من الأفكار و القيم و المعايير، التي تؤثر بدورها في البنية الثقافية والاجتماعية للمجموعة البشرية «إن النفوذ الثقافي المعاصر عن طريق الوسائط الاتصالية الحديثة يستهدف السيطرة على المعرفة الثقافية و الإدراك من خلال الصورة السمعية البصرية لإحداث تأثير في الفكر و الوجدان و السلوك، عن طريق تنميط الذوق و قولبة السلوك بواسطة تقديم نماذج استهلاكية من المنتجات الثقافية و الإعلامية والحياتية»².

و تتلاعب هذه الثقافة بالإشارات و العلامات، و تقوم على مبدأ اللذة الآنية و التمتع الراهن، و تسطيح الوعي، و تشويه الأذواق، و تلغي المكانة الفوقية للتمثيل الفني، فقد تبنت ثقافة الصورة خيار النزعة الجماهيرية و مبادئ الفلسفة البراغماتية الربحية، و روجت للقيم الاستهلاكية، التي نجحت إلى حد ما في التغلغل في الذات المستهدفة و دفعتها إلى العيش بفكر الغير و التمثل بسلوكه، و لم يتوقف الأمر عند حدود الاستمالة، بل تعداه إلى صناعة النجوم و الماركات العالمية و توظيفها كمادة و علامات أيقونية لا تمثل ذاتها، بل هي موضوع الخطاب الإعلاني الذي يختزن مجموعة من القيم و السلوكيات، بغض النظر عن قيمته الفعلية.

¹ - عبد العزيز بلقزيز: النظام الإعلامي السمعي البصري و الاختراق الثقافي، كتاب إشكالية العلاقة الثقافية مع الغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، 1997، بيروت، لبنان، ص228.

² - بلييل نور الدين: القنوات الفضائية و تأثيراتها على القيم الاجتماعية و الثقافية و السلوكية لدى الشباب الجزائري، مجلة اتحاد الإذاعات الدولية، العدد4، 2004، ص22.

الفصل الأول: في فضاء المفاهيم: العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية .

و في ظل المجتمع الاستهلاكي الاستعراضي تحتل السلع الحياة الاجتماعية، وترتفع من قيمة استعمالية إلى قيمة رمزية تقتنى لأجلها، و يُجسّد النجم(السلعة) الحياة و أساليب فهم المجتمع و أنماط عيشه، فإنسان الإعلان إنسان متعالٍ، إنه ما يجب أن يكون الكل عليه. إذ لا يمكن تجاهل أن ثمة أساليب و علامات تجارية وأذواق و ممارسات ثقافية تتمتع بذيوع عالمي، وأن هناك تقارباً واضحاً في السلع الثقافية في العالم تشمل الملابس و الطعام و الأفلام و الموسيقى والعمارة و طرائق التفكير...، يتدخل في تشكيل و ترتيب التجربة الثقافية عالمياً، فكثير من الممارسات الثقافية تحولت إلى أشياء تباع و تشتري «ليس لثقافة الحداثة السائلة من «شعب» تُثيره و ترتقي به، و لكن لها زبائن تغريهم، فالإغراء على العكس من التثوير و الارتقاء بالنفس ليس مهمة واحدة و منفصلة يقوم بها المرء مرة و للأبد، بل هو نشاط مفتوح لا نهاية له»¹. و مما يزيد هذا الوضع خطورة و تجذراً " هو تواطؤ كل أشكال السلط على الإنسان المعاصر، السلطة السياسية، السلطة العلمية، السلطة الدينية، السلطة الإعلامية... وإصرارها على تعمية الجماهيري و تخديرها عبر سيناريوهات حكائية كبرى زائفة"². و الشباب هم الفئة المستهدفة بهذه الثقافة، لأنهم أكثر الشرائح استعمالاً لتكنولوجيا الإعلام و وسائل الاتصال الجماهيري.

¹ - زيجمونت باومان: الثقافة السائلة، مرجع سابق ، ص23.

² - شراف شناف: المقدس و السرديات الكبرى بين النص المطلق و الكتابات الأجنبية، حوار مع المفكر و الناقد الأدبي الدكتور " عبد الله العشي"، ضمن سلسلة المقدس و السرديات الكبرى، تنسيق و تقديم: الحاج أوحمنة دواق، سلسلة ملفات بحثية، الدين و قضايا المجتمع الراهنة، مؤمنون بلا حدود، 18 أكتوبر 2016، ص141.

الفصل الثاني:

العولمة الثقافية بين صراع الحضارات و تحاورها في المنجز الروائي
لواسيني الأعرج.

المبحث الأول: مظاهر الصراع الحضاري و الصدام الثقافي.

المطلب الأول: الإسلاموفوبيا وخطاب الكراهية.

المطلب الثاني: التطرف الفكري و الديني

المطلب الثالث: الإرهاب الدولي و الجريمة المنظمة

المطلب الرابع: الداء الأصولي و تفكك الذات.

المطلب الخامس: المركزية الغربية.

المطلب السادس: صراع الأديان

المبحث الثاني: مظاهر الحوار الحضاري و الثقافي.

المطلب الأول: الوشائج الإنسانية (الرباط الروحي)

المطلب الثاني: حوار الأديان

المطلب الثالث: المثاقفة.

المطلب الرابع: الترجمة.

المطلب الخامس: الفن و الموسيقى.

المبحث الأول: مظاهر الصراع الحضاري و الصدام الثقافي.

يولد المرء وينشأ داخل جماعة بشرية، تستند في تكوينها على ثوابت أخلاقية و فكرية و دينية، وأخرى سياسية واقتصادية، تؤسس من خلالها إلى وجودها وخصوصيتها وتاريخها، و تمنحها الفرادة و التميز مقارنة بباقي التشكيلات الثقافية الأخرى، وتصطبغ هذه المرجعيات بصبغة شمولية، فتحاول من أجل إثبات ذاتها أن تنفي صحة المرويات الأخرى، وتبطل فاعليتها.

وتغدو بالنسبة إلى المنتمي " إليها بمثابة "كتالوجا" إرشادي من بدايته الفيزيقية إلى لا نهاياته الميتافيزيقية، لكي يبقى على الصراط المستقيم، ولا تزال قدماء، و قد تحولت إلى متن تأسيسي، يحول الإنسان من كائن نقدي إلى كائن غريزي، يؤمن به إيمانا حماسيا، وقد أخرجها من حيز النقد إلى حيز المتعالي على النقد والمراجعة والتطوير، وهو ما يجعل منها "منادة" مقفلة متعالية على الزمان و المكان، وقد تحولت إلى بنية ذهنية تتحكم به و توجهه بشكل واع أو غير واع وجوديا وذهنيا، وهو ما يؤثر في نظرتة إلى ذاته وعلاقته بغيره وفهمه وتأويله للوجود، وما فيه من علاقات"¹.

وقد أطلق اصطلاحا اسم السرديات الكبرى أو المرويات الكبرى على هذه التصورات و الثوابت والمعايير "إن مفهوم المرويات الكبرى (grand narratives) أو السرديات الكبرى، يشير إلى طبيعة العلاقة الجدلية بين العقل من جهة و الواقع الموضوعي من جهة أخرى، وهو مفهوم ذو طبيعة أيديولوجية تاريخية، تشير دلالتها إلى محصلة التصورات و المفاهيم و الأنماط المعرفية، التي تتشكل داخل الوعي الثقافي لمجتمع ما أو أمة ما من الأمم، والتي تعكس تصور ذلك المجتمع أو الأمة لواقع معين بمظهره المادي و التاريخي،

¹ - عامر عبد زيد الوائلي: تجديد العلاقة مع المقدس، رهان تفكيك، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، سلسلة المقدس والسرديات الكبرى، ملفات بحثية في الدين و قضايا المجتمع الراهنة، تنسيق و تقديم الحاج أوجمنة دواق، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، 18 أكتوبر 2016، ص 05.

أو على مستوى المكان أو الزمان أو كليهما معا. وتتسلل المرويات الكبرى إلى الوعي الجمعي لتصبح عبر سلسلة من التراكمات أشبه بالمعرفة القبلية التي توجه وتقود الوعي الثقافي و الحضاري لأمة ما¹.

و" المتأمل في التشكيلات الثقافية و الأنساق الثقافية التي شيدها الإنسان على مر الزمان، يجدها محبوكة بكيفية تتسجم وطبيعة البنية الذهنية للبشر، التي هي بدورها نتاج تعالق و تلاحم مجموعة من العناصر المعتقدات، العادات، التقاليد، الأعراف، الأذواق، الأحكام... التي تراكمت ضمن محضن زمكاني معين، وأصبحت تشكل بنية صلبة يصعب فك مكوناتها و فصل طبقاتها بعضها عن بعض"².

وتوجه هذه البنى "الإنسان في حراكه الوجودي، وتؤطر أشكال فهمه، وأنماط تأويله للعالم، وتمده بالمبررات التي يقارب بها الحقيقة، والآليات التي يحكي بها تلك الحقيقة، ويقدها و يدنس بها في الوقت ذاته كل أشكال الفهم و الوعي و التأويل التي لا تتسجم معها"³. كما تعطي الأمة بعدها المعنوي و المادي والتاريخي، الأمر الذي أكسبها " أهمية كبيرة في الصراع السياسي و العسكري و الثقافي بين الأمم لفرض هيمنتها على الأمم الأخرى"⁴.

¹ - معن الطائي: المرويات الكبرى وجماليات تزييف الواقع في الثقافة الكولونيلية. <https://m.ahewar.org>. 04/24 /2006/

² - شراف شناف: المقدس و السرديات الكبرى بين النص المطلق و الكتابات الأجنبية، حوار مع المفكر و الناقد الأدبي الدكتور " عبد الله العشي، مرجع سابق ، ص141.

³ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها، ص141.

⁴ - معن الطائي: المرويات الكبرى وجماليات تزييف الواقع في الثقافة الكولونيلية، مرجع السابق. <https://m.ahewar.org> 24/04 /2006/

و بالعودة إلى التاريخ، يتضح لنا أن الصراع بين الحضارات واقع و قائم منذ بدء تكون المجتمعات الأولى. وهو فكرة قديمة متأصلة في الثقافة الغربية، ورثتها من العصرين الروماني و اليوناني، شملت التصورات والمفاهيم والمبادئ و القيم و المعتقدات، وتجذرت أكثر بإقحامها في الفكر الفلسفي و الديني الحديث. وقد عززت هذه الرؤية ادعاء الآخر الغربي بمركزيته، وتفوقه هوية وأخلاقاً وحضارة، و شكلت إطار رؤيته لنفسه وللغير، ومنحته الحق في فرض رؤاه، و السيطرة على الآخرين، وفي أن ينصب نفسه مركزاً و الباقي هوامش تتصارع لرؤيته وطروحاته.

و تجلت هذه النزعة الصراعية في شكل نظريات فلسفية، يقوم عليها النظام العالمي الجديد، لتبرير ديمومته وعالميته أهمها:

1- الهيجلية، نسبة إلى "هيجل Hegel"، (1770-1831)، في فلسفة التاريخ.. وهي التي قامت على نسخ العصر الجديد للعصر الحديث عبر الصراع مع مكوناته، و الحلول محلها.

2- والداروينية: نسبة إلى "داروين Darwin"، (1809-1882)، في فلسفة النشوء والارتقاء.. والتي قامت على صراع الأحياء، ونسخ و محو الأقوى للأقوى و للضعيف، لأن الأقوى - بإطلاق - هو الأصلح للبقاء.

3- والصراع الطبقي سواء في ماركسية "ماركس Marx" (1817-1883) -أوفي الليبيرالية الرأسمالية-.. والذي يعتمد "النزعة و الفلسفة الصراعية" في علاقات الطبقات الاجتماعية، فالطبقة الوليدة و الجديدة تصارع الطبقة القديمة لتقهرها و تزيحها و ترثها، وتتفرد بكل الثمرات و الامتيازات و السلطات¹.

¹ - محمد عمارة: في فقه المواجهة بين الغرب و الاسلام، ط1، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2003، ص63.

وترسخ المفهوم أكثر بظهور الفلسفة النيتشوية، التي تقول أن العالم مادة واحدة هي أصل كل شيء، وهي خالية من الغرض و الهدف، والداروينية الاجتماعية التي تستبعد الخالق من المنظومة الأخلاقية والمعرفية. وعليه، أصبح البقاء المادي هو المطلق، والصراع الحتمي آلية تحقيقه. فالكائنات الحية أو النوع تحقق "البقاء من خلال التكيف (البراجماتي) مع الواقع، فنتلون بألوانه وتخضع لقوانينه، أو من خلال القوة وتأكيد الإرادة (النيتشوية) على الواقع. والبقاء من نصيب الأصلح القادر على التكيف و الأقوى القادر على فرض إرادته"¹.

وعلى هذه السرديات "قام فكر الحداثة، وبنى مركزياته السلطوية، التي لا تسمح إلا بما يتجانس معها في الهوية والوجود. وهو ما خلق حالة من الاحتواء و الإقصاء معا، احتواء المؤلف و إقصاء المختلف"².

وقد اعتمدت هذه الفلسفات كنسق أخلاقي عام في العالم الغربي، وحرصت الحضارة الغربية من خلال فلسفة الصراع على تزويد الآخر المختلف، و تتميطه في منظومتها القيمية، مدعية حملها لرسالة الحضارة النبيلة "كان مشروع الحداثة مشروعا عقلانيا ليبراليا وفي مطمحه أن يزيل الفروق العرقية، ليؤسس لنموذج كلي تمثله أمريكا و أوروبا في تجسيد تام لقيمهم الحضارية و الفلسفية ومنها جاءت فكرة (البوتقة الصاهرة)، التي تعني تزويد الأعراق و الثقافات و الفلسفات في صيغة كلية واحدة"³. وبما أن نموذج الحضارة الغربية هو الأقوى، فهو "إذن الأصلح، ولذلك فإن صراعاها ضد الحضارات المستضعفة، هو قانون عملي و رسالة نبيلة، يقوم بها هذا الرجل الأبيض، لإزالة الماضي والمواريث

¹ - عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية و العلمانية الشاملة، ط1، دار الشروق، القاهرة، المجلد 2، 2000، ص64.

² - شراف شناف: المقدس و السرديات الكبرى بين النص المطلق و الكتابات الأجنبية، حوار مع المفكر و الناقد الأدبي الدكتور "عبد الله العشي، مرجع سابق، ص141.

³ - عبد الله الغدامي: القبيلة و القبائلية أو هويات ما بعد الحداثة، لمرجع سابق، ص37.

و المؤسسات الضعيفة، وإحلال النموذج الحضاري الغربي "القوي و الأقوى" في العالم، عبر التطبيقات المتنوعة لفلسفة الصراع"¹.

يمكن - إذا - إرجاع فلسفة الصراع والقوة، ومنطق الغلبة للأقوى إلى مجموعة من الجذور: منها ما هو تاريخي؛ ممثلاً في الإرث الاستعماري الثقيل، والآلة العسكرية، و التطهير العرقي العنصري، فضلاً عن حروب التعصب الديني والإبادة الجماعية، ومنها ما هو ثقافي ديني لاهوتي. شرعنت هذه التصورات لتفوق الجنس الأبيض ومركزيته، وأعطت الأولوية للمصلحة والمنفعة على حساب الأخلاق والقيم، وأسست لثنائية التفوق والاستعلاء في مقابل التخلف و الدونية "فالمرويات الكبرى لا تنقطع عن مرجعياتها الثقافية، وهي سرود شاملة لا تعرف البراءة و التمثيل، وليست شفافة، إنما تشتبك مع مرجعياتها في نوع من التمثيل الكثيف، وتصوغها صوغاً رمزياً، فتشرح من تضاعيفها كل المواقف القيمة و الثقافية، هذه الآلية التي وفرت اعتصاماً بالذات وتحصناً وراء أسوارها المنيعه، وإقصاء الآخر و تشويه حالته الإنسانية، هي من نتاج ثقافة التمرکز حول الذات"².

إنها "تشكيلات أيديولوجية متحيزة، وافتراضات مسبقة وتكوينات تاريخية وأمشاج من التمثيلات المحتملة والمتوهمة، وأشتات من الحقيقة والمتخيل، تمارس فعلها على الأفراد و الجماعات بوصفها معياراً فكرياً أو رأياً عاماً أو حقيقة تاريخية"³. فكل تمرکز حول الذات العرقية أو الدينية أو الثقافية، إنما يقوم على تصديق بسلطة استعلائية متحيزة ترفع من شأن الذات على حساب الآخر. وما دامت تلك المرويات توجه أفكار المؤرخين والجغرافيين والرحالة و الإعلاميين و الأدباء و الفنانين، وكل من يصوغ الصور الجماعية الذهنية الخاصة، سيصعب الحديث عن نهاية الصراعات الثقافية و الحضارية.

¹ - محمد عمارة: في فقه المواجهة بين الغرب و الإسلام، مرجع سابق، ص 63.

² - عبد الله إبراهيم: المطابقة و الاختلاف، ج 1، ص 36.

³ - شراف شناف: المقدس و السرديات الكبرى بين النص المطلق و الكتابات الأجناسية، مرجع سابق، ص 142.

وللأسف، أفضى التلازم بين القوة و المعرفة عند الغرب الأورو أمريكي واقعيا إلى الصراع الحضاري بينه وقطب الشرق، ذلك أن تفوقه الاقتصادي و الفكري والثقافي الفاعل في الحاضر و التاريخ، أوقع الشرق والحضارات الأخرى في مأزق كبير، وأرغمها على تبني خياراته في الغالب.

وفي "خضم الجدل بخصوص وعود الحداثة ومكاسبها، ظهر مفهوم العولمة، ليضع مفهوم الحداثة أمام اختبار دقيق، اختبار يهدف إلى التحقق فيما إذا كانت العولمة وسيلة لتعميم نزعة الحداثة الغربية على مستوى العالم، أو أنها نزعة إيديولوجية من إفرازات التمرکز الغربي الحديث"¹، إذ المعلوم أن الغرب هو من ابتكر مصطلح العولمة، وهو من حدد مضامينها وهويتها و قاد حركتها و روح لها، وهذا هو مصدر التوجس منها والخطر فيها، لأن نزعة التمرکز حول الذات لا تزال تحكم عقليته، ولا تزال توجه طبيعة علاقاته بالأمم والحضارات الأخرى. خاصة وأنها تقدم بوصفها "عملية تشكيل لوضع عالمي جديد، من خلال فرض نموذج ثقافي معين، يسعى لتفكيك وإعادة صياغة الهوية القومية، وينذر بمواجهة بين الثقافات، وصراع بين الحضارات، وقد تم النظر إلى العولمة كنظرية، أي أنها تتم بوعي من جانب من يقوم بها، وتستهدف تحقيق أهداف معينة، خطط لها سلفا، أي إنها فعل وخلفها فاعل مؤثر يمتلك إمكانات القوة"².

وما يعيننا تحديدا هو العالمين العربي و الإسلامي، حيث يؤكد كثير من العلماء والفلاسفة والمفكرين بمختلف اتجاهاتهم، أن لاستقبال الحداثة الغربية المعولمة في المجتمعات العربية و الإسلامية إفرازات وانعكاسات لا تحصى ولا تعد، و أنه لا يجب أن

¹ - عبد الله إبراهيم: المركزية الإسلامية، صورة الآخر في المخيال الإسلامي خلال القرون الوسطى، دط، المركز الثقافي العربي، 2001، ص ص28-33.

² - عبد الغني عماد: سوسيولوجيا الثقافة، المفاهيم والإشكالية، من الحداثة إلى العولمة، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2006، ص73.

نغفل مراعاة السياق التاريخي الغربي للحدثات وتمايزه عن السياق العربي لكي نتفادى كل تمرد ورفض المحلي للخارجي، وذلك لخطورة هذه المسألة وانعكاساتها على واقع الشعوب العربية والإسلامية، تلك التي تظهر على وجه الخصوص في التطرف و العنف والإرهاب و التفكك والصدام الحضاري.. باعتبار "تلك المعطيات التاريخية تمثل إحدى إفرزات الحدث في هذا النصف الثاني من القرن العشرين. فالحدثات لها سلبياتها أيضا وليست كلها إيجابيات"¹، ولاسيما في ما تجلى عنها من شرح عميق بين الشرق الممثل في الدول العربية والإسلامية على وجه الخصوص، والغرب المتمثل في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.

كما توضع العولمة أيضا ضمن منظومة المصطلحات التي توطر خطاب ما بعد الحدث الساعي إلى هدم وتقويض كل الأنظمة القائمة وإعادة صياغة المفاهيم، وتفكيك العقل و القيم والدول و القوميات والمجتمعات...، وقياسا عليه تكون العولمة مشروعاً مفتوحاً لما بعديات: ما بعد الأمة و ما بعد السياسة و ما بعد الثقافة و ما بعد الرأسمالية و ما بعد الدين... "إن ما بعد الحدث هي في واقع الأمر الإطار المعرفي الكامن للنظام العالمي الجديد، فهي رؤية تنكر المركز و المرجعية، وترفض أن تعطي التاريخ أي معنى، وللإنسان أي قيمة خاصة أو مركزية أو إطلاق، وتسقط كل الأيديولوجيات (عصر ما بعد الأيديولوجيا)، وتنكر التاريخ (عصر نهاية التاريخ)، وتنكر الإنسان (عصر ما بعد الإنسان). و العالم حسب هذه الرؤية يفنقر إلى المركز، فكل الأمور مادية وكل الأمور متساوية وكل الأمور نسبية. فهو عالم في حالة سيولة كاملة"².

وكما أنها فكر معاد للإنسان والتاريخ و الحضارة مصدرا التفرد الإنساني، يلغى الذات المتماسكة التي اتحد فيها التاريخ والذاتية. وهذا بالضبط علة الخوف منها، لأنها تشكل

¹ - الجابري محمد عابد: التراث والحدثات، ط1، المركز الثقافي العربي، 1991، ص213..

² - عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، مرجع سابق، ص219.

تهديدا للهوية الثقافية والخصوصية الحضارية للشعوب، الأمر الذي خلق صراعات حضارية و صدامات ثقافية بين المركز المسيطر المنظر للعولمة وأجندتها، و الهامش المستقبل و المستهدف، من تلك الصدمات:

المطلب الأول: الإسلاموفوبيا وخطاب الكراهية.

حضر الدين بقوة في الثقافات الإنسانية القديمة، وشكل أحد أهم رموز وحدة المجتمع و مؤسساته، وقد لعب دورا كبيرا في تماسكه وتنظيمه الاجتماعي، و لأنه كان على مر العصور البنية الثقافية الأكثر تجذرا والأكثر تأثيرا في الجسم الاجتماعي، اتخذته عديد من الأعمال الأدبية العربية و الأجنبية على السواء موضوعا لها، وعبرت من خلاله عن رؤية الإنسان لنفسه و للعالم من زاوية دينية، وقد اختلفت طبيعة هذا الحضور ودرجاته و توجهاته ورؤاه الأيديولوجية.

واكتشفت العولمة ضالتها في الدين، وانتبعت إلى فوائده الجمّة حين أدرجته في اللعبة السياسة، حيث أعيد العامل الديني قصدا في التفكير و السياسة، واستهدفت الدين الإسلامي خاصة، لأن الإسلام بما يمثله من نسق معياري و قيمى ذي مخزون حضاري، يمثّل تهديدا مباشرا للإجماع القيمي والسلوكي لفكرة العولمة" الشيوعية ليست خطرا على أوروبا، ولكن ثمة خطرا حضاريا يهدد وجودنا الفكري والإنساني للزوال والفناء، ذلك هو الخطر الإسلامي، فالمسلمون مستقلون عنا و يمتلكون تراثا روحيا و حضارة ذات أصالة، فهم جديرون ببناء عالم جديد دون حاجة إلى الاستغراب"¹. المشكل الحقيقي هو الإسلام" إنه يتحول إلى مصدر للقلق و الخوف عندما يكتسب قوة إستراتيجية ما... مما يجعل توتر الغرب ينبع

¹ - أنور الجندي: معالم تاريخ الإسلام المعاصر، دار الاعتصام، دط، القاهرة، مصر، 1987، ص115.

أساسا من القوى الإسلامية الآسيوية المتنامية باستمرار عسكريا و اقتصاديا (إندونيسيا و باكستان مثلا)، ومن الدول العربية النفطية المتحكمة في شريان الاقتصاد العالمي"¹.

وفي الثمانينات والتسعينات، وعلى مستوى عالمي، وعبر إقحام العامل الديني، برزت رهانات جديدة أرهقت النقاش بالنسبة للمجتمعات الغربية والعربية على السواء، وأوجدت توترات حول الهويات كونها تكتسي سياقاً دينياً، من تلك القضايا الساخنة ظاهرة الإسلاموفوبيا (L' islamophobie) أو الخوف من الإسلام، أحد إفرازات المد الثقافي العولمي، ومظهراً من مظاهر صراع الحضارات. فما المقصود بهذا المصطلح؟

الإسلاموفوبيا مصطلح متشعب المفهوم، باعتباره محورا لعدد من المناقشات التي يتداخل فيها الديني والسياسي والتاريخي و الثقافي. واستخدم هذا المصطلح في الدراسات الأكاديمية منذ عشرينات القرن الماضي، غير أن الأبعاد السياسية لهذا المفهوم، بدأت تتبلور منذ أواخر السبعينات و بداية الثمانينات من القرن الماضي، متزامنة مع ظهور الصحوة الإسلامية وصعود الإسلام السياسي في العالمين العربي والإسلامي، وبصفة خاصة بعد الثورة الإيرانية بزعامة الإمام الخميني عام 1979، وبتزايد الاهتمام الغربي بتنامي ظاهرة الصعود السياسي للتيارات الإسلامية الأصولية، و تأثيراتها على الغرب.

ومن المهم التذكير بأن العلاقة الصدامية بين الحضارة العربية الإسلامية و الحضارة الغربية المسيحية ليست جديدة، وبأن العداء الغربي للإسلام وشخصياته وتاريخه موقف يضرب بجذوره في الذهنية الغربية، ويظهر بوضوح فيما كتبه المستشرقون والفلاسفة ورجال السياسة والدين، وفي مختلف الفنون الأدبية كالثقافة و الرواية والمسرحية. فعبير مؤسسة الاستشراق رسم الغرب صورة مشوهة مختزلة للشرق، بعيدة عن الموضوعية والحقيقة.

¹ - السيد ولد أباه: عالم ما بعد 11 سبتمبر 2001، الدار العربية للعلم، ط1، بيروت، لبنان، 2005، ص148.

إن الغرب وإن حرك سابقا الدراسات الاستشراقية لمحاربة الإسلام، فإنه اليوم يستخدم آلة بديلة أكثر خطورة وفعالية من سابقتها وهي الإعلام بشتى أشكاله فبإمكان ما يبثه من أفكاره و عقائد و آراء أن يعيد بلورة و صياغة وعي الإنسان وتغيير قناعاته. كما أن الخطاب العالمي السائد سياسيا وإعلاميا، تنتجه منظومة موجهة مستعينة بآلة معلوماتية وإعلام مرئي، وأساليب خطابية ولغة تواصلية و جهاز سياسي اقتصادي و إعلامي منظم، يقدم انطباعات مؤولة للوقائع، ويقلب الحقائق والأحداث بما يخدم مصالحه وأجندته السياسية، وبما يعزز خطاب الكراهية و العنف.

مثال ذلك دراسة أصدرتها مؤسسة "راينميدراست" البريطانية غير الحكومية عام 1997، حددت فيها ماهية الإسلاموفوبيا في الرؤية الغربية، و استندت في ذلك إلى معايير ثمانية هي:

- 1- اعتبار الإسلام جسما أحاديا جامدا ينذر أن يتأثر بالتغيير.
- 2- النظر إلى الإسلام باعتباره يتسم بالتميز عن الآخر، وأنه ليس له أي قيم مشتركة مع الثقافات الأخرى، وهو لا يتأثر بها أو يؤثر فيها.
- 3- اعتبار الإسلام عنيفا وعدوانيا، ومصدر خطر، مفطورا على الإرهاب و الصدام مع الحضارات.
- 4- النظر إلى الإسلام باعتباره يحتل مرتبة دونية بالنسبة إلى الغرب، وهو ذو نزعة بربرية وغير عقلانية وبدائية.
- 5- الرفض التام لأي نقد يمكن أن يقدمه طرف إسلامي حيال الغرب.
- 6- اعتبار مشاعر العداة تجاه المسلمين أمرعادي و طبيعي.
- 7- استعمال العداة تجاه الإسلام لتبرير أي ممارسات تمييزية تجاه المسلمين وإبعادهم عن المجتمع وعزلهم أو تهمة شهم.

8- اعتبار الإسلام إيديولوجيا سياسية لتحقيق مصالح عسكرية و سياسية¹.

وقد تنامي كره الإسلام و الحقد على معتقيه، بعد أحداث 11 من سبتمبر لعام 2001، التي استهدفت البنتاغون و مركز التجارة العالمي، وأفرزت هذه الأخيرة واقعا سياسيا وثقافيا غاية في التعقيد والتوتر، وأوجدت أرضية خصبة لنمو موجات التطرف والعنف و المعارك الثقافية و الصراعات الدموية " فالألفية الثالثة تكلمنا بلغة العنف الذي يتفجر على نحو لا سابق له، عنف مادي نعيشه و نشاهده في الحروب و الانتقامات اليومية ذات الطابع العالمي، وآخر رمزي و مضاعف بواسطة العقائد و العناوين الثقافية أو رموز المعنى و منابع التأويل، هذا المشهد العالمي يجعل الكائن الإنساني في مأزق"².

لقد نظم المجتمع الغربي المعاصر حياته على "فكرة التهديد الخارجي، وهذه الفكرة يلزمها الاستعداد المتواصل، فثمة خطر قائم وتحديات لا بد من أخذها بالاعتبار، ومادام شبح التهديد حاضرا، فإن أي إنتاج لوسائل التدمير يصبح مسوغا"³. واتخذ الغرب هذا الهوس المرضي ذريعة لتحقيق أجندته الإمبريالية "التشخيص الطبي لحالة غرب النخبة المهيمنة المريض بأوهام الخوف من الآخر أو باختلال جنون العظمة أو الاضطهاد هو حيلة إلى انتحال صفات الارتياب والشك في الآخرين، وتجاهل مسؤولياته وإنكار أخطائه وسلوكياته العدوانية وإصاقها بالآخرين، وتفسير سلوكيات الغير على أنها تهديدية، فيتوهم الآخرين أعداءً، فيسارع إلى إثارة الرعب فيهم وتأجيج الصراعات لإجبارهم على التساهل

¹ - محمد أحمد النابلسي: الإسلاموفوبيا كمظهر لجنون العظمة الغربي، شبكة العلوم لنفسية العربية، العدد 38، 2015، ص 57.

² - عبد الرزاق بلعقروز: تحولات الفكر الفلسفي المعاصر، أسئلة المفهوم والمعنى والتواصل، الدار العربية للعلوم، ط1، ناشرون، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2009، ص 241.

³ - عبد الله إبراهيم: المطابقة والاختلاف، مرجع سابق، ص 346.

مع اعتدائه على ذلك العدو الوهمي بذريعة توجيه ضربة استباقية له تجنب الذات عدوانه الموهوم¹.

وبموجب ما سبق تعد، الإسلاموفوبيا تعبيراً عن موقف أيديولوجي، ونفسي من الإسلام و المسلمين، ارتقى ليكون في مستوى المرض النفسي، فالقوبيا تعني الخوف المرضي اللا شعوري والقلق العصابي أو العصاب النفسي، وهي تعني الخوف من الإسلام (التهديد الأخضر)، ذلك الخطر الذي يهدد الغرب بعد سقوط الشيوعية، والذي أصبح حالة مرضية ليس فقط في وعي النخبة و الساسة والمتقنين، بل أيضا في الوعي الغربي بقطاعاته الواسعة، حيث صار أكثر عدائية وعنفا ضد الإسلام و المسلمين، و جعل من الإسلام العدو الأول الذي لا يمكن التعايش معه أو قبوله، بل لا بد من مجابهته أو على الأقل إيقاف زحفه المتسارع، بدعوى أن المسلمين يمارسون العنف بدافع من عقيدتهم، وأنه على مر تاريخ الإسلام وجد المسلمون مشاكل في العيش مع جيرانهم.

لقد تزايدت ردود الفعل الحادة تجاه الإسلام، وبات ينظر إليه على أنه ليس دينا ولا حضارة، بل هو العرب و المهاجرون والمتشددون الأصوليون، و روح له على أنه دين الإرهاب و التعصب، أو ما بات يعرف بالفاشية الإسلامية، و يقصد بها الحركات الأصولية الإسلامية المتطرفة التي أصبحت تشكل تحديا إيديولوجيا للغرب "إن هذه الفاشية الجديدة ولدت من رحم الثقافة العربية الإسلامية وترعرعت بين أحضانها، ففي كنف هذه الثقافة حصرا، ظهرت في الأعوام الأخيرة حركات أصولية متطرفة ترفض الحداثة و مؤسساتها، كما ترفض مبادئ التسامح الديني، لذلك فإن الحرب ضدها لا يجب أن تنتهي إلا باحتلال معاقلاها و إبادةها. وفي انتظار تحقق ذلك يجب المبادرة إلى التدخل لإرغام الدول المنتمية إلى تلك الثقافة على مراجعة ثقافتها، وتخليصها من حمولة التطرف و العنف وإصلاح

¹ - محمد عبد الله الجعيدي: انتقال التكنولوجيا الحديثة بين خوفين، يقظة الآخر وسطوة القوة، ثقافة الخوف، مؤتمر فيلادلفيا الدولي الحادي عشر، جامعة فيلادلفيا الأردن، يوم: 24 - 26 أبريل 2006، ص 24.

مناهج التعليم فيها"¹. وقد تتعمد الولايات المتحدة الأمريكية عدم التفرقة بين الإسلام كدين و الإسلامية كسياسة، وتتخذ باعتبارها الموجه للسياسة العالمية والمركز المهيمن، الحرب على ما تسميه الإرهاب الإسلامي ذريعة للحصول على الشرعية الدولية للسيطرة على العالم وفرض هيمنتها.

الناس لا تفرع من الشيء في ذاته، وإنما من التصورات التي ينسجها عنه، ومن المغالطات والهويات الزائفة، ومن الخوف والجهل، فهي ما يحركهم و يوجه ردود أفعالهم وسلوكياتهم. فعقب التفجير الإرهابي لبرجي التجارة الأمريكيين، تنامت أمواج الحقد و الكراهية، وتضاعفت أعداد المظاهرات ضد العرب والمسلمين المقيمين بالتراب الأمريكي و الأوروبي، و ألصقت بهم تهمة الإرهاب، وتعالق الصيحات مطالبة بطردهم، وتم احتراق المساجد و التعدي بالضرب والشتم عليهم الاتهام طال الأطباء المهاجرين الذين سارعوا لتأدية واجبهم الإنساني بعيدا عن أي تحيزات، نيويورك مثال على ذلك، فقد تصدى فيليب غلاس من أكاديمية بروكلين للموسيقى، لجموع المتظاهرين الغاضبين الذين مستهم حالة من الهستيريا و الجنون قائلا "ما حدث كان مفاجئا و لا أحد هنا له مسؤولية في هذه الجريمة، يجب أن نتضامن جميعا ونتكاتف، لنجعل من نيويورك مدينة العدالة والحب و التعددية، لا مدينة للظلم و التعدي على حريات الغير والانعزال و الضغينة، لا تخطئوا في أعدائكم، أعدائكم و أعداؤنا ليسوا في هذا المكان"²، "يوجد أمريكيون مثلكم و مثلي، " عليكم أن تحترمهم، لأن ما قدموه في المستشفيات من مساعدات و سهر على المرضى

¹ - عبد الرزاق الدواي: في الثقافة والخطاب عن حرب الثقافات، حوار الهويات الوطنية في زمن العولمة، المركز العربية للأبحاث ودراسات السياسات، ط1، قطر، 2013، ص67.

² - واسيني الأعرج: رماد الشرق، خريف نيويورك الأخير، ج1، منشورات الجمل، بيروت، لبنان، 2013، ص40.

و الجرحى لم يقدمه الكثير منكم، عليكم في هذه الحالة أن تمرؤا على جسدي قبل الدخول إلى هذا المكان".¹.

الارتباط بين خطاب الكراهية ضد الإسلام و المسلمين و بين أعمال العنف وثيق الصلة بالسياسة والإعلام، فكلما ازدادت قوته ازداد الشعور بالحرية لدى المواطنين في ممارسة العنف ضد المسلمين. وإن الصورة المنتشرة ضد الإسلام عند الغرب تقوم على موقف دفاعي و خوف لا عقلاني، و مبالغة في تقدير خطورته" عقد الخوف الغربية لها مؤثلا في إيديولوجيا عمياء وأنانية تدفع بصاحبها استقواء واستكبارا إلى التشبث بتميز ظالم على الآخر واستغلاله وإبادته، وحقده لا يرى أحقية الغير في العيش والأمن والتنافس الشريف، وتحایل قُصرت مدارك أصحابه عن استيعاب ناموس المساواة بين البشر"².

وقد شهد النصف الثاني من القرن العشرين صعود الأقليات اللغوية والعرقية و الثقافية، و هي فئات ذات خصائص مميزة يقل عددها مقارنة بالمجموع العام للسكان، و عادة ما يضاف لها مصطلح الأثنية للدلالة على سماتها الثقافية المميزة لها. تحمل التسمية معنى الخضوع لفئة أعلى منها في سلم التراتب الاجتماعي، وتعيش أوضاعا خاصة في المجتمعات الغربية، حيث تقيم في أحياء خاصة بعيدة عن مساكن العامة، و يحافظ أفرادها على هويتهم الثقافية التي تتعكس في سلوكهم و قيمهم و معتقداتهم، ويربطهم قدر كبير من التضامن والتكافؤ، وقد ينجح البعض منهم في الاندماج في المجتمع، بينما يفشل البعض الآخر.

وسعت هذه الأقليات الهامشية إلى إسماع صوتها سياسيا و ثقافيا، بدفاعها عن قضايا ذات طابع رمزي تاريخي و ثقافي، سواء تلك المنبثقة عن موجات الهجرة القديمة،

¹ - المصدر السابق ، ص40.

² - محمد عبد الله الجعدي: انتقال التكنولوجيا الحديثة بين خوفين، يقظة الآخر وسطوة القوة، المرجع السابق، ص11.

والتي تنتظر بشكل خاص الاعتراف بإسهامها التاريخي في بناء البلدان المستقبلية لها، أو القادمون الجدد الذين يرغبون في الحصول على الاعتراف بخصوصياته الهوياتية الثقافية، و الحصول على مطالب ومعونات اجتماعية، تتعلق بالوظيفة والعمل والسكن والصحة والتعليم و التمثيل الانتخابي، في ظل عدم الاعتراف سياسيا بحقوقها المدنية وحقها في الاختلاف.

وأندر الوضع بنشوب حروب الهويات، فعلى مر التاريخ كانت الهوية هي الدافع وراء نشوب الحروب الأهلية و الإقليمية. فالهجرة و المنفى و الهامش و الشتات، تمثل تجارب فاعلة ومنتجة لمنظورات مختلفة للخطاب والفكر و النقد، منها خطاب العنصرية والحق وكراهية الأجنبي الغريب، الذي أثمر نتائج سلبية لامست تداعياتها الخطيرة كافة الشرائح المكونة للمجتمعات الهجينة، من صورها ظاهرة الكذب و الافتراء على كل من هو مهاجر أجنبي، وهو مشهد يتكرر في فرنسا، جسده حادثة الاعتداء التي أثارت ضجة كبيرة لمدة ثلاثة أسابيع و أحييت موجات العنصرية و الأحقاد العرقية، تكلمت عنها الصحافة و الرئيس الفرنسي جاك شيراك الذي عبر عن غضبه من الواقعة، و نشرت مجلة لوموند الفرنسية خبر الاعتداء بالضرب و التعنيف على سيدة يهودية و ابنها الرضيع في قطار الضواحي الرابط لباريس بقال دواز، من قبل ست شباب ذي ملامحهم إفريقية و مغربية يحملون السلاح الأبيض، وسرعان ما تحول الاعتداء إلى عدوان ضد السامية، في حين اعترفت السيدة بعدها أن المعتدي عليها هو صديقها و جماعته. وقد حركت هذه التهمة الخطيرة: "فرنسا بكاملها و الجمعيات المضادة للعنصرية و معاداة السامية، وأثارت هذه الحادثة موجة عداة كبيرة ضد كل ما هو عربي أو مسلم، لكن ما الدافع لكل هذا ؟ قبل سنوات قليلة كان حدوث ذلك نادرا، بدأت الحالة تستشري بقوة و تتسع أكثر فأكثر: نبش المقابر الحركات النازية الجديدة، العنصرية معاداة السامية، يوميا الكثير من المزالق الخطيرة التي يمر بعضها عاديا ولو ناقض ذلك قوانين البلاد، والبعض الآخر يضخم

بقوة¹. فالعنف يتغذى على التعصب بكل مرجعياته القومية و الثقافية و الدينية والإثنية، وانفجاره " بحد ذاته عملية تحتاج إلى آليات مضافة وعناصر مولدة للنزاع و الصراع، تتخذ من السياقات الاجتماعية و الاقتصادية والسياسية كثيرا من المبررات المحفزة لانفجاره"². والتفجيرات الانتحارية هي نوع من التعبير عن الرفض والتأثر للأقليات الاجتماعية المهمشة وأبنيتها ومؤسساتها و عقائدها وعاداتها وشعائرها الخاصة، حيث تكتنز الجماعات المذهبية و الطائفية شحنة هائلة من العنف المدمر للذود عن تصورات و معتقدات تراها حقا قاطعا، فمن "المعلوم أن الأمم و القوميات و الأعراق، إنما هي جماعات متخيلة تنتظم في أيديولوجيات ومرويات كبرى، وهي تتشبع بالأفكار السائدة، وتعددها من مكونات هويتها العرقية أو الدينية، وكل مساس بهذه الهوية المتخيلة سيؤدي إلى تغذية الجماعات بالعنف المتطرف، وهو عنف يتفجر عند أول اختبار أو مواجهة، يضاف إلى التفسيرات الضيقة للذين يؤمنون بفكرة رفض الآخر المختلف عقائديا، ولا ننسى النزعات التربوية الضيقة القومية أو المذهبية التي توهم أتباعها بالتفوق وتصف الآخرين بالدونية"³.

ومن أعمال العنف نذكر جريمة تفجير قطار ضواحي باريس خط "ب" في سان ميشال مساء 25 جويلية 1995" كانت الساعة تشير إلى حدود الخامسة والنصف مساء، ثماني ضحايا على عمق عشرين مترا تحت سطح الأرض، لن يكتب لهم الركوب مرة أخرى في قطارات الضواحي، و177 جريحا، كانت القنبلة عبارة عن قنينة غاز مليئة بالمساميرو المواد المعدنية القاتلة والبارود و الكبريت الحارق، وضعت تحت أحد الكراسي، وأصبحت الصدفة هي سيدة الجريمة، عرف شخصان من واضعي القنبلة هما خالد قلفال

¹ - واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، دار الآداب للنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 2012، ص208.

² - عبد الغني عماد: سوسيولوجيا الهوية، جدليات الوعي والتفكك وإعادة البناء، مركز دراسات الوحدة العربية، الحمراء، ط1، بيروت، لبنان، 2017، ص97.

³ - عبد الله ابراهيم: السرديات الكبرى، مكتبة الفكر الجديد، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2012،

و بوعلام بن سعيد¹، يقف وراءهما بعض من المقيمين إقامة غير قانونية، ممن لا يحضون بحقوقهم المدنية، ولا يحق لهم المطالبة بالضمان الاجتماعي، وهم غير مطلوبين على مستوى سوق العمل القانوني، كما يتم التعامل معهم في العادة بعنصرية شوفينية، وبأنهم عرق غير مرغوب فيه، فمشكلتهم لها ارتباطات سياسية واقتصادية وديمغرافية ونفسية ودينية أيضا.

و ربما يكون السبب في معاداة الإسلام وعدم فهمه، إلى الخلط بين الإسلام بوصفه دينا و نظرية وتصورا للحياة، وبين الممارسات التاريخية غير المنضبطة لقسم من أتباعه. فهناك خلط بين الدين و التدين "الدين ذو أصل واحد هو الأصل الإلهي حسب الديانات السماوية الثلاث، وله بالتالي الأسس التي ينبنى عليها والمقومات التي ينهض بها، والتي تتحدد بمنظومة من الاعتقادات والممارسات تفسر علاقة البشر بالكون وأسراره، أما التدين فهو نهج و أسلوب بشري، إنه رؤية الناس و ممارساتهم هذا الدين، الدين هو الأصل الأساس و التدين هو بناء عليه، و البناء حسب ذوق صاحب البناء و رؤاه وفلسفته"²، فضلاً عن قصور الإطلاع، والاكتفاء بمعرفته من خلال الصور السائدة عنه في الغرب.

وإن استفحال العنصرية ضد المسلمين و الأجانب في فرنسا، يعزى إلى التحولات السياسية والاجتماعية و الثقافية و الأمنية التي عرفتها الدول الأوروبية، ناهيك عن نجاح اليمين المتطرف في التكيف مع تداعيات العولمة التي أدت إلى انكفاء الهويات القومية والحد من الخصوصية الثقافية. لقد تبنى هذا التيار السياسي المتطرف "خطابا جديدا يقوم على الوحدة الثقافية و التقاليد الوطنية، ونصب نفسه مدافعا عن التميز الثقافي والإثني والديني، من خلال نظرتة للمجتمع من منظور ثنائية نحن و هم، حيث صور المهاجرين

¹ - واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، دار الآداب لنشر و التوزيع، ط1، بيروت، 2012، ص392،

² - عبد الغني عماد: سوسيولوجيا الهوية، جدليات الوعي والتفكك وإعادة البناء، مرجع سابق، ص95.

كتهديد للوحدة القومية والوطنية، وكتحريف للحياة المحلية"¹. فالنزعة اليمينية المتطرفة تقدم نفسها على أنها "التخوف الوطني المستند على أسس أثنية، ويعتمد على أسس بيولوجية عرقية أو تاريخية ثقافية، وبالتالي فالترجمة السياسية له هي الخوف من المهاجرين معبرا عنها بانتقاد السلطة و نظرية المؤامرة"².

وعليه يتم وسم المسلم والأجنبي بالإرهاب، ويصر الإعلام على ربطه بالإسلام خاصة، الإسلام كما يراه المهتمون بالسياسة في أوروبا و أمريكا، أين تعيد وسائل الإعلام إنتاج نفس الخطاب، خطاب الخوف من الإسلام، فضلا عن خطاب التعصب و العنصرية خاصة في الأوساط اليمينية المتطرفة "حالة من الجنون الأعمى، كلما تأزمت الأوضاع فرضت العنصرية نفسها كحل لكل المشكلات، أوروبا كلها كل صباح تستيقظ على رئيس حكومة أو وزير يرفع عاليا كذبة الأجنبي."³ على شاكلة تصريحات وزير الداخلية الفرنسي في راديو أوروبا حين قال: "إن الفرنسيين يشعرون أن ما يفرض عليهم من مظاهر لا يتجاوب مع قواعد حياتهم الاجتماعية، أصبح لديهم الإحساس أيضا أنهم ليسوا في بلادهم، مواطنونا يريدون أن يختاروا نمط حياتهم، لا يريدون أن يفرض عليهم أي نمط"⁴، لكن من هم الفرنسيون المقصودون في خطابه؟ "هل غاب عن ذهن الوزير أن تشكيلة فرنسا هي مزيج من الأقليات الأثنية و العرقية و الدينية متعددة الثقافات؟ من هم؟" المسيحيون؟ اليهود؟ المسلمون؟ البوذيون؟ الأوربيون؟ الساميون؟ الهنود؟ الآسيويون؟ الأفارقة؟ العرب؟

¹ - ينظر: رابح زغوني: صعود اليمين المتطرف في أوروبا، تعبير عن عداء سياسي أم مجتمعي للإسلام، مؤلف جماعي ضمن كتاب الإسلاموفوبيا في أوروبا الخطاب والممارسة، المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية و الاقتصادية، ط1، برلين، ألمانيا، 2019، ص144.

² - خيرة لكمين، ظاهرة اللجوء في أوروبا، ثنائية التهديد والأمن، دراسة في تنامي الإسلاموفوبيا، ضمن كتاب الإسلاموفوبيا في أوروبا الخطاب والممارسة، المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية و الاقتصادية، ط1، برلين، ألمانيا، 2019، ص70.

³ - واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص111.

⁴ - المصدر نفسه، ص112

القادمون من ثقافات أخرى و يمارسون شعائرهم، من هم الفرنسيون؟ فرنسيون من درجة ثانية، وثالثة و عاشرة؟"¹.

إذن المسألة بيد السياسة والعسكريين يشعلونها و يطفئونها متى ما شاءوا و بحسب المصالح و الأهداف "إن وجود ارتفاع خطير في الحوادث التي تجري في سياق رهاب الإسلام، والطابع الأساسي لتلك الممارسات، هو تأصيل معاداة الإسلام والحساسية المفرطة تجاه معتنقيه، بالإضافة إلى الشرعنة العلنية لرهاب الإسلام في النقاش الفكري والأكاديمي والإعلامي، والتضييق على الدعوة للإسلام تحت مبررات الضرورات الأمنية، والربط التعسفي بين الإرهاب كمنشأ إجرائي، و بين الإسلام كمعرض عقائدي عليه"²، هي مزالق لغوية خطيرة تعصف بمفهوم التعددية الثقافية التي تطبع المجتمع الفرنسي، فلا شك في أنه توجد في غالبية المجتمعات "فروق ثقافية، ترى أن الاعتراف بتلك الفروق أمر صائب أو على الأقل جميل وفي أدنى الحالات مستحب، وفي الحالة القصوى تعتمد التعددية الثقافية على صورة المجتمع، هي صورة عدد من الفئات الثقافية المتميزة التي يفترض أنها تقبل بالعيش معا ديمقراطيا من خلال الربط بين تأكيد خصوصيتها واحترام القيم العالمية"³. ذلك أن تطبيق التعددية الثقافية يستدعي التفكير بصورة عالمية، و بوضع قوانين ومعايير و سياسات على مستويات محلية وعالمية قومية و إقليمية، بما يضمن دمج الأقليات و تنظيمها والتوفيق بين الخاص والعالمي، لذلك ينبغي التشديد على قبول الآخر المختلف واحترامه، والإحساس بالمسؤولية الأخلاقية والاجتماعية

¹ - المصدر السابق، الصفحة نفسها.

² - حميدان سليم، بن سعدون اليامين: بناء الخريطة الإدراكية للإسلام والمسلمين في الغرب، الإسلاموفوبيا واقعا، ضمن كتاب الإسلاموفوبيا في أوروبا الخطاب والممارسة، المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية، ط1، برلين، ألمانيا، 2019، ص96.

³ - مجموعة من المؤلفين الاستغراب: الذاتية الغريبة-إشكال الإنسان على الإنسان، دورية فكرية، العدد 10، السنة4، المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت، 2018، ص102.

نحوه، إن "التعدد الثقافي يعد محاولة لتعميق قيمتي الحرية و المساواة على مستوى الثقافة، وأن هذه العملية تتدرج في سياق فهم جديد وواسع للتسامح والعدل، ولقيمة المساواة بخاصة".¹، فهل بإمكاننا العيش...مختلفون لكن متساوون؟.

الأكيد أن "الأحزاب اليمينية المتطرفة هي نسق فكري إقصائي متطرف، معادي للمهاجرين و الأقليات والتعددية الثقافية، وأنه لاقى نجاحا انتخابيا بسبب نظرتة العنصرية للأجانب، إذ تنظر إليهم كتهديد للهوية الأثنووطنية، وكسبب للبطالة والجريمة والأمن الاجتماعي، وكمستغلين للرفاه الذي توفره الدولة"². وأشد ما يقلقها هو نمو عدد الجاليات الأجنبية المهاجرة، بفعل تصاعد معدلات الولادة و الهجرة السرية، خاصة الإسلامية منها، التي باتت تشكل تهديدا بالنسبة للدول المستقبلية، بحكم الإرث الاستعماري أولا، وبحكم مطالبتهم بحقوق المواطنة الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية ثانيا باعتبارهم مواطنين فرنسيين " ستة ملايين مسلم كثير يا حبيبي؟ جيش سري سيطالب يوما بحقه، ليس فقط في القوانين، ولكن في الأرض أيضا"³. هو رأي ماري الفرنسية المتعصبة من قسم مكافحة الشبكات الإرهابية، فعنصريتها ضد الأقليات المهاجرة من العرب و المسلمين و السود صادرة عن رؤية نمطية ضيقة، وعن الأحكام الجاهزة التي ترسخت في المخيال الغربي عن الغربية، لقد حملتهم مسؤولية انتشار الإرهاب في فرنسا، طالبت بتطبيق قوانين صارمة ضدهم وبتسليط أشد العقوبات عليهم أنا لا أفهم لماذا كل الأقليات مرتاحة، وقبلت أن تتجاوب مع ثقافتنا و تعيش بسلام إلا هم، لماذا المصائب الكبرى لا تأت إلا

¹ - وليد حمارنة: الترجمة وإشكالات المثاقفة، ط1، منتدى العلاقات العربية والدولية، 2016، ص518.

² - ينظر: رابح زغوني، صعود اليمين المتطرف، تعبير عن عداء سياسي أم مجتمعي للاسلام، ط1، ضمن كتاب الإسلاموفوبيا في أوروبا الخطاب والممارسة، المركز الديمقراطي العربي، مؤلف جماعي، 2019، ص139.

³ - واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص377

من السود أو العرب أو من المسلمين ؟ أقول أحيانا يجب أن يكون القانون أكثر صرامة مما هو عليه.¹

لكن دافيد إيتيان زميلها في القسم ذاته يخالفها الرأي، وينظر إلى الموضوع بعين العاقل الواعي المنفتح على الآخر، والمتحرر من النظرة الدونية الإقصائية للمختلف، فخطابه ينم عن نظرة معتدلة متوازنة " أخرجي من الثنائية القلقة و الدائرة ضيقة التفكير، التي تفترض الخيرين من جهة و الأشرار من جهة ثانية، و سترين بشكل أوضح أن الأشرار و الطيبين هنا و هناك"². و أضاف " في الظاهر نعم، لكنهم ليسوا هم من أتى بالنازية، وليسوا هم من صنع الغيستابو، والفرق الحمراء، وبندرهوف،... والقائمة طويلة. للآخرين مسؤولية ما حتما، لكننا نعيد إنتاج مأسينا يا ماري كلما اشتدت الأزمات و غابت الحلول لمشاكلنا"³، " أنظري من حولك، حتى في أكثر البلدان تقدما و تحضرا، السويد، سويسرا، هولندا، الدانمارك، كل جهة تصنع تطرفها وعنصريتها، الذين يلصقون كل شيء بالغريب أو الأجنبي."⁴. وأكد لها أن الإرهاب غير لصيق بشعوب دون سواها " لا أعتقد يا ماري أن الآسيويين ملائكة كلهم، هل تعرفين أن أكبر سوق للماركات المقلدة والمخدرات وراءها الجماعات الآسيوية و الصينية تحديدا، التي تتظرن لها بمثابة ؟ تجولي قليلا في ساحة إيطاليا و طوليبياك و سترين تبييضا علنيا لأموال المخدرات "⁵، فلماذا يتستر على هؤلاء دون العرب و المسلمين؟.

ريبكا من قسم الشرطة العلمية من رأي دافيد أيضا " رأيك قاس يا ماري، عدي كم يهوديا، كم بوذيا، كم مسلما، كم بلا دين، كم هنديا، كم آسيويا، كم صينيا، كم إيطاليا،

¹ -وإسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص108.

² -المصدر نفسه، ص110.

³ -المصدر نفسه، ص109

⁴ - المصدر نفسه، ص109.

⁵ - المصدر نفسه، ص ص108-109.

كم برتغاليا، كم إسبانيا في فرنسا، كم أرمينيا، كم كرديا، كم قبائليا، واسحبهم من العدد لأنهم ليسوا فرنسيين أصليين بمقاساتك، وستفرغين فرنسا من جوهرها، الغريب هو أن العنصرية متشابهة في كل مكان، متشابهة في كل الثقافات.¹ ففي كل مرة هناك حاجة إلى شماعة نعلق عليها أخطائنا. ليس المطلوب من الأقليات أن تتخلى عن تقاليدنا و نمط حياتنا ووجودها، إنما لا بد أن يتم النظر إلى ثقافة الأقليات بمنظار المساواة، فلا وجود لثقافة وطنية متفوقة على حساب ثقافة الأقليات، وعلى الدول المتعددة الثقافات رفض فكرة إقصاء الأقليات وإبعادهم، والأجدر إشراكهم في الفعل السياسي دون تخليهم عن خصوصيتهم الثقافية، لأن " الانتماءات الاجتماعية والدينية والثقافية و اللغوية هي المحدد لهوية الفرد، وهي تتصادم مع قيم المواطنة و المجتمع الوطني القائمة على الحيادية والبراغماتية، فالفرد لا يكتمل إلا داخل مثل الوحدة الاجتماعي ومفهوم الخير المشترك، والمقصود بالمشترك، هو ليس فقط المعايير و الممارسات، بل أيضا الروابط السيكولوجية العميقة ومختلف صيرورات النمو التي بواسطتها ينغرس الأفراد في السياق الاجتماعي ويندمجون محققين اجتماعيتهم."² وهذا التصور لا يقف فقط على " مجرد الوفاق الدستوري والاتفاق الصوري، أوعلى مجرد التعاقد، بل يتعدى ذلك ليلامس الونام الروحي والنفسي و التاريخي الأكثر عمقا و تجذرا في المخيال و الذاكرة "³.

إن الإقرار بحق الجماعات الأثنية والثقافية في الوجود والتعبير غير كاف مالم تتم حمايته وإغناؤه" فالفرد بقدر ما هو كائن ذاتي يتمتع بقدرات شخصية، فإنه في الوقت نفسه كائن موضوعي، لأنه عضو وعنصر في جماعة معينة تساعده على تشكيل هويته."⁴

¹-المصدر السابق ، ص ص108-109

²- جلييلة المليلح الواكدي: مفهوم الهوية، مساراته النظرية والتاريخية في الفلسفة، في الأنثروبولوجيا، وفي علم الاجتماع، مركز النشر الجامعي، منوبة، تونس، 2010، ص113.

³- المرجع نفسه، ص133.

⁴- وليد حمارنة: الترجمة وإشكالات المثاقفة، مرجع سابق، ص519.

كما أن سياسة المساواة بين أفراد المجتمع الواحد، و الاعتراف باختلافهم وتمايزهم، تسمح بتشكيل هوية مفتوحة قادرة على الخروج من الفضاء الخاص و الاندماج والامتزاج في الهويات الأخرى.

وراء هذا العداء والكره للأجنبي أسباب و دوافع، فقد قضت ماري خمس سنوات في وجه الحركات الاحتجاجية والحريق و الرصاص والعنف في ضواحي باريس تحديدا في كليشي سوبرا" بقيت في رأسها صور عنف سكان الأحياء المهمشة، ونسيت السبب الأصلي، وتمزق النسيج الاجتماعي و الثقافي لفرنسا، جرحت في الأحداث في ذراعها برصاصة طائشة، الأمر الذي عمق لديها حسا عدائيا تجاه الغريب، بما في ذلك الفرنسي ذي الأصول الأجنبية"¹.

ولتلك الاحتجاجات والصدمات مع سكان الضواحي مبرراتها، فهي نوع من التعبير عن الرفض والثأر للطائفة الاجتماعية وأبنيتها و مؤسساتها و عقائدها وعاداتها وشعائرها الخاصة، حيث تملك هذه الأخيرة شحنة هائلة من العنف المدمر للذود عن تصورات و معتقدات تراها حقا قاطعا، فمن "المعلوم أن الأمم والقوميات والأعراق، إنما هي جماعات متخيلة تنتظم في أيديولوجيات و مرويات كبرى، وهي تنتشع بالأفكار السائدة، وتعددها من مكونات هويتها العرقية أو الدينية، وكل مساس بهذه الهوية المتخيلة سيؤدي إلى تغذية الجماعات بالعنف المتطرف، وهو عنف يتفجر عند أول اختبار أو مواجهة، يضاف إلى التفسيرات الضيقة، للذين يؤمنون بفكرة رفض الآخر المختلف عقائديا ، ولا ننسى النزعات التربوية الضيقة القومية أو المذهبية، التي توهم أتباعها بالتفوق وتصف الآخرين بالدونية"².

¹- واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص114

²- عبد الله إبراهيم: السرديات الكبرى، مرجع سابق، ص181

لذلك يأخذ النقاش طابع الحدة كلما تعلق الأمر بالهوية، فالمجتمعات المستقبلية للمهاجرين تشهد توترات داخلية وتحيزات استعلائية، بسبب التغيير الحاصل في بنيتها الديمغرافية والثقافية، الأمر الذي دفع المجموعات الهامشية و الأقليات المهاجرة إلى تفجير أزمات هوياتية باسم الدين أو العرق أو اللغة لمعاناتها من القهر والاستعلاء والعنصرية، و شعورها بالخطر الذي يداهمها، على شاكلة الهوية الوطنية في فرنسا، فهي لا تقوم على فكرة الاستيعاب، بل تقوم على التجانس والتميط، أين تتوحد الأمة في كيان واحد ملغية حق الأقليات في الاحتفاظ بهويتها الخاصة. لأن النموذج الجمهوري الفرنسي الناتج عن الثورة الفرنسية يدعو إلى توحيد الهويات المختلفة في هوية وطنية موحدة، و يعمل "على دمج مواطنين مجردين من هويتهم في دولة أحادية، بحيث تشكل مسألة الهوية مسألة ثانوية وعرضية، مقارنة بالإنسان الكوني /العالمي الكلي"¹. وتاريخ هذا النموذج، يؤكد هيمنته و سحقه للأقليات، التي مازال ينظر إليها على أنها تشكل عائقا أمام الوحدة والمواطنة، وأنها السبب في عدم قيام المجتمع الديمقراطي المدني من منظور معولم. وفي المقابل، ومن خلاله نصبت أوروبا ثم أمريكا نفسيهما كمركز لبلورة قيم عالمية، وفرض فكرة المركزية الثقافية. وتغافلنا عن حقيقة أن " الهوية سواء كانت فردية أو جماعية، إنما تدرك في إطار ما هو متماثل ومختلف في نفس الوقت، متميز ومتشابه، في إطار هذه الثنائية تتأسس الهوية، ومن الضروري أن تبقى المفارقة قائمة، وألا يقع السعي إلى تجاوزها لفائدة أحد طرفي الثنائية."².

لا شك في أن لكل شخص الحق في حرية الدين والوجدان و الفكر والتعبير، وهي حقوق مكفولة دينيا وقانونيا، لكن يجب إدراك أن حرية التعبير تنتهي حدودها حيثما يتم

¹-وليد حمارنة: الترجمة وإشكالات المثاقفة، مرجع لسابق، ص531.

²-جليلة المليح الواكدي: مفهوم الهوية: مساراته النظرية والتاريخية في الفلسفة، في الأنثروبولوجيا، المرجع السابق، ص165.

التحريض ونشر الكراهية و المساس بكرامة الغير،فتقدير نتائج الخطاب وتداعياته وخطورة فحواه أمر في غاية الأهمية.

لقد أفضت أغنية ساخرة عن النقاب في فرنسا لـ "سعد هارون" إلى أحداث دموية طاحنة،وحكم عليه بالموت بسبب محتواها الذي يتضمن تشبيها بالمنقبة،ووصفا حسيا لمفاتها.اعتبرها المسلمون تعديا على مقدساتهم الدينية ومساسا برمزياتها،بينما أدرجها الطرف الثاني ضمن حرية التعبير" من حق أي إنسان أن يقول ما يريد،ولكن في لحظات الأزمات، العلاقات مع الآخر تتغير بقوة، لم يكن من الضروري السخرية من الناس على أساس خيارات دينية، التطرفات كلها تتساوى و تتقاطع في النقاط نفسها، وتعمق الأحقاد في مجتمعات هشة أصبحت فيها العنصرية و معاداة الآخر من علامات العصر المخيفة، ما كان يعاقب عليه القانون أصبح مباحا بشكل متواطئ، نحن في عمق أزمة خطيرة، ولا أحد يتنبأ بما ينتظرنا"¹.

وعليه تقتضي الحكمة أن يتم" التعامل مع الإسلام في أوروبا على أنه في طريقه إلى التحول من إسلام عابر أو ضيف على القارة الأوروبية إلى إسلام شبه أصيل،بدأ فيه المسلمون في التحول من مهاجرين إلى مواطنين، وأن قدرته على التأثير ستحتاج أولا إلى فهم هذا الواقع، ثم بناء مشروعه الخاص القائم على ضرورة الاندماج وحق الاختلاف."².

نصل إلى:

- الصراع بين الحضارات قائم، وهو يتناول القيم والتصورات و المفاهيم و المبادئ و العقائد وكل ما يحدد معالم الهوية للحضارات. وهو امتداد لصراعات قديمة بدأت مذ

¹ - واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص ص381-382.

² -بومدين طاشمه: ظاهرة الإسلامو فوبيا في أوروبا، دراسة لخصوصية المسلمين في فرنسا، مؤلف جماعي ضمن كتابا لإسلاموفوبيا في أوروبا الخطاب والممارسة، ط1، المركز الديمقراطي العربي، 2019، ص165.

تكونت المجتمعات الإنسانية، ونذكر بالأخص الصراع بين الحضارتين الإسلامية ونظيرتها الغربية.

- أحداث 11 سبتمبر لم تكن سوى مشروعا سياسيا محضا لتحقيق المصالح الأمريكية السياسية والاقتصادية و الثقافية وحتى الدينية،احتلت فيها الأصولية القسم الأكبر،حيث استطاعت أمريكا بإعلامها التضليلي و الحربي أن تلتصق أصوليتها الغربية بما تحمل من سمات الجمودية و الماضوية و التعسفية ورفض الآخرعلى الإسلام، وتوسمه بمصطلحات على غير حقيقته،كمقابلة الجهاد بالإرهاب و التطرف و العنف، فصبح ما إن تذكر كلمة الأصولية إلا و يكون الإرهاب لها رديفا. ¹.

- لاشك في أن الإسلاموفوبيا صناعة وإنتاج من طرف النخبة المسيطرة على الإعلام و مراكز صنع القرار في دهاليز السياسة و مراكز الدراسات الأكاديمية وعالم الأديان.كما أن إنتاجها مرتبط بأجندة مشاريع الأحزاب السياسية في الغرب، فالحديث عن وقف زحف الإسلام وهجرات المسلمين يتصدر برامج الأحزاب السياسية اليمينية المتطرفة، بحجة أن الإسلام يشكل خطرا حقيقيا على نظام حياتهم و نمط عيشهم وأسلوب تفكيرهم، وهو يتعارض جذريا مع ثقافتهم و منظومتهم القيمية.

- العداة ضد الإسلام نابع من مسلمات مزعومة تم تأصيلها في الثقافة الغربية، أولها صلته بالعنف، وثانيها عداؤه للعلمانية، وآخرها تعارضه مع الديمقراطية، ضف إليه الضعف الكبير و الغياب شبه التام للإعلام العربي، والصناعات الثقافية التي تقدم الإسلام للآخر و تعرف به، و تسوق صورته الحقيقية ومعتنقيه. فهناك أطراف سياسية إسلامية تسعى إلى شيطنة الآخر، وتسيء للوجود الإسلامي في الغرب، ما جعل غالبية الجماهير الغربية و الساسة ووسائل الإعلام غير قادرة على تقبل المسلمين وثقافتهم المختلفة.

¹- محمود اسماعيل: الخطاب الأصولي المعاصر، رؤية، ط1، القاهرة، 2015، ص33.

-خطاب الكراهية المبني على أساس التحريض والتمييز، بسبب الجنس أو العرق أو الدين أو اللون أو الانتماء السياسي والفكري، وسواء كان خطابا مبطنا أو صريحا، ينتهك حقوق الآخرين و يمس بكرامتهم، بما يشتمل عليه من تعابير و أفعال تبرر العنف و العنصرية. وعليه وجب الاعتدال فيه و طرح الازدواجية في القرارات، ففي الوقت الذي تدعو فيه الدول الغربية إلى ممارسة حرية الشعائر الدينية، نبذ التمييز العرقي والديني، فإنها تستبعد العقيدة الإسلامية و رموزها، وتسمح بممارسات عدائية في حقها.

-لابد من إيجاد توليفة قادرة على استيعاب الأقليات، والاعتراف بحقها في الحفاظ على هويتها و تميزها الحضاري ومساعدتها على الاندماج، ما يعني منحها فرصا في السلم الاجتماعي.

المطلب الثاني: التطرف الفكري و الديني:

لا يقتصر البناء الهيكلية للحضارة على الجانب المادي فقط، إنما يمتد ليشمل الجانب الروحي الأخلاقي والعقدي، ولعل الدين أحد أهم عناصره، فهو ظاهرة اجتماعية قديمة متأصلة في كل المجتمعات البدائية والمتقدمة، وتكمن أهميته في أنه يشرع لعبادات ومعتقدات و قيم يتبناها الإنسان و يمارسها و يدافع عنها، فتشكل حلقة وصل بينه وبين خالقه، وتكون نصوصها جزء من تكوينه الفكري و الروحي، توجه مساراته واختياراته وتمكنه من الصمود أمام حركات التغيير.

وقد اتخذ الدين صورا و أشكالاً عديدة، وعاد إلى الواجهة في وقتنا الحالي بشكل جديد، وأدخل عليه العنصر التنظيمي و المؤسساتي، وتطور من جماعات إلى حركات و بعدها إلى تيارات حتى انتهى إلى تشكيل منظمات ذات هيكل تنظيمي محكم و موارد هامة و إمكانيات لا يستهان بها.

وقد شكل الإسلام في صدره طاقة روحية ثورية غيرت التاريخ الإسلامي، لكنه تحول في مرحلة التالية إلى قوة مسيحة بيد الأنظمة السائدة و الحركات المتشددة التي ترفض الإصلاح و تقاوم التغيير، وفقد بعض معتقيه القدرة على التمييز بين الجوهر و القشور، و بين الحق و الباطل. فظهر التطرف الفكري و الديني والتعصب للرأي ورفض الآراء المخالفة، وعكف المتطرفون على تعظيم الأفكار وتزييفها ومحاربة الأفكار التي لا تخدم مصالحهم، واستعملوا القوة و العنف لإحكام السيطرة وللبقاء في الواجهة تعبيرا منهم عن رفضهم القاطع للأنظمة القائمة و محاولة الإطاحة بها.

وتقف وراء ظهور واستفحال هذه الظاهرة المعقدة و المركبة في طبيعتها عوامل و دوافع متعددة ومتباينة، بعضها عقدية دينية خاصة بسبب نتاج المد العولمي و ثقافة الانفتاح على الآخر، ففي حالة الاضطهاد والتهديد الثقافي تلتف الجماعة حول الاختلاف الذي هو نتيجة للممارسات الثقافية المتباينة، والتي تعد مصدرا هاما لبناء المعنى الجماعي ضمن ثنائية "نحن وهم"، لمقاومة الإمبريالية الثقافية وعمليات التغريب القسرية و المجانسة الثقافية. وبعضها الآخر يعزى إلى التأثيرات الاقتصادية و الاجتماعية والسياسية.

والمجتمعات العربية عامة والمجتمع الجزائري خاصة أحد ضحاياها، حيث تعيش انحطاطا وفسادا في النظم السياسية وضعفا في البنيات الاقتصادية والاجتماعية، وتعتمد سواء كانت جمهورية أم ملكية في استقرار نظامها المتسلط على أجهزة أمنية مختلفة تمنحها حرية أوسع في استخدام للقانون، وعلى إيجاد استثناءات ، تجعل الرئيس أو الحاكم وصيا على أجهزة الدولة، وتحررها من المساءلة الشعبية و الانتقادات ، وقد عجلت هذه الأوضاع باشتعال حركات الاحتجاج الشعبية، و تفجر الصراعات الداخلية وتأجيج الحروب الأهلية، التي ارتبطت بمطالب اجتماعية وسياسية كالحرية و العدالة والديمقراطية ومكافحة

الفساد. وفي ظل تسلط الدولة و تملصها من الرقابة و التدويل ، حل العنف بديلا عن المشاركة السياسية في إيجاد حلول للأزمات¹.

إذ لا يمكن إنكار "وجود هرمية قمعية في تنظيمها و قيمها في مختلف المؤسسات، التي فرضت على الشعب تفسيرات و معتقدات تخدم مصالحها في الدرجة الأولى، بحيث إنه بقدرما يضع فيها من نفسه تصبح قوية و غنية على حسابه، فيعاني العجز في لب وجوده المعنوي وحتى في نظرتة إلى الحياة و دوره في صنع تاريخه، إن الشعب يعيش بلا تاريخ كي يكون للسلطات المتحكمة تاريخ حافل، وقد أصبح واضحا أن مؤسسات الدولة أصبحت تتصرف و كأن الشعب خلق لخدمتها و الامتثال الطوعي أو القسري لإرادتها، التي هي فوق كل إرادة"².

وعليه لم تعد الدولة أداة لتجسيد الإرادة العامة، بحكم غياب المجتمع التعددي الديمقراطي الذي يحترم ثقافة الاختلاف و المشاركة و يحفظ هوية المواطن و إنسانيته، فضلا عن كونها خاضعة إلى الإرادة السياسية الخارجية و القوى الغربية، بل على العكس صارت أداة هيمنة و تعطيل للمجتمع، تحرم المواطن من حقوقه و من تحسين واقعه، وتفقد القدرة على تقرير مصيره، فبات عاجزا في علاقاته بنفسه و بالمجتمع، واستحال انتمؤه إلى نوع من الهامشية، في ظل مجتمع عاجز عن إدارة وظائفه الحيوية، والتحكم بموارده المادية والروحية. ففي غالبية البلدان العربية هاجمت الأنظمة التسلطية المجتمع المدني و حرمته من التنظيم الذاتي لتمكن من إخضاعه و تسييره "ومما لا شك فيه هو أن ما آلت إليه هذه النظم التسلطية الجديدة من كبت الحريات العامة و الضبط الدقيق لنشاطات المجتمع وإلغاء وظيفة تداول السلطة و المساءلة و المحاسبة والرقابة الشعبية، قد أحدثت

¹ - ينظر : برهان غليون : العولمة و أثرها على المجتمعات العربية ، مرجع سابق، ص ص 14-16.

² - حليم بركات: الاغتراب في الثقافة العربية، مناهات الانسان بين الحلم والواقع، مركز دراسات لوحد العربية، ط1، بيروت، لبنان، 2006، ص 91

شرخا عميقا بين النخب الحاكمة و المجتمع، وقادت هذه النخب بسرعة إلى التكلس والعقم والانحطاط و الفساد(...)، فتحوّلت إلى طبقة ريعية تعيش على التحكم بموقع القرار السياسي أو الإداري أو العسكري، وتؤمن ثروتها مما يقدمه لها موقعها من قدرة على ابتزاز بقية أفراد المجتمع.¹

إضافة إلى أن المجتمع العربي يعيش معضلة كبرى، فهو يعاني في علاقته بنفسه و هويته و تراثه، كما يعاني في علاقته بالغرب و الحداثة علة تعثره، و" ما يزال موزعا بين القديم و الحديث، من دون أن يكون أيا منهما حقا، ليس هو بالقديم كما أنه ليس هو بالحديث، وليس نفسه بقدر ما هو غيره، بل يعيش بين بين في تأزم دائم، فيشهد صراعا مريرا، تتجاذبه قوى الوعي التقليدي و قوى الوعي الحداثي الزائف، وقوى المحافظة وقوى التقدم الشكلي، وقوى الجمود و الاندخال بسلع الغرب"². فحاضر مجتمعنا بكل قضاياها ومعطياته الثقافية والاجتماعية والسياسية، تتقاذفه أمواج بقايا الماضي وامتدادات الحاضر، وهو مزيج غريب من إرثنا ومن الحضارة الغربية ذات الطابع العالمي. و في ظل هذا الوضع القائم، اتضح للإنسان العربي الضائع بين ماض أصيل، وحاضر قلق مشبع بالقمع الاستبدادي، و مستقبل ضبابي باهت لا أفق له، و في عالم معولم، لا مكان فيه إلا للقوى، أن ثمة حلقة مفقودة من الوعي التاريخي.

علاوة على أن غياب الوعي الديني الصحيح و الفهم العميق للنصوص الشرعية، و تلقي الفتوى من غير المتخصصين و الملتزمين فكرا و سلوكا، أنتج فهما زائفا لمقاصد الإسلام ومبادئه السمحة، تبناه الشباب المحبط الفاقد لليقين و للقيم العليا، والساقط في

¹ - إسماعيل الشطي: الفساد والحكم الصالح في البلاد العربية، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية، مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع المعهد السمري، ط1، بالإسكندرية، 2004، ص192.

² - حليم بركات: الاغتراب في الثقافة العربية، مآهات الانسانين اللحم والواقع، مرجع سابق، ص123

الفراغ الديني و الفكري، و المشكك في شرعية السلطة ومصداقيتها، والرافض لفكر الحداثة و ما بعدها.

وفي غمرة هذا المناخ الاستسلامي الانهزامي، ومع غياب حلول قطعية في مواجهة الإحباط وملء الحياة الثقافية، لم يكن من حل سوى الإقبال على التدين الذي أحدث قطيعة مع القيم الروحية والفكرية والإنسانية العظيمة للإسلام الصحيح، وانحصر هذا الأخير في ممارسات يومية و طقوس يفترض أن لها معنى دينيا. فانتشر التدين الذي يطبعه التعصب المذهبي و التشدد و المغالاة، وازداد تناميته بشكل ملفت، وتوسعت موجة العنف و التطرف الفكري و الديني، وامتدت لتشمل دول العالم أجمع، المتخلفة منه و المتقدمة على حد سواء. وسرعان ما استشرى في البلاد العربية و الإسلامية، وتحولت مظاهره من عنف رمزي إلى عنف جسدي و تهديد إرهابي مسلح، اتخذته الحركات الدينية المتشددة كحل لمن يخالفها الرأي، تحت شعار الجهاد المسلح لإقامة الدولة الإسلامية، وحاولت من خلاله بعض الأطراف ضرب استقرار النظام السياسي فيها و المساس بوحدة شعبها.

فالعنف الذي تعيشه بعض المجتمعات العربية هو عنف سياسي، ناتج عن تحول الصراع السياسي إلى حرب عرقية و طائفية، وعن تسييس الدين والهوية والطائفة و القبيلة، والجماعات المتطرفة التي تعيد إنتاج ذاتها رمزيا وماديا وتحاول الدفاع بشراسة عن وجودها" إن الدين ليس منتجا للعنف بشكل دوغمائي، بل إن تسييس الدين و تحويله إلى مورد سياسي في سياق التنافس و الصراع على السلطة، هو ما ينتج العنف من خلال مجموعة الصيغ و السياقات التي يتيحها تأويل معين للدين من خلال الأنا و الآخر، و تقديس الأنا و شيطنة الآخر"¹.

¹ - إسماعيل الشطي: الفساد والحكم الصالح في البلاد العربية، مرجع سابق، ص. 242.

ويتغذى التطرف على مخيال تديني أسطوري، يعكس الجمود العقائدي و الانغلاق الفكري للمتطرف،ويمكن رصد علاماته في القطيعة مع المجتمع و الزمن التاريخي، و تظهر آثاره في التعصب الديني الذي هو تحريف لجوهر الدين وفهم خاطئ لمبادئه ونصوصه و تعاليمه السمحة، ينتقل فيه الدين من رابط إيماني روحي مبني على أساس المحبة و الوئام و الأخوة و التعايش والحوار و احترام الاختلاف إلى دين شكلي ظاهري يطبعه العنف والنبذ و التشدد مع النفس و مع الآخر المخالف في الاعتقاد و الممارسة، و يعتمد فيه المتطرف إلى التأويل الخاطئ للنصوص الشرعية، أو إلى اجتزاء الأحكام وآراء علماء الدين من سياقاتها الأصلية و إنزالها السياق الذي يخدم توجهاته و مصالحه "إن خطورة الاختلاف بين التيارات الفكرية التي تعتقد أنها تستمد مشروعيتها من الدين أشد وأكبر، لأن كل طرف فيها يعتقد أنه صاحب الحق في هذه المشروعية التي يجب عليه ألا يتنازل عنها، بل يدافع عنها ولو كان ذلك بنفسه و ماله، وأي تنازل عن ذلك هو تنازل عن الدين في تصوره، وهكذا يعتقد كل طرف أنه يقوم بحماية المقدس، والدفاع عنه، والواقع أنه لا يدافع عن المقدس، وإنما يدافع عن فهمه لهذا المقدس".¹

والملاحظ على الحركات المتطرفة أنها قامت على أساس عنفي، فصوغت القتل و السبي والترهيب، وفتاوى التضليل والرمي بالردة والكفر، فأغلقت المنافذ وضائق دائرة التلاقي والتعايش مع المختلف،وأصبح الدين عائقا في مسار التنمية الأخلاقية و الجمالية، و في تقريب سبل الحوار و التقارب مع الآخر، وجنحت خطاباته عن معاني التسامح و التعدد وحقن الدماء التي أكدت عليها مقاصد الشريعة الإسلامية.حين استخدمت العنف بأشكاله اللفظي و الفكري و الجسدي، وهو في أغلب الأحيان الخلفية الأساسية لتكوين الإرهاب، و نتاج تحول الفكر و الخطاب إلى عمل إرهابي عنيف.

¹ سعيد حارب: الثقافة والعولمة، دار الكتاب الجامعي، ط1، العين، الإمارات المتحدة، 2000، ص77.

ويفسر هذا الجنوح نحو العنف و التطرف بأن الهوية الإرهابية تتبع من حاجة الفرد إلى إيجاد هوية ذات معنى، وأولى إعادة صياغتها. فالسبب وراء تحول الأشخاص العاديين إلى مفجرين انتحاريين، إنما يعزى إلى تراكم عمليات التواصل الاجتماعي المعززة بآليات عمل نفسية واجتماعية كلاسيكية، تقوم على عمليات غسل الأدمغة والتعبئة الإيديولوجية والتدريب و التجنيد" من كان يعلم أن شبابا بدون سوابق يعيشون في البارات و مع المومسات على الأقل ظاهريا، يتحولون في لحظة برقية إلى طيارين و انتحاريين"¹. كما يعزى إلى ثقافة الاستشهاد، الحافز الأكثر إغراء للشباب، هذه الورقة استغلته الأمير وحيد خان في إندونيسيا، فأوقع لوليتا عارضة الأزياء المشهورة في شركها. فاختيارها لم يكن عبثا ولا محض صدفة، إنما هو تخطيط محكم، لقد انتهب الأمير وأتباعه انكسارها و استغلوا ضعفها وضياعها، عقب سقوطها ضحية والدها، الذي اغتصبها دون رحمة في لحظة سكر و نزوة عابرة، حملت على إثر الحادثة واضطرت إلى الإجهاض في سن لم تتعدى الثانية عشر، تعيش مطاردة من قبل أهلها، خاصة أخيها العازم على قتلها بتهمة الإغواء و ضرورة غسل العار. الاعتداء الوحشي القذر حطم روحها و زلزل كيانها وقضى على أحلامها و طموحاتها، وأفقدتها ثققتها في نفسها و في من حولها، ودفعها إلى الانتقام لنفسها جنسيا من كل رجل عرفته.

أنهت حياتها في تفجير انتحاري بفرنسا ليلة الاحتفال برأس السنة وسط جمع غفير من المحتفلين من كل بقاع العالم، و "نشر الإعلام أن اسمها الحقيقي ملاك، وأنها تحمل جواز مزور، وهي متابعة من طرف الإنترنت بسبب جريمة ارتكبتها في جاكرتا ضد أخيها

¹-واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص213

التاجر في إندونيسيا، وضد صديقها آلان جيروم، هربت من إندونيسيا، وهي الآن مكلفة بقتل الكاتب يونس مارينا لنشره رواية عرش الشيطان.¹

فالعنف الصادر من لوليتا الذات مهزومة، ليس إلا رد فعل و ثورة رفض و تمرد من هوية متشظية تعرضت للغدرو التشيؤ و الاستغلال، وتشبعت بثقافة الاستشهاد المغلوطة. و المتطرف شخص مخدوع مغرر به يعتقد جازما أنه مخول من الله ومنذور للدفاع عن الدين، كما أن الجزء بالجنة يغري بالتضحية، وللغة الدينية الجهادية المتطرفة دور كبير في منحه القوة في الإقدام على الفعل الإرهابي " لملاك مسؤوليات أكبر زوجها ينتظرها ، كنت أفهم ما يقوله و مؤمنة به، كان يتكلم عن مكتوب خطته السماء ، كان يناديني ملاك " ².

وقد يكون الإرهابي نتاج بيئة فقيرة تتميز بالتخلف الفكري والإيمان بالخرافات أو هو أيضا نتاج سلسلة من الإخفاقات النفسية و الاجتماعية، تتخذ الجماعات الإرهابية الأكثر تطرفا و الأشد دموية والأعم خطرا على الإنسانية أداة لتحقيق مصالحها و أهدافها الأيديولوجية. لكنه قد يكون أيضا على قدر كبير من العلم والثقافة والمعرفة، مثال ذلك سيف وهو عالم عربي مسلم في جامعة بنسلفانيا الأمريكية، متفوق في العلوم الدقيقة وفي التحكم بالمعلوماتية و الأسلحة المتطورة، و صاحب مهارات وكفاءات و مؤهلات عالية. ترك الدراسة و الأبحاث في الجامعة و تدرّب في بيشاور في باكستان على إنتاج المتفجرات الشديدة المفعول، إثر مصرع آلاف العرب الأكثر بؤسا في مجمع الخيام بسبب انفجار قنبلة نووية صنعها آدم العالم العربي المخدوع زميله في المختبر، وانتقاما لمقتل زوجته نسرين أثناء عملية وضع في قصف جوي أمريكي استهدف مستشفى كراتشي.

¹-المصدر السابق، ص484.

²- المصدر نفسه، ص463.

الأحداث الإجرامية ولدت في سيف عنفا و طاقة مدمرة و كراهية للآخر الغربي الأمريكي والمناوئين له، وجرتة إلى دائرة الإرهاب.

تعتبر المجموعات الدينية الآخر طرفا غريبا منفصلا عنها، وتصبح عملية إغائه قاعدة هامة في بناء الذات. و بالتالي تقذفه خارجا و تنفيه وتحاربه فهي "تقتل اللي يحبوا يفهموا، مسلمين كانوا أو يهود، أو مسيحيين، وحتى اللي بلا دين (...)", يقتلون من يعتدي على صمت ليس له، الناس اللي يتكلموا في الوقت الذي يفترض فيه أن يصمتوا. الطاحونة لم تشبع بعد، ما تزال أمامها أيام كثيرة من الاستمتاع بتقتيل الجماعي والفردى.¹، وبإحياء الفتن و الصراعات الدينية، وإلهاب جحيم الطائفية العرقية والعقدية.

وقد ضرب الإرهاب بقوة وفرض تصوراته الدينية المغلقة وتطرفه الفكري بالعنف والإكراه وبوسائل همجية لا إنسانية "بدأت أرى في الشوارع فلولا من البشر ما هم بأفغان ولا بهنود، بدأوا يملئون الساحات الكبرى، يقال أنهم من بيشاور وكابول، جاءوا لتعليمنا الإسلام الصحيح"². فمسلسلات التفجيرات، والعمليات الانتحارية، والذبح والتقتيل الجماعي، والسبي والتطهير العرقي، والتلاعن والتكفير والإفتاء بهدر الدم، هي بعض الصور التي وظفتها حركة داعش و طالبان و غيرها من التنظيمات الإرهابية في الجزائر أثناء العشرية السوداء "آلاف الأرواح التي حصدها الموت، آلاف البنايات المهدامة، آلاف الحرائق التي التهمت كل شيء حتى ما تبقى لمحبة الناس لبعضهم البعض. لم يكن أحد يهتم لقناعات جاره المسلم أو المسيحي أو اليهودي، أو الإنسان بكل بساطة، فأصبح لا يفرق فقط بين الخصوصيات الدينية الكبيرة، ولكن يتفنن في الشظايا والتفاصيل، أي نوع من اليهود، الإشكنازي أو السفردى؟ والمسيحيين و المسلمين ؟ أية الطوائف واللغات

¹ - واسيني الأعرج: مملكة الفراشة، ط1، دار بغداد للطباعة والنشر والتوزيع، الرويبة، الجزائر، ص ص230-231.

² - واسيني الأعرج: أنثى السراب، دار بيروت للآداب ، ط1، بيروت ، لبنان ، ص88.

والإثنيات؟ كيف تخفى ذلك لمدة طويلة ليستيقظ من جديد بهذا العنف و بهذه الكثافة، حيث تبدو مواجهته مستحيلة؟"¹.

وأحكم حراس الدين سلطتهم على المجتمع وشددوا قبضتهم على مفاصده، وفرضوا مناخا ضيقا خنق الحريات وحد من حرية حياة الناس، وحدد ما يقرأ أو يسمع، وما ويلبس ويشاهد، وما الموضوعات التي يسمح فيها التفكير أو يمنع، وبدأ حراس النوايا يزيحون سلطة بني كلبون، ويستعيدون أمجاد الورق الأصفر، والحرف المقدس والسيوف المعقوفة"². "هل يعقل أن تتجب حضارات عريقة وسمحة فقهاء مجانيين لا يفرقون بين الدين والجريمة؟ من فوضهم؟ من أعطاهم حق الكلام باسمه؟ أين النور الذي جاء منه ليبرنا، وصاغ حكمته العالية وخطوط كتبه العظيمة؟"³.

ودأبت الجماعات الإرهابية على التصفية الجسدية بذنوب أو بدونه لكل من خالفها الرأي، التهديد بالموت لاحق العلماء و الفلاسفة و رجال العلم والفكر والأدب وعائلاتهم. الرمي بالرصاص في ظلمة الليل هو مصير "رئيس الأطباء في الجراحة الدماغية، و واحد من المختصين القلائل في جراحة المخ، و هو أيضا من أشرف على عمليات جراحية للكثير من رؤساء الدول"⁴،النهاية نفسها لاقاها الباحث و الصيدلي و تاجر الأدوية زوبير، فقد اخترق الرصاص الغادر رأسه من قبل مافيا الدواء المتواطئة مع الجماعات الإرهابية. وبالطريقة ذاتها قتلت رايسة الروسية المقيمة بالجزائر زمنا طويلا "

¹ - واسيني الأعرج: مملكة الفراشة، ص209.

² - واسيني الأعرج: سيدة المقام، موفم للنشر، ط2،الجزائر، ص06.

³ - واسيني الأعرج: رماد الشرق، خريف نيويورك الأخير، ج1، منشورات الجمل، بيروت، لبنان، 2013، ص57.

⁴ - واسيني الأعرج: مملكة الفراشة، ص51

في سوق المدينة الذي كانت ترتاده من حين لآخر، وتم ترحيل جثمانها في الليلة نفسها نحو روسيا، حتى لا يتم تضخيم الحالة إعلامياً¹.

والأطفال عالم البراءة هم أيضاً ضحايا همجيته و هجماته المتوحشة التي انتهكت قداسة الأماكن الدينية ورمزيتها، فقد اغتالت يد الغدر حمامة الطفلة البريئة التي اعتادت رفقة والدها الشيخ إطعام الحمام في بهو الجامع، أين يرقد ضريح الولي سيدي الخوي، أصابت رصاصة طائشة رأسها برصاصة طائشة "فجأة سمع صوت طلق ناري جاف بلا صراخ، فر الحمام، وظلت الطفلة جثة هامة في مكانها، الباحة و المحراب والجامع والولي الصالح فرغوا فجأة، بقيت وحيدة في دمها.²

كما استهدفت الشباب المجند باعتبارهم جزءاً من السلطة الفاسدة الكافرة، التي يجب تفكيكها و إزاحتها. فتعرض الجنود للسجن والتكيل والتعذيب و تجرعوا أشد أنواع المهانة و الإذلال، و ببرودة دم و مجرد تام من المشاعر الإنسانية ذبحوا العسكري إسماعيل الذي كان يؤدي واجب الخدمة العسكرية، ذبحوه أمام عيني صديقه المقرب ريان، وأجبروه على مشاهدة تفاصيل الجريمة، مزقوه إرباً إرباً، قطعوا رجليه، ثم يديه " ثم بتروا... وهو يصرخ و يستجديهم أن يرحموه بقتله، ثم فقأوا عينيه بأصابعهم الغليظة، ثم قطعوا أظافره ونزعوا أسنانه، وهم يتلذذون³.

ويظهر الإرهاب الفكري في تعقيل العقل وتغييب النقد وتحجيم حرية الفكر و الإبداع لدى الأدباء والفنانين والنحاتين و العلماء والشعراء، وإلى المساءلة الدينية و السياسية و الجنسية، مثل ما حدث مع رواية "آيات شيطانية" التي منعت من النشر، وأفتى الخميني بتكفير كاتبها لسلطان رشدي البريطاني من أصول هندية، وبإهدار دمه.التقييد على

¹ - المصدر السابق، ص 107.

² - المصدر نفسه، ص 201.

³ - المصدر نفسه ، ص 264.

الحريات و الخوف على النفس دفع عديدا من الأدباء و الفنانين إلى الهجرة واختيار النفي الإجباري بعيدا عن الوطن هروبا بحياتهم" في دائرتنا ثلاثة كتاب، إيراني و جزائري و فرنسي أسلم في وقت مبكر، وأربعة فنانيين مغربي و إيراني و أفريقي و شيشاني، ونحات كبير من مالي أحد أعرق الشخصيات في وطنه، اختار المنفى من بطش لاكمي¹، في حين أعدم كثيرون منهم، على نحو الشاعر الإيراني ميرزاده الذي شنق و رجم بالحجارة في الساحة العامة تحت تصفيقات الحاضرين، قبض عليه حين حاصره الحرس الثوري الإيراني رفقة صديقه شيرازي عازف السنطور" وعندما طلبوا منه أن يدافع عن نفسه قال: أنا شاعر، قالوا له كنت تشرب و تتشد الخيام، قال و السهروردي و الحلاج و ديك الجن و الفردوسي كذلك، قالوا له: انف التهم التي عليك، قال: أنا شاعر فقط. وبعد يومين من الحجز حكموا عليه بالموت، (...) بعد أن كتب على صدره: و الشعراء يتبعهم الغاؤون...².

في السياق ذاته تعرض الكاتب السياسي يوسف مارينا إلى محاولات الاغتيال في وطنه و خارجه على السواء، بسبب كتاباته التي لم ترق للمتطرفين و الساسة أصحاب القرار، ولحمايته وضع تحت الرقابة البوليسية المشددة في فرنسا البلد الذي اختاره للنفي. فراره كان بسبب روايته "عرش الشيطان"، التي لاقت نجاحا باهرا، و رشحت لجائزة السلام الألمانية، وترجمت إلى لغات عالمية عديدة هي: الألمانية و الإيطالية و الفرنسية، ووقعت عقود ترجمتها إلى الدانماركية والسويدية و الهولندية و النرويجية الصينية و كذلك العبرية و اليابانية، لكن ما السر في اهتمام الإعلام العالمي المتزايد بها ؟ وكاتبها نفسه " لم ير في عرش الشيطان أي استثناء، ولا أي جهد خارق يضعه في أفق الدهشة، مجرد لحظة هاربة لاختراق سرية القرآن اللذيذة، نص يحبه الملايين ويخافه الملايين، ويتساءل حوله

¹- واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص111.

²- واسيني الأعرج: رمادالشرق، خريف نيويورك الأخير، ص94.

الملايين أيضا"¹. لقد أثارت هذه الرواية جدلا كبيرا في صفوف القراء، وتضاربت آراؤهم وانقسمت بين مؤيد لما جاء فيها من أفكار و مضامين، و بين رافض ومكفر لها، بحجة أن النية المبيتة ضد الإسلام فيها واضحة، وأنها قد تعطي سورة قبيحة وغير حقيقية عنه، حيث حذر إمام مسجد دوسلداف بألمانيا منها ووصفها بأنها مثال للتغريب و الكفر و بيع النفس للشيطان الرجيم، وكتبت الصحف الوطنية بشأنها " أن الشيطان هو من أوحى لك بها النص ههههه. قرأت هذا في إحدى الصحف الوطنية، قبل أن يفتوا بقتلك، وجدوا شبها بينك و بين سليمان رشدي وابن المقفع، حتى أن بعضهم طالب باختطافك ووضعك على طاولة طويلة و سحبك من رجلك حتى التمزق"². فهذه الجماعات هي نتاج أنظمة فكرية واجتماعية فاسدة، تمسكت بتقاليد رجعية بالية متوارثة أصبحت مع الزمن و الممارسة أقوى من الدين نفسه ومجانبة له "لقد تسلحوا بإسلام يشبه الإسمنت، لا روح فيه ولا ماء، واشترطوه مسلكا للجميع."³. ولا يمكن اعتبارها امتدادا للمؤسسة الدينية التقليدية أو دعامة لها، بل هي إحدى مكونات الحقل السياسي المعاصر. وللأسف، يضطلع بعض الأئمة ورجال الدين، الذين أبعدوا الدين عن الواقع و مشكلاته، ولم يسهموا في إصلاحه و تنميته وتطهيره من الخرافات و البدع التي استشرت في الذهنيات، وحصروا وظيفتهم في الترهيب من العذاب و الحديث عن القبر و الجنة و منع الاختلاط -على أهمية هذه الموضوعات - بدور غير مباشر في هذه المعضلة.

ولا شك في أن مثل الجماعات الإرهابية تمثل ثقافة فرعية داخل الثقافة الكلية للمجتمع، وهي تنتكر في توليفات وتحويلات تنظيمية للإفلات من رقابة الدولة والأجهزة

¹ - واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص13

² - المصدر نفسه ، ص29.

³ - واسيني الأعرج: أنثى السراب، ص142.

الأمنية. وتوظف الدين بما يحقق لها القبول والحضوة، وبما يخدم أهدافها ومخططاتها، لأنه ما يزال المحدد الرئيس للهوية إلى جانب اللغة و الثقافة و التاريخ.

إن التظاهر بالدين هو وسيلة للإقناع بمشروعية الممارسات والأفعال، وتحقيق مصالح خاصة، لكنه في حقيقته انتفاع شخصي ومصصلحة فردية، فقد تنكر ممول الإرهاب سي أحمد والد لوليتا، في صورة تاجر للأقمشة و الألبسة الإسلامية الشرعية، وأطلق لحيته و قصر ثوبه، فخدع بزيه الجميع " لم يكن الحجاب في الجزائر معروفا و معمما، والذي هو من كان وراء تحجيب نساء الجزائر. كان يعتبره الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله- أثناء إقامته في الجزائر مديرا للجامعة الإسلامية بقسنطينة، جندي الخفاء و حبيب أمهات المؤمنين"¹. وهو في حقيقته عربي خمر، ماجن، فاسق" على الرغم من صلواته الخمس و إيمانه الظاهري على الأقل، كان يشرب الخمر و يقيم علاقات كثيرة مع خادماته الإندونيسيات اللواتي كن أصغر مني سنا، السياحة الجنسية سرية لكنها متطورة جدا في جاكرتا."².

واهتدى الفينكا أحد أهم زعماء الإرهاب، إلى الإتجار في الألبسة النسائية، الحجاب تحديدا، كغطاء تمويهى لإبعاد شبهة تجارة المخدرات، إنه الخيار الأمثل "تجارة حلال ومطلوبة، بيع ما يستر المسلمات، تجارة مربحة في الدنيا والآخرة"³. وفي فترة وجيزة تربح على عرش هذه التجارة اللامشروعة، و أصبح مع وكيله أبي إلياس من أكبر الموردين و الموزعين لها "أعرف جيدا تعرجات السوق، يا سيدي إنها طريقنا لتدمير النظام، هذا

¹ - واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص ص 257-258.

² - المصدر نفسه، ص 259.

³ - واسيني الأعرج: البيت الأندلسي، منشورات الجمل ، ط1، بيروت، لبنان ، 2010 ، ص 375.

الجيل مخدوع و مريض، يجب أن يفرض بسرعة، في انتظار جيل جديد أكثر إيمانا و احتسابا.¹

وللتواصل مع المحيط الاجتماعي،تحتاج هذه التنظيمات الدينية المسلحة إلى حاضنة اجتماعية وإستراتيجية تواصلية للتوسع والامتداد،ولجلب الدعم المستمر و الإمدادات المالية. فقبل أحداث التسعينات بالجزائر وضع ما يعرف بالإسلاميين عديدا من المناطق تحت حكمهم وضاعفوا نشاطهم السري اللاقانوني، وجندوا الشباب المتعصب في صفوفهم، فحققوا أرباحا خيالية، بدعم من سيدي الكبير الرأس المدير، والحائط الكبير الذي يستندون عليه، مسؤول كبير في الدولة متواطئ معهم.

مما عرض، نخلص إلى:

_العنف والتطرف هما صنيعا السلطة القمعية والعقائد الدينية المتشددة و المجتمعات المتخلفة الراضة لقيم الحداثة الإيجابية، التي يغيب فيها العقل النقدي، وتستثمر التغذية الدينية و العرقية العاطفية في الخطاب الديني.

_مظاهر التدين التي يتستر به المتطرفون وأيديولوجيتهم، لا علاقة لها لا بالإسلام الصحيح ولا بقيمه الأخلاقية والسلمية و لا بمفهوم الجهاد في الإسلام.

_من ضرورة القضاء على التيارات المتعصبة و المتطرفة دينيا، وقطع كل القنوات التي تغذيها أيديولوجيا وتقنيا، فهذا التطرف الديني جهاد تدميري بعيد عن الإنساني و الحضاري، يقصي الآخر أيا كان، لأبد من مواجهته كعقيدة متطرفة و كنسق ثقافي وكتكتيك حربي.

¹-المصدر السابق، ص372.

المطلب الثالث: الإرهاب الدولي و الجريمة المنظمة:

يعرف الإرهاب بأنه "عنف منظم و متصل بهدف خلق هالة من التهديد العام الموجه إلى دولة أو جماعة سياسية، ترتكبه المنظمة بهدف تحقيق أهداف سياسية"¹. وهو أيضا "استخدام العنف غير القانوني أو التهديد بأشكاله المختلفة كالاغتيال والتشويه و التعذيب و التخريب والنسف بغية تحقيق هدف سياسي معين، مثل كسر الروح المقاومة والالتزام عند الأفراد، أو كوسيلة من وسائل الحصول على المعلومات و المال، وبشكل عام استخدام الإكراه لإخضاع طرف مناوئ لمشيئة الجهة الإرهابية."²

وعليه يكون كل فعل إجرامي منظم فردي أو جماعي يستهدف الأفراد أو الجماعات أو المؤسسات، بهدف نشر الرعب وإثارة الفوضى أو الإضرار بها وتكبيدها خسائر هائلة، أو الإخلال بالوضع الأمني العام بغية تحقيق أهداف إرهابية فعلا إرهابيا. الهدف منه هو ترويع و تهويل المدنيين و الترويج لهجمات إعلاميا، للضغط على الحكومات و إجبارها على الرضوخ لمطالبها السياسية بالدرجة الأولى.

وقد عرفت المجتمعات القديمة الإرهاب بكل أشكاله و صورته، وعانت من عنفه و تبعاته. لكنه وعقب أحداث 11 سبتمبر لعام 2001، اتخذ هذا المفهوم معنى وشكلا جديدا يختلف عن الإرهاب التقليدي القديم واختلقت آلياته و أدواته، وغدا ذا صبغة دولية تحركه الأيديولوجيات ذات الطابع الإثني المتطرف أو الديني المتشدد" يمثل الإرهاب الدولي الجديد الجيل الثالث من تطور ظاهرة الإرهاب، فالجيل الأول اتخذ طابعا قوميا استخدمت فيه الأسلحة النارية و القنابل، مثلته الموجات التي اجتاحت أوروبا منذ أواخر

¹ - عبد القادر زهير النقوزي: المفهوم القانوني لجرائم الإرهاب الداخلي والدولي، منشورات حلبي الحقوقية، ط1، بيروت، لبنان، 2008، ص56.

² - عبد الوهاب الكيلاني: موسوعة السياسة، ج1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، لبنان، 1990، ص153.

القرن 19، أما الجيل الثاني فقد اتخذ طابعا أيديولوجيا، وهو ما يعرف بالحرب الباردة أحد أدوات الصراع بين الشرق والغرب، مثلته الألوية الحمراء الإيطالية والجيش الأحمر الياباني، ومنظمة بادر ماينهوف الألمانية، أما الجيل الثالث فهو مختلف من حيث التنظيم و التسلح و الأهداف، تمثله جماعات متعددة الجنسيات تربطها أيديولوجية دينية وسياسية واحدة، وتستخدم أسلحة الدمار المتطورة والفتاكة، منها الكيماوية و النووية والبيولوجية والإشعاعية.¹

وأصبح الإرهاب ظاهرة عالمية وجيشا دوليا خطيرا، ولم يعد رهين المصادفات الانتقامية، بل صار محكم التنظيم يستهدف السلطة، و يمد أذرعه كالأخطبوط في كل مكان، و خلق معضلة أمنية شائكة بامتلاكه أسطولا من العقول والأدوات القادرة على إحداث الدمار الشامل، والأخطر من ذلك اختباؤه في أجساد مسالمة "الإرهاب لا رأس له على الرغم مما يبدو ظاهريا (...). فهو مثل جرثومة المياه العذبة، أينما نزلت نقطة منها تجددت وتضاعفت بنظامها الذي لم توقعه أية تكنولوجيا".² وشكل نشاطه الإجرامي تعديا فاضحا على حقوق الإنسان، و تهديدا جديا لاستقرار المناطق وأمنها ومشاريعها التنموية الاقتصادية و الاجتماعية والثقافية، حيث زاد في تأجيج الصراعات ووسع دائرتها و أطال عمرها، كما قوض شرعية الدول و أفقدها ثقة المواطنين بها، وشل جهودها الرامية إلى حفظ الأمن و ضبط النظام.

لقد تربي الإرهاب في أحضان الفساد والقمع و اللاعقاب وتحول إلى صناعة تتغذى على مصادر عديدة أهمها: الدين والمال والتعصب والسلطة و الإعلام والمخدرات والجنس و التهريب... " الإرهاب لم ينزل من السماء. من خلقه؟ من موله؟ من دربه؟ من وجهه

¹ - ينظر: أحمد ابراهيم محمود: الإرهاب الجديد، الشكل الرئيسي للصراع المسلح في الساحة الدولية، السيسة الدولية، العدد 147، يناير 2002، ص ص44-46.

² - واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، موفم للنشر، الجزائر، ص 306.

لقتل أكبر العلماء و تحطيم أجمل ما شيدته الحضارة الإنسانية على أرضه، من استفاد في النهاية؟¹ "وهو" ليس قدرا، تصنيع أيضا ولا ينشأ من الفراغ، وأينما كان الظلم أصبح الإرهاب أكثر الوسائل اختصارا. الإرهاب مرض حقيقي ولكن كل واحد يمارسه على طريقته، بعضه يحاربه وبعضه الآخر يصعب أن يحاربه، لأنه لا يمتلك القوة فقط، ولكنه لا يملك سلطان الإبادة بطائراته و إمكاناته، وهو ما يزيد التطرفات عمقا.²

الجريمة المنظمة وجه آخر للإرهاب الدولي، فقد تنامت في العقود الأخيرة بحكم ازدياد الترابط العالمي، تجاوزت حدود الدول المحلية والإقليمية التي نشأت فيها، وأصبح نشاطها ذا طابع دولي، بفضل التنسيق المحكم بين أعضائها وامتلاكها و تحكمها في تقنيات الإعلام و الاتصال الحديثة.

تقوم هذه الأخيرة على بنية تنظيمية بالغة السرية والتعقيد، وتنشط خفية تحت أقنعة شتى، وتمارس العنف اللامشروع بأنواعه، وتضم: عمليات التهريب والاختطاف و الابتزاز والبيعاء، و التجارة غير المشروعة كتجارة المخدرات و الأسلحة و الأدوية غير المرخصة وغسيل الأموال و تهريب الآثار و السلع، والمتاجرة بالبشر...، ورغم التنسيق المستمر بين حكومات العالم أجمع و بالتعاون مع عدد من المؤسسات الدولية مثل الأنتربول، فإن صناعة الجريمة المنظمة مازالت تواصل اتساعها و انتشارها، وفي مقدمتها تجارة المخدرات³ وتجارة الأسلحة، وما تزال عائداتها المالية موردا هاما في تغذية النشاط الإرهابي، و "ربما هناك حسابات سرية بين الإسلاميين و مهربي الأسلحة، الذين وجد

¹ - المصدر السابق ، ص 270.

² - المصدر نفسه، ص 270.

³ - أنتوني غدنز: علم الاجتماع، تر وتقديم: فايز الصياغ، المنظمة العربية للتر، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2005، ص 302.

بعضهم على رأس هرم الدولة، ولهذا عندما نتحدث عن الإرهاب يجب أن نتأمل في حركته لا في ثباته، لم يعد اليوم أي بلد بعيدا عنه.¹

و تؤمن عصابات الجرائم المنظمة حركة مرور البضائع و المؤون والأسلحة للحركات الإرهابية مقابل الحصول على الأموال، وتساعدنا في تحصيل الخبرة في مجال الدعم العملي، وتهريب الأفراد الراغبين في الانخراط في مناطق النزاع عبر شبكات دولية مختصة في تزوير الوثائق، و تبتز ماليا الهاربين و المهاجرين من أوطانهم بسبب الانفلات الأمني بها، عن طريق فرض ضرائب تمكنهم من العبور آمنين، و يمتد نشاطها لإدماج عائدات الجرائم السابقة في الاقتصاد الوطني والعالمي كأسلوب لغسلها أو تبييضها، أو مقايضتها بسلع تقتحم الأسواق المحلية و الدولية. فقد أشرف الفينكا تاجر المخدرات على تنسيق عمليات بيع الأسلحة للإسلاميين، فسافر إلى دول كثيرة عبر العالم: بولونيا، رومانيا، فرنسا، إسبانيا، تركيا، الجمهوريات الإسلامية، الصحراء الإفريقية "، " المتفجرات، الرشاشات من نوع الكلاشات، والبريتا و المسدسات، ومدافع الإريجي، كلها كانت تنقل دون أي إشكال عبر سفن الصيد والسيارات الكبيرة المتواطئة في أغلب الأوقات مع جزء من حرس الحدود.²

وبغية التأمين المالي، تحكم هذه الحركات سيطرتها على المناطق الغنية بالثروات الطبيعية الخام كالبتروول والغاز و النفط و الفحم و الذهب...وتستغل إيراداتها الضخمة في تمويل عملياتها الإرهابية، على شاكلة قلعة أميروبا الواقعة في عمق صحراء آرابيا، هو موقع هام لحماية ممرات النفط و الغاز واليورانيوم ومراقبة حركة السفن في مضيق هرمز و البحر الأحمر، تجرى فيها " مفاوضات سرية يشترك فيها ضباط أميروبا وأمراء من التنظيم لإيجاد أفضل الحلول البراغماتية التي تعود بالنفع على الجميع، الهدف من ورائها

¹-واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص374.

²-واسيني الأعرج: البيت الأندلسي، ص379.

هو إخلاء القلعة لصالح التنظيم"¹. وقصر الأمير سلطان وحيد الواقع في أعلى جبل في عمق غابة تشبه الأدغال المنسية في أندونيسا، هو واحد من أهم مخابئ الإرهابيين و مموليهم ماديا، منهم سي أحمد الوكيل التجاري للأمير في الوطن العربي، يمتد نشاطه بين السعودية و الخليج وبلدان المغرب العربي " كنت ألمح من حين لآخر من نافذة غرفتي بعض المسلحين الذين كانوا يزورونه ليلا. من عناقه إياهم كنت أشعر أن بينهم صداقة كبيرة يأخذون كيسا أبيضاً منه مليئاً بالنقود أو هكذا افترضت، ثم ينسحبون. هو الكيس نفسه الذي كنت أراه يسلمه في الجزائر، في بداية التسعينيات إلى شاب لم تكن لحيته قد ظهرت ماعدا بعض الزغب المشتت بفوضى في وجهه. عرفت لاحقا أنه قتل في جبال الأخرية، بعد أن أصبح قائدا للجماعات الإسلامية المسلحة "².

و حين استفحلت الظاهرة، أدرك المجتمع العالمي خطورتها، فسارع إلى تجريمها و إلى التنسيق المحكم بين الدول، و توسيع نطاق التعاون فيما بينها لمحاربتها بجميع أشكالها ومظاهرها، فأنشأت عديد من مراكز المراقبة على المستوى العالمي، أين تتم مراقبة تحركات المجموعات الإجرامية و نشاطاتها بالتنسيق بين عناصر الأنتربول الدولي.

وتحضر فرنسا كهدف خاص لنشاط هذه الحركات الإرهابية. فالتهديدات ضدها متعددة الجبهات "التهديد يأتي من ثلاثة أطراف: أولا الفرنسي المتأسلم الذي يتطرف انتقاما من كل شيء حي، ويريد أن يقوم بفعله لوحده، ثانيا: القاعدة في بلاد المغرب العربي الإسلامي لاكمي، التي أرسلت كوماندوس إلى فرنسا للقيام بعمليات انتحارية وإرهابية، وقد تكون من بينهم نساء، لأنهن أكثر اختراقا للمنافذ الضيقة، ثالثا: الجهاديون

¹-واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص310.

²-واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص ص258-259.

أي الفرنسيون الذين ذهبوا إلى أفغانستان أو اليمن أو الصومال، وتدريبوا هناك ثم عادوا سرىا جاهزين للعمل الإرهابي على الأراضي الفرنسية¹. و الجماعات المتطرفة القادمة من الجزائر عن طريق المغرب وإسبانيا إلى ترابها. ضاعفت هذه الخلايا العمياء من عملياتها ونجحت في تنفيذ مخططاتها ما أجبر الأمن على اليقظة الدائمة و الترقب الحذر"الخلايا الإيرانية النائمة من الفظاعة بما يكفي، وقد أحصينا مجموعات كبيرة، لقد اغتالوا الكثير من المسؤولين السياسيين المنفيين²، كما طورت سياساتها وتأقلمت مع الأوضاع فأبدعت في إجرامها" الخلايا الإرهابية الإيرانية لاكمي، وقاعدة المغرب العربي، من أكثر الخلايا نشاطا على أرضنا، لأنها مرتبطة بشكل مباشر مع القيادات العليا، وتملك حرية التصرف في الوقت المناسب دون الرجوع إلى الأوامر العليا.³

عيون الأمن العالمي مفتوحة، وجهودهم الحثيثة في القضاء عليها متزايدة والتنسيق و التعاون بين السلطات الأمنية الجزائرية والفرنسية متواصل، لقد وصل هذه الأخيرة أن مجموعات إرهابية تضم نساء غادرت الجزائر عن طريق المغرب و إسبانيا و تتواجد حاليا في فرنسا، وهي تخطط للقيام بعمليات تفجيرية، " تم الكشف عن ثلاث خلايا إسلامية نائمة، في حوزتها أسلحة و أسماء كثيرة و خطط، من بينها واحدة تخص تنفيذ عملية شاتلي، التي تم إحباطها البارحة، كما تم العثور على وثيقة في شكل بيان يبدو أنه وزع في دوائر ضيقة.⁴

من جهة أخرى، ساعد الفضاء السيبراني في عولمة الإرهاب وانتشاره السريع عالميا، باعتباره أحد صور الإرهاب الجديدة، فتفاعل العارفين بعالم المعلومات أو الجماعات

¹ - المصدر السابق، ص ص 378-379

² - المصدر نفسه، ص 210.

³ - المصدر نفسه، ص 210.

⁴ - المصدر نفسه، ص 370.

الفضائية عبر شبكة الانترنت، وارتباطهم إلكترونيا يثير جملة من التساؤلات و المخاوف حول طبيعة العلاقة بينهم و موضوعات اهتمامهم، وحول الآثار النفسية و الاجتماعية المترتبة عن الدخول إلى هذه العوالم، فهناك خطر مراقبتهم و ضبط عقولهم و التحكم فيهم وإخضاعهم، بنشر قيم و رموز و سلوكيات وأفكار هدامة.

لقد استحدثت ثورة المعلومات ووسائل الاتصالات الحديثة أنواعا جديدة من الجريمة تقوم على أسس تقنية، تعرف بالجريمة عبر الفضاء التخليقي، تجلت صورها في خرق الخصوصية الشخصية عن طريق التجسس والتنصت على المكالمات والاتصالات، والتعرض للهجمات الفيروسية التي تهدد الأمن الشخصي والمؤسساتي، والتلاعب بالحسابات واختلاس الأرصدة المالية الفردية والمؤسساتية، ونشر المضامين ذات المحتوى الجنسي أو العنصري، و تبييض الأموال إلكترونيا وإخفاء هوية أصحابها، والدعاية للخدمات المزيفة والمشروعات الوهمية، فضلا عن الترويج للإرهاب الإلكتروني، الذي اكتسب قوته من توظيفه للتطبيقات التكنولوجية، والمواقع الإلكترونية، وغرف الدردشة، والمنتديات، والمدونات، والشبكات الاجتماعية، والهواتف الذكية، والتقنيات الرقمية كالحاسب الآلي، و الشبكة المعلوماتية، بهدف إخضاع الآخرين و تهديدهم، سواء كانوا أفرادا أو جماعات أو مؤسسات، أو بهدف مهاجمة الأنظمة المعلوماتية على خلفيات سياسية أو دينية أو عرقية، لتحقيق غايات إرهابية.

وعليه يصح القول أن الحركات الإرهابية هي وليدة العولمة الرأسمالية التقنية "فلولا الهيمنة الاقتصادية والسياسية و التقنية لغرب معين، لما أتاحت لأي حركة إرهابية فرصة الوجود عالميا، وهي في معارضتها وهجومها على هذا الغرب تتمثله و تستوعب أدواته و تستخدمها وفق هذا وذاك، و تعيد إنتاج مبادئه وأوليائه"¹. ويعزى تضاعف وجودها

¹ - جاك دريدا: ماذا حدث بعد حدث 11 ديسمبر، مرجع سابق، ص 28.

وتصاعد ضغطها واستفحال خطرها إلى العولمة الإعلامية و التقنية، فكما ارتقت آليات التكنولوجيا اتسعت معها سيرورة العولمة وآلياتها، ورافق ذلك انتشارا واسعا في عمل الجماعات والتنظيمات الإرهابية، التي استطاعت كأطراف فاعلة وبديلا للدولة، التحكم في مخرجات التكنولوجيا الإعلامية، وتوظيفها في عمليات الدعاية و التجنيد و الترهيب أكثر من أي وقت مضى "إن عولمة نظم الاتصال، وهي من نتائج العولمة بصورة عامة، إن لم تكن من أسبابها أيضا قد أسهمت في تيسير الأنشطة الإجرامية و زيادة مخاطرها على جميع المجتمعات ولا سيما في العالم الصناعي، كما أنها زادت من الأعباء الملقاة على عاتق الجهات و المؤسسات المعنية للسيطرة على مخاطرها"¹. خاصة حين استخدمت الدين كأداة للتحرير. وهو فعل لا يمكن فصله عن السياق التاريخي والاجتماعي وعن المصالح و الحاجات. إنه ورقة قديمة أعيد توظيفها، وهو حاليا قوة ضاغطة على المشهد السياسي العالمي، اتخذت شكلا جديدا إثر استغلالها للتكنولوجيا والإنجازات التقنو - علمية، وتحالفها مع نظام الاتصالات العالمي المعولم و الآلة "إن الطفرة التكنولوجية والعلمية منحنا التطرف الديني شكلا جديدا يتماشى مع العولمة، أصبح ذا طابع ماكيني machinie آلة رغائية " تحركها التكنولوجيا"²..

سؤال الإرهاب سؤال سياسي بامتياز، يتشكل جوابه حسب موازين القوة والنظام العالمي الذي يرتبط بوشائج وثيقة الصلة بالخطاب السياسي المهيمن على المشهد الدول وبالقانون الدولي و المؤسسات الدبلوماسية، وبوسائل الإعلام و بأكبر قوة تقنية علمية رأسمالية وعسكرية"³. إنه تشكيل لسيرورة العولمة في شقها السياسي والاقتصادي و الثقافي والإلكتروني، ومناخ مواتٍ لتضخم موجات التطرف بكل أطيافه والعنف والإرهاب العالمي،

¹- أنتوني غدنز: علم الاجتماع، مرجع سابق، ص304.

² - محمد بكاي: أرخبيلات مابعد الحداثة، رهانات الذات الإنسانية، من سطوة الانغلاق إلى إقرار الانعتاق، مكتبة مؤمن قريش، ط1، لبنان، 2017، ص177.

³- جاك دريدا: ماذا حدث بعد حدث 11 سبتمبر، مرجع سابق، ص56.

خاصة في البلاد العربية و الإسلامية و المناطق السوداء التي سقطت في أيدي الجماعات المسلحة، أين غدا موضوع الحرب عليها محركا مركزيا، لحدوث الأزمات و الصراعات، بتوجيه من الإدارة الأمريكية وحلفاؤها. والحقيقة المخفية أنها تسهر على تغذية هذه المنظمات الإرهابية و دعم البؤر الحاضنة لها والمنتجة لبذورها، وتسخرها لخدمة مصالحها و أجندتها السياسية، و تدعي في الوقت ذاته محاربتها والسعي لاجتثاثها واستئصال شوكتها.

قلعة أميروبا شاهد على ذلك، لقد تحالف ضباطها الكبار مع الإرهاب لتدعيم قوتهم وإحكام سيطرتهم على المنطقة العربية وأجزاء كثيرة من العالم ضمانا لمركزيتهم و تفوقهم، وكوّنوا مزيجا من العرب والأوروبيين سموه فرق العقارب الصفراء، مهمتها صيد الجثث لحظة سقوطها في الحروب وأخذها إلى مستشفى القلعة، أين يتخذ بشأنها القرار دون الرجوع إلى الموافقة العسكرية. الأمر تجاوز الموتى إلى الأحياء الضائعين الجائعين الذين يتم تضليلهم بحجة أنهم مرضى أو جرحى، ثم يتم بتر أعضائهم للمتاجرة بها، صفقات مجنونة بمبالغ خرافية تتم في القلعة على مرأى ومسمع السلطات " يقال أن الكوربو نفسه هو المشرف على هذا التجمع السري الذي يدر على التنظيم ما لا كثيرا"¹، وأن " الكثير ممن يعرف المنطقة يؤكدون أنه هو أيضا من أشرف على بيع النفط في بعض مناطق أرابيا التي يسيطر عليها المتعاملين الغربيين الخواص الذين يصمتون عليه لمصلحتهم معه، كثيرا ما شوهدت عشرات الصهاريج الصفراء وهي تقطع الصحاري مثل سير الجراد و لا طائرة واحدة تقصفها مع أن المنطقة مراقبة كليا."²، فالمصلحة والحكمة تقضيان حمايته إلى حين يحين أجل التخلص منه.

¹-واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص371.

²- المصدر نفسه، ص 372.

وتؤكد الجماعات الدموية الناشطة في العالم العربي و الإسلامي أن حربها ضد الولايات المتحدة وشركائها، إنما هو بدافع مقاومة العولمة الإمبريالية وقيم الحداثة، فلا يخفى أن اللقاءات بين عالمي الغرب والشرق وسمت في غالبها بسمة التصادم العنيف وفق قاعدة الغالب و المغلوب، كاشفة عن الوجه الإمبريالي القبيح للغرب، الذي لم يكف عن ممارسة العنف و الاضطهاد و القهر في حق الشعوب الضعيفة، في محاولة لمحقتها واستئصالها من الوجود "إنه غرب الاجتثاث التاريخي و الثقافي الذي دخل البلاد العربية ناهبا الأرض، هاتكا للعرض، سالبا للهوية، مستخدما كل الوسائل، متجبرا بآلته العسكرية الرهيبة"¹. و"لقد آذت العولمة الإسلاميين، بنجاحاتها الهائلة في قلب موازين القوى المختل أصلا بين عالم الإسلام و الغرب إيذاء لا نظير له، فقد استباحت أوطانهم (أفغانستان العراق سوريا ثم ليبيا) بالقوة المسلحة العمياء، واخترقت المنظومات القيمة لمجتمعاتهم، و أشعرتهم انتصاراتها بدونية العالم الاجتماعي و الثقافي الذي ينتمون إليه، لكنها - في الوقت عينه- فتحت أمامهم إمكانات مذهلة لتطوير منظومات عملهم الحركي و التنظيمي، وسبل التواصل بينهم"²، والاستفادة من مكتسباتها العلمية والتقنية و الإعلامية، لتنظيم تلك الهجمات عالية الحبكة و المهارة على رموز العظمة الأمريكية (المال و الجيش) في عقر دارها.³

وفي حربهم على أعدائهم سلكوا منطق المعاملة بالمثل فتشبعوا بأفكار متطرفة، وبأيديولوجية عقدية فكرية ودوافع سياسية، رأت في الآخر المختلف عقائديا عدوا لدودا يجب سحقه "ستعرف جديتي، عندما نحرق قاعدة اليهود و المسيحيين و المسلمين الكفرة،

¹ - جمال مبارك: الغرب في الرواية العربية الحديثة، بحث مقدم لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الأدب العربي الحديث، إشراف الدكتور : الطيب بودرياله، جامعة الحاج لخضر باتنة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية وآدابها، 2008-2009، ص 86.

² - محمد ذويب: إرهاب العولمة وعولمة الإرهاب، الحوار المتمدن، 8/1/2015، org.alhewar.m.asp.s

³ - المرجع نفسه.

ستحرقون فيها كالجرذان"¹، ويحضر سيف المكنى بالكوربو نموذجاً للإرهابي الحاذق، الذي طوع وسائل الاتصال والإعلام لخدمة أغراضه الإرهابية، بتضمين الفيديوهات جرعات زائدة من التحفيز على القتال باسم الوطنية و الدين، باستخدام تكنولوجيا فائقة الجودة صورة وصوتاً، وباستحضار كل الرموز النفسية و الدينية والاجتماعية لشحن المخاطب و التأثير فيه. كما احتل عدداً من المواقع الاجتماعية في الفيسبوك، وتمكن من اختراق صفحات كثير من قادة قلعة أميروبا العسكريين، عش القراصنة وحصن الكفر كما يسميه "والذي يجب أن يحطم نهائياً و يمسح من على الأرض بحيث لن تقوم له قائمة، وتحطم كل الأصنام التي شيدها داخله الفاسقون و القتلة، وحرقت عظام الأموات وكل ما يعثر عليه داخل عش القراصنة، الذي ليس إلا قاعدة للكفر والملحدين"².

ويبدو أن العنف الصادر عن سيف، والمدعوم "بأيديولوجيات عرقية ومذهبية متعصبة هو الأخطر، فالجماعات تمارسه بوصفه حقاً مقدساً ومسؤولية أخلاقية لتقرير مصيرها و تعديل أوضاعها، واستعادة حقوقها، فيأخذ طابع الانتقام والثأر، ويكون بشعاً ولا يقف عند حد ما"³. وللأسف جعل التنظيم من الإسلام واجهة لتحليل جرائمه، فأفقدته كل مبرراته الإنسانية، وأصبح "معروفاً بتوقيعاته على أجساد الضحايا وبوضع علامة الصليب على صدر المقتول و الكتابة تحتها: التنظيم وآية قرآنية ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ رِبَاطُومِنْ أَلْحِيلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ

¹-واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص321.

²-المصدر نفسه، ص ص266-267.

³-عبد الله إبراهيم: المحاورات السردية، مرجع سابق، ص182.

وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ ﴿٦﴾*¹، و تفنن في صور الجريمة، من القتل شنقا أو بالحرق

أو بالطحن إلى التفجيرات الانتحارية، فراح ضحيته الآلاف من المدنيين العزل.

لكن الغريب أن الإرهاب الذي عولم لم يصل يوما إلى الأراضي الصهيونية ف" رغم تدويل وعولمة ظاهرة الإرهاب، يبدو أن فلسطين المحتلة بعيدة عن جدول أعمال جهاد هؤلاء الإسلاميين، أليس ذلك بأثر من محالفتهم أمريكا التي تضع لهم الخطوط الحمراء الممنوع انتهاكها، مثلما ترشدتهم إلى الديار الواجب الجهاد فيها؟ الواضح أن العولمة والإرهاب نقيضان في الظاهر، متآخيان في العمق"². وهو ما يفسر انحياز الإدارة الأمريكية التي ربطت مفهوم الإرهاب بالحركات السياسية الجهادية الإسلامية وبالفضائل المقاومة للاحتلال الإسرائيلي، متجاهلة مصادر الإرهاب الأخرى. لذلك ينبغي التفريق بين الإرهاب الدموي الذي يستهدف المدنيين العزل و المقاومة المشروعة التي تسعى إلى التحرير، فما تقوم به الجماعات المقاومة ليس إرهابا، بل هو مقاومة مشروعة و حق طبيعي لتحرير الأوطان واسترداد الحرية والكرامة الإنسانية، بعد أن استنفذت كل الأساليب القانونية وأشكال المواجهة السلمية أمام التعنت الإسرائيلي الأمريكي و الصمت العالمي المحجف.

مما سبق، نخلص إلى:

- بين الإرهاب والعولمة صلة وطيدة، إنها نموذج للحرب الإجرامية ضد الإنسان، سواء كانت ناعمة أم دموية، وكلاهما يتماهى في استخدام الوسائل اللاأخلاقية لبلوغ

¹-واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص163.

*سورة الأنفال، الآية60.

²- محمد ذويب: إرهاب العولمة وعولمة الإرهاب، مرجع سابق، ص105.

المصالح. وكما أن العولمة خلقت الإرهاب وعمته، فهو بدوره فتح أمامها سبل الانتشار الشامل.

- تجد الأنظمة الشمولية الدكتاتورية القمعية في تصنيع الإرهاب، ومن ثم مكافحته ضالتها لنشر مزيد من القمع و التدخل في شؤون الدول، وتحوله إلى أداة فاعلة لعولمة سياستها الخارجية وأيديولوجيتها.

- للقضاء على الإرهاب، و"لكي نطفئ لهيب العنف ينبغي إطفاء جذوته، وذلك أمر صعب أو مستحيل في الوقت الحاضر، فالعلاقات بين الدول و الجماعات قائمة على فكرة الغلبة و القوة، وليس الحوار و الشراكة، ومادامت الأمور بهذه الصورة، فالمتوقع هو ازدياد أمواج العنف"¹، و للانتصار على الجماعات الإرهابية، يجب تجفيف منابع المال ثم السيطرة على الجانب الإعلامي، لأنه مسألة ضرورية.

- لا اختلاف في أن الإرهاب معضلة عولمية، يتحرك في فضاءات العولمة بكل أبعادها وآلياتها، لكن هناك إصرار على ربطه بالإسلام. وعليه: ألا يحق لنا التساؤل: لماذا يتنامى الإرهاب في العالمين العربي والإسلامي، ولماذا يوصف الإسلام بأنه دين الإرهاب؟

المطلب الرابع: الداء الأصولي و تفكك الذات.

لاشك في أن نظريات الحداثة هي نظريات شمولية و مركزية، لذلك تعمل عولمة الحداثة على آليات لخلق تشابه كوني في السياسة والاقتصاد والثقافة الرأسمالية، وإيجاد أطر موحدة لحداثة محلية وكونية، و"تشكيل وضع عالمي جديد من خلال فرض نموذج ثقافي معين، يسعى لتفكيك وإعادة صياغة الهوية القومية، وينذر بمواجهة بين الثقافات

¹ - عبد الله إبراهيم: المحاورات السردية، مرجع سابق، ص182.

وصراع بين الحضارات، حيث تم النظر "إلى العولمة كنظرية، أي أنها تتم بوعي من جانب من يقوم بها، وتستهدف تحقيق أهداف معينة خطط لها سلفاً، أي أنها فعل وخلفها فاعل مؤثر يمتلك إمكانات القوة"¹، ويعمل على تفكيك الثقافات المحلية الوطنية، وخلق بؤر صراع و تطاحن داخلها.

فعالم اليوم "يشهد انقسامات سياسية و ثقافية تقف حاجزا منيعا أمام التجانس الثقافي، و قد أدى الصراع بين دول المركز إلى تغير الخارطة السياسية، وخارطة التحالفات العالمية، وإلى تصاعد الضغوط السياسية والاقتصادية على دول العالم الثالث، فارتفعت وتيرة الصراعات العرقية، وأصبحت الثقافة ساحة نزال أيديولوجي، ووقودا للصراعات داخل الدولة الواحدة، أو بين الدول التي سقطت في فخ الصراع الثقافي"².

وإنما ظهور الهامشي و الطائفية، جاء تعبيراً عن رفض للعولمة بمحتواها المستعار من التجربة الغربية، والذي تحول إلى عقيدة مغلقة تقوم على فكرة العدوان والإقصاء والاستحواذ. فكثير من نزعات الانفصال والطائفية هي نوع من المقاومة الذاتية ضد الذوبان والتلاشي، والدفاع عن الخصوصية، بإحياء الهوية المغلقة، تلك التتويجات الثقافية التي تظهر " في تصنيف الناس لأنفسهم، وتقسيم انتماءاتهم وولاءاته في صيغ ذهنية ومفاهيمية، تجمع خلاصة تصورهم لموقعهم في الوجود ووظيفتهم في الحياة، بما أنها نظام حماية ونظام سلوك"³.

¹ عبد الغني عماد: سوسيولوجيا الثقافة، المفاهيم والإشكالية، مرجع سابق، ص 73.

² السيد يسين: الكونية والأصولية وما بعد الحداثة، أسئلة القرن الحادي والعشرين، نقد العقل التقليدي، ج1، المكتبة الأكاديمية، ط1، القاهرة، مصر، 1997، ص208.

³ عبد الله إبراهيم: المطابقة والاختلاف المركزية الغربية اشكالية التكون المتمركز حول الذات، مرجع سابق، ص 32-33.

و برنامج العولمة السافر" هو نفسه حامل النقيض في ظهور كل الهامشيات، بدء من أمريكا مع السود وجماعة النساء، وكل الأقليات العرقية و العنصرية و الجنوسية، وامتدادا لأوروبا، حيث تظهر الهوامش وتعبّر عن نفسها، وتتفصل في كيانات سياسية وعرقية كما في البلقان، وفي الشرق ظهرت الطائفيات و المذهبيات، وهي كلها صيغ تنمو من تحت عباءة العولمة، وستبدو العولمة هنا و كأنها ضرب من الكوميديا السوداء، حيث يحبل الشيء بنقيضه ويبشر بعكس ما يعد¹. و يعزى سبب انبثاقها في مثل هذه الظروف إلى يقينها بحتمية " التحصين ضد ما يجري، وهي علامة من علامات الحصانة الذاتية، و ضد ما يبدو و كأنه تهديد للجسم الذاتي والخاص *corps propre*، أو الجسم الثقافي أو الحضاري أو اللغوي أو الديني، أي ضد كل ما يهدد الخصوصية و ينال من التفرد و ينقص الذات *ipséité* و ينتقص منها"²، لأن العلاقات مع الآخر الخطر، تتغير في حالة الأزمات و كذلك ردود الأفعال.

وبموجب هذه الظروف، صارت الهوية المتباينة والمتعددة أهم ملامح الخطابات المعاصرة، و سمة مميزة لعصر ما بعد الحداثة، أين " فشلت الحداثة في عودها بتحقيق الحرية و الانعتاق الفردي و الجمعي، و خلق وعي جديد في تعريف الذات يعنى بالبحث في الجذور والأصول، و بإخفاقها برز الهامشي المابعد حداثي، واتخذت الهوية معنى ثقافيا جديدا مصطلحا و معنى، " هو مفهوم الهوية الذي جاء ليقسم الواحد إلى فرقاء، وليصنع تمييزات لغوية عرقية ومعتقدية، تكونت في سيرورة طويلة من سلوك البشر و معتقداتهم، حيث التنوع يفضي إلى التميز وليس إلى المنافسة، والتعارف ينتهي بالتناكر و ليس التآلف"³. ففي كل الثقافات تتحول الثوابت والسمات اللغوية والعرقية والدينية إلى نوع من

¹- عبد الله الغدامي: القبيلة والقبائلية أو هويات مابعد الحداثة، مرجع سابق، ص 69.

²- جاك دريدا: ماذا حدث بعد حدث 11 ديسمبر، مرجع سابق، ص 15.

³- ينظر: عبد الله الغدامي: القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة، ص 47.

التمايز، ترتفع به الجماعة البشرية عن غيرها، و" تعطي للإنسان معنى يشرح دلالات حياته، وحينما يتحول معنى الهوية إلى رصيد من التجارب المتوارثة إلى درجة تصبح معها الأسماء والألسنة والثقافة مادة لتمييز شخص عن شخص، ثم تصبح مادة أخطر لضمائر من ضمائر الذات أي نحن و هم، وإن كانت الخصائص الذاتية أساسا لتمييز الشخص من اسمه ولغته و لونه، فهي أيضا مادة لفرزه عن الآخرين المختلفين معه مثلما هي مادة لجذبه لمن هم على شاكلته"¹.

فالأكد أن الدول لا تستطيع أن تفتقر إلى هوية "فهويتها الثقافية تحدد مكانها في السياسة الدولية، وتحدد أصدقائها وأعدائها، وبالتالي فأكثر الاختلافات أهمية بين الشعوب لم تعد أيديولوجية ولا سياسية أو اقتصادية، إنما ثقافية أو تراثية، وإن الشعوب و الدول تحاول الإجابة عن أكثر الأسئلة أهمية، من نحن ؟ وهم يجيبون عن ذلك بالطريقة التقليدية التي استعملتها الكائنات البشرية في الماضي، من خلال الإشارة إلى الأشياء التي لها أكبر معنى بالنسبة إليهم، وهي تفهم نفسها وتعرف نفسها في شكل النسب العرقي، الديانة، اللغة، التاريخ، القيم، العادات، المؤسسات، إنهم يتماثلون مع الجماعات الثقافية والقبلية والجماعات العرقية والدينية، وفي أوسع المعاني الحضارات"².

هي الفكرة ذاتها التي أكد عليها صامويل هنتنغتون (Samuel Huntington) في نظرية "صدام الحضارات" التي ظهرت عام 1993، نقدا لنظرية "نهاية التاريخ" للمفكر الياباني فرانسيس فوكوياما (Francis Fukuyama) و تقنيدا لآرائه، افترض فيها أن السياسة العالمية يعاد تشكيلها وفق الحدود الثقافية، وأن "الشعوب و الدول ذات الثقافات المشتركة تأخذ في الالتقاء، و الشعوب و الدول ذات الثقافات المتباعدة تأخذ في التباعد، و التحيزات المتحددة بالأيديولوجيا وعلاقات القوى العظمى تترك طريقها لتحيزات متحددة

¹- ينظر: المرجع السابق، ص50.

²- عبد الغني عماد: سوسيولوجيا الثقافة، المفاهيم والإشكالية، مرجع سابق، ص252.

بالثقافة و الحضارة، وأن الحدود السياسية بدأ يعاد رسمها بشكل متزايد لكي تتوافق مع الحدود الثقافية، العرقية، و الدينية، والحضارية، والالتزامات الثقافية آخذة في أن تحل محل كتل الحرب الباردة¹، وترتكز الأطروحة على فرضية أساسية، مفادها " أن الثقافة أو الهوية الثقافية، التي هي في أوسع معانيها الهوية الحضارية، هي التي تشكل نماذج التماسك و التفكك والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة، واستنادا إلى ذلك، يعتبر أن أكثر الصراعات انتشارا، وأهمية وخطورة لن تكون بين طبقات اجتماعية غنية أو فقيرة، أو جماعات أخرى محددة على أسس اقتصادية، ولكن بين شعوب تنتمي إلى هويات مختلفة".² فتاريخ الصراعات في العالم يخبرنا أن الهوية اتخذت ولا تزال أداة ووقودا لتأجيج النزاعات والصراعات، والحركات الاستعمارية نموذج لذلك، كونها أيقظت الإحساس بها لدى الشعوب المستعمرة، التي انطلقت تتأفح عنها وتقف ضد كل أشكال العنف و المحو و الإقصاء.

و أكد فيها أن الصراع الحضاري مستمر مع تغير أطرافه و محتواه، وأن النظم الحضارية والثقافية والدينية ستكون هي المحرك الأساسي و الوقود المغذي له، لأن الهوية الثقافية هي ما يشكل نماذج التفكك أو التماسك في عالم ما بعد الحرب الباردة، والدفاع عن الأصالة و الهوية معركة لا تزال الشعوب تعيشها.

فالمأمل في الواقع، يلحظ نسبيا تحقق ما افترضه هنتنغتون، فموجات المقاومة الثقافية قد ظهرت بوضوح أكبر في المجتمعات التي أدركت حدود هويتها وحرمتها الثقافية، فهبت تدافع عنها، ولكن "لا ينبغي أن يقر في الأذهان أن العملية الكونية التي يتعمق مجراها كل يوم هي العملية الوحيدة التي تميز هذه المرحلة التاريخية، بل إن هناك

¹-صاموئيل هنتنغتون: صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي، تر: مالك عبيد أبوشهيو ومحمود مجد خلف،

دار الجماهيرية للنشر، ط1، الجماهيرية العربية الليبية، 1999، ص237

²-عبد الغني عماد: سوسيولوجيا الثقافة، المفاهيم والإشكالية، مرجع سابق، ص251.

عملية مضادة لها تصارعها، وهي عملية التفكك والتشردم الذي تشهده بعض الأقطار، وما الثورة العرقية التي نشهد تجلياتها كل يوم، والتي تظهر في حركات الانفصال عن الدول المركزية، أو في مظاهر التمسك أو التعصب للذات الثقافية إلا علامات بارزة عن هذه العملية¹. فالمجتمعات والشعوب تعتصم بثقافتها وقيمها لحماية خصوصيتها الذاتية، وتنقطع عن جملة التحولات الدائرة في العالم، ويحل الرفض بدل القبول والخوف بدل الأمان و الشك بدل اليقين والطمأنينة، وتتدلج الصراعات الثقافية موازاة مع الصراعات العسكرية و السياسية و الاقتصادية.

فعودة الأصوليات وظهور الهوامش كإفراز جانبي لمرحلة العولمة وما بعد الحداثة، جاء دفاعا عن الذات ضد الخطر المهدد للرمزية الثقافية التي تشكلت عبر العصور، واستجابة للتحديات " وهي تحديات تجمع الاقتصادي مع السياسي مع الثقافي، وتعيد على كل فرد صغيرا أم كبيرا أسئلة تتعلق بموقعه الكوني وموقع ثقافته، حتى صار يدافع عن تاريخه مثلما يدافع عن نفسه، ويدافع عن ثقافته مثلما يدافع عن وطنه، ويبحث عن رمزيته مثلما يبحث عن قوت يومه، وهذا ليس خيارا وليس ترفا ولكنها كلها أسئلة حول الذات و الوجود والمعنى"². وتكمن قيمتها في أنها "متصور ثقافي تشترك فيه جماعة من الناس ترى أن خصائصها الثقافية تفرقها عن جماعة أخرى تجاوزها أو تحتك بها، و يحدث التمييز بين الأطراف بناء على الخصائص المعتمدة عند كل فريق، و يزداد التمايز كلما تقوّت الفروق، ومن الممكن أخذ هذا على أنه هوية اجتماعية تتأسس على الاختلاف بين النحن و الآخر، أي أنها انتساب ذاتي مبني على متصور مجازي يفعل

¹- السيد يسين: الكونية والأصولية و ما بعد الحداثة، مرجع سابق، ص208.

²- ينظر: عبد الله الغدامي: القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة، مرجع سابق، ص52-53.

مفعولية الروابط في النسب"¹، وهذا التصور لا يمكن إلغاؤه أو تجاوزه، لأنه يؤسس لرؤية الجماعة لنفسها فكريا وسلوكيا ولرؤيتها للآخرين.

السعي إلى تحويل العالم بأكمله إلى حقل جيو استراتيجي هدف رئيس للعولمة، يتعين فيه وزن الدول الفاعلة من منطق قدرتها على الاحتفاظ بقوتها في صنع القرارات، في حين تحرم الدول الضعيفة من التأثير سواء إقليميا أو عالميا. ولضمان تحقيقه، ابتدعت الولايات المتحدة القطب المركزي فكرة الإرهاب الإسلامي، وسعت إلى تنفيذ مشروع الشرق الأوسط الكبير، وعملت على إضعاف الدول الإسلامية و تفكيكها إلى دويلات صغيرة يسهل سحقها، مركزة على الاختلافات بين شعوبها خاصة الثقافية والدينية منها، يقينا منها أن الأديان عنصر أساسي في البناء الثقافي، وهي ما يؤجج النزاعات الدولية، التي ما تلبث تصير صراعات ثم صدامات. وستغدو هذه الخطوط الفاصلة بينها دوافع لمعارك مستقبلية تمهد لشكل جديد من أشكال النزاع، تقود أطرافه حضارات معينة حددها هنتنغتون وهي: الحضارة الغربية و الحضارة الإسلامية و الحضارة الصينية الكنفوشيوسية و الحضارة الهندية، إضافة إلى الحضارات الأفريقية و اليابانية و الهندية والسلافية الأرثوذكسية وأخيرا حضارة أمريكا اللاتينية، فكلها تطمح إلى القيام بدور فعال في إدارة شؤون العالم.

عمليا وعلى أرض الواقع، أصبحت المنطقة العربية مسرحا للحرب ضد الإرهاب، وهي حرب أقحمت فيها الحكومات والشعوب العربية وتحتم عليها خوضها، ووجدت نفسها في مواجهة مشروع الهيمنة الغربية والتكتلات الدولية الكبرى، وعرضة للتدخل السافر في شؤونها الخاصة من قبل أجندة العولمة الأمريكية، بحكم ما تمتاز به من مقومات " أولا من حيث وقوعها الجيوسياسي الاستراتيجي (...)، وثانيا من حيث هي مصدر لأهم

¹- عبد الله إبراهيم: المطابقة والاختلاف، مرجع سابق، ص 41.

احتياطات الطاقة وذات قيمة إستراتيجية كبرى في التنافس (...)، وثالثا من حيث هي بؤرة توتر دائمة ومستمرة بدأت تشكل تهديدا خطيرا للأمن الأمريكي والأطلسي عموما (...)، ورابعا من حيث هي مصدر خطير لتطوير الأسلحة النووية والكيميائية و البيولوجية (...)، وخامسا من حيث هي مجموعة من البلدان التي تفتقر إلى حياة سياسية و اقتصادية مستقرة.¹

وبعد هجمات 11 سبتمبر، فقد العالم العربي سيطرته على أراضيه وشؤونه الأمنية، و تحول إلى منطقة تمركز لنفوذ القوى الأطلسية، بطرح مشروع الشرق الأوسط الذي يهدف إلى إعادة بناء المنطقة العربية حسب أجندة العولمة، وشهد " خروجاً تبعياً وإكراهياً معاً مفروضاً بالقوة السياسية والعسكرية، كان من نتيجته تعريض المجتمعات للحروب والنزاعات الدموية، وانتزاع سيادة البلدان الفردية و إلحاقها بنظام من الهيمنة الدولية يستجيب لمصالح السيطرة الخارجية. فبقدر ما أخفقت البلدان العربية في التكيف إرادياً مع حاجات العولمة الإستراتيجية، وجدت نفسها ضحية الاستراتيجيات البديلة أو المناوئة التي استخدمت معطيات العولمة ذاتها، وحاجاتها من أجل فرض إعادة تركيب المنطقة من وجهة مصالحها الخاصة فحسب."²

وكان لابد من تقسيم المنطقة باعتبارها مزيجاً من أقليات أثنوية و دينية على أساس طائفي و قومي، وعلى أساس أجناس و مذاهب و أصول، ليستمر الصراع بينها فيسهل إخضاعها. فالأهم هو زعزعة الهوية القومية وتلقيحها بالضربات من الهويات العرقية " إن الوطن العربي يجب أن يصبح المنطقة (كما يشار إليه في الكتابات الصهيونية و الغربية)

¹ - برهان غليون: "العولمة وأثرها على المجتمعات العربية"، ورقة مقدمة إلى اجتماع خبراء اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا حول تأثير العولمة على الوضع الاجتماعي في المنطقة العربية، 19-21 ديسمبر 2005، بيروت، ص 27.

² - المرجع نفسه، ص 13.

رقعة بلا تاريخ ولا ذاكرة و لا هوية ولا مصالح مستقلة، و يجب أن تتركس سياسة المصلحة الضيقة لكل دولة، و كذلك أمنها و استقرارها و تتميتها، ونسيان شيء اسمه المصلحة العربية العليا أو الإسلامية العليا، أو الأمن العربي و الإسلامي و السوق العربية المشتركة"¹.

وأفضت العملية إلى دخول غالبية العالم العربي في صراع قبلي وعرقي وعقائدي، وفي عمليات إفناء طائفي. حالة التفكك طالت كل البلاد العربية لتتحول إلى دويلات لا شيء يربط بينها سوى الأحقاد والكراهية العرقية اللغوية والأثنية، وصارت دويلات هشة رخوة عاجزة عن الدفاع عن نفسها ومواجهة التحديات الداخلية والخارجية، رهينة بيد قوى طائفية أو قبلية وحتى إرهابية، محاصرة ومختزقة خارجيا و داخليا، ما سهل على الدول الأجنبية تنفيذ مخططاتها وأجندتها ضدها "هناك أمم لا تصبح مفيدة إلا عندما تتحول إلى رماد، نحن من يمنحها النار و فرصة التحول إلى رماد قبل الدخول إلى تاريخ ظلت على حوافه."². آرابيا اليوم ممزقة لا يحكمها أي نظام خصوصا بعد انهيار مكوناتها الجمعية الأثنية واللغوية والدينية و الثقافية "الجسد الآرابي كله أصبح حطبا لحروب لا علاقة له بها، لكنه يدفع ثمنها بمزيد من الغرق والتخلف. شعارات الحركات المتطرفة من الموت وبالموت وفي الموت وإلى الموت، لا حياة من ورائها. في أقل من نصف قرن مات أكثر من مائة مليون عربي بالقتل الإرهابي على المستوى الواسع أو بسلاح الغرب الجديد، الذي كثيرا ما يحرق مدنا بكاملها في مطاردة إرهابي واحد، يتضح في النهاية أنه لم يكن المقصود، والباقي تقتله اليوم الصراعات القبلية والعرقية"³، لقد تحقق المطلوب، أن تكون

¹ - عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، مرجع سابق، ص223.

² - واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص91.

³ - المصدر نفسه ، ص ص271-272.

البلاد العربية بلدا عاجزا متأكلا داخليا، يجزأ فيه الجزء إلى أجزاء، ويشل بعضه بعضا، لا نهضة له إلا بعد عشرات السنين إن لم تجهض داخليا.

لقد دخل العالم العربي عصر العولمة دون استعدادات كافية و دون خطط وطنية أو إقليمية مدروسة، تمكنه من الصمود أمام مخاطرها وتحدياتها المتزايدة. وأمام ضغوطها المتراكمة تخلخت بنياته و تقلص هامش الاستقلالية و المبادرة الحرة فيه، ما أدى إلى تصدع كتله، و تقاوم أزماته السياسية و الاجتماعية والثقافية و الاقتصادية أيضا. " فبقدر ما ينجم التفكك العربي الراهن عن ضغوط خارجية و يرتبط بأجندة الصراعات الدولية، فإنه لا ينتهي إلى تركيب للنظم نفسها على ضوء معايير العولمة الجديدة، بقدر ما يقود إلى تعميق أزمة المجتمعات العربية، و دفعها بشكل متزايد نحو التخبط و الضياع و الفوضى".¹، وما كان لتقدم مسيرة العولمة في المنطقة إلا أن زادت في تفجير الأزمة و تهديد التوازن، و تعميق الفجوات و النقائص و التناقضات الموجودة سابقا، منطلقا من فكرة "أن العدو إذا أردت أن تدمره إما أن تمحوه أو ترجعه إلى بدائته الأولى، البدائية فيها متعة أن ترى البدائي يقتل أخاه على لقمة خبز أو الاستيلاء على أرض لا تتجب إلا الرمال والرّماد، أو يقاتله من أجل مصلحة ميتة"².

هي ثورات الربيع العربي، التي هزت أبنيتها السياسة والعسكرية والسيكولوجية والاجتماعية، وخلقت من المآسي و الفتن والنعرات الطائفية الكثير، العراق، سوريا، اليمن وليبيا هي أمثلة مباشرة عن الصراعات التي تديرها و تذكيها قوى ومعسكرات و جماعات إرهابية محلية و دولية تعمل وفق المبدأ " نحن مؤمنون بما نقوم به، ونمحو عند الضرورة كل من يخرج عنه، ونسحب نحونا ليس كل من يريد ذلك فقط، لكن من نرى فيه من

¹-برهان غليون: "العولمة وأثرها على المجتمعات العربية، مرجع سابق ص 02.

²-واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص 439.

نريده نحن"¹، " من ليس معنا فهو ليس ضدنا فقط، بل عدو يجب محاربته، يجب أن يمحي، لأنه خطر على مسيرة الإنسانية الجديدة التي نبنينا بكل ما نملك من نار وعقل"².

وللعوامل الخارجية الإقليمية والدولية دور بارز في تغذية الصراعات المذهبية و النزاعات العرقية و الجهوية، وفي نسج المغالطات التاريخية والثقافية بين الأغلبية والأقلية في المجتمعات العربية، و في إشاعة التوتر في البلد الواحد، لزعة وحدة الشعوب الثقافية واللغوية ومحاربة تراثها الديني وإرثها التاريخي، ذلك الصرح المنيع الذي حقق قوتها وعزها الماضي و صد أمواج الثقافة المعولمة " إن تحويل طبيعة الصراع من الذات مع الآخر إلى الذات مع نفسها، أو الذات مع عقيدتها، هو من باب مساع حثيثة من الآخر المتسلط في حجم ما يتوخاه اللاعبون السياسيون الكبار، الذين يسعون إلى إعادة تشكيل العالم بما يوافق مصالحهم وأمام حاجة القوة التي تمارسها الفوضى الخلاقة من صقور العنف الداعين إلى الحرب، تأكيدا منهم أن أي مكسب لن يتحقق إلا بخلق ثقافات الهويات الأخرى، بوصفها الفاعلية الأكثر نجاعة للنفعية والغاية الأسمى لتحقيق المصلحة على حساب المبادئ المتوارثة من السرديات الكبرى"³.

وللوصول إلى الهدف، قدمت الدول الإمبريالية الأورو أمريكية الدعم اللوجستي العسكري للأقليات العرقية والدينية المتناحرة، وحبكت المكائد السياسية، وزرعت الأحقاد والفتن بين فئات المجتمع لتعزيز بؤر الصراع، وتدعيم الانشقاق بين النظام والقوى المحلية المعارضة له، بغية إضعاف مناعة العالم العربي والإسلامي وتفتيت لحمته إلى تنويعات طائفية متناحرة، تتخذها حججا للتدخل في شؤونه الداخلية تحت ذريعة حفظ الأمن

¹-المصدر السابق ، ص204.

²-المصدر نفسه ، ص99.

³- عبد القادر فيدوج: تأويل المتخيل، السرد والأنساق الثقافية، ط1، صفحات للدراسات والنشر والتوزيع، 2019، ص40.

العالمي وحماية المصالح الخاصة، وعليه ستصبح "الحروب المقبلة داخل الدول وليس بينها، ولن تكون الحروب بين جيوش نظامية بالمعنى المعروف لدينا، وإنما بين مجموعات مختلفة من الجماعات المسلحة، ومن ثم فإن الفارق بين الجندي المنظم و الجندي المرتزق وعضو المافيا والميليشيا سيختفي، إذ ستظهر مجموعات عسكرية مختلفة تمثل القبائل والجماعات الأثنية والانتماءات الدينية والمصالح الاقتصادية (الشرعية والإجرامية)، أي أن الحروب في المستقبل ستكون مثل الحروب في العصور الوسطى في المجتمعات البدائية"¹.

تعتمد الثقافة باعتبارها هوية غير مكتملة على الدولة التي تمنحها الاكتمال و التحقق، فقديمًا أرست الثقافة بصفتها سياسة قاعدة الدولة - الأمة، لكنها تخلق اليوم بصفتها هوية، الاختلاف و التمايز و تطرح بصفتها المعولمة إشكاليات خطيرة"². ووجود هذه العلاقة بين الثقافة و السياسة هو ما يوجب الصراعات والحروب، خاصة في الدول ذات الثقافة المتعددة المحكوم عليها بالقلق و الاضطراب. إذ يحدث أن تتاجر السياسة بالهوية في أشد الأوقات أزمة، فتحتاج هذه الأخيرة إلى الاعتراف و التعزيز، ذلك أن الدول ذوات الأثنيات والطوائف المتباينة الهويات تنتهج سياسة توجيه الهوية، فتصهرها في هوية قومية واحدة على أساس التاريخ المشترك و اللغة و الدين، وتتجاهل الفروقات الجوهرية وخصوصيتها الثقافية.

كما استغلت العولمة حقيقة أن غالبية المجتمعات العربية لا تتأسس "على قواعد اللعبة الديمقراطية المفضية إلى التنافس السلمي لاكتساب السلطة، وإنما تقوم على فكرة التداخل المشوه بين الميدانين السياسي والاجتماعي، ومنه تتحول القبائل و العشائر

¹ - عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية و العلمانية الشاملة ، ص224.

² - اسماعيل مهناة: في تفكير الهجنة مع إدوارد سعيد، فتوحات مابعد الحداثة، ضمن كتاب إدوارد سعيد: الهجنة، السرد، الفضاء الامبراطوري، اشراف: اسماعيل مهناة، ط1، ابن النديم للنشر والتوزيع، 2013، ص ص 16 - 17.

و الطوائف إلى قوى سياسية عصبوية، وينفلت الصراع السياسي من كل الضوابط الأمنية، فاتحا المجال أمام خطر الانزلاق إلى التعبير عن نفسه في شكل نزاعات أهلية مسلحة"¹، في ظل فشل الدول العربية في إيجاد هوية وطنية مشتركة جامعة لكل الهويات الفرعية، واعترافها بالمجتمع المدني وحقه في التداول السلمي على السلطة. ففي داخل الكيان الثقافي الواحد الذي يعتقد أنه متجانس ومنسجم تعدد و اختلاف ثقافي واقع فيه يسكنه تاريخيا، و هو ميدان للخلاف و الاختلاف، وغالبا ما يوجد على مستوى الوطن الواحد هويات مختلفة لها درجات وعي متباينة، وكل مجتمع نظنه موحد الهوية هو في حقيقته مجمع هويات متعددة و متجاوزة، تسيطر فيه هوية ما تشترك مع غيرها في سمات ثقافية معينة.

إن المجتمع الذي توظف فيه العصبية والثقافة التراثية سياسيا، سيشهد لا محالة تآكلا في اللحمة الوطنية، لأنه مجتمع مثالي لإنتاج الفتن الطائفية فهناك أمم لا تملك قابلية الاستمرار في الزمن، فتقضي على نفسها بنفسها"²، وإن الاستمرار في نسج المغالطات التاريخية والثقافية بين مختلف الطوائف العرقية المكونة له قد عزز الولاء الطائفي والقبلي و العرقي، الذي يعرف بأنه " التعبير السياسي عن المجتمع العصبوي، الذي يعاني نقص الاندماج الذاتي و الانصهار، حيث تعيش الجماعات المختلفة بجوار بعضها البعض، لكنها تظل ضعيفة التبادل والتواصل فيما بينها (...). ليس فقط على الصعيد الموحد السياسي أو الأيديولوجي أو الاقتصادي، ولكن أيضا لكل إجماع على أي مستوى من مستويات البنية الاجتماعية."³

¹ - عبد القادر فيدوح: تأويل المتخيل، السرد والأنساق الثقافية، مرجع سابق، ص54.

² - واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص92.

³ - برهان غليون: المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات، ط3، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012، ص104.

ولعل "الأنايات السلطوية هي السبب الرئيس في هذه الحروب الأهلية والحراك الهائج، فجمود الفكر السياسي لحكام العرب وأطماعهم، وبؤس رؤيتهم وقصرها في رسم المسارات والمخارج الجديدة لتحدي الانقسامات، تؤكد الهشاشة الشرعية التي تستند عليها السلطة السياسية الحاكمة، وفشلها الذريع في خلق هوية موحدة، تشمل كل الكيانات القطرية العربية التي تعرف تناقضا ثقافيا وعرقيا واجتماعيا ودينيا ومذهبيا، وإدماجها حضاريا بحيث يحصل التعايش بين هذه الطوائف المتعددة، فتقبل بالآخر الحميم المختلف " آرابيا لم تمنح فرصة تأمل وضعها بسبب جنون حكامها وأطماعهم وإخفاقهم، كلما زادت الحروب كثافة والفقير توغلا، أصبح التفكك سريعا وكبيرا ومن الصعب التحكم فيه".¹

إن غياب العقل والحكمة السياسية، و غلبة الجنون ثم العدمية عجل بربيع الموت الذي مس كل دول آرابيا وأحرقها من داخلها " و خلقت هذه التمزقات مجتمعا غير متماسك ومهزوم من الداخل، يعيش بشكل قدر في الحاضنة الغربية الاستعمارية والمصلحية البحتة "²، إنها انقسامات متزايدة و انهيارات متتالية ومصير شديد السواد، تؤكد أن العالم العربي فقد سيطرته على مصيره الجمعي، وأنه سيمحي من الخارطة العالمية "داخل هيكل آرابيا، هناك أرابيات، شيعة وسنة ودرور و أرمن وأكراد و أمازيغ، لم تعترف لهم بأي حق، الباقي يقفون على أرض هشة "³، ضبابية قاتمة دفعت العربي إلى الركض من الدولة إلى الطائفة إلى القبيلة ثم إلى العائلة الكبيرة، باحثا عن ذاته وعن الأمان و الانتماء وسط دوامة من الخوف و الجوع و الفقر الشديد.

ومع الافتقار إلى السياسات الرشيدة والحلول الناجعة، تنفجر هذه الهويات المقموعة ويولد الإرهاب الذي لايزال يمتد ويتوسع في العالم أجمع و يضرب بقوة. وعندها "يكون

¹ - واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص148.

² - واسيني الأعرج: انهيار الدولة العربية والتفكك المتواتر، مجلة القدس العربي، 09/12/2015، ص94.

³ - واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص148.

عامل التفيت الداخلي الذي يواكب انتصار العنف على السلطة أو الثقافة المحلية واضحا بشكل خاص، حين يتم استخدام الإرهاب من أجل الحفاظ على الهيمنة، وإننا لنعلم كنه الانتصارات الغربية و أخيرا كنه الإخفاقات الوطنية التي أوصلتنا إليها هذه السيرورة¹.

في رواية 2084 حكاية العربي الأخير، تنبأ واسيني الأعرج باندثار العالم العربي وزواله من الخارطة العالمية، فكل بلدان أرابيا التي كانت قائمة اندثرت نهائيا، حتى بعضها الذي كانت له قيمة بنفطه و ماله وتربته لم يعد موجودا أو لنقل تمزق قطعا صغيرة "جزء منها تحالف مع آزاريا التي امتلأت كل آباره النفطية ويتعاون معها و متكى على حمايتها، وجزء آخر يجد في العودة إلى النظام القبلي نعمة و هي العودة إلى الأصول. وهناك دويلات صغيرة غامضة في علاقاتها مع نفسها، ولكن الكثير منها يتوسع فيزيد فقرا و ينظم غزوات ضد بعضه البعض، وكلما كبرت دويلة انفجرت في شكل متواتر إذا لم يصلها من الحكم ما انتظرتة"². كارثة بشعة ألمت بالشعوب العربية التي أصبحت "من الكائنات المنقرضة، لم تبق منها إلا عينات نادرة ضائعة في قفر أرابيا والصحاري الآيلة للزوال حتما. كأن دورتها الطبيعية انتهت أو هي في طريقها إلى ذلك"³، إنهم يتقاتلون على الماء و الكأ وبقايا النخيل المحروق، و لسبب تافه يسحبون السيوف والسكاكين على بعضهم البعض و "يسقطون من شدة العطش و الجوع، سيموتون عند البوابة من شدة الإنهاك أو بعدها بقليل. كل شهر ندفن وراءهم العشرات بالجرافات لتفادي استفحال الأمراض، وآخرون سيموتون تحت الرفس للحصول على مكان داخل

¹ - حنا أرندنت: في العنف، تر: إبراهيم أنيس، ط1، دار الساقى، 1992، ص49.

² - واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص66.

³ - المصدر نفسه، ص92.

البوكس، وغيرهم يدخلون ثم يخرجون محملين بأكياس الأكل، لكنهم سيقتلهم الذين لم يسمح لهم بالدخول إذا رفضوا تسليم ما يحملونه"¹.

و عقب اكتساح الآخر الغربي مكان الذات و تشويه وجهها، أضحى الوطن فضاء غربيا، ضاقت فيه دائرة الأنا العربية و اغتربتو حرمت من مبرر وجودها، لأن في احتلال المكان و تعرضه للسلب واغتصاب بعده التاريخي و الإنساني و تشويه معالمه تهديد بالغياب. وبدل أن يكون فضاء الحرية و الألفة، أصبح فضاء للسجن و القهر و الخوف و المتاهة، لا يحمل أية حقيقة أو وجود.

أشياء كثيرة في طريقها إلى الانقراض والزوال والتحول إلى مجهول، إذ محت الهجمات الغربية العسكرية والتنظيم الإرهابي " كل الماضي الإنساني نهائيا، فحطمت ألواح جلامش أو ما تبقى منها، ومحيت المدن البابلية والرومانية و حتى الإسلامية على مرأى من المجتمع الحر، نحن اليوم بقايا بشر بلا تاريخ و لا هوية، والأشد خطورة بلا ذاكرة، عدا ذاكرة الطائفة القبلية"²، و بلا معالم حضارية، فالذاكرة، اللغة العربية والتاريخ، الجغرافيا، الثروات الباطنية، النفط و الغاز الصخري، كلها في طريقها إلى الأفول. إذ لم يقف هذا الإرهاب الثقافي عند حدود تدمير ماضي الحضارات و إرثها الثقافي، إنما امتد لبيع ما تم نهبه بغرض تمويل التنظيمات الإرهابية المدعومة من قبل لوبيات معلومة تابعة للسوق الرأسمالية المتوحشة.

مما سبق، نخلص إلى:

- تصطنع هوية ثقافة التمرکز أصولا دينية و فكرية و عرقية تتوافق مع مضامينها، وتعمل على استبعاد وطمس كل ما لا يتوافق معها.

¹- المصدر السابق ، ص70.

²- المصدر نفسه، ص274.

- قادت الأقليات الدينية و الأثنية إلى تحلل الدولة الوطنية في العالم العربي لصالح العصبية الطائفية، وقد فشلت المجتمعات العربية في ظل العولمة في تجاوز الشعبوية، وفي إقامة نظم ديمقراطية ودمجها في الحياة الوطنية. وتعزى الفوضى الإثنية و المعضلة الأمنية إلى غياب الدولة الشرعية التي تفرض سلطة الدولة وقوانينها.

- لا يضع هنتنغتون الأديان في ميزان واحد، بل يوجه الاتهام للإسلام تحديداً، وتناسى أن الصراع تخوضه الجماعات الإسلامية المتشددة ضد أوطانها والعالم الغربي على السواء، وقد أثبتت الوقائع أن الصراع لا يقوم على الأديان، بل الدافع كان و لا يزال المصالح السياسية و العسكرية للدول التي تتحكم بالعلاقات، وأن الوضع المتأزم و انفجار الحروب في الشرق الأوسط وفي العراق و البوسنة والصومال و أفغانستان و الخليج... ، مرده إلى الهيمنة العسكرية الغربية، لا إلى الإسلام كنمط حضاري، فقد أثبت هذا الأخير أنه ليس مجرد دين، وإنما هو ثقافة و منهج حياة ونمط حضارة و منبع أخلاق.

-تقوم نظرية صدام الحضارات على نرجسية عقلانية ضد التواصل والتقارب و الحوار الحضاري، وهي خطاب واع بالأهداف والغايات التي سطر لأجلها، تترجمها الأحداث الدموية المتلاحقة في العالم الإسلامي، وهي نظرية فاسدة ومضادة لمسيرة التاريخ و لا تتسجم مع معطياته، لأنها لا تعترف بتعايش الثقافات والأديان و بالمشترك الإنساني.

المطلب الخامس: المركزية الغربية.

حدد الغرب مجموعة من الصفات والخصائص الحضارية والعرقية والدينية، جعلها ركائز راسخة شكلت أسس هويته، وأفضى ذلك إلى نوع من التمرکز على الذات بوصفه المرجعية الأساسية لفهم العالم والحياة والكون، ومارس إقصاء عنيفا لكل ما غير غربي،

وأحاله إلى مكون هامشي دوني لا قيمة له إلا في حدود ما سطره الآخر الأورو أمريكي، مروجاً بذلك لفكرة التبعية المطلقة.

وقد تغلغت هذه النظرة الاستعلائية في كل الميادين المعرفية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية، وتحكمت في صوغ أفكاره و توجيهها، وأنتجت خطابات وممارسات عنصرية أسهمت في ترسيخ الصورة النمطية المشوهة للآخر غير الغربي "يمكن اعتبار التمرکز تكثف مجموعة من الرؤى في مجال شعوري محدد، يؤدي إلى تشكيل كتلة متجانسة من التصورات المتصلبة، التي تنتج الذات المفكرة و معطياتها الثقافية على أنها الأفضل استناداً إلى معنى محدد للهوية، قوامه الثبات و الديمومة و التطابق، بحيث تكون الذات هي المرجعية الفاعلة في أي فعل سواء باستكشاف أبعاد نفسها أو بمعرفتها للآخر، ولا يقتصر الأمر في التمرکز على إنتاج ذات مطلقة النقاء و خالية من الشوائب التاريخية -إنما وهذا هو الوجه الآخر لكل تمرکز- لا بد أن يتأدى عن ذلك تركيب صورة مشوهة للآخر، وبين الذات الصافية و الآخر المتلبس بالتشوه الثقافي (الديني والفكري والعرقى)، ينتج التمرکز إيديولوجيا إقصائية استبعادية ضد الآخر، و إيديولوجيا طهرانية مقدسة خاصة بالذات"¹.

وقد هيمن الغرب اقتصاداً وفكراً و ثقافة وعلماً و تقنية على مدار "خمس قرون والغرب هو القوة، هو الحداثة ومنهجه هو التحديث، ومسار الحضارة البشرية على مدى التاريخ مقصده، هو الغاية والروح الكلي، حضارات البشر خطى تمهيدية، خطو على الطريق إليه، حيث الكمال على يد الإنسان الأبيض، ذي العقل العبقري المتميز والمتفرد، لقد صاغ العقل الغربي أوروبا أولاً ثم الولايات المتحدة."².

¹- عبد الله إبراهيم: المطابقة والاختلاف، مرجع سابق، ص 11.

²- شوقي جلال: العولمة، الهوية، المسار، مرجع سابق، ص 131.

وأقر هذا الأخير بشمولية خصائصه و بالخصوصية المطلقة لتاريخه، واختزل العالم لكي ينطوي تحت رايته، بذريعة أن الشعوب إذا أرادت اللحاق به وجب عليها استعارة تجربته الفريدة، والأهم هو انسلاخها من خصوصيتها الثقافية لأنها هي ما يقف أمام تطورها، بمعنى " أن تكون لست أنت، عليك أن تموت و يمحي خبر وجودك، وتعيش ثانية مجردا من كل شيء إلا ذاكرة عليك أن تضعها في الفريغو"¹. إن "أبرز ما قررتة المركزية الغربية هو قولها بالخصوصية المطلقة لتاريخ الغرب الذي أنضجته عوامل خاصة و داخلية، و أثمر عن حضارة غنية و متنوعة، ثم التأكيد على أن المجتمعات التي تريد أن تبلغ درجة التقدم التي وصل إليها الغرب ليس أمامها إلا الأخذ بالأسباب ذاتها التي أخذ بها الغربيون، و ليس أمام تلك المجتمعات إلا التخلص من خصوصياتها الثقافية، لأن تلك الخصائص هي المسؤولة عن تخلفها وهي المعيقة لتطورها، وبهذا لم تقف المركزية الغربية عند حدود تقديم رؤية للعالم، بل تقدمت بمشروع سياسي على صعيد العالم، هو مشروع تجانس الإنسانية المستقبلية من خلال تعميم النموذج الغربي، وخطورة هذا المشروع أنه سوغ التوسع الغربي واحتلال العالم وإبادة الحضارات"².

الفكرة ذاتها، قامت عليها رواية "2084 حكاية العربي الأخير"، لقد صورت الرواية الواقع العربي المرهون داخليا و خارجيا بهيمنة الآخر الغربي ذاتا و مكانا و قيمة، و أظهرت هوس الجنس الأبيض في السيطرة على بقية الأجناس، والقضاء على هويتها، خاصة العربي منها، في مقابل تنصيب هويته كمقياس تقاس به كينونة الوجود البشري "نسهر على كل شيء و نفكر لك، ستصبح جزءا من المنظومة العامة نظامنا وشعارنا الكل مع الواحد. لأن الواحد هو حامي الكل."³، هذه الرؤية اختزلتها فلسفة لبتل

¹-واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص94.

²- عبد الله إبراهيم: المطابقة والاختلاف، مرجع سابق، ص33.

³-واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص115.

بروز القائد الأعلى لقلعة أميروبا الواقعة في عمق الصحراء العربية" ليس ممنوعا يا صديقي أن تفكر، ولكن ممنوع أن تفكر بشكل مخالف فقط، وفي مجتمع حر، أو لنقل في مساحة لك فيها مطلق الحرية، الخطر ليس في التفكير، ولكن في التفكير المختلف الذي يقتل النظام"¹، بمعنى لك الحرية في فعل ما تشاء طالما أنك تفعل ما نريده، وما نسطره. هي شعرات تؤكد أن العولمة نزعة أيديولوجية من إفرازات التمرکز الغربي الحديث، وأنها تختزل العالم المختلف إلى مفهوم واحد منمط، وتتخطي حقيقة كونه تشكيلا متنوعا من انتماءات و ثقافات و تطلعات و تصورات متباينة. وأنها سعي محموم لدحض المحليات ومحو الخصوصيات، قصد تعميم نظام شمولي تتوارثه الذهنية الغربية جيلا بعد جيل.

واحتفاء به تستعد القلعة للاحتفال بمئوية البيغ بروذر، مهندس الأنظمة الشمولية القائمة على تزكية خطاب التمرکز على الذات و التسلط و القوة، وعلى النظرة الاختزالية التهميشية للآخر المختلف عنها، حيث رفعت الشعارات في كل أرجائها تشيد بمؤسسه و بإنجازاته " كلنا لك ومنك، مرور 100 سنة على ميلاد بيغ بروذر، الجد الأول الذي علم الجميع ما لم يعلموا. إما أن نكون، أولا نكون لا خيار"²، و " اعتبر ذلك تحدينا ووفاء لما أسسه الأخ الأكبر من قيم حية محافظ على استمرارية رحلته التي بلغت اليوم قرنا من الزمن، منح فيها الحياة لهذه الأمكنة التي كان يمكن أن تكون خرابا يبابا، لولا هذا الرجل العظيم. كثرة الحروب تقتل الحرب، الحرية ضد التوحش، كل من ليس معنا فهو ضدنا."³.

ممارسات الغرب مع الآخر تاريخيا كانت ولا تزال مشحونة بالصراع والتنافس و الغلبة و التكالب على المنفعة، وظلت هذه المقاربات المرتبطة بالمركزية الغربية مسيطرة على النظام الدولي و متحكمة في سياساته، فقد طغت المصالح الغربية و أنانيتها على

¹-المصدر السابق ، ص343.

²- المصدر نفسه ، ص.51.

³-المصدر نفسه، ص48.

أجندته، و تسيد منطق الحرب و القوة "من ليس معنا، ليس عدونا فقط، يجب أن يُمحي إنسانيون إلى أقصى الحدود".¹، وأضحت الجريمة بالنسبة لهم وطنية حقة، فبقدر آلام الآخر ودماره بقدر نشوة وانتصار هؤلاء.

فالولاء للذات والحرص على دوام الهيمنة وإخضاع الآخرين أمور يحرص عليها القادة العسكريون في قلعة أميروبا، رافعين شعار " الوطن والنظام فوق كل اعتبار، هو فوق الجميع، يذهب الأبطال والحكام والمسؤولين ويبقى النظام والوطن "تروي هذا النظام بعرقنا ودمنا، من شاء تحطيمه يتحطم، لأنه ليس بشراً يمحي أو يقتل المارشال ينتهي. النظام يستمر(...) الانتماء إلى النظام مهم، الذي يهمننا في كل هذا: ماذا تقدم للحفاظ على النظام وتطويره ليستمر أكثر، ولا يموت أبداً في ظل تحولات دولية شديدة الخطورة".². والقائمون على النظام لهم مطلق الحق في فرض القانون و سن بنوده و التأسيس له، ويمتلكون في الوقت ذاته حق تجاوزه وفرض الاستثناءات لأنه غير ملزم لهم. الوطنية المتعصبة والنفوذ العالمي مفعول مخدر أعمى بصيرتهم و أفقدهم المشاعر الأخلاقية، وجنبهم نقد الذات ومحاسبتها، ودفعهم إلى تشويه الحقائق وخلق تبريرات واهية مزعومة، نظروا من خلالها إلى الأنا بهالة قدسية أضفت عليها صبغة شرعية حملت الآخر المسؤولية.

لا شك في أن الفكر الغربي قائم في تعامله مع الآخرين على " قاعدة تدمير الأنساق الحضارية المختلفة عنه، أو تعطيل دورة نموها وإعاقتها ومن ثم السيطرة عليها واستنزافها وتسخيرها وفق ما يحقق استمراريته، ليمنع تشكّل نموذج مماثل له، معتمدا على نظرية "الفوضى الخلاقة"، التي تبيح ارتكاب جرائم حرب وإبادة ضد الإنسانية لاجتثاثها من

¹ - المصدر السابق، ص203.

² - عبد الله إبراهيم: المطابقة والاختلاف، ص33.

الوجود"¹، منطلقاً من مبدأ أن العنف المتطرف والحرب هي القاعدة التي تصنع عظمة الشعوب، وكل شيء إن هو إلا تعبير عن موازين القوى وثمره الصراع المستمر "القوة تصنع الحق، و الغاية تبرر الوسيلة، والالتزام بمبدأ ما جمود وعقم."² فحين توصل جان بول سارتر إلى قوله المشهور "الآخر هو الجحيم" لم يكن قوله هذا مجرد حكم يصدره على آخر أراد أن يسلبه حرته أو علة وجوده، وإنما استظهر ما هو مخبوء في أعماق الذات الغربية. فلا موضع للحديث عن محبة أو مشاركة أو تآزر بين الذات، لأن حضور الذات أمام الغير هو بمثابة سقوط أصلي، ولأن الخطيئة ليست سوى ظهوري في عالم فيه الآخرون... ولأن الغرب مشحون بالخوف على الذات من الآخر إلى هذا الحد، فلن يقوم إلا بمحو الآخر أو إفنائه، سواء كان محواً رمزياً أو عبر حروب إبادة للآخر"³.

وعليه أصبح العنف مبرراً في الفكر السياسي لدرجة اعتباره حتمية تتماهى مع حركة التدافع البشري "هتلر أيضاً كان له هذا المشروع فقتل ناساً بغير حق، وجد نفسه في أكبر مجزرة خلفتها البشرية للتاريخ بعنادها وجنونها وجشعها الأعمى، فخرسه وخسرت البشرية أكثر من خمسين مليون كائن لم يكن لهم أي ذنب سوى أنهم وجدوا أنفسهم على هذه الأرض في زمانه وفي عمق النار"⁴. الدمار والوحشية وحروب الإبادة باتت أموراً مشروعة ترسم مصيراً إنسانياً وحركة سيرورة التاريخ، وتبرر الجرائم في حق الآخرين وبأنهم أعداء تجب محاربتهم، فهم خطر على مسيرة الإنسانية ولا بد من تصفيتهم. إنهم مجتمعات همجية ستباد لمعاندتها الانخراط في مشروعه الحضاري! "هناك أم لا تصبح مفيدة إلا"

¹- واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص 110.

²- شوقي جلال: العولمة، الهوية، المسار، ص 37.

³- عادل حمدي عباس أحمد: الآخر في الفكر الغربي، مركزية الذات وتنامي مفهوم الاستعلاء وانحدار الغربية، مجلة كلية أصول الدين والدعوة، جامعة الأزهر، المنوفية، القاهرة، العدد 40، ص 288.

⁴- واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص 203-204.

عندما تتحول إلى رماد، نحن من يمنحها النار وفرصة التحول إلى رماد قبل الدّخول إلى تاريخ ظلّت على حوافه"¹.

و يستمد هذا الفكر الإقصائي وجوده وقوته من خلال مصادرة حق الآخر وإلغاء واقعه تدريجياً عبر "تحويله شيئاً فشيئاً من نسق حضاري كلي له شرعيته التاريخية، إلى جسم ميت لا يصلح إلاّ "كمادة أولية" لا هوية لها خارج دائرة المشروع الغربي الحديث بأفكاره ومؤسساته"²، مثال ذلك ما وقع للهنود الحمر «لزامير انديان، الأباش، ليشيين، السيو"³، هي قبائل هندية محيت سلالتها من خارطة العالم، وأصبحت أقواماً ميتة بلا ذاكرة ولا تاريخ " تتنابه أناشيد الهنود الحمر وهي تتوغل فيه بعمق كأنها ترافق ميتاً في كورس جنائزي أتي الولادات بعد أن جفت الأرحام؟ بلا عودة أبداً، ولو أنهم يعتقدون أنه لو يبقى واحد من السلالة سيعيد الحياة إلى الأقسام الميتة، من أين أتي الولادات بعد أن جفت الأرحام؟"⁴.

إن الموت المنظم بالحروب أو بالظلم هو وسيلتهم لصنع تاريخ جديد، القاعدة فيه "من أراد أن يموت نفتح له الطريق ونسهل عليه"⁵، " لا نظلم لكننا لا نقبل أن نباغت، من ليس معنا فهو ضدنا. كل مساومة خيانة موصوفة. الإرهاب جريمة وليس انطباعاً أو وجهة نظر. الخيانة هي أن تنسى أنك تنتمي لوطن. لا نظلم ولا نرحم. التدخل في أراضي العدو حق طبيعي"⁶، خاصة وأن العالم كله مؤطر وفق قوانينهم وأعرافهم، وكل

¹-المصدر السابق ، ص99.

²-حسن الضيقة: الآخر من منظور الفكر الغربي الحديث، دار الفكر اللبناني، ط1، بيروت، لبنان، 1994، ص27.

³-واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص226.

⁴- المصدر نفسه ، ص225.

⁵- واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص202.

⁶- المصدر نفسه، ص332.

تجاوز أو خروج عن هذه القوانين يعرض صاحبه إلى العقاب الذي تتحدد درجته حسب الجرم المرتكب" لا نقتل الناس هكذا يا آدم، ما يحدث ليس مسرحية سخيفة (...). لكني واحد في مسار هذه السلالة الخاصة التي ترى الصغيرة والكبيرة (...). أن تكون في عمق فلسفة بيغ بروذراو ليتل بروز، عليك أن تنتبه لكل شيء حتى التفاصيل الصغيرة الموجودة في بؤبؤ العين الذي بواسطته تتم اليوم قراءة تاريخ الفرد والقوميات التي صنعت تاريخه العائلي، واستعداداته للجريمة والقتل وقابليته لأن يصلح من عدمها.¹ إنها أيديولوجية استعلائية إقصائية، ومركزية مثقلة بسلطة الأنا، ترفض أن يكون للأخر حق أو وجود، وأفعال مقصودة تقوم على أساس نظريات تحارب الاختلاف و الاستقلال الذاتي للشعوب و الثقافات، وتزعم لنفسها صفة الكونية و الشمولية و امتلاك الحقيقة المطلقة"يقدم علم الوجود التقليدي مفاهيم عن الذوات في هيئتها الأحادية المقاومة والمتصدية للأخر، تلك المقولات الأنطولوجية هي تزكية لخطاب التسلط و التمركز والقوة، وكل ذلك سيؤدي لا محالة إلى الحرب والعنف، وتلك المفاهيم المقدمة للكائن الموجود ستجعل منه مستقلا بذاته وراضيا كل الرضى عن ذاته عينها، ما يعزز جهله بالأخر واحتقاره و نبذه"².

ينعكس هذا الخطاب على وضعية آدم العالم العربي بطل رواية 2084 حكاية العربي الأخير، الذي صودرت حقوقه في التفكير و التعبير و الحب بقرار من ليتل بروذر قائد القلعة " أنت تعرف موقفي جيدا (...). العربي لا يصبح جيدا إلا بموته، كائن غريب متعلق حتى الموت بفضلات التاريخ و لا أعرف ماذا يجني من وراء ذلك "³، فأكثر ما يورق الآخر هو الذات العربية المفكرة العارفة لكيوننتها، والعربي الجيد في نظره هو الميت الذي يلغي ذاته وفكره ويقبل بما حدده الآخر، و يعيش معزولا على الهامش، مجرد تابع

¹ - المصدر السابق، ص110.

² - مجاب الامام، محمد عبد العزيز: الترو وإشكالات المثاقفة، الترو عبر تباينات القوة، اللغة والهوية في عالم الرجمة اللامتكافئة، نائر أديب ط1، منتدى العلاقات العربية والدولية في الدوحة 26-27 فبراير، 2014، ص308

³ -واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص22.

لا يمكنه أن يعرف نفسه بنفسه إلا بوساطة الغير " الغربي متفوق بحكم تكوينه، والشرقي عصي على التطور، يختزن مورثات تشده دائماً إلى الوراء، إنه مفطور على التقليد و يفتقر إلى الفكر النقدي و التفكير المنطقي السليم"¹، لا حق له في الحرية والكرامة بعيداً عن الحدود التي رسمها غيره. فمعاناة آدم تختزل تاريخاً عنصرياً و فلسفة فوقية ينظر من خلالها الآخر للذات العربية نظرة انتقاص و احتقار "عربي يعلمنا ما يجب فعله و ما لا يجب فعله، سأنتحر قبل أن أرى عربياً يحميني أو يأمرني"².

و الأكد أن المعرفة قوة وسلطة، و"كل سلطة هي نظام ذهني يكمن وراءه تصور معرفي، كما أن المعرفة ذاتها تتحول إلى سلطة منحازة تتحاز لذاتها ضد أية معرفة أخرى و تعزز سلطان مالكا و تميزه، و تظل مهينة لاستغلال الأقوياء لها و تسخيرها في بناء القوة و تكوين السلطة المطلقة، وليس بكشف عظيم أن نلاحظ أن التحيزات و التمايز العنصري يصدر عن العلم و المعرفة "لقد أيقن الغرب الإمبريالي هذه الحقيقة فركز على التفوق في المجال الحربي بغية امتلاك العالم و تحقيق فكرة شمولية الحضارة الغربية و سيادتها، حيث نمت القوة العسكرية في الغرب الأورو أمريكي جنباً إلى جنب مع التطور في المجالين العلمي و الاقتصادي، اللذين خضعا إلى المؤسسة العسكرية و الأمنية في سرية تامة، خاصة الأسرار العلمية كالنووي و البيولوجي و الفلكي و التكنولوجي الدقيق، و بادر العلماء " إلى صناعة القنبلة الذرية و جعلوها سلاحاً استراتيجياً و تكتيكياً فعلاً في تفتيت إرادة الشعوب و قهرها، إن علوم الذرة و الهيدروجين و علوم التحكم الحديثة و علوم

¹ - جمال مباركي: الشخصية الغربية في رواية المخطوطة الشرقية لواسيني الأعرج، خطاب المركز و الهامش، مجلة قراءات، العدد4، مخبر وحدة البحث في نظريات القراءة و مناهجها، كلية الآداب و اللغات ، قسم الأدب العربي ، جامعة بسكرة، 2012، ص94.

² - واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص438.

الإلكترونيات، أضحت قوة عمياء تتخطى آثارها التاريخية المدمرة حدود نظم الاستغلال والنهب التي عرفها النسق الغربي الحديث في مراحل تاريخية سابقة¹.

إن المنطق الإمبراطوري تدمير منظم وليس وليدة الصدفة، ف وراء تصفية الآخرين وإبادتهم عقل يفكر ويخطط، ويتجاوز حدود الحاضر إلى المستقبل. يتضح ذلك بقوة من خلال العكوف على تشييد مخابر للأبحاث النووية، كمخبر بنسلفانيا في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي أزاريا (إسرائيل) وفي إيران، وبناء مفاعلات نووية تجري فيها الأبحاث بهدف تطوير صناعة الصواريخ الحربية والقنابل النووية، و استقطاب العلماء من مختلف أنحاء العالم، وتهجير الأدمغة من موطنها الأصلي، منهم "سميث جوردن وزوجته لاورا اللذين أصبحا مع الوقت شريكين في العمل المخبري وكاتسومي الفيزيائي الأمريكي الياباني، الذي كان اسمه أشبه بالجمال المتجلي، وسمير خان الأمريكي الهندي الطيب، المختص في أنظمة الحواسيب، وابن آرابيا الغربية سيف الذي كان ناجحاً في الرياضيات التطبيقية»²، إضافة إلى الميجر توني المختص في أبحاث الطب النووي العسكري، وأمايا اليابانية المتخصصة في الطب النووي المضاد للإشعاعات ويأتي على رأسهم آدم العالم الفيزيائي العربي. فمعظم هؤلاء العلماء تم تكوينهم في الجامعات الغربية الأور وأمريكية.

ويعزى توجه اهتمام الآخر بالنووي، إلى الخوف من قدرة الخصوم على الانبعاث والمجابهة والمنافسة وخطورة الأوضاع الأمنية التي اضطرتة إلى ترتيب خطط أمنية جديدة "نحن نعيش وضعا استثنائيا أصبحت فيه قوة إجرامية تتحدى حضارتنا، كما فعلت قبل سنوات طويلة مع البرجين التوأمين، ومنذ ذلك اليوم انفتحت شهية الإجرام، فحاولوا الاعتداء على المركز النووي في بنسلفانيا، وفجروا الكثير من قواعدنا في كل آرابيا، يجب

¹ - حسن الضيفة: الآخر من منظور الفكر الغربي الحديث، ص117.

² - واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص121.

إعادة ترتيب الأشياء وفق خطة أمنية جديدة هجومية، لكن دفاعية أيضا¹. الخوف ذاته هو ما دفع آزاريا إلى تحصين نفسها باعتبارها أقلية ضعيفة إذ تملك " ما يقارب 200 نوويا، برنامجها معروف منذ 1956، المؤسسات الفرنسية التي بنت في ديمونة أول مفاعل نووي بالماء الثقيل تعترف بذلك، وبعد سنة من ذلك بنت مصنعا لفصل البلوتونيوم، فرنسا وقفت بعدها في وجهها عندما أرادت أن تنتج قنبلة نووية"².

الأخلاق والسياسة خطان مستقيمان لا يلتقيان، وتزييف الحقائق وفبركة الوقائع والادعاء بأن حروبه أخلاقية هدفها منع امتلاك النووي مقولة تتكرر كلما تعلق الأمر بقرار محو بلد من خارطة العالم الجغرافية، هي تناقضات وُلدت يقينا يقضي بسقوط الحضارة الغربية في "تناقضات مريعة وافتقادها هويتها الإنسانية وعدّها حضارة "مخنثة" تزعم تمسكها بالقيم الإنسانية ذات النعومة المفرطة، وتتسبب لنفسها احتكار دعاوى المحبة والسلام والعمل على تحضير الشعوب المختلفة وترتكب بحق الشعوب أشكال الإبادة الممنهجة، لتظل آخر المطاف حضارة الغاية التي تبرر الوسيلة"³، ويندرج في السياق ذاته إعلان الحرب على العراق بحجة امتلاكها السلاح النووي "أنت تعرف يا آدم أن الخراب الذي لحق بالإنسانية سببه امتلاك سلاح الدمار الشامل، وأنت كنت في عمق المعمعة وتعرف لماذا ناضلنا جميعا لتدميره في كل بلدان العالم بلا استثناء، كما دمر سابقا في العراق وليبيا وسوريا والجزائر التي ردعت نفسها بنفسها قبل فوات الأوان"⁴، والهدف طبعا هو حماية الإنسانية؟، فقد صرح زورا "كبير المفتشين هانزبلكس، واحد من ضباط المخابرات الأمريكية ورئيس فرقة التفتيش العامة تحت مظلة الأمم المتحدة: حتى لو دمرنا كل شيء، فنحن أمام جيش من العلماء ماعدا الخبراء والمهندسين العاملين في

¹ - المصدر السابق ، ص312.

² - المصدر نفسه، ، ص189.

³ - صلاح صالح: سرد الآخر، المركز الثقافي العربي، ط1، المغرب، 2003، ص111.

⁴ - واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص344.

المجال النووي والبيولوجي والهندسة الكيميائية والفيزيائية. هؤلاء يشكلون الخطر الحقيقي على السلام¹. وسيكون الحل في تصفيتهم جسدياً وتدميرهم روحياً، لذلك درّبت فرق عسكرية مختصة في اختطاف العلماء خاصة علماء الذرة وقتلهم، أهمها تنظيم شادو التابع لإسرائيل الذي وقع ضحيته د.ساري رضوان رضا دكتور في الفيزياء النووية اغتيل في الجزائر العاصمة، الدكتور غائب الهيبي أبرز علماء العراق، الدكتور مجيد حسين علي الطرد الذري أساس علم الذرة، العالم مهند الدليمي و الدكتور شاكر الخفاجي تخصصوا في المجال النووي من أصول عراقية تم التحقيق معهم وتعذيبهم ثم قتلهم، وتبقى القائمة طويلة لتضم كلاً من جعفر ضياء جعفر وسلمان رشيد سلمان اللامي الذي مات في جنيف بمرض غامض، وزياد حنا الحداد الذي فرّ إلى روسيا، هو المصير نفسه الذي دفعه علماء إيران أمثال داريوش رضابي، مسعود علي محمدي، مجيد شهرياري ومصطفى حمدي روشن، فقد أودت بهم يد الغدر في تفجيرات إرهابية².

و مسّ التدمير البرامج العلمية النووية، إذ أُلغيت الملفات والبحوث المهمة، وأُحرقت كميات هائلة من المواد الأولية والمعدات الصناعية والمخبرية، وفككت كل الشركات العراقية العاملة في مجال التصنيع العسكري كشركات: المثني والرشيدي واليرموك والقعقاع وحطين، و هربت معدّاتها النووية إلى الخارج للاستفادة منها.

إن عقدة الاستعلاء والاستقواء الغربية، دفعتها إلى تبني إيديولوجية عمياء أنانية ذرائعية تصب في إنكار الغير وتكبير قدرته على الانبعاث والتحرر، فقد استأثرت لنفسها بمقومات التكنولوجيا الحديثة، وبعبء الاقتصاد العالمي ووسائل الإعلام، واخترقت جدار المناعة الأخلاقية والعقلية. فأصبحت حروب اليوم حروباً إلكترونية أكثر منها بشرية، يتحكم فيها مالك الآلة الأكثر تطوراً، وباتت التكنولوجيا عنصراً هاماً في صناعة القوة

¹-المصدر السابق ، ص346.

²-ينظر: واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، صص346-348.

وإثبات الوجود وفقا للمقولة "من يملك المعلومة يملك القوة"¹. وبما أن الكبار يدركون أن العالم لا يتغير إلا بمنطق القوة و المال، اتجهت شركة إيبيل "نهائيا نحو الاستثمار في الإنتاج الحربي و الأقمار الصناعية التي أصبحت تراقب العالم و الأنفاس كلها."². واستفاد لیتل بروز من تسهيلات التكنولوجيا ليراقب القلعة، شاشات الرصد والمراقبة تطوّقها باستمرار و"أجهزة التصنت الشديدة الحساسية التي يمكن أن تفصح الإنسان في أية لحظة منتشرة في كل مكان، في كل سنة يتم تغييرها بأخرى أكثر تطورا وأكثر حساسية"³ ترى الكبيرة والصغيرة" ناموا قريري العيون، عين لیتل بروز ترعاهم جميعا، تعرف ما يسرهم و تعرف أيضا ما لا ينفعم، وما لا ينفعم هو الأهم بالنسبة لنا، لأننا لا نريد الإنسان الناقص، القلعة تكون الإنسان التام، عين لیتل بروز لا ترى التوافه، تقفز فوقها"⁴. كما تم اختراع أجهزة بالغة الدقة تختبر الأحلام، وتقيس الانفعالات بناء على المعلومات المثبتة في الشريحة -إنسان الشريحة- تعالج هذه الأخيرة كل النشاطات الذهنية للإنسان في حالات اليقظة والنوم وتساعد على تفسير الأحلام والكوابيس. وقد طور هذا النظام ليكون قادراً على قراءة الموجات المخيئة. طبقّ أولاً على سائقي السيارات لتحذيرهم من الغفوة والاصطدام، لكنه سرعان ما استغل عسكريا لغرض الرقابة والسيطرة وتجريد الإنسان من الحرية والإرادة. قصد تشكيل مجتمع جديد، أو القطيع الداجن الذي صاغه بورهوس فريدريك سكينر (Burrhus Frederic Skinner) في روايته "فالدين 2" "وابتدع سكينر هندسة أو تكنولوجيا السلوك الإنساني لصناعة أشخاص و شعوب حسب الطلب تفعل ما يريده صاحب السلطان، وتظن أنها تفعل ما تريده هي و اختارته بتجربتها، إنها شعوب

¹-المصدر السابق، ص189.

²- المصدر نفسه، ص57.

³-المصدر نفسه، ص133.

⁴- المصدر نفسه ، ص99.

مبرمجة ثقافيا وعقائديا ومن ثم سياسيا¹. و لتسهيل مراقبته و تحديد مكان وجوده وضعت تلك الشريحة في معصم آدم، وزودت بكل معلومات هويته، وهي هوية لا علاقة لها لا بوطن ولا بانتماء ولا تدين بالولاء لتاريخ سابق أو تراث " الشريحة التي عممت على كل الكرة الأرضية، (...)، كل شيء أصبح سهلا اليوم أمر عبر المطارات بلا توقف، أشق المعبر بيقين، أمد يدي للحلقة المثبتة في البوابة، في ثانية واحدة نقرأ كل شيء. لا جواز ولا أوراق، ولا فيزا يسافر الإنسان غير مثقل سوى بعصره القاسي و شجنه الداخلي². كل شيء يسير بدقة متناهية وخطة وترتيب محسوم مسبقا، اليد البشرية تمس كل شيء وتهيكله حسب المصلحة، صار بالإمكان خلق جهاز يراقب الإمكانيات التخيلية "تصور عقل بديل يراقب ويُراقب، وخلقُ الجيل الجديد المراقب للأحلام وربما تحويلها عن مساراتها، لأنه يمكن التفكير في خلق شرطة الأحلام"³، باستخدام البرامج العسكرية الافتراضية، الذكاء المطلق للتكنولوجيا وبموجتها تم التمكن من اختراق الحلم والذاكرة و توجيهها حسب الأهداف والغايات العسكرية. يقتضي هذا البرنامج إجراء مقابلات افتراضية و «متابعة الشخص المعني والاطلاع على كل ما أنجزه من حوارات ولقاءات أو التسجيل معه مدة طويلة، حركاته الخاصة والمتكررة أيضا، لباسه، عيوبه، في الكلام، الفيس بوك يمنحها مادة كبيرة واستثنائية، هكذا يتمكن البرنامج من تحديد خاصياته الصوتية الدقيقة لأنها المرحلة الأكثر دقة...نفكر اليوم في شيء أكبر، وقتها لا مشكلة مطلقا وقت المقابلة الدخول في مخ الإنسان ودفعه إلى طرح الأسئلة التي يشاؤها البرنامج، ننجز المقابلة وفق ما نريد نحن"⁴.

عظفا على ما سبق، نخلص إلى:

¹-شوقي جلال: العولمة، الهوية، المسار، ص ص106-107.

²-واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص.91.

³- المصدر نفسه ، ص245.

⁴-المصدر نفسه ، ص265.

- تكنولوجيا الغرب نقمة على الكل لا تخلو من مقومات ربحية استغلالية، تقوم على إيديولوجية لا مكان فيها للآخر، تركز على استعباد الأقاليم و الثقافات المختلفة عنها، والسطو على إنسانيتها وتراثها وثرواتها عن طريق التجسس والابتزاز والتزييف، تكريساً للتبعية والانسلاخ من الذات والوقوع في فخ التتميط وهو بالضبط ما تسعى إليه العولمة كأيديولوجيا للشمولية و الكونية.

- القوة و العنف و الإرهاب و النهب أعمال مبررة ومشروعة، مادامت قائمة على الحنكة السياسية ومراوغة الرأي العام، فهي أخطاء قابلة للفهم، و فن من فنون إدارة الدولة. فلكي تحظى بالأمن و السلام يجب أن تكون قويا ليهابك الآخرون، وسيزداد رعبهم منك وخوفهم إذا اعتديت عليهم بحق أو بدونه.

- انعدام العامل الروحي و الأخلاقي هو ما حال دون إيجاد حلول للأزمات التي تعصف بالعالم المعاصر، فتوظيف العلم والاقتصاد و السياسية خدمة للمصالح، يقف عثرة أمام الحوار الحضاري. وعليه لا بد من إيجاد عقلانية تواصلية بدل العقلانية العدائية.

و صور الهيمنة والتمركز الأمريكي ، لم تنحصر فقط في المجال العلمي ،إنما امتدت ، لتشمل مجالي السياسة و الثقافة، وتجسدت في ما يأتي :

1- نهاية التاريخ:

يرتبط كل منتج ثقافي ببنية الواقع الذي أفرزه، ومن هذا المنطلق لم تكن فكرة نهاية التاريخ سوى انتصارا للنظام العالمي الجديد، الذي توج عقب مجموعة من التغيرات التي شهدتها الساحة السياسية العالمية منذ الثمانينات، وتزامنت هذه الأطروحة مع سقوط الأنظمة الشيوعية في أوروبا، وانهيار الاتحاد السوفييتي، وسقوط جدار برلين، واكتساح الديمقراطية الليبرالية العالم، و انهيار الأنظمة الشمولية، ودخول العالم منعطفًا جديدًا،

حيث انتصرت الأيديولوجيا الأمريكية والفلسفة الليبرالية الديمقراطية على حساب الفكر الشيوعي الاشتراكي.

وقد استقى فوكوياما هذه المقولة من فكر هيجل و ماركس، اللذين اتفقا على " أن تطور المجتمعات البشرية على اختلاف أنواعها ليس ممتدا امتدادا مطلقا، بل لابد أن يتوقف عندما تنضج البشرية و تتقدم وتتفق على شكل من الأشكال الاجتماعية يتيح لها إشباع حاجياتها الأساسية بطريقة متوازنة، ومن هنا فقد افترض الإثنان (هيجل و ماركس) أن للتاريخ نهاية، هي عند هيجل الدولة الليبرالية، وعند ماركس المجتمع الشيوعي"¹.

احتلت مقولة نهاية التاريخ حيزا ملحوظا في الدراسات السياسية و الفلسفية العالمية، و"تبنى مقولة نهاية التاريخ على أن العالم قائم على قوانين ثابتة، تسير به إلى غاية واحدة و في اتجاه محدد، وبناء عليها أعاد الغرب كتابة تاريخه في كل مكوناته ومقوماته الفكرية و الدينية و العرقية، و" ظهر هذا المنهج في فترة كان الغرب يمارس فيها فعلين متداخلين يشكلان جوهر هويته الذاتية: أولهما إعادة إنتاج غائية لتاريخه، بالبحث عن مقومات ثقافية ودينية وعرقية تؤصله بوصفه كيانا موحدا و مستمرا في التاريخ الإنساني، وثانيهما اختزال العالم بالفتح و الاحتلال إلى تابع ساكن و فاقد للحيوية، تقتضي الضرورة التاريخية أن يخترقه الغرب ليبيث فيه غاية الحياة المحكومة بسير متصل و محكوم نحو هدف سام"².

وأنتج هذا المنهج مفاهيم و رؤى و تصورات و ممارسات سياسية و ثقافية و اقتصادية، شكلت محور المركزية الغربية و عمودها، أصل من خلالها الآخر الغربي

¹-نبيل راغب: أفنعة العولمة السبعة، مرجع سابق، ص372.

²-عبد الله إبراهيم: المطابقة والاختلاف، مرجع سابق، ص37.

لنفسه، وراح يبرهن على صوابها المطلق، وعلى مقولة أن الإنسان يصنع تاريخه و أن العقل الإنساني يسير نحو التقدم، ويمكن اعتبار كتاب فوكوياما " نهاية التاريخ والإنسان الأخير" الذي صدر عام 1992 تجسيد لهذه المقولة، فقد استند إلى جملة من التحولات التي شهدتها العالم و مجموعة الانهيارات التي عاشها في العقد الأخير من القرن العشرين ليؤكد شططا أن التاريخ قد انتهى بوصول الإنسان الغربي خاصة الأمريكي إلى مسعاه، و أنه قد حقق غايته بتعميم الرأسمالية الليبرالية الحرة، لقد أقر فوكوياما شرعية الليبرالية الديمقراطية و صلاحها أن تكون نظام حكم عالمي، وأنها ذروة ونهاية التطور الأيديولوجي للإنسانية، فهي إذن تمثل نهاية التاريخ وأنه على المجتمعات البشرية الحديثة تبنيتها لدخول التاريخ الكوني "هناك أمم لا تصبح مفيدة إلا عندما تتحول إلى رماد، نحن نمناها فرصة الخروج من رمادها والدخول في تاريخ ظلت على حوافه، لتستمر في الحياة على الأرض، شرطنا الأوحاد أن تؤمن بشعارنا: الكل مع الواحد، و الواحد سيد الكل".¹

وقد مهدت هذه النظرية لظهور العولمة ورسمت الأطر المتكاملة لها، حين أقرت أن صيرورة التاريخ في حركته الكونية وخطواته الرئيسية قد توقفت عند النظام العالمي الجديد ذو القطبية الواحدة (الولايات المتحدة الأمريكية) بعد انتصارها على المعسكر الشيوعي. فهي إذا خطاب سياسي أيديولوجي يروج لفكرة الإجماع العالمي حول الديمقراطية و الالتفاف حول النظام الليبرالي، كحل نهائي تنشده الإنسانية. وعليه ستكون الديمقراطية الليبرالية المطمح السياسي في مختلف المناطق والثقافات في عالمنا، لأنها أفضل نسق سياسي واجتماعي يمكنه تحقيق الحرية، التي يرتبط تجسيدها بسقوط كل أشكال الأنظمة الديكتاتورية" لا شيء يترك للصدفة، لا شيء يغيب عنا، حتى الأنفاس نعرفها وندقق في طبيعتها، أنفاس الحب و الخوف و الجهشة، وغيرها، ونسجلها قبل اتخاذ أي قرار. نسهر على كل شيء و نفكر لك، ستصبح جزءا من المنظومة العامة. نظامنا و شعارنا الكل

¹- واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص 11.

مع الواحد، لأن الواحد هو حامي الكل"¹، ما يعني تحقق الانتصار الشامل للنموذج الحضاري الغربي كخيار وحيد لمستقبل الإنسانية.

لقد انتزع فوكوياما "مفهوم" الرغبة التيموسية * " من كلية الإنسان التي تضم العقل كذلك. فالرغبة في تأكيد الذات دون رقابة العقل، كانت تفضي دائماً إلى العنف الفردي و الجماعي، و من أبرز نتائجها مبدأ القوة العارية التي حاولت عقلنة الحرب و التمييز العرقي، الأمر الذي يقود إلى حتمية الأخذ بالرأسمالية، بوصفها خياراً وحيداً لمستقبل البشرية و نهاية له، وهذا الأثر سيقسم العالم إلى مجموعة محكوم عليها أن تعيش تناقضات التاريخ الأبدية و مجموعة ترتع فيما بعد التاريخ، ولها أن تتمتع بكاملات الرغبة و الوعي كما تشاء، إلا يعني ذلك أن مفهوم نهاية التاريخ ما هو إلا مفهوم لتكوين تراكمي يعبر عن فلسفة التمييز والإقصاء التي حكمت المشروع الغربي، وهو مفهوم يعاكس في مضمونه المفهوم الذي أشاعه الاستعمار الذي ادعى حمل رسالة الرجل الأبيض"². فالتاريخ الغربي في نظره هو التاريخ المستمر المركزي، في حين تكون تواريخ البلدان غير الغربية مجرد هوامش سطحية يتم تجاوزها و القفز عليها، "هنا كان خطؤك الأكبر، لأنك فكرت أنه فوق ليتل بروز يوجد بيغ بروذر، البيغ شاخ يا عزيزي آدم، وهو الآن في فراش الموت، نحن اليوم من يصنع التاريخ الجديد"³. "البيغ شاخ يا آدم ولن ينفك في شيء، من ليس معنا ليس عدونا فقط، يجب أن يمحي."⁴.

فعلى الرغم "من زيادة اهتمام الولايات المتحدة الأمريكية بقضية الديمقراطية وحقوق الإنسان في العالم على صعيد الخطاب السياسي وبعض الممارسات العملية إلا أن

¹ - المصدر السابق، ص 113.

² - مطاع صفدي: نهاية التاريخ، بيان التيموسية المظفرة، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، العدد 100 - 101، بيروت، لبنان، 1993، ص ص 7-8.

³ - لواسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص ص 200-203.

⁴ - المصدر نفسه، 203.

السياسة الأمريكية تتعامل مع هذه القضية بنوع من البراغماتية السياسية التي تتجلى أبرز صورها في المعايير المزدوجة التي تطبقها بهذا الخصوص، وعدم تردها في التضحية بقيم الديمقراطية ومبادئ حقوق الإنسان في حالة تعارضها مع مصالحها".¹

وقد تبنت العولمة مقولة نهاية التاريخ وارتكزت عليها "مقولة نهاية التاريخ غطاء أيديولوجي يروج له النظام العالمي الجديد الممجد للعولمة و المكرس للأحادية و الأمركة و الهيمنة الاقتصادية، فقد رضت السلطة الأمريكية على هذه الفكرة الجامعة، حيث وظف الرئيس جورج بوش الأب مقولة نهاية التاريخ في خطابه الموجه للشعب الأمريكي عندما تمت الموافقة على إرسال قوة عسكرية أمريكية للجزيرة العربية إبان الاجتياح العراقي للكويت"². الفكرة ذاتها أكد عليها الباحث الأمريكي دافيد روثكوف (David Rothkopfe) "إن المصلحة العامة للولايات المتحدة أن تشجع عالما يتم فيه تجاوز حدود التصادمات التي تفصل بين الأمم عبر المصالح المشتركة، و من المصلحة الاقتصادية و السياسية للولايات المتحدة أن يتحرك العالم باتجاه لغة مشتركة، فإن هذه اللغة ستكون الإنجليزية، وإن العالم إذا كان سيتحرك باتجاه معايير مشتركة في مجال الاتصال و الأمان و النوعية فستكون هذه المعايير معايير أمريكية، و أن العالم إذا كان سيصبح مرتبطا من خلال الإذاعة والتلفزيون و الموسيقى، فإن البرامج ستكون أمريكية، وإذا كان يجري تطور قيم مشتركة، فإنها ستكون بالتأكيد قيما يرتاح لها الأمريكيون"³.

وعليه، لا تعدوا لديمقراطية التي يتبجح بها النظام الغربي أن تكون مجرد نظريات سياسية، ألفاظ براقية تتكرر في الخطابات السياسية، وشكل من أشكال الخداع و التمويه

¹ - حسن توفيق إبراهيم: العولمة، الأبعاد والانعكاسات السياسية، مجلة عالم الفكر، العدد27، الكويت، 1997، ص190.

² - محمد بكاي: أرخبيلات ما بعد الحداثة، مرجع سابق، ص157

³ - تيغزة زهرة: الهيمنة العالمية الأمريكية في ظل المتغيرات الدولية الجديدة، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في العلوم السياسية والعلاقات الدولية، جامعة الجزائر، 2003، ص57.

للمحافظة على مصالح الأقوياء، خاصة في حالة الحديث عن ديمقراطية كونية تحظى بإجماع عالمي، بغض النظر عن الفروقات القومية و الثقافية و العقدية.

لقد" قرر فوكوياما هذا وخلفه كل أجهزة الدعاية الأمريكية متجاهلا أو جاهلا بتعدد الثقافات والحضارات، وبالتالي تعدد المجتمعات ونظم الحكم و الأيديولوجيات، إذ من المستحيل أن تعيش الشعوب في ظل نظرة أيديولوجية أحادية وفي قالب نمطي، ولو افترضنا جدلا حدوث هذا، فإنه لا يعني سوى الانعزال والانغلاق و التحجر و الموات لهذه الشعوب، لأنها لن تتواصل فيما بينها، لكن فوكوياما يقرر ببساطة مخلة للغاية أن المتشائمين وحدهم هم الذين يشكون في قيام هذه الوحدة العالمية، فقد أصبح في عصر العولمة من الإمكانيات الحضارية و السياسية ما يساعد على كتابة تاريخ عالمي للبشرية"¹. فضلا عن الثورة العلمية في مجال لتكنولوجيا الإعلام، التي نجحت في غزو أكثر المناطق انزواء في العالم، هذه التحولات ستعطي في نظره مزيدا من القدرات و تسرع من وتيرة الديمقراطية عالميا.

بموجب ما سبق يصبح" النظام العالمي الجديد القائم على العولمة و الشمولية و الكليانية ضرورة ملحة و حتمية و مكسبا حضاريا، و ظاهرة تاريخية طبيعية، ارتبطت أساسا بالنماء الاقتصادي و التطور العلمي والتكنولوجي والديمقراطية الليبرالية الأمريكية.

خلاصة القول:

- حدد فوكوياما الملامح الأيديولوجية والثقافية،والسياسية و الاجتماعية والاقتصادية لمرحلة عالمية، وسيصاغ هذا التوجه العالمي في مقولة العولمة التي زكت هيمنة الدول

¹-نبيل راغب: أفنعة العولمة السبعة، مرجع سابق، ص374.

الكبرى على دول العالم الثالث خاصة، ويصر كثيرا على أن الثقافة الكونية المستقبلية ستكون ثقافة العولمة و ركيزتها التاريخية التي ستعتمد عليه هي السوق.

- يصنف فوكوياما ضمن المتبنين للمركزية الأوروبية، لتي تلغي الاختلاف و ترفض التعدد، ولا تلقي بالأل للمهمش أو الثانوي العرضي، فأفكاره حول نهاية التاريخ هي انتصار لمسألة انصهار الثقافات و ضرورة عالميتها، وقيام منظومة الثقافة السوقية الكونية، وهي تعزز ضمنا لمفهوم نهاية الاختلاف أو التعدد الثقافي، وتوجه البشرية إلى مستقبل تتخلى فيه عن ثقافتها

- هيمنة القطبية الأحادية الأمريكية على العلاقات الدولية، جعلت الأشكال الواضحة للعولمة بكل تداعياتها، غير منفصلة عن الأهداف الأمريكية على المستوى الاستراتيجي الكوني، وبما أن فكرة الثقافة الكونية هي أحد الأوجه الرئيسية لظاهرة العولمة، فإن العولمة الثقافية تعني هيمنة النموذج الأمريكي عالميا.

- نهاية التاريخ بقدر جراتها و بقدر الجدل و النقاش الذي أفاضته، إلا أنها و في نظر كثير من الناقدین تفتقد إلى الموضوعية و النزاهة، فهي صادرة عن مركزية أنوية عصابية، وهوية عنصرية متشبثة بمفهوم سلبي على نفي الآخر، ومنحازة إلى خدمة السياسة الأمريكية البراغماتية الرأسمالية.

2- الاستيطان و التمركز اليهودي في فلسطين:

لم ترتبط فلسفة التمركز على الذات بالمجال السياسي والاقتصادي فقط، بل امتدت تأثيرها إلى الحقل الثقافي، واتخذت من اللاهوت الديني بعض ركائزها و أسسها، على شاكلة أسطورة أرض المعاد، حلم العودة إلى اورشليم. حيث أشاع تيودور هرتزل اليهودي النمساوي " فكرة أنه لا استقرار لروح اليهودي إلا في فلسطين، هذا الإحساس أثار مشاعر

يهود العالم"¹. وتبنى الفكرة اللوبي الصهيوني، وجعلها ذريعة لاحتلال فلسطين، باعتبارها الأرض المقدسة التي ستجمع شتات اليهود في العالم. و اتكأت سياسته على الأساطير والاعتقادات الدينية، فأعطى العملية بعدا دينيا و عصبيا، وأشاع منظوره أن فلسطين هي الوطن التاريخي والقومي لليهود، وأن لهم مطلق الحق فيها، لأنهم أبناء الله و أحبائه، وشعبه المختار، وعليه، تم" التنظير لتفرد الجنس اليهودي عن باقي الأجناس، وما دام اليهود جنس الله المختار، فلا ينبغي أن يذوب في الأجناس الأخرى الأقل منه شأنًا"²، وأعلت العملية شعار"أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"كتعبير واضح عن ثنائية المركز الصهيوني اليهودي و الهامش العربي الفلسطيني، وتحرك مخطط تنفيذها في اتجاهين: استقدام اليهود من المنفى إلى فلسطين، في مقابل طرد الفلسطينيين من الوطن إلى المنافي و الشتات.

وقد اصطبغ الاستيطان الصهيوني في فلسطين بصبغة استعمارية، وضعت لها إستراتيجية طويلة المدى لاغتصاب الأرض والاستحواذ عليها، بهدف إقامة الدولة اليهودية المزعومة والنقية عرقيا، وشكلت العملية الاستيطانية وحدة متكاملة جمعت بين النظري و التطبيق الفعلي على أرض الواقع، بتوجيه من الحركة الصهيونية التي ركزت جهودها على التهجير الإجباري للذات الفلسطينية و اجتثاثها من جذورها وأرضها، بدل التعايش معها و استيعابها.

وتحدثنا رواية سوناتا لأشباح القدس عن القمع و التهيب والقتل الهتمي المنظم الذي يتعرض له الشعب الفلسطيني من قبل قوات الاحتلال الصهيوني، ممثلا بالموساد وفرق الهجاناه بدعم إنجليزي، لا سيما بحارة المغاربة بالقدس و شارع يافا. و تعود بنا إلى

¹ - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، دار الآداب للنشر و التوزيع، ط1، بيروت ، لبنان، 2009، ص301.

² - ريجينا الشريف، أحمد عبد الله عبد العزيز: الصهيونية غير اليهودية، جذورها في التاريخ العربي، المؤسسة الوطنية للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، 1985، ص164.

مرحلة الانتداب البريطاني على الأرض الفلسطينية، لتذكر بخطط الكيان الصهيوني للاستيلاء عليها، وتصميم الآلة الصهيونية المنظمة على إفراغها من أهلها وإخراجهم بالقوة.

لقد وجد الكيان الصهيوني الغاصب في مزاعم اضطهاد السامية "مأساة الهولوكوست" فرصة لطلب الدعم الإنجليزي و تحقيق أيديولوجيته الاستعمارية العنصرية، ووجدت أوروبا في الطلب مجالا "لكي تمحو عقدة الهولوكوست الذي تسببت هي فيه. من يستطيع منعهم بعد أن وضع الإنجليز مفاتيح البلاد كلها في جيوبهم، الإنجليز هم سبب في كل ما لحق بأرضنا، كنا نصفق لهم ونمنحهم مفاتيح المدن وكانوا يتضحكون ملء أشداقهم مع أعدائنا، ويقسمون الجغرافيا كما يشتهون".¹

وبدأ مشروع الاغتصاب بتنفيذ القوات البريطانية للوعد الذي قطعه على نفسها أثناء اتفاقية سايس بيكو، اللعبة التي جرت باتفاق محكم، تتعهد فيه بإقامة وطن قومي لليهود في الأرض الفلسطينية، يمارسون فيه حقوقهم الدينية و المدنية"إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، وستبذل كل جهودها لتحقيق هذا الغرض، وسيتم ذلك دون المساس بالحقوق المدنية و الدينية للطوائف غير اليهودية في فلسطين".² حيث تقر الفقرة السادسة من صك الانتداب البريطاني على فلسطين، بحتمية استشارة الوكالة اليهودية في كل المسائل الاجتماعية و الاقتصادية، و"تتعهد إدارة الانتداب بتوفير كل الإمكانيات للمهاجرين اليهود دون المساس بحقوق السكان المحليين"³، الذين يشكلون تسعين بالمائة من مجموع السكان.

¹-واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص301.

²-المصدر نفسه، ص303.

³-واسيني الأعرج، رماد الشرق 2، الذئب الذي نبت في البراري، منشورات الجمل، ط2، بيروت، لبنان، 2013، ص149.

وشرعت الحكومة الصهيونية بتواطؤ انجليزي في مصادرة الأرض الخصبة ذات الموقع الاستراتيجي، ثم تحويلها إلى مستوطنات يهودية. وتعزز المخطط بتطبيق سياسة العزل والتطويق، بفصل الأراضي الفلسطينية عن بعضها البعض، وجعلها سجونا للتعذيب و الحصار، ومواقع معزولة لإضعاف القوة الفلسطينية عملاً بالمبدأ " فرق تسد". ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل باشرت فرق الهاجاناه الصهيونية عمليات هدم البيوت وإحراق القرى بكاملها، و ارتكاب المجازر الشنيعة في حق المدنيين العزل، وضاعفت من عمليات التهجير القسري الفردي الذي مس الشخصيات الثورية المقاومة و النقابيين و رجال السياسة و الجماعي. من خلال تجميع المواطنين الفلسطينيين في المخيمات بحجة تعاونهم و تأمرهم ضد الكيان الغاصب. بعضهم يرحل قسراً، و الباقي يكون عرضة للتكبل به و التقتيل الجماعي أكثر الآليات اعتماداً في السياسة الصهيونية " اعتقلت المئات، وحكمت على الكثير منهم بالإعدام و المؤبد. وطبقت نظام الطوارئ على الكثير من المدن الفلسطينية، وفرضت الغرامات المشتركة و الضرائب الإضافية ونظام منع التجول، وصادرت كل ما وجدته عند الأهالي من سلاح، و حكمت بالإعدام الذي نفذ في اللحظة ضد كل من وجدت معه قطعة سلاح كبيرة أو صغيرة قديمة أو حديثة"¹.

ومكنت هذه الممارسات الإجرامية اليهود من الاستيلاء على أجزاء كبيرة من فلسطين" عن أي قدس يتحدثون و عن أي ضفة غربية وعن أي غزة؟ كل يوم نحرّم من جزء من الأرض على مرأى حكام الحروب والأقوياء، رأيت المفتاح الخشن المعلق عند مدخل البيت ؟ هل تعتقدون أنه سيفتح شيئاً يوماً ما؟ لا أعتقد. الأحياء تسرق الواحد بعد الآخر، بعد سنوات قليلة لن يصبح لهذا المفتاح أي معنى باستثناء التذكر و الألم"².

¹-واسيني الأعرج: رماد الشرق 2، الذئب الذي نبت في البراري، ص109.

²-واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص273.

كما ضاعف من عمليات التهجير القسري للسكان الأصليين، وشجع في المقابل حركات الهجرة والاستيطان اليهودية، فاستقبل المئات بل الآلاف من اليهود المشتتين في العالم، واخترق المسالك المحروسة ووزع الوفود بسرية عبر الموانئ الداخلية للأراضي العربية، النكبة تكمن في أن الغريب يصبح صاحب الدار و مالكها و المتصرف فيها "فهناك شعب مسالم مكون من مسلمين ومسيحيين و يهود، يطرد من أرض عاش فيها قرونا متعاقبة، وهي جزء حيوي منه، ويستورد شعب من الخارج لا علاقة له بتلك الأرض، هذا هو جوهر المشكل، الكثير الذين وفدوا من أراضي الدنيا اغتصبوا حتى حميمية اليهودي الطيب و ابن البلد الذي توارث تلك الأرض أبا عن جد"¹. و المشكل" ليس في السكان الأصليين الذين استقروا هنا منذ قرون، هذه الأرض لهم مثلما هي لنا، ولكن نرفض هذه الصنائع التي جمعوها من كل مكان لينشئوا بها دولة غريبة لم تشهد البشرية لها مثيلا. و خلقوا لها الأساطير التي شاءوا"².

إن هذا التجاسر على الادعاء الكاذب وعلى ارتكاب مجازرالإبادة الجماعية للأبرياء، مرده إلى أن الحركة الصهيونية تلقى دعما كبيرا، و مساندة متواصلة من قبل القوى الاستعمارية الأورو أمريكية، و تضامنا من قبل حكوماتها و نخبها السياسية وشعوبها، ضف إليه سيطرتها على الحقل الإعلامي الذي يشوه الحقائق ويتلاعب بالوقائع و يظهر اليهودي في صورة الضعيف المستهدف، بينما الفلسطيني هو الجراد و الإرهابي.

ولا يزال الشعب الفلسطيني متمسكا بأسباب البقاء رغم جميع الهزائم و المجازر و الخيانات التي لحقت به، عازما على افتكالك الاعتراف بهويته و حقه في تقرير مصيره، واسترجاع أرضه المسلوبة و كرامته المهذورة. يخوض صراعات ضد العدو الصهيوني الذي حاول جاهدا استئصال وجوده التاريخي والهوي.

¹-واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص391.

²-واسيني الأعرج: رماد الشرق2، ص164.

3- التحيز الثقافي : جائزة نوبل :

جائزة نوبل للسلام، هي الأخرى وقعت ضحية لفلسفة إقصاء الآخر و ادعاء أفضلية الثقافة الغربية، فقد بدأ الفكر المتمركز على الذات يطاله القائمين عليها، و كان من المفروض أن تتحرر من كل أشكال الفوقية والتمييز العنصري، حيث أوصى عالم الكيمياء السويدي ألفريد نوبل ومخترع الديناميت، والملقب بتاجر الموت. في وصيته التي تركها عام 1895 على تخصيص حوالي 94% من ثروته لباحثين في مجالات الطب والكيمياء والفيزياء و الأدب و السلام دون تمييز، شرط أن تكون أعمالهم في خدمة البشرية، وذلك كتعويض عن حجم الخراب و الوحشية والهالك الذي حصل في العالم بسبب الاستخدام الوحشي لاختراعه الديناميت. وبدأ تسليم هذه الجائزة منذ عام 1901، ولم يتوقف ذلك إلا في الحربين العالميتين اضطرارا.

وتمنح جائزة نوبل سنويا في عاصمة النرويج أسلو، في العاشر من ديسمبر، من قبل اللجنة النرويجية لجائزة نوبل" ويتم اختيار المترشحين للجائزة من قبل هيئة يعينها البرلمان النرويجي، وذلك حسب وصية نوبل، حيث يتم منحها للذين قاموا بأكبر أو أفضل عمل للتآخي بين الأمم، من أجل إلغاء أو تخفيض الجيوش الدائمة، ومن أجل الحفاظ على السلام وتعزيزه.¹.

تحمل الجائزة رمزية كبيرة على مستوى عالمي، لذلك حلم الكثيرون بنيلها و تنافسوا في ذلك، لكن المؤسف، أنه، و في السنوات الأخيرة أثير جدل محموم حولها، بسبب ارتباطها بأسماء شخصيات وجهت لها أصابع الاتهام وتورطت في جرائم تتعارض مع المبدأ والقيمة التي قامت عليه الجائزة. لقد اتهم المحامي والقانوني فريدريك هافرميل، رئيس لجنة نوبل للسلام توروبيون ياغلاند، بتسييس الجائزة و الذهاب بها بعيدا عن روح

¹-ويكيبيديا: جائزة نوبل للسلام، '2022.20:36-12- 15ar.m.wikipedia.org

وصية ألفرد نوبل، ووصفها بأنها" أخذت طابع التسييس وفقدان الشفافية"¹، وأضاف "كيف لنا أن نفتتح أن الجائزة تخلو من مدلولات سياسية أو تخلو من التسييس، و القائمون عليها سياسيون"²، كما اتهم " لجنة نوبل بتقربها من الولايات المتحدة والغرب لتحقيق المزيد من الكاسب و المناصب الدولية."³.

في المدينة الملكية السويد توجد أكاديمية نوبل وملحقاتها أين تحكم مصائر الأدب العالمي، وقد باتت جائزة نوبل عرضة للتشكيك و النقد والجدل من قبل المثقفين وبعض السياسيين، لأنها سلمت لغير أهلها في مرات عديدة، بتدخل من شخصيات أكاديمية، مع أنها لم تكن شيئاً في الكتابة الأدبية الإنسانية. العديد من الأسماء دفع بها "لتحسس ردود فعل المحيط الثقافي العلمي المليء بالإرباكات السياسية والأسئلة المعقدة"⁴، وقد رشح الفلسطيني محمود درويش لنيلها هذه المرة، وفي حال حصل عليها ستضيف هذه الجائزة "بذاكرتها المرتبكة قيمة إنسانية عظيمة، إن درويش قبل أن يكون فلسطينياً أو عربياً، هو قيمة إنسانية نادرة في عالم ما يزال تحت سطوة الظلم والغطرسة. ألم يكن نوبل يحلم بأن يجعل من جائزته وسيلة للإنسانية لمحو عقدة الذنب والإشادة بالإنسان كقيمة متعالية، بعد أن أصبح البارود هو لغة العصر ؟ كانت أرض درويش طيبة تسع الجميع. المسلم و المسيحي و اليهودي، وكانت كلمة فلسطين هوية مرتبطة بالمكان المشترك و بالتنوع الثقافي و الديني"⁵.

لكن الإشكال يستيقظ ويزداد كلما تعلق الأمر بعربي وتحديداً بفلسطيني، خاصة إذا ترشح بجانبه آخر إسرائيلي هو آموزعوزو، وهو "روائي كبير، كتب روايات كثيرة أحدثت

¹-سمير شطارة: نوبل السلام بين التسييس والاستقلالية، 21:30، www.aljazeera.net10/12/2010

²- المرجع نفسه.

³- المرجع نفسه.

⁴- واسيني الأعرج: أنثى السراب، ص558.

⁵- المصدر نفسه، ص558.

أثرا طيبا بموضوعاتها الإنسانية، بخياراتها الطيبة التي لا ترى في الفلسطيني دائما عدوا لا يعرف شيئا آخر إلا محو اليهودي معظم رواياته هناك ربما 1971، عزيزي ميخائيل 1973، حتى الموت 1974، لمس الماء، لم الرياح 1976، الاستراحة، الأكثر عدلا 1986، وغيرها من الروايات التي تركت أثرا كبيرا في نفسية القراء بقيمتها الإنسانية المدافعة عن الحق في العيش الكريم، ثم كتابه الذي يظهر فيه نضاله من أجل تقارب عربي إسرائيلي: أصوات إسرائيلي 1983¹. أسماء كهذه تدعو للسلام، يجب أن يحتفى بها، يستحق كليهما الجائزة. فالغربي لم يتحرر بعد من عقدة الاستعلاء، ولا يزال متمسكا بالأوهام التي نسجها عن نفسه، ذلك أن "تشبث الإنسان بشبكة المعاني التي نسجها بنفسه يدفعه إلى منحها صفة سمو و القدسية في كثير من الأحيان، ناسيا جيناتها الأولى ومبتدأ أصلها، و يدفعه هذا التشبث بالتالي إلى الأحادية في تعامله مع ثقافته مقابل ثقافات الآخرين، على أساس أنها هي وحدها التي تحمل المعنى و تحمل الغاية، ببساطة على أنها هي وحدها المتضمنة لحقيقة الوجود، وبالتالي نفي هذه الصفة عن بقية الثقافات، ومن هنا ينشأ الصدام بين الثقافات"². لكن هل من الضروري هذه الازدواجية في الحكم؟ "ألا يمكن التفكير في الواحد بشكل عمودي و عميق؟ ألا يوجد تفكير له إمكانية الانفصال عن هذه الازدواجية المقيدة، والتفكير مباشرة في القيمة الإنسانية و الأدبية أولا و أخيرا، مواعيد عظيمة في رحلتها التي تخترقها دائما الحسابات التي لا تفضي بالضرورة إلى نتائج تثبت القيمة قبل أي شيء آخر"³.

لقد خسرت الإنسانية كثيرا بسبب هذه الازدواجية في المعايير، ففي مواعيد كثيرة اخترقتها حسابات مصلحة وعنصرية. ومنحت الجائزة لغير مستحقها "أخطأت ليون

¹ - المصدر السابق، ص 558.

² - تركي الحمد: الثقافة العربية في عصر العولمة، مرجع سابق، ص 17.

³ - واسيني الأعرج: أنثى السراب، ص 558

تولستوي في 1901، عندما كانت تبحث عن مسالكها الأولى، وسلمت لسولي برودهوم (Sully Prudhomme)، الذي لم يكن شيئاً مطلقاً في الكتابة الأدبية، لا في الثقافة الفرنسية ولا الإنسانية، سوى أن شخصية تقليدية من الأكاديمية فرضته قبل أن يدرك بقية الأعضاء الكارثة التي وقعوا فيها¹، واختيار الفائز بها لا يخلو أحياناً من دلالات سياسية، خاصة وأن القائمين عليها، وأعضاء اللجنة المانحة لها أصحاب ميولات حزبية وسياسية، كما أن النرويج دولة في النатов، وسياستها تتلاءم مع سياسة أمريكا "فلسطين ليست في النهاية إلا التعبير المختزل عن أزمة العصر بكامله و الغرب أيضاً، تجاه قيمه التي ابتدعها ودافع عنها باستماتة: قيمة الحق في الحياة والحرية و العيش الكريم، أشعر كأن هناك أزمة ضمير تأكل الغرب من الداخل على الرغم من توارث الأجيال، فقد التبس برؤية ازدواجية متحكمة في كل تصرفاته حتى الفكري منها: بين الرغبة و الموضوعية و الخوف من إغضاب الآخر، وكأن على الآخر أن يكون راضياً أولاً قبل اتخاذ أي قرار، الغرب موجود داخل دائرة من الضيق وعسر التنفس الحر، تمنع جائزة نوبل من الخروج من الديكوتوميا البغيضة، ونحت طريق جديد أكثر جمالية، وأكثر حرية²، وبعض ممن فاز بالجائزة شخصيات مثيرة للجدل، مشكوك في عملها من أجل السلام الإنساني، فهي تروج لسلام على الطريق الأمريكية، وتخدم القيم و المفاهيم والمصالح الأورو أمريكية.

المطلب السادس: صراع الأديان:

خلال الفترة الممتدة من القرن 8م إلى 16 م، أقام مسلمو الأندلس في شبه الجزيرة الإيبيرية حضارة عظيمة متنوعة ثقافياً و دينياً، وتجمع كتب التاريخ على أن هذه الحقبة هي حقبة تعايش الثقافات و الديانات الثلاث الإسلام و المسيحية و اليهودية، فقد عاشت في جو من الحوار و التسامح تحت عباءة الحضارة العربية الإسلامية، قبل سقوط غرناطة

¹ - المصدر السابق ، ص559.

² - المصدر نفسه، ص558

آخر قلاع المسلمين في إسبانيا وانتهاء النفوذ الإسلامي فيها عام 1492م. وبسقوط الفردوس المفقود انتهى حكمهم الذي دام قرابة ثمانية قرون، ليسقط بذلك مجد المسلمين وعزهم، وتتردد مقولة أم حاكمها الأخير " ابك كالنساء على ملك لم تحافظ عليه كالرجال". وتبدأ معها رحلة الدم والعذاب.

و حين سلم السلطان عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر مفاتيح المدينة إلى الملك الإسباني فيرناندو الثاني وزوجته الملكة إيزابيلا الأولى، ألزم الملك الإسباني بتوقيع معاهدة، تلزمه باحترام خصوصية الموركسيين وعقيدتهم وثقافتهم و نمط حياتهم، وتحفظ كامل حقوقهم وممتلكاتهم، وتبيح لهم الاحتكام و الخضوع إلى القضاء الإسلامي، وتسقط عنهم الضرائب.

و حين استعادة الملك أرضه المفتوحة وملكه، خان الملك فيرناندو عهوده، و أعلنت الكنيسة العودة إلى النصرانية، فنظمت حملات تبشيرية خيرت فيها الموركسيين بين التحول إلى الكاثوليكية أو ترك إسبانيا نهائياً. بدأ الأمر أولاً بطرق سلمية، وسرعان ما انقلب إلى استخدام العنف و التهريب الذي مورس ضد المسلمين واليهود الرافضين للتتصر "الضحية المثالية، المارنوس* أو الموريسكوس*، لا يهم كلاهما يحتاج إلى التطهر بالنار".¹ ومارست كل أشكال الاضطهاد الديني بهدف توحيد إسبانيا سياسياً في ظل الملكية. في ظل هذا التضيق و الاختناق، وجد مسلمو الأندلس أنفسهم ملزمين على التنصر أو الترحيل الإجباري تاركين أملاكهم و أولادهم، الذين سيدفعون إلى عائلات نصرانية. و في حال رفضوا ذلك، سيمنعون من التوجه لأي بلد إسلامي آخر يحارب الإسبان. وتقرر وقتها ملاحقة الرافضين وسجنهم و تعذيبهم و مصادرة أملاكهم، وإجبارهم على تغيير دينهم و أسمائهم وعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم و ثقافتهم و ربما إعدامهم.

¹-واسيني الأعرج: البيت الأندلسي ص72. *المارنوس: يهود الأندلس. *المرويكسيون: مسلمو الأندلس.

و حفاظا على سلامتهم و دينهم، اضطروا إلى التظاهر بالمتنصر، فعاشوا حياة مزدوجة، في الظاهر وعلنا كانوا مسيحيين، أما حقيقة، كانوا على دينهم الأصلي.

وفي القرن 16، وباسم الحق الإلهي، ضاعفت الكنيسة السلطة الحاكمة من حملات الاعتقال والتعذيب بسبب و بدونه، فأنشأ البابا محاكم التفتيش، وهي في ظاهرها هيئة قضائية مسيحية أنشأت لخدمة الله، ولمحاربة البدع و الهرطقات و محاكمة السحرة، نشطت بين القرنين 15م و 16م، لكنها استخدمت أيضا في مطاردة كل من يشك في دينه، وفي التنكيل بالمسلمين واليهود و البروتستانت لحملهم عنوة على التحول إلى الكاثوليكية، وسرعان ما اتخذها الملوك الأوروبيون لخدمة مصالحهم تحت غطاء خدمة الدين والقضاء على الخرافة. ليبدأ بتطبيق بنودها أكثر الفصول دموية ووحشية في التاريخ الكنسي، بهدف القضاء النهائي على الوجود الإسلامي في إسبانيا، و مصادرة الذاكرة العربية ومحو الهوية الإسلامية.

وقد انتهجت الكنيسة في سياستها أعمالا لامشروعة و منافية لمقاصد الأديان السماوية و غاياتها النبيلة، لا تقر بأحقية الناس في الاختلاف و العيش بسلام، متخذة من الاختلافات العقدية أرضية للصراعات والظلم، فباشرت منع الصلاة على الطريقة الإسلامية، وتم إحراق الكتب والمساجد أو تحويلها إلى كنائس، ونكلت بالشخصيات الإسلامية ذائعة الصيت لتكون عبرة لغيرها، كما صادرت الأملاك والبيوت، وحضرت التحدث باللغة العربية و ارتداء اللباس العربي و منعت الختان والاحتفالات الدينية و كل الشعائر التي تمت بصلة للدين الإسلامي "منها: حظر الختان وحظر الوقوف تجاه القبلة و حظر الاستحمام و حظر ارتداء الملابس العربية. فإذا علم أن أحدا اغتسل يوم الجمعة يصدر في حقه حكم بالموت. وإذا وجدوا رجلا لابسا للزينة يوم العيد عرفوا أنه مسلم فيصدر في حقه حكم بالإعدام، وكذلك لو وجدوا في بيته مصحفا، أو امتنع عن الطعام في رمضان، أو امتنع عن شرب الخمر، وأكل لحم الخنزير، وكانوا يكشفون عورة من

يشكون أنه مسلم، فإذا وجدوه مختونا أو كان أحد عائلته كذلك، فليعلم أنه الموت ونهايته هو وأسرته"¹، ولم تتوانى في بيع الكثير منهم، أو تنفيذ الإعدام الفوري لقرى كاملة، إذا اكتشف ثباتها على دينها، ودفعت بالآخرين إلى الشتات والترحيل نحو أفريقيا، منهم غاليلو الروخو الذي تنتهي سلالته إلى فاطمة بنت الرسول الأكرم، لقد سجن ولاقى فنونا من التعذيب والإهانة. الموت المحقق كان النهاية، لولا الكاهن أنجيلو ألونصو الطيب الذي شهد زورا أنه مسيحي، و أنه راه يقيم الصلوات كل يوم أحد. أطلق سراحه بعدها شرط مغادرة وطنه.

الترهيب طال أيضا الطائفة البروتستانية التي اضطهدت وأبید معتقوها نهائياً، فاضطرت عائلات كثيرة إلى تغيير معتقداتها الدينية تحت سيطرة الأغلبية القاتلة المتعصبة "في وقت الحروب الدينية، اضطرت تحت عقدة الأغلبية القاتلة إلى اعتناق كاثوليكية لم يكن مؤمناً بها"². "أنا أيضا عائلتي أجبرها الملوك الكاثوليك في إسبانيا على التمسح، فتمسحت ظاهرياً، لكنهم ظلوا على معتقدهم الديني، متخفين حتى الموت، ولو أن الأجيال اللاحقة سهلت على نفسها الخيارات باعتراف المسيحية في النهاية، بعض الأشياء نبدأها خوفاً، لكننا سرعان من ننتهي فيها، لهذا ساءت علاقتي بكل الأديان لأنها كلها بنيت على الدم، أعطيني ديناً واحداً من الأديان السماوية لم يسلموه، ولم يبني على الخوف و الدم، البشر قساة."³. كان عليهم أن يدفعوا ثمن تاريخ صنعه غيرهم.

قانون الطرد والتهجير والتعذيب كان قاسياً لم يزد إلا الأحقاد والكرهية، كان له بعد ذلك الكثير من القسوة و المنافي الأندلسية المتكررة و المآسي الدينية و الثقافي " تخيل

¹ - ويكيبيديا: محاكم التفتيش الإسبانية، سلطة قضائية في إسبانيا، wiki.ar.m.wikipedia.org، 2021-11-25، 19:25،

² - واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص300.

³ - المصدر نفسه، ص300.

شعبا يجر عن بكرة أبيه، ويوضع على حواف الموانئ المتوسطية، لا ذنب له إلا أنه ولد في تلك الأرض، حتى أني في لحظة من اللحظات شتمت كل الأديان، كل الأديان بلا استثناء، بها تخاض الحروب و تراق دماء الأبرياء، وبها أيضا تتوقف"¹.

فأن تكون مسلما، هذا وحده كان كافيا لأن تتعرض لشتى صنوف التعذيب والإذلال النفسي والجسدي على يد رهبان محاكم التفتيش، يتم الأمر في كاتدرائية هي أساسا مركز تعذيب، تمزق فيها الأجساد البشرية بوسائل شتى وتكسر العظام أو يسحق الجسم أو يقطع إربا إربا، بكثير من الكلايب والكماشات والسلاسل والسكاكين و الأغلال والسيوط الحديدية التي يعذب بها أعداء الدين، الآلاف من الهياكل البشرية لاتزال مكبلة، تفوح من السجن رائحة الموت و العفن، ويتعالى فيه صياح المجانين و أنين النساء و الرجال العراة على السواء. هذه الممارسات البشعة تؤكد أن الإنسان أضاع إنسانيته ورشده، و تمسك بمعان منحها صفة سمو والقدسية، فتعامل مع دين وثقافة المختلفين بفوقية وعنصرية، على أساس أن خصوصيته هي وحدها التي تحمل المعنى و الحقيقة المطلقة، فنتج عن ذلك صدام ديني و صراع ثقافي يحذر من آت مظلم "اندثر اليوم كل شيء أو يكاد، وحل المحو المبكر على ذاكرتنا و حاضرنا و استقر الخوف فينا بدل الحب والقتل بدل السماحة، والغفلة بدل النباهة، و الطغيان بدل الرشد، و القشرة بدل اللب، و الدين بدل العقل"².

ويتجلى التعصب الديني و عمى العنصرية التي تقف في وجه الحوار و التعايش مع المختلف دينا وثقافة في ما اشترطته السلطة الإسبانية على سرفانتس وأخيه، فدخولهما العسكرية مقرون بتقديم وثيقة تثبت نقاء دمهما من الموريكسيين و المارانينين، الأمر تعجيزي، خاصة بعد التعايش و التزاوج الحاصل بين سكان إسبانيا طيلة قرون مضت ف"

¹-واسيني الأعرج: البيت الأندلسي، ص285.

²-المصدر نفسه ، ص31.

كيف يمكنك أن تتحكم في دمك؟ وهم يعرفون جيدا أن الدم القادم من بعيد لا أحد يتحكم فيه، من يعلم اليوم بعد ثمانية قرون من الزمن أو أكثر أن دمنا هو دمنا؟ ماذا كان يفعل المسلمون الذين اختلطوا بنا في أرضنا؟ ماذا بقي منهم اليوم و ماذا بقي منا صافيا بعد كل هذا الزمن؟ دمهم فينا ودمنا فيهم؟ هل ننكر هذا كله بورقة يمكن أن يمنحها لنا أي غبي برشوة؟¹.

و يبدو أن المقابر وحدها من بقيت متسامحة تسع تربتها الجميع، في وقت تنامت فيه الأحقاد والضغينة "امحت فيها كل الأديان، استقبلت المسيحي و اليهودي و المسلم و البوذي و الملحد(...)"، ماتزال تقاوم الأحقاد و جنون البشر الذين ينامون على يقين وحدهم يصنعونه، ويموتون فيه، يفصلون داخل الدين الواحد أديانا على مقاسهم².

وراء إدراج الأديان في حلقة الصراع الحضاري دوافع سياسية بالدرجة الأولى، و هي إحراز السيطرة والنفوذ بسبب أطماع البشر، هي صراعات صنعها القادة باسم الدين والولاء المطلق ليعتاشوا عليها، فوظفوا الخطاب الديني وعزفوا على وتره من أجل الإقناع و تأجيج العواطف واستمالة العقول و القلوب "مازلت مؤمنة إلى اليوم أن مقتل العمران و الحضارات هي الأديان عندما يتم تسييسها و تسييرها وفق الأهواء البشرية"³. فالمشكل بالأساس يكمن في وجود مجموعة من المتعصبين الذين ييئون سموم الكراهية والحقد والبغضاء التي تجد لها صدى و أرضية خصبة في عالم غير شريف مليء بالعنصرية والبيشاعة و الظلم.

¹-المصدر السابق ، ص269.

²-المصدر نفسه، ص ص8-9..

³- واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص348.

نخلص إلى:

مادام الانحباس في تصورات مغلقة عن الذات و الآخر، والرضوخ لتصورات دينية وعرقية وثقافية متحيزة إقصائية، تزرع فكرة النمو في الذات و تقصي الآخر المختلف متحكما، فإن الصراع الحضاري و الثقافي سيظل قائما في ظل غياب النقد الذاتي. و ما ظلت تلك المرويات الكبرى والمركزيات الثقافية هي ما يوجه أفكار المؤرخين والجغرافيين والرحالة و الإعلاميين و الأدباء و الفنانين، وكل من يصوغ الصور الجماعية الذهنية الخاصة، فإنه يصعب الحديث عن نهاية هذه النزاعات و الصراعات الثقافية.

المبحث الثاني: مظاهر الحوار الحضاري و الثقافي.

الحوار من المفاهيم الجديدة المتداولة في الفكر السياسي و الثقافي المعاصر، تمت الإشارة بديلا عنه إلى معاني التسامح و التعايش و التعاون الدولي، وتعزيز سبل العمل الجماعي المشترك "الحوار ليس من ألفاظ القانون الدولي، فهو لا يوجد أصلا في ميثاق الأمم المتحدة، ولا في إعلان مبادئ التعاون الثقافي الدولي، وعلى هذا الأساس، فإن الحوار، إذا هو مفهوم سياسي أيديولوجي ثقافي حضاري، وليس مفهوما قانونيا"¹.

نال هذا المصطلح أهمية كبيرة في القرن العشرين، وأضحى موضع اهتمام من قبل النخب السياسية والفكرية، وطرح بقوة في عديد من اللقاءات الدولية ذات الطابع الثقافي و السياسي، لاسيما بعد إعلان الجمعية العامة للأمم المتحدة عام 2001 عاما للحوار بين الحضارات، وقد شاع هذا المصطلح في منتصف التسعينات من القرن الماضي، وتمحور

¹ - شبلي هجيرة: إشكالية مستقبل العلاقة بين الحضارات، زكي ميلاد نموذجا، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في فلسفة الحضارة، جامعة الحاج لخضر باتنة، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية والاسلامية، قسم العلوم الانسانية، شعبة الفلسفة، 2012-2013، ص81.

في الغالب حول تجاوز التباينات الثقافية والعقائدية الدينية خاصة والتأكيد على التعايش بين الأديان.

وكفعل إنساني كان التعايش بين الحضارات و التفاعل بين الثقافات، ولا يزال هو المنتج الرئيس الذي استمدت منه الحضارة والثقافة الإنسانية، باعتبارها نتاج فعاليات و منجزات الحضارات قاطبة حيويتها واستمرارها تشكل الحضارات تنوعا فسيفسائيا من الثقافات يغني الحضارة العالمية، وتبقى مسألة الأخذ أو الترك منها محل اختيارات إنسانية تقديرية، تكيفها كل حضارة مع ما تراه متناسبا مع أوضاعها و قيمها ومرحلتها الحضارية، فتستغفر قواها الإبداعية في هذا الجو التفاعل حضاريا، لتطور نفسها داخل نسقها الحضاري بعيدا عن مضار العزلة و التقوقع، فتخرج الحضارة الإنسانية من الأحادية الحضارية، ويعرف العالم تجربة التعددية الثقافية التي تزدهر فيها قوى الإنسان وقدراته الإبداعية، وتتخاطب الحضارات و الثقافات بلغة المنافسة الشريفة، فيطوى معها منطق الصراع و الصدام و الغلبة المبيدة و التبعية الذليلة.¹ فهو كفاعلية بإمكانه إزالة مسببات التنازع والصدام بين الحضارات، وعليه يكون التعارف هو الخطوة الأولى للانفتاح الكوني، و الفهم المتبادل و التعاون المشترك.

هو المعنى ذاته لمفهوم العالمية الإسلامية التي تعني التفاعل و التدافع و التسابق مع الآخر في ظل التأكيد على أن التعددية الحضارية والتنوع الثقافي و الاختلاف في الشعوب و الأمم والقبائل..، وفي الألوان والأجناس و الأعراق..، وفي الألسنة و اللغات و ثم في القوميات..، وفي الشرائع و الملل الدينية..، وفي المناهج والمذاهب و الثقافات

¹ - ينظر: محمد مراح: نحو رؤية إسلامية لتعارف الحضارات، كتاب تعارف الحضارات إعداد زكي ميلاد، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2006، ص ص95-100.

و الفلسفات والحضارات.. ، إن كل هذا التنوع و التمايز و الاختلاف هو القاعدة الطبيعية والقانون التكويني والسنة الإلهية التي لا تبديل لها ولا تحويل.¹

يؤمن هذا مفهوم بأن التعدد والتنوع و التمايز و الاختلاف هو القاعدة والقانون في كل عوالم الخلق، وأن التفاعل هو الوسط العدل بين العزلة و الانغلاق وبين التبعية و الإلحاق. يقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾²، و تلخص هذه الآية الرؤية الإسلامية لمسألة حوار الحضارات كونه حقيقة إلهية وضرورة إنسانية، وباعتى على التعايش و الاستمرارية، و"هذا المبدأ ينطبق من باب أولى على عصرالعولمة التي فتحت معظم المنابع بين معظم الدول للمزيد من التدفق الثقافي جيئة وذهابا، وذلك للمزيد من التفاعل و الحيوية والخصوبة، وليس التجانس و التقولب و التتميط"³. ولعل الوصف الأكثر ملائمة للإنسانية اليوم هو أنها تمثل جماعة استقرت على ظهر سفينة كونية عبر الفضاء الكوني، ويتحتم عليها أن تتجنب حدوث أي خلل فيها بأي ثمن.⁴ ولن يكون ذلك إلا بتوثيق عرى الحوار الحضاري و التعارف الديني بين مختلف الثقافات والشعوب، لأن " الحوار بمعناه التواصلي و المعرفي مقدمة أساسية للتعاون وتعاضد الجهود ومواجهة التحديات الداخلية و الخارجية، فالحوار وسيلة تعارف و لقاء وتأصيل للرؤى وواقعية الحلول والاتفاق على الأهداف الكبرى، من خلال تقارب الاتجاهات، فيعاد ترتيب الأولويات وتعمق الأفكار و تغنتي بعضها ببعض."⁵

¹ - محمد عمارة: بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية ، ط1، مكتبة الامام البخاري، 2009، ص13.

² - سورة الحجرات، الآية13.

³ - نبيل راغب: أقنعة العولمة السبعة، ص346.

⁴ - محمود حمدي زقزوق، الإسلام والغرب، مكتبة الشروق الدولية ، ط1، القاهرة، 2005، ص84-85.

⁵ - رضوان السيد، أحمد برقايوي: المسألة الثقافية في العالم العربي و الإسلامي، دار الفكر، ط2، دمشق، 2001، ص10.

وفيما يلي تتبع لمظاهر تجلي الحوار الثقافي:

المطلب الأول: الوشائج الإنسانية (الرباط الروحي):

أسهمت السياقات التاريخية ولا تزال في رسم صورة مشوهة للآخر المختلف، بما أحدثته من " جراح رمزية ومادية في ذاكرة جماعة ما بالنظر إلى ما يمارس عليها من عنف و حيف و تهميش"¹، غير أن الكاتب خالف هذه الرؤية وعمد إلى إيجاد صيغ منفتحة على الغيرية تقوم على وشائج إنسانية تسيروها إرادة واعية وحرية في الاختيار، تتحرر فيها الذات من أنانيتها ومركزيتها بفعل الحب و الصداقة.

ففي رواية 2084 حكاية العربي الأخير، يتأسس لقاء آدم العربي مع زوجته اليابانية الأصل أمايا على التلاقح الفكري و الانجذاب الجسدي، في أفق رحيب يخترق دائرة الاختلافات العرقية و الدينية، لينتج علاقة قائمة على التراضي و القبول، وعلى الحب و التفاهم و الثقة، فأمايا انعكاس لروحانية الشرق المؤمنة بالقيم الإنسانية، و التي توقن أن الإنسان أنا موجودة لأجل الآخر و ليس ضدها، تعيش سلاما روحيا مع الأديان، دينها الوحيد الإنسانية نقطة الالتقاء بين كافة الأديان السماوية، درست الطب الإشعاعي ورفضت بلا هواده السلاح النووي و حذرت من تداعياته الفظيعة، وتطلعت إلى إمكانية إعادة بناء الإنسان بالحكمة و العدل والسلم، تلعن الحرب ومن يقف وراءها و تنبذ التطرف، و ترى في التعايش فرصا لحياة أكثر ثراء و تنوعا وتحضرا في إطار المشترك الإنساني.

و هي مرآة آدم التي يرى فيها نفسه، لقد منحته اليقين و الوجود، وفرحة الأبوة بـ"يونا" ثمرة التلاقح الجسدي و التفاعل الحضاري الحر و الطوعي بين ثقافتين مختلفتين، "إن التعدد الذي نرومه موجود في أغوار الإنسانية، و لا مرأى من أن هذا التعدد سيفتح

¹ - محمد الداوي: صورة الأنا والآخر في السرد، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2013، ص155.

الآفاق للتواصل و التداول ومد جسور الحوار و التفاعل والقضاء على كل تصورات متعالية أو مطلقة تتنافى في نهاية المطاف و مصالح الأفراد العامة، وتقضي على حريتهم وتكرس مشاعر الكره وأفعال العنف"¹، فبالانفتاح و الحوار و التعايش يتجاوز الإنسان النظرة الصدامية الضيقة إلى أفق رحيب، حيث تقترب كل حضارة من الأخرى باحثة عن الأفضل.

كما يحضر الجانب الإنساني المتسامح في شخصية البريطانية إيفا كريستوفر، الناشطة في مجال حقوق الإنسان، و رئيسة جمعية الدفاع عن الأجناس الآيلة للزوال، التي تدافع باستماتة عن سكان آرابيا (العرب) الراضين تحت نير القهر والحرب و التقتيل وشتى صور الإذلال "اخترت أن أبقى هنا و ربما أموت هنا مع أناس لا يعرفونني، ولكنهم وضعوا كل حياتهم بين يدي"²، وحين علمت بشأن تجارة الأعضاء البشرية لبؤساء آرابيا. بعثت بوثيقة إلى الجمعيات المعنية في وزارة الدفاع، وإلى أسطول البحر الأحمر ومضيق هرمز باسم مستعار، تنبههم فيها إلى الصفقات المشبوهة التي تتم عند بوابات القلعة، دعمتها بوثائق سرية وأدلة قطعية تؤكد فيها بشاعة الجرم في حق الآرابيين المستهدفين من طرف التنظيم ومافيا الرُّحل وأطباء القلعة وقادتها المجانين، فما يحدث في هذه الحرب لم يحدث في سابقاتها في أي مكان آخر، إنه يشكل خطراً على الإنسانية والحياة كلها، أجناس محقت وأقوام نسفت وضحايا بلا حدود.

وقوفها بجانب البؤساء العرب أثار استغراب الطاغية ليتل بروز قائد قلعة أميروبا، فكثيرا ما تساءل عن سبب إنسانيتها "ما الذي يقود بشرا للدفاع عن أشخاص لا يعرفون عنهم إلا القليل ؟ وقد لا يعرفونهم بتاتا، تدافع باستماتة عليهم و كأنهم من دمها أو قريبة

¹ - محمد بكاي: أرخبيلات ما بعد الحداثة، ص136.

² - واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص365

لهم"¹، و" لا أفهم كيف تزج امرأة جميلة بنفسها في مغامرات حقوق الإنسان، التي لا قيمة تجنيها من ورائها إلا المتاعب و المخاطر الكثيرة على صحتها و حياتها، وزوجها مرتاح في القصر الملكي"².

لقد منح حب آدم لإيفا القوة لتواصل عملها الإنساني، ومنحته الأمل في الحياة في قلعة لا شيء فيها سوى التكرار المميت والخوف والعدمية، وأعادته إلى مشروعه النووي، و شجعتة على الاستمرار فيه، ودفعته إلى التفكير فيه بقلبه وضميره، ظنّته سلمياً وأنه سينفع البشرية ويقلل به من المظالم والغطرسة و يخفف مأساة الأرابيين "أنت هنا أمام مآسي البشر التي تكبر كل يوم قليلاً، المشردون العابرون الذين رأيتهم، من سرق حرياتهم وراحتهم؟ مجموعات القتل والجريمة هي التي قادتهم نحو هذه المأساة الحارقة ماذا لو وجدوا رحمة عند أنصار الموت. الحق ليتم حمايته يحتاج إلى قوة رادعة وليس ظالمة"³.

إيفا مؤمنة بما تقوم به، وتناهض سياسة ليتل بروز العنصري وشياطين الموت قتلة التنظيم المعتهوين، الذين يتحكمون في حياة البشر، اختارت طريقها واستعملت كل ما في وسعها لمساعدة سكان أرابيا، تمنّت أن تنتمي إليهم، حبها لآدم هو السبب "اخترت أن أبقى هنا، وربما أموت هنا، مع أناس لا يعرفونني ولكنهم وضعوا كل حياتهم بين يدي"⁴. ساعدتهم في الحصول على الأدوية والماء، و تتعاون معهم بشكل سرّي، واستطاعت بفضل تعاون مهندس مائي وبعض سكان المنطقة أن يخلقوا تمديداً مائياً تحت الأرض يمتد من السد إلى البيوت العامرة، يجري فيه الماء في القصب المفرغ من الدّاخل، عملوا في الليل خصوصاً، بعيداً عن الرقابة المفروضة "كل ليلة نحفر حتى وصلنا إلى خلجان

¹-المصدر السابق ، ص37.

²- المصدر نفسه، ص60.

³- المصدر نفسه، ص83.

⁴- المصدر نفسه، ص365.

الوادي حيث يتدفق السد، وربطناه مع بقية القصب، فجأة أصبح الماء يسيل إلى بيوتنا، نملاً ثم نغلق العين شيئاً فشيئاً بدأنا نغرس السلاطة والطماطم والبطاطا وكل شيء يعطي محصولاً سورياً كبيراً التربة كنا نأتي بها بالقرب من الجبل البركاني"¹. امرأة شجاعة، وقعت وثيقة تتحمل فيها المسؤولية الكاملة إذا وقع لها أي مكروه، جهودها في إطار العمل الإنساني لمنظمات حقوق الإنسان خفت بعضاً آثار الجروح والخيبات، تقوم بأعمال خارقة خاصة للنساء والأطفال العُزل، أصبحت تتكلم العربية، تستحق كل التقدير والاحترام.

إنها مثال للنبل الإنساني و للشخصية الحضارية و التعاطف الكوني الذي يعزز أواصر التواصل بين الأنا والآخر بغض النظر عن معتقده أو جنسه، وهي صورة عن الآخر الايجابي المتحرر من النزعة الاستعلائية، والذي صار جزء من الأنا العربية " فحين يمتلئ قلب الإنسان بالإيمان يستطيع أن ينبذ التعصب والكراهية، ويمارس في حياته انفتاحاً على الآخر، حينئذ يخلق في آفاق الموضوعية التي تسمح له أن ينصف ذاته و الآخر معا"².

علاوة على كون آدم عالم نووي، فهو أيضاً بطل رياضي، كان يمكن أن يصبح واحداً من أشهر رياضيي العالم لولا الحادث الذي أنهى مستقبله الرياضي ووجهه إلى العمل المخبري، وقد سمحت الدورات و المنافسات الرياضية التي شارك فيها بإقامة صداقات مع رياضيين من مختلف الجنسيات و الثقافات "في بالتمور، في نيويورك، واشنطن... عندي دورة الأبطال في تكساس، عندي التزام مع شيكاغو سبور، وسأشارك في سباق بطولات الجامعة الأمريكية..."³. كما تربطه صداقات وطيدة مع علماء منحدرين

¹ - واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص233.

² - ماجدة حمود: صورة الآخر في التراث العربي، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2010، ص88.

³ - واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص121.

من أصول و ثقافات متباينة أبرزهم " سميث جوردن و زوجته لاورا، اللذين أصبحا مع الوقت شريكين في العمل المخبري، وكاتسومي الفيزيائي الأمريكي الياباني، الذي كان يشبه اسمه الجمال المتجلي، وسمير خان الأمريكي الهندي الطيب، المختص في أنظمة الحواسيب، وابن آرابيا الغربية سيف الذي كان ناجحا في الرياضيات التطبيقية".¹ ويتفرد سميث جوردن بصداقة خاصة مقارنة بالباقيين، فهو صديقه القديم الحميم، جمعتهما الدراسة الجامعية و الرياضة و مخبر بنسلفانيا بأمريكا مكان العمل" كان قريبا من روح آدم وربما كان أكثر سكان قلعة أميروبا فهما لداخله، رافقه سنوات طويلة"²، فوجود سميث في القلعة التي سجن بها آدم، ولاقى فيها ألوان التعذيب النفسي والجسدي، كفيل بحمايته من المشكلات و مضايقات القائد المتعجرف ليتل بروز، كما أنه فرصة للإفراغ و التنفيس العاطفي " أقدرك كثيرا يا سميث و أثق فيك بشكل أعمى، أشكرك بحب على وفائك و طبيبتك الكبيرة معي، وعلى أنك أخرجتني من عزلة العدمية التي قاومتها حتى اللحظة بالرياضة و التوقع داخل الذاكرة"³، هو أكثر من صديق " سميث غوردين كان مسيحيا مؤمنا بالخير لكل الناس، ويقول دائما أنه يجب عدم اليأس من الإنسان، بقدر ما يملك طاقة تدميرية تقوده حثيثا إلى البدائية و الحروب، يملك أيضا طاقات داخلية خلاقة و قوية جدا للتجدد"⁴.

مواقفه الإنسانية تشهد أنه رجل حق، فقد رفض الشعار العنصري الذي كتب ببند عريض، وعلق في ساحة القلعة " العربي الجيد الوحيد هو العربي الميت"، كما وقف في وجه التحيزات لصالح إسرائيل و سياسة الكيل بمكيالين " يوم وقع شجار حول توقيع

¹-المصدر السابق ، ص121.

²- المصدر نفسه، ص41.

³- المصدر نفسه، ص146.

⁴- المصدر نفسه، ص415

عريضة مضادة لانتشار الأسلحة النووية، لأمه بعض أصدقائه على ذلك، قالوا له أنت عالم و لست شيئاً آخر، أجاب سميث: نعم عالم، ولكني إنسان قبل كل شيء¹.

وتحضر رواية البيت الأندلسي شاهدا على أن الصداقة والحب جسر تواصل و تعايش بين الأنا والآخر المختلف، حيث سدت كل إمكانات تحرير سرفانتس المسيحي من السجن، وفقد الرجل الأمل في الخلاص بعد أن تراجع مجلس الحروب الصليبية عن دفع الدية، لشكهم في قناعاته الدينية ونقاء دمه، واتهامه بهتاناً بتهم منافية للأخلاق و الدين من قبل مفوض محاكم التفتيش، المهلة تكاد تنتهي وإن هو عجز عن دفع الدية، سيسحبه السلطان حسن فينيزيانو بعد أن يشتريه إلى منافي لا نهاية لها، لم يتردد صديقه غاليلو الموريكسي المسلم في مساعدته، ودون تفكير طويل، سحب كل مدخراته المودعة لدى السفارة الدانماركية، لقد قضى سنوات طويلة في جمعها كي يشيد البيت الأندلسي الذي سيجعله بلالة سلطنة حبه الوحيد، لم يكن المبلغ كافياً، لذلك اقترض من ميمون النابلسي صائغ الذهب اليهودي مائة دوقة ذهبية، مبلغ خمس مائة دوقة ذهبية هو ثمن حرته، مبلغ كبير و هو بحاجته، لكن حرية صديقه أعلى، المبادرة الطيبة كشفت صدق العلاقة بينهما و قوتها "هل تصدقني إذا قلت لك أنني أجد الآن صعوبة كبيرة في الخروج من مدينة أنت فيها؟ أصدقك، فأنا أيضاً يصعب علي العيش في مدينة يغيب وجهك عنها"²، وبينت إمكانية أن تتقارب الديانات و تتعايش باسم الحب و الصداقة، بعيداً عن المصالح الضيقة والأنانية.

ويأتي البيت الأندلسي، الذي بناه غاليلو الروخو في القرن السادس عشر في وهران، بكل جوارحه و صممه بما بقي عالقا في ذاكرته من صورة أحد بيوت البيازين بغرناطة، عنوان محبة و لقاء روحي بين دينين مختلفين، بين الروخو المسلم في منفاه في الجزائر

¹ - واسيني الأعرج: البيت الأندلسي ، ص188

² - المصدر نفسه ، ص301.

ولالة سلطنة اليهودية التي لا تزال في الأندلس، لقد كان متأكدا أن سفينة القدر سترسو بها يوما عند بابه، وأن اللقاء حاصل بينهما و إن طال بها الزمن.

وفي الحقبة الاستعمارية للجزائر، و بحكم الإرث الاستعماري و الاختلاف الكلي، سعى المستعمر الفرنسي إلى طمس الهوية الثقافية الجزائرية و تجريد شعبها من مبادئه و قيمه و أصالته، منطلقا من فلسفته الإقصائية التي تحقر الغير وتتعامل معهم من خلفية السيد و العبد، و شملت السياسة الاستعمارية استنزاف ثروات الجزائر لبناء نهضته، فقد استولى هذا الأخير على مدينة الروخو (وهران) مذ دخلها، وأجرى تغييرات عديدة هزت أبنيتها، وأسقطت عددا من معالمها الحضارية و الثقافية، و فتكت ببيوتها و حدائقها و طرقاتها، و عرت الكثير من أسرارها، التشويه طال البيت الأندلسي كغيره من البيوت أو القصور القديمة و تهديمه كان ضمن مخططات توسيع الطريق و بناء المدينة الجديدة على الطراز الأوروبي. لم يأبه المسؤولون العسكريون مطلقا بحجم المسخ الذي سيلحق وجه المدينة وتاريخها. فجأة حدث ما لم يكن متوقعا، لقد ألغي قرار الهدم ونجا البيت الذي لا يزال صلبا يقاوم الإهمال و النسيان، بفضل الحاكم الجديد للجزائر، السيد جوناو و صديقه المقاول ليون ليسكا اللذين أظهرنا افتتاحنا بالطابع العمراني الأندلسي، وحرصا على التراث العمراني، ورأيا" في كل ما هو قديم ومقاوم للزمن إرثا جميلا تجب المحافظة عليه بدل استسهال تدميره، وأعادنا ترميم البيت الأندلسي بناء على الوثائق القديمة التي ظل الأهل يحتفظون ببعضها. "1.

لقد اشم السيد ميشيل جوناو أو الموريكسي الجديد كما يشتهي أصدقاؤه مناداته سحر القديم الأصيل و أعاد له الحياة، فخالف بذلك سياسية وطنه التدميرية لكل ما يمس بالإنسان أو الثقافة في تعامله مع الجزائريين و تراثهم. حيث راعى في ترميمه للبيت

¹ - المصدر السابق، ص310.

النموذج الأصلي وحافظ على جوهره، وجعله معلما ثقافيا للمثقفين، ثم مكانا جميلا للفنون و الموسيقى الأندلسية بمساعدة المهندس أوجين أورميير الذي " عرف جديا وبطريقة جدية كيف يطبع النموذج العربي بالبصمة المسيحية التي جمعت بين الصليب و الهلال، واضعا على رأسها علامة المجد للرب التي تروق للمسلم كما تسعد الكاثوليكى".¹ وحين عاد هذا الأخير إلى أرضه بنى فيلا شبيهة بالبيت الأندلسي، مستوحيا منه روح مخطط بنائها، سماها دار الجزائر" قبل أن يلحقها الموت بعد وفاته، إذ لم يفهم الورثة القيمة الرمزية التي تتخبا وراءها، وكيف أن رجلا أحب أرضا، من خلال حبه لهندستها ودروبها و قصبته و تخطيطها المنفلة من أي منطق".²

السيد جوناو حالة شاذة في تاريخ الاستعمارالفرنسي" بحيث انقلبت السياسة الفرنسية في الجزائر في عهده من سياسة التهجير و التقتيل و محاربة الثقافة العربية الأصيلة، إلى دعوة صريحة للجزائريين إلى التميز ثقافة ودينا ولغة عبر الإبداع الثقافي والفني و العمراني الخلاق، يعود له الفضل الكبير في الحفاظ على بعض معالم المدينة من الاندثار"³. لقد كانت فترة توليه الوزارة في الجزائر حافلة بالمنجزات الثقافية و الإصلاحات ذات الطابع المحلي الجزائري الأصيل في الفن و الموسيقى و العمران، وحفز المثقفين و الفنانين الجزائريين على الإنتاج الفكري و الفني" الذين عرفوه يتكلمون عن فرادته، في عهده انتعشت حركة التدريس و تأليف الكتب التراثية، فظهر بإيعاز وتشجيع منه كتاب تعريف الخلف برجال السلف للشيخ أبي القاسم الحفناوي في سنة 1907، وكتاب البستان

¹ - البيت الأندلسي ، ص311.

² - المصدر نفسه، ص24.

³ - المصدر نفسه ، ص314.

في ذكرالأولياء و العلماء بتلمسان للشريف التلمساني، الذي أعده ابن أبي الشنب للطباعة في سنة 1908¹.

نخلص إلى:

- الحوار بين الأنا العربية المنفتحة و الآخر الغربي الإنساني، وكسر ثنائية المركز و الهامش القائمة على الصراع و الاستعلاء ممكن لأن" إتاحة الفرصة للآخر للتحاور و التداول هي علة لخروج الذات من عزلتها وتوحيدها، إن الغير سيتقاسم مع الذات هذا الفضاء الإنساني الرحب وسينزل الذات من عليائها، من الأبراج العاجية التي يتمحور فيها وجود الذات و تمركزها حول نفسها"²، و إن إمكانية التعايش و التواصل بين الثقافات المختلفة غير مستحيلة.

- بإمكان الحب والصدقة، باعتبارهما قيمة شعورية إنسانية إرساء قيم التواصل والتلاحم والتقاطب بين قطبين مختلفين والنأي بهما عن التكرار التماثل، بحيث تندغم صور الذات والآخر، وتتفاعل الغيرية الجنسية بين الأفراد والحضارات، ذلك أن البشرية تنزع بفطرتها نحو الوئام والسلام، و نحو الحب والتعايش.

المطلب الثاني: حوار الأديان:

تقوم رواية الأمير على ثنائية الأنا و الآخر، وعلى اللقاء بين الشرق و الغرب، لتؤكد إمكانية حدوث تلاقح حضاري بين ضفتي المتوسط، وعلى تشكيل وعي جديد وحوار بين الأديان، خاصة الإسلام والمسيحية. وتصور الرواية اللقاء بين شخصيتين عظيمتين هما: الأمير عبد القادر الجزائري القائد الروحي العازم على محاربة الاستعمار

¹ - المصدر السابق، ص 313.

² - محمد بكاي: أرخبيلات ما بعد الحداثة، مرجع سابق، ص 131.

و تأسيس الدولة الجزائرية، والأسقف الفرنسي مونسينيور أنطوان أدولف الحريص على نشر المسيحية و تنصير الشعب الجزائري.

وقد ركز الكاتب على الجوانب الإنسانية في كلا الشخصيتين، فأقام الحوار الذي جمع بينهما وبرغم اختلاف مرجعياتهما الفكرية و الدينية، على الرغبة ليس في السيطرة على الآخر أو محوه، و إنما هي رغبة في التعارف و التقارب "حتى يعرف كل إنسان أخاه الإنسان، يعرف عقليته و نفسيته و سلوكه و مبادئه و القيم التي صنعت مقاييسه و موازينه الإنسانية"¹، و ثم يصل إلى اكتشاف الحقيقة الغائبة بكل حرية و قناعة. إنه فعل اختيار حر بعيد عن الترهيب والإكراه، صادر من منطق الإصغاء إلى فكر الآخر المختلف و محاولة فهمه ومناقشة الأفكار في ذاتها، فعندما " تتوفر لدى المتحاورين قناعات مشتركة بالقيم والمثل و العبر من التاريخ، يتخطون الأنا الفوقية، ويستطيعون أن يفرشوا الأرض مائدة للحوار"².

وتعلم الرواية أن الاختلاف في الانتماء الديني لن يعيق التواصل الإنساني، إذا ما تحرر الفرد من تعصبه واحترم دين الآخر وخصوصيته، لأن " اليقين بامتلاك الحقيقة يعمي صاحبه و يقوده نحو الهلاك"³، فالكل ينتمي إلى حقيقة واحدة هي الحقيقة الإلهية، التي يتعايش الناس في ظلالها بعيدا عن الهويات الدينية القاتلة "لك كل المحبة التي تقربنا من بعض، حتى لو اختلفنا لتستقر في روحينا داخل نفس الحقيقة الإلهية الكبيرة"⁴. وأن الأديان و إن اختلفت، تبقى " نبتة طيبة إذا غرست بشكل جيد أعطت نباتا طيبا... وإلا ما جدوى وجود الإنسان على الأرض، إذا لم يكن قادرا على لمس جراحات

¹ - حسن الباش: صدام الحضارات حتمية قدرية أم لوثة بشرية؟ دار قتيبة، ط2، بيروت، لبنان، 2005، ص41.

² - المرجع نفسه، ص44.

³ - واسيني الأعرج: كتاب الأمير، مسالك أبواب الحديد، مكتبة طريق العلم، ط2، بيروت، لبنان، ص148.

⁴ - المصدر نفسه، ص49.

الآخرين بنوع من اللطف و الحساسية التي لا تؤذيهم"¹. وأنه لا سلام بين الأديان دون تحاور بينها.

وتؤكد على أن الحوار بين الأمير و القس ديبوش متحرر من تراكمات التاريخ و من القيود السلطوية للخطاب الكولونيالي، وأنهمفتح على معتقدات الآخر. ففي خطوة غير متوقعة أقبل الأمير عبد القادر وهو المشبع بالثقافة الإسلامية و المتحرر من التطرف الديني، والمؤمن بقيم السلم و العلم و الحرية و التسامح بين الأديان السماوية، على تعلم المسيحية بهدف التقارب و التعارف الديني عن كثب، فطلب من مونسينيور ديبوش تزويده بكتب عنها وكاهن معرب يشرح له تعاليمها، وإن اقتنع بها سار نحوها، لكنه في النهاية ظل على دينه، والتف حول هويته العربية الإسلامية وتراثه الأصيل، لأن المسائل المتعلقة بالعقيدة و الدين يصعب النفاذ إليها " قولك في ثقافتنا بين أن هناك عادات و تقاليد و ثقافات وخصوصيات، كل دين له ميزة المكان و القوم الذين نزل فيهم، و مونسينيور يتفق معي، لقد تذاكرت معه في هذا الموضوع طويلا وأعرف رأيه جيدا، لا توجد أديان خارج الناس الذين احتضنتهم، ورسخت أشواقهم و أفكارهم وحنينهم إلى الكمال"².

القبول بالاختلاف أطال عمر الصداقة بينهما على أساس تواصل روحي و انسجام فكري بعيد عن التعصب الديني و استعلاء الأنا " أتعرف يا جون، كلما تأملت هذا الرجل ازددت محبة له و لأخلاقه الأنانية مؤذية. في البداية تمنيته مسيحيا نزهو به كأخ، وقلقته تعاليمنا ليذهب بها عند ذويه و يشيعها، ولكن مع الزمن تأكدت أن هذا الرجل لا يشبهنا في كل شيء، لا يمكن أن يكون إلا هو، رجل محب لكل شيء، يقرب الإنسان من المحبة والله." إن انفتاح الأمير ووعيه بذاته، عوامل ساعدته على الوقوف في وجه

¹- المصدر السابق ، ص246.

²-المصدر نفسه ، ص500

التلاشي والنوبان في الآخر، وأقنعت القس الفرنسي بأنه مختلف عنهم، له هويته و قناعاته ومعتقداته الخاصة التي يدافع عنها ويأبى التفريط فيها، الأمر الذي أقنعه بالتخلي عن فكرة تنصيره واحترام خصوصيته الدينية واختياراته.

لقد تجاوز الراوي مقولات الرفض و الإقصاء، تلك اللغة العنيفة التي طبعت العلاقة بين المستعمر والمستعمر، بين المسلم و المسيحي إلى لغة أكثر تسامحا و أكثر إنسانية، لغة المحبة و التفاهم، وأكد على أن فكرة قبول الآخر و الاحتفاء به، و التقرب منه، لا تكون إلا إذا تخطى عن ذاته، و تنازل عن كل ما كانه، وقرر أن يشبهنا، هي فكرة إقصائية تعصبية، فلا أحد يملك الحق في إقصاء الآخر أو تجريده من سماته¹، فليس الغرض من الحوار بين الأديان " إجبار الآخر على التخلي عن دينه، أو إلزامه باعتناق صورة معينة لدينه لا يرتضيها، وإنما التعارف معه من أجل تدعيم المشترك و احترام الاختلاف لتحقيق التعايش والتعاون"².

التعارف من أهم أهداف الحوار، لأنه السبيل الأنجح لمعرفة الآخر المختلف، وتبديد النظرة السلبية عنه، فكثيرا ما نحكم على دين الغير و ثقافته، منطلقين من الصور النمطية الجاهزة التي لا تستند على معرفة موضوعية صحيحة، وبموجتها نبني الحوار الوهمية ضده، ونزيد في فجوة التنافر و التباعد" أعود للتو من قصر أمبواز، قضيت أياما عديدة تحت سقفه المضياف، في حميمية نادرة مع ألمع سجين عرفه القصر، أعتقد أنني أكثر معرفة من غيري بعبد القادر، وأستطيع اليوم أن أشهد بالحق من يكون هذا الرجل. مع الأسف أثناء عودتي إلى بوردو، صادفت أناسا كثيرين أهلا لكل ثقة، لديهم فكرة غير

¹-كريمة حداد، بوجمعة شتوان: الحوار وعيب الذات واستقبال للآخر، "رواية كتاب الأمير، مسالك أبواب الحديد"نموذج، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، المجلد10، العدد3، 2021، ص133.

²-أحمد جاب الله: الحوار الديني، مفهومه، أهدافه، ضوابطه، بحث مقدم للدورة 21 لمجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث، دبلن، إيرلندا، 28 يونيو إلى 02 يوليو 2011. <https://www.e-cfr.org/blog/2020/11/04/>

دقيقة وناقصة عن هذا الرجل، مما يتسبب حتما في تأخير تجلي الحقيقة إلى يوم غير معلوم، و أظن صادقا لو أن كل الفرنسيين عرفوا عبد القادر مثلما أعرفه اليوم لأنصفوه في أقرب وقت، لهذا أتصور أنه من واجبي الإنساني أن أفعل شيئا في انتظار القيام بما هو أهم.¹

وعظفا على ما سبق نذكر حادثة استتجاد الزوجة الفرنسية بمونسينيور ديبوش، بهدف التوسط لها عند الأمير، لإنقاذ زوجها الأسير عنده، فقد ترسخ في ذهنها أن "العرب عندما يلقون القبض على ضحيتهم لا يفكرون في حل آخر إلا قطع الرؤوس و بعثها إلى الخليفة ليأخذوا مقابلها قطعا ذهبية و أحيانا يكتفون بقطع الأذان بدل الرؤوس للتخفيف من مهمة الإرسالية عندما يكون عدد القتلى كبيرا."²

تسامح الأمير وانفتاحه و نبل أخلاقه، فند الفكرة المغلوطة عنه، وأجبر القس ديبوش وهو الشخصية الفرنسية العدو، على أن يقوض الصورة السلبية المنمطة التي ترسخت في ذهن الآخر الغربي عن الإسلام والمسلمين، فنفى بشدة و بموضوعية تامة ما اعتقدته زوجة الأسير ماسو فيما يخص المصير المأساوي للأسرى، ودافع عن الأمير بقوة"ما سمعته عن هذا الأخير يؤهله لرتبة قائد و ليس حراميا، ولا أعتقد أنه سيقتل زوجك ما دام سجيننا لديه، كل الذين هربوا أو الذين أطلق سراحهم يؤكدون على قوام أخلاقه العالية"³، "وما سمعته عن الأمير جعله يكبر في عيني أكثر، هناك ملاحظات بقيت عالقة، سأسأله عنها في زيارتي القادمة. ليس من السهل أن تتحدث عن عدوك بتسامح و احترام، يبدو أن الأمير من صنف آخر "⁴.

¹ - واسيني الأعرج: كتاب الأمير، ص286.

² - المصدر نفسه، ص32.

³ - المصدر نفسه ، ص55.

⁴ -المصدر نفسه ، ص56.

و في حادثة فريدة أعطى الأمير عبد القادر درسا عظيما في تسامح الأديان وخاصة سماحة الإسلام وعدله، بقرار إعفائه عن جميع الأسرى، وقال معاتبا ديبوش " كان من واجبك أن تطلب مني إطلاق سراح كل المساجين المسيحيين الذين حبسناهم منذ عودة الحرب بعد فسخ معاهدة تافنة وليس سجيننا واحد كائنا من يكون، وكان لفعلك هذا أن يزداد عظمة لو مس كذلك السجناء المسلمين الذين ينطفئون في سجونكم، أحب لأخيك ما تحبه لنفسك"¹، كما غضب لحادثة قتل الأسرى الفرنسيين على يد ابن التهامي، الذي أعطى صورة مضللة عن الإسلام وساعد في تكريس صورته البشعة عند الغرب " ها قد عدنا لإسلام لا يعرف إلا الحرق و التدمير والقتل و الإبادة و الغنيمة، كما ألصقت هذه الصورة بنا. لقد أمضيت كل سنوات الحرب أثبت بأننا نحارب، ولكن لنا مروءة و رجولة."² فبالتعاشيش الديني تمكن الطرفان من تصحيح بعض المفاهيم المغلوطة و إزالة اللبس حولها و تقريب الأفكار، وإن ظل الخلاف قائما حول القضايا الجوهرية المختلف فيها.

إن مثل هذه الصداقة تؤسس لعلاقة صحية بين الأنا العربي المسلم والآخر المسيحي، وتبرز مقدرة الأواصر الإنسانية على مد جسور التفاهم و الحوار، وتوسيع دائرة الحب في مقابل التضيق على الاختلاف والتنافر" لا أدري من أين جاءني كل هذا، ولكنني أحبك أكثر مما يمكنك أن تتصور، لك في قلبي مكان واسع وفي ديني متسع لا يفتنى و لا يموت"³.

لقد كان ديبوش يعرف جيدا معنى أن يفقد الإنسان حريته و أن يفتنى بعيدا عن التربة التي أنبتته، لذلك بذل مساعي حثيثة ووساطات سامية، منها حرصه على مراسلة

¹ - المصدر السابق ، ص57.

² - المصدر نفسه، ص49.

³ - المصدر نفسه، ص50.

رئيس الجمهورية نابليون بونبارت لإقناعه بعق الأمير عبد القادر، دافع عن رجله كما يدافع عن كتابه المقدس، ووعده ببذل المزيد من الجهود لإطلاق سراحه، طالما أن الحوار بين الحضارات ممكن في وجود قوانين عالمية تحترم السيادة والمواثيق والعهود والضمانات، التي تزكي شرف الدول و تضمن المصالح المشتركة بينها. لقد أعطى ولي العهد الحاكم العام للجزائر الدوق دومال وعدا مكتوبا للأمير، وعقد الجنرال دو لاموريسير معه اتفاقية تقضي بتحريره، وقايضه سيفه للتأكيد على صدق النوايا، لذلك شدد القادة و الجنرالات الفرنسيون على ضرورة ترسيم الوعد " من الحكمة بمكان أن تدقق الحكومة في هذه الوعود و تحجج الإجراءات الواجب اتخاذها، فرنسا احترمت دائما و بعمق تعهداتها أمام أصدقائها و أعدائها، إذا ثبت ذلك فعلى الحكومة أن تنفذ ما وعدت به، خصوصا عندما يسلم العدو سلاحه على أساس وعد مسبق"¹، وحسم الأمر بزيارة الرئيس نابليون الأمير عبد القادر لتبليغه شخصيا خبر تحريره " جنئت لأخبرك بحريتك، ستقاد إلى بروسة في دولة السلطان، وعندما ننتهي من الترتيبات الضرورية، سنتلقى من الحكومة الفرنسية معاملة كريمة تليق بمقامك العالي، منذ مدة طويلة ووضعمكم يؤرقني، لأنه يذكرني بالتزامات تم اتخاذها و لم تنفذ، ولا شيء أذل من حكومة دولة كبيرة لا تفي بوعودها"²، وبالمثل أكد الأمير شرف كلمته و التزامه بالعهد في كلمة شكر " أقسم لكم بعهد أقطعه على نفسي أمام الله وأمام أنبيائه وكل خلفائه بأن لا أفعل ما يهز ثقتكم في، و سأحفظ عهدي"³.

لقد أحب ديبوش الجزائر و تعلق بها و بأهلها الطيبين وتمنى أن يمده الله بعمر آخر ليقدم "هذه الأرض التي حرمت منها في وقت مبكر، سأعطيها رفاة الجسد، إذا كان

¹-المصدر السابق ، ص32.

²-المصدر نفسه ، ص567.

³- المصدر نفسه ، ص579.

رماد تربتي يسكت الأحقاد، ويوقظ حواس النور والحب في قلوب الناس¹. و أوصى بنشر رفاتة على أرضها، التراب الذي أحبه و ارتبط به. لقد عاش حياته نصيرا للحق و الضعفاء "موسنيور لم يفعل أكثر من ذلك طوال عمره، وكان يظن نفسه دائما مقصرا في حق الذين يطلبون عطفه وحنانه"². أعماله الخيرية تصفح عن نبلة و إنسانيته و تحرره من الاستعلاء و المركزية الغربية، طيلة سبع سنوات من العطاء و التقاني في خدمة الفقراء و المساجين و ضحايا الحرب و الغطرسة الاستعمارية، ترك وراءه "سيمينار بالجزائر العاصمة يديره قساوسة سان لزار و دير به أكثر من عشرين أب، ودار للسيدات بالساكري كور لتربية الشباب، و مدرسة لإعادة تأهيل البنات التائبات ولحمايتهن من السقوط في الغوايات، وثلاثة بيوت للأخوات سان فانسون دو بول للتخفيف من آلام الناس، ودار لليتامى بالجزائر، ووهران، جيجل، قسنطينة، سكيكدة، بونة، تنس..."³. لكن ما السر وراء بناء الكنائس و تعميمها في غالبية التراب الوطني وإلباسها لبوس الدين المسيحي في سماحته وإنسانيته؟، أليس الهدف الخفي وراءها هو إنجاح عمليات التنصير باستخدام القوة الناعمة؟ لا شك في ذلك، طالما أن الغرب ركز في حوار مع العالم الإسلامي على القضايا الإنسانية المتعلقة بالفقر و التخلف المادي و الثقافي، وهي قضايا منفصلة تماما عن الدين والعقيدة، لذلك واجه الحوار معه نوعا من التحفظ فيم يخص الحوار الديني، فالكنيسة لا تتفك تنشر أفكارها التبشيرية التنصيرية إلى جانب الأفكار اللادينية و العلمانية التي تتنافى مع الشريعة الإسلامية.

وتشير رواية "سوناتا لأشباح القدس" إلى فكرة التسامح الديني و تنبذ الصراعات و الحروب باسم الدين، لأنها تتناقض مع التعدد الديني والعرقى و المذهبي أساس

¹ - المصدر السابق، ص16.

² - المصدر نفسه، ص15.

³ - المصدر نفسه، ص419.

التعايش بين البشر، فقد كانت فلسطين قبل الاحتلال الصهيوني أرضاً طيبة تسع الجميع المسلم والمسيحي واليهودي، وكانت كلمة فلسطين هوية مرتبطة بالمكان المشترك و بالتتنوع الثقافي الديني"¹، جمع بين عربها ويهودها ومسيحيها الأصليين روابط أخوية "فلسطين التي أعرفها وأريدها هي هذه، لم يكن في القدس في زمني على الأقل يهود ومسيحيون و مسلمون، كان هناك سكان فلسطينيون بس البقية لم تكن مهمة." ²، وكلهم على اختلاف أديانهم حاربوا فكرة التقسيمات الدينية والطائفية، ورفضوا كل المؤامرات التي حيكّت ضد أرضهم وهويتهم، وتمسكوا بالتعايش السلمي "القدس خبز الله و مأوه مدينة تكفي الجميع، قلبها واسع، دينها كبير، إيمانها متعدد، و أشجارها تغطي العرايا، مراها ليست عمياء، وحيطانها ليست للبيع"³. وكانت الكتابات العربية تكسو الكنيس اليهودي "هل تصدق هذا؟ خط عربي، زخرفة إسلامية أنيقة داخل كنيس يهودي؟ أي زمن نعيش؟ صحيح أن الحياة لم تعد سهلة، لكنهم على الأقل كانوا ههنا يجلسون، يتبادلون الأفكار، يتناقشون، وربما يتخاصمون أحياناً، ويصطدمون بسبب الاختلافات في التصور، لكنهم كانوا يجلون بعضهم بعضاً"⁴. ولا عجب في ذلك مادامت الأديان السماوية كلها تؤكد على أن التعايش مطلب إنساني و ضرورة للسلام والبقاء" لا أدري من أين جاءتني هذه الصورة؟ من القرآن؟ من العهد القديم؟ من الأنجيل الطيبة؟ أو من سيدنا المسيح؟"⁵. آمن بهذا المبدأ بابا حسن والد مي الذي لم يتوان لحظة واحدة في المخاطرة بعائلته لأجل حماية صديقه من بطش الألمان، إنه طبيب العائلة اليهودي هرمون سيمون المتسامح،

¹-واسيني الأعرج: أنثى السراب ، ص558.

²-واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص348.

³-المصدر نفسه ، ص33.

⁴- المصدر نفسه، ص433.

⁵- المصدر نفسه ، ص187.

كان "رجلا طيبا متعايشا بإنسانية عالية، ومؤمنا بأن فلسطين أرض طيبة هي لجميع الفلسطينيين عربا و مسيحا و يهودا"¹.

ولا ننكر دور المثقفين في مواجهة عقد التعصب و الكراهية و جهودهم الفاعلة في حقل حوار الثقافات وتقارب الأديان، باعتباره حجر الزاوية في تحقيق، التناغم الفكري و الروحي، و نشر قيم التسامح و التفاهم المتبادل و تعزيز ثقافة السلم، ونبذ الصراعات الدينية و الثقافية، لقد خرج عديد منهم في مظاهرات تتدد بفكرة الاصطفاء الديني و العرقي، وتناهض نزعة التسلط الإمبريالية، بدءا من السياسة الاستيطانية الصهيونية "قبل أيام قليلة كنت في مظاهرة مع عائلتي في مظاهرة ضد بناء المستوطنات الإسرائيلية مع أنصار البيس- ناو، ومناهضة الحرب و الكوارث الجديدة، أتعرف من كان على رأس مسيرتنا ؟ اثنان: يهودي و فلسطيني، أعطيانا درسا كبيرا في التسامح بلا خطابات زائفة ولا كذب ولا جعجعة: نعومي شومسكي و إدوارد سعيد"².

خلاصة القول:

- الحوار هو " اكتشاف للآخر داخل الذات، ويعني أيضا و بنفس المرتبة اكتشاف الذات في نظر الآخرين، وأي التعرف على الأنا الموضوعية التي يراها الآخرون مقابل الأنا الذاتية التي نراها نحن، ومن ثم يكون الآخر امتدادا للذات ومجالا خصبا للتعرف على عوالم مختلفة."³.

- في رواية الأمير محاورة كبيرة بين المسيحية والإسلام، وتقابل حضاري ديني مؤسس على فضاء مغاير للفضاء الكولونيالي، تتناسل فيه العلاقات الإنسانية عن طريق

¹ - المصدر السابق ، ص42.

² - واسيني الأعرج: رماد الشرق، خريف نيويورك الأخير، ج1، منشورات الجمل، بيروت، لبنان، 2013، ص30.

³ - عمار جيدل: حوار الحضارات و مؤهلات الاسلام في التأسيس للتواصل الانساني، ط1، دار الحامد، 2003، ص37.

حوار الأديان أو التسامح الديني المفضي إلى التقارب و التفاهم بين الشرق و الغرب، لم يكن الاختلاف الديني فيها عائقا للجمع بين المختلفين على أساس الحب و الحقيقة الإلهية و التفاني في خدمة الآخرين.

- لا مناص للبشرية إذا أرادت العيش بسلام أن تجعل الحوار منطلقا في بناء مشترك إنساني قائم على العدل والحرية والمساواة والكرامة الإنسانية، وعلى الاعتراف بالآخر واحترام خصوصيته الدينية والثقافية والحضارية. فالحوار لا يجبر المغاير أو المختلف على مغادرة موقعه، وإنما يبصره لاكتشاف المساحة المشتركة وبلورتها والانطلاق منها لخدمة البشرية والإسهام في السلم و التعايش و نبذ العنف، فهو يحتوي ضمنا على عناصر التفاهم بين الأديان.

- قد يكون الأمل في حوار الثقافات والأديان، شبه عقيم في مثل ظروفنا، فللسياسة مطامعها ومصالحها و للتعصب منطقته الأعمى. لكن الأمل في تحاور الإنسان مع أخيه الإنسان بعيدا عن الانغلاق المذهبي يظل قائما.

- الحوار الوارد في الرواية أقرب إلى حوار التعايش الذي يراد به التقارب الفكري، حيث يحرص على تحسين مستوى العلاقات بين الشعوب و الطوائف و الأقليات الدينية، وهو حوار يتعلق بالمسائل الدنيوية أو ما يعرف بالمفاوضات الخاضعة للسياسة الشرعية، و التي لا علاقة له بأحكام الإسلام أو أمور العقيدة والمسائل الدينية محل الاختلاف، فهناك تنزيل لمقام المفاوضات السياسية منزلة الحوار الديني، مع إغفال تام لمناقشة القضايا الدينية المختلف فيها.

المطلب الثالث: المثاقفة.

تشكل الحضارات الإنسانية المتتالية قصة الوجود الإنساني، فليس ثمة حضارة كبرى في سيرورة التاريخ نقية القواعد و الأصول و لا خالية من تأثير غيرها فيها، إذ يكاد

يستحيل أن تكون البنى التحتية المادية واللامادية لحضارة ما خالصة لأصحابها. فالتطور الإنساني هو نتيجة لتراكم الخبرات و تراتب المعارف وتعدد التجارب. والتاريخ ليس حكرًا على جماعة بشرية معينة، بل لكل إسهاماته في صنعه وبصمته الخاصة فيه، فما من أمة من الأمم أو حضارة من الحضارات إلا و تجمعها بغيرها روابط تاريخية أو عرقية أو ثقافية ورصيد مشترك، إضافة إلى خصوصيات و إضافات حضارية متباينة. واتصال الثقافات ببعضها وتقاربها ظاهرة قديمة قدم التاريخ الإنساني نفسه، ف" تداخل الثقافات و تلاحمها قد شكل إحدى سمات الحضارة الإنسانية عبر التاريخ، وكان هذا التداخل طبيعيًا في الماضي و تنوعت آلياته ووسائله سواء من حيث الاحتكاك و الحروب أو التجارة أو الترجمة أو التزاوج و عقد التحالفات"¹.

و من طبيعة الثقافة أنها إقليمية تعبر عن هوية الجماعة البشرية، وفي ضوءها تتحدد الكيفية التي تمارس بها الجماعة حياتها و طريقة تفكيرها و طرائق عيشها، و هي منجز إنساني تنمو و تتحرك وفقا لقانون التغيير الثقافي وآلية الانتشار. فأكثر التغيرات قد تغد إليها من الخارج سواء عن طريق القهر أو التقليد أم الإعارة والانسحاب من خلال الإقناع، و هذه الميزة تقودنا إلى الحديث عن مصطلح المثاقفة و ماهيته.

ظهر مصطلح المثاقفة عام 1880 عند الأنثروبولوجيين الأمريكيين للدلالة على التغيرات الثقافية التي تطال المجتمعات. و هي عند روجي باستيد (Roger Bactide) « مجموع الظواهر الناتجة عن الاحتكاك المستمر و المباشر بين جماعات و أفراد منتمين

¹بركات محمد مراد: ظاهرة العولمة بين رفض العرب والاسلاميين والترويج الغربي، سلسلة كتاب الأمة، ط1، مركز البحوث والدراسات، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر، 2002، ص64.

إلى ثقافات مختلفة، و إلى التغيرات التي تبدو آثارها على النماذج الثقافية الأصيلة لهاته الجماعة أو تلك»¹.

ويعرفها ريدفليد لينتون وهيرسكوفيتش (Linton et Herskovits) بأنها «مجموعة من الظواهر الناتجة عن اتصال مباشر و متواصل بين أفراد ينتمون إلى ثقافات مختلفة، و ما يترتب على ذلك من تغيرات في الأنماط الثقافية لهذه المجموعة أو تلك»². وهما تعريفان يركزان على فكرة الاتصال و الاحتكاك بين المجموعات الثقافية المتباينة و التفاعل الحاصل بينهما على كافة المستويات، كالتأثر و التمثل و الاستيعاب و الرفض أو التعديل...

ويرى ميشيل دوكوستر (Michel De Coaster) أنها " مجموعة التفاعلات التي تحدث نتيجة شكل من أشكال الاتصال بين الثقافات المختلفة كالتأثير والتأثر و الاستيراد و الحوار و الرفض و التمثل ويميز ذلك، مما يؤدي إلى ظهور عناصر جديدة في طريقة التفكير وأسلوب معالجة القضايا و تحليل الإشكاليات، وهو ما يعني أن التركيبة الثقافية و المفاهيمية لا يمكن أن تبقى أو تعود بحال من الأحوال إلى ما كانت عليه قبل هذه العملية »³.

وثمة مرادف للمثاقفة وهو المناقلة الثقافية (Transculturation) " إن كلمة المناقلة الثقافية، تعبر بشكل أفضل من مراحل سياق الانتقال المختلفة، من ثقافة إلى ثقافة أخرى. لأن هذا السياق لا يشتمل فقط على اكتساب ثقافة أخرى، بل يتضمن أيضا

¹ - ينظر: الخطابي عز الدين: سوسيولوجية التقليد والحداثة بالمجتمع المغربي، منشورات عالم التربية، الدار البيضاء، المغرب، 2001، ص24.

² -صلاح السروي: المثاقفة وسؤال الهوية، مساهمة في نظرية الأدب المقارن، الكتبي للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، مصر، 2012، ص ص61-62.

³ -سمير أمين: نحو نظرية للثقافة، نقد التمركز الأوروبي المعكوس، معهد الإنماء العربي، بيروت، لبنان، 1989، ص07.

بالضرورة، فقدان مقدار ما من ثقافة سابقة، أي الانتزاع منها، وهو ما يمكن تعريفه بـ"التجريد الثقافي (Déculturation)" أضف إلى ذلك أنه يقود بالتالي إلى فكرة ظاهرة نشأة ثقافة جديدة، وهو ما يمكن تسميته "التثقيف الجديد"¹.

تستند المفاهيم السابقة على فكرة الاتصال و الاحتكاك بين المجموعات الثقافية المتباينة و التفاعل الحاصل بينهما في كافة المستويات كالتأثر و التمثل و الاستيعاب و الرفض أو التعديل، و تؤكد على مفهوم التبادل الثقافي الأدبي من قبيل التفاعل الثقافي بعيدا عن مقولة الهيمنة والتفوق أو ثقافة الغالب و المغلوب. وتؤدي هذه المثاقفة إلى اكتساب عناصر جديدة لكلتا الثقافتين بما يحفظ لهما هويتهما، ويمكنهما من الاستفادة من التجارب الإنسانية في إطار حوار متوازن متكافئ يضمن لها البقاء والنماء. فقد دلت الوقائع أن المجموعات البشرية التي توخت سياسة الانزواء والانغلاق، ولازمت الانطواء على ذاتها طواعية أو اضطرارا ظلت عاجزة عن الصمود و الاستمرارية، ذلك لأنها دأبت على الاكتفاء بموروثها ومكتسبها، وعلى استهلاك قواها الذاتية واستنزاف رصيدها الحيوي ومخزونها القيمي، فقدت القدرة على التجدد، لأنها تفتقد إلى السداد الثقافي فأجذبت وأصيبت بالعقم وكان مصيرها الفناء والاندثار.

و قد حدد عز الدين المناصرة المعاني المتعددة لتمظهرات مصطلح المثاقفة على النحو التالي:

«أولا: تتم "المثاقفة" بين طرفين.

ثانيا: تتم "المثاقفة" بالقوة أو بالقبول.

ثالثا: تحمل "المثاقفة" معنى التعالي عند طرف والدونية عند الطرف الآخر.

¹ - ينظر: هيرسكوفيتش ملفيل: أسس الأنثروبولوجيا الثقافية، تر: رباح النفاخ، وزارة الثقافة، دمشق، 1974، ص 227.

رابعاً: تحمل "المثاقفة" معنى الفترات الانتقالية والصراع بين طرفين "الاستعمار".

خامساً: تحمل "المثاقفة" معنى الاتصال والتواصل والانفتاح والتبادل الثقافي الإيجابي.

سادساً: تحمل "المثاقفة" معنى التأقلم مع ثقافة الآخر و الاندماج فيه، فيساعد ذلك في إضافة عناصر جديدة إلى ثقافة الآخر.

سابعاً: قد يؤدي ذلك إلى ازدواجية في الشخصية، حيث تبقى حائرة بين عناصر الهوية الأولى و بين العناصر الجديدة، و قد يفضي ذلك إلى رفض الثقافتين دون طرح البديل، أو يتم الهروب باتجاه ثالث.

و يرى المناصرة أن جميع هذه المعاني لا تتناقض مع بعضها البعض، بل هي تدل على أن المثاقفة "يمكن أن تتم بأشكال سلبية أو إيجابية، و يؤكد أنه لا يوجد تعريف مثالي لمثاقفة مثالية، و يبقى أن الحلقة المركزية في "المثاقفة"، هي الصراع وفق قوانين متعددة الأشكال»¹.

وأمام تحرر المنتوجات الثقافية الوافدة بفعل سقوط الحواجز المكانية و الزمانية، فإن أرضية التأثير والاستيعاب أصبحت مهينة أكثر لاستقبال موجات الثقافة الغربية، بعدها قيما إنسانية متقدمة هي حصيلة قرون من تراكم الخبرات و المعارف و التجارب الإنسانية، و بوصفها منتجات حضارية حديثة يجب الانخراط فيها و استيعاب معطياتها، و"لأن الثقافة بما تمتلكه من آليات إيجابية في التعامل، تهدف إلى صهر الخلافات من أجل التقارب و الألفة، فالآداب و الفنون و العلوم المختلفة هي من أفضل اللغات المشتركة بين كل الثقافات و الحضارات العالمية التي تعمل قطعاً على التناغم و بالتالي توحيد إطار المجتمع الواحد ليكون بمساحة الوطن من جهة، وحافزاً نحو إقامة علاقات

¹ عز الدين المناصرة: المثاقفة والنقد المقارن- منظور إشكالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1996، ص73.

متواصلة في التعامل السلس مع غيرها من الثقافات على مستوى العالم.¹ فقد مكنت المثاقفة من انتقال الفنون و الآداب و الخبرات و الأفكار و الديانات بين الجماعات البشرية وعلى مستوى عالمي، فالشعوب لكي تتعايش و تتقارب لابد لها من أن تتحاور، "ولكي نتحاور يجب أن نعرف من نحن، ثم يجب أن نعرف من هو الآخر، و يصدر هذا الجواب عن القناعة بأننا لن نكون بشرا ما لم نحقق حوارا، معايشة مع الآخر بدءا من المجتمع الصغير إلى المجتمع العالمي الكبير"²، وهي من هذا المنطلق تبادل للثقافات، وتخصيب لها، وتعميم لفوائد الإبداع البشري والعبقرية الإنسانية، و دافع قوي لحركة المجتمعات نحو مزيد من التقدم و الرقي، فكلما كانت هذه الحركة قوية طوعية، كلما كانت الحضارات غنية معطاءة، وكلما تقدم الإنسان في معارج الرقي الإنساني و الحضاري متجاوزا أكثر حدوده الخاصة متطلعا إلى غيره، ذلك أن المثاقفة الطوعية" تتفاعل خيارى طوعى لا يتم ولا تجنى ثماره إلا برغبة تبادلية بين المتثاقفين، ولا يمكن أن تتحقق أبدا في حالات الاختلاط القهري الناتج عن الحروب و الاحتلال، إذ ينجم عن ذلك الاختلاط " تشوهات ثقافية"³.

وتقوم هذه القناة التواصلية على الاحترام و التسامح و الاعتراف بالآخر، وبحقه في الاختلاف، وترعى التواصل والتفاعل بين المتثاقفين بغية الاغتناء المتبادل، وتتطلب توفير شروط الثقة والرغبة لتحقيق التفاعل و لضمان التقدم و التطور المتبادلين و اكتساب المعارف و العلوم و التجارب و الخبرات الإنسانية. بعدها إحدى الصيغ العادية للتطور الثقافى لكل المجتمعات، و ظاهرة محايدة للوجود الإنسانى وميله الفطرى للتواصل مع

¹- نيسان بيغازي: تثقيف السياسة أم تسييس الثقافة، www.zowaa.org 14/يونيو/2019، 12.53.

²- عفيف البهنسي: الهوية الثقافية بين العالمية والعولمة، منشورات وزارة الثقافة، الهيئة العامة للكتاب، سوريا، 2009، ص 03.

³- محمد سليمان: أسئلة الهويات والمثاقفة في عصر العولمة، معهد إبراهيم للدراسات الإعلامية والثقافية، ط1، رام الله، فلسطين، 2008، ص 67.

غيره، فالتواصل هو منطلق التحضر البشري والأساس الذي بني عليه الإنسان تمدنه وحضارته الكونية ثمرة الجهد المشترك بين الشعوب والحضارات، و"اللقاح الكفيل بابتكار مبادئ وقيم مستحدثة وإنجاب تصورات وخيارات جديدة أقدر على السمو بالوضع البشري وأنجح في تحقيق رتبته وفتح الآفاق العريضة أمام مستقبله".¹

وقد هيئت العولمة المناخ المناسب للمثاقفة، وللتفاعل الحقيقي والبناء بين الشعوب و الثقافات لتطوير ذاتها وإثراء قدراتها و تخصيص طاقاتها، بما اتسمت به من حرية في حركة الثقافة و انتشارها، وبما تمتلكه من آليات ووسائل إعلامية و تكنولوجية اتصالية رقمية قلصت حدود المكان والزمان، ونسجت شبكات من العلاقات بين الأفراد و الجماعات الثقافية حتى غدا العالم أشبه بقرية صغيرة واحدة. وبعد أن كانت المثاقفة فعلا يتطلب ربحا من الزمن لإنجازه، أصبحت في وقتنا الراهن حالة دائمة وواقعا قائما، وإفرازا طبيعيا لانفتاح الثقافات على بعضها البعض، كما شملت مجالات متعددة في حياة مختلف الثقافات و الحضارات، منها مجال التواصل اللغوي فأثرت في اللغات والألسن، ومجال الإبداع في الفنون والمهارات والخبرات، ومجال القيم والتقاليد والعادات والأخلاق والسلوكيات، وعالم الأفكار والتصورات والآداب، وما يجري فيه من تبادل للعلوم والمعارف والآداب. و مثلت هذه الأخيرة صلة الوصل التي بدونها ما كان للإرث الحضاري الإنساني أن ينمو ويستمر، بحكم أن الثقافات الإنسانية توطرها منظومة ثقافية ديناميكية لا تستقر على وضع، و تؤكد استفادتها من الإنجازات الحضارية الدخيلة عليها.

و تأتي الرواية -بما لا يدع مجالاً للريبة- لتكون ثمرة من ثمرات المثاقفة والانفتاح على الغرب" فالرواية العربية باعتبارها جنسا أدبيا جديدا و شكلا له تقنياته الحديثة غربية الأصول، لكونه الفن الأكثر استيعابا للتجارب والتقنيات الغربية الحديثة، مما جعل بعض

¹ - محمد عمارة: العطاء الحضري للإسلام، سلسلة اقرأ، رقم 26، دار المعارف، القاهرة، 1997، ص 129.

الباحثين يمنحون صفة الأبوة الشرعية للرواية الغربية بالنسبة للرواية العربية، و أن التحدي الأكبر في هذه العلاقة هو صعوبة تخلص الابن من أبيه أو فك الارتباط به في سبيل إيجاد هوية عربية روائية من الناحية الفنية الأسلوبية، لأن استيراد نمط. أدبي معين يعني استيراد ذهنية ثقافية مغايرة و غرسها في واقع ثقافي آخر له خصوصياته¹. فالتواصل هو ما يخلق المثاقفة في مستويها الصدامي أو الانفتاحي، وهو ما يرسم مآل هذه العملية بناء أو تدميرا.

و قد شكل موضوع الغرب وعلاقته بالأنا محورا مهما في الرواية العربية، فحاولت أن تجيب عن الكثير من الأسئلة المتعلقة بالهوية و الوعي بالذات و بلوة الكيان، و أخرى تتعلق بفهم الآخر الذي بات يسكننا ويتغلغل في نسيجنا الاجتماعي و الفكري، و صار جزءا من التاريخ الشخصي للأديب و التاريخ القومي للوطن، فالغرب يحضر في متنها و في بنائها الفني.

و تشرب واسيني الأعرج من الفكر الغربي و الإنساني العالمي و استفاد كثيرا من أقطابه البارزين، من فنانيين و مفكرين وأدباء و فلاسفة، إذ "كان ممحونا بجان بول سارتر، وسيمون دو بوفرار، وألبير كامو، وكيركيغار، و نيتشه، ومجموعة أخرى من الحمقى الوجوديين و الظواهريين".² فاستدعى في روايته نصوصا غربية، حاورها و حورها و برع في إدماجها في نسيجه الروائي ليؤدي باستدعائها وظائف دلالية مختلفة تبعا للسياق الذي أوردها فيه" فالتلاقح الثقافي بين الرواية العربية و المنظومة الفكرية الغربية واضح في متن الرواية العربية، حيث جاءت محملة بالمقبوسات أو تحويل أو تشرب أقوال من نصوص غربية مغايرة أو متفقة في الجنس والنوع والنمط على شكل تداخل نصوص أو تناص بينها و بين الفكر الغربي، في الصياغة و الدلالة و طريقة البناء أي أن النص

¹ - جمال مباركي: الغرب في الرواية العربية الحديثة، مرجع سابق، ص 109.

² - واسيني الأعرج: أنثى السراب، ص 76.

العربي في صيغته العلائقية يحاور بني نصية غربية عديدة، قد يكون هذا الحوار محاكاة للبنية الهيكلية لبعض النصوص الغربية، أو يدخل في علاقات متشابكة مع نصوص أخرى كثيرة مستدعيا أو مقتظفا منها عناصر نصية بمثابة أجنحة نصية تثري التجربة الروائية¹.

كما حفلت نصوصه الروائية بالعديد من الأفكار الغربية و فلسفاتها بوصفها مرجعية فكرية و نصية يستند إليها، يستدعيها و يحاورها ثم يدمجها في نسيج تجربته الروائية بما ينسجم مع فضاء نصه الجديد منها رواية"2084 حكاية العربي الأخير"، التي"سحب واسيني الأعرج فيها على العالم العربي، بل على العالم كله أجواء بل تفاصيل كثيرة أحيانا من رواية 1984 للبريطاني "جورج أروويل"، و اسمه الحقيقي إريك آرثر بليز "... و هناك شبه بين الرواية و رواية (عالم شجاع جديد) التي صدرت سنة 1932 للروائي و الفيلسوف البريطاني ألدوس هكسلي و رواية (وى)أو (نحن) للروسي يفجين يزامياتين التي صدرت سنة 1921، أشياء كثيرة في 2084 حكاية العربي الأخير تشبه ما ورد في رواية أروويل، بل أن الأولى تستند إلى الثانية، و كان أروويل قد سمى الرواية سابقا قبل اختيار الاسم الحالي(الرجل الأخير في أوروبا)². حيث مارست رواية جورج أروويل سحرها على الأعرج فكانت نصا مرجعيا ذا سلطة سلطوية عجيبة. التناص و الإيقاع بين الروائيتين واقع في الفكرة و المآلات، وفي الرؤية الاستشراقية التشاؤمية الديستوبية. و في الروائيتين انتقاد للسلطة الدكتاتورية وللمركزية الأحادية، وللرقابة الإعلامية التي تحاصر أدق أنفاس البشر في مجتمع يبدو في ظاهره حرا، يمثلها البيغ برودز رمز السلطة الحاكمة في رواية أروويل، و ليتل بروز الحفيد في 2084 حكاية العربي الأخير.

¹صبحي الطعان: عالم عبد الرحمان منيف الروائي (تنظير وانجاز)، دار كنعان للدراسات والنشر، ط1، دمشق1195، ص ص211-212. نقلا عن: جمال مباركي: الغرب في الرواية العربية الحديثة، ص408.

² روبرت: الأعرج يسحب رواية جورج أروويل 1984 على العالم العربي، الخميس 10/مارس/2016، الساعة11: www.youm7.com/story/.../2622507.17

وتقع أحداث الرواية الأولى في أوشيانا في مقاطعة إيرستريب، وتصور مجتمعا شموليا يخضع لدكتاتورية الحزب الحاكم والأخ الأكبر، الذي زرع شاشات ترصد وتراقب تحركات الشعب، وتحاصر تفكيرهم، فالدولة تفرض سلطويتها ومركزيتها على الإنسان وعلى التاريخ وتتعمد التلاعب بالحقائق، وتحارب الوعي السياسي وتمسخ العقول، لتخلق التبعية الإرادية للحزب والأخ الأكبر. واستشرف فيها الكاتب نهاية الحرب العالمية الثانية إبان كانت أوروبا منتشية بانتصاراتها على النازية، محذرا من الحرب الباردة الشؤم. في حين رصد واسيني الأعرج الوضع العربي الرّهن، حاضر الشعوب العربية الذين طحتهم الحروب الضروس وجرتهم إلى التفكك والتمزق تحت سلطة المركز الأمريكي و النظام العالمي الحاكم ودفعتهم إلى حافة التاريخ، فصاروا شعوباً ضائعة بلا أرض ولا هوية، في رؤية استشرافية مأساوية، ديستوبية، تنتبأ بأفولهم وانقراضهم سنة 2084، إلا واحداً، هو البطل المحوري آدم، وهي واقعا مرحلة ما بعد تنظيم داعش والصراعات الطائفية، في قلعة افتراضية هي قلعة أميروبا. فالنص العربي يستلهم من النص الغربي سواء "مس التعالق طريقة البناء الفني العام، أو بناء الشخصية الروائية بأبعادها النفسية والفكرية وسلوكياتها و انشغالاتها، و قد تفرض بعض النصوص الغربية نفسها عليه ذلك" أن النص المميز يخلق حقيقته ويولد مفاعيله و يفرض نفسه، ولا محيد لأحد على الوقوع تحت تأثيره"¹. وهو ما اتضح في الحوار بين آدم و ليتل بروز - لماذا سموك ليتل بروز، وأنت حسب ما فهمت من عائلة بلير؟

-لأنني عاشق للكبار الذين يدركون قبل غيرهم، أن العالم لا يتغير إلا بالكبار

و القوة.

-لكن: ما العلاقة بين بيغ بروزو، لماذا اخترته هو و لم تختّر غيره؟

¹-رواء محمد النعاس: المثاقفة والمثاقفة النقدية في الفكر النقدي العربي، مجلة القادسية في الآداب والعلوم والتربية، العدد3-4، المجلد7: السنة 2008، ص132.

-هل تعرف الاسم الحقيقي لجورج أرويل ؟

-للأسف: لا.

-هو من عائلتي، اسمه الحقيقي، إريك آرثر بليز.أرأيت كم أن العالم صغير."¹.
ومنه أيضا "تذكر جورج أرويل وهو يحاول أن يهدئ من روع حيوانات حضيرته التي انتفضت حوله مرعوبة من السنة الجديدة الحاملة للخوف و الغموض."².

و تتقاطع حكاية العربي الأخير مع رواية صحراء التتر للإيطالي دينو بوتزاتي(Dino) (buzzati) التي نشرت عام 1940، جرت أحداثها في حصن عسكري يدعى باستشيانى، عين فيه الملازم جيوفانو دروغو لآداء مهمة عسكرية، فظل مترقبا عدوا آتيا من صحراء في عتق التيه و الفراغ، مقتنعا بمجيئه ومستعدا مواجهته، تماثلها شخصية سميث في رواية العربي الأخير " كان في لحظات راحته الداخلية و سكينته، يشبه نفسه دائما بقائد صحراء التتر، الذي عندما جاءت الحرب التي استعد لها على مدار ثلاثين سنة مضت، أصيب بمرض أقعده حتى الموت"³، " علينا أن نضاعف من حذرنا، لأن المسألة تشبه انتظار صحراء التتر، نحن في وضعية من ينتظرهجوم قاسيا لا يأتي، ويوم يأتي نكون قد أصبنا بحالة إرهاق شديد."⁴. وبالمثل تجري أحداث 2084 حكاية العربي الأخير في قلعة أميروبا المعلقة في فراغ الأرض في أقاصي الربع الخالي" لا شيء فيها إلا التكرار المميت للحركات و النظام و الحياة و الرياح الرملية و اليأس

¹- واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص60.

²-المصدر نفسه ، ص56.

³-المصدر نفسه، ص 400.

⁴-واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص371.

و انتظاردو غامض، كل الناس يسمونه التنظيم، يأتي و لا يأتي، شاخ العديدون و تقاعد آخرون ولم يأت، لم يروه، ولم يسموه، ولم يحدث الهجوم الكاسح على القلعة"¹.

ومن المفيد ذكر أن الكاتب قد اختار لعمله الروائي العربي الأخير "الإيقاع و السرد البوليسي بما يماثل أسلوبية رواية "اسم الوردة" لـ. أمبرتو إيكو "مبينا أن اسم البطل آدم غريب يحمل رمزية بدء الخليقة بما تتضمن من مدلولات"². و" سيحتاج يوما للقيام بما قام به أمبرتو إيكو بإعادته كتابة اسم الوردة، فقط ليقول لجيل لم يعرف روايته: هذه وردتكم أيضا، وليست فقط وردة الأجيال السابقة قبل ربع قرن."³.

ضف إليه الافتتاحية التي تعكس كل مضامين المتن الروائي والتي كتبت بلون أسود غليظ" العربي الجيد الوحيد، هو العربي الميت"، فهذا التصريح هو جزء من رسالة بعث بها الدبلوماسي الأمريكي باتريك سرينغ إلى المعهد العربي الأمريكي، نشرت في الشرق الأوسط نقلا عن الواشنطن بوسط، اضطر بعدها إلى الاستقالة من منصبه. أخذها عنه لاحقا أحد المتطرفين اليهود وهو جوش بوزينستن، "أعزائي اليهود: أقتلوا العرب الآن، العربي الجيد الوحيد، هو العربي الميت."⁴.

وما يلحظ على الكاتب أنه يكثر من "الإحالات التناسية والمستنسخات النصية والرموز الموحية والخلفيات المسكوت عنها، إلى أن أصبح النص مصبا للنصوص، واختزالا لأفكارالسابقين، وذلك في إطار عصاره تناسية تحتاج إلى استنطاقها و استجلائها قصد تحديد مرجعيات الكاتب، وتبيان مصادره الثقافية ورصد الأصول المولدة لفكره"⁵.

¹ - واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص37.

² - عمون: واسيني الأعرج "رواية العربي الأخير" تستلهم أجواء 1984 لجورج أورويل بإسقاط عربي، www.ammonnews.com/article/269347، 24، الساعة 06:24، 2016/15/17

³ - واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص320.

⁴ - موشاع فاطمة: مقارنة سيميائية في رواية 2084 رواية العربي الأخير، ص70.

⁵ - جميل حمداوي: مستجدات النقد الروائي، ط1، الألوكة، 2011، ص125.

من تلك المقبوسات رأي نيتشه في الحب "لم يكن نيتشه مخطئاً عندما اعتبر الحب مفسدة للإنسان و تدميراً لفاعليته"¹. و في سياق آخر ذكر الشاعر الروسي بوشكين الذي أحب "ناتاليا وبارزه البارون جورج شارل دانتييس لأجلها، لكنها فضلتة عليه، "لو مات بوشكين بشكل عادي لما ترك الأثر العظيم في قلوب الناس، لم تكن المباراة عادلة، و هذه قوتها، البارون يعرف إدارة السلاح بينما الشاعر لم يكن يملك أكثر من قلبه ليقول لنتاليا كم هو مرتبط بها". فهذه النصوص و المقبوسات لم توظف عشوائياً، ولم تكن مقحمة إلا نادراً، و إنما وردت متلاحمة مع النسيج الروائي، عبر من خلالها الروائي عن رؤاه وفلسفته. وكانت "موظفة ببراعة لخدمة الفن السردى الأمر الذي يمكن من الزعم أن الروائي المعاصر في مقدوره أن يكون كاتب ثقافة و خالق فن في الوقت ذاته يقدر على المراوغة و الإيهام، كما يقدر على إغناء أثره بمنكهاات فكرية و نقدية و فنية و نفسية، تجعل منه وجبة دسمة و تسمو به عن أن يكون حكاية ساذجة لصبية صغار و تحيله عملاً كثيفاً فيه بعد ثقافي و بعد نفسي يتجلبان من خلال السرد و الحوار و المناجاة."².

ومن أيضاً مسرحية فاوست ليوهان فولفغانغ فون غوته (Gohann wolfgang von goethe) "مسرحية مهمة، مسكين فاوست، كان يريد بحكم مهنته أن يحصل على كل المعارف الإنسانية (...)، لكنه لم يستطع، كان على مشارف الانتحار عندما جاء الشيطان ميفيستو فيليس واقترح عليه ميثاقاً، وهو أن يحقق له كل ما يريد، ولكن في المقابل يشتري منه روحه."³ "قد بعث نفسك للشيطان، ألسنت أنت القائل: لا لن أقبل بالعودة إلى أحضانه القاتلة، ميفيستوفيليس يريدني، وأنا أريدك"⁴. وجاء ذكر غريغوري سامسا بطل رواية المسخ لفرانس كافكا (Franz kafka). "وأنا تذكرت غريغوري سامسا،

¹ - واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص35.

² - عادل فريجات: مرايا الرواية، دراسات تطبيقية في الفن الروائي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2000، ص120.

³ - واسيني الأعرج: مملكة الفراشة، ص324.

⁴ - المصدر نفسه، ص404.

المسكين الذي أغمض عينيه إنسانا سويا، واستيقظ حشرة بشعة"¹. وأحال إلى رواية "الظلمة في عز النهار"، وعنوانها الأصلي بالفرنسية هو الصفر و اللامتاهي"اقرأها رواية عالمية مهمة، ستفيدك لا محالة، الظلمة في عز النهار، لكاتبها آرثر كوستلر."².

كما ورد التناص في صورة هوامش إحالية تحمل إشارات نصية تذكر في أسفل الصفحة أو في آخر العمل الأدبي، أو في صورة حواشي نصية تذكر في بداية العمل أو في نهايته لتفسير النص، بتحديد سياقه أو مناسبه أو ذكر أعلام أو ألفاظ، أو في شكل نصوص موازية، ف" كل نص هو عبارة عن لوحة فسيفسائية من الاقتباسات، وكل نص هو تشرب و تحويل لنصوص أخرى"³. ومثال ذلك ما ذكر في هامشرواية مملكة الفراشة "موجة تعلق أكثر فأكثر عند اقترابها من الساحل، تتشكل قبل أن تتمزق و متلاشية على الرمال..."⁴، هو نص مأخوذ من رواية الأمواج لفيكتوريا وولف (Victoria wolf)، ومن شاكلته " فجأة ارتسم أمام وجهي المركيز دوصاد، وشيئا فشيئا اتضح جليا وجه كيرفال الذي ظل راشقا بصره في"⁵و" كانت نظراته جافة وخالية من أية عاطفة، يشبه هيكل عظميا، كان طويلا و جافا و نحيفا..."⁶،المأخوذ من رواية " Sade ,Les120 journees de Sodome"، حسب ما هو مذكور في هامش الرواية ذاتها.

ولم يكن واسيني المغرب بمحاورة الأدب العالمي لينجو بدوره من إغواء رواية" لوليتا" للروائي فلاديمير فلاديميروفيتش نوبوكوف (VladimirVladimirivitch Nbokov)، حيث استدعى النص على مستوى العنوان و النسيج، وأخذ منه الكثير من الاقتباسات

¹- واسيني الأعرج، أنثى السراب، ص17.

²- واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص49.

³- جوليا كريستيفا: علم النص، تر: فريد الزاهي، ط1، دار طوبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1990، ص78.

⁴-واسيني الأعرج: مملكة الفراشة، ص125.

⁵-المصدر نفسه، ص275.

⁶-المصدر نفسه، ص276.

الحرفية و الضمنية، فحضر نوبوكوف روحا ونصا في رواية " أصابع لوليتا "، من خلال جملة من الاقتباسات والتضمينات التي ترفع التفاعل النصي إلى مستوى التناص المعنوي، بحيث أعاد زرع روح النص الأول الغربي في أرض جديدة وذهنية جديدة" أصبح متأكدا من أن لقاءهما الأول وربما الأخير، كان في كتاب نابوكوف، كانت صغيرة عندما صادفها لأول مرة، مسجونة بين الكلمات و الورق، لم تكن قد تخطت بعد عتبات الطفولة، عمرها لم يتجاوز الثلاث عشرة سنة ¹، "حذار ياعزيزي من مانشيتات الجرائد مثلا كهذه: مارينا الكاتب الكبير في أحضان قاصر: لوليتا.أو مثلا بطريقة أكثر استفزازية لجلب جمهور القراء: همبر همبرالقرن الحادي و العشرين يعود من جديد، ويغتصب لوليتا مرة أخرى." ² "هي ذي لوليتا الخالدة التي كانت تسري في دمي، لوليتا التي لم تكتمل بعد. لوليتا التي أستطيع اليوم أن ألمسها، أن أسمعها أن أستنشقها، أن أسمعها وأراها." ³.

و تدخل رواية أصابع لوليتا في تناص واضح مع رواية "عطر" للألماني باتريك سوسكيند (Patrick Suskind) الصادرة عام 1985، في حادثة ترصد البطل يونس مارينا لمنابت عطر أنثوي يعرفه وهو بصدد إمضاء روايته الجديدة "عرش الشيطان" ليتعرف أخيرا على صاحبه "نوة" أو لوليتا، التي اقتحمت حفل التوقيع بفرانكفورت بباقة من الورد... "طبعاً لست بانتيست غرونوي، ولكن هذا العطر ليس غريبا على حواسي" ⁴. كما تضمن الرواية نصوصا دينية بلغتها الأصلية تم ترجمتها إلى اللغة العربية، أهمها ترانيل ماريا كالاس و أندريا بو تشلي على أنغام الموسيقى الكلاسيكية.

¹-واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص ص37-38.

²-واسيني الأعرج: مملكة الفراشة، ص215.

³-واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص488.

⁴-واسيني الأعرج: مملكة الفراشة، ص11.

فالأكد أن النص أصبح غنيا "ببني نفسه على أنقاض النصوص الأخرى، عبر المحاكاة الحرفية أو الاستفادة الامتصاصية (الاستشهاد المدعم)، وعن طريق النقد و الحوار. وهذا ما جعل رولان بارت السيميائي الفرنسي ينفى وجود ملكية النص و الأبوة النصية، لأن الكتاب و المبدعين يعيدون ما قاله السابقون بصيغ مختلفة قائمة على التأثير و التأثير"¹. ما يجعلنا نفر بأن المنجز الثقافي و الفكري لكل أمة إنما هو نتيجة التقاء واتصال متلاحق مع الآخر عبر المثاقفة الطوعية أو القسرية، وعبر الحركات الأيديولوجية والتحويلات الثقافية و المفاهيم الجمالية العامة. فقد أسهمت العلاقات الثقافية المتبادلة في إغناء الآداب الوطنية والقومية، وحفزت الطاقة الإبداعية للأدباء بفضل التقاليد الفنية العالمية التي أرسنها.

وبناء على ما سبق وحب التساؤل عن هذا الاقتراب إلى حد التشابه في العناوين والفكرة و طريقة التخيل واستعارة الشخصيات الرمزية في الأدب: هل هو نوع من المثاقفة المعبر عنها في عمل أدبي معجب بالأصل؟ أم هو نزوع نحو إيجاد فهم عالمي و انتشار لهمومنا المحلية الفكرية منها و الحياتية؟ أم هو مجرد اتكاء على عمل حقق شهرته وعالميته واستقر في كلاسيكياته؟ أم هو لجوء إلى الجاهز بسبب الافتقار إلى فكرة أصيلة تجسد الواقع؟ أم لعله التناص الذي لا مناص منه في زمن العولمة، حيث ما من نص إلا و يبني على نص سابق، حسب رولان بارت، فذاكرة الأدب بحر متلاطم من إرث شعوب."²

¹ - جميل حمداوي: مستجدات النقد الروائي، ص165.

² - دعد ديب: محاورات الرواية العربية مع الأدب العالمي، "فرانكشتاين وأصابع لوليتا أنموذجا، البناء

و عليه نخلص إلى:

- المثاقفة ظاهرة تاريخية وواقعية، وكل ثقافة هي محل تغير تدريجي يحدث ببطء، والتواصل بين الثقافات غدا ظاهرة موضوعية لا يمكن إغفالها، وقد نجحت المثاقفة في نسج علاقات ثقافية بين الشعوب وإحداث تغيرات جزئية في كياناتها الثقافية. لأن المثاقفة هي عملية دائمة من التفكك و البناء و إعادة البناء.

- تصور الأنا الثقافي بعيدا عن الآخر أمر غير منطقي، فقد غدا النص الروائي فسيفساء في النصوص التي تعلقت بشكل كلي أو جزئي تسافر فيها النصوص عبر الأمكنة و الأزمنة، و تتشرب من ينابيع ثقافية متلونة، يلتقي بعضها وينصهر في نسيج نصي متآلف متناغم. والأدب العربي ليس بمنأى عن هذه التحولات العالمية بانعكاساتها الايجابية وتداعياتها السلبية، وهو مطالب بالمشاركة، بل بالاندماج في هذا الحراك الثقافي العالمي، ليؤسس لنفسه وليجتري نمودجا ثقافيا جديدا منفتحا على ما ينتج عالميا من ومعارف و أفكار، ومرتبطا في الوقت عينه بالتراث و الواقع و تحدياته، في إطار حوار الحضارات و الثقافات. ولا شك في أنه قد استفاد الكثير في إطار تفاعل إيجابي يقوم على الاقتباس و الاستيعاب والهضم و الجمع بين الأصالة والمعاصرة، ما دفع بالعملية الإبداعية الروائية نحو الكمال والغنى و التنوع.

المطلب الرابع: الترجمة.

من المعروف أنّ انخراط الترجمة في تفعيل الحوار الثقافي ليس وليد التاريخ المعاصر، بل هو فعل محرك قديم، واكب سيرورات الأمم والحضارات منذ عصور قديمة، و مارسته تلك الحضارات وأفسحت لهم جالا واسعا في حركتها الحضارية، وفي صياغة منظومتها الفكرية و خصوصيتها الثقافية. فكانت الترجمة القناة الواصلة التي تدفقت من خلالها المعارف الإنسانية متنقلة بين الشعوب و الثقافات المختلفة، الأمر الذي مكن من

تأسيس حوار إنساني يقوم على إعادة التأهيل الواعي للثقافة الإنسانية، لتحقيق هاجس الارتقاء و النهوض الاجتماعي و الفكري.

ولغويا تحمل الترجمة معنى الإيضاح والتفسير والشرح و النقل من لغة إلى أخرى، وهي اصطلاحاً: "كتابة في اللغة المترجم إليها لنقل المعنى وفقاً للغرض المتوخى منها، وهي عملية الانتقال من لغة إلى أخرى، فيما بين ثقافتين لتبين مراد المترجم عنه للمترجم له الذي لا يفهم اللغة المترجم منها"¹. إن التعريف اللغوي في مقاربة الترجمة قد نظر إليها على أنها مجرد ضبط للمصطلح من لغة المصدر إلى لغة الهدف، لكن الواقع يستدعي الطرح الأنثروبولوجي أكثر من سواه، و هو طرح يقوم على مقاربة الترجمة، لا ضمن حدودها اللغوية فحسب بل في إطار إشكالية "المثاقفة"، حيث لم تعد الترجمة مجرد نشاط معرفي يركز على معيار لساني عبر تحويل وتعديل بين النسقين اللسانيين للنص الأصلي والمترجم له، بل باتت فعلاً معرفياً أساساً في التجربة الفكرية والثقافية للأمم. ويظهر أن "اعتبار الترجمة قناة مثاقفة" صادر عن إمكانية النظر إليها بوصفها مؤشراً للتعبير عن مظاهر الصراع أو التكيف بين الثقافات، لارتباطها بالعولمة التي لا تعترف بالخصوصية اللغوية والثقافية للشعوب.

و إنه لمن الإجحاف إنكار المنافع الجمة للترجمة، فقد شكلت حلقة وصل بين الحضارات و الثقافات المتباينة، وساعدت على توليد القرابة و تقريب المسافة بين الذات و الآخر، و تبديد التباين الموجود بين الثقافات في العالم، وسمحت بخروج ذاتنا من محيطها الضيق لتلتقي بالآخر، الذي يغدو عبرها مرآة للذات، فهي الجسر الحقيقي للتعرف إليه، وللانفتاح على هويات ثقافية مختلفة، "إن الترجمة بدورها تصبح عملية مثاقفة، تجعل ثقافة القارئ في حوار جدلي مع ثقافات أخرى ماضية أو راهنة، وتحتة على

¹ - محمد الديداي: مفاهيم الترجمة، المنظور التعريبي لنقل الترم، المركز العربي الثقافي، الدار البيضاء، المغرب، 2007، ص62.

المغامرة في متاهات المعرفة البشرية، ليس للانصهار و الذوبان فيها، بل لمعرفة مكانه فيها و مدى إسهام ثقافته في بنائها"¹. و الكتاب عبر الترجمة محظوظون بعبور دائم عبر العالم لا يتوفر لكل الناس " ربما كان هذا هو مكسب الكتابة العظيم، أن تتحول بالرغم منك إلى جسر دائم التنقل، عائم بين ثقافات عديدة و أناس عديدين و شعوب عديدة أيضا"². و رغم ما يمكن أن ننادي به من خصوصية هذه الثقافة أو تلك، "فإن الترجمة تلبل كل تمرکز على الذات، وتدفعنا إلى الانخراط في السياق الثقافي العالمي، لأنها هي التي تجعلنا نتشابه مع قضايا الأمم الأخرى و نلتقي بإرثها الثقافي و العلمي"³.

وهنا تكمن أهميتها في أنها طرح لرؤيتنا على الآخر و طرح لرؤية الآخر علينا، في تفاعل خلاق بين الذات والآخر، من أجل صياغة جديدة تعكس رؤية تطويرية و حضارية للعالم، قائمة على أساس الشراكة بينهما. فأن " تترجم للآخر، فهذا يعني أن ثمة إمكانا لفهمه، والفهم أساس التواصل، وكل تواصل مبني على اعتراف و إقرار بالآخر المختلف. فالترجمة و الكتابة صنوان لا مناص من اقترانهما، وهي في الأخير تعني في إطارها الواسع الفهم العابر للثقافات."⁴.

إن الأدب هو مرآة المعطيات الثقافية والحضارية للأمم و الشعوب، وحين تترجم فإنك تعطي صورة وانطبعا عن هذه المعطيات، و تتقل الوجه الحضاري لهذه المجتمعات و تصحح الصور المشوهة التي انطبعت عنها في مخيال الآخر، فتفتح بهذا الفعل باب الفهم و التعارف و الحوار "اللغة حاملة الثقافة، أوهي إحدى تموضعات هذه الثقافة، و حين تترجم إلى لغة أخرى فهي تخلق تنافذا مقصودا بداية، والأهم غير المقصود الذي

¹ - مجاب الامام و محمد عبد العزيز: الترجمة وإشكالات المناقفة، أعمال مؤتمر منتدى العلاقات العربية والدولية في الدوحة، ط1، بتاريخ 26-27 فبراير 2014، ص.191.

² - واسيني الأعرج، أصابع لوليتا، ص.323.

³ - مجاب الامام، محمد عبد العزيز: الترجمة وإشكالات المناقفة، المرجع السابق، ص.215.

⁴ - المرجع نفسه، ص.542.

يسري تحت طبقات الوعي الفردي و الجماعي، حيث تنمو مفاهيم وأفكار و تصورات ما كانت لتنمو لولا الترجمة. بل عن اللغة نفسها، والعربية التي نعيشها اليوم تحولت خلال عقود قليلة في أشكال الكتابة والأساليب و التعبير بفضل الترجمة. اللغة العربية اليوم تحمل الآخر في تضاعيفها وهي تتعرفه عبر الترجمة.¹ فمن خلال ترجمة ثقافة الآخر تتساق أفكاره ومعتقداته وتجاربه وقيمه، وعليه فالترجمة ليست فعلا لسانيا فقط، إنما هي فعل ثقافي أيضا أي فعل تواصل بين الثقافات،" و لا ريب أن المثاقفة على صيغة مفاعلة، وهي صيغة تدل على المشاركة و المصاحبة أي الاشتراك في ثقافة معينة و التبادل بين ثقافة و أخرى، وهي تواصل ثقافي بين الأمم و الثقافات، لا تقتصر مظهره على جانب الأخذ و الاقتباس فقط، بل كذلك على جانب البذل والعطاء الذي يمكن أن تؤثر به ثقافة ما في غيرها من الثقافات بحكم المخالطة و الجوار أو بفضل رقيها وانتشارها و إشعاعها، وذلك لأن المثاقفة في كنهها عملية مشتركة تقوم على مبدئي الأخذ و العطاء، وإن كانت مسألة التأثير و الاستيعاب يمكن أن تحصل من جانب دون آخر، كما يمكن أن تكون كلية أو جزئية"².

لهذا تعتبر كل ترجمة لنص أدبي ما، تدعيما للمثاقفة الأدبية وإغناء للمرجعية الثقافية للغة المترجم لها، دونما فقدان لأصالة الذات المترجم منها، على اعتبار أن النص الأدبي المترجم قادر على تحقيق الاعتراف الثقافي - عكس الإلغاء الثقافي - للآخر و لواقعه و نمط تفكيره، وبيئته... وغير ذلك، ما دامت الغاية الأساسية من المثاقفة الأدبية هي " فهم الإنسان وفهم علاقته بالكون الذي يعيش فيه، وما تتضمنه هذه العلاقة الكبيرة من علاقات كثيرة أخرى، وأهمها علاقته ببيئته الطبيعية و الاجتماعية، لأن

¹-المرجع السابق ، الصفحة نفسها.

²- توفيق بن عامر: المثاقفة والتغيير، المؤتمر السابع عشر، ثقافة التغيير، جامعة فلادلفيا، عمان، الأردن، الثلاثاء

الأدب مدخل لفهم الإنسان في مجالات حياته كلها.¹، وهو ما يفسر التزامم الكبير على معرض الكتاب الذي أقيم في مدينة فرانكفورت الألمانية، على وقع توافد جموع غفيرة من القراء مشكلين سلسلة بشرية لطابور طويل ينتظر بلا ملل و لا قلق توقيع المؤلف، و اقتناء نسخة مترجمة من رواية "عرش الشيطان" للكاتب المغترب يونس مارينا " نفاجاً بالأأيادي تمتد نحو الكتاب، والألسن تسأل عنه و الأجساد تتحمل طوابير البشر الواقفين و روائح العرق والعمطور المتفسخة من شدة الاحتكاك، فقط للحصول على نسخة منه."². "عرش الشيطان هي سادس رواية تترجمها إيفا إلى الألمانية بعد كتاب الحشرات بأجزائه الثلاثة و رواية الحافة، إضافة إلى جراد الإمام."³. وقد ترجمت هذه الرواية سابقاً إلى اللغة الإيطالية و الألمانية أولاً، ثم الفرنسية و لاقت نجاحاً باهراً، ما استدعى ترجمتها إلى لغات عالمية أخرى، و"عندما ترجمتها إلى الألمانية كانت تعرف بأن شيئاً ما سيصبحها، ولكنها لم تكن تتخيل أن جمهوراً ألمانيا بامتياز سيقف في هذا البهو الواسع من أجل كتاب لا علاقة له به؟ كتاب نشأ في محرقة انتهى هو منها في القرون لوسطى، ودفع ثمنها غالباً مع محاكم التفتيش."⁴. وأكدت صاحبة دار النشر الألمانية " أن نسخ السحب الأول و الثاني و الثالث كلها نفذت، وبدأت التفكير في طبعة الجيب الشعبية. فالرواية وجدت جمهورها، وهذا هو الأهم. غدا نوقع عقود الترجمة الدانماركية والسويدية و النرويجية و الهولندية و اليابانية و الصينية و العبرية. كل شيء جاهز، حصيلة ممتازة "⁵. "وهو يتلمس النسخة الأولى من الكتاب، تمنى أن يعرف سر حب الإيطاليين و الألمان لجنون

¹ - تيسير شيخ الأرض: التر بين الفعل والانفعال الثقافي، مجلة الوحدة، العدد 61-62، أكتوبر/نوفمبر، 1989، ص13.

² - واسيني الأعرج، أصابع لوليتا، ص16.

³ - المصدر نفسه، ص17.

⁴ - المصدر نفسه ، ص12

⁵ - المصدر نفسه ، ص24.

نشأ في شرق البارود و الحروب و الأديان المتقاتلة ؟ ثم جاءت الترجمة إلى لغات كثيرة، كان عليه أن يعود إلى خرائط غوغل ليحدد شعوبها و أمكنتها وثقافتها.¹

وتكرس الترجمة للتفاعل القيمي مع الآخر المختلف لغة وثقافة و فكرا و قيما، وترفع من درجة القبول به في إطار المشترك الإنساني، وتضييق هوة الاختلاف بين الشعوب. فلا غنى للحضارات والشعوب على أن تتصل ببعضها وتأخذ عن غيرها من حقول العلم والمعرفة بجميع مظاهرها، وإذا حدث العكس أصابها العطب وتأخرت عن سلم الحضارة، فالدور الوسيطي الذي تؤديه الترجمة بين مختلف الثقافات هو خير دليل على أهميتها، لذلك أصبحت مهنة يمارسها دارسون ومختصون محترفون في كل الاختصاصات. وقد تضاعفت أهميتها في ظل التحوّلات الحضاريّة الرّاهنة، أين تقاربت المسافات وتشابكت العلاقات و المصالح والمشكلات، وباتت الأحداث على اختلافها هما عالميا مشتركا، ضاعف الحاجة إلى فعل الترجمة الذي فرض نفسه أكثر من أيّ وقت مضى بوصفه نشاطا معرفيا مواكبا، حضر في كل الفعاليات و النشاطات و المؤتمرات مع تنوع الغايات و الأهداف، سواء كان الهدف منها الهيمنة والتمركز، أو التواصل و الحوار، و غدت الترجمة أداة مغذّية للدينامية الحوارية بين شعوب العالم، وتحوّلت في ظلّ سياقات العولمة إلى "تعبير مكثّف عن المجتمع في تحوّلته الإنسانيّة الشّاملة، و على المستويات كافة"².

و لقد تظنن العاملون بحقل الترجمة إلى وجود عامل آخر يتواشج مع الفعل الترجمي، وهو العنصر الثقافي، الذي يرسخ لكثير من الخصوصيات، تصبح معها الترجمة أمام موضوع معقد، لا يكفي فيه حضور الجهاز اللغوي عاريا من الجهاز السوسيو ثقافي.

¹ - المصدر السابق ، ص16.

² - مسعود ظاهر، الاتجاهات الأساسية لحركة الترجمة في لبنان والوطن العربي، مجلّة الوحدة، العدد 61-62، أكتوبر/نوفمبر، 1989، ص47.

وعليه لا يكفي "التسليم بمقولة اللغة، وإنما يجب الأخذ بمقولة لغة/ ثقافة، لأن الترجمة عبور بين الثقافات، وهو عبور يجمع بين صفتين مختلفتين لغة وتاريخا وعقيدة و تراثا وفكرا، وعليه فإن أي تعريف لمفهوم للترجمة لا بد أن يتسع ليشمل جدلياته الحية و آفاقه المتعددة كفعل إبداعي ونشاط لغوي و ضرورة حضارية و موقف أيديولوجي"¹. كما أن الترجمة تمتاز "بالازدواج، فهي نتاج تفاعل بين ثقافتين ورؤيتين و لغتين، تنتمي من حيث هي رؤية إلى مؤلف حاضر في أفكاره و غائب في لغته، ومترجم غائب في أفكاره وحاضر في لغته، وهذا يعني بالنتيجة أن الترجمة هي فعل مزدوج، ازدواج في اللغة وازدواج في الثقافة، وازدواج في الرؤية و الصوت، أي في النهاية ازدواج في الانتماء و الهوية"².

وعطفا على ما سبق، يتعين التنبيه إلى عدم إغفال خطورة المستجدات الفكرية و الثقافية الوافدة عبر الترجمة على الثقافة الأصلية، ذلك أن الترجمة مادة ليست بريئة أبدا و ليست مجرد أداة، فهي في الغالب محملة بإيديولوجية. و لا يخفى أن هناك نموذج يجري تعميمه و فرضه في مجالات السياسة و الاقتصاد و الاجتماع والأخلاق و الثقافة والفكر و السلوك، بالإغراء و الضغط الناعم أو الشكل الهادئ سواء كان بطيئا أو سريعا، و أن هذه الممارسات تهدد الهوية الثقافية للشعوب و الأمم، وقد تؤدي إلى قطيعة مع الأصل و الذاكرة الحضارية، و إلى إذابة الفوارق و الاختلافات الثقافية. فالتجانس الثقافي العالمي الذي يجري في العالم اليوم ليس سوى إمبريالية ثقافية، في شكل سلع ثقافية عابرة للقارات، قادرة على الاختراق و التأثير و تحقيق الإرباك الثقافي في دول الأطراف، في ظل صراع قيمي ثقافي غير متكافئ الأطراف.

¹ - محمد حافظ دياب: التر وأئلة النهضة العربية، مجلة الوحدة، العدد 61-62، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، 1989، ص 31.

² - مجاب الامام و محمد عبد العزيز: الترجمة وإشكالات المأثفة، مرجع سابق، ص 240.

ففي الترجمة بين المركز و الهامش " نجد أولاً أن الثقافة الخاضعة تترجم من الثقافة المهيمنة أكثر بكثير مما تترجم هذه الأخيرة منها، وذلك يعني اتساع تمثيل الثقافة المهيمنة في الثقافة الخاضعة، وضيق تمثل هذه الأخيرة في نظيرتها (...).، ونجد أن الثقافة المهيمنة لا تترجم من الثقافة الخاضعة سوى تلك الأعمال التي تلائم ما تحمله عنها من تصورات مسبقة، أي تلك الأعمال التي تمتثل لما لديها من صور نمطية المهيمنة"¹. كما لا يخفى أن المعايير الأوروبية و الأمريكية هي التي تفرض على أنها معايير كونية أثناء اختيار ما يترجم "وهكذا تتكشف الترجمة على أنها لا تقتصر على جانبها التقني، إذ تتم في شبكة من العلاقات عالمية النطاق، تجعل كل عمل مترجم منغمس في روابط معقدة، تتسم بهيمنة المركز ولغته و مصطلحاته و معتمدياته و نواميسه المكرسة، وذلك على نحو بات يؤثر حتى على إنتاج "النصوص المحلية"، و يشترط توزيعها في السوق العالمي"². وهنا تتأكد مقولة أن الترجمة " ليست خلقاً للقرابة فحسب، وإنما هي أيضاً تكريس للقرابة، إنها استضافة، لكنها دوماً استضافة غريب"³. فثمة دوماً سلطة تراقب مآلات الترجمة والتلاقح الثقافي، وتحاول جاهدة تأكيد قيمها على حساب الآخر.

وإذا "كانت بعض التنظيرات الفلسفية قد أدت دور المبرر لانطلاق عولمة الهيمنة، وأسهمت إلى حد بعيد في إعطائها السند الفكري و المبرر الموضوعي، فإن الترجمة على النقيض من ذلك أدت ولا تزال تؤدي أدواراً طلائعية في حماية التنوع و التعدد الثقافي، وتدعيم فلسفة المثاقفة والتقارب و التعايش بين الشعوب والحضارات، كما كانت ولا زالت،

¹ - المرجع السابق ، ص 295

² - المرجع نفسه، ص 295.

³ - عبد السلام بنعبد العالي: التر وإشكالية الآخر، في التر وإشكالات المثاقفة، تحرير مجاب الإمام ومحمد عبد العزيز، أعمال مؤتمر منتدى العلاقات العربية والدولية في الدوحة، 26-27 فبراير/شباط، 2014، ص 270.

وستظل تمثل جسرا عظيما يربط البشرية في مختلف الأصقاع ومن مختلف الأزمنة، مما يتيح فرصة أكبر للتلاقح.¹

ولعلّه من الضّروري رفع الالتباسات التي تلتصق بمفهوم المثاقفة عامة، و بالترجمة خاصة باعتبارها أحد أهم قنواتها، وضبط شروطها وتحديد خصائصها، حتّى لا تظلّ هدفا للأوهام والمغالطات.ومن أبرز تلك الشّروط والأركان:

1- "الاعتراف بواقع التنوّع الثقافيّ وبالخصوصيّات الثقافيّة والعلاقة العضويّة والحميمة بين الثقافة والمجتمع، ممّا يتعدّر معه إخضاع ثقافة إلى أخرى أو دمجها فيها مادامت متحصّنة بأصالتها ومحافظة على مناعتها ومضطّعة بوظيفتها على قدم المساواة مع سائر الثقافات.

2- المشاركة الطّوعية والتّفاعل السلميّ، إذ لا مثاقفة إلّا بمشاركة إيجابيّة من كلا الطرفين، عمادها حرّيّة الاختيار وتلقائيّة المبادرة وسيادة القرار بعيدا عن التلقّي السّلبى وعن أجواء التوتّر وضغوط الهيمنة مهما كانت أشكالها وصيغها، وسواء أكانت مضمرّة أو معلنة وذلك لأنّ المثاقفة لا تستقيم ولا تثمر إلّا إذا كانت نابعة من إرادة حرّة، ومن تطلّعات متّصلة في الكيان الاجتماعيّ، ولم تكن بمثابة تركيبة مصطنعة ومقحمة في ذاك الكيان قد تهدّد وجوده في الآن، وقد يرفضها مهما طال الزّمان.

3- على كلّ طرف من أطراف الحوار أن يكون مسلّما أنّه لا يمتلك الحقيقة المطلقة، مؤمنا أنّ المعرفة نسبيّة لا تكتمل إلّا بالتّفاعل مع الآخرين، ولا تتقدّم إلّا بالإسهام الجمعيّ، ويعني ذلك التّسليم بنوع من التّكافؤ العقليّ بين الأطراف المتحاورّة، وعدم تسلّل

¹-ينظر: محمد سعيد الريحاني: التر جسر عبور بين تقديم الذات والتّعريف بالآخر، مجلّة الجوبة، العدد33، الرياض، مؤسّسة عبد الرحمن السّديري الخيريّة، المملكة العربيّة السّعوديّة، 2011، 2011، ص16.

نزعات عرقية أو تحيزات استعلائية إلى الحوار، فالحوار يصل إلى طريق مسدود ما لم يتأسس على التكافؤ الفكري بين الأطراف، ينقلب إلى نقيضه عندما تختل العلاقة بين الأطراف، فيغدو إرسالاً وحيد الاتجاه.

4-وعي الآخر شرط أساس للوجود في العالم، ووعي الذات شرط أساس لإنتاج الهوية، وعليه لابد من خطاب منتج يستثمر صراعاته المعرفية، ويجتاز زلته ويشكل تفوقه بين المتفوقين، مما يعزز عضويته داخل النشاط الإنساني، داعماً فرديته من جهة، ومحققاً إنسانيته من جهة أخرى.

إلا أن المبادرة والتلقائية والمحافظة على المناعة والتمسك بالخصوصية ليست وحدها الكفيلة بإنجاز ميثاقية سوية¹. ولا بد من أن يتضافر مع هذه الشروط عاملان أساسيان هما:

1-التكافؤ في الوسائل باعتباره الضامن للتوازن بين الأطراف المتداخلة، لأن احتكار تلك الوسائل والآليات من قبل طرف دون آخر من شأنه أن يتسبب في انحراف ذلك التوازن، وأن يحدث خللاً في عملية الميثاقية، ويفتح الباب على مصراعيه للتسلط والهيمنة. فالتحكّم في الوسائل تحكّم في اللغات وخنق للمبادرة وكسر للتلقائية وتهديد للمناعة والخصوصية.

2-لا تستوي الميثاقية بدونه، ويتمثل في الوعي العقلاني ويقظة الضمير، إذ به يتمّ التفاعل الخلاق واتقاء الانخداع والانزلاق و يتسنى انتقاء الأصلح الأفضل والأسمى، وفق معايير الخير والحق والجمال وطبق الإحساس بالمسؤولية إزاء الإنسان حينما كان. وأمّا في غياب ذلك الوعي فيتعدّر الحديث عن ميثاقية حقيقية، ويضحي من السهل الارتواء في متاهات التقليد الأعمى والانسياق وراء إرادة الآخر والخضوع لمشيئته وبالتالي، تتعین

¹سارة زرزور: الترجمة والميثاقية، جسر المعرفة، المجلد الثالث، العدد 11، سبتمبر 2017، ص ص 94-95.

المثاقفة نظريا بحوار ثقافة محدّدة مع ثقافات مغايرة لها، بحثاً عن عقل ثقافيّ جماعيّ، يرى في المشاركة العادلة مبدأً، ويسعى إلى خير إنسانيّ مشترك¹.

ومن الضروري أن نفرق بين المثاقفة و الغزو الثقافي و الفكري، فكلا المصطلحين يدل على وجود علاقة ما بين ثقافات متباينة من حيث الجذور الدينية ولانتماءات العرقية و الواقع الجغرافي و التراث الاجتماعي والثقافي والجمالي. قد تأخذ هذه العلاقة منحى تواصليا حواريا يتولد منه التفاعل الحضاري والتثاقف بصورته الإيجابية الفعالة، وقد تأخذ منحى تصادميا يتولد منه الاستلاب الحضاري، و الاستتباع الثقافي، لذلك كان الغزو الفكري هو النقيض للمثاقفة، لأنها تقوم على مبدأ التواصل و طلب الاغتناء بثقافة الآخر و إغناء ثقافته في الوقت ذاته، في جو مفعم بالتكافؤ و الحوار، مما يولد علاقة تفاعل مثمر تسير في اتجاهين. في حين يستهدف الغزو الثقافي احتلال العقل وغزوه، لتخريب المناعة الذاتية للكيان المغزوّ، وتحقيق الهيمنة على الحرية و الإرادة و الإمكانيات القومية برمتها، قصد التمكين للتنميط الثقافي، من خلال آلية صناعة العقل و توجيه الثقافة. فالغزو الثقافي لا ينتج إلا التنافر و التباعد ويزيد من عمق الفجوة الفاصلة بين الشعوب و الأمم، ذلك أن وسائل القسر و الإكراه التي يتخذها لفرض ثقافته و إزاحة الثقافة المغلوبة، تولد ردود أفعال تتخذ اتجاهين متعاكسين، لكنهما يتفقان في إضعاف الذات الحضارية المستلبة، فإما أن تتم مواجهة هذا الغزو بالانغلاق على الذات، الأمر الذي يقود شيئاً فشيئاً إلى إفقارها و حرمانها من الاستفادة من الغنى الذي تتوفر عليه ثقافة الآخر المعتدية، وما أن يتم التماهي في ثقافة الغازي و الذوبان فيها مما يؤدي إلى خطر انتشارها من وسطها الحيوي، واقتلاعها من جذورها الغنية بالمكتسبات التاريخية و حرمانها من هويتها.

¹-المرجع السابق، ص ص94-95.

نصل إلى:

- إن معرفة الآخر هي معرفة للذات أيضا، وعليه تكون الترجمة وسيلة للاغتناء الثقافي، وفعلا مؤسسا للتجربة الفكرية و الثقافية للأمم. ولإنجاح الحوار الثقافي لا بد من احترام الهوية المحلية، و السعي وراء الأبعاد الكونية للتواصل عند التقاء أي ثقافتين مختلفتين.

- يتطلب الحديث عن "الترجمة في عصرالعولمة -عصر المثاقفة بامتياز- التخلص من وهم الأصل والإيمان بأن الترجمة مجال لتحقيق الهوية المنفتحة على الآخر، ولكن من منطلق الخصوصية الغنية القائمة على التثاقف المتوازن"¹.

- إن الترجمة مسؤولية جسيمة و مطارحة فكرية و لكي تكون خادمة للانفتاح، فإنها تتطلب البعد عن التحيز والمحاباة و المتاجرة بقيم الأمم و الحضارات. ولا بد من التفكير الجاد في النهوض بالترجمة اللاعنف، التي يقف فيها المترجم حياديا بين الثقافات، حينها " تكون قادرة على تأسيس حوار جاد بين الذات و الآخر، بعيدا عن خطاب التسيد أو خطاب المؤامرة.و إن نضجت هذه الفكرة في أذهاننا، فستنجح لا محالة في إعادة بناء الثقة المفقودة بين الثقافات"².وبقدر ما تبتعد عن الاستعلاء الثقافي، بقدر ما تنجح في نشر ثقافة الانفتاح والتواصل الحرّ، فينغرس تأثيرها الإيجابي عميقا في وجدان المتلقي لتصبح جزءا من تراثه الثقافي.

- لا بد لوهم الذات باعتبارها محورا للعالم أن يتحطم، و أن يتحرر النشاط الترجمي من الخلفيات الإيديولوجية، ذلك أن القيم و المبادئ التي كرستها الحداثة الغربية أفقدتها

¹ - رشيد برهون: الترجمة ورهانات العولمة والمثاقفة، مجلة عالم الفكر، العدد الأول، الكويت، سبتمبر 2002، ص171.

² - مجاب الامام، محمد عبد العزيز: الترجمة وإشكالات المثاقفة، مرجع سابق، ص565.

القدرة على التفاعل الايجابي مع غيرها من الحضارات ودفعها إلى فرض قيمها من منطلق الهيمنة و الإقصاء الممثل في العولمة، حين تغافلت عن حقيقة أن الحضارة الإنسانية لا يصنعها زمن واحد و لا شعب واحد، إنما هي صنيع مشترك على امتداد قرون طويلة.

المطلب الخامس: الفن و الموسيقى.

لا شك في أن الحاجة إلى الجمال و السلام الروحي هي المولد الرئيسي لأساليب الفنون الإنسانية واللمسات والأنشطة المختلفة، وقد أضحت بعض الأساليب الفنية عالمية كالنحت و الرسم و التمثيل والموسيقى و الغناء... لأنها لامست الإنسانية الكامنة في كل البشر وعبرت عن المشترك وهو الإنسان وهمومه، إذ من المهم توظيف جماليات المحتوى الفني للتعبير عن مفاهيم ومضامين التواصل الحضاري.

وتأتي الموسيقى رديفة الوجود البشري كأداة من أدوات الحوار و التقارب العالمي، و كقناة من قنوات التقاف و معرفة الآخر، باعتبارها جزء حيا من حياة الشعوب ومعرفة حالاته النفسية والاجتماعية، لأن لها القدرة على اختراق النفوس و التأثير فيها، ما يجعلها لغة تخاطب عالمي، تتحدثها كل الشعوب على اختلاف أجناسهم و لغاتهم، ففي لحظة حزن و انكسار جلست نوة (لوليتا) على البيانو لتعزف، النوتات كانت ثقيلة، بدأت الموسيقى تحتلها تدريجيا " مقطوعة أخيرة تحمل عنوان شوبان نفسه، وهي طبعا لبيتهوفن، المسيرة الجنائزية، وهي الحركة الثانية من سيمفونية البطولة للودفيغ فان بيتهوفن، حتى لو لم تحمل هذه الحركة اسم المسيرة الجنائزية، الحركة الثانية المشهورة أليغريتو، من سيمفونية بيتهوفن السابعة.¹ " المشهد الثاني و الثالث من غسق الآلهة لريتشارد فاغنر، يسمى أيضا المسيرة الجنائزية لسيغريد، الحركة الثالثة من سيمفونية ماهر، الخامسة

¹ - واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص306.

تفتتح (Trauermarsch) أي على المسيرة الجنائزية.¹، فحين يتذوق الإنسان الموسيقى ويفك رموزها، فإنه يقيم توأصلا روحيا مع أصولها و مضامين رسالتها، لذلك حدد يوم 21 يونيو من كل سنة منذ عام 1982 يوما عالميا للاحتفال بالموسيقى، بهدف التواصل بين الثقافات والشعوب، واكتشاف إرثها الحضاري الموسيقي.

تضخم المعرفة الإنسانية وسهولة تبادلها، عوامل ساعدت على ظهور قيم حضارية عالمية، وأتاح الحرية أمام الإنتاج الفني و تذوقه والارتقاء به. و بتنوع المدارس الفنية أصبح بإمكان الفنانين اختيار الأسلوب الفني المتسق مع ميولاتهم الفكرية و توجهاتهم وعقائدهم "إن التفجر الإعلامي و الاتصالي الحادث بين الشعوب والمجتمعات و الثقافات منذ بداية العقد الأخير من القرن العشرين جعل مسألة الهوية أو الهويات الموسيقية مبسطة على مستوى عالمي بل كوني، على وقع التداخل الكبير بين اللهجات واللغات الموسيقية، ليس من سبيل إذا للتغاضي عن سقوط العديد من الحدود، بحيث وجدت جمهرة كثيفة من الموسيقىات على مقربة من أوسع الفئات كثافة مستمعين وملحنين و مؤديين"². من شاكلتهم "دنيا" الخالة الكبرى لمي، موسيقية تحلم بالغناء في أوبرا نيويورك حيث تقيم، وتملك مطعما خاصا يرتاده زوار يتذوقون الأكل الشرقي والموسيقى بكل طبوعها. تتقن دنيا العزف على بيانو قديم لريشارسن أحد ألمع موسيقيي الجاز، وتمزج في عزفها بين طبوع موسيقية متباينة، شكلت من خلالها فسيفساء ساحرة، جسدت مفهوم التنوع وروح الثقافة و الحوار الموسيقي الهادف إلى تنمية الذوق و الإحساس بالجمال، فحين يكون الهدف من الارتحال موسيقيا نحو الآخر المختلف من منطق الحوار الثقافي والاحتفاء بكل ما هو إنساني جميل، فإنه لا خوف أبدا من انفتاح الموسيقىات على بعضها

¹ - المصدر السابق ، ص306.

² - سمير بشة: الهوية والأصالة في الموسيقى العربية، إشكاليات وقرارات، مراجعة وتقديم: منير السعيداني، كارم الشريف، ط1، 2012، ص22.

البعض، والاستفادة من خبراتها الممكنة" تفتح كراسة التوزيعات...بيت هوفن، باخ، موزارت...فيفالدي...هايدن...فرديني...بعض الإيقاعات وأغاني الريببتوار العربي اليهودي القديم للشيخ ريمون وأليس فيتوسي...لطمار...رينيت الوهرانية.. إيقاعات هندية قديمة...وصوت ماريا كالاس.¹

وقد شكل المطعم الذي تديره بتموقعه الاستراتيجي مكانا هاما يقصده كبار الشخصيات من داخل مدينة بروكلين و خارجها، فهو أشبه بالمعرض الصغير، تقدم فيه الأطباق الشرقية وتباع فيه المجوهرات والتحف الفنية التي تعرف بالحضارة الشرقية خاصة العربية منها " زارنا رجال كبار و ممثلون مشهورين، وكتاب معروفين ورئيس بلدية المقاطعة، ومدير الأوبرا، ورجل الإشهار الكبير غويسبي ألفونسو (Guiseppe) الإيطالي الأصل الذي كان مرفوقا بشاب طيب و خفيف الروح من أصل ألماني، اسمه كونراد (...)، علاقته بالشرق كانت متينة ويعرف أكثر من عشر لغات، من بينها العربية"².

عشقت ياما اللغة المنغمة، وسيلة المرء في التعبير عن مشاعره و خيالاته و آماله، ولأمس سحر الموسيقى قلبها، منذ الصغر انتسبت إلى المدرسة الفنية القريبة منها" لتعلم الآلات الموسيقية بعد الانتهاء من الدروس الاعتيادية في المدرسة الفرنسية ألكسندر دوما"³، فتعلقت بآلة الكلارينات التي تملك روحها وأصبحت ذاكرتها ومنفذها للهروب من واقع مظلم و مستقبل مجهول، الحرب الأهلية التي أتت على الأخضر و اليابس، و زرعت الخوف و الفرقة و رائحة الدم والموت الداخلي. وكانت وسيلتها لتحقيق نوع من التوازن الداخلي وفي مقاومة الألم والانتقام من قتلة أبيها و سجنة أخيها ريان.

¹-واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص257.

²-المصدر نفسه، ص331.

³-واسيني الأعرج: مملكة الفراشة، صص13-14.

أسست ياما رفقة زملائها فرقة " ديبو جاز"، التي تعزف موسيقى الجاز، وتتأشد الحرية و السلام العالمي، تتكون الفرقة" من سبعة شباب مولعين بالموسيقى أنا على الكلارينات، جواد أو جود على الساكسو، أنيس على القيتارة الجافة، شادي على الكلا ، ورشيد أو راستا على الباس، حميد أو ميدو على الباتري و الطبل الإفريقي، داوود أو ديف على الهارمونيكا و القيتارة الكهربائية، ويصبحون ثمانية إذا أضفنا عازفة البيانو صافية أو صافو"¹. تأسست هذه الفرقة الموسيقية بمساعدة جمعية شبانية هولندية مركزها هالم، سهلت لهم شراء الآلات الموسيقية و تأثيث المكان الذي كان مخزنا مهترئاً عفنا تعود ملكيته للإسباني جد ديف، تم إصلاحه بتكافل الكل، ومن مال مايا الخاص. وبعد موت ديف أعاد دجو تكوينها، فضم إليها بعض شباب الحي الذين يحبون الجاز، منهم العازف على آلتى الإمزاد و القمبري الصحراوي بالي. لكن لماذا موسيقى الجاز تحديدا؟ الجاز شكل فني هام لتعزيز السلام العالمي والكرامة الإنسانية ومد جسور الحوار الحضاري بين مختلف الثقافات و الشعوب، وقد نجح هذا اللون الفني في القضاء على التمييز العنصري وصرخات العبودية التي عانى منها الزوج في جنوب أمريكا في نهاية القرن التاسع عشر، ففي حقول القمح وفي غمرة الأعمال الشاقة لم يجد العبد الإفريقي إلا صوته: " صحيح أن المستعبد قد اقتلع ثقافيا، لكن من خلال الغناء، فإن جماعة جديدة أخذت في الظهور: جماعة أفارقة أمريكا، غناء العبيد السود، و شكل ريبيرتوارا و ذخيرة جديدين يربطان بين الحياة اليومية و الروحية والدينية"². و شكلت موسيقى الجاز قوة دافعة للتحرير بإلغاء نظام الرق عام 1863، ورافقت حركات الحقوق المدنية في الولايات المتحدة بما في ذلك حركة تحرير المرأة. وعد الجاز نوعا من أنواع المقاومة الثقافية، ونظرا لقيمه الرمزية حددت منظمة اليونسكو الثلاثين من أبريل يوما عالميا لموسيقى الجاز منذ عام 2011،

¹ - واسيني الأعرج: مملكة الفراشة، ص 273.

² - هالة نهر: الجاز صوت الروح الثائرة ضد العبودية، المياديننت، 01- أيار 2021 //www.walmayadeen.net
https: الساعة: 15: 24،

ليس احتفاء بموسيقاه فقط، بل أيضا من أجل المساهمة في بناء مجتمعات شاملة، وهو ما أكدت عليه المديرية العامة لليونسكو السيدة أودري أزولاي في رسالتها: "إن موسيقى الجاز تألق للجمال المولود من رحم الاضطهاد، فهي موسيقى الارتجال و الإبداع الجماعي، وفي صميمها تتربع الحرية ويسكن الانفتاح، وبذلك يتسنى للثقافات بأن تحتضنها في جميع أنحاء العالم، ويتاح لكل ثقافة أن تثريها بما تملك من تاريخ موسيقي خاص و علامات موسيقية مميزة، فهي صوت معبر عن كفاح ملايين البشر وتطلعاتهم و رمز رائع لحرية التعبير و لكرامة الإنسان، إنها لغة سلام عالمية في وقت يزداد فيه الشقاق والانقسام"¹.

وقد احتفظت هذه الموسيقى ذات الجذور الإفريقية بروحها الأمريكية وتكيفت في الوقت ذاته مع ألوان أخرى، وباتت راهنا على لغة كونية جذبت العديد من الموسيقيين حول العالم المأخوذون بروحها الثورية وتطورها الإيقاعي و الهارموني، وامتزجت بأنواع موسيقية متباينة لتخلق قطاعا فنية متميزة بالاشتغال على إعادة التوزيع الموسيقي والدمج بين أنماط موسيقية مختلفة قادرة على السفر عالميا بلا حدود مكانية و لا زمانية، حيث يذاب الخطاب الموسيقي ويعاد إنتاجه، وتتداخل الموروثات الموسيقية الثقافية، لتبني هويات موسيقية جديدة: "الكثير من الموسيقيين الكلاسيكيين الكبار استلهموا بعض عناصر موسيقاهم من هذا الفن الشعبي، مورييس رافيل مع بوليرو وكونشيرت ووليد أليسي، و داريوس ميلهود في خلق العالم، فرانسيس بولانك في كونشيرتو على بيانو مزدوج و أوركسترا، وإيغور سترافانسكي في إيبوني كونشرتو، كارل جينكيز في صلاة الرجل المسلح..."².

¹ - اليوم الدولي لموسيقى الجاز- اليونسكو، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة jazzday <https://ar.unesco.org>

²-واسيني الأعرج: مملكة الفراشة، ص363.

وقد أوجدت الموسيقى فكرا عالميا ذا ملامح إنسانية، يصور معاناة الإنسان من الظلم بكافة أشكاله الثقافية و التاريخية، الدينية و العرقية، وفنا يعزز قيم التسامح و المساواة، و الحرية، ويهدم الجدران بين الشعوب، ليبنى جسور المحبة و يطرح التشنج و التطرف و المواقف العنصرية"المثاقفة الموسيقية ليست غاية في حد ذاتها، بل هي سعي نحو أمنية التوافق حول قيم موسيقية مشتركة دون خلفية تاريخية أو دينية أو عرقية متشددة، كل هذا من أجل النهوض بالمعرفة من منطلقات حسية فنية ذوقية، ومن أجل الارتقاء بالإنسان، بعيدا عن الخلفيات التي تفضل الأصيل عن الدخيل أو الدخيل عن الأصيل".¹

ويأتي القيام بعروض وجولات خارج الوطن وإحياء حفلات عالمية و تقديم عروض تفاعلية بين موسيقيين محليين وآخرين عالميين كوسيلة لتعزيز ثقافة التسامح، وتقوية عرى التواصل العالمي، على غرار مهرجاني سان فرانسيسكو و مونتي ريال فيستيفال فيينا للجاز، حيث تستعد فرقة ديبو جاز للمشاركة في مهرجان أفريقيا "أفريكا جاز"، لذلك اختارت الفرقة مقطوعة موسيقية، و أجروا عليها بعض التعديلات الضرورية، يتمحور موضوعها حول التنديد بالحرب التي انتزعت من كاتبها والده وأمه وأولاده وإخوته و زوجته وكل ماضيه الجميل، ويدعو فيه الكل إلى عصيان الأوامر العسكرية، ورفض الذهاب إلى الحرب، و يحثهم على اختيار الحل السلمي، إنها مقطوعة "الهارب" التي غناها مولودجي، عن قصيدة لبوريس فيان ضد الحرب، ولكننا نزعنا منها بعض المقاطع الثقيلة و العامة وغيرناها بتوزيع جديد وجماعي لتوائم مع صوتي ماشاهو وسليني، و أصواتنا أيضا بالنسبة للمقاطع المكررة"². صدح" صوت ريتشارد أنطوني مرفوقا بالمارمونيكا وهو يؤدي الهارب، الشباب كانوا ينصتون بكل انتباه، ثم غير القرص بقرص

¹-سمير بشة: الهوية والأصالة في الموسيقى العربية، ص127.

²-واسيني الأعرج: مملكة الفراشة، ص237

غيره، جاء صوت مولودجي ناعما وحزينا ممزوجا بأنين ترونييت بوريس فيان، الذي كان يخرج من الأعماق المنكسرة هاربا جريحا"¹. وستكون رقصة التانغو التي تمجد الحياة والرقص و المتعة و تنتكر للحرب أغنية اختتام برنامج الفرقة.

وتشكل دور الأوبرا و المسارح أماكن مفتوحة تتلاقى فيها الثقافات و تتعارف، وهي فرص سانحة للمثاقفة الفنية من خلال العروض الموسيقية التي يقدمها فنانون عالميون من مختلف بقاع المعمورة، تتعدد ثقافتهم وتتباين توجهاتهم، فالموسيقى عطاء استثنائي، منها أوبريت" حلاق إشبيليا لروسي في روما، وعصفور النار لسترافنسكي، و الناي المسحور لموزارت في فينا، طوسكا لبوتشيني في المسرح الملكي باستوكلهم، تريستان وإيزولد لريشارد فاجنر في أوبرا بايروت بألمانيا (...)، وكارمن لبيزيه في أوبرا غارنييه بباريس (...)، وعايدة لفريدي في الأهرامات بالقاهرة، ولا ترافياتا في لاسكالا بميلانو، بحيرة البجع لسترافنسكي في أوبرا فينيسيا، البؤساء في برودي بنيورك، شيكاغو في أوبرا سان فرانسيسكو، الفصول الأربعة لفيفالدي في أوبرا كوبنهاجن الجديدة على حافة الماء، وشهرزاد لريمسكي كورساكو في موسكو..."². حيث تسمح هذه اللقاءات الفنية والموسيقية بتجول الثقافات و ارتحالها بين مختلف الأمكنة و الأزمنة، وتفتح باب التعارف والتبادل الثقافي. فينتج عن ذلك هوية ثقافية تفاعلية متعددة الوجوه و متنوعة التعابير " لا بد أن نتجاوز أنفسنا من أجل إبداع موسيقي، وإن لم يكن من أجل الغيرية، فليكن من أجل الإنسان دون اعتبار لعرقه و دينه وتاريخه وثقافته"³.

و لا تزال الفنون مفتاحا للتعرف على الحضارات ماضيها و حاضرها، و وسيلة لحفظ الهوية و تطويرها، فهي مساحة ممتازة للتواصل و فرصة للتعاون متعدد الثقافات، إذ

¹-المصدر السابق ، ص240

²-واسيني الأعرج: أنثى السراب، ص ص 336-337

³-سمير بشة: الهوية والأصالة في الموسيقى العربية مرجع سابق، ص134.

أسهمت المهرجانات العالمية التي تعرض الأعمال الفنية من مختلف أنحاء العالم في التقريب بين الشعوب والثقافات المتباينة بغض النظر عن الفوارق الجنسية والثقافية والعرقية. منها المسرح الذي تبنى رسالة نشر السلام و القبول بالمختلف، ومثلته مريم بطة أنثى السراب الطالبة بالمدرسة العليا للفنون والتي تتدرب يوميا مع الفرقة في الكونسرفتوارو أوبرا مسرح وهران لإنجاز " أشواق المدينة على يد المايسترو جيوفاني جوليانو، الذي سيقضي مدة طويلة لإنجاز سيمفونيا فيفالدي: الفصول الأربعة"¹. وستسافر مع فرقة موسيقية إسبانية عربية إلى القدس، لآداء رسالة إنسانية " كانوا يريدون نقل رائحة طليطلة المتسامحة إلى القدس، ليتعلم الناس قليلا أن الحياة ممكنة في عز الاختلاف نفسه، مجرد رسالة سلام "².

وتحضر مسرحية لعنة غرناطة " التي قضى كاتبها المنفي في غرناطة، قرابة العشر سنوات في تأليفها، كرسالة تنديد بالحرب و تداعياتها المأساوية، وللتغيب في قيم التسامح و التوافق والتعايش.الإعلان عنها يعزو واجهة دور الثقافة والأحياء الجامعة و الميτρο و كل الواجهات، يستند موضوعها إلى الحرب الأهلية الإسبانية عام 1936، ستعرض في الماجستيك،صالة الأطلس بحضور جماهيري رهيب من مختلف الفئات والشرائح الاجتماعية و الثقافية و التوجهات الفكرية والأيدولوجية المتباعدة، تحكي المسرحية جراح الوطن في العشرية السوداء، وتدعو إلى التعقل والتعايش " غرناطة أخرى تشبه في كل شيء مدينتنا هذه، حتى لوركا الذي قتله الفرانكويون كما تعرفون يشبه كثيرا الموجة الدموية التي سحبت وراءها خيرة فنانينا...أحيي كل مبادرات السلام التي تجري في البلاد ليكن السلام و الذاكرة وجهان لشيء واحد، هذه الأرض الطيبة"³.

¹ - واسيني الأعرج: أنثى السراب، ص202.

² - المصدر نفسه، ص438

³ - واسيني الأعرج: مملكة الفراشة، ص376

علاوة على نشاط الجمعيات الثقافية كالمركز الدولي للتصوير أو "ICP"، " الإنترنتناشيونال سنتر أوف فوتوغرافي، وهو جمعية ثقافات الشرق بالتنسيق مع عرب أمريكا المنشغلين بموضوع العنصرية، تنظم معارض عن تاريخ العرب عن ثقافتهم و إشعاعهم عبر العالم (...)، يحتاجون إلى أسماء معروفة من أدباء و فنانيين وعلماء و غيرهم لتغيير الصورة التي بدأت ترسخ في الأذهان"¹. يسعى هذا المركز إلى إبقاء الذاكرة الشرقية حية، والحفاظ على الإرث التاريخ و يرفض أعضائه الاختزال و النمطية، ويعتمدون على الفن لمحاربة العنصرية وتداعياتها الخطيرة، و يحرصون على تنبيه "الرأي العام إلى خطر الانزلاق العرقي خصوصا في بلد بني أصلا على التعددية، العرب ليسوا لا أقل و لا أفضل من بقية الأقسام التي يتكون منها النسيج الأمريكي المعقد. يجب أن يقلل الناس من عماهم المستشري ومن أحكامهم الجاهزة."².

ويقف الرسم إلى جانب الموسيقى ليعزز سبل الحوار و التقارب الثقافي، و يؤكد أن المعارض الفنية للوحات التشكيلية تصنع الألفة و تجعل رأيها أكثر عمقا مع الآخر، وأكثر فهما لدواخل رساميها و ثقافتهم دون الحاجة إلى الكثير من الكلام، لذلك زينت ياما غرفتها بالعديد من اللوحات الفنية التي اشتراها والدها زبير من معارض كثيرة زارها أثناء رحلاته التجارية عبر العالم، كلوحة عازف الكلايينات النسخة المرقمة من لوحة بيكاسو بالعنوان نفسه، ومنها "لوحات الرسامة الروسية لودميلا التي سلبت عقله، عندما عرضت في الشيراتون، واشترى اللوحات الأربع الأخوات الأربع وأخرى لمحمد إسياخم وأخرى لمحمد خدة ومنمنمة غاية في الدقة لمحمد راسم و لوحات إفريقية حية الألوان، ولوحة

¹- واسيني الأعرج: رماد الشرق، خريف نيويورك الأخير، ج1، ص63.

²-المصدر نفسه ، ص ص67-68.

لرسامة هندية و يابانية "1، وكما ابتاع أيضا لوحات الرجل ذو الغليون و التورير و قنينة الروم لبيكاسو.

وكان لمي ذات الأصول العربية الفلسطينية العديد من الأصدقاء و الرسامين، الذين يرتادون معارضها الفنية في نيويورك، لوس أنجلوس، بوسطن، نيوجرسي، و من بروكلين، مانهاتن و كوينز. و"اشترى متحف بروكلين للفنون جزء كبيرا من لوحاتها، حيث خصص طابقه الأخير" للوحات و المنحوتات الأوروبية والأمريكية ومنها اللوحات العملاقة لرواد مدرسة هودسون، ضمنّت أعمال مي التي اقتناها المتحف ضمن رواق الفن الأمريكي المعاصر: أحلام جسر بروكلين، أنسات مرتفعات بروكلين التي يبدو فيها التأثير واضحا بنساء أفينيون لبيكاسو، مغيب على بحيرة هودسون، أحزان ايلس آيلند...."2.

النظرة التاريخية" توضح لنا أن الصراع هو حالة سياسية آنية تاريخية، و أما التداخل و التفاعل الطويلين بين الثقافات فهو الثابت و الباقي، وهذا هو ما يجب على أصحاب الوعي أن يبشروا به بعيدا عن حزازات السياسة ومرارات التعصب. وإذا كانت الصراعات بين مختلف الفرقاء في المجتمع الواحد قد وصلت في النهاية إلى إطار اجتماعي عام، يتفق عليه هؤلاء الفرقاء محوره مفاهيم التسامح و الحوار و إلغاء أحد الفرقاء لصالح آخر في تعددية مكفولة الحركة و الحرية، فإن الشيء ذاته يمكن أن يحدث في المجتمع العالمي في العلاقة بين الثقافات"3.

1-واسيني الأعرج: مملكة الفراشة، ص143

2- واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص101

3- تركي الحمد: الثقافة العربية في عصر العولمة، ص79.

نخلص إلى:

الفنون لغة عالمية، لها القدرة على توصيل الرسالة، وهذا عائد إلى كونها نتاجاً إنسانياً ذا طابع مشترك للتعبير عن القضايا الإنسانية على المستوى المحلي و العالمي، وبرغم أنها وليدة حضارتها إلا أنها تشكل نقطة التقاء بين الثقافات و الحضارات، ورهانا على قدرتها على تعزيز أواصر اللقاء.

المشكلة ليست في حوار الحضارات فهي متجاوزة بالفعل و متداخلة، سواء كانت متعاقبة أو متزامنة، فالمنجزات الحضارية تنتقل في الزمان و المكان بشكل شبه تلقائي وسلاسة واضحة، فالحضارة الإغريقية والهيلينية انتقلت إلى الرومان بالتعاقب و الاتصال المباشر، كما هو الحال في العلاقة بين حضارة المسلمين وحضارة الغرب الحديث.¹، إنما تكمن المشكلة في " حوار الثقافات التي هي على عكس الحضارات في حالة من التوتر تجاه بعضها بعضا في لحظات كثيرة من الزمن"².

¹ - المرجع السابق، ص 65.

² - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الفصل الثالث

تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي
لواسيني الأعرج.

المبحث الأول: العولمة الثقافية وسؤال القيم و الأخلاق

المطلب الأول: الأزمة الإنسانية وصعود اللامعنى.

المطلب الثاني: عولمة جسد المرأة (تشيؤ جسد المرأة)

المبحث الثاني: العولمة الثقافية والتغريب.

المطلب الأول: سؤال الهوية و التغريب.

المطلب الثاني: التمرکز حول الأنثى وتقويض السلطة الذكورية

المطلب الثالث: عولمة الأسرة، وتحرير الجنس.

المبحث الثالث: الإطاحة بالمركزيات الكبرى، وزعزعة اليقينيّات.

المطلب الأول: القراءة الحداثية للقرآن الكريم

المطلب الثاني: تهميش الدين و جلد الذات.

1- تهميش الدين

2- جلد الذات

المطلب الثالث: الثقافة الاستهلاكية و العبث بالتراث

المبحث الرابع: الاقتلاع المكاني وتجانبات الهوية.

المطلب الأول: الذات، الوطن، الذاكرة المجرّوحة.

المطلب الثاني: الهوية الرمادية الهجينة.

المبحث الأول: العولمة الثقافية وسؤال القيم و الأخلاق:

المطلب الأول: الأزمة الإنسانية وصعود اللامعنى.

ارتبط تاريخ الفلسفة الغربية الحديثة بالنزعة الإنسانية الهيومانية التي تركزت حول الإنسان و نصبته سيدا على الكون و مركزا له " فهو إنسان متمركز تماما حول ذاته- التي لا حدود لها ولا قيود عليها -، يرفض كل القيم القبلية و التعميمات و التجريد، يعيش حسب معياريته و مقاييسه و قوانينه الخاصة الفردية النابعة من ذاته"¹، متحرر من قيود التاريخ و الأخلاق و الثوابت و الغيبيات و المطلق، بصفتها "بنية محورية و قاعدية سلوكية، تحدد السلوك الإنساني و تنظمه، وتضبط ما ينبغي أن يحتذي به الإنسان فكرا و سلوكا في علاقاته الاجتماعية و مواجهة المشكلات المختلفة، وتمكنه من الاختيار الخفي في المواقف الأخلاقية، و تبرز المغزى الاجتماعي لسلوكه بما يتفق وطبيعة الآداب و القيم الاجتماعية السائدة في مجتمعه."² إذ تم تفكيك واقعه الإنساني و تقويض دور الجماعة الوسيطة (الأسرة والخصوصيات الأثنية و اللغوية و الدينية) التي تؤثر في تكوينه الداخلي، من خلال إعادة صياغة فكره و سلوكه لتحويل رؤيته لنفسه و للكون، ف"أصحاب نظرية الأصل العلمي للأخلاق، يذهبون إلى وجوب تأسيس الأخلاق على هدي القوانين العلمية المجردة و الحسابات الوضعية الرشيدة التي تستبعد الإله و الإنسانية المشتركة و الضمير، و تتمركز حول الإنسان و مصلحته الخاصة بهدف اللذة و المنفعة، كما هو الحال في الفلسفات النفعية التي وثقت في العلم المادي وحده، و آمنت بأنه كفيل بضمان السعادة و الخلاص للإنسان والفوز بالفردوس الأرضي.

¹ - عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ص ص 265-266

² - خليل مصطفى أبو العنين، القيم الإسلامية والتربية، ط1، الحلبي، السعودية، 1988، ص 34.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

ونعني بالأخلاق هنا ما يحكم به العقل العملي أو العقل الأخلاقي، وهي الأخلاق بالمعنى الفلسفي، ولا نعني بها الأخلاق بمعنى الأحكام وفق التصنيف الفقهي، أو ما عُرِف بالآداب الشرعية في تراثنا. فكان من نتائج ذلك أنصار الإنسان في العصر الحديث "ذاتاً مشتتة، لا تشغل مركزاً، وعرف بوصفه مجموعة من الدوافع و الحاجات ليس لها مضمون أخلاقي أودات جوانية مستقلة، وأصبح كيانه مرتبطاً تماماً بأنماطه الاستهلاكية، أو علاقاته الجنسية العابرة"¹. و صار من الهوية، قيمه في حالة حركية دائمة كما المادة، قادراً على التكيف ومجاراة التحولات وحركة المجتمع.

يحتفي العالم المادي والحضارة الغربية العلمانية بمبدأ الغائية والنفعية، ويؤمنان بالأساس الطبيعي المادي للوجود الإنساني وبجتمية الصراع والقوة والتنافس لتحقيق البقاء واللذة والمنفعة، لذا تقرر " فصل كل القيم الدينية والأخلاقية و الإنسانية (المتجاوزة لقوانين الحركة و الحواس) عن العالم، وعن كل من الإنسان (في حياته العامة و الخاصة) وعن الطبيعة ونزع القداسة عنهما، بحيث يصبح العالم مادة نسبية لا قداسة لها، يوظفها الإنسان الأقوى لصالحه"². وعليه لا يمكن الحديث عن الطبيعة الخيرة للإنسان ولا عن فطرته الاجتماعية، أو عن حرية الذات الإنسانية ووعياها واستقلالها عن الطبيعة ولا عن التزامها بمنظومات معرفية وأخلاقية محددة، أو حقائق موضوعية ثابتة بإمكانها التوصل إليها، فما يحكم الإنسان الطبيعي هو قوانين الطبيعة/المادة وزمنية القيم و الظواهر، وهي قوانين لا تعرف ثباتاً ولا استقراراً، وتتجرد من الخصوصية وتنتزع القداسة.

نتج عن هذا الفكر الخطير، الذي ألم بالحضارة الغربية وطبع منظومتها الفكرية والثقافية، وانعكس في سلوكها، أيديولوجية فكرية بغيضة، تقوم على مبدأ تبخيس قيمة

¹ - عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ص 185.

² - المرجع نفسه، ص 221.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

الحياة و هيمنة الروح الإنكارية للوجود، فكان من تداعياتها الانهيار التام للأخلاق و القيم المثلى تحت ذريعة قيم إنسانية مسرفة في إنسانيتها، وبموجبها تم تفرغ كثير من الظواهر الإنسانية من مضمونها الإنساني، وضم الحس الاجتماعي والأخلاقي، وسقط كل شيء في يد الفردية.

وفي ضوء هذا المناخ تولد في الفرد الإحساس باللامعنى وعبثية الوجود و الاغتراب والانسحاق والعزلة والقلق والرغبة في الانتحار، وعجز الإنسان عن تغيير واقعه أو تجاوزه، وتملكه الشعور بأنه لا يملك من أمره شيئاً، وأن العالم الذي يعيشه ليس من صنعه ولا من اختياره، لأنه لا يعكس الصورة و الحياة التي يريد لها لنفسه " يشعر الإنسان الذي يصير على إنسانيته باغتراب عميق، لأن ما بداخله من تركيب و أسرار ينفر بشكل فطري مباشر من عالم لا قسمت له و لا ملامح تم التحكم فيه تماما. فالإنسان يجابه عالما كل ما فيه محايد بارد ميت خاضع لقوانين برانية ليس لها أبعاد جوانية.. مادة محضة خارجة عنه و عن وعيه وعن إحساسه بذاته الإنسانية" ¹.

لقد تعلم مالكوم بليز الذي قتل امرأة أهانت رجولته أن يكون سلبيا و متحجر الإحساس، وفي السجن أيقن ضرورة أن يكون براغماتيا، وأن يقبل بما هو موجود، ورأى " أناسا كثيرين يموتون أمام عينيه، مجرمين، قتلة، مهربي مخدرات، ورأى أيضا أناسا يموتون ظلما ولم يكن قادرا على فعل أي شيء بسبب الخوف أو الجبن الداخلي، تعلم ما سماه العدمية. منذ اللحظة الأولى عرف أنه وسط آلة تتجاوز إرادته و رغباته وأقوى منه، طاحونة بلا نهايات" ²، وعليه أن يسايسها وألا يقف في طريقها.

¹ - عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية و العلمانية الشاملة، ص 251

² - واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص 34.

والنظام الغربي نظام مادي يؤمن بالعلم وبقيمة التجريب و يستبعد المنظومة القيمية الأخلاقية من حساباته، و يخضع الإنسان المادة لنماذج كمية بغض النظر عن الضرر الناجم. وقد تجاهلت كثير من النظريات الفلسفية الغربية، القائمة على المعطيات العلمية المادية الفروق الجوهرية بين المادة و النفس الإنسانية، و تعاملت مع الإنساني على أنه أشياء مادية، وأسقطت عليه مجموعة من الأحكام انجر عنها: التشيؤ والسلعنة والاختزال.

فالحب أسمى العواطف وأنبها هوفي اعتقاد العدميين هو مجرد حسابات، كيمياء، عبث، مضيعة للوقت، لا يوجد شيء اسمه الحب، ليس سوى" حالة من الهوس تشغل صاحبها حتى الموت بلا فائدة، إذ يظل معلقا على خيط مهدد بالتمزق في كل ثانية، لا حياة للمحب أبدا، ورقة في مهب الريح...لم يكن نيتشه مخطئا عندما اعتبر الحب مفسدة للإنسانوتدميرا لفاعليته"¹.والقيم المتعالية كالحق والخير و الحقيقة و الوفاء والعدل...وجود زائف مبتذل" ما معنى اليوم ألفاظ رنانة كحقوق، عدالة، مواطن حرية حق نبل وفاء سخاء... مجرد خردة، العالم اليوم يا عزيزي للأقوى"².

ليتل بروز والقادة العسكريون في قرية أميروبا فقدوا إنسانيتهم، ويصرون على محو من لا يشبههم، هم في عمق العدمية، لا يهمهم إن عاشوا أو ماتوا، والعنف مبرر عقيدتهم لدرجة اعتباره حتمية تتماهى مع حركة التدافع البشري. الوحشية و القتل و حروب الإبادة أمور مشروعة في سياستهم، وحقيقة تكوينية في فكرهم السلطوي " تحولت هذه الممارسة التي تطورت بشكل سريع في ظلال اختلالات الدولية والحروب، إلى ثقافة قائمة بذاتها، تحكمها ضوابط داخل الجريمة نفسها،يصعب فهمها، لكن لها منطقتها الداخلي وأيديولوجيتها التي تبررها أو توفر لها...فتبدو وكأنها تدافع عن قضية عادلة، وتزيح ظلماً

¹ - المصدر السابق ، ص35.

² - المصدر نفسه، ص203،

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

ما... القتل الأعمى الذي لا يراعي أية حسابات إنسانية ولا أي تفكير في طبيعة الضحية، إذ يتساوى كل شيء لدرجة التسطح.¹

محتشدات الموت وجه للرؤية المادية العدمية" قتلوا الناس بالعشرات ظلما، في محتشد بوزن ببولونيا طلبوا من السجناء حفر قبورهم ثم دفنهم أحياء، في أمكنة أخرى في محتشد دارمشتادت الذي لا يختلف في أي شيء عن المحتشدات النازية شنقوا المئات.² وفي محتشدات أخرى، أجرى الأطباء و العلماء الأبحاث التجريبية على نزلاء السجون، منها: محتشد أوشويتز، و مجمع درانسي، والمحتشد المركزي، وبيركونو، و مونويتز، الملايين من الضحايا الروس و اليهود و العجر و البولنديين قضاوا تعذيبا، أو من شدة البرد، تضم هذه المحتشدات غرفا لحرق أجساد السجناء و أخرى لخفقهم بالغاز، بعد تعريضهم للغازات السامة الخانقة، أو وضعهم في غرف خانقة مفرغة من الهواء، أو إخضاعهم لعمليات التبريد حتى الموت، أو حقنهم بالسموم أو البكتيريا أو عمليات التدمير الدماغي و استهلاك المحاليل المنومة... الخ، في هذه التجارب الوحشية لم يكن الإنسان سوى عينة، و موضوع دراسة و مادة للبحث المخبري، فلا يخفى أن المجتمع المادي راهن على العلم الحديث والعقل و الموضوعية والحياد ولم يكثرث بالغائيات الأخلاقية و الإنسانية، فجرد الإنسان من طبيعته البشرية ومن العواطف إن أهم جوانب الترشيده هو إعادة صياغة المجتمع باعتباره سوقا و مصنعا، وإعادة صياغة الإنسان باعتباره منتجا و مستهلكا، ومن ثم فإن الهدف النهائي للمجتمع الرشيد هو تعظيم الإنتاج، وتحقيق التراكم الرأسمالي (المنفعة).³، وتحويل المنفعة المادية والقوة إلى قيمة مطلقة متجاوزة للخير و الشر. وبتصاعد وتيرة الترشيده المادي، سيطر العقل المادي

¹ ينظر: واسيني الأعرج: تنامي ثقافة العدمية على هامش اعتداءات نيس الارهابية، جريدة الاهرام الجديدة الكندية، الأحد 22 يناير 2017.

² واسيني الأعرج: أنثى السراب، ص 231.

³ عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، المرجع السابق، ص ص 17-18.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

والحسابات الكمية، و تحرك المجتمع ككل لتحقيق أهدافا و مصالح مصاغة حسب مقاييس علمية ورياضية دقيقة، بعيدة عن المطلقات و المعايير الثابتة و القيم الروحية والموروثات الثقافية، والعقل النقدي القادر على التجاوز، دون الالتفات إلى الطبيعة البشرية. فنتج عن ذلك أن فقد جسد الإنسان، ذلك الكائن الحي منبع الوعي و الفكر مقوماته الإنسانية، كالكرامة و الحرمة والإرادة و الحرية والقداسة، وأضحى عنصرا ماديا اقتصاديا كباقى الأشياء.

و في المركز العلاجي الذي يضم قرابة الألف عامل ياباني مؤطر من طرف خبراء أمريكيان، والذي أخضع فيه سكان هيروشيما للاستشفاء والمعالجة، اكتشف الدكتور شونتار هيدا السبب الرئيس للأمراض التي عانى منها ضحايا النووي في اليابان، الحقيقة صادمة " اتضح من خلال اعتراف بعض أطبائه أنه لم يكن هدفاً إنسانياً، ولكنه كان في مهمة استخبارية في جوهرها لدراسة الحالات العيادية وانعكاسات الإشعاعات على الأمد المتوسط والطويل، في واقع الأمر لم يكونوا يعالجون الجرحى بأكثر من أحمر الميروكروم، تابعوا نشوء حالات السرطان بالخصوص سرطان الدم وعلاقة ذلك بالجانب الإشعاعي، و حتى التنسيق مع الأطباء اليابانيين لم يكن موجودا أبداً وكان الكثير من المرضى يبعثون إلى أمريكا وهناك يتحولون إلى مادة للبحث المخبري "1.

يقال "أن الحرب هي المدرسة الوحيدة المناسبة للجراحين"، هي مقولة تقيم علاقة بين الحرب والطب، فقد شهد المجال الطبي تطورات كبيرة واكلت القرون الأشد دموية في تاريخ البشرية، حيث أسهمت الحروب في دفع عجلة الكشوفات الطبية بالتركيز على الأبحاث وإجراء التجارب على الضحايا من الجنود والمدنيين. وبالمقابل أساء الأطباء استغلال معارفهم العلمية، فشاركوا في تجارب على البشرية لأجل تطوير التقنيات الطبية

¹-وإسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص ص278، 279،

العسكرية، تقام هذه التجارب في مخابر سرية، كما في كلينيك قلعة أميروبا، التي أجريت فيها العديد من العمليات السرية الناجحة، فقد كلف ليتل بروز فرق العقارب الصفراء بتصيد جثث الأعداء أو الجنود لحظة سقوطها، وتجاوز الأمر الأموات فطال الأحياء الضائعين والجائعين من بؤساء العرب المشتتين والتائهين في الصحاري، حيث يتم اختطافهم أو استدراجهم للعمل. ثم تجرى عمليات جراحية بالغة السرية على جثثهم وجثث موتى الحروب، تنتزع فيها الأعضاء البشرية و تتم المتاجرة بها بمبالغ خرافية " موتى الحروب يوفرون كل الأعضاء التي يحتاجها جنود القلعة وغيرهم في العمليات الجراحية الحساسة"¹. كما يستفيد منها كبار المسؤولين و الضباط و الأغنياء عبر العالم، ويشرف على العملية التنظيم الإرهابي و كبار المسؤولين العسكريين والأطباء. والأمر من ذلك أن يتم تسجيل هذه الجرائم البشعة في مذكرات، إذ كتب ليتل بروز مذكراته الحربية معترفا بجرائمه و مفتخرا بها "كنت أهرب أعضاء الموتى والمقتولين، سمعت تسريبات من هذا النوع. وسأجد من كان وراءها، كل هذا لن يزيد إلا في تغذية الأسطورة، الحقيقة الوحيدة أنه بفضل ما يزال الكثير من المسؤولين والضباط الكبار والأغنياء، عبر العالم على قيد الحياة وأتوانى عن ذكر أسمائهم في مذكراتي يوميات مارشال في دوامة العزلة، التي بلغ عدد صفحاتها حتى اللحظة 3084 هذا الرقم الذي يتشائم منه الكثيرون، يخفف من آلامي وشططي؟"².

الأمر نفسه وقع في سجن الثكنة العسكرية القديمة وبمستشفى الأمراض العقلية الملتصق بها، لقد أعلنت الإذاعة الفرنسية فرانس أنفو خبر احتراقه، ما أجبر المسؤولين على فتح أبوابه لإنقاذ النزلاء. الكثيرون نجوا وبعض منهم هام في المدينة وانقطعت أخباره، ومنهم من احترق و بعث رماده لذويه ليكشف المستور "إن تجارة الأعضاء كانت سارية

¹-المصدر السابق ، ص30.

²-المصدر نفسه ، ص30.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

المفعول في السجن وفي المستشفى بتنسيق مشترك، الكثير ممن لم يموتوا في الحريق انتزعت أعضاؤهم ودفنت جثثهم أو أحرقت، وأن الحريق المزدوج لم يكن إلا عملية مدبرة لتخبئة آثار الفضيحة"¹، التي اتضحت حقيقتها من قبل أم أحد النزلاء، مات جراء تفسخ جرحه بعد أن أخذت منه كلية وطحال و جزء من كبده، وفي اليوم ذاته وجد الطبيب الذي أجرى العملية مقتولا رفقة مساعدته، ومن طرف أم أخرى فتحت تابوت ابنها لتصدم مما رأت، رماد و عظام دجاج و قطع كتان، وحين اشتكت، اتهم زوجها بتهمة نبش القبور وأخضع لتحقيقات بشعة، أصيب على إثرها بالخرس، ما اضطرهما إلى سحب الدعوة تحت التهديد.

الجرائم الأخلاقية ضد الإنسانية تزداد يوميا، خاصة فيما يتعلق بالنووي؛ العنف الدموي والتقتيل الجماعي، أصبح حقيقة عضوية تكوينية أساسية في الفكر السلطوي " تحولت هذه الممارسة، التي تطورت بشكل سريع في ظل الاختلالات الدولية والحروب، إلى ثقافة قائمة بذاتها، تحكمها ضوابط داخل الجريمة نفسها، يصعب فهمها، لكن لها منطقتها الداخلي وأيديولوجيتها التي تبررها أو توفر لها... فتبدو وكأنها تدافع عن قضية عادلة، وتزيح ظلماً ما... القتل الأعمى الذي لا يراعي أية حسابات إنسانية ولا أي تفكير في طبيعة الضحية، إذ يساوي كل شيء لدرجة التسطح."². قنبلتي هيروشيما و نغازاكي خير شاهد على ذلك، فقد "كان الأمريكان يقولون عن اليابانيين إنه لا توجد نساء بريئات ولا أطفال و شيوخ، مادام الكل يتدرب على حمل السلاح للدفاع عن مدنهم (...)", أعطى المنتصرون لأنفسهم كل مبررات الإبادة"³. فالبشر في النهاية مجرد أرقام، وبقدر تصاعدها يكون نجاح الفعل العدمي وتحقق الغاية منه. آلة قتل لا منطوق لها سوى القتل نفسه

¹-واسيني الأعرج: مملكة الفراشة، ص258

²-ينظر: واسيني الأعرج: تنامي ثقافة العدمية على هامش اعتداءات نيس الإرهابية، المرجع السابق.

³- واسيني الأعرج: أنثى السراب، ص231.

"القنبلة الأولى أجد لها مبرراً، أمريكا كانت مهزومة عسكرياً، الرئيس ترومان في أزمة خانقة، والثانية؟ هل كانت قنبلة نغازاكي ضرورية؟ لماذا كانت الأولى من اليورانيوم والثانية من البلوتونيوم؟ الكبار يبدؤون دائماً بجريمة بحجمهم حتى يفرضوا سلطانهم، الكارثة أنهم في تجربتهم الحية كانوا يريدون أن يعرفوا مفعول اليورانيوم والبلوتونيوم"¹.

وتتكرر صور الوحشية مع سجناء قلعة أميروبا، فعلى إثر وصول خبر زحف ما يقارب ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف مقاتل من أعضاء التنظيم الإرهابي يستعدون لدخولها، تم إخلاؤها فوراً من الجنود الأمريكيين. لكن ماذا عن المائتي مقيم أي سجين؟ لقد تم إطلاق سراحهم جميعاً، فهم مجرمون قتلة حسب تصريح ليتل بروز، لكن الحقيقة أشع وأفظع، لقد تمت إبادة جميعاً بالغازات السامة، اكتشف الجريمة الميجر توني، حين توغل عميقاً في أحد أجنحة القلعة "وجد جثثاً مكدسة فوق بعضها البعض وروائحها قوية، كأنها قتلت بغازات سامة لأن أفواهها كانت مفتوحة وأيديها يابسة على حلقها، صور و صور كثيراً، ثم فتح القاعة الثانية فوجد المشهد نفسه، ثم الثالثة"².

إن استشرنا ثقافة العنف المركز، نابع من غياب القيم الإنسانية في هذا العالم، وعليه "إن الأمر سيؤول إلى قتل القيم و المبادئ، وهو ما يعطينا المسوغ لتعاظم انهيار المعنى، الذي لم يعد له باعث للفهم، لأنه أصبح خارج المسألة، أو الأصح خارج نطاق الفضيلة، التي توارت مع أفكار ما بعد الحداثة، ووارتها وريثتها ما بعد الكولونيالية، وسيقبل بها إكراها الواقع المفروض على المجتمعات."³.

¹ - واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص278.

² - المصدر نفسه، ص 444.

³ - عبد القادر فيدوح: تأويل المتخيل، السرد والأنساق الثقافية، صفحات للدراسات و النشر و التوزيع، ط1، 2019، ص33.

الإقبال على الانتحار ظاهرة ملفتة في الحضارات المادية العلمية، التي عجزت عن إيجاد السعادة الإنسانية وتحقيق المعنى. فكثير من الفلسفات العدمية تتوق إلى إيجاد معنى في عالم بلا معنى. ومع خيبة الأمل والوحدة والشعور بتفاهة الواقع المعيش، يقع الإنسان ضحية ضعف شديد وإلحاد يائس يدفع صاحبه إلى تدمير الذات والانتحار الذي أقدمت عليه عارضة الأزياء الأكثر شهرة في شبابها كلارا ماكسيم. في عمر الثمانين انتهى بها المطاف "أنهت حياتها بخيارها بترك الغاز مفتوحا في العديد من المواقع، مما يدل على أن العملية مقصودة"¹. اختارت قبل الانتحار ما يعرف بالموت الرحيم وطلبت من صديقها أن يساعدها عليه "مثلما فعلت الممثلة الفرنسية مايا سيمون صديقتها التي خضعت للموت بإرادتها، وبمساعدة المرافق الطبي. ساعدتها جمعية هلفيت دنبيطاس في زيورخ، والدكتور جيروم سوبل رئيس إكزيت أحد فروع جمعية الحق في الموت بكرامة في جنيف"²، ففروعها منتشرة في فرنسا، سويسرا، هولندا، بلجيكا...، وتسهل للطبيب الحصول على دواء البنثوتال المستعمل في الموت بكرامة. وقبل الإقدام على قرار الانتحار فكرت كلارا في الحرق لأنه لا يكلف شيئا، لذا أصبحت خبيرة في الوسائل المساعدة عليه، وأجرت مسائل حسابية حددت من خلالها وزن الجسم بعد الحرق، لتؤمن موضع حفظ الرماد وتكاليفه المادية، الرادع الديني في قراراتها غاب تماما، فالأمر في النهاية "خيار حر، أن أجد الحق في التصرف في جسد هو في النهاية ملكيتي الخاصة (...)", ما يحزنني ليس هذا إنما الخيانات البشرية التي تتساق بسرعة، وكأنك لم تكن ذا معنى"³.

النهاية نفسها لاقاها الشاب جيروم ذو الخمس و عشرين عاما، كان الأجمل بين الشباب و سليل العائلة الأرستوقراطية، فهو حفيد الأميرة شارلوت لويز جوليتت غريمالدي

¹ - واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص360.

² - المصدر نفسه، ص361.

³ - المصدر نفسه، ص363.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

الوريثة الأولى لإمارة موناكو، استهلك حياته سريعا و انتهى منتحرا، أحرق نفسه في مخزن لمستحضرات التجميل خاصته.

صحيح أن الحداثة الغربية مكنت الإنسان من تقرير مصيره حين اقتترنت بالإيديولوجيا العقلانية، وكان لها منجزاتها في تحرير العقل و دفع عجلة التقدم العلمي و التقني و إرساء الحقوق، لكنها أسقطت العامل الروحي وقادت إلى أزمة روحية و أخلاقية، فقهرت الإنسان و جردته من إنسانيته وألقت به في درك الحيوانية، بأن جعلته عبدا لشهواته، ففلسفة الحرية المطلقة التي ترفع العولمة رايتها عمقت مفهوم الحرية الشخصية و النزعة الفردية، فحدث تساهل في الرغبات و الميولات الجنسية، أدى إلى تشوه في الفطرة الإنسانية، وظهرت توجهات جنسية شاذة و غريبة، و انتشرت الإباحية و المثلية و التفسخ الأخلاقي والبغاء.

فبالعودة إلى المجتمعات التقليدية نجد أن العلاقات الجسدية خضعت إلى الرقابة و الضبط، لكن هذا لا يعني أنها لم تعرف البغاء و لا مارسته، حيث ثبت أنه أقدم مهنة عرفتها البشرية، لكنه استقل بصورة واسعة وعلى مستوى عالمي إثر سقوط الحدود و سهولة الحركة، وتحول في المجتمعات المعاصرة إلى مهنة مرخص لها من قبل الحكومات المحلية والإقليمية، ومعترف بها قانونيا، والأخطر هو ظهور نقابات تدافع عن حقوق المومسات و الشواذ.

إن إفلاس الحضارة المعاصرة من القيم الأخلاقية والإغراق في الحياة المادية، وتحررها من الأخلاق والانفلات من القيود المنظمة للعلاقات الجنسية، فضلا عن علمنة الأخلاق النظرية و السلوك الفعلي والرغبات، وتضخم قطاع اللذة بمؤسساته التجارية العامة والخاصة، التي جعلت أحلام الإنسان ورغباته رقعة لنشاطها، كالسنيما و أفلام الإباحية و مجلاتها، أمور دفعت المفكرين إلى تبرير الجنس المفتوح كحل لكل مشاكل

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

الإنسان، فانتشرت مؤسسة البغاء لامتنصاص الفائض الجنسي و استيعابه، فالعملية في جوهرها وحسب تفكيرهم نشاط مادي محض، تنزع فيه البغيُّ القداسة عن نفسها وعن العميل، و تكون فيه العواطف الإنسانية الدافئة مجرد سلعة.

كما يعتبر البغاء جزءا من السياحة الجنسية المنتشرة في مناطق عديدة من العالم خاصة جنوب شرق آسيا، أين تصنف تجارة الجنس ضمن قطاع التسلية واللهو، الذي نما نموا ملحوظا، وقد أصبح واضحا أنها يمكن أن تصبح إستراتيجية تنموية في المناطق شديدة الفقر، واتخذة البعض مهنة ومصدرا رئيسا للدخل، وبات قطاعا تجاريا ضخما بسبب الكساد الاقتصادي وازدياد معدلات الفقر أو الطلاق و انجذاب السواح نحوه، منهم والد لوليتا "كان يشرب الخمر، و يقيم علاقات كثيرة مع خادماته الإندونيسيات اللواتي كن أصغر مني سنا، السياحة الجنسية سرية، لكنها متطورة في جاكرتا".¹، و الكاتب الإيراني داريوش المقيم بباريس " لديه أصدقاء من النساء أكثر من الرجال، هذا هو داريوش يبدو أنه تاب عن علاقاته النسائية التي خفتت أو انتهت بسبب عامل السن و الأمراض التي تحالفت ضده لتضع حدا لليبيدو الذي يعذبه".².

لا مجال إذا إلى إنكار أن الجنس قد تحول إلى نشاط اقتصادي بموجب عقد اجتماعي وسياسي غير مقنن، تنتستر عليه بعض الأنظمة الحاكمة مقابل ما تجني من ورائه، مع التذكير أن ممارسته في البلدان العربية والإسلامية محظورة، لكونها تجري خارج حدود الدين والقانون.

الحرية الجنسية المطلقة هي أحد أهم أسباب تعاسة الإنسان المعاصر، و الشذوذ الجنسي مظهر آخر من تداعياتها، فمن الفطرة السوية أن يميل البشر في حياتهم الجنسية

¹ - المصدر السابق، ص 259.

² - المصدر نفسه، ص 213.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

إلى الجنس الآخر، بيد أن أقلية منهم تشذ عن الفطرة السليمة و تميل إلى الشذوذ الجنسي، الذي تتساهل كثير من الدول معه، بل وترخص ممارسته بحجة الحرية الشخصية و الحق في الاختلاف، و تقر بشرعيته غير آبهة بقيم المجتمع و لا معتقداته ولا بالضمير الأخلاقي، ولا بمخاطره الصحية.

وتحقيق الارتواء منه يضع الإنسان الجسدي الغرائزي، الذي يرشد حياته و يعيد صياغتها في ضوء لذته الحسية المباشرة خارج أية أنساق إنسانية اجتماعية أو أخلاقية، ويدفعه إلى المثلية أو إلى اتخاذه عشيقات، أو إلى شراء خدمات جنسية و البحث عن المتعة المحرمة في أشياء غريبة، فجيروم الشاذ صديق لوليتا الحميم لأقل من سنة، تركها و اشترى دمية جنسية من السيليكون اسمها "راما"، ثمنها 5000 يورو، ومثلها "دمية لاتيكس" التي سماها "ليتل دولي"، لقد اختزل كل معارفه فيها، أعطاني دروسا كثيرة حول تاريخها، وجانبها الصحي، يعرف جيدا أن فبركة الدمية المنفوخة بدأ في نهاية الثلاثينيات من القرن الماضي، فقد كان لليابان وألمانيا عصا السبق في ذلك، صنعوها في البداية للبحارة في الغواصات، إذ لا نساء في عالمهم المدفون تحت البحار، وأعطوا أسماء رنانة للدمى، سيكسي دولي، وليتل بيتي، وغيرها نساء كاملات بالمعنى الجنسي"¹.

نخلص إلى:

- أزاح الإنسان المادي كل ما له علاقة بالقيمة الأخلاقية الروحية لصالح المادة، فنظر إلى نفسه باعتباره مركز العالم، ونظر إلى العالم نظرة استعمالية. تتعارض مع الأخلاق الإنسانية والمخيال وتقوض البعد الرمزي فيه، و اختزل الجسد إلى مادة خاضعة لمعطيات علمية ميكانيكية ومتحررة من القيم و المساءلة الأخلاقية، يمكن التلاعب به وتعريفه من قيمته الرمزية.

¹ - واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص ص165-166.

_ العلم القائم على أساس إجرائي دون قيم وأخلاق روحية يورث الضرر ويشئ الإنسان. والانتفاع المادي المحصور في المنافع المادية يدخل الإنسان في دائرة الحيوان الاقتصادي و يهدر كرامته و قيمه الروحية، فمن الخطأ الاعتقاد أن الخير كله في العلم و التقنية. وإن النقد لا يطال العقل التكنولوجي ولا المنهج العلمي، ولا يبيح هدم النتائج المبهرة التي حققها الأبحاث العلمية، بل النقد منصب حول طريقة استعمالها من قبل الأيديولوجيات العنيفة.

-الحلول الجذرية لمشاكل الإنسان المعاصرة لا يمكن إيجادها في النظريات المادية أو التجريدية أو العقلانية أو المثالية التي تؤدي إلى إفلاس عقلي و أزمت نفسية.

-الفكر العولمي ينمط الأشياء . ويفضح المحرم والمسكوت عنه، ويخرجه من دائرة التحريم إلى دائرة الجهر والتداول.

المطلب الثاني: عولمة جسد المرأة. (تشيؤ جسد المرأة):

وعى الإنسان هويته في المجتمعات التقليدية وحتى عصر النهضة داخل شبكة من البنى الاجتماعية والثقافية الجمعية، اكتسبت هذه الأخيرة سماتها من الأطر الاجتماعية و الثقافية للمحيط الذي انغرست فيه. واعتبرت الجماعة البشرية الجسد مسرحاً لرموز المجتمع، وعبرت من خلاله عن طموحاتها و أوهامها" لقد اعتبرت السوسيولوجيا الجسد البشري علامة داخل نسق رمزي معين، يشير إلى انتمائه لوضع أو نموذج اجتماعي معين، مؤدية بذلك إلى تسليط الضوء على جوانب متعددة من الجسد تبرز انبهاره بالتنظيم الاجتماعي، وخضوعه للأيديولوجيا المهيمنة الهادفة للإنتاج و إعادة الإنتاج.¹ وتنبهنا الدراسات الأنثروبولوجية إلى "أن الجسد قد مثّل منذ القدم ذلك الشيء المزيّن و المقنّع

¹ - خلودا لسباعي، الجسد الأنثوي وهوية الجندر، ط1، بيروت، جداول للنشر والتوزيع، 2011، ص29.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

و المتغير بتغير المجتمع و الثقافات، فهو الرمز الذي يستعمله كل مجتمع على حدى لكي يتحدث عن استيهاماته عبر سيرورة يعلن من خلالها مختلف الوسائل التي يستثمرها فيه، ولعل ذلك ما دفع البعض إلى اعتبار الجسد بمنزلة ترميز متميز، يتحول فيه الإنسان من مجرد كائن حي ذي غرائز عنيفة إلى كائن قادر أن يتكلم على العالم و على ذاته.¹ وعليه يعرف الجسد بأنه ليس مجرد بنية فيزيولوجية، بل هو أيضا بنية فكرية ومعرفية و نفسية، و ذات تعي وجودها، و هو حالة تدرك من الداخل تخص الجانب الشخصي و الفردي في الهوية.

والجسد معطى ثقافي و اجتماعي و ديني، لذلك حرصت المؤسسة الدينية على المشروع المقدس، يقينا منها بأن العلاقة بين الجمال والفتنة تحول الجسد إلى رأسمال رمزي له تأثيره و فعله في العلاقات الإنسانية. لكن التفكيك طال المقدس و المسكوت عنه الذي منح الجسد مشروعيته، حين صمت عن وصف المحظور منه، وهو لذات الجسد الحسية التي شرعها الخالق، ليضمن للمرء الاستقرار والتفريغ الجنسي في إطار مشروع.

وبعد انفصاله عن عالم اللاهوت، أسس الغرب هويته الجديدة على " العلم و التقنية الميكانيكية، ودخول الفن أفق الإستيطيقا، الشيء الذي يعني أنه صار موضوعا للتجربة المعيشة، ليتحول بذلك إلى تعبير عن الحياة الإنسانية، والتأويل الثقافي لكل مساهمات التاريخ الإنساني، والانسلاخ عن المقدسات واستبعادها"². وأعلن بعض الفلاسفة و المفكرين الغرب اعتراضهم على الثنائية المسيحية التقليدية القائلة بأن الجسد تابع للعقل، ودعوا إلى استقلاليته وعده مركزا قائما بذاته، فصنع الإنسان لنفسه عالما مستقلا إيمانا بمقولة أن الأخلاق ليست ثابتة، وأن المجتمع هو من يقرها و ليس الإنسان، حيث

¹ - المرجع السابق، ص12.

² - مارتن هايدغر: التقنية- الحقيقة- الوجود، تر: محمد سبيلا و عبد الهادي مفتاح، المركز العربي الثقافي، بيروت، 1995، ص139-140.

يذهب أصحاب نظرية الأصل الاجتماعي للأخلاق إلى أن كل مجتمع يخلق قيمه الأخلاقية التي تخدم الصالح، وبأن الإنسان يتحلى بالأخلاق نتيجة التطبيع الاجتماعي و التنشئة الاجتماعية وحسب، ومن هنا فإن ظاهرة الأخلاق تعتبر ظاهرة وظيفية اجتماعية، ومن ثم الأخلاق هي إتباع الرأي المجرّد للأغلبية وليس محاكمته من منظور أخلاقي إنساني متعين¹، فالمجتمع هو مصدر الأخلاق. والقوانين الأخلاقية هي مجرد تطور لأشكال من السلوك الحيواني الأقل تطورا والحرص الغريزي على البقاء البيولوجي، وهذا يعني أن كل القوانين الأخلاقية و الوضعية هي قوانين نسبية.

وأثرت النظريات الفلسفية الغربية التي هي نتاج عقول فلاسفة أمثال: داروين، وماركس، ودور كايم، ونييتشه، وسارتر وفرويد وغيرهم في الفكر العالمي وزعزعت مفهوم الالتزام الأخلاقي والمسؤولية الفردية، فشاعت الدعوة إلى تجاوز كل ما هو ثابت و التحرر مما يقدهه الدين، وتقره الموارث الاجتماعية والمعايير الأخلاقية، فنتج عن ذلك أن نما لدى بعض المثقفين في العصر الحديث اغتراب و خروج عن الدين و رفض لمؤسساته القسرية، وتشديد على تفكيك القيم و المعايير الاجتماعية و الثقافية، التي أوقعت الإنسان في حالة تصادم بين رغباته وثوابت المجتمع ورموزه.

وإثر تعدل وعي الشخص بجسده، وتحرر هذا الأخير من المشكلة الأخلاقية، و التقاليد الثقافية، أصبح جسد الحداثة المعولمة بارتقاء الفردانية شاهدا على مجتمع انفصل فيه الإنسان عن الكون وعن نفسه وعن الآخرين، جسد يشير إلى الإنسان الآلة، أي الجسد المنتج بوصفة قيمة استعمالية أدائية، وبوصفه قيمة جمالية و ثقافية تدل على هوية اجتماعية، و شبكة من الرموز و العلامات، يعترّب فيها الجسد عن ذاته، وبموجب ذلك " تحول النموذج الجسدي ببلاغته تلك إلى جسد متخيل تمتلكه الذاكرة الإنسانية

¹ - عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ص 25

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

واللغو والرغبة، وتستحضره المخيلة لتعيش فيه باستمرار استيهاماتها الشهوانية والجمالية¹، وتفصح عن رغباتها الدفينة في التحرر من معايير التحريم والتقديس التي فرضتها السلطة الدينية والاجتماعية، تلك السجون التي يجب التحرر منها، لأنها تحجب الرؤية وتقزم حرية الإنسان وتحرمه السعادة الحقيقية. و"باسم الواقعة و التحليل النفسي ظهرت ألوان من الأدب ومن القصص خاصة، تخوض في أحوال الرذيلة، و تعرض خفايا العورات، وتجرح كثيرا في الفضائل، و تورث الكبت، وتبرر كثيرا من الرذائل باسم التنفيس، وتسقط التبعة في كثير من الجرائم بزعم أن أصحابها مصابون بأمراض نفسية"². فإذا راجعنا الأدب الذي يوصف بالعالمية، لوجدنا غالبية القصص الغربية تعارض الأخلاق بمفهومها الصحيح، وتقدم الإنسان في صورة حيوان جنسي "غالبية أبطال دستوفسكي شواذ و مرضى، وهو حال أبطال فرويد المنحرفين، وتجربة برتراندسل الذي يشيدون به تجربة قذرة، وهافلوك ألم يكن ضعيفا جنسيا، وكذلك موباسان، وفولبير ودوريه، وبودلير، ونيتشه، وأشعار هوجو، وروسية، وروستان، هي تمثيل لأهواء الجسد الحسية التي تزين الفاحشة وتقدمها في صورة جميلة، وتعرض نقائص الإنسان على أنها حقيقته الأصلية العريقة، بتصويرها التفاصيل الدقيقة لأكثر اللحظات حميمية، ولأدق خلجات الغريزة التي تبدو معه الحياة وكأنها لحظة جنس مسعور؟"³. إنها وصف مليء بالرغبات والمحظورات الدينية والاجتماعية، و فيها تجاوز لكل مقدس محرم.

إن حديثهم المتواتر عن الحرية هو في جوهره هجوم على الإنسانية "فالإنسان الذي يتحدثون عن حقوقه هو وحدة مستقلة بسيطة، كمية، أحادية البعد غير اجتماعية و غير حضارية لا علاقة لها بأسرة أو مجتمع أو دولة أو مرجعية تاريخية أو أخلاقية، هو

¹ -فريد الزاهي: الجسد والصورة والمقدس في الإسلام، مرجع سابق، ص 87

² - أنورالجندي: الفكر الغربي دراسة نقدية، وزارة الأوقاف و الشؤون الدينية ،سلسلة ثقافتك الإسلامية. العدد4 ط1، 1987، ص 197.

³ - المرجع نفسه، ص 199.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

مجموعة من الحاجات المادية البسيطة التي تحددها الاحتكارات وشركات الإعلانات والأزياء وصناعات اللذة و الإباحية"¹.

لا اختلاف في أن الفن الرفيع يتحقق من خلال الاختراقات، ولكن ليس من الضروري مصادمة المتلقي أو القراء بتمثيل صورة المرأة و الرجل و العلاقة بينهما بطريقة مكشوفة تصدم وعي المتلقي أو برقصة إيروتيكية أو كلام منكر، أو فعل متمرّد على القيم الأخلاقية، فذاك عمل اختراق تبسيطي. صحيح أنه لا فن بلا كسر وتجاوز للحدود، لكن أيضاً لا يجب أن يغيب عنا أنه لا فن بلا قيود.

وقد اشتهر المجتمع الغربي بفن التصوير على الخصوص بسبب الدافع الجمالي وشغف أصوله بالجمال الموروث عن التراث اليوناني و الروماني، وتفسر " عودته في عصر النهضة بظهور الرأسمالية و النزوع إلى تصوير الممتلكات _ومن بينها النساء- من خلال الوساطة الفنية الجديدة وهي التصوير الزيتي"²، الذي يقدم الذوق الجمالي على المبدأ الأخلاقي في سلم ترتيب القيم، لذلك قدّم جسد المرأة في اللوحات الفنية مكشوفاً بصورة تجعله جزء من ثنائية جنسية فجّة، هدفها الأساسي هو إثارة مخيلة الذكور، مثال ذلك لوحة " المرأة أصل العالم " لغوستاف كوربي " و هو فنان من القرن التاسع عشر، قاد التيار الواقعي إلى درجة الاستفزاز، وفتح الأبواب على مصاريعها على موضوع الأيروتيك للرسامين و المصورين اللاحقين. أظهر في أصل العالم ما خبأه ماني في لوحته أولمبيا، مستقزاً بذلك حالة النفاق في العالم"³. تظهر اللوحة امرأة مكشوفة الجسد كلياً، وتحمل دلالة كونها أصل الخلق، وأنها المبدأ لا الرجل، " المرأة أصل العالم (...)، ومنها خرج

¹ - عبد الوهاب المسيري: قضية المرأة بين التحرير... والتمركز حول الأنثى، ط2، سلسلة في التنوير الاسلامي، 38، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 2010، ص11

² - سارة جاميل: النسوية وما بعد النسوية، دراسات و معجم نقدي، تر: أحمد الشامي، مراجعة هدى الصدة، المشروع القومي للترجمة، العدد483، المجلس الأعلى للثقافة، الجيزة، القاهرة، ط1، 2002.

³ - واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص ص61-62

الملايين البشر، لماذا يصرون على النفاق"¹. رسمت اللوحة في الأصل " لخليل باي، دبلوماسي تركي مسلم، كان سفيرا في أثينا و بترسبورغ، وأخيرا فرنسا، كان يجمع لوحات إيروتيكية، فكانت لوحة أصل العالم له قبل أن تصل في النهاية إلى متحف الفنون الجميلة في بودابست"². فضلا عن لوحة " آنسات أفينيون" لبيكاسو المعروضة في متحف الفنون الحديثة بنيويورك "خمس نساء عاريات في وضع بين الغواية والدهشة. لحظة قطيعة مع مقاييس الفن الأوروبي المتوارث، ورهان ضخم ضد الضوابط الفنية و الجمالية التقليدية، ظل اسمها من 1907-1920 "الماخور الفلسفي". الإيقاع نفسه نجده في لوحة "الرقصة" لماتيس، " لوحة عملاقة أنجزها صاحبها في 1909، أجساد باهتة و مرتخية على حافة شاطئ تداخل لونه الأخضر بالأزرق، حركة البشرية في عفويتها و بدائيتها وهي تكشف محيطها و إيقاعات فضائها و أجسادها"³.

لقد أصبح الجسد الأنثوي موضوعا للعديد من النظريات الفلسفية والاجتماعية و النفسية، وهو بذلك ورقة رابحة للعولمة الثقافية توظفه كيفما تشاء، خاصة في مجال الموضة و عروض الأزياء، التي لم تعد مجرد متعة جمالية، إنما أصبحت سلطة قادرة على إعادة توجيه المجتمعات و تشكيلها، تزامنا مع تعالي الصيحات المطالبة بتحرير المرأة، الشعار الذي حملته دور الأزياء وكبار المصممين ومصانع ماركات التجميل العالمية، حيث غدا عالم صناعة الموضة من أنشط الصناعات الاستهلاكية تسويقا وربحا، و تتفنن شركات الأزياء والإكسسوارات في الترويج لمنتجاتها مستعينة بخبراء مختصين في عالم الجمال والتسويق لرفع معدلات التسويق العالمي لهذه الصناعات التجميلية. لكن تحريرها ممن؟ من ثقل الألبسة التقليدية، الثورة و الحرية ليستا فقط في السياسة، ولكن

¹ - المصدر السابق ، ص 61.

² - المصدر نفسه ، ص 62.

³ -واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص 73

أيضا في الممارسات الفنية، فعلمها إيف سان لوران المحرر الحقيقي للمرأة " كان هدفه تحرير المرأة من ثقل كان يرهقها، ما أحوجنا إلى هذه الثورة للتخلص من ثقل ما تلبس كثير من نساءنا".¹ عارضة الأزياء " شانيل حررت النساء مما سمح لي بعد سنوات طويلة بأن أسلمهن السلطة (...) أشتهي أن أرافقهن في هذه الحركة التحررية"². التي لا تعرف ثباتا، إنما هي دائمة التغير و التحول " إن قانون الموضة في زمن الحداثة السائلة ينادي بأعلى صوته: لا شيء ملزم بالدوام. فالرغبات التي تعتبر اليوم مفيدة وضرورية، تصبح تاريخيا قبل أن تستقر لفترة كافية، ولتتحول إلى عادة و حاجة، وليس هناك شيء يعتقد أنه سيبقى إلى الأبد. لا شيء يبدو غير قابل للاستبدال. فكل شيء يولد موسوما بالموت الوشيك"³.

الاستعداد لعرض الأزياء "لايت إن نو سيتي" في البريستول، جار على قدم و ساق، والدعاية له كبيرة على الباصات و ميتر و الأنفاق وواجهات الفاشن و المحلات العامة،... تحضيرات مسبقة ومكثفة و دقيقة تجري قبل العرض، الأنوار العالية المتحولة باستمرار، حركة العارضات و تمايلهن، الألبسة الرقيقة الكاشفة، العطور النسوية الساحرة، الألوان، الموسيقى، البروفات، الكل متأهب، مصممو الأزياء، الفنيون، الكوافير، خبير الماكياج، الملبسات، الصحافة الفنية العالمية... استمر العرض أكثر من ساعة، تحولت فيه الوجوه والألوان، ولم تستقر إلا على حالة من التيه، كانت تأخذ الحاضرين في عمق اللحم، تهددهم قليلا ثم تعيدهم إلى أماكنهم.⁴ دور العرض، أماكن تصفها عارضة الأزياء لوليتا بالمصنع البشري الذي لا مكان فيه للعواطف، الجسد فيه شيء كباقي الأشياء، يتم

¹ -واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص152.

² - المصدر نفسه ص289.

³ - زيغونت باومان: الحداثة السائلة، تر: حجاج أبو جبر، الشركة العربية للأبحاث و النشر، ط1، سلسلة الفقه الاستراتيجي3، بيروت، 2016، ص200.

⁴ - واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص227.

فيه العراء أمام الجميع، هو عالم جميل، لكن تبعاته خطيرة، وعلى العارضة مسيرته، فقد يؤدي بصاحبه إلى الانتحار" في الداخل السري في الكواليس، في الباكستيج، عالم من الأعصاب و الخوف والإخفاق، أو السقوط بكل بلادة، حالة من الشد العصبي، على العارض أن يتعود عليها ليحبها، تصبح مع الزمن فعلا آليا¹ و أمرا مرغوبا، وتصبح معه عارضة الأزياء مثالا وقدوة، حيث حرصت ثلاثة قطاعات هي: صناعة السينما، وصناعة مستحضرات التجميل، وصناعة الموضة، على إنتاج صورة متخيلة عن جسد المرأة، نموذج يجب الاحتذاء به و تقليده عالميا. و وضعت مقاييس خاصة للجمال المعولم وللجسد الجميل، إنه جسد مثالي نحيل فارغ الطول، بارز الرشاقة صافي اللون، قوي البنية، جامع لليونة و الصلابة...، بات حلما لا للنساء فقط، بل استقر في ذهنية الرجال الذين تتبوعوا صور العارضات في المجالات وفي العروض وفي الأفلام التي تبثها وسائط الإعلام المختلفة، منها صور كلارا ماكسيم جميلة الجميلات في السبعينيات و الثمانينيات مالكة قلوب الجميع، تملأ حيطان غرف الشباب، أخبرها يونس مارينا أنها تمنحهم السكنية و اللذة وأنهم يطمعون بها، يغرقون في أدق تفاصيلها ألبستها، حليها، عطرها، رقصها، رحلاتها، أمورها العاطفية...

لقد أصبحت عارضة الأزياء فأر تجارب، تعرض نفسها للأخطار و المهالك جريا وراء الجسد المثالي الطوباوي الذي يستمر الترويج له دون ذكر التكلفة الأخلاقية و النفسية لبلوغه. هذه النحافة تشجعها صناعة الجمال و دور الأزياء و أكلوية الجسد المثالي المكبل، الذي يعامل معاملة الشيء الجامد في اللغة البصرية للإعلان والدعاية. فالضغوط التي تعانيها عارضة الأزياء للحفاظ على وزنها المثالي، تؤدي إلى حدوث اضطرابات في التغذية، وقد يصل الأمر إلى إصابتها بمرض الأنوريكسية إذا أحجمت عن الأكل خوفا

¹ - المصدر السابق ، ص228.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

من السمنة، كارولين واحدة من ضحاياه، لقد غدت هيكلًا عظميا يرقد في المستشفى وتعاني انهيارات نفسية حادة، تسبب فيها رئيس الشركة ووكيل أعمالها اللذان أبعداها عن العرض مشروع حياتها، بعد أن أخضعها لكل أنواع الرجيم: " الرجيم المائي الذي يحقق تخفيف الوزن بسرعة لكن آثاره السلبية على العضلات و القلب و الكلى و البنكرياس مدمرة، و لا يمكن علاجها، إلى الريجيم الجاف الذي يعتمد على الأغذية الجافة مع منع مسبق لتناول السوائل. من سلبياته الإرهاق الجسدي و اختلال الجهاز الهضمي و البولي، وتلاشي عمل الكليتين و ارتفاع مستوى الدهون و الكوليسترول، إضافة إلى الانفعالات العصبية التي لا يمكن السيطرة عليها. إلى الريجيم الدهني الثقيل وهو على العكس من كل الريجيمات السابقة يعتمد على الإفراط في تناول المواد الدهنية و الشحوم كالزبدة و القشدة و الكريما مما يسبب تعطيلًا كبيرًا في عملية الهضم، وإحداث إسهال مزمن، ومن مخلفاته الخطيرة: ضعف المناعة نقص التغذية، فقر الدم، تراكم الفضلات داخل الجسم ارتخاء عضلات المعدة و الأمعاء"¹.

والمصير نفسه لاحق كلارا ماكسيم، التي سكنت أرقى الأحياء و الفنادق الباريسية، ولبست أفخم الماركات العالمية، وزارت بلدان العالم وحظيت بالشهرة العالمية، وتنافست الجرائد و المجلات العالمية في إجراء مقابلة معها أو الحصول على توقيعها، هي الآن وحيدة بعد أن هرمت و ذهب جمالها، تقطن بيتًا متهالكًا في حي فقير، تعيش على ذكريات مجدها، تكرمت مجلة واجدة فقط بنشر خبر وفاتها، ويعجز الحفار عن تنفيذ وصيتها لعدم دفعها تكاليف الحرق. " الناس لا يرون - حبيبي - إلا المرأة البلاستيكية الجميلة ذات البشرة الناعمة والقامة الممشوقة التي يتمنون ليلة معها (...)", لا يرون ما يتخفى وراء مشاهد الموت. أبأس موت هو عندما يأتيك مسؤولك ذات صباح ويقول لك:

¹ - المصدر السابق، ص 273

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

خلاص انتهى دورك. كبرت وأنت لم تتخطي عمر الطفولة إلا بقليل، ابحتي عن شغل آخر، إنك سممت قليلا، ولم تحذري على قامتك، كنت تأكلين بلا نظام.¹ والضحايا كثيرات، فكوكو شانل المودل العالمي، انتهت وحيدة بلا حب ولا أنيس، أثقلتها صور الجمال بشدة، وعانت الخوف من تقدم العمر، ورهاب زيادة الوزن، ودخلت في حالة اكتئاب حاد "عالم الموضة خطير، كل شيء فيه مؤقت: العواطف، الحب، علاقات العمل، أنت لا تساوي شيئا إلا بقدر وزنك ماديا أو جماليا ولا شيء غير ذلك، الباقي كله تفاصيل غير مهمة."² هذه الحقيقة أدركتها لوليتا، لقد أيقنت أنها مستغلة من طرف مدير أعمالها "يحبونني لأنني دجاجتهم التي تبيض لهم ذهباً، استفاد على ظهري من عرض نيويورك شانل، ربطني في وقت من الأوقات مع الياباني هيروكوكو شينو، مثله مثل الوكالة التي تأخذ قرابة خمسين في المائة من عملي"³، "كنت غبية و استمعت لمهارات من كانوا بجانبني احذري من العري، سيحولونك إلى شرموطة، سيبيعون جسدك قطعة قطعة. في النهاية حدث معي ما خافوا منه، فبعثت جسدي بالمفرق، شفتي لشركة أحمر الشفاه اليابانية، وساقى لمؤسسة الجوارب اللاصقة، وأصابعي لشركة مستحضرات طبية."⁴

تحول جسد المرأة في عصر العولمة إلى وحدة اقتصادية هدفها تعظيم الربح و المنفعة المادية، وأداة للترويج والإعلان وإرضاء الرغبات، وبات الإشهار بالجسد و الرغبة هو أبرز سمات الحضارة الاستهلاكية التي يشكل فيها العامل الإيروسى عصب التجارة، والهدف من العروض هو تسويق الموضة وليس إبراز الجمال الشخصي فحسب.

¹-المصدر السابق، ص465.

²- المصدر نفسه، ص283.

³- المصدر نفسه، ص238.

⁴-المصدر نفسه، ص202.

خلاصة القول:

-أحدثت الثقافة المعولمة تغييرات جذرية على مستوى السلوك المفاهيم والقيم وغيرت النظرة إلى المرأة بفعل صناعة الجسد أحد مظاهر الثقافة الاستهلاكية، التي امتهنت كرامتها وحولتها إلى كائن بلا روح ولا تفكير واع وحصرتها في صورة مبتذلة يظهر فيها الجسد الأنثوي كعامل جذب للزبائن والترويج البضائع والتجارة الجنسية الشائعة في الفنادق والملاهي والنوادي الليلية، بتشجيع من الصحف والمجلات والكتب والقنوات التلفزيونية و دور النشر وشركات الإعلانات و الموسيقى... ، إنه باختصار الحضور الطاغى لجسد المرأة على حساب إنسانيتها وأنوئتها وشخصيتها. إنهم يريد تحرير المرأة من أخلاقها و مثلها و آدابها، وزجها في براثن الفساد و مستنقعات الرذيلة، يريدونها مومسا و عارضة أزياء ووسيلة للدعاية والربح.

-لا يمكن الحديث عن الجمال المعولم بمعزل عن الرأسمالية و الاقتصاد، فهو مجال تديره إمبراطوريات تتوزع على عوالم متعددة منها: الموضة و الأزياء و جراحات التجميل و أغذية الحمية وماركات العطور وصالات الرياضة...

- تبحث المرأة المعولمة عن هوية جديدة داخل عالم ذكوري متغطرس دون ضمانات، يقبض فيه الرجل على زمام السلطة وعلى حق الطرد التعسفي، ووقت الجني والحصاد، تتجاذبها فيه آليات الإنتاج والاستعراض و الترويج و الاستهلاك، وتستخدمها كأداة ربحية.

-عارضة الأزياء مثال أخلاقي ساقط، يتم فيه تسويق جسد المرأة و التسلي به، وقد كانت شخصية هامشية في المجتمعات التقليدية، لكنها أصبحت في المجتمعات الحديثة معيارا تقاس به الأمور و مثالا يحتل القمة ويعيد صياغة الهرم الوظيفي.

-إن من أهم القيم التي يسعى الإعلان إلى تمريرها هي الجسم السليم الفارغ المرن اللين الممشوق، إنها أحجار الزاوية في علاقة الشخص بجسده، لكن الإنسان لا يملك دوماً مثل هذه المواصفات و قليلاً ما يستجيب لها، وهو ما يفسر الانتشار الكبير لتمارين التحفيف والإقبال الرهيب على الصناعات و العمليات التجميلية.

المبحث الثاني: العولمة الثقافية والتغريب.

المطلب الأول: سؤال الهوية و التغريب.

لا يخفى أن ثمة علاقة متبادلة بين التحولات الاجتماعية و القيمة "فكل تحول في البنية المجتمعية، يعقبه تحول في نظام القيم، كما أن انبثاق أية أنظمة قيمية، سيتبعه تغير في التشكيلات الاجتماعية الحاضنة لها، مع الأخذ بالاعتبار أن القيم نفسها نسق ثقافي من الرموز والمعاني والعلاقات و التصورات"¹. وإذا كانت العولمة قد فتحت الحدود أمام تنقل البضائع و رؤوس الأموال والخدمات و المعرفة، فإنها أيضاً، و بحكم أن الثقافة متحركة مسافرة، قد روجت إلى النمط القيمي الأورو أمريكي، و حاولت تعميمه على العالم أجمع. فالمرونة واللاثبات التي تميزها و قدرتها على اكتساب قيم و مفاهيم جديدة، مكن ثقافة العولمة من أن تتخطى الثقافة الوطنية وتنتشر عبر آليات ثقافية و اجتماعية فوق قومية، وأن تتجاوز حدود المجتمعات المحلية والثقافات التقليدية، التي استوعبت عناصر أجنبية من مصادر دخيلة عنها و جنستها تدريجياً ضمن إطارها العام. فالثقافة ذات الاتجاه العولمي، والتي تسير الرؤيا الثقافية الغربية، تعمل على صناعة عالم جديد، قد تحقق إنجاز شوط ليس بالهين منه على أرض الواقع، لذلك لا ينبغي إغفال التأثير الخارجي.

¹ - عبد الله إبراهيم: حوار الثقافة والقيم و المجتمعات التقليدية، ثقافتنا للدراسات و البحوث، المجلد الخامس، العدد 17، 2007، ص116.

ولا يخفى أن دمج الدوائر الثقافية المختلفة وإنشاء فضاء ثقافي قائم فوق الثقافات القومية، سيسمح لمنتجات الثقافة الغربية المعولمة باعتبارها سلعة أن تنتشر عالميا، وأن تنشر أفكارا وسلوكيات كفيلة بخلخلة بوابات المراقبة والنقد الذاتي، وإضعاف الولاء للقيم التراثية والدينية الأصيلة، وهنا تكمن الخطورة على الهويات الثقافية، التي قد تندمج معها عن طريق المحاكاة أو التمثل أو الخضوع التام، لأن هناك قدرا قليل نسبيا من القيود على إنتاجها وتسويقها، خاصة إن هي اعتمدت " المعايير المادية النفعية الغربية كأساس لتطورها وقيمها الاجتماعية وأخلاقية، كما تسعى إلى تحطيم كل الثوابت الدينية و الفكرية و الأخلاقية للوصول إلى بناء إنسان هامشي، دون جذور قوية ثابتة، كي يزوب بسهولة في بحر الثقافة الغربية"¹، وكبديل لها تقدم بدائل هجينة ومنمقة حتى تكون العقول المستقبلية أكثر انفتاحا و تقبلا للمادة الثقافية الوافدة من الخارج. وعند هيمنة هذه الأخيرة وتفاقم درجة التبعية الثقافية، يصبح معيار التقييم هو التقليد للنموذج المتفوق، فتعيش الثقافة المغلوبة حالة اغتراب و استلاب، في ظل العالم الجديد الذي أصبحت فيه المنازل أكثر انفتاحا على العالم، يلتقي فيها المحلي مع العالمي، وتتشابك فيها العلاقات الاجتماعية البعيدة مع السياقات المحلية، وصارت محلا لتفاعل متماسف، تعززت فيه العلاقات عن بعد بين أناس لا يوحد الحضور بينهم وجها لوجه، بحكم الإمكانيات الهائلة التي توفرها تكنولوجيا الاتصال والمعلومات و شبكات الإنترنت والبث الفضائي، و سرعة تدفق المعرفة والقيم والأفكار و المعلومات. لقد زُوِّدت المنازل بعدد من تقنيات الاتصال الحديثة والأجهزة الذكية؛ كصندوق البريد، و الهاتف المزود بجهاز رد آلي، والراديو، والتلفاز المتصل بالأقمار الصناعية، وسجل الفيديو، فضلا عن الفاكس، وأجهزة الكمبيوتر، و الأنترنت، والهواتف المحمولة، ما سهل الوصول إلى ثقافات الغير في صورة سلع أو علامات، وفنّد الوهم بإمكانية الإبقاء على الحواجز الفاصلة بين الشعوب

¹ - جلال أمين: العولمة و الهوية الثقافية والمجتمع التكنولوجي الحديث، مجلة المستقبل العربي، العدد60، ص100.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

و المجتمعات، وعليه صار واجبا على الثقافات القومية أن تراجع نفسها وتجدد الصلة بجذورها، والثقة في أصولها التاريخية، لتستعيد توازنها وتتمكن من تجاوز التحديات و الضغوطات المفروضة عليها من الخارج، لأن المفاهيم سلطة تجيد الاختباء والتسلل دون رقابة، وتملك القدرة على التجول و التنقل بحرية بين الفضاءات المختلفة والتخفي تحت شعارات مستعارة، ومن ثم تمارس التضليل و تصنع اللامعنى، وتعيد صياغة العقول وفق ما يخدم مصلحة الهيمنة والإزاحة.

إن بقاء الأمم منوط بعطائها النابع من صميم ذاتها وخصوصيتها، والأخذ دون نقد وتمحيص ومآله الذوبان والفناء الذي يمر ببطء وعبر مراحل، تستغرق المرحلة منه جيلا أو ثلاثة أجيال عبر مراحل ذكرها علماء الاجتماع البشري و سنن التاريخ "تأخذ الأمة في المرحلة الأولية الأشياء المادية كالمنتجات الصناعية، وفي المرحلة الثانية تأخذ العادات المادية كأشكال اللباس والأثاث وأشكال الطعام، وتأخذ في المرحلة الثالثة المظاهر الثقافية كالعادات وأنظمة الإدارة و النظم الدبلوماسية و العلاقات الاجتماعية، وفي المرحلة الرابعة تأخذ الأمة القيم و المقاييس الأخلاقية و الاجتماعية، وتأخذ في المرحلة الخامسة العقائد، وعند هذه المرحلة تنهار جميع الحواجز وتبدأ الأمة بالذوبان"¹.

ولا يخفى أن الاستعمار الغربي مذ دخل المنطقة العربية" عمل على إحداث تغيير جذري فيها، وعلى تحويل الأسس والقيم التي تصاغ من أجل رصف الطرق إلى حداثة مبنية على نتاج فكري مستمد من عمق الثقافة العربية، إلى قيم وأسس صاغتها القوة الاستعمارية الغربية. ونحن نشهد من التاريخ أنه ما من شعب استعمر، حتى تبلورت أسس تحديثه على أنماط ثقافة المستعمر المحتل. وهنا خطر الاستعمار، فالمستعمر

¹ - ماجد عرسان الكيلاني، رسالة مفتوحة إلى الفتاة المسلمة في ظل العولمة، دار القلم، ط1، دبي، 2005، ص152.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

(بكسر الميم) لن يسمح للمستعمر (بفتح الميم) بالتحديث والتطور، إلا على نسقه وديباجته. فالشعوب المستعمرة مستعبدة تحت سيادة مستعمرها، ولن يسمح السيد لعبده بالنهوض والتطور ليكون نداً له. وبالطبع، إن رؤية السيد تطوير العبد تصبّ في مصلحة السيد لا العبد. وبما أن الشعوب العربية مستعمرة، فإن مشروع الحدّثة في العالم العربي يجب أن يقوم على أساس خدمة المستعمر الغربي، بالدرجة الأولى، وأن يصاغ بأيديولوجيات غربية أجنبية، لا عربية محلية¹

وعليه _لامحالة_ سيكون لهذه الثقافة الغربية تأثير كبير على عناصر تشكيل الهوية خاصة في علاقتها مع الثقافة، وذلك بفعل ما يحمله النظام العالمي من أفكار و قيم تسعى لفرض نموذج ثقافي موحد يربك المخيال الجماعي، و يخلق قلقاً بشأن إمكانية طمسها و تجاوزها لتواريخ الأفراد و هوياتهم و خصوصياتهم الثقافية. فهي ومن زاوية أبعادها الاجتماعية تفرض على المندمجين فيها التكيف معها وتغيير قناعاتهم وأفكارهم وفق ما تمليه هي. و عليه سيقع التغريب الثقافي نتيجة الانتشار العالمي لهذا الكيان الثقافي والاجتماعي، ونجاحه التاريخي سيؤدي حتماً إلى اتساق ثقافي يشمل "مدى كاملاً من الأشياء بما فيها وبشكل واضح انتشار اللغات الأوروبية و(خاصة الإنجليزية)، والثقافة الاستهلاكية للرأسمالية الغربية... و يشمل أيضاً أساليب الملابس وعادات تناول الطعام والشكل المعماري و الموسيقى، وتبني أسلوب حياة متمدن يقوم على الإنتاج الصناعي، ونمط من التجربة الثقافية تهيمن عليه وسائل الإعلام ومجموعة من الأفكار الفلسفية و مجموعة متنوعة من القيم و الاتجاهات الثقافية حول الحرية الشخصية، والجنوسة، والحياة الجنسية، وحقوق الإنسان، و العملية السياسية، و الدين، و العقلانية

¹ - عاصم الخواجا: الاستعمار الفكري وصراع الحدّثة في العالم العربي، مجلة العربي الجديد، 20 يونيو 2014،

<https://www.alaraby.co.uk>

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

العلمية، والتكنولوجية وما إليها"¹، إنه باختصار هجوم على الخصوصية الثقافية التي تمثل حياة" الناس استنادا إلى الأيديولوجيا و الأنظمة الاجتماعية و الاقتصادية والقيم و المعايير والتقاليد و المعارف و الأعراف و المقدرات و المحرمات، إذ إن هذه كلها تحدد أنماط الحياة وطرق التفاعل الاجتماعي وكيفية التعامل مع الطبيعة، وهي توجه مشاعر و أفكار الناس و آمالهم و تمنحهم الشعور بالانتماء و التعاون والعمل المشترك، وتهيء لهم سبل الضبط و التكيف الاجتماعي."²

لقد وجدت الحداثة الغربية صداها في الخطاب الفلسفي العربي المعاصر، وحدثت محاولات مختلفة لتوطينها في نسيج الثقافة العربية الإسلامية، واستيعاب المشروع الغربي التحديثي و تمثل منجزاته باسم التحديث والتجديد، فالسمة الجامعة لكثير من المشروعات الحضارية العربية على تنوعها واختلافها وتصارعها، هي أنها جعلت النموذج الغربي مرجعية لها، وتبنت رؤيته لنفسه و لمشروعه الحضاري، ورأى كثير من الفلاسفة والمفكرين العرب" أنها واقع لا يزول، وحتمية لا تحول، وأنها نافعة لا ضرر فيها، وكاملة لا نقص معها"³، وتحول الغرب من تشكيل حضاري له خصوصيته و مفاهيمه إلى نموذج عالمي، تحاول عديد من المجتمعات الوصول إليه عبر إعادة صياغة فكرها وسلوكها وقيمها، حتى تتناسب مع المعايير التي يفرضها. وتحمس كثير من المفكرين العرب إلى الحداثة الغربية، التي أضحت مشروعا عالميا بقيم كونية تنويرية، تدعي أنها مشتركة، لذلك وجب أن تُنقل إلى جميع الشعوب المتخلفة، كالشعوب العربية والإسلامية،

¹ - جون توملنسون: العولمة و الثقافة، تجربتنا الاجتماعية عبر الزمان و المكان، مرجع سابق، ص123.

² - هادي نعمان الهيتي: الثقافة العربية أمام تحديات الفضائيات الوافدة، كتاب العولمة والهوية، أوراق المؤتمر العالمي الرابع لكلية الآداب و الفنون، منشورات جامعة فيلادلفيا، دار مجدلاوي، ط2، عمان، الأردن، أيام4-6أيار، 1991، ص264.

³ - طه عبد الرحمن: سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة العربية، المركز الثقافي العربي، ط3، بيروت، لبنان، 2006، ص15.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

لكي تخرج من برائينه إلى مصاف التقدم و التحديث "بالعودة إلى مشروع الحداثة عربياً، نرى أن المستعمر الغربي، ومنذ وطئت قدمه الأراضي العربية، استخدم مشروع الحداثة أيديولوجيةً لتحطيم الثقافة العربية. ولعب الغرب على وتر التخلف الحضاري الذي ساد العالم العربي في أواخر حقبة الحكم العثماني، واستغلَّ رغبة العرب في التحديث، والمضيّ إلى التقدم الحضاري، فبدأ يبيث دعائيته الاستعمارية، بغية إقناع الشعب العربي بأن سبب تخلفه عن القطار الحضاري، وعدم تقدمه لمواكبة الحضارة المعاصرة هو تمسكه بالثقافة العربية. وإذا أراد العرب النهوض والتطور، واللاحق بالأمم الغربية المتحضرة، يجب عليهم ترك ثقافتهم، وتبني ثقافة الغرب التي سوف تصل بهم إلى بر الحضارة"¹.

وفي المقابل ارتفعت صيحات التحذير من التغريب الثقافي باعتباره "محاولة لحمل عالم العرب و الإسلام على قبول ذهنية الغرب و الانصهار في بوتقة فكره و مفاهيمه، والتحرك من خلال المناهج والأساليب والوسائل التي فرضها على العقل العربي الإسلامي والنفس العربية الإسلامية، ذلك لأن خطر سيطرة فكر على فكر هي نقله من دائرة فكره وأساليبه ومزاجه النفسي، وترويضه على التحرك في دائرة الفكر الوافد المسيطر"². عن طريق تسويق الأفكار التي تمتلك القدرة على تسطيح العقلية الاجتماعية وتطويع الوعي الجماهيري المحلي أو الإقليمي لمتطلبات الارتهان" إن الثقافة التي تدرج تحت اسمها قيم وأديان ومعتقدات وعادات، تجتمع وتكوّن عناصر وأسس المعنى العام لحضارة الشعوب، هي التي تستهدف كمشاريع تحديثية، بغية السعي وراء تحقيق أهداف الحداثة. من هنا، أصبح التلاعب بالعناصر الثقافية للشعوب المستعمرة (بالفتح) هدفاً

¹ - عاصم الخواجا: الاستعمار الفكري وصراع الحداثة في العالم العربي، مجلة العربي الجديد، 20 يونيو 2014، <https://www.alaraby.co.uk>

² - أنور الجندي: قضايا العصر و مشكلات الفكر تحت ضوء الإسلام، مرجع سابق، ص155.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

من المستعمر لإحكام السيطرة وإتمام العملية الاستعمارية. فالمستعمر يدرك أن مفتاح نجاح استعمار هو إنهاء ثقافة الشعوب المستعمرة، لأن هذا يعني حتمية زوال المقاومة والاستسلام والخضوع للغازي وإذا ما هدمت ثقافة الشعوب المستعمرة، وأحلت ثقافة المستعمر بدلاً منها، كما حدث في دول أميركا الشمالية، يتأبد الاستعمار، ويصبح المستعمر (بالكسر) صاحب أرض ووطن، ويصير المستعمر (بالفتح) جزءاً من الماضي، يذكر في القصص أو المتاحف التاريخية.¹

وقد مثل مناصرو النموذج الغربي الحداثي وما بعده "مشاريع استلاب لوعي وفكر وقيم مجتمعاتنا الإسلامية تحت دعاوي الانفتاح على الآخر، مستمدين عناصر القوة الإعلامية ومنابر الخطاب والاقتصاد والعولمة والمؤسسات المرتبطة بها، كل هذا قد يؤدي إلى تفاعل وتواصل هذا الانفتاح إلى قطيعة مع الذات والأصالة، فلا يؤمن أن تكون عاقبته القريبة اتهام الوحي نفسه ومن ثم انتفاء الذات الإلهي، والسقوط في شبهة تاريخية ووجودية، تؤدي إلى إلغاء مرجعية الإسلام والنبي والقرآن".²

صحيح أنه عند الغرب من القيم ما هو نتاج لتجربة إنسانية عميقة، لكن ينبغي الحذر من التقمص الكامل لمنظومة قيمه والانسحاق الأعمى وراءها، وهذا يتطلب تمحيصاً غريلاً و بحثاً، قبل تنسيجها ضمن ثقافتنا الخاصة. إن مشروع النقل فاشل، ولا بد له من مقدمات وشروط ثقافية وفكرية وهيئة نفسية، لأنه تطبيق لنموذج غير مناسب تماماً لواقعنا، وتمرد على قيمنا ومبادئنا التي تؤسس لحضارتنا الخاصة، فالحادثة تصنع في الداخل ولا تستورد. وعليه شدد بعض المفكرين على ضرورة نقدها والتحفظ بشأنها بتحليلها

¹ - عاصم الخواج: الاستعمار الفكري وصراع الحداثة في العالم العربي، مجلة العربي الجديد، 20 يونيو 2014، <https://www.alaraby.co.uk>

² - هيئة تحرير مجلة تراثنا، الغزو الثقافي، مجلة تراثنا، قم، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، العدد الأول، 1417هـ، الجزء 45، ص 9.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

وتتبع مساراتها وبيان آثارها، والإمعان في المناهج و المعارف الوافدة من الغرب، لتأسيس حداثة واعية أصيلة تستجيب لمتطلبات العصر و الفكر العربي الإسلامي، ولا يتحقق ذلك إلا بالمحافظة على السلوكيات، والأنساق المتساوقة مع الأصولية الإسلامية المعتدلة، كصمام أمان ضد كل محاولات تفكيك أصول المجتمع الإسلامي و تراثه، وضد كل الأساليب المعتمدة لاستلاب هذا المجتمع موروثه العقائدي والفكري وانسياقه وراء رياح التحديث الغربية.

إن الحداثة الحقيقية هي اعتماد ثقافة العقل والوعي واعتماد مناهج تحديثية تطويرية تجديدية لهويتنا الثقافية لكي تسير متطلبات العصر الجديد"لسنا ضد التحديث الحضاري لمجرد كونه تحديثا، لكن ينبغي بنا أن لا ندخل أيّ إطار للتحديث إلا بناء على شروطنا ومقتضياتنا الفكرية والعقائدية، أو على الأقل ضمن شروط لا تسمح بسحقنا وتضمن لنا استمرار مسيرتنا الحضارية، التي تنشُد معانقة ولادة فجر المجتمع الإلهي الوارث، وهذه الشروط لا يمكن إبقاء ثباتها إلا من خلال الحفاظ على سلامة بنيتنا العقائدية"¹.

ولا سبيل إلى إنكار تأثير هذا الفكر الحدائي المعولم في شخصية المرأة المنفتحة خاصة على الثقافة الغربية فكرا وسلوكا ومظهرا. وظهر تحديدا في سعيها المحموم نحو كسر ثقافة المجتمع والتمرد على قيمه و أعرافه باسم الحداثة و التنوير. فيأما بطلنة رواية مملكة الفراشة، فتاة صيدلانية لأم برجوازية، ورثت من أمها أستاذة مادة الفرنسية بثانوية ألكسندر دوما حب الموسيقى ومطالعة كل ما هو غربي، تدين بالولاء إلى أفكار تغريبية وقيم خارجة عن سياقها التاريخي، وتأخذ سلوكها وفكرها من عالم متحرر من الدين، ومتمرد على الضوابط الأخلاقية، تلقى فيه الذهنية الغربية قبولا و احتفاء، مع أنها مسلمة

¹ - جلال الدين علي الصغير: الدلالة التكوينية، الحق الطبيعي للمعصوم، ط2، بيروت، دار الأعراف، 1998، ص ص29-30.

سنية مالكية. غارقة في كل الأوقات في عالم القراءة، تقرأ الروايات والمسرحيات الفرنسية "وغير الفرنسية، الأمريكية، اللاتينية و العربية و الإسبانية، زافون مثلاً، رواياته بها سحر جميل قريب من أعماقنا العربية التي قليلاً ما نستطيع فهمها وتفسيرها"¹، و قرأت "رواية كافكا على الساحل لموراكامي، و أخذت أيضاً التحول أو المسخ لكافكا... و الجميلات النائمت لياسوناري كواباتا"²، لا تعرف "أي حديث جاد إلا عن البطلات و الشخصيات، حتى أنني خلقت في رأسي عالماً تموت فيه الأزمنة و الأمكنة، يحضر فيه دون كيشوت، وسانشو دي بانسا، و بوسدنشيف الغيور من زوجته وهي تعزف مع تروخاتشيفسكي مقطوعة سوناته لكروتز لبيتهوفن، وشارل بوفاري، و مدام بوفاري التي تتخفى في كنيسة نوتردام تستمع لحكايات كازيمودو الأحب (...)، و فوست الغريب الذي باع نفسه للشيطان"³. حتى أنها باتت تتمثل شخصيات الروايات المسحورة بها و تتقمص أدوارها " بليت ببلية الروايات المجنونة، ولأني قارئة مستميتة في أبجدياتها المتهممة والخبيئة بين أسطرها، فقط أصبت بعدوى الأسماء الروائية والمسرحية، أحياناً أراني مدام بوفاري لكني لا أملك راحتها، في أحيان أخرى أراني دون كيشوت (...)، وعندما أصاب بالخيبة القصوى، لا أرى إلا وجه كارمن وسكينتها الحادة"⁴.

تقدم ياما كمعادل موضوعي للأنا الباحثة عن هويتها ضمن هويات أخرى تخالفها الفكر و الثقافة، فهي ترغب في التحرر، و تفكيك الرواسب الفكرية و المرجعيات الدينية و الاجتماعية، و تدمير الأنساق الثقافية التي تتبناها الجماعة لتحقيق ذاتها وترسيخ هويتها، عن طريق "بث قيم جديدة تتعارض مع المرجع الهوياتي للجماعة التي تشكل عالم الرواية، والتي لا تعدو نظرة مخالفة لعناصر الهوية الوطنية، وأبرزها المرجع العربي

¹ - واسيني الأعرج: مملكة الفراشة، ص 122.

² - المصدر نفسه، ص 354.

³ - المصدر نفسه، ص 322.

⁴ - واسيني الأعرج: أنثى السراب، ص 67.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

الإسلامي"¹، واللغة العربية باعتبارها مرجعا قوميا وعنصرا من عناصر الهوية الثقافية القومية، ينبئ عن التوجهات العقدية و الأيديولوجية و الفكرية التي يتبناها المجتمع في إطار الحفاظ على الهوية القومية، وإثبات وجودها وخصوصيتها. فلا شك في أن العلاقة بين اللغة و الهوية هي علاقة وجود، وأن اللغة هي الهوية الكبرى التي تنطوي تحتها تلك الهويات الفرعية الأخرى. والتي تفي بالوظيفة الرمزية للتمثيل على المستويين الاجتماعي و الفردي، فهي لا تشكل معالم هويتنا فقط، و لكنها تحدد شروط القبول ومعايير الانتماء. ويؤكد المختصون أن اللغة أسلوب حياة وعنوان ثقافة، وأنها القالب الذي تتجسد فيه، وهي جزء أساسي من كينونتنا، ولها أثر كبير في بلورة الفكر و الشعور، لذلك تبنت الدولة الجزائرية عقب الاستقلال مشروع التعريب الذي مس عديدا من شوارع المدن و منشآتها الثقافية، فاستبدلت أسماءها الفرنسية بأسماء شخصيات بارزة في التاريخ الوطني والثوري والإسلامي، كقادة الثورة و الشهداء و المجاهدين والمصلحين و القادة الفاتحين ورجال الدين، ممن وضعوا بصماتهم الخالدة، ووقفوا حياتهم لنصرة الهوية العربية الإسلامية عامة و الوطنية خاصة. الغريب أن الفكرة لم تلق الاستحسان عند ياما، سخرت منها و استهجنتها واعتبرتها فعلا مشينا طمس تاريخا مشرقا!! " ركضنا نحو بار صغير اسمه بار ماركيز دوساد في الحقبة الاستعمارية، وظل كما هو بعد الاستقلال، وفي حملة التعريب، غير اسمه ببار أبي نواس، لم تكن الفكرة خائبة أن يربط الشعر بالبيرة"². لقد طرد الاستعمار الفرنسي من أرض الوطن، لكن أفكاره لا تزال باقية، تعشعش في ذهن كثير من المبهورين به و بحدائته، لقد تحررت البلاد العربية من الاستعمار العسكري الغربي، لكنها لا تزال أسيرة فكره و ثقافته، وتصورات المشوهة " إن الأفكار الاستعمارية

¹ - وهيبة سماعل، رشيد رايس: تضاف اللغة والهوية في رواية "مملكة الفراشة" لواسيني الأعرج، مقارنة ثقافية، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد14، جامعة العربي التبسي، تبسة، ص185.

² - المرجع نفسه، ص185.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

الغربية التي كانت سبباً في الشعور بعقدة النقص أمام الأجنبي الغربي، والافتتاح بسمو الثقافة الغربية ورفعتها، في مقابل الثقافة العربية، ما زالت باقية في عقول نخب فكرية وسياسية في العالم العربي. فمنذ تعاضمت ظاهرة التغريب الراديكالية، التي تبناها مفكرون عرب كثيرون، طالبوا بمحو الثقافة العربية والإسلامية واستبدالها بالثقافة الغربية، بغية التطور والحداثة¹. لقد نجح الاستعمار الغربي في إفقار ثلة من أبناء الوطن ثقافياً، والاستحواذ على عقولهم وتغيير قناعاتهم وقيمهم وسلوكياتهم، إن التغريب، أو "الإفقار الثقافي، كان ولا يزال من أهم الاستراتيجيات الصراع الثقافي الذي مارسه الدول الإمبريالية ضد الثقافات الأخرى الواقعة تحت نطاق هيمنتها. ومع الإفقار الثقافي للثقافة المحلية، كانت المفاهيم الغربية حول الديمقراطية والعقلانية والتنوير، تطرح كأفكار من موقع متعال ثقافياً ومادياً وتاريخياً، و بطرق وآليات تقزم من مفاهيم ومكونات الثقافة المحلية، وتتسبب إليها ما هو على الضد من تلك الأفكار، مثل: اللاعقلانية و اللاتنوير و اللاديمقراطية، وبالتالي اللاحضارة، ومن خلال عمليات الإفقار الثقافي التي تمارسها الدول الإمبريالية، يتم ربط مفهوم الحضارة الإنسانية الواعية والمتطورة بالنموذج الليبرالي، وعلى هذا الأساس الأيديولوجي. يتم رفض و تهميش الثقافة المحلية، ووسمها بالدونية والوحشية و البربرية"².

تتبنى ياما الثقافة الغربية كمعيار حداثي مركزي، و تجلت في الحضور الكثيف للنص الفرنسي " الذي يعد مادة لغوية حوارية، تشكل في ذاتها حافزاً ثقافياً مؤثراً في مستوى تدفق القيم التي تحملها النصوص، فمن الشكل القراماتولوجي* للكتابة إلى عمق القيم التي تحملها، تتصدع هوية البطل الإشكالي بين هوية معاني الخصوصية و هوية مستعارة

¹ - عاصم الخواجا: الاستعمار الفكري وصراع الحداثة في العالم العربي، مجلة العربي الجديد، 20 يونيو 2014، <https://www.alaraby.co.uk>

² - معن الطائي: المرويات الكبرى وجماليات تزييف الواقع في الثقافة الكولونيالية. <https://m.ahewar.org> /0424 /2006.

متحررة تماما من كل قيد، فنجد بذلك البطل في حالة صراع عميق إزاء القيم الواقعية الحتمية، التي نشأت بفعل موجات العولمة من جهة، وقيم الأنا العميقة المتوارثة من الدين و العرف والعرق جهة ثانية، وهذا ما يشكل مفارقة¹. ذلك أن تلقي القيم و الممارسات الثقافية من مصادر أجنبية سيؤدي حتما تحت غطاء العصرية و التحديث إلى إثارة الشكوك حول جدوى بعض القيم الراسخة وكثير من الثوابت التقليدية، و"إن الوصول إلى ذلك يتطلب جملة من الخطوات الممهدة، تشمل على الخصوص التحكم في آليات التفكير و التحليل و التصور و التماثل، أو ما يطلق عليه المخيال، الذي يعتبر أداة أساسا من أدوات تعبير الإنسان عن ذاته ووجودها و مايمكن أن نسميه الهوية أو الذاتية الثقافية، وحين تتم السيطرة على مخيال الشخص، يصبح تعبيره عن هويته ووجوده منقوصا و غير مستقل عن المؤثرات الأجنبية، بل و تصبح صورته مشوهة ولا تعبر عن ذاته الأصيلة."²، الأمر الذي ينمي فيه الشعور بدونية ثقافته، و يخلخل ثقته بهويته الثقافية و يضعف قوة انتماؤه، و يهيئه لقبول الإملاءات الخارجية المفروضة عليه، و من ثمة تستلب أناه من قبل الآخر و تكون جزءا منه "من أسس و أساليب المستعمر لإبقاء قبضته و بسط سيطرته الاستعمارية على الشعوب المستعمرة، تدمير ثقافة المستعمر، وإيجاد ما تسمى التبعية الثقافية، أو ما يسمى التغريب في حالة الشرق الأوسط مع الاستعمار الغربي. ولن تحدث هذه التبعية إلا إذا هجرت الشعوب المستعمرة ثقافتها الأم، و تبنت ثقافة المستعمر. والخطوة الأولى لإحداثها تقديم صورة ثقافة المستعمر (بالكسر) على أنها المثالية للحدث، و من ثم التشكيك بصلاحية العناصر الثقافية للشعوب المستعمرة (بالفتح) وأهليتها للوصول إلى الحادثة. وإذا ما نجح المستعمر في خلخلة الثقة و التشكيك بثقافة

¹ - وهيبة سماعل، رشيد رايس، تضايف اللغة و الهوية في رواية " مملكة الفراشة" لواسيني الأعرج، المرجع السابق، ص185

² - حسين خريف: العولمة الإعلامية والهوية الثقافية، كتاب العولمة والهوية الثقافية، إشراف: فضيل دلهو، مخبر علم اجتماع الاتصال للبحث والتر، جامعة قسنطينة، 2010، ص180.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

الشعوب المستعمرة، هجرت تلك الشعوب ثقافتها، وسعت إلى تبني ثقافة المستعمر، وسيلة تحديثٍ لمجتمعاتها. ومن ثم، تُساق تلك الشعوب وراء مستعمرها، كما تساق قطعان الغنم من رعيانها، وتبرز ظاهرة الشعور بالنقص وسلوكيات التقليد والتقمص لشخصية المستعمر"¹.

وقد انعكست هذه الظاهرة في رغبة ياماالكبيرة في رفض المسلمات و تغيير أسماء المحيطين بها، ومنحهم أسماء تراها أكثر مناسبة و مطابقة لشخصياتهم"الاسم خيمياء غريبة من الصعب فهمها بالحواس العادية، عندما أمنح اسما لشخص ما يتضح لي لاحقا أنه أولا اسم أدبي، وأنه ثانيا يتطابق بشكل غريب مع صاحبه في التفاصيل الأكثر دقة، فأنتهي إلى فكرة أن اسمه الحقيقي هو ذلك الذي خلقته له، وليس الاسم الذي ألصق به، فاسمه الذي يجره وراءهم منذ عقود هو فقط نعت الكتلة لا أكثر، بي نزعة طاغية لرفض المسلمات الجاهزة، والشك في صحتها."²، ورغبة مبطنة لمحو الانتساب إلى قبيلة أو عشيرة أو عائلة على الفرد أن يبقى عبدا لها حتى الموت، وهي من يختار له قبره و زوجته و يتحكم بقوة في أنفاسه"³. فعبّر سلسلة الهدم و إعادة البناء تستمر البطلة في خلخة اللغة وخلق هويات جديدة، وذلك بالاستعاضة عن الأسماء العربية بأخرى أجنبية متمردة على الموروث الثقافي و العقدي، سواء حضرت في شكل إحالات أو استعارة نصوص شعرية أو بيبلوغرافيا، لقد سمت حبيبها فادي بفاوست، لأنها كانت مولعة بفاوست بطل ملحمة غوته، وسماها بدوره مارغريت التي اختزلت لماغي شريكة فاوست في الخطيئة، وغيّرت اسم والدتها فريجة إلى فيرجينيا واختصرته إلى فيرجي بمجرد فراغها من قراءة رواية الأمواج لفرجينيا وولف، وشاءت أن يكون زوربا بطل رواية" نيكوس

¹ - عاصم الخواجا: الاستعمار الفكري وصراع الحداثة في العالم العربي، مجلة العربي الجديد، 20 يونيو 2014،

<https://www.alaraby.co.uk>

² - واسيني الأعرج: أنثى السراب، ص 67.

³ - المصدر نفسه، ص 72.

كازانتراكي " اسما لوالدها زوبير، وأطلقت اسم كوزيت بطة رواية البؤساء ليفكتور هيجو على أختها الصغرى ميرا.

إن لجوء البطة إلى انتقاء الألفاظ واستعارة أسماء أدبية أجنبية و إسقاطها على الواقع الجزائري بوعي هودليل على قدرة هذه الخطابات على تمرير فكرها، وإن المقابلة بين شخصيات أدبية مشهورة وأخرى من الواقع تتشابه في الفكر و السلوك و الشكل الخارجي تتماشى مع فكرة التغيير، ففي العمل تفرغ للذات من جوهرها وإعادة بنائها، إنها "تشكيلات لغوية لها دلالتها الكبيرة على مستوى النص وعلى مستوى تشكل قيم الجماعة الاجتماعية".¹، فالتغيير في الاسم يستدعي تغييرا في الهوية و تمثل ثقافة جديدة، لأن استقبال منتوجات الغير المختلف فكريا و ثقافيا من شأنه أن يحدث خلخلة في النسيج الاجتماعي والقيمي للمجتمعات، وسيؤدي حتما إلى مسخ ثقافي بتطويع الأفراد واستلابهم، فالثقافة الوافدة تحمل حتما ثقافة وهوية المجتمع القادمة منه " الثقافة التي يجري تسييدها تعبر عن عداء شديد لأي صورة من صور التمييز، وإن الثقافة الغربية تريد من العالم أجمع أن يعتمد المعايير المادية النفعية الغربية كأساس لتطوره وكقيمة اجتماعية وأخلاقية، وبهذا فإن ما تبقى يجب أن يسقط، وما تبقى هو ليس خصوصية قومية بعينها، وإنما كل الهويات، وليس منظومة قيمية، بل فكرة القيمة، وليس نوعا بشريا، وإنما فكرة الإنسان المطلق".².

وأمام قلة الانتاج الثقافي والفكري الأصيل وتحرر المنتوجات الثقافية الوافدة من رقابة الدولة الوطنية، فإن أرضية التأثير والاستيعاب أصبحت مهينة أكثر لاستقبال موجات الثقافة

¹ - وهيبة سماعل، رشيد رايس، تضاييف اللغة و الهوية في رواية " مملكة الفراشة" لواسيني الأعرج، مرجع سابق، ص190.

² - عبد الله المسيري: نهاية التاريخ وصراع الحضارات، كتاب صراع حضارات أم حوار حضارات، منظمة تضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية، القاهرة، 1997، ص100.

الغربية، بعدها قيما إنسانية متقدمة، هي حصيلة قرون من تراكم الخبرات و المعارف و التجارب الإنسانية، وبوصفها منتجات حضارية حديثة يجب الانخراط فيها و استيعاب معطياتها إن أردنا مواكبة العصور وإحراز التقدم. هذه الفكرة آمنت بها الأم فريجة المنحدرة من أصول بربرية أندلسية تركية، متشعبة بالثقافة الغربية و شغوفة بقراءة الروايات العالمية بمختلف اللغات: الفرنسية والأمريكية و اللاتينية و الإسبانية و العربية التي قليلا ما تفهمها و تفسرها، وعلى رأسها روايات فرجينيا وولف، خاصة رواية الأمواج، أثرت في فكرها و سلوكها، إلى درجة أن تقمصت شخصية بطلتها و تمثلتها في حياتها، وزاد شغفها بالكاتب والرسام و الموسيقي الفرنسي بورييس فيان، الذي تملك معرفة دقيقة بتفاصيل حياته استقرت بقوة في ذاكرتها، وصلت إليها من خلال الاطلاع على أعماله الأدبية و الفنية، وزيارة جل الأماكن التي عمل بها، بما فيها صالة عرض الأفلام المقتبسة من رواياته فكثيرا ما ترددت مع عائلتها على دار الأوبرا الوطنية لسماع موسيقاه "استمعنا إلى أغنية مولودجي الهارب عن قصيدة لبورييس فيان (...)", وأوبرا زبد الأيام و سأذهب لأبصق على قبوركم، وهي أوبرا اقتبست من روايته..، ظلت تحكي عنها لمدة سنة بلا توقف.¹ و تحتفظ بكل منجزاته الفكرية في البنك الوطني لحمايتها من التلف، ومن شدة هوسها به، نسجت خيالات وهمية، اتخذته فيها حبيبا، ونصبت نفسها عشيقة لشخص مات قبل ولادتها، ووصل بها الأمر أن استدعت "ميرو" أشهر رسامي المدينة ليرسم لها بورتريه ولوحات تجمعها به "مستوحاة من صوره الأصلية، جاءته بكل الصور التي عثرت عليها في كتاباته و سيرته ووضعتها بين يديه، (...)", و بورقة فيها كل منجز بورييس فيان، مكتوبة بإتقان في شكل شجرة جميلة². حالة من الجنون الفعلي تعيشها الأم فريجة "كانت أمي في البداية مولعة بعمق بحياة فيرجينيا وولف، قبل أن تتركها و تصاب

¹- واسيني الأعرج: مملكة الفراشة، ص329.

²-المصدر نفسه ، ص129.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

بمجنون آخر اسمه بوريس فيان¹، و" كانا يمارسان حياتهما و سلطانهما فيها، وكأنهما في لحظة ما توزعا روحها بشكل غير عادل، فيرجينيا أخذت 20%، وبوريس 70%، ولم يتركا لها إلا 10% من الأمومة"²، لقد أصبح بوريس فيان حقيقتها الوحيدة التي يصعب الانفصال عنها، كان بدايتها و نهايتها ولا شيء غيره.

نخلص إلى:

-التغريب الثقافي والتغيير الهوياتي للإنسان هو عسكرة ثقافية وفكرية، وهيمنة ناعمة تتسلل بشكل هادئ ورقيق لإعادة صياغة العقول والوعي المعرفي والثقافي، خاصة في عصرنا الذي عصف فيه الشك بكثير من اليقينيّات والمسلمات، وتكونت فيه رؤيتنا الكونية للحياة من خارج عباءتنا الدينية و الثقافية، وهي رؤية تناقض المستقرات الوطنية والجمالية، وتخالف ثوابتها الأخلاقية والثقافية ولا تناسب مطلقا خصوصياتها التاريخية والاجتماعية.

-تكمّن خطورة هذه الأيديولوجية في أن النظام العالمي الجديد هو من يبشر بها و يدعمها بعد أن حقق انتصارا عالميا للفكر الغربي العلماني، بحيث تصبح قوة عالمية ونمطا حضاريا لا بد من اقتباسه و القبول به، ومرجعية كونية مرحب بها، تسقط أمامها عوائق الدين و اللغة و الهويات الثقافية المتباينة.

-إنه لمن الجيد الإقرار بأن عددا من سمات الثقافة الغربية قد طبع حياتنا و بات واحدا من المصادر التي تشكل وعينا. فحاضر مجتمعنا بكل قضاياها و معطياته الثقافية و الاجتماعية و السياسية، تتقاذفه أمواج بقايا الماضي وامتدادات الحاضر، حاضر هو

¹-المصدر السابق ، ص ص122-123.

²-المصدر نفسه ، ص190.

مزيج غريب من حضارتنا ومن الحضارة الغربية ذات الطابع العالمي. ولعل الولوج بالتجديد و الأخذ بالحدثة هو ما دفع الكثير إلى الطعن في المقدسات و التحامل عليها.

- النخب المتغربة و المغتربة هي من تعمق الثقافة المعولمة وتشجعها، وتبشر بعدد من النظريات و القيم التي تقوم عليها الحضارة الغربية، وتقدمها باعتبارها قيما إنسانية.

المطلب الثاني: التمرکز حول الأنثى وتقويض السلطة الذكورية:

تتمرد الفئات المضطهدة على القوى المسيطرة عليها، وتشكل جبهات للتصدي لها للتخلص من هيمنتها، وذلك حال المرأة التي خاضت نضالات واسعة في الحقلين الاجتماعي و الثقافي مطالبة بحقوقها وبتحقيق المساواة في المعاملة و الحقوق في إطار البنيات الاجتماعية القائمة، وقد نجحت حركة النسوية الأولى في سن تشريعات تمنح المرأة مزايا مادية كالتعليم و التصويت والاستقلال المادي، باعتبارها ذاتا قادرة على تقرير مصيرها وتطوير كفاءاتها، بينما سعت الموجة الثانية من حركة النسوية إلى الإطاحة بنظم السلطة الأبوية والتحرر منها. وقد تمكنت الحركات النسوية التحررية في الغرب إثر مراجعة نقدية تدريجية للفكر الغربي من بلورة طروحات جديدة، أكدت من خلالها أن النظرة الدونية نحوها هي نتاج ترسبات متوارثة و ثقافات سائدة لا أساس لها من الصحة، ونجحت في إقرار حق المساواة: في التعليم و العمل والملكية و حضانة الأطفال والاقتراع، ثم أخذت طابعا عالميا، فتنوعت مذاهبها و توسعت مطالبها، ونادت بالتحرر من القمع السياسي والجنسي والاجتماعي.

ويسعى النقد النسوي المعاصر المابعد حداشي إلى إلغاء كافة أشكال التمييز ضد المرأة وتعميق وعيها بنفسها، وهدم القواعد النظرية والعلاقات الاجتماعية التي تقوم على الموروث الحداثي، بعد أن أيقنت المرأة أن الرجل الحداثي قد وظف عقله وأحكم سيطرته عليها، وظلت التصورات الذكورية هي المعيار الرئيسي والسائد في تعريف الهوية الأنثوية

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

و تشكيلها والحكم عليها في حدود الفضاء الذي رسمه الرجل، ضمن جدلية السيد والعبء. فالإطار الرمزي القائم في غالبية المجتمعات يجعل مثال الذكورة مقياساً لكل الطموحات الإنسانية ويضفي المشروعية على الممارسات الثقافية والاجتماعية والسياسية الذكورية مقارنة بالرغبات المرتبطة بالمرأة" تذهب المجتمعات الذكورية (المتركزة حول الذكر) إلى أن الرجل هو الأصل الثابت (المبدأ الأول - اللوغوس) والمرأة هي العكس، هذه هي الثنائيات الأولية التي نطن أنها تتسم بالصلابة والتحدد¹، والمرأة في نظر كثير من الرجال، مجرد نسخة ناقصة عن الرجل الأصل المثالي.

لقد أدركت المرأة أنه قد حان الوقت لتتصب نفسها ذاتاً مستقلة عنه وأن تحتل المركز، وكان من نتائج ذلك ظهور مصطلح (Feminisme)، الذي ترجم إلى النسوية والنسوانية و الأنثوية، و الذي يفترض وجود صراع كوني بين الرجل و المرأة، يدفعها إلى التحرر من هيمنته الذكورية و سلطته الأبوية والزوجية، وحصار الهوية الأنثوية، إيماناً بمقولة أن "الأنثوية أمر بيولوجي، أما الأنوثة فتتبع من التراكيب و التصورات الاجتماعية، وهكذا فالأنوثة مجموعة من القواعد التي تحكم سلوك المرأة و مظهرها، وغاية القصد منها جعل المرأة تمتثل لتصورات الرجل عن الجاذبية الجنسية المثالية، والأنوثة بهذا التعريف نوع من التكر الذي يخفي الطبيعة الحقيقية للمرأة".²

وفي محاولة للتصدي لوضعهن الهامشي، تشترك كثير من النسويات مع ما بعد الحداثة في التأكيد على الاختلاف لا على المقابلة الثنائية و الإقصاء، وتقدم النظرية النسوية مثالا واضحا على الوعي بتنوع تاريخ المرأة و ثقافتها و ميولاتها. وتدعو إلى ثورة

¹ عبد الوهاب المسيري، دريدا في القاهرة، التفكيكية والجنون، ضمن كتاب: جاك دريدا والتفكيك، تحرير أحمد عبد الحليم عطية، ط1، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 2010، ص ص170-171.

² سارة جامبل: النسوية وما بعد النسوية، دراسات و معجم نقدي، تر أحمد الشامي، مراجعة، هدى الصدة، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، الجزيرة، القاهرة، العدد483، 2002، ص337.

شاملة في الفكر و الأخلاقيات، و تطالب النساء بالبحث عن طرق أكثر جدية لتشكيل هوية مستقلة عن أفكار المركزية الذكورية وعن حصر دورها في إطار الأمومة. و يطرحن "برنامجا ثوريا يدعو إلى إعادة صياغة كل شيء: التاريخ و اللغة والرموز، بل الطبيعة البشرية ذاتها كما تحققت عبر التاريخ وكما تبدت في مؤسسات تاريخية و كما تجلت في أعمال فنية"¹.

وتتعلق فكرة التمركز حول المرأة من مبدأ الصراع بين المرأة والرجل وهيمنة هذا الأخير عليها ومحاولتها التحرر من سيطرته كما هو الحال في المجتمعات الأبوية البطريركية، ويشدد دعواتها على ضرورة تفكيك هذا التمركز الذكوري، مستندين إلى علماء الاجتماع الذين يقرون بالفروقات بين الجنس والجنوسة. فمصطلح الجنس يستخدم "للدلالة على الفروق التشريحية والفيسيولوجية والاجتماعية والثقافية بين الذكور و الإناث، أما الجنوسة فتعني الأفكار والتصورات الاجتماعية لمعنى الرجولة و الأنوثة، وهي بالتالي ليست نتاجا مباشرا بالضرورة للجنس البيولوجي لدى الإنسان"²، ويرجعون الاختلاف و اللامساواة بين الجنسين إلى عوامل التنشئة الأسرية، والخصائص البيولوجية أو الفروقات الطبيعية، وإلى التصورات الاجتماعية التي تعكسها التفاعلات المنمطة اجتماعيا بين الرجال و النساء والمنظمة بصورة ممنهجة، والتي يجري بناؤها وتشكيلها وتعديلها في المجتمع بكيفيات شتى، و يعتقدون أن ثمة نسقا جنوسيا في شكل تراتب هرمي يعزز سيطرة الرجال على النساء هو امتداد للنظام البطريركي، قائم على تملك جسد المرأة والنشاط الجنسي. وهو الأمر الذي دفع ببعض الناشطات النسويات إلى إلغاء العائلة وتحقير دور المرأة كزوجة وكأم، لأنها الوسيلة الوحيدة -في نظرهن- لتحريرها من صور العنف المسلط عليها سواء كان أسريا أو تحرشا أو اغتصابا باعتباره عنوانا للتفوق

¹- عبد الوهاب المسيري: قضية المرأة بين التحرير.. والتمركز حول الأنثى، ص22.

²- أنتوني غدنز: علم الاجتماع، مرجع سابق، 186

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

الذكوري، ثم إقناعها "بتحقيق طموحاتها في الحياة من خلال تلبية كل المطالب القائمة على الفردية بعيدا عن الالتزام برابط الأسرة و المجتمع"¹، لأن الأسرة والإنجاب عائق لقيدها وبأنها تحول دون تحقيقها أهدافها " تؤكد حركة التمركز حول الأنثى في إحدى جوانبها الفوارق العميقة بين الرجل والمرأة، وتصدر عن رؤية واحدة إمبريالية، وثنائية الأنا و الآخر الصلبة كأنه لا توجد مرجعية مشتركة بينهما، وكأنه لا توجد إنسانية جوهرية مشتركة تجمع بينهما، ولذا فدور المرأة كأم ليس أمرا مهما، ومؤسسة الأسرة من ثم تعد عبئا لا يطاق"².

وقد وجهت انتقادات حادة لهذه الحركات النسوية التحررية واتهمت بالتطرف، لأنها تشجع على الصراع المستمر بين الطرفين "لا يوجد برنامج للإصلاح في حركة التمركز حول الأنثى ولا يوجد محاولة جادة لتحقيق المساواة بين الرجل و المرأة، أو إلى تغيير القوانين أو السياق الاجتماعي للحفاظ على إنسانية المرأة باعتبارها أما وزوجة وابنة وعضوا في الأسرة أو المجتمع. وإن كان ثمة برنامجا للإصلاح فسنجد أنه يصدر عن إطار تفكيكي يهدف إما إلى زيادة كفاءة المرأة في عملية الصراع مع الرجل أو إلى تسويتها معه، أي أنه في جميع الحالات ثمة إنكار للإنسانية المشتركة. ولذا فالبرنامج الإصلاحية هو برنامج يهدف إلى تغيير الطبيعة البشرية ومسار التاريخ والرموز و اللغات"³.

كما حملت الحركة النسوية الرجال مسؤولية تشيؤ المرأة وامتهانها جسديا، بفرضهم مقاييس للجمال الأنثوي جعلتها أداة لإرضاء ميولاتهم، بحكم أن الهوية الفردية كانت تتشكل وفق معايير الجماعة والنظريات التي قننت للتراتب الاجتماعي والإنساني

¹ - مية الرحيبي: النسوية مفاهيم وقضايا، الرحيبة للنشر والتوزيع، ط1، دمشق، سوريا، 2014، ص78.

² - عبد الوهاب المسيري: قضية المرأة بين التحرير.. والتمركز حول الأنثى، مرجع سابق، ص20

³ - المرجع نفسه، ص33

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

والعبودية، والتي توارثتها أجيال باعتبارها حقائق علمية ومسلمات فلسفية، منها الصور السلبية المنمطة عن المرأة " في التراث اليهودي و المسيحي -المرأة أصل الخطيئة - و صورة المرأة في أعمال و مواقف العديد من المفكرين والفلاسفة الغربيين تجاه المرأة، من أفلاطون الذي يصنف المرأة في درجة دنيا مع العبيد والأشرار والمخبولين و المرضى، إلى الفلاسفة المتأخرين مثل ديكارت من خلال فلسفته الثنائية التي تقوم على العقل و المادة، فيربط العقل بالذكر و يربط المادة بالمرأة، مروراً بكانت الذي يصف المرأة بأنها ضعيفة في تكوينها ككل وبخاصة في قدراتها العقلية، وانتهاءً بفيلسوف الثورة الفرنسية جان جاك روسو الذي يقول: "إن المرأة وجدت من أجل الجنس من أجل الإنجاب فقط، وفرويد رائد مدرسة التحليل النفسي الذي يرجع كل مشاكل المرأة إلى معاناتها من عقدة النقص تجاه العضو الذكري"¹.

وللأسف، انساق المجتمعات العربية والإسلامية وراء الأفكار الغربية، وتعمقت النظرة الدونية للمرأة العنصر الاجتماعي الأكثر عرضة للتبخيس و الدونية. واختزلت كيائها في حدود كونها مجرد أداة للجنس ووعاء للمتعة، أو الدنس. وتعززت هذه النظرة التحقيرية بوجود كثير من القضايا و العادات والتقاليد والمسائل الفقهية والتصورات الثقافية والممارسات و الأنماط الاجتماعية المبنية خطأ على الدين، والتي لو خضعت للمراجعة و التدقيق، وعرضت علناً أصول الدين الإسلامي لتغيرت نتائجها و لتوازنت منظومة الحقوق والواجبات وتحقق العدل. فالسائد هو الخلط بين الثقافة السائدة بخطئها وبصوابها والمبادئ الإسلامية. فالفهم الخاطيء للنص القرآني الصريح ومقاصده أهدر أهلية المرأة العقلية والقانونية، فتشكلت بل ترسبت أفكار ومعايير ثقافية مسلم بها غلبت الثقافة المحلية والتقاليد، ومنحت الذكر مطلق الصلاحيات للتحكم في المرأة والتضييق على

¹ - مية الرحيبي: النسوية، مفاهيم وقضايا، مرجع سابق ، صص 15-16

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

حريتها، وربطت هويتها بدورها التقليدي البيتي، ولعبت الأسرة دورا رئيسيا في قمعها و تقيدها اجتماعيا و اقتصاديا و جنسيا، و شككت ضغوطا مختزنة تعيق طموحها، ومن أن يكون لها صوت مسموع، ووجود خاص وهوية مستقلة عن الرجل والأسرة.

وتحضر مريم ماجدالينا كمثال عن ضحايا التسلط العائلي، ومجتمع لم يقطع علاقته بذكورته، ورجل استغلها باسم الحب، فقضى على عفتها وشرفها "كل اللواتي هنا يحملن على ظهورهن خيبة رجل تافه لم يكن قادرا على الدفاع عن حبه حتى النهاية"¹، وتركتها وحيدة تجابه سجن عائلتها وجحيم التقاليد البالية لتجد نفسها مومسا بماخور عيشة الطويلة، مجبورة على الغوص في مستنقع الرذيلة بعد أن لفظها الكل، يقتلها الخوف من محاولات أهلها الانتقام منها و غسل العار، ومن جنون زبون ثمل ينتقم من خيباته الذكورية أمامها، ومن السأم و التقرز من التكرار المستمر، يقصدها الذكور لأداء الوظيفة ذاتها و بالطريقة ذاتها، لأن "المرأة في هذا البلد لا تصلح إلا لردم الرغبات المهوسة المقموعة عبر السنين"²، تشاركها المصير كل النساء بالماخور، الحب ذنبهم وخيانة الرجل لهن هو الجزاء، الكثير منهن مجروحة في كبرياتها وكرامتها، يعشن الفراغ و اليأس والخوف "كل شيء متصلب مثل الحجر اليابس و الخشب الميت، أنا هنا في النهاية زايد ناقص، مُلك مُشاع لكل العابرين"³. تتمنى التوبة وبدء حياة جديدة "تعبت من حياة لا أحبها، يقتلها التكرار و الخوف المستمر، لو يقبلوا مني أن ألتحق بأحد أديرة المدينة، سأفعل وأبقى هناك حتى آخر العمر أخدم الفقراء و المتعبين"⁴. في داخلها حسرة من كونها امرأة وسخرية مقبنة من فكر الرجال الذكوري المحصور في الجنس "هل ذقت الإهانة مرة واحدة ؟ أتعرف ما معنى أن تجرح امرأة في كبرياتها، ذكوركم مجتمعة لن تعيد لها لحظة

¹ - واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص 57.

² - واسيني الأعرج: سيدة المقام، ص 38.

³ - واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص 58.

⁴ - المصدر نفسه، ص ص 57-58.

واحدة من عنفوانها المقتول في بداياته الأولى. لحظة واحدة تختارها بإرادتها تساوي دنياكم كلها. لحظة واحدة مهما كانت صغيرة تقضيها داخل أكوام التبغ أو في العراء ولا بؤس قصر"¹، تتشفي فيهم وتعري خوائهم الفكري والروحي، واعتزازهم بذكورتهم " أنت رجل؟؟؟ باش؟؟؟ ما معنى أن يكون الرجل رجلا في بلاد فقدت رجولتها؟؟؟ ما معنى أن تكون المرأة امرأة في بلاد أن يكون فيها المرء فيها أنثى عليه أن يدفع الثمن غاليا شيء مضحك هذه الذكورة!! هل يعني هذا أنكم كلكم تفكرون بالطريقة نفسها. شيء مخجل ومخيف. الاضطهاد حتى العمق، حتى الرحم اسألوا أية امرأة في لحظة صفاء وستسمعون الجواب المفجع"². وتتدد بالمجتمع وعاداتها البالية "هل جربت أن تكون امرأة في عالم ذكوري معتوه، يجرك كصباح بخطوة جديدة نحو العصر الحجري حتى لا أقول القبر، ويسحبك نحو فراش المومس... فهل جربت مثلا أن تكون ليوم واحد فقط امرأة في مجتمع قانع يعيش على كذبة كبيرة اسمها العفة...، طبعا أنت مرتاح في عالمك الرائع الذي لا يكلفك شيئا كبيرا، للأسف لا تتفرد في هذا عن بقية الرجال"³.

الحقيقة مؤسفة، فقانون المجتمع في أشد وجوهه قمعا و تضييقا، يحاصر جسد المرأة منذ الطفولة ويتجاهل آدميتها و عفتها، ويحصره في وعاء المتعة، ومن المفروض أن يكون الأب حاميا لابنته، ومدافعا عن عرضها وشرفها، باعتباره الحضن الدافئ و العش الحاضن ومصدر الأمن والأمان، لكن الأمر يختلف إذا سقط الأب عبدا لشهواته وانساق وراء لذاته، إنه الفحش بالمحارم، ولا شك في أنه ممارسة محرمة وسلوك حيواني تتستر عليه الأسر، ويتشدد القانون في معاقبة مرتكبيه، فهناك اعتبارات عديدة في الثقافة الاجتماعية تقف عائقا أمام كشفها و معاقبة مرتكبيها. يؤثر هذا الجرم على نفسيات

¹ - واسيني الأعرج: سيدة المقام، ص 25.

² - المصدر نفسه، ص 27.

³ - واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص 393.

وسلوكيات المفعول فيهم، ويولد فيهم شعورا بالتقزز و الخوف، فكثير من مدمني المخدرات و المومسات و الهاربين من ديارهم و أصحاب الجنج و الأحداث هم من ضحاياه ومن المغدور بهم. منهم لوليتا (نوة) ضحية والدها الذي اغتصبها بوحشية وحملت منه وهي في سن الحادية عشر" حملت من وحش اسمه والدي، تخيل طفلة حامل(...). فكرت كثيرا و بكيت كثيرا، كيف أتعامل مع طفل هو ابني و أخي في الآن نفسه، لكن المرشدة أعاننتي على تحمل الصدمة و أقنعتني بإسقاطه.¹، علمتها العزف على البيانو، وأدخلتها عالم الموضة، وتكفلت بها ماديا و معنويا، أمها الروحية كما تصفها، وهي أحب إليها من أمها البيولوجية، التي وقفت في صف زوجها المجرم، واتهمتها بإغرائه، وطالبتها بإسقاط الدعوى القضائية ضده بعد أن اشتكته إلى المصالح الأمنية كونها قاصرا "حتى أمي لم تكن أقل سوءا من زوجها و ابنها، عندما زارتي في باريس بعد فترة، طحنتني بأسئلتها القاسية التي كانت تضعني دائما في زاوية الاتهام، ولم تتوقف أبدا عن تكرار الجملة القاسية "حرام عليك، نصحتك، وأنت راسك خشين، الرجل ضعيف وأنت سحبتة نحوك بجنونك".² رفضت لوليتا الطلب بشدة وأصرت على محاكمته بعد أن استقرت في باريس " لو يبقى من عمري يوم واحد لن أغفر له. يكفي أمي خليني منه. حتى أنت باعك لمصلحة امرأة أخرى في السعودية حيث تجارته. قال لك مجرد زواج مسيار. يا عيني على المسيار، اسأليه عن الفرق بين المسيار و الزنا و الشرمطة المقننة"³. " هو يفعل ما يشاء و أنت يحاسبك على تنفسك. " هي جرأة محسوبة لطاغية صغير يدرك سلفا أن قانون البلاد معه، فقط لأنه رجل"⁴. ولم يكن موقف أخيها أفضل حالا من والدتها " أخي كان أسوأ من أبي، جاءني من الجزائر في اليوم الموالي، فقط

¹ - المصدر السابق، ص460.

² - المصدر نفسه ، ص261..

³ - واسيني الأعرج، أصابع لوليتا، ص ص240-241.

⁴ - المصدر نفسه، ص241.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

ليتهمني بأني كنت عقربا و شيطانة رجيمة، ومومسا أفقدت والده عفته و كرامته، أبوه كان ملاكا، وأنا كنت على يساره بعد أن ثقلت موازيني، أشبعتني ضربا بحزامه حتى كان يقتلني"¹.

لقد شكلت العادات والتقاليد والاعتبارات الدينية و الجنوسية والإثنية والطبقية في الماضي حواجز أعاقت خيارات الأفراد و مسارات حياتهم، وقضت فرص خياراتهم و أساليب حياتهم، غير أن الأوضاع تغيرت، فقد أحدثت ثقافة العولمة تغييرات جوهرية وتحولات عميقة في حياتنا وفي تصورنا لأنفسنا وعلاقاتنا بالآخرين، إذ يقوم تيار ما بعد الحداثة" على أساس أن الحتمية قد سقطت سواء في التاريخ أو في المجتمع، بمعنى أن التاريخ الإنساني أصبح مفتوحا أمام خيارات متعددة و أنه ليس هناك صيغة لتنظيم المجتمع الإنساني يمكن أن تدعي لنفسها العصمة وأن الفرد الإنساني بعد سقوط الأنظمة الشمولية والسلطوية ينبغي أن يمارس حقه في الاختيار بغير قهر إيديولوجي"². وبتسارعها انحسرت بعض الرموز الاجتماعية وسقطت بعض القيم الراسخة استجابة للتغيرات المعقدة و المتسارعة، وتصاعدت النزعة الفردية التي تتيح للناس عبادة الذات وحرية الاختيار "فالإنسان في نظرها يجب أن يستمتع بوجوده كل الاستمتاع، ويطلق لحيته العنان، فيحقق لنفسه أكبر نصيب من المتع و الملذات، باعتباره إله نفسه وسيد كيانه."³.

تغلغل هذا الفكر الغربي في ذهن مريم التي قدمها الكاتب في صورة المرأة المتحضرة على خلاف الرجل المقدم في ثوب الشرقي المتخلف الذي لا يرى المرأة إلا جسدا، ومن هذا التصور ترى هذه الأخيرة أن خلاصها محصور في التحرر منه وفي نيل

¹- المصدر السابق ، ص261.

²- السيد يسين: الكونية والأصولية وما بعد الحداثة، أسئلة القرن الحادي والعشرون، نقد العقل التقليدي، ج1، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 1977، ص216.

³-أنور الجندي: قضايا العصر ومشكلات الفكر تحت ضوء الإسلام، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1981، ص93.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

الحرية المطلقة، وإن تمثلت في إقامة علاقات غير شرعية. لذلك قررت محاربته وأعلنت تمردا على القيم الإسلامية، المعيار الذي يحدد قيمة الأشياء المادية أو المعنوية، ويضبط تفكير الفرد وسلوكاته، فرفضت فكرة السلطة الذكورية المترسخة في المرجعيات الثقافية، وسعت إلى تقويض النسق الذكوري المهيمن وتجاوز السلبية الجنسية والاجتماعية لدور للمرأة. فحاكمت الأنساق الثقافية وكل الأنظمة الاجتماعية التي تتحكم في الجسد والجنس، واعتبرها عوائق تحول دون حريتها، وطالبت بالحرية الجنسية والمساواة فيها مع الرجل " أريد الليلة أن أشعر أنني حرة بشكل مطلق"¹، وكلها يقين أن " أعمق طعنة للرجل الشرقي هي أن تنام امرأته في فراش غير فراشه، طبعاً هو لا يكلف نفسه عناء طرح السؤال على نفسه، يستطيع أن ينام في الفراش الذي يشاء دون أن يتحرك شيء فيه، عاش العدل حبيبي، عاش الشرق العظيم"². لذلك تمادت في الغواية والعصيان " لو كنت في مكان كل نساء لمارست الخيانة الشريفة انتقاماً من كل الرجال الملفوفين في غيمة سوداء من الكذب لا تمطر إلا العقارب"³. في قائمتها رجال كثيرون: قيس ابن عمها الذي خط على جسده الحب وغطى جسده بالأوشام، أنهى حياته بعدما هجرته، والهامل المغرم بالسينما والذي أراد تحويلها إلى راقصة فلامينكو، يريد لها محترفة في الفراش، وفي الوقت ذاته قديسة، انتهى هو الآخر بإحراق نفسه، ومنهم نارسيس المفتون بمرآته وبجماله وأنوثته الخفية... والقائمة لا تزال مفتوحة.

تعليمها العالي وانفتاحها على الفكر الغربي واستقلالها المادي عوامل شجعتها على التحرر من رواسب الماضي و قيود المجتمع وأخلاقه، و منحها القدرة على تقرير مصيرها بمعزل عن السلطة الذكورية، سواء مثلها الأب أو الزوج أو المجتمع بصفة عامة

¹-واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص415.

²- واسيني الأعرج: أنثى السراب، ص64.

³- واسيني الأعرج: مملكة الفراشة، ص212.

"أليس الزواج في هذا الوطن السعيد شكل من أشكال إفلاس الذات؟! الأشياء تتعفن مولدة إجابات غير مقنعة. الرجل يركض خلف أنثاه في أغلب الأحيان ليس حبا، ولكن ليفرغ فيها جحيمه و كبتة، وبعد سنة يعطيها ظهره في الفراش، وتموت الحميمة تحت همجية اللحظة المقهورة، وبعد سنة أخرى، يبدأ بحثه المحموم عن امرأة أخرى تكمل دينه و شهوته التي لا تكتمل إلا بالنساء اللواتي تصدر يوميا ضدهن الفتاوى في المساجد و الساحات العمومية، هي الشيطان الرجيم، وهو ملاك الرحمان الرحيم"¹.

وفي رواية "سيدة المقام"، تنتسب البطلة مريم راقصة الباليه المحترفة إلى معهد الفنون الجميلة بسيدي بلعباس، وتؤسس مع جارتها الروسية أناطوليا فرقة راقصة بعد طلاقها من حمودة الرجل الحقوقي الذي أهان جسدها واغتصب حقه الشرعي بالقوة و تطاول عليها بالضرب و الشتم، وتتخرط في علاقة لاشرعية مع أستاذ النقد الكلاسيكي بالمعهد ذاته، تحت مسمى الصداقة و الانفتاح، وقدرته على فهم دواخلها التي عجز عنها رجال كثيرون صادقتهم تصفهم بالرجعيين ضحايا الدين و العادات و التقاليد وشهوة الجسد. وكتعبير عن الرفض وإعادة الاعتبار لذاتها، تكسر مريم هذه القيود، لكنها وللأسف تقع سجينه شيطانها وعبدا لنزواتها، فحريتها الموهومة هي نوع من أشكال الدعارة المتسترة التي أوقعتها في شرك الجنس المؤسلب ومستنقع الرذيلة، حيث تكررت لقاءاتها اللاشرعية مع أستاذها الذي تأتيه بيته و تراقصه و تشاركه شرب الويسكي، و تعاشره بلا ضوابط شرعية أوأخلاقية، ويندمج الاثنان في علاقة محرمة تجمعت فيها أحاسيس مبتورة مريضة، فهي بالنسبة إليه لم تكن سوى مادة يفرغ فيها شبقة و جنونه المعجون بجراحات الماضي واغترابه، وهو بالنسبة لها ليس سوى وسيلة للتعويض عن طفولة بائسة وفشل في الزواج.

¹ - واسيني الأعرج: سيدة المقام، ص88.

وقد حاول الروائي تحسين صورتها حين قدمها كمثال للمثقف الواعي الساعي للتغيير، حين أعلنت أنها بتأديتها لرقصة ستنتصر على الواقع المأزوم وتحارب بني كلبون (الإرهاب) الذي شدد تضيقه على المرأة خصوصا، وأنها ستحررها من النظرة الدونية و السلطة الذكورية وقيود المجتمع المفروضة عليها، فقدمها كواحدة ضحايا انتفاضة أكتوبر، أين اخترقت رصاصة طائشة رأسها أثناء محاولتها إنقاذ شاب من موت محتوم بعد هجوم إرهابي، فرغم تحذيرات الأطباء و تأكيدهم على خطورة وضعها، إلا أنها أصرت على تمثيل شخصية شهرزاد التي انتصرت لبنات جنسها أمام شهريار، وأدت رقصتها بإتقان جيد، لتتقدم مباشرة على جناح السرعة إلى المستشفى أين تلفظ أنفاسها الأخيرة، وبعد أن أدت رسالتها التثويرية. و ينتحر عشيقها على إثر موتها برمي نفسه من على جسر تليملي.

و السؤال المطروح: منذ متى كان الرقص سبيلا للوعي و للحرية والبناء و التعمير، وحلا لأزمات العنف والإرهاب والبطالة والمخدرات وموت الضمير الأخلاقي؟. "لا نخال هذه التعبئة الفدائية نفسها لتشفع لها انغماسها الجنسي بلذة أبيقورية مع أستاذها، كون التضحية الحقة لا يمكننا تصورها إلا من نفس شريفة لم تلوثها أيدي الآثام واللذات اللامشروعة. فوعيا الذي تحمله هنا اتجاه هذا الوطن المهزوم و الذي يشاركه فيها أستاذها لا يرقى إلى درجة الوعي الممكن الذي تشترطه طموحات الفئة المثقفة (...)", بل يظل إلى حد بعيد وعيا زائفا تفضح ظلال الكاتب في رسمه لشخصية مريم الطموحة، بينما هي ترزح تحت وطأة الخمر في حانات العاصمة، وإقبالها المكشوف على ممارسة الجنس بشكل سافر"¹.

¹-سيليني نور الدين: تيمة الجنس في خطاب الروائي واسيني الأعرج، بين الوعي القائم والممكن والزائف سيده المقام أنموذجا، الملتقى الوطني الأول حول النقد الأدبي الجزائري، 21-22 ماي 2006، ص 409.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

هذه نماذج من ضحايا الثقافة المعولمة التي نجحت في إعادة صياغة رؤى وتصورات المرأة وجانب كبير من منظومة قيمها و أخلاقها حسب الرؤية الغربية باعتبارها نموذجاً يحتذى به.

نخلص إلى:

-نجحت الثقافة المعولمة- إلى حد ما- في اختراق و تقويض جوانب من منظومات التفكير والسلوك، وأنساق القيم والتمثلات، وأقامت كبدائل لها، منظومة جديدة من المعايير منقطعة الصلة عن التطور الذاتي للنظام الاجتماعي، تمجد القيم النفعية و الفردانية و الأنانية، وتكرس للمادية التي تتأى عن المحتويات الفطرية الإنسانية، و ثقافة سطحية بلا روح مبنية على التأثيرات الاستهلاكية ومبدأ اللذة الآنية.

-خطاب النظام العالمي الجديد المعولم حول المرأة و قضاياها، هو خطاب تفكيكي، تعيد المرأة من خلاله تعريف ذاتها و تحقيق هويتها بعيدا عن السلطة الذكورية و إطار الأسرة، بتحطيم الطاعة و الولاء للرجل عامة و للزوج بصفة خاصة. استنقاد منه الغرب لإغراء المرأة و لضرب التماسك الأسري، وتكفل جماعة الفيمينيزم والإباحية بتلك المهمة الحاملة لمضامين تصطدم مع المضامين التي نشأت عليها المجتمعات العربية والإسلامية.

-حرمان المرأة من ممارسة بعض الأنشطة وحصص هويتها في أدوار اجتماعية محددة لا يعود إلى خصائصها البيولوجية، إنما إلى عملية التنشئة الاجتماعية المؤطرة بالسياق الثقافي الذي تعيش فيه، والهيمنة الاجتماعية المسلطة عليها هي في حقيقتها منظومة من القيم الثقافية التي ترسخت في الحياة العامة، وغذتها قنوات عديدة كالإعلام و التعليم و العادات و التقاليد والتوجه العقدي المذهبي.

- لا يسعنا نفي أن المرأة في العالمين العربي و الإسلامي تتعرض لمظالم كثيرة تحط من كرامتها و تبخس دورها الفعال في المجتمع، بحكم تحطم التقاليد الرجعية الجائرة في هذه البيئات، والأكد أن التحرر من القيود الاجتماعية والدينية الزائفة ضرورة ملحة لإخراجها من دائرة الاقصاء و العزلة المفروضة عليها، لكن ذلك لا يتحقق باستيراد مفاهيم الغرب وأنماط حياتهم المتعارضة مع خصوصيتنا، فالحلول لا بد أن تستنبط من ثقافتنا و هويتنا الخاصة.

-نعم لحرية المرأة التي تحفظ كينونتها وتجعلها كائنا إنسانيا عاقلا وفاعلا اجتماعيا يشارك في بناء المجتمع ويحافظ على نسيجه الثقافي والاجتماعي الضارب في الأعماق، والذي حماه من التفكك و الانحلال والتلاشي.

المطلب الثالث: عولمة الأسرة وتحرير الجنس:

شكلت الأسرة عبر التاريخ الأرضية الصلبة لتماسك المجتمع و استمراره، فهي الحضن الطبيعي للأطفال، والإطار الذي يكسب الفرد طبيعته الاجتماعية المركبة، سواء بصفته عضوا في الجماعة أو فردا مستقلا بنفسه، وهي التي تمنحه الاتزان الداخلي، ذلك أن العلاقات الأسرية تراحمية مفعمة بالحب والتضحية، وباسمها أيضا يمكن إرجاء الرغبات الجنسية أو اشباعها و توجيهها من خلال قنوات اجتماعية وفقا للعقيدة الإيمانية التي يؤمن بها أفراد الجماعة البشرية. فالأسرة هي الوضع الطبيعي الذي ارتضاه الخالق كنظام لحياة البشرية. وبالزواج ذلك العقد المبرم بين الرجل و المرأة، تكون الأسرة جهازا اجتماعيا و شرعيا مسؤولا عن انجاب الأطفال وتربيتهم.

وقد تجاوزت سقطات الحداثة الغربية عالم الأشياء و الظواهر، لتتطال الإنسان و العلاقات الرابطة بين الأفراد ونظم الأسرة، لقد تعرضت مؤسسة الزواج و الأسرة في المجتمعات الغربية والصناعية الحديثة إلى موجة من التغيرات من ناحية التكوين

التوجهات، طالت المجتمعات الأخرى بدرجات متفاوتة، ولا يمكن فهم أنماط تشكلها أو تفككها بعزلها عن العولمة وزيادة معدلات الطلاق و انتشار المعاشرة خارج إطار الزواج.

ومع تآكل العقيدة و تزايد الفردية، تعسر على هذه المؤسسة الاستمرار في القيام بوظائفها، فتفككت وأصرها وتحررت من القيم التقليدية والدين، الذي تستمد منه مرجعيتها، فأقست المعقدات الدينية والاجتماعية و أحالتها إلى سلطة مدنية، و كرسنا لأخلاق اللادينية. يمثل هذا الوضع فرانثيسكو الفنان التشكيلي صديق يوبا، هو مثال لأبناء الأسر الإيطالية الممزقة، انفصل والداه وهو صغير، وأعاد كل منهما حياته بعد سلسلة من الأنايات و الخيانات الزوجية المتكررة، محاذراهما تماما من مخيلته وانقطع عنهما كلياً، وأسس لحياته بعيداً عنهما. لا يؤمن بالزواج ولا بالأسرة التي لم يتمتع بدفئها، يعيش حياته بحرية تامة، دون مرجعية أخلاقية أو دينية ثابتة توجه مسارات حياته" لا وقت لدي، أعيش حراً بلا زوجة ولا أعصاب، بيني وبين صديقتي المكسيكية نورما الحب فقط لا الزواج ولا الأولاد ولا أية كذبة من كذبات المجتمع الحديث، لكل واحد فينا الحق في تغيير رأيه ومساره الحياتي، وحتى شهواته الكبيرة و الصغيرة و فراشه"¹.

وعلى مدار القرون الماضية، وفي المجتمعات العربية الإسلامية، مثلت القيم المرتبطة بالمعتقدات الدينية ولا تزال الأساس الترشيدي للأخلاق والسلوكيات، مع الأخذ بعين الاعتبار التنوع في المجتمعات، لكن الغالب أنها مرسومة بتلك الأطر و المرجعيات الدينية، فتجذر الثقافة الإسلامية في المجتمع من خلال المؤسسات الاجتماعية كالأسرة والمدرسة والإعلام مثل الحصن المنيع والدرع الواقي ضد عمليات الاستلاب الفكري. وظلت الأسرة العربية و المسلمة قائمة في وجه حملات التغريب والتتميط بفضل

¹ - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص 86.

المرأة، باعتبارها الحارس الأمين على المنظومة القيمية و الأخلاقية و العقدية، وقد " أدرك العالم الغربي أن نجاح مجتمعات العالم الثالث في مقاومته يعود إلى تماسكها الذي يعود بدوره إلى وجود بناء أسري قوي، لا يزال قادرا على توصيل المنظومات القيمية و الخصوصيات القومية إلى أبناء المجتمع، و من ثم يمكنهم الاحتفاظ بذاكرتهم التاريخية و بوعيتهم بثقافتهم و هويتهم و قيمهم"¹.

فكان تركيزه على المرأة، لأنها حجر الأساس في الأسرة، فإن حصل الاستحواذ على عقلها و سلخها من معتقداتها الدينية، فإن النجاح في ضرب الأسرة لا محالة حاصل" بسقوط الأم الزوجة و المرأة تسقط الأسرة ويتراجع الجوهر الإنساني المشترك، ويصبح كل البشر أفرادا طبيعيين، لكل مصلحته الخاصة و قصته الصغرى الخاصة، كل إنسان مثل الذرة التي تصطدم بالذرات وتتصارع معها"². لذلك سلط النظام العالمي الجديد الضوء على قضاياها، وزاد اهتمامه بحقوقها، من خلال المؤتمرات الدولية المنعقدة باسمها، والتي توظف كوسائل لتمير النموذج العالمي المعولم للمرأة.

و تهدف هذه المؤتمرات إلى إرساء قواعد كونية تحكم السلوك البشري وتضبطه سواء على المستوى الفردي أو الجمعي ضمن إطار الأسرة باسم العالمية و المجتمع الدولي، متجاهلة الخصوصيات الثقافية للشعوب، عن طريق فرض النموذج الاجتماعي الغربي على العالم، وهي بهذه النماذج المنمطة لا تراعي في تشريعاتها القانونية لاختلاف و التباين الثقافي بين المجتمعات. فالتوصيات الناتجة عنها هي مواد قانونية تلزم الدول الالتزام بالتطبيق الحرفي لنصوصها، وتفرض العقوبات الصارمة على الدول الممانعة و المخالفة لقراراتها. لكن القائمين علي هذه الاتفاقيات يدعون أن بنودها قد سطرت باتفاق

¹-عبد الوهاب المسيري: قضية المرأة بين التحرير.. والتمركز حول الأنثى، مرجع سابق، ص36.

²-المرجع نفسه، ص30.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

و إجماع عالمي، وبإشراك مختلف التمثيلات الحضارية المتباينة والنظم القانونية و الدينية، في حين أن نصوصها تتعارض مع الفطرة الإنسانية السليمة ومع الدين الإسلامي و العادات و التقاليد، بل و تلزم المسلمين و الدول المعارضة على تطبيق ما جاء فيها. وقد أدانت هيئة كبار العلماء المسلمين هذه المؤتمرات لمعاداتها الإسلام والفطرة الإنسانية، و لما فيها من إباحية وسفور.

من شاكلتها المؤتمر العالمي الرابع للمرأة، المنعقد عام 1995 في بكين عاصمة الصين برعاية الأمم المتحدة، أكد هذا الأخير على جملة من البنود التي تتعارض مع التشريعات السماوية و الفطرة الإنسانية، لعل أشدها خطرا هو "فتح باب الحرية الجنسية خارج العلاقة الزوجية، ومن ذلك السماح بحرية الجنس، و التتفير من الزواج المبكر، والعمل على نشر وسائل منع الحمل، والحد من خصوبة الرجال، وتحديد النسل و السماح بالإجهاض المأمون، والتركيز على التعليم المختلط بين الجنسين تطويره، إلى جانب التركيز على تقديم الثقافة الجنسية للجنسين في سن مبكرة، وتسخير الإعلام لتحقيق هذه الأهداف"¹.

وفي نيويورك عام 2000 انعقد مؤتمر الأمم المتحدة للمرأة: المساواة و التنمية والسلام في القرن الواحد والعشرين، وتضمن ما يلي:

- الحرية الجنسية للمراهقين والمراهقات، والتبكير بها مع تبني مفهوم "عاملات الجنس"، وتشجيع جميع العلاقات الجنسية خارج إطار الأسرة الرسمية (الشرعية)، وتهميش دور الزوج في بناء الأسرة.

¹ - نعيمة غالية: تداعيات منظومة القيم الغربية الاستشراقية على المنطقة الغربية في ظل استراتيجيات العولمة الثقافية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية والعلاقات الدولية، كلية العلوم السياسية والاعلام، جامعة الجزائر، 2006-2007، ص246.

- إباحة الإجهاض.

- تكريس المفهوم الغربي للأسرة، وأنها تتكون من شخصين يمكن أن يكونا من نوع واحد.

- تشجيع المرأة على رفض الأعمال المنزلية بحجة أنها أعمال دون أجر.

- المطالبة بإنشاء محاكم أسرية من أجل محاكمة الزوج بتهمة اغتصاب الزوجة.

- إباحة الزواج المثلي، بل الدعوة إلى مراجعة ونقض القوانين التي تعتبر الشذوذ الجنسي جريمة.

- فرض مفهوم المساواة الشكلي المطلق والتماثل التام بين الرجل والمرأة في كل شيء بما في ذلك الواجبات كالعامل و حضانة الأطفال و الأعمال المنزلية، والحقوق كالميراث.

- المطالبة بإلغاء التحفظات التي أبدتها الدول الإسلامية على وثيقة مؤتمر بكين¹.

تكنم خطورة هذه المؤتمرات في أنها تستثمر أدبيات العولمة، وتسعى إلى عولمة الحياة الاجتماعية بالمفهوم الغربي. فباسم الحرية و"حقوق الإنسان استبيحت العلاقات الجنسية بدون عقد قانوني، وأبيح الشذوذ الجنسي بنوعيه، والأسرة ذات العائل الواحد، والزواج من ذات الجنس، وهناك دعوات لإباحة المخدرات مما يعد من الحقوق الفردية للإنسان، وقد انعكست هذه الرؤية على البناء الاجتماعي و العلاقات بين الأفراد المجتمع والسلوك العام"². وقد تنجح هذه المؤتمرات في اختراق جدار الممانعة والصد وتحقيق مآرب العولمة الثقافة، إن هي استطاعت تغيير العالم الداخلي للمرأة وسلخها من مقوماتها

¹ - المرجع السابق، ص 249.

² - سعيد حارب: الثقافة والعولمة، دار الكتاب الجامعي، ط1، العين، الإمارات العربية المتحدة، 2000، ص 33.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

و عاداتها وإعادة هندسة فكرها وذوقها ووجدانها، فغالبا ما تقع المرأة فريسة للتضليل و للتأثير الساحر التي تمارسه هذه الأخيرة بوعدها بحياة وردية تعيش فيها بحرية و عدالة، فتخلق لديها وعيا اجتماعيا و ثقافيا زائفا عن الحب و المتعة و الجمال و الحقيقة والحياة و التحضر إلى درجة الإسفاف، فيسهل بذلك ضرب النظام الأخلاقي و منظومة القيم و الأعراف الدينية والثوابت و المقدسات وإفقادها سلطانها، ومن ثم إشاعة الفاحشة و الرذيلة في المجتمعات وتحويلها إلى قطيع منقاد لغرائزه، متحلل من أي التزامات أخلاقية وأسرية أو اجتماعية، ولا عجب في ذلك لأن مفهوم الحرية انحصر في تتصل الإنسان من أية سلطة تقهره وتقهرو وجوده باعتباره سيد الكون.

إن الهدف من عولمة السياسات المتعلقة بحقوق المرأة والأسرة عن طريق المؤتمرات هو هدم الأسرة من خلال تحرير الجنس و الإباحية و الشذوذ بدعوى أنها أكبر العوائق التي تعرقل طريق التحضر وتقوض حرية المرأة، لأن الرجل يمارس سيطرته عليها من خلال هذه المؤسسة الاجتماعية، إلى جانب إفساد المرأة تحديدا باختراق وعيها واستغلالها في الإثارة الجنسية و المتاجرة بها، عن طريق تفرغها من عقيدتها و تمييعها و مسخ هويتها و قيمها لتصبح نسخا مكررة عن غيرها، مستغلة وجودها الضعيف في المجتمع الذي قد يحدث ثغرة كبيرة في بنيته ويسهل اختراقه خاصة في غياب رؤية إسلامية معاصرة.

الأسرة التقليدية في نظر العولمة والداثيين نظام رجعي، خلافا للاتصال الحر و الجنس المفتوح الذي هو النظام الفطري. ومفهوم الأسرة حسب ما يشرعه الدين و العادات و التقاليد مفهوم عقيم و قيد على الحرية الشخصية، لأنه يرفض العلاقات خارج إطارها الشرعي و القانوني، ولأنه يتمسك بالأدوار النمطية للأمومة والأبوة. وحسبهم إن الأسرة نظام من وضع المجتمع و ليست من طبيعة البشرية، إنما هي وليدة العقل الجمعي، لذلك نادوا بتفكيكها و تقويض أسسها الدينية و ركائزها الاجتماعية، متأثرين

بالفلسفة المادية التي "أخذت تذيب دعواها المضادة للقيم التي جاءت بها الأديان و الشرائع السماوية، معارضة بها كل قيمة وكل مفهوم وخاصة في مجال الأخلاق والنفس و التربية وتنظيم المجتمع وعلاقات أفراده و نظام الأسرة. وكان أبرز هذه الدعوات: الفرويدية والوجودية"¹. التي تضع اللذة كغاية قصوى للفعل الإنساني، وترى أن السعادة لا تكون إلا في إرضاء الهوى و عبادة الذات " فالإنسان في نظرها يجب أن يستمتع بوجوده كل الاستمتاع، ويطلق لحرسته العنان، فيحقق لنفسه أكبر نصيب من المتع و الملذات، باعتباره إله نفسه وسيد كيانه."².

ويتأكد هذا الطرح في رسالة بعث بها واسيني إلى عشيقته مريم المتزوجة، جاء فيها: "زاد يقيني بأن أكبر حماقة نمارسها هي الزواج (...)", ربما كانت الحرية أولى و أهم هذه الخسارات، قد تبدو علاقاتنا الفوضوية والهامشية حالات مرضية و خيانات نستحي من ذكر اسمها، ولكنها تحديدا إصرار يئس من أجل استرداد حرية افتقدناها قبل سنوات"³، اللحظة الوحيدة التي تجد فيها نفسها صدّقت مريم هذا الفكر المنحل، وأصرت على الاستمرار في خيانة زوجها، و إتيان الفاحشة مع عشيقها المتزوج بدوره، دون رادع ديني أو أخلاقي أو اجتماعي، واعتبرت زواجها الشرعي مجرد "ورقة ذابلة مثل قلبيهما، وزنا تمارس كل ليلة على مرأى القانون والله و البشر، باسم وثيقة عاجزة عن توفير قبلة صادقة"⁴، فاللحظة الوحيدة التي تجد فيها" نفسها ولا تشعر فيها بأنها مومس، هي عندما تخرج عن النظام المفروض عليها من فقهاء الزنا."⁵. لذلك ترفض تكوين أسرة تسكن إليها و تحقق فيها أمومتها" أنا لا أريد الزواج منك، أريد فقط أن أحبك كما أشتهي، كأية امرأة

¹ - أنور الجندي: قضايا العصر ومشكلات الفكر تحت ضوء الإسلام، المرجع السابق، ص 82.

² - المرجع نفسه، ص 93.

³ - واسيني الأعرج: أنثى السراب ، ص 33.

⁴ - المصدر نفسه، ص 62.

⁵ - المصدر نفسه ، ص 63.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

شجاعة تريد رجلا تحبه"¹، لأن الزواج في نظرها " مؤسسة لا تختلف عن بقية المؤسسات الأخرى، التي لا تعمل إلا على تغريب عواطفنا و تعليبها و التصديق بالكذبة الجميلة التي نبتدعها باستمرار"². وتجزم أن البلاد التي تقننه بوثائق رسمية هي " بلاد متخلفة، شرط الإنجاب فيها مربوط بوثيقة"³. ونجدها تشجع عشيقها على الحرية الجنسية و الانفلات من الالتزامات الشرعية "اذهب في جنونك إلى أقصاه، ولا ترهن حياتك بزواج تافه، أو امرأة تستعبدك باسم ورقة لا تساوي الحبر الذي كتبت به الأمر لا يستحق."⁴. و الحب حسب رؤيتها" هو القدرة الخلاقة على تخطي الحدود التي ترسمها الأعراف و الأديان، وإلا سيكون عاديا ولا يتجاوز لحظة التفريغ المعتادة حيث تستقيم رغبات البشر على خط مستقيم."⁵. انطلاقا من إيمانها أن " الحواس التي لا توقظ تموت مع الزمن مثل الكائنات الحية. تحتاج الحواس البشرية إلى من يشعرها من حين لآخر، بأنها ما تزال حية، وتستحق أن تعيش وتوقظ من غفوتها"⁶، " إن أيّ جسد نائم يحتاج لأن يوقظ، وأن لا يترك نائما مدة طويلة، وإلا سيتحول إلى شيء شبيه بالجنّة الهامدة؟ عليك أن تساعدني في إيقاظ جسدي."⁷. لقد انقلبت المفاهيم، وأصبح الزواج الشرعي خطيئة وكذبة، وكذبة، وباتت الخيانة مرادفا للعفة و الطهر، أما الجري وراء نداءات الجسد وشهواته، فهو الحرية بعينها، وصمام أمام الوجود والاستمرار.

لقد أضحت المحظورات والخيانة الزوجية حقوقا و أفعالا مرغوبة و مسوغة باسم الحب واللاتوافق الروحي بين الزوجين "سيغني قتلة الروح عني كثيرا: مجرد فاجرة محظية

¹ - واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص 309.

² - واسيني الأعرج: أنثى السراب، ص 123.

³ - المصدر نفسه، ص 392.

⁴ - واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص 57.

⁵ - المصدر نفسه، ص 52.

⁶ - المصدر نفسه ، 247.

⁷ - المصدر نفسه ، ص 312.

محترفة؟ تركت فراش العفة وذهبت نحو فراش الدعارة؟ مساكين لا يدرون بأن أكبر دعارة نمارسها هي عندما ننام مع إنسان ونحن نفكر في غيره، فأنا لست عفيفة إلا معك و بين ذراعيك"¹، لذلك تكررت اللقاءات الجسدية بينهما، كلما سافر زوجها رياض في رحلاته التجارية "لن يعود إلا بعد أسبوع مستعدة أن أمارس معك كل الخيانات الصغيرة و الكبيرة و كل المعاصي، بدون أدنى تردد أو ندم، امنحني فقط فرصة البقاء معك أكثر"²، " نقضي الليل في المراقص، ألتصق بك(...)، كانت موسيقى فوستو تمنحنا هذه الشهوة الكبيرة للذهاب إلى أبعد من رقصة سلو جميلة و هادئة، كأننا كنا نخاف أن تسرق الحياة منا، وقد نقضي وقتا طويلا في أجمل بارات المدينة، كنت أشتهي الويسكي، وكان اليمونشيللو الإيطالي الذي فتحت عيني عليه يجلاني بالخراب الجميل."³، "أريد أن أتلذذ بكأس روم يرجع لي حرارتي التي خسرتها لكي أحبك أكثر، أريد أن أحس بذلك المهبول الذي اسمه جان بول سارتر و تلك المهبولة سيمون دو بوفوار، اللذان عرفا في وقت مبكر أن أبخس مصيدة للبشر هي الزواج"⁴، "كل شيء مارسناه ونحن في قمة الرغبة المحمومة بالتكرار، ولم نشبع يوما من بعضنا البعض، كلما التقينا شعرنا بأن الجوع الذي فينا أكبر من أية قوة بشرية"⁵. لقد " شعرت عندما دفنت رأسك في نهدي و جسدي في جسدك في آخر الليل أننا انتقمنا لمائة سنة من الذعر الخفي، ربما لقرون من الصمت و الكذب"⁶.

¹- واسيني الأعرج: أنثى السراب، ص 117.

²-المصدر نفسه، ص 119.

³-المصدر نفسه، ص 156.

⁴-واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص 414.

⁵-واسيني الأعرج: أنثى السراب، ص 335.

⁶-المصدر نفسه، ص 71.

وتمادت مريم في غيها و شططها حين تمننت لو أن بيدها قلب الأحكام الشرعية و تغييرها بما يتوافق وهواها " أشتهي لو كنت أسن القوانين، أن أغير نظام هذه الكذبة التي نعوم فيها جميعا، أن أقبل بالحل الوسط ما دام الزواج مجرد عقد، ليتفق الاثنان المرأة و الرجل معا على احترام الرباط الذي سيصبح مقدسا، ولكن شرط احترام البنود، وربما كان أهمها حرية تحديد مدة الزواج. خمس سنوات مثلا ؟ عشر؟ أو حتى خمسة عشر ؟ ولتوضع داخل خانة العقد جملة مكتوبة بشكل نافر و مميز: عقد قابل لتجديد في حالة واحدة، تراضي الطرفين".¹ فمتى كان الزواج ذلك الميثاق الغليظ و الرباط المقدس الذي يحفظ كرامة المرأة وحقوقها وينظم الغرائز البشرية مجرد كذبة وعقد قابل للتجديد؟!، ألا يتفق رأيها مع ما جاءت به " النظرية النفسية الفرويدية المادية التي ترى كراهية القيود التي فرضتها العقيدة على السلوك، وتعدّها كوابت للنشاط الحيوي "². وهل غاب عن وعيها أن الحرية من منظور إسلامي لا تعني التحلل من كل قيد، إنما هي انطلاق واع ومسؤول ضمن حدود أقرها الشرع، وأن العقيدة الإسلامية لا تكبت النشاط الجنسي البشري، وأن الإسلام لا يحرم الرغبة ولا ينكرها، ولأنه يساير الفطرة الإنسانية وضع التكاليف لكي ينظمها ويضبطها في نطاق الشرع والأخلاق، ويحول دون الإسراف فيها اتقاء للاضطرابات، و تحقيقا للتوازن النفسي والعصبي، وحفاظا على بقاء المجتمعات و النوع الإنساني، إن "الزواج ليس اتصالا حيوانيا بين ذكر و أنثى لإشباع الرغبة والاشتهاء الغريزي، لهذا قامت كوابح الآداب و ضوابط الشرائع و العقائد. جاء في سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾³، ففي جملة (من أنفسكم) " لمسة

¹-المصدر السابق ، ص32..

²-أنور الجندي: قضايا العصر ومشكلات الفكر تحت ضوء الإسلام، مرجع سابق ، ص106.

³-سورة الروم، الآية21.

تمس شغاف القلب، وتذكر بما في الزواج من قربي تجعل الزوجة قطعة من النفس، ثم أردف ذلك بالسكن، وما أقرب في هذا الباب من سكينه النفس، لامساكنة الأجساد، بدليل ما أدلف ذلك من المودة والرحمة، وتلك عليا مناعم المعاشرة الإنسانية، بما فيها من غلبة الروح على نزوات الأجساد و دفعات الرغبة العمياء، فالزواج مطلب نفسي و روعي عند الإنسان، وليس مطلبا شهويا جسديا، وإن كان له أساس جسدي¹. إنه تشريعات إيمانية و عبادة و أخلاق و هداية. ليس الغرض منها تقييد حياة البشر، لأن التحريم مرتبط بدفع الضرر.

لقد طالت مريم بسخريتها الجهات الوصية على تطبيق أحكام الشريعة السمحة وحفظه التوازن الأخلاقي و القيمي في المجتمع الجزائري " أعلم جيدا أن سدنة الشرع وحراس ميزان الأخلاق و جمعيات الحفاظ على العائلة و مؤسسات استمرار صفاء النسل النازية، وكذبة الأمة الميامين، وجمعيات الرفق بالحيوان...سيطالبون كلهم بحرقى، أو وضع رقبتى داخل أنشودة مشنقة"². وتقصدت التهكم و التنديد بالدين و تقاليد المجتمع و أعرافه ووسمتها بالمريضة و البالية، لأنها لا محالة سترفض يونس ثمرة الفاحشة "لا أعتقد أن يونس عندما يكبر قليلا يتحمل عيون القتل المحيطين به والمدججين بالدين و السياسة و التقاليد المريضة. لن ترحمني القبيلة التي ينتمي لها والدي، لأنى أفست نسلها و أدخلت عليه ما ليس منه، ولا قبيلة زوجي المفتخرة بنقائها العرقي، الذي أدخلت عليه جينات غريبة"³. ألم يأت على مسامعها و يمر على فكرها أن الزنا كبيرة ومن الموبقات؟، وفيه تعد صارخ على الحقوق و النواميس الأخلاقية، و أنه هدر لماء الحياة في غير موضعه، وجريمة في حق ضحية، وفيه أيضا ضياع للأنساب واختلاط

¹ عماد الدين خليل عمر: المرأة والأسرة المسلمة من منظور غربي، ط1، التفسير للنشر والإعلان، أربيل، العراق، 2008، ص ص57-58.

² واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص254.

³ المصدر نفسه، ص467.

للدماء وذهاب للثقة في العرض و الولد، ما يجعل الأسرة تبعة لا داعي لها.؟، فسعيها المحموم وراء رغباتها غشى بصيرتها وأعمى عينيها عن إدراك حجم الفاحشة والمنكر الذي ارتكبه وتقدير النتائج الوخيمة" لم تكن تهمني النتائج. كنت أتدحرج بحذر بين رياض و حبي لواسيني، متفادية لغما خطيرا، كنت كل يوم أحاذيه بخوف، اسمه الخيانة الزوجية، صحيح أن مخي كان فارغا تماما من فكرة الخيانة الزوجية، فأنا في النهاية ظللت وفية لرجل واحد "1. "كنت أريد أن أشبع من واسيني، وأن أمنحه الصبية التي اشتهينا مجيئها، وتحت أجمل سماء و أنعم غابة وأدفتها، وضعنا أول بذرة لما سيكون مايا"2. مايا" مكسبي الكبير من رحلة الخوف هذه، حبيبي مايا التي وضعت لمسة المعنى "3. "لم أكن مهتمة لا بوخر الضمير ولا حتى بالخوف من ضجيج الناس"4، "لم تكن تهمني النتائج."في البداية كنت أخاف من الحمل منك، ولكن مع تكرار الجنون لم يعد شيء يهمني، بل صار يهمني أن أحمل منك.اشتھيتك أن تبقى في، وأن لا تتسحب، ولن أشعر أبدا بالندم تجاه ما فعلته معك."5. "و" لو يقدر لي أن أعود ثانية إلى مدينتي، سأرتكب الحماقات نفسها، و سأحبك كل يوم أكثر وسأنجب منك في خواتم الشهوة أجمل الأطفال و أحلامهم"6. وحسبها أن فعلهما الشنيع هو "لحظة جنوننا التي أثمرت مايا كانت أصدق شيء في علاقتنا "7، وأن مايا ثمرة الخطيئة" أجمل مخلوقة في صورة بهاء الآلهة"8، "سوسنتي الجميلة ورهاني الكبير في الحياة، على رياض وواسيني أن يضعها

1- واسيني الأعرج، أصابع لوليتا، ص423.

2- واسيني الأعرج: أنثى السراب، ص218.

3- المصدر نفسه، ص232.

4- المصدر نفسه، ص218.

5- المصدر نفسه، ص126.

6- المصدر نفسه، ص228.

7_ المصدر نفسه، ص233.

8- المصدر نفسه، ص211.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

في قلبيهما، بفضلها ما زلت قادرة على العيش بينهما، ومنح بعض السعادة لكل منهما، كلما استطعت إلى ذلك سبيلا.¹

وكمثال آخر للانحراف الفكري و العقدي، نذكر الرمزية التي لحقت بالحقيبة اليدوية "دالي"، صنعها مصمم الحقائق اليدوية سلفادور دالي لحبيته غالي، هي "أكبر من مجرد حقيبة يدوية، كانت تعبيراً عن الحب الكلي. ليس لغالا وحدها، ولكن لكل امرأة عاشقة"². لقد "أصبح حبهما محمولا بين كل الأيدي العاشقة."³، " فمن وراء هذا الجنون، يتخفى الحب الحقيقي والهوى، وشيء يصعب لمسه شبيهه بالعواطف الشفافة."⁴. لقد ألهمت هذه الحقيبة الرمز صاحبها و المصممين، فأخرجوا تشكيلات عديدة من الأصل، فصلت على الجلد بأنواعه، عرضت بأرقى دور العرض، وبيعت بأغلى الأثمان. لكن من تكون غالاً؟ هي امرأة جميلة من أصول كازانية روسية تركت زوجها و ابنتها، وهربت مع دالي الذي التقته في احتفالية، "في ثلاثة أيام كان كل شيء قد انتهى، تركت زوجها و ابنتها واختارت أن تبقى مع دالي. في 1958 الأمر لم يكن سهلاً وقتها من الناحية الأخلاقية بالنسبة للمرأة."⁵.

أن تسوى الخيانة والأناية بالحب هذا أمر غير أخلاقي ومرفوض تماماً، والأكثر ضلالاً ولاعقلانية أن يصير هذا النوع من العلاقات اللاشعرية رمزاً للحب، وأن يوصف بأنه "جنون وانتماء كلي للآخر، عندما يكف على أن يكون كذلك، يكون قد مات."⁶ إنها "قيم مادية تغيب النوازع العليا في الإنسان وتستهدف كرامته و إنسانيته وتغفل

¹-واسيني الأعرج: أنثى السراب، ص223.

²-واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص290-291.

³-المصدر نفسه، ص293.

⁴- المصدر نفسه، ص292.

⁵- المصدر نفسه، ص291.

⁶- المصدر السابق، ص293.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

حقيقة أنه كينونة جوهرها الروح و العقل.وتحتفي باللذة الغاية القصوى للفعل الإنساني، وتختزل السعادة في إرضاء الهوى، فحسب فرويد" أن الإنسان في جوهره حيوان كباقي الحيوانات، وأن غرائزه وميوله الفطرية و حاجاته العضوية هي الأساس المادي الصلب لسلوكه في الحياة، غير أن ضرورات الحياة الاجتماعية ما وصحبها من ديانات و فلسفات أخلاقية، قد حتمت تنظيم هذه الغرائز و الميول وإخضاعها لقيود لا مفر منها.¹، لذلك ينبغي له أن يتمتع بوجوده كل الاستمتاع ويطلق لحيته العنان.

شرب الخمر المحظور شرعا أصبح مشروبا روحيا للانتشاء وخفة الروح وحلاوتها، والتوجه إلى البارات في أوقات متأخرة من الليل أضحى أمرا عاديا، فكثيرا ما قصدت ياما رفقة صديقها ديف، بار المركيز دو صاد الذي غير اسمه إلى بار أبي نواس لشرب التانغو و الرقص وترديد أغنية:"في بلادنا نحب الرقص ونكره الحرب أيضا، ونحب التانغو كثيرا، التانغو ليس للأقوياء فقط، نشرب بيرة تانغو ننتشي، ونرقص مع الأشباح على جسر الموتى"²، تسلية ياما مع الفنانين في البار و شرب التانغو رفقتهم أمر لا ضير فيه، فهم في النهاية مجرد أصدقاء يتشاركون الفشل والهم الفني، لقد طلب نور الدين أحد كتاب المسرحيات ثلاث قارورات من تانغو لحظة انتظار وصول فاوست (الكاتب المسرحي)من إسبانيا إلى قاعة الأطلس لتقديم مسرحيته الشهيرة لعنة غرناطة، وأثناء ذلك تحدثا عن خيبياتهما وآمالهما وواصلوا الشرب دون توقف:" تانغو أخرى، اشربي، اليوم خمر و غدا أمر أيضا ههههه، كل الناس الحيط حيط، حشية طالبة معيشة، ليكن أنا هنا حي، والحمد لله، سكرة وفكرة و تركزية مع الدروج"³.

¹ - مالك بن نبي: مشكلات الحضارة، مشكلة الأفكار فيا لعالم الإسلامي، تر: بسام بركة وأحمد شعبو، تقديم: عمر مسقاوي، دار الفكر المعاصر، ط1، بيروت، لبنان، 1988، ص60.

² -واسيني الأعرج: مملكة الفراشة، ص174

³ -المصدر نفسه، ص367

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

إن تقديم المرأة في صورة الغانية والخائنة، والغاوية والسافرة المستهتره هو الملموس في غالب روايات واسيني الأعرج. فايفا، لوليتا، مايا، ماجدالينا، مريم، غالاً... هي في ظاهرها وإن كانت تدافع عن حرية المرأة، إلا أنها تسيء إليها، فبعد أن كانت المرأة مطلوبة ومرغوبة من طرف الرجل، صار هذا الأخير مشتهى لإشباع غرائز هي أقرب إلى الحيوانية منها إلى الاتصال الروحي الفطري، لقد ورد على لسان مارينا في وصف مترجمته إيفا "لا تتوقف عن ترديد جملتها الدائمة: مارينا يجب أن تحذر مني حبيبي، لست جرمانية في الفراغ، العمل عمل، ووقت الفوضى و الهبل لن أكون أقل منك جنونا"¹، "رتبت كل الأمور لقد حجزت غرفة لنا مثلما اشتيتها، لن نعيش إلا مرة واحدة. السويت في الطابق الثالث، مطلة على أجمل شارع في الدنيا."². وهو الحال مع ماجدالينا "كانت أول من اخترق عذريته بلذة لم يذق طعمها من قبل أبدا"³، "اشتيتك مثل المجنونة. أنت لم تر إلا أصابع يدي، وأنا كل ليلة أراك بكل طولك و أتحسس أناملك (...)، اليوم تجرأت." ⁴. ومنه صورة الشخة الرميتي التي انتصر لها الكاتب ودافع أغانيها المنافية للدين و الأخلاق و الآداب العامة "سرقوا منها حقها في التعبير الحر، التعبير عن الحب، وعبث الحياة، واللذة المسروقة والسخرية من النفاق الاجتماعي المستشري (...)، ولكن الرميتي مستضافة لتغني ألمها العميق، وسنعرف كم ما تزال تلك النخلة العظيمة حية"⁵.

هذه الأمثلة وغيرها كثير في نصوص واسيني الأعرج شهادات حية على أن ثقافة العولمة تنتج " في وعي الناس ثقافة أو قيم ثقافية لا صلة قوية بينها و بين النظام

¹-واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص17.

²- المصدر نفسه ، ص ص423-424.

³- المصدر نفسه ، ص62.

⁴-المصدر نفسه، ص52.

⁵-واسيني الأعرج: أنثى السراب، ص160.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

الاجتماعي الذي ينتمون إليه، عبر أفكار و قيم جديدة، ليست من رحم تطورهم الاجتماعي الطبيعي، مما سوف يعرض مجتمعاتهم إلى بعض الخلل في مستويات السلوك و الأخلاق و البنى الاجتماعية.¹ وأنها ثقافة دخيلة تستهدف الثقافات التقليدية وتناقض المستقرات الوطنية والجمالية، وتخالف ثوابتها الأخلاقية والثقافية، ولا تناسب مطلقا خصوصياتها التاريخية الاجتماعية. إن اختراق هذه الخطوط الدفاعية هو أشد خطورة من الاختراق السياسي و الاقتصادي، إذ التحريض الدائم على الرغبة في تجاوزها و التحرر منها، لامحالة سيحولها تدريجيا إلى مطلب مألوف ومحبوب، ثم إلى أفكار نقبلها وإلى سلوك نمارسه دون حرج.

و في المنجز الروائي للكاتب سيولة جنسية، تراوحت بين الفصحي و العامية بعيدة عن الرؤية الحضارية لمفهوم الجنس كمطلب إنساني راق، فضلا عن تحريره من جرم التأميم و التحريم. " يأتي الحديث عن الجنس بألفاظ جد مكشوفة تركز على عورات الفرد المغلضة التي تدفعنا إلى أسئلة عدة، منها: لماذا استعار الروائي هذه الألفاظ بالذات دون غيرها، بينما كان للمشهد أن يمر بغيرها ؟ هل جاءت جزءا من مشروع قصده الكاتب بالذات قصد هز القارئ العربي في أدق خصوصياته ؟ أم أنها مجرد مُتَع وهمية وهبها الكاتب مجانا للقارئ المقموع."²

ولا يخفى على أحد أن الفردانية قد باتت تشكل في الفكر الغربي محورا مركزيا للحياة والفكر والروح، وفي ظل سقوط الحواجز الفكرية و الدينية و تآكل العقيدة وهشاشة المعايير الأخلاقية، تجرد الإنسان من بعده المعنوي واختزل في بعده المادي. وصار " تدريجيا إنسانا فردا لا يفكر إلا في مصلحته ولذته، ولا يشير إلى الذات الإنسانية، وإنما

¹-عماد يونس: العولمة، تاريخ، أبعاد ومؤثرات على العالم العربي، بحث في التاريخ السياسي، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، 2005، ص163.

²-سيليني نور الدين: تيمة الجنس في خطاب الروائي واسيني الأعرج، المرجع السابق، ص413.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

إلى الذات الفردية¹. ولم تسلم الروابط الأسرية من تأثير الثقافة المعولمة، حيث اضمحلت العلاقات الأسرية وتراجعت سلطة الأبوين، وبات ما كان مقدسا في الثقافات المحلية أمرا مباحا. وقد مس هذا الواقع الأسر الجزائرية التي وقعت ضحية له، و تزعزعت نظمها المركزية، وفقد كثير من الأولياء سلطتهم على الأبناء، وضعفت رمزية الأحكام الشرعية، لقد اختارت ياما ديف اليهودي الأصل حبيبا لمدة طويلة، دون تقدم واضح في علاقتهما، وكلما سألتها والدتها عنه و عن أصوله و معتقده، تشابكت معها واعتبرت الأمر حرية شخصية " يما تعجبك ما تعجبكش، حياتي و تخصني وحدي، وأنا أمك ؟ وإلأخضرة فوق طعام؟ أنت أومي. نقطة إلى السطر."²، و حين سألتها عن دينه أجابت: " لم أسأله ولست مهتمة، ولا أعتقد أن الأمر يهمه، هو مثل جده و أبيه شيوعيون ثوريون كلهم، ولا أعتقد أن الدين يشكل هاجسا لهم، أكثر من كونه خصوصية فردية، جده مات على هذه الأرض بعد أن جاء إلى وهران هاربا من مجازر فرانكو، كان مع الجمهوريين، تمنى أن يدفن في مقبرة إسلامية مع الناس الذين استقبلوه وعاش بينهم و أحبهم و أحبوه، ولكن إماما صغيرا يتحكم في أنفاس الحي رفضه"³.

وبتكريس الحرية و الفردانية، فقدت الأسرة قدرتها على الاستمرار كمرجعية قيمية و أخلاقية و تراجعت العلاقات الأسرية بين أفرادها، كما خبا الحس بالمسؤولية و الواجبات و فقد معنى المشترك و الجماعة، وأصبح لكل فرد في الأسرة حياته الخاصة و حرته التي لا سلطة لأحد عليها، عائلة السي زوبرير مثال على التمزق والأنانية والبرود العاطفي الذي أصاب الأسر الجزائرية ضحايا ثقافة العولمة، حيث سافرت ماريا الأخت الصغرى لياما بعيدا إلى مونتريال بعد مقتل والدها وتهديد ريان أخيها الأصغر مدمن

¹ - عبد الوهاب المسيري: قضية المرأة بين التحرير.. والتمركز حول الأنثى، ص 05.

² - واسيني الأعرج: مملكة الفراشة، ص 33.

³ - المصدر نفسه، ص ص 31-32.

المخدرات، اتصالاتها بعائلتها باتت شبه معدومة" طلقت ماريا أو كوزيت العائلة كلها منذ مقتل والدي، ولا يهتمها الآن إلا زوجها القريب من صديقها توماس الذي يشتغل معها، لا ترد على الرسائل العادية ولا حتى الفيسبوك، من حين لآخر تبعث لنا رسالة تليفونية قصيرة هاربة¹، تطمئننا فيها، و تعيد نسخها في كل مرة. وحين بلغها نبأ وفاة والدتها، لم تكثرث و لم تحضر الجنازة، إنما اكتفت برسالة إلكترونية مسجلة، تعتذر فيها وتعرب عن أسفها، "وكانها لم تكن المعنية بما حدث، في الليلة نفسها كلمني بالهاتف مرة أخرى، الكلمة الوحيدة التي سمعتها منها جاءتني باردة كقطعة ثلج: أعتقد أنها ارتاحت من وضعية كان يمكن أن تستفحل أكثر فأكثر، لا نستطيع أمام الموت فعل أي شيء، الله غالب، ماتت كما يموت جميع البشر"²، و أضافت " تعبت كثيرا اتهمات"³. في اتصالاتها الشحيحة، ترجّتها مايا مرارا بأن تقف على قبر أمها للترحم عليها، لكنها رفضت بحجة أن هذا الفعل لا يعيد الحياة للميت. لم تستطع ماريا مسامحة أمها التي انتصرت لبقاء ريان ابنها مدمن المخدرات، عقب تهديده لها بالسكين طالبا المال " ما نسمحش، لقد رممتي مثل القشرة الزائدة، هيمن دفع بي نحو مغاوير جهنم الباردة، اختارت ذكرها على حسابي"⁴. وشمل رفضها القاطع رغم محاولات مايا المتكررة زيادة أخيها رايان القابع في السجن بتهمة القتل العمدي، وهو على وشك الجنون ولا يعرف بوفاة والدته، لم تصرف مَلِيماً واحداً من النقود عليه، بل حرمته من الميراث بحجة أنه مجنون ولا حق له فيه. في حين أوصت وبشدة على نصيبها من الذهب من التركة التي خلفها الوالدان بعد وفاتهما " اسمعي ما تنسايش روحك، ذهب أمي ليس ملكا لك وحدك، سنتحاسب عندما أعود إلى البلد، الفريضة لن تتم إلا بحضوري، وعندما عادت نست أن تقف على قبر فيرجي، سألتني عن حسابات

¹ - واسيني الأعرج: مملكة الفراشة، ص 121.

² - المصدر نفسه، ص 212.

³ - المصدر نفسه، ص 183.

⁴ - المصدر نفسه، ص 212.

والدي، ووضعت أمامها كل الوثائق.¹ في الليلة ذاتها قسّمت التركة، قسوتها دفعتها لأخذ كل ذهب الوالدة، سلاسل وأساور كثيرة ذهبية متعددة الأشكال وحزام ذهبي ثقيل، عدا خاتمي الوالدين وخلائيل فضية تعود لجدتهم. أقنعت المحامي يوم الفريضة، وربما كان متواطئاً معها، وعادت إلى مونتريال.

خلاصة القول:

_ الأسرة هي الحزن الذي نكتسب فيه ونعدل ونوازن هويتنا الاجتماعية والإنسانية والتاريخية والقيمية، لكن هذا الدور تراجع بعولمة قيم الحداثة و ما بعدها، وظهرت أنماط أسرية جديدة تتأى عن الصفة الإنسانية. والأسرة المعولمة هي نمط أسري غربي يجرى تعميمه عالمياً، وفي استهدافها للأسرة تستخدم العولة المؤتمرات، التي تتبنى الرؤية الغربية للمرأة والجنس والعلاقات الأسرية، وتحاول تعميمها وفرضها على دول العالم، لصياغة نسق ملزم من القواعد الأخلاقية الكونية، ولإعادة الهندسة الاجتماعية للأسرة و المجتمع الإنساني عامة، وفق القوانين التي تفرضها عالمية المفاهيم الغربية، وبهدفانجاح هذا المشروع تقدم تمويلات ومساعدات مالية للجمعيات النسوية، وتبرم الاتفاقيات الدولية المتعلقة بإلغاء كافة أساليب التمييز ضد المرأة بحجة حماية حقوق الإنسان، و تلزم الدول بالتوقيع عليها مقابل إعفائها من الديون، كما تراقب تطبيقها الفعلي على أرض الواقع. وإن الهدف من عولمة الأسرة هو خلق كيانات تابعة للنموذج الأسري الغربي، من خلال تذويب الخصوصيات الثقافية صهر المجتمعات في بوتقة العولمة.

_عولمة الأسرة في إطار منظومة كونية هو تهديد واضح لأمنها و تعدي صارخ على خصوصيتها وأدبياتها، لأن استنساخ الرؤى الغربية بكل ما فيها من تفسخ و انحلال و انحطاط أخلاقي، كفيل بتحطيم الأسرة وإقرار العلاقات المحرمة و انتشار التحلل

¹-واسيني الأعرج: مملكة الفراشة، ص211.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

و السفور و الرذيلة و الممارسات الشاذة التي تهدد بقاء الجنس البشري. فالاستساخ الثقافي لن يمدنا إلا بمزيد من التشوهات الثقافية و التمزقات الأخلاقية. والقيمة، بسبب الضربات القاسية الموجهة ضد الأسرة، والعبث بكرامة المرأة حيث جعلتها سلعة رخيصة، وعبدا لشهواتها الحيوانية باسم الحب.

_ لم تكف الثقافة المعولمة بتعرية المرأة من لباسها فقط، إنما عرتها من إنسانيتها و كينونتها الاجتماعية والحضارية و الثقافية. وهمشت وظيفتها و سلبتها بعدها الإنساني وسققت طموحها و حولتها إلى أداة فاعلة في تنفيذ خطط العولمة عن طريق تقديم بدائل هي في ظاهرها حرية و أفكار نهضوية، لكنها في حقيقتها استعباد ورق واستلاب.

_ شخصية المرأة هي على الدوام سلبية مغتربة و ضائعة ورافضة، وهو دليل على الضياع و الاغتراب، وهي في هذه الروايات لم تكن سوى رمزا للضعف و الهشاشة و الانحلال الأخلاقي، غابت فيها صورة المرأة الإيجابية كزوجة و أم، تلك الشخصية الفاعلة في بناء المجتمع، وندر حضورها في روايات أخرى.

_ قد نتفهم أن معظم الناس يعيشون حياتهم بأكثر من مرجعية، قد تتناقض فيما بينها، فيمكن للإنسان أن يعلمن حياته الاقتصادية و السياسية بشكل كامل، لكنه يرفض تماما علمنة حياته الروحية والعقدية وإدارة حياته الخاصة وإخضاعها للمعايير المادية الصرفة، فنراه متمسكا بجملة من الثوابت الأخلاقية والإنسانية. فالمرجح أن قبول بعض جوانب النزعة الاستهلاكية و الثقافة الغربية المادية المسلعة يتزامن مع رفض قاطع لعلمانيته و إباحيته الجنسية و مواقفه تجاه الأسرة والنوع، ويرفض الإذعان للمنطق المتصلب من التغريب خاصة في المجتمعات الإسلامية.

_ الثقافة المعولمة وعولمة الحداثة التي تجتاح العالم هي في جوهرها هجوم على مفهوم الإنسان السوي، "والإنسان الذي يتحدثون عن حقوقه هو وحدة مستقلة بسيطة كمية

أحادية البعد، غير اجتماعية و غير حضارية، لا علاقة لها بأسرة أو مجتمع أو دولة أو مرجعية تاريخية أو أخلاقية، هو مجموعة من الحاجات (المادية) البسيطة المجردة التي تحدها الاحتكارات و شركات الإعلانات و الأزياء و صناعة اللذة و الإباحية¹، تعيش في عالم نسبي شديد التعقيدات، أفرغت فيه الأشياء من مضامينها وتساوت فيه قيمتها.

المبحث الثالث: الإطاحة بالمركزيات الكبرى، وزعزعة اليقينيات.

عرفت أوروبا ثورة علمية وفكرية وفلسفية ترتب عنها تطورات في شتى الميادين تعرف بالحدثة وعصر التنوير، انتصر عقبها العقل على اللاهوت وعلى سلطة رجال الدين، و فتحت الذات المفكرة الناقدة لنفسها مجالات من البحث والتفكير كانت ممنوعة من قبل، وأجرى بموجبها العقل الغربي نقدا جذريا وعنيفا ضد بعض الأفكار و التقاليد الموروثة، ومارس "الأول مرة سلطته في معزل عن السلطات الميثولوجية و الدينية، ولا يخفى أن هذا العقل قد عكف على نقد الواقع و الفكر معا، و بخاصة أنه قد سعى إلى تنقية الفكر من شوائب الانغلاق العقائدي بمظاهره الفكرية و الدينية، وهو العقل الذي منح قيمة للإنسان على حساب الطبيعة، والفرد على حساب المجموع".²

ونتاج هذا أصبحت أوروبا والغرب عموما بعد سيادة العقل والعلم والعلمنة، وإجراء فصل نهائي بين الجانب العقائدي الديني والجانب الحياتي الدنيوي نموذجا لسيادة قيم الحدثة والتنوير، وعبرت عن لحظة انتصار العقل على الأسطوري والديني والإيديولوجي، وأسست لنفي إطلاقية القيم وقالت بنسبيتها، إنها مرحلة سيادة الذات والعقل في الوجود باسم مركزية الإنسان فيه وسلطته المطلقة على مختلف المستويات، التي أفرزت واقعا

¹ - عبد الوهاب المسيري: قضية امرأة بين التحرير.. والتمركز حول الأنثى، ص11.

² - عبد الله إبراهيم: المطابقة و الاختلاف، مرجع سابق، ص340.

حضاريا مدنيا جديدا، قاعدته " الرؤية الذاتية للوجود، والنزعة العقلانية في المعرفة، والقول بالعدمية والنسبية في مجال القيم"¹.

المطلب الأول: القراءة الحداثية للقرآن الكريم.

تأتي ما بعد الحداثة كمقاربة فلسفية تناقض المفاهيم البنيوية القائمة على العقلانية و الثبات والحضور والأصل. فمسألة اللامركزية فيها مستمدة من المادية الجديدة السائلة و فلسفة الاستتارة التي تنكر فكرة المركز نفسها و مركزية الإنسان " كونها فكرا تقويضيا معاديا للعقلانية و للكليات سواء كانت دينية أو مادية، فكرا يحاول أن يهرب من الميتافيزيقا ومن مركزية الحقيقة وثباتها، ليرتمي بين أحضان الصيرورة"²، وباعتبارها خطأ حضاريا "يتعارض مع الخط التقليدي في التفكير و العمل، و يتناقض مع كل ملامح الثقافة التقليدية التي تعتمد في وجودها على الموروثات و المسلمات التاريخية من الأفكار و التصورات، سواء كانت سماوية أو من إنتاج الفكر البشري"³. وهي مقاربة تؤسس لعالم " تمت تصفيته و تطهيره تماما من المطلقات والمرجعية النهائية، فلا مركز ولا هامش، وإنما عالم أفقي متساو مسطح، لا يوجد فيه وضع خاص أو متميز لأي شيء - وضمن ذلك الإنسان-، ولذا فهو عالم خال من المعنى، ليس بإمكان الدال فيه أن يرتبط بالمدلول"⁴. ويرفض مفكروها " فكر التنوير وحدائته" وجميع السرديات الكبرى، التي قامت عليها الحضارة الإنسانية، ويشككون في جميع الصروح الفلسفية التي أقامها ديكارت و كانط وماركس و هيغل، ولا يقرون بموضوعية ما قام على المنطق من علوم وأفكار... ووفقا لهذا التوجه النقدي و التفكيكي، كان لا بد من أن يشمل تيار الرفض جميع

¹ - مسرحي فارح: الحداثة في فكر محمد أركون، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2006، ص43.

² - عبد السلام بوزيرة: طه عبد الرحمان ونقد الحداثة، جداول للنشر و التوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2011، ص90.

³ - المرجع نفسه، ص28

⁴ - عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية و العلمانية الشاملة، ص242

النصوص التي قامت عليها الديانات السماوية بوصفها هي الأخرى نوعا من السرديات الكبرى.¹

وقد تجلى تأثير هذه الفلسفة التقويضية في الفكر العربي و الإسلامي في انقسام المفكرين و الفلاسفة إلى اتجاهين: الاتجاه الأول، يرى في الظاهرة الدينية قدسية في حد ذاتها ضمن رؤية ميتافيزيقية جوهرائية، تؤمن بوجود كائنات روحانية مستقلة بذاتها و تمارس سلطة غيبية على بقية المخلوقات²، منطلقين من حقيقة أن المقدس ويقصد به التراث الديني، بما في ذلك القرآن الكريم، يمثل " نظاما ثقافيا و اجتماعيا يتجاوز حدود الواقعي والنسبي والمحدود، لينطلق إلى فضاء المتعالي المعجز، الخارق المفارق المطلق، الطاهر الكامل... الخ، بحيث يبدو في نهاية الأمر بأنه فوق بشري، فوق طبيعي، فوق الفهم، فوق المساءلة و النقد"³. وأكدوا أنه "يتكون من عدة عناصر، فيها ما يمكن عقلنته وإخضاعه إلى المنهج الفلسفي، وفيها ما يعجز العقل عن إدراكه ويتعذر على الفلسفة توصيفه، وذلك لبقائه ضمن دائرة السر الرهيب واللغز المتكتم، ولاندراج الحقيقة الإيمانية ضمن سجل غيبي، ونزول الحس الديني في مناطق مفارقة للتجربة الحسية و متعالية عن الواقع العيني والتصاقها بالإلهي و الروحي، واتصافها بالخلود و التآبد"⁴.

وأما الاتجاه الثاني " يتصف بالمادية ويتنزل ضمن إطار وجودي و إنساني، و ينفي عن الدين أي قداسة ويربط بروزه بقوة في الحياة البشرية بأصول طبيعية

¹ - عماد عبد الغني: سوسيولوجيا الثقافة، المفاهيم والإشكالية، ص224.

² - زهير الخويلدي: الفلسفة الدينية بين تحديات القدسي و استجابات السرد، ضمن سلسلة المقدس و السرديات الكبرى، تنسيق و تقديم الحاج أوحمنة دواق، سلسلة ملفات بحثية، الدين و قضايا المجتمع الراهنة، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات و الأبحاث، 18 أكتوبر 2016، ص30.

³ - حسن حماد: المقدس و الأمل، تراجميا الإله المخلص وتجلياتها في السرديات المقدسة، ضمن سلسلة المقدس و السرديات الكبرى، المرجع نفسه، ص64.

⁴ - زهير الخويلدي: الفلسفة الدينية بين تحديات القدسي واستجابات السرد، ضمن سلسلة المقدس و السرديات الكبرى، المرجع السابق، ص32.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

و رواسب نفسية لاواعية¹، وعليه، رفض بعض الفلاسفة والمفكرين ما بعد الحداثيين الطرح الماضوي في قراءة النص القرآني، و دراسة التراث العربي الإسلامي دراسة دوغمائية، وطالبوا بإعادة قراءة التراث المقدس، بما فيه القرآن الكريم قراءة حداثية لسانية، ونقد العقل الإسلامي " أنت الآن في سلم ما بعد الحداثة (...). أفهم فقط أن هذه الرؤوس التي نحملها على أكتافنا عليها أن تنفجر لأنها ملوثة، وعلينا أن ننبت مكانها رؤوساً أخرى"². كما أقرروا إمكانية إحداث قطيعة بين القراءات التراثية و القراءات الحداثية، ومحو خصوصية النص القرآني، من خلال فصل القراءات التفسيرية للقرآن الكريم عن الرؤية الإيمانية الاعتقادية، بحجة " أن الدوغمائية تعمل بعنف على إلغاء ومحو أي عقيدة أو تصور إيماني يخرج عن حلقة اهتمامها، و توصل العقل بروحها المنغلقة إلى سُدّة الممنوع أو المحرم التفكير فيه"³. كما رفضوا التصورات اللاهوتية و التفسيرات التقليدية التي ارتبطت بهما، ودعوا إلى القطيعة معها و العودة إلى منجزات الحداثة و التماس نتائجها وأدواتها، والاستناد على العلوم الإنسانية الغربية ومناهجها الحديثة كالسوسولوجيا والأنثروبولوجيا و التفكيكية و الأركولوجية و السيميائية و غيرها، لدراسته دراسة علمية بعيدا عن المثالية و نظرة لتقديس التي يطغى عليها طابع اليقين والتعالي، للفصل بين: "ما فرضه العقل الدوغمائي على تصوراتهم للماضي البعيد والقريب، وبين ما يفتحه الخطاب القرآني من آفاق عديدة متجددة للتفكير والتأويل و المعاني الاحتمالية والإبداعات الرمزية"⁴.

¹ - المرجع سابق ، ص 30.

² - واسيني الأعرج: أنثى السراب ، ص 68.

³ - ينظر: محمد أركون: الفكر الإسلامي، قراءة علمية، تر: هاشم صالح، ط2، مركز الانماء القومي، بيروت، لبنان، المركز الثقافي، الدار البيضاء، المغرب، 1996، ص ص 5 - 6.

³ - محمد أركون: قضايا في نقد العقل الديني، كيف نفهم الإسلام اليوم؟، تر وتعليق: هاشم صالح، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2000، ص 07.

واتخذوا من مسألة الأصولية والحقيقة الدينية الواحدة المطلقة موقفاً، وسعوا إلى "التعامل مع الآيات القرآنية بجميع المنهجيات والنظريات الحديثة قاصدة إلغاء الغيبية بوصفها عائناً أمام القراءة الحداثية، وإعادة تعريف النص الديني ذاته من خلالها، و التوسل بالمناهج المقررة في علوم القرآن و العلوم الإنسانية والاجتماعية ومنجزاتها، كالتفكيكية عند جاك دريدا و الأركيولوجية عند ميشال فوكو، عبر المقارنة اللغوية التي تسمح للباحث أن يتحرر من أسر النصوص الدينية وهيبتها، وتجعله يرى هذه النصوص على حقيقتها المادية، كونها كلاماً مدوناً في مادة"¹. وحثهم في ذلك أن الفكر الإسلامي حتى الآن " لا يمتلك الجهاز الفكري و لا المصادر أو الإمكانيات الثقافية و العلمية التي كانت قد تراكمت في الغرب تحت اسم الحداثة"²، وأن التصورات اللاهوتية و التفسيرات الكلاسيكية يلفها الجمود و السكون و التحجر العقلي، ويطغى عليها الطابع اليقيني المتعالي وهي " تقتصر فقط على علم النحو و علم المفردات و البلاغة و علم المعنى، وهي أدوات غير كافية، لكن الأدوات و المناهج المستحدثة في إطار الفكر الغربي، و الجديد على الوعي الغربي نفسه (والتي تحتل الأسنات منها مكانة بالغة)، من شأنه أن يثير فزع الخطاب الإسلامي و الهيئة الاجتماعية وخطر التضحية بكلام الله الموحى به في القرآن"³. لذلك أكدوا على المذهب الظاهري الذي يلح على التعامل العيني الملموس مع الظواهر اللغوية و الاجتماعية و الفكرية، وعلى إقصاء كل ما هو غير محايد للوعي، وركزوا على النص ذاته بعيداً عن كل ما هو خارج عنه حتى يتم فهمه من زاوية الوعي الخالص" إن المذهب الظاهري بتمسكه بظاهر الدلالة يؤكد أن الإنسان معني بعالمه هذا

¹-عبد السلام بوزيرة: طه عبد الرحمان ونقد الحداثة، ط1، جداول للنشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 2011، ص.213

²-محمد أركون: أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟ تر و تعليق: هاشم صالح، ط2، دار الساقى، بيروت، لبنان، 1995، ص130

³-نصر حامد أبوزيد: الخطاب والتأويل: "سلطة السياسة وسلطة النص، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، 2005، ص ص122-123.

وليس بعالم آخر من حيث إن علمه محصور بالمعاش والمحسوس و ليس بالخفي المتواري أو بالغيبي، و أن هذا شاهد آخر على أهمية تغليب العلماني على الغيبي أو الميتافيزيقي في الاستدلال، ليس فقط في قراءة النصوص الدينية أو استنباط معانيها و أحكامها فحسب، وإنما في قراءة النصوص التي ينحو بها بعض قراءها و دارسيها منحى لا يخلو من الغيبية، فيضفون عليها بذلك مسحة قدسية تجمد دلالاتها¹. ويرى محمد أركون أن العقل القرآني لا يفسر العالم، وأنه عقل مخيالي من أهم مقوماته العجيب و المدهش و الخارق للعادة والغيب والأسطورة، وأن اللغة القرآنية قد اقترنت بالمنطق الشعري والميثوس (Mythos) أكثر من ارتباطها بالمنطق العقلاني واللوغوس (Logos)، وأن لها القدرة الكبيرة على استمالة القلوب وهز الكيان و التأثير في العواطف و تغذية الخيال وحبب التفكير المنطقي و العقلاني، وأن التفكيك اللساني و الحفر الدلالي في بنية اللغة الدينية هو الكفيل بتحريرها من الموروث التولوجي و اليوتوبيا و المبالغات. ويعتقد جازما أن أي نقد حقيقي للعقل الديني ينبغي أن يتمثل في استخدام كل مصادر المعقولة و التفكير التي تقدمها لنا علوم الإنسان و المجتمع، من أجل زحزحة إشكالية الوحي من النظام الفكري والموقع الأبستمولوجي الخاص بالروح الدوغمائية إلى فضاءات التحليل و التأويل التي يفتحها الآن العقل الاستطلاعي الجديد المنبثق حديثا².

لقد رفضت هذه الطروحات الفلسفية الرأي القائل بأن "استكشاف طبيعة القدسي يؤدي إلى الإقرار بأن المقدس عنصر مكون للظاهرة الدينية، ويمثل محور التجربة الاعتقادية للمؤمن، ولكنه في الوقت ذاته ينتمي إلى عالم مفارق و يصمد أمام كل

¹ -سعد البازغي: قلق المعرفة، اشكالات فكرية و ثقافية، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء المغرب، 2010، ص101-102

² -محمد أركون: القرآن التفسير الموروث إلى نقد الخطاب الديني، تر: هاشم صالح، دار الطليعة ، بيروت، لبنان، ط1، 2001، ص58

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

محاولات العقلنة¹ "من هذا المنظور" تتخطى الطبيعة القدسية للدين المساحات الخاضعة لسلطة العقل في التفسير و الإدراك و التبرير، و تقفز إلى المساحات اللاعقلانية، والتي يمكن تسميتها بالاعتبارات الغيبية و العناصر الميتافيزيقية²، فالعلم الحديث يهمل الروحيات ولا يجيب عن الأسئلة النهائية ولا على أسئلة القلق الميتافيزيقي، والعقل البشري و المنهج العلمي، وإن سادا العالم المادي، فإنهما يعترفان بالعجز أمام تفسير المقدس و فهمه.

حضر هذا الفكر في رواية "عرش الشيطان"، هي ثمرة لجهد حثيث وعمل متواصل، اعتمد فيها كاتبها على المناهج الغربية الحديثة في قراءة التراث العربي الإسلامي، حيث مكث يونس مارينا مدة ثلاث سنوات كاملة معزولا ينقب في التراث وفي دراسات المستشرقين وأبحاثهم حول الإسلام و شخصياته وتاريخه" لاعمل له فيها إلا تعذيب الأبجدية مثلما يفعل الأركيولوجيون و الفيلولوجيون بحثا عن سر مستعص في عمق حرف، مفردة، أو جملة، التقى في رحلته المبهمة بابن مسعود، يزيد بن ثابت، بالخلفاء مجتمعين، بالسيوطي، الطبري، ماسينيوس ونولديكه، وغرق في مخطوطات صنعاء التي كادت تأكل رأس الدكتور جرهارد بويين، قبل أن يعيد تركيب كل شيء، ويكتشف ما هز يقينه بعنف، متذكرا كلمات ابن مسعود المبهمة معلقا على قرآن عثمان "لم أجد في هذا القرآن أشياء قالها الرسول، ووجدت في هذا القرآن أشياء لم يقلها الرسول".³ والمثير أن الرواية لاقت نجاحا باهرا مقارنة بباقي أعماله الأدبية، وهو نفسه لم يتوقع ذلك و" لم ير في عرش الشيطان أي استثناء، ولا أي جهد خارق يضعه في أفق الدهشة، مجرد لحظة

¹ - زهير الخويلدي: الفلسفة الدينية بين تحديات القدسي و استجابات السرد، مرجع سابق، ص31.

² - المرجع نفسه، الصفحة نفسها..

³ - واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص14.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

هاربة لاختراق سرية القرآن اللذيذة، نص يحبه الملايين و يخافه الملايين، ويتساءل حوله الملايين أيضا"¹.

لقد نقد دريدا النظم الفلسفية الغربية الكبرى، وخالف في مساره الفلسفي المقولات الثابتة التي تسعى إلى التأسيس لمنظومات أخلاقية و جمالية و معرفية، وحاول إبراز التناقضات الكامنة فيها واستنطاقها وهز بؤرها، وعمل على نقد مظاهر التمركز التي سيطرت على الفكر الغربي، مستعينا بمفهوم التمركز حول العقل، وقاده استقراؤه بهدم الزعم القائل بوجود معنى موحد له هوية متطابقة مع ذاتها، فعمله الذي هدف منذ البداية إلى كشف التعارض في الأنساق الفلسفية أظهر له وجود تضاد جوهري في صميم النظم التي تدعي التطابق الذاتي و الهوية الموحدة"². وتحاول تفكيكية دريدا تقويض النص بأن تبحث داخله عن المسكوت من خلال تعريته والبحث عن المغيب و المؤجل فيه و اللامعنى، و "تعارض منطق النص الواضح المعلن و ادعاءاته الظاهرة بالمنطق الكامن في النص ذاته، كما أنها تبحث عن النقطة التي يتجاوز فيها النص القوانين و المعايير التي وضعها لنفسه، فهي عملية تعرية للنص (denude) وكشف أو هتك لكل أسراره (demystify)"³. لهذا شدد على دور " اللغة، بوصفها متوالية لا نهائية من اختلافات المعنى، و لا يمكنه تقرير أمر إلا استنادا إلى قرائن تعومها القراءة الحفرية، إذ لا معنى يظل حبيس دواله و يفسر على أنه ذو مغزى محدد بصورة نهائية"⁴.

وتتحدى هذه الممارسة الحضور القائل بمفهوم التأويل القائم على وجود مدلول محدد و صريح ومعنى نهائي مسبق و متعالي "إن التفكيك لا يحاول الاقتراب إلى الخطاب إلا

¹-المصدر السابق ، ص13.

²- عبد الله إبراهيم: المطابقة و الاختلاف، المركزية الغربية، 323.

³- عبد الوهاب المسيري: جاك دريدا و التفكيك، دريدا في القاهرة، التفكيكية و الجنون، ط1، تحرير أحمد عبد الحليم عطية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 2010، ص169.

⁴-ينظر: عبد الله إبراهيم: المطابقة و الاختلاف، ج 1، المركزية الغربية، ص316.

بوصفه نظاما غير منجز إلا في مستوى كونه ملفوظا، وهو بعبارة أخرى تظهر خطي، قوامه سيل من الدوال، وهو ينتج باستمرار و لا يتوقف أبدا¹، وتراهن على سلطة اللغة القادرة على قول أكثر مما تحيل إليها الألفاظ، والنص بهذا المعنى لا مركز له متعدد المعاني، وهذه اللامحدودية النصية تولد لامحدودية القراءة وانفتاحا على اللانهائي، وبذلك يصبح البحث عن المعنى نوعا من العبث النقدي و التعدد الدلالي، و" يفقد النص حدوده الثابتة و يصبح جزءا من الصيرورة ولعب الدوال، ومن ثم تختفي الثنائيات و الأصول الثابتة و الحقيقة و الميتافيزيقا"². فالتناقضات الكامنة والثنائيات المتعارضة فيه، و التي لا يمكن حسمها، هي التي تسقط عنه قداسته و مركزيته، و تسمه بالنسبية والصيرورة "النص في تفكيكية دريدا لا حدود له و لا مركز، غارق تماما في عالم الصيرورة و متظهر تماما من الميتافيزيقا. وهو متعدد المعاني بشكل مطلق، لأنه يستحيل الاتفاق على معنى أو معيار متجاوز"³. وهو الأمر الذي أثار حفيظة بعض الدارسين والفلاسفة الذين رفضوا هذا الطرح، ورأوا أن "استدعاء التفكيك لقراءة الخطاب الإسلامي يؤهله لقراءة نسبية فرضية غير يقينية، فالاختلاف الذي يؤمن به دريدا يجعله و لو للحظة ينفر نفورا من التأسيس للحقيقة والعقل و التاريخ"⁴.

وتكمن خطورة هذه المقولات في أنها قد تشكك الفرد في يقينيته، وتشككه في ثوابته الدينية "القراءات الحداثية لا تريد أن تحصل اعتقادا من الآيات القرآنية، وإنما تريد أن تمارس نقدها على هذه الآيات"⁵. وقد نبه عبد الوهاب المسيري إلى خطورة تعدد المعنى

¹-المرجع السابق ، ص314.

²- عبد الوهاب المسيري: جاك دريدا و التفكيك، دريدا في القاهرة، مرجع سابق، ص.173.

³-المرجع نفسه ، ص164

⁴-محمد بكاي: أرخبيلات ما بعد الحداثة، ص171

⁵ - طه عبد الرحمان: روح الحداثة، المدخل إلى تأسيس الحداثة الاسلامية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006، ص166.

على التوحيد، وعده من قبيل الإلحاد والتكر للإنسان و ثوابته، لأن الطعن في الإيمان بالغيبيات هو هدم للعقيدة الدينية الصحيحة في لبها وفي صميمها. وبحسبه إن " التفكيكية وما بعد الحداثة هما في واقع الأمر أيديولوجية النظام العالمي (الاستعماري) الذي يحاول أن ينسينا هويتنا وخصوصيتنا وتراثنا وذاكرتنا التاريخية"¹. وهو ما يكشف عن استلاب خطير للذات. ووصفه بأنه فكر عقلاني حر مستقل يشكك في المنقول من الكتاب و السنة، ذلك أن الحداثي العلماني ينظر إلى التراث الإسلامي من الحاضر الذي يحياه، حاضر الغرب الأوروبي، فيقرأه قراءة أوروبية النزعة، أي ينظر إليه من منظومة مرجعية أوروبية، ولذلك فهو لا يرى فيه إلا ما يراه الأوروبي"². وأكد على أن المقدس، ويقصد به القرآن الكريم ظل " يمثل عمود البنیان الديني و أساسه الصلب، وبقي يمنح هذه الظاهرة النظام و التماسك والاستمرارية و يسبك الشرائع و الشعائر في منظومة عقدية تجمع بين اللغوي التعبيري و الروحي النفسي، وتتعامل مع الإيمان بوصفه طريق الحقيقة و أداة إنتاج المعنى و مسلكا لبناء رؤية للعالم وموقف من الحياة"³.

يؤمن المفكر التحديتي الاستتاري بزمنية ومكانية كل شيء، لذلك شدّد على القراءة التزامنية للنص القرآني، فهو يرى صيرورة كاملة في كل شيء " بحيث أصبح من الممكن الحديث عن الذات بلغة الموضوع وعن الموضوع بلغة الذات، وعن المقدس بلغة الزمني وعن الزمني بلغة المقدس، وعن الروحي بلغة المادي و عن المادي بلغة الروحي."⁴، وتسعى هذه القراءة إلى نقد التراث الديني والتاريخي بمعطياته ومادته، وإجراء قراءة تزامنية

¹-محمد بكاي: أرخبيلات ما بعد الحداثة، ص186

²-محمد عبدالجابري: نحن والتراث، قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي، ط6، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 1993، ص14.

³ - زهير الخويلدي: الفلسفة الدينية بين تحديات القدسي واستجابات السرد، ضمن سلسلة المقدس و السرديات الكبرى، ص32.

⁴-عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ص423.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

للنص القرآني تطابق زمنيا خطاب الوحي، أي وضعه في ظروف سياقه وظروف تشكله الأولى من أجل فهمه في ضوء المعنى السائد في زمنه، لتجنب الوقوع في المغالطات التاريخية الإسقاطية، أي دراسة القرآن بشكل آني لا إسقاطي تكون في مسار قريب من المرجعية الثقافية والتصور العقلي والزمن الذي ظهر فيه.

وتبرر تاريخية العقل القرآني انطلاقاً من انتقاله من الشفوي (القرآن) إلى المكتوب (المصحف) "إن موضوع البحث هو عبارة عن مجموعة من العبارات الشفهية في البداية، ولكنها دونت كتابة ضمن ظروف تاريخية... ثم رفعت هذه المدونة إلى مستوى الكتاب المقدس بواسطة العمل الجبار و المتواصل لأجيال من الفاعلين التاريخيين، واعتبر هذا الكلام بمثابة الحافظ للكلام المتعالي لله، و الذي يشكل المرجعية المطلقة والإجبارية التي ينبغي أن تتقيد بها كل أعمال المؤمنين و تصرفاتهم و أفكارهم"¹، وهذا يثبت التدخل البشري في تغيير الوحي الإلهي بما أضافوه من شروحات و تفسيرات و تصورات ميثولوجية أكسبته صفة القداسة والعلو على الزمن والتاريخ، يتم بموجبها إسقاط مضامينه على تجارب متغيرة بالضرورة. لذلك يشددون على دراسة الوحي الشفوي لا المنجز المدون و الاعتداد بقيمته الإنجازية أي التوصيلية التواصلية، واستثمار نتائج فلاسفة التواصل المحدثين في مقولاتهم عن نشأة المعنى و تغير الدلالة و الفهم و التأويل حسب اختلاف طرق استقبال الخطاب من قبل قطبي الرسالة الشفوية، معتبرين النص القرآني خطاباً توصلياً و عملية تلفظية.

وتوصلوا إلى ضرورة ألا يتم التعامل مع القرآن الكريم -خطاب الوحي الشفوي- باعتباره مدونه نصية مغلقة نهائية، هي المصحف الشريف الشكل المادي للوحي، بل

¹ -محمد أركون: الفكر الأصولي و استحالة التأصيل، نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي، تر: هاشم صالح، دار الساقي، 1999، ص 41.

يجب عده فعلا توصليا بالتركيز على الجانب التلفظي و الدلائلي والبحث في كيفية اشتغاله وتوليده للمعنى وتشكيله للوعي. فالهدف من التحليل التاريخي هو رفع عائق الحكمية و التشكيك في إطلاقيه الأحكام القرآنية و ثباتها، وتحويلها إلى نسبية ظرفية مقترنة بمكانها وزمانها و بيئتها، ومظهر ذلك هو اختلاف الفقهاء في فهم الآيات حسب ظروفها التاريخية. لقد "عاملت الكتابات العربية ما بعد الحداثية النص الديني "بوصفه سردية كبرى، ينبغي نقله من المتن إلى الهامش، واعتباره مسألة فردية، وتسلط كل آليات المقاربة التأويلية، لإنهاء دلالاته ومن ثم وظيفته، وفي النهاية إعادة النظر في الهوية باعتبارها مجرد مخيال محكوم بظروف التاريخ و المجتمع ذات الطابع المؤقت والمتحول"¹.

وذهب " بعض أهل القراءة الحداثية إلى أن التاريخية لا تدخل على آيات الحدود و القصص والمعاملات فقط، بل تدخل أيضا على آيات العبادات"². وتغافلوا عن " قاعدة تغيير الأحكام تنحصر بأمور المعاملات ولا علاقة لها بأمور العبادة مطلقا، فأحكام العبادة ثابتة غير قابلة للتطور أو المرونة."³. ولا اختلاف في أن الإسلام يحض على إعمال العقل و الفكر وإطالة النظر في المسائل في سبيل الفهم الجيد و الإدراك السليم وقد عرض القرآن الكريم عقائد الإسلام على العقل و دلت عليها بالحجة البينة، و دعا الإنسان إلى إعمال عقله والتدبر فيها، فالمنهجية العلمية في الإسلام تجمع بين العقل و الوحي، لكن التجديد الذي يُراد للعقيدة هو غير التجديد الذي يراد في الفقه، إذ الثابت أن كل حكم شرعي ليس فيه دليل شرعي هو محل اجتهاد، وأنه لا اجتهاد مع نص

¹ -شرف شناف: المقدس و السرديات الكبرى بين النص المطلق و الكتابات الأجنبية، حوار مع المفكر و الناقد الأدبي الدكتور " عبد الله العشي"، ضمن سلسلة المقدس و السرديات الكبرى، ص144.

² -طه عبد الرحمان: روح الحداثة، المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2006، ص185.

³ -سعيد حارب: الثقافة والعولمة، ص101.

شرعي ودليل قاطع. فالغاية من الاجتهاد في المفهوم الإسلامي لا تعني أن نكون حدثيين بالمفهوم الغربي، بل تحديثيين مواكبين للعصر في إطار خصوصيتنا الدينية والثقافية والحضارية. نحن بحاجة إلى إنتاج أشكال جديدة عن علاقتنا بالتراث الديني، والانعتاق من تأملاته المنغلقة "بما أن حياتنا وعلاقتنا تبقى متحولة و عرضية، فلا بد من أن نعيد في ضوءها دراسة علاقتنا بالمقدس عبر مسأله و محاورته، وفي النتيجة محاورة السلف وما أقامه من تمثلات عن علاقته في ضوء تجاربه الدينية و الدنيوية وعلومه و معارفه، وكيف ساهمت في رسم علاقته وتمثلاته عن المقدس و الهوية، وهي تمثلات لا شك تاريخية و متحولة، لا نلزمنا أن نتبناها و نفرضاها على واقعنا على أنها هي المقدس، بل تمثلات الأجداد الدينية و الحياتية و تجاربهم التي مكنتهم من أن يعيشوا و يخلقوا محورا لحوارهم حول المقدس وما ضمنه من سرد و عقائد"¹.

لم يفرق أصحاب هذا الفكر بين القرآن الكريم واجتهادات الطوائف الدينية و المذاهب الفقهية والكلامية، فما وصلوا إليه لا يعدو أن يكون "قراءات بشرية للدين و تأويلات مشحونة بما هو خارج النص القرآني، إنها نصوص تحتمي بنصوص، وأفكار تحتمي بأفكار. السرديات الكبرى ذات طبيعة أيديولوجية، أي طبيعة ذاتية، أما القرآن فهو ما فوق أيديولوجي، إنه خطاب معرفي، متعال عن الذات و الواقع، مرتبط بهما في الوقت ذاته، بمعنى أنه يعبر عن الفردي و الكوني، الشاهد و الغائب، النسبي و المطلق"². و النص القرآني "نص ولد مكتملا، ولم تتدخل أي جهة أخرى لاستكمال تفاصيله، بخلاف السرديات الكبرى التي هي نتاج حراك اجتماعي فكري، يطور الفكرة الأم بشكل تجديدي

¹ - عامر عبد زيد الوائلي: تجديد العلاقة مع المقدس، رهان تفكيك، رغبة موت ضمن سلسلة المقدس و السرديات الكبرى، تنسيق و تقديم الحاج أوحمنة دواق، سلسلة ملفات بحثية، الدين و قضايا المجتمع الراهنة، 18 أكتوبر 2016، ص06.

² - شراف شناف: المقدس و السرديات الكبرى بين النص المطلق و الكتابات الأجنبية، حوار مع المفكر و الناقد الأدبي الدكتور "عبد الله العشي"، ص144.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

تحت إكراهات اجتماعية وتحولات فكرية، وتأثيرات خارجية، وبضغوط من أسئلة الأفراد و المجتمع و رغباتهم و انشغالاتهم إلى أن تستوي الفكرة أو السردية إلى ما هي عليه، إنها نتاج مخيال الأمة و رصيدها المعرفي، و تمثلاتها ذات الصلة بالإنسان و المجتمع في الحاضر والمستقبل¹.

ولأن "أكبر خطر يهدد هويتنا هو ذلك الذي يزحف نحو عقولنا و إدراكنا و وعينا، لأنه إذا تم الاستحواذ على الوعي و الإدراك بالنسبة للذات العربية، يسهل الاستحواذ على باقي الأشياء"²، صار لزاماً اعتماد مناهج الفلسفة لتجديد العقلانية وتحديث أسس التراث، وتجديد الأحكام القديمة وتطويرها وتفعيلها بما ينسجم والمتغيرات الحداثية الجديدة و الراهنة دون أن يمس جوهر و ثوابت الدين الإسلامي في العمق والتصميم وخصوصاً التأسيسات الفقهية المقدسة وما يرتبط بها.³

نصل إلى:

- فلسفات ما بعد الحداثية فلسفات هدامة، والخطاب ما بعد الحداثي خطاب فوضوي يقوّض العقل ويغيّب المعنى، ويعمل جاهداً على تحرير الإنسان من المقولات المركزية، ويتسلح بآليات فكرية و منهجية أهمها التشكيك و التفكيك و الاستلاب.

- انتهت الدراسات الحداثية المعاصرة إلى تقرير المماثلة اللغوية بين القرآن الكريم وغيره من النصوص البشرية وإلغاء صفة القدسية عن الوحي الإلهي، والتشديد على حرية البحث عن المعنى وآفاقه التي يقترحها العقل ويدافع عنها.

¹ - المرجع السابق ، الصفحة نفسها.

² - رضا شريف: الهوية العربية الإسلامية و إشكالية العولمة عند الجابري، ص99.

³ - نبيل علي صالح: الحداثية العربية: مقومات و معايير، جريدة الاتحاد الاماراتية، أبو ظبي، العدد246، 6-02-، 2012، ص7.

- لقد أصبح تجديد الفكر الديني ضرورة ملحة تقتضيها الظروف المعاصرة، فالدين مطالب بتقديم أجوبة لمشاكل الناس و مشكلاتهم، لأن المعرفة القديمة به لم تعد قادرة على القيام بهذه المهمة في بعض جوانبها، ومن الضروري الفصل بين الجانب التعبدي الثابت و الجانب التشريعي المؤسسي الذي يحيل إلى ماض غير مقدس ذو بعد تاريخي متغير.

المطلب الثاني: تهميش الدين و جلد الذات.

1- تهميش الدين:

إن أخطر ما في السلطة المفاهيمية هو أنها سلطة ناعمة لا تمارس العنف ولا الإكراه، وإنما تسلل ببطء وتبعثر فكر وعقول المتلقين، وترج الثابت اليقيني منها فتصنع الفوضى، وقد تنجح في اختراقه وإقصائه، لتعيد ترتيب المفاهيم التقليدية بإنتاج مفاهيم جديدة وتشكيل المواقف من الذات و الآخر، وفهم الكون والذات انطلاقاً من فهم الآخر وبناء على نموذج الثقافي و الفكري المتحول باستمرار. وفي "ظل ثقافة العولمة وعولمة الثقافة التي تنطوي على درجة عالية من العلمنة وتغلب المادة وتمثل الحياة العاجلة واختزال الإنسان في بعده المادي الاستهلاكي، اهتز مفهوم الدين وتعرضت مقدساته للسخرية و الانتهاك تحت طائلة حرية التعبير، مما عرضه للامتهان و التشويه الذي عمقه غياب الوعي"¹، و إلى ظهور اللامبالاة به أو الانسلاخ عنه و التهاون في تطبيق كثير من شعائره، بسبب التأويل والفهم الخاطئ له، أو التطبيق السيء لمفاهيم الحرية و الديمقراطية والتعددية و التعايش السلمي و الاحترام المتبادل، تلك المفاهيم الإنسانية التي تقنعت بها ثقافة العولمة وحاولت تعميمها عالمياً.

¹ - ليلي لعوير: العولمة وانتهاك المقدس، كتاب العولمة و الهوية الثقافية، اشراف فضيل دلهو، مخبر علم اجتماع الاتصال للبحث والترجمة، جامعة قسنطينة، 2010، ص49.

وكننتيجة لذلك ازداد العداء الضارب بجذوره في القدم للإسلام، وترصدته سهام الطعن والتشويه وطالت أركانه وشعائره، منها: الصلاة عمود الدين وشعاره وأسه و دثاره الذي يكفل لمقيمته الانتساب إلى الإسلام والخروج من الكفر، فمن أقامها أقام الدين فمن تركها فقد كفر، ومن حفظها حفظ دينه ونال الثواب العظيم، ومن ضيعها خاب وخسر، يقول الله جل وعلا: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ ^١ ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ ^٢ ^١. إنها الصلة بين العبد وربّه، فيها استشعار لرهبة الوقوف

بين يدي الخالق وعظمته، وراحة قلبية وطمأنينة نفسية وقرّة عين حقيقية لمن ذاق حلاوتها وراحتها. ولعظم ثوابها تردد ذكرها في القرآن الكريم، وأوصى بها الأنبياء أبناءهم وأهليهم، منهم إبراهيم قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ ^٢ ﴿وَلَقَمَانٍ مَخَاطِبَا وَلَدِهِ﴾ ^٣ ﴿يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ ^٤ ^٢.

وهذه لوليتا عارضة الأزياء تلوم عشيقها يونس ماريناو تتوسل إليه أن يقيم الصلاة و يجتهد فيها، ترك الصلاة واستخف بقدسيّتها وعظمتها، فصدق فيه قوله تعالى: ﴿خَلَّفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ ۖ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ ^٤ ^٤. لأنه يراها حرية شخصية وتفريغا نفسيا لا علاقة بالدين "اقتربي من الله بالشكل الذي يروق

¹-سورة الأعلى، الآية14-15.

²-سورة إبراهيم، الآية40.

³-سورة لقمان، الآية17.

⁴-سورة مريم، الآية59.

لك، الصلاة ليست إلا مسلكا خاصا للتقرب والإفضاء الداخلي"¹، "لا أدري لماذا يريد الناس تعميمها بشكل يكاد يكون واحدا؟ هل نحن مجبرون على أن نحب بالطريقة نفسها؟ إذن ماذا نساوي أمام أنفسنا إذا كنا مجرد نسخ مكررة؟"²، "لنترك الناس يؤمنون بما يشاءون، ويذهبون نحو ما يشتهون من ديانات و قناعات حتى المجنونة منها، ويجربون ما يريدون"³. الأمر الصادم هو أن حرص لوليتا على الصلاة لم يكن بدافع التقديس لها أو بغرض التوبة والندم على ارتكاب المعاصي والإقلاع عن إتيان المنكرات، تصديقا بأن الصلوات الخمس يمحين الخطايا كما يمحو الماء الأدران، فهي لا ترى فيما تفعله أي ذنب ولا تفكر في أية عقوبة" ولكني مؤمنة جدا، ألم تر هذا و أنا بين ذراعيك، أشتيهك ولا أقاوم نفسي على ذلك؟، بل لا أفكر في أية عقوبة إلهية، لأنني مقتنعة بأني لا أمارس أية كراهية و لا معصية، فالله كله حب، لكن الصلاة شيء آخر، أنا انتهازية، أريد أن أكون معك حتى في الآخرة"⁴. "ارتكب كل موبقات الدنيا، افعل ما تشاء، نم مع المرأة التي تريد، لكن صل من أجلي، الصلاة حالة خاصة"⁵، لقد أضحت الصلاة المقدسة وسيلة نفعية لتحقيق نزوات جسدية، فإلحاحها عليه نجم عن التصديق بفكرة زرعها أحد في ذهنها، فحواها "أن الصلاة كفيلة بجمعها معا في جنات الخلد بعد الفراغ من الحساب، أين يستطيع الرجل أن يختار حبيبته ويشبع جوعه منها" يستطيع وقتها الرجل أن يختار رفيقة خلوده الأبدي وخلوته الجميلة، من بين كل الحوريات يستطيع أن يقول للملائكة: لا، لا، أريد لا حوريات ولا ولدانا مخلدين، أشتهي فقط حبيبة خسرتها بغاوة، أريدها أن تكون لي

¹ -واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص456.

² -المصدر نفسه، ص456.

³ - واسيني الأعرج: البيت الأندلسي، ص289.

⁴ -واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص454.

⁵ -المصدر نفسه ، ص456.

وأن أشبع جوعي منها و تشبع مني".¹ الفكرة صحيحة، أن يجتمع الزوجان معا في الجنة وتكون الزوجة سيدة الحوريات، لكن الأمر لا ينطبق على مرتكبي الفواحش، فكيف يثابون بالجنة، وكيف يتساوى العفيف التقى بالفاجر السفية؟؟، ثم ما قيمة الصلاة إن لم تنه عن الفحشاء و المنكر، وإن لم تكن معينة على هجر الذنوب و المعاصي والانفلات من قيود الشهوة و محطة لتطهير النفس؟

ويكشف سياق آخر سخرية مريم وانزعاجها من المصلين وقت الفجر " كان الفجر رائعا رغم الصداق والدنيا خالية إلا من المصلين الذين حرثوا طرقهم من كثرة تكرار فعلهم يوميا".² هل فاتها أن الله اختص هذه الصلاة تحديدا بمكانة عظيمة وذلك لمشقتها على النفوس، وحض المسلمين على إقامتها في قوله ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ ،³، وأخبر بفضلها الكبير وثوابها الجليل، فركعتها خير من الدنيا وما فيها، وبشر المشائين إليها في الظلم بالنور التام يوم القيامة وبالنجاة من العذاب، فلو علم الناس فضلها لأتوها حبوا.

ويظهر الاستخفاف بالقرآن الكريم، حين وضعه يونس مارينا بمنزلة كتاب ألف ليلة وليلة، الذي عثر عليه في أحد زوايا الكتاب " لم يكن قرآنا ولكنه كان كتاب ألف ليلة و ليلة، في جزئه الأول، طبعة بولاق القديمة بأوراق وحروف ورائحة لم تكن بعيدة عن رائحة القرآن"⁴، " أحيانا كنت أشم في سيدي الفقيه سيدي السعيد، رائحة القرآن ممزوجة برائحة الفئران عندما تبدأ في افتقاد شعرها"⁵. ألا يضمّر هذا السياق طعنا في الكتاب

¹ -المصدر السابق ، ص456.

² -واسيني الأعرج: سيدة المقام، ص188.

³ - سورة الإسراء، الآية78.

⁴ -واسيني الأعرج: أنثى السراب، ص362

⁵ -المصدر نفسه ، ص362

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

وتحقيراً للزوايا والشيوخ و كل ما يمت بصله له؟. وفي المقابل نلحظ الإطراء و الثناء على سحر ألف ليلة وليلة وحسبه أنه فتح له أبواب النعيم وضاعف فرص النجاح أمامه، كما غير نظام حياته و أحاسيسه "طوبى لتلك اليد التي غيرت مسلك حياتي...، فقد وضعت في معابري الضيقة أجمل نص قربني من الخيال والكتابة واللذة و أبعدني عن مهالك اليقين"¹، على خلاف تدارس القرآن والاشتغال به، فهو حتما سيضيق عليه الاختيارات و يحصر طموحاته ويقربه من الهلاك، ففي أحسن الظروف كان يمكن أن يصبح فقيها يدرس القرآن في قرينته.

ويستمر التعجرف و الاستهتار بالخالق وضوابط الإسلام، في التسوية بين فعل الخطيئة وحكمة الله وعجيب آياته، حين أبانت ليلي عن رغبتها في الزواج من عشيقها واسيني الراض للفكرة، وإنجابها لطفلة ستسميها مايا " طيب، قل لي فقط كيف سنفعل؟ نورني، فأنا لم أعد أفهم شيئاً، نعيش في بلاد متخلفة، شرط إنجاب الأطفال فيها مربوط بوثيقة"²، فأجابها ساخراً "مثلما فعل الله مع مريم. نفخ فيها شيئاً من روحه. وأنا أفعل ذلك يوماً، هل المسألة صعبة إلى هذا الحد."³.

فضلا عن تسمية القصص القرآني بالأرشفيف السماوي، والله بالسلطان الأعلى في ذكر القصة المحرفة لخروج آدم وحواء من الجنة" أشياء كثيرة ظلت متخفية و محفوظة، عندما أخبر الشيطان السلطان الأعلى، وكان منتشيا من انتصاره على مخلوقات الله الصغيرة: أرأيت؟ ألم أقل لك إن مخلوقاتك الترابية التي نفخت فيها من روحك وجمالك، هشة أمام طعم الغواية، ولكن الحكماء يعرفون أن آدم وحواء سقطا في الغواية لا لذكاء الشيطان، ولكن بسبب خطأ جميل اقترفه السلطان الأعلى، وهو ينجز مخلوقاته البشرية

¹ -واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص362.

² -واسيني الأعرج: أنثى السراب ، ص392.

³ -المصدر نفسه ، ص.392.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

للمرة الأخيرة، عندما نفخ فيها من روحه، منحها أيضا سحر الغواية، التي فيها شهوة فك أسرار الحياة، ولكي لا يمنح الشيطان فرصة التنشفي، لم يجد من حل إلا طردهما من الجنة، رماهما لأنهما اختارا الحياة مع بعض.¹

يذكر القصاص أن الشيطان هو من أغواهما وأزلهما، لكن أصابع الاتهام موجهة إلى حواء، فهي من أغوت آدم ودفعته إلى الخطيئة، فبعد التيه في صحراء الربع الخالي شديدة الحر . تمكن العطش منهما، فصادفا "شجرة تشبه التفاحة، ولكن شكلها كان مختلفا، بشرة فاكهتها كانت مثل البشرة الأدمية، تحسساها بلذة، قالت حواء لآدم: لا تخف حبيبي، ليست تفاحة، نزعت حبة منها وقشرتها، ثم عصرتها في فمه ليكتشف أنها كانت لذيدة، لم يفكر طويلا، قالت له حواء: كل حبيبي، التفاحة كانت من فعل الشيطان، والبرتقالة من فعل الله."² "حواء" كانت غواية آدم الكبيرة، رضي بالعيش القدسي و فضلت أن تكون بشرا تحيا و تموت، لهذا كانت أكثر إصرارا على الوجد، وكان أكثر إصرارا على العودة إلى جنته الأولى، كشفت عورته، ولو كان هناك رجل آخر غير آدم، كانت قد عشقته بكل عنفوان³.

و يذكر بعض المتوهمين أن آدم استحق الطرد من الجنة لأنه خالف أمر الله و أكل من شجرة العلم والمعرفة و البصيرة فصار له ذلك، الأمر الذي أغضب الخالق، فرفض توبته لأنها لم تكن صادقة، لذلك حمله خطيئته وخطيئة نسله من بعده. لكن النص القرآني ينفي غضب الله على آدم وحواء، ويؤكد أنه عتاب ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن

¹-واسيني الأعرج: مملكة الفراشة، ص397.

²-المصدر نفسه ، ص398.

³-واسيني الأعرج: سيدة المقام، ص114.

تَلَكُمَا الشَّجَرَةَ وَأَقْلُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾¹، وأنه قبل توبتهما ﴿فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٢٤﴾﴾²، ثُمَّ أَجْتَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿٢٥﴾³. ثم ألم يختصه الله حين علمه الأسماء كلها دون الملائكة ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾⁴ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾⁴.

أما نزولهما إلى الأرض، فكان بهدف تعميرها ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾⁵، كما أن عدل الله و رحمته لا يقتضي أن يؤخذ الواحد منا بجرم غيره، وقد قضى ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٢٨﴾﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٢٩﴾﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٣٠﴾﴾⁶، وأنه ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾⁷.

و تتجلى السخرية من علماء الفقه و الدين الإسلامي في الاعتراض على قاعدة فقهية وحكم قرآني ثابت، بحجة أن الولادات الكثيرة تضر بالاقتصاد وتوقف عجلة

¹-سورة الأعراف، الآية22.

²-سورة البقرة، الآية37.

³- سورة طه، الآية122.

⁴- سورة البقرة، الآية31-32.

⁵- سورة البقرة، الآية30.

⁶- سورة النجم، الآية38-40.

⁷- سورة الزلزلة، الآية7-8.

التطور، وتزيد الشعوب فقرا و تخلفا، وأن الحل يكمن في تحديد النسل، لا في تباعد الولادات و تنظيمها "رأيت في التلفزيون فقهاء الظلام القادمين من القاهرة و اليمن السعيد و بلاد السودان يتحدثون عن تحريم مختلف أشكال تحديد النسل.. حرام.. حرام...حرام، الله يرزق عبده، يضع الله في كف كل قادم رزقه، لا تقتلوا النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق"¹. ألم يقل الله تعالى في كتابه الكريم ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقَ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾²، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقْرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾³.

علاوة على تنديد ياما بالإمام الذي أمر بإزالة الوشم من جسد عشيقها الأول عند تغسيله" غسّالو الأموات كانوا كالعادة أغبياء، قال كبيرهم، إن الله لا يستقبل جسدا غير نظيف، وأن الملائكة تهجر السماء، لو فقط كانوا يعلمون الخراب الذي تسببوا فيه، ولكنهم عمي بكم لا يفقهون. أتوا بالحامض ومزيل اللطخات والصبغ وأذابوا كل الأشعار مع القشرة الجلدية، حتى أصبح جسده كجلد أرنب مسلوخ...كفنوه بعدها و اعتبروه نذير شؤم و دفنوه بسرعة كي لا ينتشر شره"⁴. أليس الثابت أن الله - لعن الواشمة والمستوشمة، وأن تحريم الوشم أمر محرم في الإسلام بإجماع علماء الأمة، لما فيه من تشويه لخلق الله وغش وتدليس، ولأسباب صحية أيضا، فقد قرر العلم الحديث أنه سبب في أمراض جسمية خطيرة كتسمم الدم والالتهاب الكبدي وسرطان الجلد، لوجود مواد سامة بالصبغ. فالمسلم مطالب لكي يكتمل إيمانه بالتصديق ثم العمل، عملا بقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمْ

¹ - واسيني الأعرج: سيدة المقام، ص38.

² - سورة الأنعام، الآية 151.

³ - سورة هود، الآية 06.

⁴ - واسيني الأعرج: أنثى السراب، ص ص293 - 294.

الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا¹ . وتتكرر صورته في انتقاء الكاتب عناصر تدل على ثقافة الماضي وعقيدته، في رواية سيدة المقام، فالورق الأصفر، الحرف المقدس، السيوف المعقوفة، الحكاية، الموت، الدم، الرواية، هي عناصر ثقافية تسم العقيدة الإسلامية بالعنف و التطرف، وتعمم الحكم على كل ما ينتمي لهذه الحضارة والعقيدة. فمن الخطأ المساس بصحة الدين الإسلامي من خلال الحكم على أخلاقيات بعض المنتسبين إليه، لأن هناك فرقا واضحا بين العلم بالدين و التفقه فيه و بين العمل به وممارسته فعليا، و قد يتجاوز الإنسان بسبب ضعف تدينه بعضا من شرائعه و أحكامه إما بسبب الهوى أو الشبهة والمغالطة وسوء الفهم. إن الإسلام دين سلام و عمار، لم يقف يوما مع الظلم أو القتل و الفساد و الإرهاب.

والأخطر أن يحلل الحرام و يحرم الحلال، ويقدم المسلم الملتزم في صورة الجاهل بدينه، المنغلق على نفسه و المكتفي بقرآنه، و المتمزمت الراض للفنون و العلوم و الآداب و التسلية، فقد تشبع الحوار بين مايا المتشعبة بالثقافة الغربية و المتحللة من كل قيد ديني و أخلاقي أو اجتماعي، و صديقتها المقربة سيرين أم الخير بطابع الاستهزاء والاستخفاف، حيث تظهر الأخيرة في صورة المرأة المسلمة المحجبة، العارفة بدينها و الملتزمة بتعاليمه، لدرجة بيعها مجوهراتها وكل ما تملك لأجل السفر، أملا في حضور درس للدكتور عائض القرني. وبسبب شروطها المثالية وحظها العاثر، داهمها شبح العنوسة رغم شبابها وجمالها، فظلت رغباتها مكبوتة، لكنها وجدت الحل للتفريغ "تعرفين أن الله يمنحنا قوى غريبة لنظل في الحلال"²، وأنه "يبعث للعبد ملاكا شهيا إذا فاضت شهواته"³. وأن "الملائكة تقوم

¹ - سورة الحشر، الآية 07.

² - واسيني الأعرج: مملكة الفراشة، ص 89.

³ - المصدر نفسه، ص 89.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

بواجباتها عند الضرورة ولا تترك المؤمن أو المؤمنة ينتظران في الفراغ¹، وتقصدها بها العادة السرية "طبعاً مش حرام أبداً، بمجرد أن أغمض عيني، في اغفائي الأولى، يأتيني ملاك اللذة"². وعند الاكتفاء أقوم للصلاة مباشرة دون وضوء "لماذا أتوضأ؟ هل هناك وضوء أجمل من حمام الملائكة"³. فتعلق مايا ساخرة "واحد ربي أعطاه وواحد حرمه، تسلفي لي ملاكك ليلة واحدة و أرده لك في الصباح الموالي"⁴، وتردت أم الخير معنفة "شروطه قاسية، تغلعي عن المسيحية و اليهودية وتعودين إلى دينك (...). أمامك القرآن العظيم، كافي شافي ولا تحتاجين لقراءة غيره"⁵، "اقلعي عن الروايات، فهي حرام في حرام، عن المسرح، عن الفنون، عن الرياضة التي قال عنها الشيخ عايض القرني: ألا لعنة الله على الرياضة. كلها موبقات خطيرة"⁶، وعن القراءة "لأنك مازالت" حبيسة القراءة الهالكة المضیعة و المتوهة"⁷، ولم يفتها الدعاء لها "ربي يرزقك هذه الملائكة و ستغلعي عن هذه الدنيا الفانية نهائياً"⁸.

ولا يزال العداء للتاريخ الإسلامي وشخصياته متواصلاً، إذ ابتدع الحاقدون الأكاذيب و الهرطقات وحاولوا تزيف الحقائق التاريخية وطمسها، وتشويه صورة رجال الإسلام وتحقير انجازاتهم و بطولاتهم، بدء من شخصية الرسول الكريم، مروراً إلى الخلفاء و القادة و الفاتحين ورجال الدين. ويظهر ذلك مع ياما التي تكره الحروب والاستشهاد و الموت المقدس، لذلك غيرت اسم والدها زوبير الذي سمي تيمناً بالصحابي العظيم الزبير بن

¹ - المصدر السابق، ص 89.

² - واسيني الأعرج: مملكة الفراشة، ص 89.

³ - المصدر نفسه ، ص 92.

⁴ - المصدر نفسه ، ص 90.

⁵ - المصدر نفسه ، ص 91.

⁶ - المصدر نفسه ، ص 92.

⁷ - المصدر نفسه ، ص 93.

⁸ - المصدر نفسه ، ص 92.

العوام إلى زوربا بطل رواية ألكسيس زوربا، للكاتب نيكوس كزانتزافي "اشتبهت لوالدي قدر زوربا الإغريقي، الذي عاش الحياة بكل عنفوانها السخي، ربما كان لكل زمان زبيره، زبيري اليوم أريده أن يكون بحب وألق زوربا"¹، قرأت أم الخير الرواية، وتفاجأت بشخصية زوربا فيها "أبوك حاشا أن يكون مثل هذا الزوربا المضروب على النساء، يا إلهي؟ واش به هذا المهبول؟ ما يطلق لا صغيرة ولا كبيرة، لا عايبة ولا صحيحة، لا مجنونة ولا عاقلة؟"² شذوذ تجده ياما طبيعيا ومشروعا "وين المشكل إذا كانت النساء تبادلن زوربا الحب والسريير وشهوات الدنيا الجميلة، هن يردن ذلك لأنهن لا يشعرن بالأمان إلا في أحضانه؛ أي شيء يقلقك في هذا"³، "هو يحب اللي تهبله في الفراش، مش واحده تذكره في كل ثانية بأوقات الوضوء والصلاة وعذاب القبر... ومشاغل القيامة و أهوالها"⁴. ألا تتم هذه السياقات عن رفض لمفهوم الجهاد بالمعنى الإسلامي الصحيح، وتضمن سخرية من الصلاة و الغيبيات التي هي أحد أهم أركان الإيمان.

وفي سياق ضرب الوحي و التشكيك فيه، تدرج الحادثة التي ذكر فيها، أنه حين شق على الرسول الكريم إعراض قومه عليه، تمنى أن يأتيه الله بشيء يقارب بينهم، وأنه في مجلس من أندية قريش حضره الرسول، أنزل الله عليه سورة النجم، فقرأ حتى "أفرايتم اللات والعزى و مناة الثالثة الأخرى، ألقى الشيطان على لسانه تلك الغرائق العلى، وإن شفاعتهن لترجى"، فلما سمعت قريش فرحوا، ومضى رسول الله في قراءته، فقرأ السورة كلها، فسجد و سجد معه المسلمون و المشركون، و تفرقت قريش و قد سرها ما سمعوه، وقالوا: قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر. فلما أمسى الرسول، أتاه جبريل، فقال: ماذا صنعت؟ لقد تلوت على الناس ما لم آتك به من عند الله. فحزن الرسول حزنا شديدا،

¹-وإسيني الأعرج: مملكة الفراشة، ص83.

²- المصدر نفسه، ص ص86-87.

³- المصدر نفسه، ص86.

⁴- المصدر نفسه، ص87.

وخاف من الله خوفا عظيما¹. صحيح أن هذه القصة واردة في كتب التفسير، وقد نقلها المفسرون عن ابن عباس نقلا غير صحيح، لكن علماء الأمة من أهل السنة ردوها شكلا و مضمونا، سندا و متنا، عدا الحافظ ابن حجر الذي قبل سندها، لكنه لم يقل أن الرسول الكريم قالها، وقد أنكر عليه العلماء فعلته، منهم "العلامة الألباني . رحمه الله تعالى . في رسالة أسماها "نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق"، بأسلوب علمي لتطمئن نفسك أن هذا كله قول مزعوم على نبينا . صلى الله عليه وسلم . لا يمكن تصديقه، كما أن العلامة الشنقيطي . رحمه الله . في أضواء البيان ذكرها في سورة الحج فندها تفنيذا جيدا، وكذلك الشوكاني . رحمه الله تعالى .، ومن أعظم من فندها أبو بكر بن العربي والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن، وغيرهم من أئمة المسلمين . رحمهم الله سلفا و خلفا.² وقد جاء في القرآن الكريم توبيخ الله للمشركين أن اتخذوا من آلهتهم ندا له قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٦﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخَرَیٰ ﴿١٧﴾﴾³، وأيضا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢١﴾﴾⁴ . وحجتهم في ذلك أن الشيطان لا سلطة له على من آمن بربه في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ

¹-لواسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص ص481-482.

²-صالح المغامسي: تأملات في سورة النجم، المكتبة الشاملة، ج14، ص25، 25-3-2021، <http://wwwislamweb.net>.

³-سورة النجم، الآية 20 -19.

⁴ - سورة الحج، الآية 25.

ءَامِنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴿١﴾. فكيف له أن يتسلط على الرسول - صلى الله عليه وسلم ؟.

الشواهد السابقة، تؤكد أن الثقافة المعولمة نجحت نسبيا في ضرب الأديان الصحيحة وتقليص دائرة تأثيرها وتهميشها، فالسمة المميزة لواقع الحوار و المواجهة بين الأديان اليوم هي هجوم شبه الأديان على الأديان الصحيحة - مع استمرار الصراع بين هذه الأخيرة - ببرامج خطط جديدة تحظى بدعم مادي و سياسي كبير من قبل قوى عالمية كبرى من ذلك الدعوة إلى حوار وحدة الأديان الذي يعتقد صحة جميع المعتقدات الدينية وصواب جميع العبادات، وأنها كلها موصلة لله، وينظر إلى قوانين و شرائع وأسس الأديان بأنها تقاليد وممارسات تاريخية موصل إلى حقيقة واحدة. ومن صورته المساواة بين كتاب المسلمين و عباداتهم و مساجدهم وما يقابلها في الأديان الأخرى، وتبادل الزيارات بين عمّار المساجد ومُرتادي المعابد والكنائس لتوليد المودة وزيادة القربى، وإقامة الصلوات المشتركة في أماكن العبادة لمختلف الديانات، سواء بابتداع صلاة مشتركة أو بأن يصلي كل شخص صلاة الآخر. بحجة أن في الاقتصار على دين واحد مصادرة لكلّ الحقوق وتعد على القيم الأخلاقية الكونية كالحقّ في الاختلاف، والحقّ في الاعتقاد، والحقّ في التفكير، والحقّ في إبداء النظر، والحقّ في التعبير، لأنه لا يرى إلا وجهًا واحدًا للحقيقة، ولا يعتقد إلا بوجود صورةٍ واحدةٍ لله، وتصورٍ واحدٍ لصفاته، وطريقٍ واحدٍ إليه، وقوالبٍ جزميةٍ للاعتقاد به، وكلماتٍ أبديةٍ في التعبير عنه.

و تجد هذه الدعوة صداها عند عائلة زوبير المسلمة السنية المالكية، حيث اعتادت الأم فريجة وابنتها ياما أن تقصدا كاتدرائية مريم المجدلية، أقدم كنيسة في بلد لغالبية مسلمة للتضرع إلى لالة مريم و الدعاء. وها هي ياما تزورها، وكلها أمل في أن تحفظ

¹ - سورة النحل، الآية 99.

أخاها رايان المسجون من أي مكروه، تقف بمحاذاة رجل يردد التراتيل بلغة لاتينية، ويقراً نشيدا حزينا بعنوان "آفي ماريا"، أي لالة مريم، فهتم معناه من خلال ترجمة حبيبها ديف اليهودي لكلماته، وكثيرا ما سمعته من فم ماريا كاسا وأندريا بوتشلي على إيقاع ساكسو كيني دجي، كما أنه كان هدية ريان لها في شكل قرص مضغوط في عيد ميلادها، يحكي النشيد قصة امرأة تتضرع لمريم العذراء بأن تنقذ ابنها من الموت.

ومن الأهمية الإشارة إلى أن هذا النوع من الحوار قد لاقى رفضا من علماء الدين الإسلامي ورأوا أن في الدعوة إلى وحدة الأديان اصطدام بأصول الإسلام، و إبطال لصدق القرآن و نسخه لجميع الشرائع التي سبقتها، وفيه أيضا تسويغ للتقلب بين الأديان، وهنا مكنم الخطورة فيه. فكيف توضع الأديان البشرية الوضعية مع الأديان السماوية غير المحرفة في ميزان واحد؟!.

نستنتج مما سبق الآتي:

- غالبا ما كان تبني ما بعد الحداثة في الثقافة العربية" ترجمة لموقف من الدين بالأساس، ومن أجل ذلك انصبت الكتابات التي تنتهج هذا النهج في إعادة النظر فيما هو ديني، واتسعت المقاربة التأويلية حول الدين، قرآنا وحديثا و تشريعات، وأعيد الاعتبار إلى ما هو شاذ و هامشي و مهمل، وأزيلت القدسية عما هو مقدس، ونزع السمو عما هو سام، لقد انتهى الماضي، فلا قداسة لأي شيء فيه. ثقافة النهاية في الثقافة الغربية تسعى إلى تحرير العقل و الجسد من أي سلطة ماضية، وإلى تحويل التمرکز من الموضوع إلى الذات، ومن الجماعة إلى الفرد، ومن الانضباط إلى سيولة الغرائز و الشهوات"¹.

¹ - شراف شناف: المقدس و السرديات الكبرى بين النص المطلق و الكتابات الأجنبية، حوار مع المفكر و الناقد الأدبي الدكتور " عبد الله العشي"، ضمن سلسلة المقدس و السرديات الكبرى، ص144.

- ربما انحسرت ممارسة الطقوس الدينية و تقلص حضورها في الواقع، "إلا أن القيم الدينية ما تزال في ضمير الإنسان والمجتمع والثقافة، وما تزال تقوم بوظيفتها بشكل أو بآخر. سيظل السؤال الديني قائماً ولو بشكل موارب، لكنه لن يغيب، لأن الأسئلة الكثيرة التي تحيط بالإنسان ما تزال تبعث قلقه وحيرته، ولا تقوى العلوم على الإجابة عنها، فعند كل نهاية تتفتح أمامه بداية أخرى، وأسئلة أخرى، وقلق آخر"¹.

2- جلد الذات:

لقد تغلغل الدين و التراث العربي الإسلامي في أدق تفاصيل حياة الأمير عبد القادر، وشكلا قاعدة أساسية في بناء شخصيته و رؤاه و تصوراته، التي هي نتيجة تعالق هذا الموروث الديني و الفكري، والأکید أنه شخصية مميزة و فريدة، جمعت بين مطالب التصوف والدين، و السياسة و القيادة الحربية في إطار الخصائص الحضارية التي ينتمي إليها، والخصائص الإنسانية للعيش المشترك و التعايش بين الحضارات و الثقافات، فهو تلميذ الشيخ محي الدين بن عربي. وقد انعكس فكره الديني المنفتح في سلوكه السياسي و القضائي و الثقافي محلياً، وعلى مستوى المنطقة المغاربية المقاومة و بعد نفيه إلى فرنسا واستقراره بالشام. فحرص الأمير عبد القادر على متابعة أصول الإسلام، وظهوره بمظهر الرجل المسلم، والقائد الحكيم، والسياسي المثقف، نابع من صميم السياسة الشرعية والمرجعية الدينية التي يحتكم إليها، خصوصاً و أنه فقيه و متصوف.

لكن المتأمل في رواية "كتاب الأمير، مسالك أبواب الحديد"، يلحظ بوضوح تام أن الكاتب جرده منها في كثير من السياقات، وسلبه هويته و حقه في الجهاد، وسلبه من جماليات لغته، ومنها لفظة الجهاد الإسلامية، فقد بذل الكاتب "جهداً في تغييرها بأخرى

¹ - المرجع السابق، ص142.

والتخلص من دلالتها الدينية، ولعله لا يريد أن يستفز المتلقي المضمّر الغربي"¹، من ذلك مخاطبته المجاهدين بلغة بعيدة عن مرجعيتهم الدينية والفكرية والوجدانية، مثل ما ورد في "إن ما أطلب به يمثل ما يلزمكم به شرع النبي، وما يجب تقديمه كمسلمين صالحين"². ومنه "كان من واجبي أن أفي بما قطعته على نفسي أمامكم، حتى لا يتهمني أي مسلم بأني تخليت عما وعدت به لنصرة القضية الكبرى"³، إن شرع النبي ومسلمين صالحين و القضية الكبرى ألفاظ لا تمت بصلة إلى المعجم الجهادي الذي ألفه المجاهدون وشكل هويتهم الثقافية، وهي لغة بعيدة عن زمانها وروحها؟. لقد حرم الكاتب "الشخصية مما يشكل هويتها مثلما حرّمها أحد دوافع جهادها ضد المحتل، فبدت شبيهة لنا بمؤلفها الذي يعيش تحت وطأة المعنى السلبي للجهاد الذي أسس له الغرب خاصة إثر أحداث الحادي عشر من سبتمبر، فصار قرينا للإرهاب"⁴. ومنه أيضا "العرب مصممون على الجهاد لا يمكنني إلا أن أكون بجانب الذين بايعوني في هذا المنصب"⁵، لقد جردت لفظة الجهاد من معناها الديني، وألحقت بدلالة دنيوية، قد تكون موجودة لكنها لم تكن مطلقا السبب الرئيس في التصدي للمستعمر "أليس غريبا أن ينطق بلغة مسلوّبة الإرادة في أثناء حديثه عن هم مصيري وهبه حياته وشبابه؟ فيحول الجهاد إلى منصب دنيوي سالخا أبعاده الدينية"⁶، ألا يؤكد هذا السياق سيطرة الرؤية المادية للحياة، وإهمال الرؤية الروحية؟ لقد بدا الجهاد في رأي أمير واسيني الأعرج لا معنى له و هو يشترط لحصول معناه أن يبقى على غريزة البقاء، فكأن جهاد الأمير عبد القادر الجزائري خمسة عشر عاما انتحار

¹ - ماجدة حمود: إشكالية الأنا والآخر، ص 221.

² - واسيني الأعرج: رواية الأمير، ص 111.

³ - المصدر نفسه، ص 368.

⁴ - ماجدة حمود: إشكالية الأنا والآخر، ص 220.

⁵ - واسيني الأعرج: رواية الأمير، ص 265.

⁶ - ماجدة حمود: إشكالية الأنا والآخر، ص 222.

وإذعان لقسوة الحرب¹. هي المدة نفسها التي قضاها مجاهدا ضد الاستعمار الفرنسي، مدافعا عن وطنه وعرضه وأرضه وحقه، مؤمنا أن الجهاد واجب ديني مقدس والتزام أخلاقي يدفع صاحبه إلى بذل أقصى ما يملك، عملا بقوله تعالى: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾². وتصديقا بالجزء ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾³ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ هُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾⁴. ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾⁵. ربما تخيل واسيني الأعرج "الشخصية وفق رغبة الآخر و مرجعيته، وفضلها انطلقا من رغبة المتلقي الغربي العلماني الذي غالبا ما يرفض الدين، ويرى فيه أحد أسباب الصراع في العالم"⁵.

وفي مواقف أخرى، قُدِّم الأمير عبد القادر في صورة تسيء لشخصه، وتتنافى مع مرجعيته الدينية والأخلاقية، فحين اشتدت عليه الصعاب وحوصر من قبل فرنسا و جيش

¹-المصدر السابق، ص223.

²- سورة التوبة، الآية41.

³- سورة التوبة، الآيات 20-21-22.

⁴- سورة التوبة، الآية111.

⁵ - ماجدة حمود: إشكالية الأنا والآخر، ص226.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

المغرب، سارع إلى سلاحه يحشوه "في لحظة يأس، ويذهب وحده رافضاً أية مساعدة باتجاه بوجو في عمل انتحاري"¹. وورد المعنى ذاته في "فكرنا يوماً في الانتحار الجماعي على الرغم من أن الله لا يحب ذلك"، هل يجهل الأمير أن الانتحار كبيرة، وخسران مبین وأنه مدرج ضمن قتل النفس المحرم شرعاً؟، وهل فاتته قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ التي حرم الله إلا بالحق²، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾³. وهل غاب عنه أن الله امتحنه وابتلاه وأمره بالصبر و الثبات؟" ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾⁴، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾⁵. ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾⁶. "ثمة رغبة قد تكون لا واعية لدى الروائي في رسم صورة الأمير ترضي المتلقي المضمرة الغربي الذي يمسك بمفاصل الحياة الاقتصادية والثقافية و السياسية... إلخ، فينطق الشخصية بلغة لا تتناسب مع تاريخها النضالي، لذلك لم

1 - واسيني الأعرج: حكاية الأمير، ص 345.

2- سورة الإسراء، الآية 33 .

3- سورة النساء، الآية 29-30.

4 -سورة البقرة، الآية 77.

5-سورة آل عمران، الآية 142 .

6-سورة آل عمران، الآية 200 .

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

يستخدم الأمير لغة دينية تعرض على الجهاد، فتزعج الآخر الغربي، مع أنها تتناسب و خصوصية الشخصية التي قاتلت الأعداء انطلاقاً من مرجعيتها الدينية¹.

وجاء في سياق آخر أنه "في كثير من الحروب قُتل أناس كثيرون وهم يصلون، ولم يستطيعوا توقيف صلاتهم وهم يصلون"²، وهو قول يلمح إلى جهل الأمير بأحكام الصلاة، وفيه مخالفة لما أمر به الله رسوله و المؤمنين في قوله: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾³.

وفي حادثة انتصار الأمير على التيجاني في عين ماضي، ظهر الأمير في صورة توحى بهمجيته وبتقليده فرنسا في سياسة الأرض المحروقة، حيث أعطى أوامره للفيالق الأولى "فبدأت بحرق كل شيء، المساكن الفارغة ولحداائق وحقول القمح و التين و الخيام والمطامير"⁴. ألم يعلم الأمير أن للحرب في الإسلام قواعد هي غاية في الإنسانية والرحمة، تؤكد سمو منهجه وهديه، وتدحض افتراءات و شبهات الأعداء؟، فكتب السيرة والتاريخ شاهدة على أن الرسول - ﷺ - أوصى بعدم قتل الضعيف و تدمير العمران و الثمار، وكان إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله و من معه من المسلمين خيراً، و بأن لا يقاتلوا إلا من كفر بالله، و أن لا يُغْلوا، ولا يغدروا، ولا يقتلوا الولدان و لا أصحاب الصوامع، ولا المستضعفين من الشيوخ و النساء.

¹ -ماجدة حمود: إشكالية الأناو الآخر، ص227.

² - واسيني الأعرج: كتاب الأمير، ص464.

³ - سورة النساء، الآية102.

⁴ - واسيني الأعرج: كتاب الأمير، ص464.

وتستمر الإساءة للأمير، في رده عن سؤال زوجة أحد الأسرى الفرنسيين عن الحكمة من مشروعية تعدد الزوجات في الإسلام، أجابها قائلاً: "بين المرأة والرجل سحر رباني خاص وجاذبية لا تقاوم، الإنسان قد يحب امرأة من أجل عينيها، وأخرى من أجل شفيتها، وثالثة لنور جسدها، وأخرى لنور علمها... وعندما نعثر على امرأة تحمل كل الصفات مثلك، سنكتفي بواحدة ولن نختار غيرها، وسنقبل أن نموت في أحضانها"¹. أيعقل أن تصدر إجابة كهذه فيها تركيز على الجسد الأنثوي و مغازلة لامرأة متزوجة من فقيه وصوفي عالم بالدين؟، كما فيها تشويه وتضليل لحكم شرعي من رجل وقف حياته مُنافحاً عن الدين و مبادئه و شرائعه. أما كان من المنطق و الموضوعية أن يستمد جوابه من القرآن الكريم وهو الحافظ له والعامل بأحكامه؟ أليست الحكمة تقتضي أن يوضح لها أن التعدد مباح وبشروط محددة و لأسباب موضوعية؟، منها ما هو اجتماعي ككثرة النسل و تجنب العنوسة كون الرجال أقل عدداً من النساء، و منها ما هو جسدي جنسي يخص الرجل والمرأة على السواء، كعدم قدرة المرأة على إشباع الرجل لمرض عارض أو دائم، ولدراء المفاصد و الانحلال، وأن الأهم في إباحته هو العدل بين الزوجات في النفقة والمبيت والكسوة، ونحو ذلك من الأمور المادية ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾².

أيعقل أن تصدر هكذا أفعال وتصريحات من شخص الأمير الحافظ لكتاب الله، والذي قضى حياته ملتزماً دينياً، ومقدساً للجهاد والشهادة؟. وهل تكون الإيمان باليقينيات التي يدافع عنها هي علة ضعفنا؟.

وكيف لم يتمكن الأمير من التفريق بين الدين والمنتسبين إليه، خاصة الدين الإسلامي بسماحته و نزوعه للسلم وكرهيته للتعصب و الحرب و العداوة و البغضاء في

¹ - المصدر السابق، ص 245.

² - سورة النساء، الآية 3.

حواره مع ديبوش" في كل الأديان شيء من التطرف يؤدي إلى هلاكها"¹. وفي مخاطبته لوزيره" كنا نظن أنفسنا أننا الوحيدين الذين ينظر الله إلى وجوههم يوم القيامة، وأن الجنة حكر علينا، وأن الله ملك مسلم، وكلما تعلق الأمر بالآخرين أنزلنا عليهم السخط والمظالم"². أليقدم هذا المقطع الأمير في صورة القاتل بدافع التعصب الديني الأعمى، و ينفي عنه صورةالمجاهد في سبيل إحقاق الحق السليب واسترجاعه.

و" هكذا بدا لنا الآخر المضمّر بما يمثله من مرجعية فكرية و روحية وجمالية حاضرا في وعي المؤلف، حتى أنه شوّه ملامح شخصية الأمير باعتقادنا، وأبعدها عنسياقها التاريخي والثقافي الذي يشكل الدين أبرز معالمها إرضاء للآخر المضمّر، الذي يحتل لاوعي الكاتب، مثلما يحتل مرجعيته الثقافية"³.

وفي المقابل حاول واسيني الأعرج مسح الصورة الوحشية و السياسة الاستدمارية التي انتهجتها فرنسا إبان المقاومة و الفترة الاستعمارية، فقدمها في صورة إنسانية مشرفة، فأظهر الضابط الفرنسي بيجو ممثلها في صورة الإنساني المتحضر الذي ينزع إلى السلم "إنسانيته تجاه العرب و تجاه جنودي تحتم علي أن أقترح عليكم السلم قبل الحرب، السياسة تجبرني على فعل ذلك مثلها مثل الإنسانية"⁴.وقد" كانت تسيطر عليه عقلية المزارع أكثر من عقلية العسكري (...)، وكان يحرق الحقول لا حبا في حرقها، وهو المحب للأرض و الزراعة، ولكن لحسم المعركة"⁵. السياسة إذن فرضت نفسها، فأصبح فعل التدمير والحرق مبررا ما دام الهدف هو تسريع النصر والتقليل من الخسائر" لو تأمل المتلقي السياق اللغوي الذي أحاط بفعل الحرق، للاحظ أن المؤلف يخفف من وقع

¹- واسيني الأعرج: كتاب الأمير، ص128.

²-المصدر نفسه، ص520

³-ماجدة حمود: إشكالية الأناو الآخر، ص299.

⁴- واسيني الأعرج: كتاب الأمير، ص182.182.

⁵- المصدر نفسه، ص181-182.

الإيحاء التدميري له في الوجدان العربي، فقد أحاط تصرفات الضابط بمختلف صيغ الحب، فصورت الراوي المتماهي بصوت المؤلف، يستخدم صيغة النكرة المنفية (لاحبا في حرقها) ليوحي بإطلاق رفضه لفكرة الحرق، كما يكرر لفظة الحب بصيغة اسم الفاعل (لتوكيد نزعته السلمية)¹.

ويلاحظ الحضور القوي لشخصية الراهب ديبوش على حساب شخصية الأمير، حيث منحه الكاتب "مساحة أكبر في فضاءه السردي، واهتم بتجسيد صوت أعماقه (عن طريق كتابة الرسائل و الحوار الداخلي باستخدام ضمير الأنا) أكثر من صوت الأمير، بل خصص لصوته فضاء حساسا في الرواية (الافتتاحية والخاتمة و الوقفة الأولى)... كأن المؤلف يريد لصوت الآخر (الراهب المتسامح) أن يبقى في الذاكرة، فلا ينساه أحد، ليرسخ في الأذهان الصورة الإيجابية له، لعلها تمحو وحشية المستعمر الفرنسي، حتى ليحس المتلقي بأن الرواية مخصصة لصوته."².

وعظفا على ما سبق، ربما يتحتم التنويه إلى أن الكاتب تبنى في روايته، سوناتا لأشباح القدس، النظر بحيادية سلبية إلى الصراع في فلسطين، حيث اكتفى برصد الواقع كما هو، دون محاولة لإدانة المحتل الغاصب، لأنه السبب الحقيقي لكل ما يجري من جرائم إنسانية في تلك المنطقة، في حين يلاحظ التعاطف الكبير مع اليهود، والاعتقاد الجازم بفكرة المحرقة اليهودية الهولوكوست" لقد أحرق أصدقاؤك النازيون، وأحباب إيفا موهليهودا أبرياء، وأبادوا الملايين فقط لأنهم يهود؟ هل تتصور هول الفاجعة."³، والغريب هو رد فعل البطلة مي الحسيني، التي عاتبت بشدة والدها، لأنه شارك في عملية اقتحام جريدة يهودية معادية للعرب" لم أصدق أذني عندما سمعت أن والدي الطيب و

¹ - ماجدة حمود: إشكالية الأناو الآخر، ص 230.

² - المرجع نفسه ، ص 240.

³ - واسيني الأعرج: سوناتا الأشباح القدس، ص 93.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

المتسامح يحكي عن العملية التي شارك فيها في اقتحام جريدة بالستين بوست بانتشاء¹ والأكثر جنوحا وغبابة، أنها تجاوزت عن قتل فرقة الهجاناه الوحشي لوالدتها ميرا المغربي الحامل بأخيها عليان، وجدتها حنا، وصدفت عنهم رغم أنهم السبب في اغتصاب وطنها، و في يتمها، وتشتت عائلتها، ومقتل معظم أفرادها و منفاها.

ربما نتفهم أن هدف الكاتب نبيل، وأنه يسعى إلى طي الماضي الجريح و فتح صفحة التعايش السلمي بين الفرقاء، لكن ينبغي أن لا يكون ذلك على حساب آلام الشعبين الفلسطيني و الجزائري، أو على حساب تضحياتهم و مأساتهم، أو تزييف الوقائع وطمس الحقائق التاريخية وتبييض صورة العدو.

نخلص إلى:

- إن عولمة قيم الحداثة الغربية واعتماد القيم الغربية كمرجع لكثير من الشعوب أثر في تراجع الدين وتهميشه و انحصاره في النطاق الفردي والخصوصي، فمن الطبيعي أن يمس هذا التهديد الحقل العقائدي لارتباطه الوثيق بثقافة المجتمعات وأنشطتها الاجتماعية وحضوره القوي في كافة مجالات الحياة، لكن ذلك لا يعني البتة فقدانه الكامل التأثير في السلوكيات و الأخلاق و في ثقافة المجتمع، خاصة في المجتمعات الشرقية و الإسلامية.

- بعض روايات واسيني الأعرج مشبعة بالأفكار السامة و الفلسفات الهدامة التي تدين كل ما هو إسلامي، و بالإشارات التي تؤكد التطاول على المقدسات الدينية و التشكيك فيها.

- إن المتلقي لرواية الأمير يشعر في بعض سياقاتها باحتفاء الكاتب بالآخر الفرنسي على حساب الذات، وقد نتفهم أن الكاتب قصد محو تاريخ أصبح من الماضي في

¹-المصدر السابق ، ص145.

محاولة لمد جسور التواصل بين الأنا العربية والآخر الفرنسي، لكن ما يؤخذ عن الرواية هو تغييب الآخر العسكري في فضائه الحربي و جانبه الوحشي، ومعايشته في جانبه الإنساني، فهناك رغبة واعية أو لا واعية في تبرئته من صورته الاستعمارية الهمجية وتاريخه العدواني.

المطلب الثالث: الثقافة الاستهلاكية و العبث بالتراث:

لا شك في أن التراث مخزون ثقافي يحمي وجود الجماعة البشرية و معالمها الحضارية و يعصمها من الذوبان في الغير، لأنه يرمز إلى كينونة ثقافية وخبرة إنسانية ناجمة عن تراكم تاريخي. والهوية التراثية تعبير ثقافي يجسد عمق مكنونات الحياة الاجتماعية و الثقافية للأمم والشعوب، وهي الطاقة الوجدانية الحيوية للحضارات والجماعات البشرية وبصمتها الوراثية ، فبقدر اعتزاز الأمة بها و محافظتها على تاريخها و إرثها التراثي والحضاري تقاس حيويتها.

و التراث هوية ثقافية بما ينطوي عليه من تركة فكرية و روحية و عناصر توحيدية، إنه بوتقة مشكلة للوعي والهوية وإن استلهامه و فهمه هو جزء أساسي لصنع الذات ووعيها و تأكيدها. فحين يتغلغل في أعماقنا بوصفه لا شعورا جمعيا في الوعي الباطن للجماعات و الأفراد، يتحول إلى طاقة تحكم وجودنا وسلوكنا ونفسياتنا، ويشكل أساسا في ديناميات بقائنا و استمرارنا. وهو في المجتمعات العربية الإسلامية عنصر لحمة وتكامل ثقافي و نفسي " إذا كان الإرث أو الميراث هو عنوان اختفاء الأب و حلول الابن محله، فإن التراث قد أصبح بالنسبة للوعي العربي المعاصر عنوانا على حضور الآباء في الأبناء حضور السلف في الخلف، وحضور الماضي في الحاضر"¹.

¹ - محمد عابد الجابري: التراث والحداثة، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، بيروت، لبنان، 1999، ص23.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

ويعد التراث العمراني المرتبط بالبيئة المحلية و العادات و التقاليد المتوارثة شاهدا على أصالة و عراقة المكان، لما له من أهمية دينية أو تاريخية أو تراثية، ومن هنا لا ينبغي النظر إلى التراث على أنه بقايا ثقافة الماضين، بل على أنه تمام هذه الثقافة و كليتها، فحضور التراثي يمثل الذاكرة العربية ووجدانها و امتدادها الهوياتي، لذا وجب على الكل الحفاظ على هذا الإرث من التشوه و فقد القيمة الجمالية و التاريخية التي تعبر بصدق عن ماض و مخزون تاريخي و ثقافي أصيل.

والمؤكد أن العمارة هي أحد أهم التراكات الحضارية التي تمكن من قراءة تاريخ الأمم، لأنها الوعاء الذي تتفاعل فيه أركان الحضارة المادية و المعنوية، وهي الإطار المادي لفهم تراكمات الفكر و المعارف و الخبرات، وثمره التفاعل بين العوامل البيئية و المناخية و بين خصوصية التجربة الإنسانية عبر قرون عديدة. وهي ذاكرة مجسمة و سجل اجتماعي متحرك و متجدد، يدون حياة المجتمعات و الشعوب بكل تفاصيلها و جزئياتها، لأن العلاقة بين المكان و معالمه الثقافية و الطبيعية أمر حاسم لهيكله الهوية.

وتحضر رواية البيت الأندلسي التي تعود أحداثها إلى قرابة خمسة قرون لتطرح أوراقها قضية هجرة الموركسيين إلى المغرب العربي، ولتحكي تاريخ ثقافة منسية في السجل الوطني التاريخي، وحقبة مُغيّبة في تاريخ الجزائر، ألا وهي الفترة الموركسية والتركية، التي سجلت أحداثها وأرخت لها المخطوطة الموركسية باعتبارها قيمة تراثية إنسانية شاهدة على تاريخ اندثر بكل أفراحه وانكساراته، وحلقة مفقودة في تاريخ الجزائر القديم.

وتناقش الرواية قضية التراث الذي أهمل وأصبح مهددا بالنسيان والزوال، لاسيما المعالم التراثية العتيقة الشاهدة على تعاقب الحضارات القديمة في الجزائر والآيلة للاندثار والأفول، على شاكلة البيت الأندلسي الذي خضع لسلسلة من الانتهاكات والتحويلات

المقصودة طالت بنيته المعمارية، من طرف المستعمر الفرنسي أولاً ثم المسؤولين في الوطن و العامة من الناس على السواء. ففي الحقبة الاستعمارية تحول إلى دار البلدية، ثم إلى بيت إقامة لنابليون الثالث وزوجته، وبعد الاستقلال حُوّل إلى فضاء للغناء الأندلسي، وبعد فترة من الزمن أصبح حانة ثم كاباريه، وحين اشتراه الفينكا بأبخس الأثمان كما فعل الكثير من المجاهدين الذين استفادوا من أملاك الدولة الشاغرة، أجرى عليه تغييرات عديدة أفقدته ملامحه التاريخية و معالمه الحضارية الثقافية وهويته الحقيقية، وجعله مخزناً للمشروبات الكحولية بكافة أنواعها ومستودعاً للمخدرات والأسلحة، ومكاناً لإبرام الصفقات المشبوهة. الكل غير اسمه: دار لالة نفيسة، ملهى الضفاف الجميلة، حلقة الضباع، دار المحروسة، وأحدث تغييرات عليه وفق أيديولوجيته وأطماعه متجاهلاً تاريخه و هويته.

ومع توالي حملات التخريب الممنهجة والإهمال المقصود، صار البيت الأندلسي خربة "لا شيء سوى الحجارة و الأخشاب المسوسة، والأتربة الثقيلة والطوب و الحشرات الضارة؟"¹ ومأوى للسكارى و المرشدين والمتسولين ومتعاطي الكحول و المواد المخدرة، ومكبا للنفايات ووكرا للرنيلة، كما أشيع عنه أنه مسكن للشياطين و الجن و الأرواح الشريرة. قرّمت هذه الصورة القاتمة قيمته الأثرية والفنية، وشوهت جمال المدينة وشكلت تهديداً أمنياً خطيراً على حياة المواطنين القاطنين بجانبه. وأمام ضغطهم المتزايد و المطالبة بتهديمه، قررت البلدية إزالته لبناء برج جديد سيمسّى برج الأندلس تيمناً به و حفاظاً على الإرث الثقافي "تقرير اللجنة بإزالة البيت من الوجود نهائي ولا رجعة فيه، المطلب حكومي و شعبي و صحي و أممي، لا شيء ينفع إلا الحل الراديكالي والنهائي".² وهي عازمة على بناء برج بمائة طابق به مطاعم ومحلات و أسواق لتغيير

¹ -واسيني الأعرج: البيت الأندلسي، ص437.

² - المصدر نفسه، ص428.

وجه المدينة، وكحل لمشكل السكن"تناقش الجهات الوصية على قطاع السكن مشروع تهديم المباني الأثرية القديمة وترحيل أهلها، لتبني مكانها أبراجا مثل ما هو موجود في هونغ كونغ و دبي و الرياض و أندونيسيا، فكرة ترميمها مرفوضة نهائيا، لأن الترميم يكلف الملايير و الدراسات أثبتت تهاويها، كما أن الاستثمارات كبيرة وستحل مشكلات السكن".¹

إنه لمن المؤسف، أن كل الأنظمة التي تعاقبت على البيت كانت رحيمة به، بحيث اكتفت بإجراء تحويلات عليه دون أن تغتاله، على عكس أبناء الوطن من أصحاب النفوذ في السلطة السياسية من جيل الاستقلال، الذين هيمنوا عليه باسم الوطنية والتاريخ النضالي، وغلبوا النظرة المادية، وأصرروا على تضييع تاريخهم، و تدمير إرثهم الحضاري جاهلين قيمته ودوره في الحفاظ على الهوية الوطنية و الخصوصية الثقافية، فخرست الثورة رهاناتها، وابتعدت عن مساراتها الصحيحة" الذي يعذبني هو أن كل الأمواج العاصفة التي مرت من قبلكم على مدار قرابة الخمس قرون لم تتجرأ على التهديم، كانت في أحسن الأحوال تضيف له قليلا لتضع ملامس زمنها، ولكنها احتفظت دوما بالمكان حيا"².

تسويغ قرار الهدم جاء أيضا استجابة لمقولة أن التراث إعاقة تاريخية، وهو من مخلفات الماضي التي ينبغي تجاوزها و إسقاطها، لذا وجب التخفيف من حمل الهوية التاريخية للحاق بركب الحضارة و التحديث" نحن في زمن آخر سيقذف بالبلاد إلى عصر النور والعولمة القوية، العالم يسير بسرعة، إما أن نلحق به و إما نستسلم لطاحونته"³. فالعولمة من منطلق سعيها إلى التتميط تغدو عدوا للتراث، لا تكتفي بتقديمه كنموذج

¹ - نبيل علي صالح: الحداثة العربية: مقومات ومعايير، المرجع السابق، ص7.

² - واسيني الأعرج: البيت الأندلسي، ص 429.

³ - المصدر نفسه، ص437.

للتخلف فحسب، بل "تسعى إلى تغيير ومسح البنية التركيبية الوراثية للتراث و جيناته التي توارثها عبر الأجيال، فبتوقف دورة التراث الطبيعية في المجتمعات المحلية التي ينمو بها و يغذي أسس مقوماتها الحضارية، يموت التراث تدريجيا ابتداء من احتضاره في وعي و ضمير المجتمعات المحلية، وانتهاء بموته الحسي على أرض الواقع، ليغدو تاريخا و ماهية لا اتصال لها بالحاضر"¹.

وأصل هذا التفكير ناجم أيضا" عن التحولات الخطيرة والصعبة التي تنجم عن الموائمة بين الأصالة والمعاصرة... بما يتناسب ومتطلبات الحداثة الغربية وقيمها، ومن عقلية الإقصاء والاستبعاد والحجر لكل ما هو أصيل وتراثي يتقاطع مع تلك العقلية المدنية الحديثة... تلك العقلية التي جعلت الحداثة وكأنه يراد لها و منها أن تكون أداة في عملية هدم وتخريب وإبادة لتاريخ بأسره، ولمفاهيم وقيم وحقائق راهنة وقائمة... ومع هذه العقلية، باتت الحداثة تعني: الانقطاع المطلق عن التراث وعن الممارسة التراثية"². وهي نظرة سطحية لإدراك حقيقة التراث، تبين أن هناك خطأ "بين معالم التراث التي هي حركية بتعريفها و بين التاريخ الجامد بطبيعته الذي هو محل الماضي، حيث أخفق و يخفق على الدوام في عبور حاجز الماضي إلى الحاضر، و فرق أساسي بين التراث الحركي و بين التاريخ الجامد، فالتراث حاضر فينا من الماضي، بمعنى أنه ليكون تراثا بمسماه، ينبغي أن يتواصل عبر الزمن، وإذا انقطع و انتهى عند حدود الماضي، فإنه لا يمكن أن يشكل تراثا لنا، إنما يصبح جزءا من ماضينا وذاكرة حضارتنا."³ إن الحداثة الحقيقية" ليست حداثا الشكل والمظاهر وهيمنة جنون الاستهلاك على حساب الوعي والفكر والمعايير العقلية والتراثية عند الإنسان، وهي ليست ثقافة الشكل والحجر على

¹ - وليد أحمد السيد، التراث والهوية و العولمة، مقاربات نظرية أساسية، 13/1020/10 : edu.najah.repository

² - محمد محمود العمالي: الأنبياء، ج1، إيران، دار الحسين للنشر و التبليغ، ط1، إيران، 2000، ص9.

³ - محمد عابد الجابري: التراث و الحداثة، ص45.

حساب ثقافة العقل و البشر¹. فلا أحد ينكر تأثير العولمة على شتى جوانب الحياة، ولا سيما المجال الثقافي الذي يواجه تحديات لا حصر لها تدفعه إلى مراجعة قدرته على التحرك في عالم ليس من صناعته، ومن هنا تتعرض الثقافة العربية لمخاطر عدة بفعل ما تمتلكه ثقافة العولمة من أدوات وآليات تغريبية، تستهدف في النهاية تحويل المجتمعات العربية إلى مجرد مجتمعات استهلاكية عبثية مستلبة الهوية والإرادة. خاصة مع ارتباطها بمفهوم السوق وقيم الاستهلاك، و تركيزها على البعد المادي بعيدا على القيم و الخصوصية والهوية الثقافية، وإحلالها مفهوم السوق بدل الشعوب، والاستهلاك بدل المواطن.

ففي ظل سطوة الشركات متعددة الجنسيات ذات الطابع التجاري النفعي التسويقي على الاقتصاد العالمي، انحصرت القيم الإنسانية و تغلبت القيم المادية، وأسست لقيم براغماتية بديلة تمثل تهديدا للهوية، خاصة حين تكون صورة الذات ظلا للآخر منبهة ومشدودة إليه. وخلق مجتمع رأسمالي أحدث قطيعة بين الاقتصاد و العقائد الثقافية و أشكال التنظيم الاجتماعي، واختزل نفسه في مبدأ الكسب و المادة و المصلحة. وتحرر النشاط الاقتصادي من الغائية و القيم الأخلاقية سواء كانت إنسانية أو دينية، وخضع شكل العلاقات الإنسانية بين الأفراد إلى المصالح، وأضحت قيمة الكسب السريع هي الإطار الحاكم في المجتمع "إذا كان الربح المادي هو بالفعل القضية الأساسية، فإن كل شيء يصبح خاضعا للتفاوض وللإبقاء والإلغاء، وضمن ذلك الخصوصية القومية والمنظومة القيمية والامتداد التاريخي، بل أرض الوطن، فإن كان في الحفاظ عليها تعظيم

¹ - نبيل علي صالح: الحداثة العربية: مقومات ومعايير، مرجع سابق ، ص7.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

للمنفعة الاقتصادية (المادية)، فإنه (إذن) يمكن تطويرها و تمجيدها والتغني بها، أما إذا شككت عائقا في طريق "التنمية"، فلا لابد من التخلص منها بلا هوادة"¹.

و مسألة المتاجرة بالتراث العربي و سرقة بنوعيه المادي و اللامادي ليست بالجديدة البتة، فقد شرّع لها المؤرخون و علماء الآثار الغرب، بدعوى أننا لا نعرف قيمته، و لسنا مؤهلين لحمايته، وهذا الإرث الثقافي منهوب منذ زمن بعيد مع مافيا التنظيمات الإرهابية و شبكات السوق السوداء بمساعدة وسطاء محليين " سرقة الآثار أصبحت دارجة لدرجة أنها تحولت إلى موضة."². تم سرقة العديد من الكنوز الأثرية المتوارثة عن الأجداد والمحفوظة في المتاحف الوطنية" سرقوا الجسم الصغير و الوحيد لماسينيسا، وجدوه قبل سنوات قليلة تحت التربة"³.

لقد أقدمت مافيا العقار بمساعدة من حلقة الضباع على بيع البيت وكنوزه الأثرية، فأكثر من أربعة قرون مرت عليه تعرض للسرقة و التخريب، و نهبت حوائجه الثمينة وبيعت، و قتل بعض أهله، وانتهى بعدها إلى رماد و غبار كنسته رياح خليج الغرباء. تقف وراء هذه العمليات الإجرامية شبكة أخطبوطية تتحكم في الأسعار تباع و تشتري حتى الأجساد البشرية، منذ فتحت السوق في وجه الشركات الأجنبية. و تحولت البلدية إلى سمسار كبير يتحكم في عمليات بيع الأراضي و العقارات، المسألة تتعدها لتصل إلى الدوائر العليا في البلاد "الأرض والحديقة والبيت قد بيعت كلها بما عليها لمستثمر أجنبي مع مستثمرين وطنيين، يريدون أن ينشئوا أكثر من خمسة أبراج في كبريات المدن، أهمها

¹ - عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، مرجع سابق ، ص226.

² - واسيني الأعرج، البيت الأندلسي، ص219.

³ - المصدر نفسه، ص212.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

البرد الأعظم في العاصمة، أكبرها وأكثرها اتساعاً، ستستلم تسييره ثلاث مؤسسات أمريكية، فرنسية ومؤسسة وطنية.¹

من المؤكد أنه لا ضير في الأخذ و الاقتباس من النماذج المعاصرة بدافع الحاجة دون أن يكون ذلك على حساب الخصوصية الثقافية، لكن الغضاضة في تعميمها و جعلها النموذج الأمثل في ظل موجة العولمة، الأمر الذي يفقد العمارة المحلية هويتها ومقوماتها النابعة من قيمها المحلية الأصيلة.

إن التكرار للتراث المعماري وجهل قيمته الحضارية والعبث به، راجع إلى تماهي الثقافة مع الاقتصاد، حيث أصبحت الثقافة منتوجاً يتم تصنيعه والترويج له من قبل النظام الأيديولوجي القائم، و عليه تحول الإنتاج الثقافي إلى سلع ذات قيمة مادية تبادلية، هدفه تعزيز النزعات الاستهلاكية، وضمان استمرار طاعة الجماهير لمصالح السوق. فقد أوجدت ثقافة العولمة شكلاً جديداً من الانتماء الرمزي، بموجبه تحول الإنسان الذي استوعب مفرداتها إلى إنسان جديد، انتمائه إلى القرية الكونية يفوق انتماءاته الثقافية الوطنية و القومية، لاسيما شريحة الشباب.

ومكّن هذا التحول القوى المهيمنة من صياغة ونشر أفكار وسلوكيات تروج للخضوع و الامتثال، وتختزل الرموز والمعاني الثقافية الأصيلة للمجتمعات، وقد تنجح في تغيير شكل ونمط الانتماء و أضعف الهوية والخصوصية الثقافية، تحت وهم حرية الاختيار، وهو اختيار مقنع، تقيد فيه حرية الإنسان و تختزل فعاليته إلى نمط سلبي يتسم بالتكيف والانصياع لما تمليه عليه شروط العمل الاجتماعي التي تحددها التقنيات الحديثة، ومن ثم تنتج مواطناً عالمياً متحرراً من أية قيم خاصة أو معالم ثقافية

¹ - واسيني الأعرج: البيت الأندلسي، ص 427.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

و حضارية مميزة، ليتقبل قيم الثقافة المعولمة التي غالبا ما تكون غريبة الطابع. وقد ثم تدفعه إلى الانسلاخ عن ذاته نهائيا.

وبحكم أن الثقافة المعولمة وما يندرج تحتها، هي انعكاس لهيمنة بعض المؤسسات السياسية والاقتصادية في العالم المعاصر، فضلا عن كونها وسيلة للتبادل الاقتصادي، لا وسيلة لإشباع حاجات حقيقية أو استجابة لمعان عاطفية ووجدانية وجمالية فنية، تم اختزال وتشويه الكثير من الرموز والمعاني الجمالية والاجتماعية للأعمال العمارية المتوارثة فالأکید أنها وتكوين ثقافي مغترب، خليط من الأيديولوجيات المستوردة، تشوه التراث وتطمس معالم الوعي التاريخي. وتكرس للاستتباع الحضاري الذي يعمل على تكريس ثنائية الانشطار داخل الهوية الثقافية العربية بمستوياتها الفردية و الجمعية و القومية.

ولا مرأ في أن ثقافة الاستهلاك المشبعة بالقيم المادية، تعمل على اختراق الثقافات التقليدية في محاولة لدمجها في نسيج البنية الاستهلاكية للثقافة الحديثة، عبر خلق صور ذهنية ذات امتداد عالمي له علاقات مباشرة بالسوق الرأسمالي. وتتأسس على الإنتاج المستمر للرموز و العلامات التجارية، كما تمتد رمزيتها إلى الرموز والمعاني المميزة للجماعات و الأفراد. فما يقدمه السوق، أصبح نموذجا جديدا ينبغي تقليده، بوصفه خيارا جديدا بديلا عن النموذج التقليدي، وجسرا بين الثقافات يربط المحلي بالعالمي و الذات بالآخر، لتكوين ثقافة جديدة تؤسس لعلاقات جديدة أو براديجم جديد لإرشاد المستهلك / المتلقي، إلى معنى اختيار ما يعرض عليه من تجارب جديدة عابرة للقارات، أضف إلى ذلك أن السوق لم يعد مقتصرأ على عرض خدمات و بيعها، بقدر ما ظل يعرض أفكارا،

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

ودلالات مرنة، تجاوبا مع ميوعة نمط الحياة الهشة¹، حيث نجح بمهارة في الجمع بين الريح المادي و تغيير ثقافة الشعوب و أذواقها بصورة طوعية.

لقد ركز الرأسمال المعاصر اهتمامه على الفرد كقوة استهلاكية لا كقوة إنتاجية. ووظفت الخيال لخلق حاجات زائفة عند المستهلك، وتحويله نحو الاهتمام بالمادة و المتعة. وانطبع سلوك الفرد تجاه السوق بالتطبيع و التكيف مع العلاقات والمواقف الاجتماعية وحاجات المنتج و أهداف البنية التقنية، وهذا يؤكد أن الحاجات و الأشياء ليست نتاجا طبيعيا لمبدأ الحاجة و الغائية، بل هي نظام يتوافق مع نظام الإنتاج و الأهداف الاقتصادية المسطرة.، ويعتمد بصورة كبيرة على الدعاية و الإعلام. فاللاقات الدعائية تغزو العاصمة و المدن الكبرى في الجزائر، في كل الزوايا في المقاهي و محطات النقل و دور الأدب و الثقافة، في مداخل الجامعات والفنادق الكبرى والشوارع الرئيسية، وفي رياض الفتح و الحافلات... الخ، كلها تحتفي بالبرج الأعظم الذي يحوي مطاعم و محلات و مصارف و بنوك عالمية، وأسواق حديثة، ومواقف للسيارات ومرافق عمومية" بُرجكم العالي، مساكنكم الراقية، أسواقكم المفضلة، مطاعمكم المتنوعة: الإفريقية، الآسيوية، الأوروبية، والأمريكية، مطاعمكم السريعة: كويك، ماك دونالد، وخبزتي وغيرها، تستجيب لكل طلباتكم و تريحكم الوقت...، شركاتكم القريبة من احتياجاتكم، على بعد أمتار من بيتكم تختصر عليكم المسافات.. فضاؤكم الدائم لقضاء كل حاجياتكم. البرج الأعظم يمنحكم أسواقه العالمية و كل ما تطلبونه"². إنها القوة الناعمة التي لا تلزم أحدا على إتباعها، لكن مصداقيتها العالمية، واسمها التجاري ترغم

¹ - عبد القادر فيدوح تأويل المتخيل، السرد والأنساق الثقافية، صفحات للدراسات و النشر و التوزيع، ط1، 2019، ص27.

² - واسيني الأعرج: البيت الأندلسي، ص117.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

الأغلبية على تتبعها دون تفكير في الأبعاد والنتائج، وبموجبها تتحول سلوكيات البشر من العقلانية والرشد إلى سلوكيات تميل نحو الوجدانية والعاطفة غير المدروسة.

فالمؤسسات الإعلامية الضخمة في ترويجها للقيم سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية تبحث عن أصل ثقافي لها في الثقافات المحلية لمختلف الشعوب. ففي إطار الكوننة والثقافة الامبريالية لم تعد المنافسة التجارية قائمة على جودة السلعة، بل ارتبطت العملية التجارية ببيع الرموز و الصورة، وصارت الرموز المعلن عنها أهم من جودة السلعة ذاتها، وتحولت الثقافة في معناها العام كأسلوب للحياة إلى سلعة قابلة للتداول والتسوق ووسيلة إعلانية فعالة تخترق العقول، وتهتمش القيم الاجتماعية، وتنتزع الخصوصية التاريخية للشعوب عن طريق آلية التقليد و المحاكاة على نحو ما يذهب إليه ابن خلدون في أن المغلوب مولع بإتباع الغالب، كما تستهدف خلق معان تجعلنا نفهم ذواتنا و الآخرين على نحو معين يصب في بحار الاغتراب والتشويؤ.

إن القطيعة الطويلة بين تراثنا المعماري الأصيل والثقافة المعمارية الحديثة أورثنا جهلا بالتراث ورفضاً له، وخلقنا فرصاً لتسرب ثقافات دخيلة عبث بعضها بجوهر حضارتنا، فأخرجها من طابعها التقليدي إلى آخر يتسم بالحدثا و التجديد، أفقد المحيط العمراني العربي أصالته، فغالبا ما يتوارى خلف البنايات الحديثة والفنون العمرانية المستوردة معالم حضارية قديمة مهمشة.

لقد باتت العمارة الحديثة "تعبيرا عن حاجات المجتمع لا عن روحه. ولم يعد المكان يكتسب قيمته برائحة الإنسان فيه وفعله الحضاري وقيمه التاريخية، ولكن أضحي سلعة تخضع لاقتصاد السوق"¹، ما يؤكد وجود إشكال ثقافي مضمّر في علاقة الإنسان المعاصر بتراثه، يستدعي استحداث أنماط معمارية تتناسب مع الخصوصية المعمارية

¹ - محمد الباردى: انشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة، مركز النشر الجامعي، دط، 2004، ص50.

المحلية و التيارات المعمارية العالمية بمدارسها المختلفة، ينظر إليها كنوع من المقاومة الثقافية، ووجب الربط أيضا بين التراث و الفكر، بين الأصالة و المعاصرة و لكن هذا الربط سيبقى ميكانيكيا و سطحيا ما لم نعلم بدمج التراث في ثقافة العصر و ثقافة العصر في التراث. و نقصد بذلك التعامل مع ثقافة العصر بوصفنا نحن، شخصية لها منظومتها المرجعية الخاصة تستند إليها بوعي و تعدّلها بوعي¹. نعم للاستفادة من الفكر الإنساني في مجال العمارة، إنما الرفض لتقليد و استنساخ كل ما هو غربي.

لقد وضعت هذه الرواية الإنسان المعاصر في قلب أسئلة جوهرية تتعلق بالموقف من التراث، لعل أهمها: هل يحافظ الإنسان على الإرث المعماري الأندلسي ليبنى حضارته انطلاقا منه؟، أم أنه يضع تاريخ أجداده طي النسيان و يساير الحداثة بلا ذاكرة و لا تاريخ؟ فالبيت وفق الروائي " هو الوطن العربي ممثلا في الجزائر، هو جشع الطبقات الصاعدة التي لا تتوانى عن إزهاق الأرواح و تخريب البلد لحساب مصالحه الشخصية، هو البلاد العربية و الوطنية الغائبة، التجارة باسم الدين و تطبيق الشريعة باسم المصالح، حيث يبيع الرجال أوطانهم من أجل حفنة مال، و يدفنون التاريخ حين يعارض هواهم. و الصورة الوحشية عن المؤسسة السلطوية في تعاملها مع تراث الأمة، تعكس خواء روحيا و فراغا أيديولوجيا، ظهر في فقدان قيمة الوطن و معنى الهوية الوطنية التي يشكل التراث و التاريخ أهم ركائزها. وفي المدونة تأكيد على قيمة التراث المعماري في التأسيس للهوية، و دعوة إلى صونه و المحافظة عليه، كي لا تغتال الحداثة أصالته، خاصة مع وجود مؤسسة سلطوية مادية متعفنة تبيع الوطن و الذاكرة و التاريخ و التراث. على نقيض: الروخو، سلينا ابنة مارينا، مراد باسطا و حفيده سليم، ماسيكا، يوسف النمس، تلك

¹ - محمد عابد الجابري: التراث و الحداثة، دراسات.. و مناقشات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1،

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

الشخصيات الوطنية التي مثلت الفرد الواعي بأهمية التراث، وتبنت فكرة الدفاع عن البيت و الحفاظ على الذاكرة التاريخية الاندثار و الزوال.

نخلص إلى:

- التراث واحد من أهم المنتجات المحلية المرتبطة بالأمم ارتباطا وثيقا بذاكرتها وثقافتها وخصوصيتها الحضارية، لذا يستحيل إنكار فاعليته في المحافظة على الهوية الثقافية، و لا المفعول الأيديولوجي الذي يمارسه على الفرد و الجماعة بشقيه المادي أو المعنوي. وهو في ثقافتنا ليس بقايا ثقافة الماضي بل هو متممها" إنه العقيدة و الشريعة و اللغة و الأدب و العقل و الذهنية و الحنين و التطلعات، و بعبارة أخرى إنه في آن واحد: المعرفي والأيديولوجي وأساسهما العقلي، وبطانتها الوجدانية في الثقافة العربية الإسلامية"¹.

- الهوية المعمارية انتماء لحضارة معينة و مجتمع متميز، لا تنفصل عن السياق التاريخي والثقافي والاجتماعي لأي مجتمع، فما يقوم الإنسان بتشيدده لا يرتبط بالناحية الجمالية فحسب، وإنما يرتبط بالإنسان نفسه.

- ثقافة الحداثة المعولمة هي أشبه بمصنع يتم فيه إنتاج سلع ثقافية، باستخدام التكنولوجيا المعاصرة والترويج لها عن طريق وسائل الإعلام و الاتصال، وهي ثقافة معدة سلفا طبقا لحاجيات إيديولوجية وسياسية واقتصادية، بمقتضاها يتم إنتاج الناس وفق متطلبات القوة المسيطرة صناعيا، ما يؤدي إلى فقدان الهوية الذاتية و ضياع الفرد داخل نموذج موحد يتواتر إنتاجه، و يضع الفرد ضمن إطار الاستلاب.

¹ - محمد عابد الجابري: التراث والحداثة، مرجع سابق، ص 24.

- إفلاس الثقافة وسقوطها في السلعة أدى إلى تحويل الفعل الثقافي إلى قيمة نفعية تبادلية، وإلى تراجع الدور الفلسفي الوجودي للثقافة، وحرمانها من أن تكون نتاجاً لتجربة إنسانية أصيلة.

المبحث الرابع: الاقتلاع المكاني وتجاذبات الهوية.

المطلب الأول: الذات، الوطن، الذاكرة المجروحة.

قد يقدر للإنسان أن يبعد عن الوطن الذي انبثق من رحم تربته، فيظل وجدانه معلقاً بجغرافية منغمسة في الكيان، بعيدة المسافة، لكنها قريبة من روحه و فكره، ويظل فكره حبيس ذاكرة حبلى بـماض جميل، أما الجسد فهو رهين أخرى مختلفة لغة و طبيعة و ثقافة، واقع في منطقة وسطى عازلة، فلا هو استطاع الرجوع والتحرر من الوطن والذاكرة و الماضي، ولا هو حقق التوائم الكامل والانصهار في المكان الجديد.

وربما تكون هذه الصلة المتينة بالمكان، هي ما ألهم الشاعر الجاهلي الوقوف عليه، وشكّلت مصدر إشعاع عاطفي ومحرك ذكريات، وقد توارث عربي اليوم الاهتمام بالمكان، لأنه عاش مأساة التجربة المكانية، ومازال يعيشها، وخير دليل على ذلك الاستيطان اليهودي في فلسطين والنفي القسري لأهلها وتشريدهم. فالحلم بالحرية و العودة إلى الوطنى و الأرض يشد الفلسطيني و يقوض مضجعه.

و هروبا من الاستعمار وحروب الأقليات الدينية والعرقية، أصبحت الهجرة القسرية، أو النفي الاجباري أزمة إنسانية، وعلامة ضعف في عصرنا، جمعت بين التجربة الشخصية والتجربة الجماعية التي شملت شعوبا تعرضت للتشريد والاقتلاع، و خلقت جروحا في الوعي و الكينونة، وشظيات في الهوية، استدعاها سياق الانفصال و الحنين و الاغتراب، فالمنفي كما المهجر، كلاهما ذات منشطرة بين عالمين، تعيش بأنصاف انتماءات في المنطقة البيئية، تتجرع مرارة الفقد والحرقه و الألم، و تتوسد الهموم

و المشاغل ذاتها، وتحاول لملمة جراحها و تقبل هويتها الرمادية. ذات لا هي انخرطت في المجتمع الجديد انخراطاً كاملاً، ولا هي تمكنت من قطع الصلة بالمجتمع الأصلي الذي ولدت فيه، فظلت حاملة لثقافتها وهويتها، ولكنها أيضاً استوعبت ومارست و جربت ثقافات جديدة في مسيرة حياتها اليومية عبر مؤثرات وآليات ثقافية جديدة.

ولم تعد حياة الهجرة و المنفى والترحال "مجرد عارض تاريخي طارئ، سببه الحروب و رأس المال المتنقل بلا حدود، ولا حالات أزمة يمر بها عالمنا، بل هي بالأحرى المصير التاريخي الأساسي الذي انتهى إليه التيه الإنساني، حالة من العدمية الأصلية طالَت الكينونة الإنسانية بسبب اقتلعه من الأرض الأنطولوجية التي تشبث بها طيلة القرون السابقة، القرن العشرون و ما بعده، هو زمن الاقتلاع و اللاتجذر في أية أرض" إنها ظاهرة تمتد على كامل الكوكب، وتثير اهتمامي بشكل عميق، نحن نعيش في حقبة الهجرة، في زمن السفر القسري و الإقامة القسرية، وهي ظاهرة تضم الكوكب بكل ما تحمله الكلمة من معنى"¹. لقد أصبح عصرنا عصر اللاجئين والمهاجرين والمنفيين والمشرّدين، بسبب الأزمات المأساوية التي هددت الاستقرار الدائم في الوطن.

و لعل الأدب الفلسطيني من أكثر الآداب العالمية التي تكونت في بوتقة المنفى، ولا ينظر إليه إلا بوصفه أدب استبعاد و منفى واغتراب، ومحاولة للحفاظ على الجذور و القيم الأصلية، التي مثلت زاوية النظر الأساسية في تفاعلات الأدباء الثقافية مع المجتمعات المستقبلية له، وشكل حضور الوطن و تيمة الهوية والمرجعية الثقافية الراسخة التيمة المهيمنة في كثير من أعمالهم الأدبية، التي تأثت بفضاء الوطن الزماني و المكاني الأصل، على اختلاف أجناسها خاصة السردية منها، أين يعيد السرد بناء هذه التفاصيل "فرغم التغول المتسارع للعولمة، بقي السرد الأدبي العالمي عبر العصور وفيها للمكان

¹ -دون مؤلف: أدب المنفى و المهجر، مجلة فكر الثقافية، يوم 10-04-2023. www.fikrmag.com topic-detail

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

و الزمان، فكلما ألغت العولمة المسافات و الأبعاد، وجعلت العالم قرية صغيرة، كلما أعاد السرد تفاصيل المكان و الزمان وجعلهما يتوهجان بالتفاصيل في نصوص خالدة، فكان السرد الأدبي يقف تحدياً لتغول العولمة الذي يبتلع كل ما هو محلي و يصهره في إطار كوني¹.

وينطوي هذا الأدب على تجربة تتعلق بالذاكرة الممزقة و بالحنين الجارف و الدائم إلى أرض و ثقافة و ماض تجربة عميقة من الفقد و صدع الهوية "فأكبر محرقة يعيشها المرء هي أن تسرق منه أرضه ويرمى على حوافه المبهم"². هي ذاكرة تتشبث بالوطن مثل العلق، و تتحرك مثقلة بماض جريح، و تدرك جيداً أن الوطن "ليس اسماً يوضع على خارطة، ننام و نستيقظ عليه، قلق شنيع يصعب سجنه في لوحة، أو خارطة أو كتاب"³، إنه رمز الكينونة و الوجود و الانتماء. و رغم تواجد المنفيين في مكان بعيد، إلا أن صلتهم بأوطانهم ظلت قائمة، مع محاولتهم الانسجام في المجتمع الجديد بمستويات مختلفة.

ومن المؤكد أن الرواية هي أحد الخطابات الإبداعية المقاومة للنسيان و المسخ، والكفيلة بحفظ التاريخ و الذاكرة الشعبية و الهوية القومية، و عليه تتخرط رواية كريماتوريوم سوناتا أشباح القدس في الدفاع عن الذاكرة الفلسطينية بوصفها تعبيراً عن الهوية الجمعية. و تتخذ من المأساة الفلسطينية - الجرح النازف للذاكرة الفلسطينية و العربية - بؤرة سردها و منها تتولد أسئلة متنها الحكائي، و يمثل المنفى و الوطن طرفاً الأساسيان، ففضاء الوطن بكل ما يحمله من آلام و أشواق و أفراح ظل الحيز المهيمن على الأماكن "إنه

¹ - جعفر الهادي: السرد الروائي العربي و تحديات العولمة، مجلة البلاد، 15 أكتوبر، 2022، ص 98.

² - واسيني الأعرج: البيت الأندلسي، ص 138.

³ - واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص 450.

هناك حيث الطفولة المسروقة و الأشواق المسروقة و المدينة المسروقة و الذاكرة المنهكة و الحب المقتول¹.

و تعكس الرواية رؤية كاتبها وموقفه من الذات في علاقتها بالآخر، إذ لم يعد الروائي يعتني بالحدث التاريخي لما يحمله من دلالات في الواقع السياسي فقط، بل كرؤية وجودية للكاتب و حمولة نفسية تلف هذا الحدث². وتعبّر الرواية عن هموم الفلسطينيين المتمثلة في فقد مكانه الأول، الذي اغتصب منه بالقوة، وقناعته الراسخة في حق العودة إليه، حيا كان أم ميتا "رواية سوناتا لأشباح القدس هي حكاية وطن يسمى فلسطين، هي مرثية الإنسان و صرخة سرمدية لأوجاع مزمنة، تتأرجح بين الحاضر و الماضي عبر خيوط رفيعة من الذاكرة و الحلم و التداعي و الوصايا، تتزاحم فيها الأمكنة و الأزمنة و الشخصيات باحثة عن وطن يسمى فلسطين".³

استند فيها الكاتب على تقنية التذكر، فجعلها رواية ذاكرة بامتياز، فعن طريق تحريض الذاكرة عبر استرجاع الماضي بكل ما يحمله من آهات و أنات، باعتباره الخيط الذي يربط الإنسان بوطنه و أهله وأجداده، تسترجع مي تاريخ تقسيم فلسطين بإنهاء الانتداب البريطاني و تسليمها إلى اليهود " جاءت فجيرة أخرى صبيحة 15 مارس 1948، لتختم الكل، عندما أعلن الانجليز انتهاء الانتداب بعد أن سلموا كل شيء لجنود

¹ - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص22.

² - عبد المالك أشبهون: الحساسية الجديدة في الرواية العربية، روايات إدوارد الخراط نموذجاً، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2010، ص199.

³ -أوريدة عبود: تماهي التاريخ و التخيل في رواية " سوناتا لأشباح القدس" لواسيني الأعرج، مجلة اللغة العربية، وادي سوف، المجلد 21، العدد44، 2019، ص408.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

الهجانه"¹، الذين باسروا عمليات التقسيم والاستيطان واستهدفوا الأرض والهوية الفلسطينية، وفرضوا سياسة التهجير الإجابري لقطع الصلة بين الفلسطيني ووطنه.

وفي فضاء المنفى نيويورك، يتم بعث مدافن الذاكرة، للتأكيد على أن نسيان الأرض الوطن حالة مستحيلة. فليس المكان بقعة مادية فحسب، بل هو تركيز عاطفي و منهل للذاكرة و امتداد للخيال، و مسرح الأحداث، والأحداث بدورها جزء من تجارب الإنسان و هويته. لقد ظل الوطن محفورا في الذاكرة بكل حاراته و شرفاته و أبوابه و محلاته، الممرات الصغيرة، القلاع العالية القديمة، معبر المغاربة، صوت القرآن المليء بحنين الفقدان، لون التراب، روائح البهارات، وعبق الورود والنوار الطبيعي.

تتعلق في الرواية سيرة الجرح فلسطين في محنتها، أين أصبحت فضاء عدما، تتكسر فيه أشكال الموت والإذلال والشتات و النفي، مع سيرة الفنانة مي الفلسطينية، فتحكي معاناتها وابنه ايوبا، و تصف بكل صدق حرقة المنافي وألم التهجير، وتضع القارئ أما مصورة وحقيقة هذا الإحساس، في محاولة للفت أنظار العالم إلى حجم الجرح والأسى الذي ينهش أجيالا من الفلسطينيين المهجرين.

و بلغة الفن والإحساس الراقى، بلغة الهشاشة، هشاشة الفراشات، بالريشة و اللوحة والقلم، تنشط الذاكرة المكانية، وتتضخم جماليات الوطن، حتى لكأنه الفردوس المرجو، وتتحول القدس حلم الطفولة وبداية الدنيا ومنتهاها إلى لوحة فنية، مشبعة بالحمولة العاطفية، تفوح بكل معاني الحب والوفاء، وتظهر مدى الاتصال بالمكان ذلك المعطى السيميوطيقي الذي "يتغلغل عميقا في الكائن الإنساني حافرا مسارات وأخايد غائرة في

¹ - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص 106.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

مستويات الذات المختلفة، ليصبح جزءاً صميماً منها، فالمكان هو الفسحة التي تحتضن عمليات التفاعل بين الأنا والعالم.¹

وفي الرواية تقفز دلالات القدس من حيزها الجغرافي إلى حيز تاريخي محمل بمعاني الوطنية والهوية الراسخة في ظل الصراع الصهيوني العربي. فالأكيد أن الهوية التي يطرحها سرد المنفى "أساسها المكان المحتل من قبل الغرباء، المكان الذي ينتج الرموز و العلامات الثقافية، الأوطان و القوميات و القيم من سمات الهوية الجماعية، يحيا الأنا في قلب جماعة بشرية تنتمي إلى تاريخ و حضارة، هويات مستمدة من التطابق و التماثل بين الفكر و الواقع، وتطابق الذات مع نحن"².

فمي مثال لكل المهاجرين الذين أجبرتهم ظروف أوطانهم على الهجرة و البحث عن وطن بديل، ظروف رسمت مسارات حياتهم على الرغم منهم، وفرضت عليهم تجربة الخروج والقتلاع من مكان الولادة والطفولة "المكان الفاعل الذي يوحي بدلالة خاصة على تبلور كيانات ثقافية واجتماعية، ويحمل دلالات رمزية ودينية وأسطورية، مكان للعيش ينطوي على وظائف تشكل لحمة متماسكة في استمرارية الوجود الإنساني"³.

لقد ظلت القدس "قنديل الذاكرة، يطعمها بلا توقف أو نسيان، بأناس القدس وحواريها و أروقتها وفراشاتها وألوانها، لم يضع شيء من ذاكرة مي، ولم يسقط أي اسم، تحوي القدس داخلها متوهجة حية طيلة تسع وخمسين سنة، منها إحدى وخمسين سنة قضتها مي في نيويورك، مدينة الأضواء و الضباب و الجنون، ولكنها لم تمح شيئاً عن قدس مي، لم تقنع وجها من وجوه أحبة مي في القدس (...)، احتفالاتها و صلواتها في الأعياد

¹ - خالد حسن حسين: شعرية المكان في الرواية الجديدة، الخطاب الروائي لإدوارد الخياط، مؤسسة اليمامة، ط1، الرياض، 2000، ص 06.

² - أحمد شحيط: المكان الضائع في سرديات الرواية الإفريقية، مؤسسة هنداي، ط1، 2020، ص24.

³ - المرجع نفسه، ص23.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

الدينية"¹. على امتداد تلك المدة الطويلة، ما فتأت مي تذكر وطنها" لم أكن أرى نيويورك، لكنني كنت منغمسة في أحياء القدس القديمة، التي كانت تنزلق من بين أصابعي المرتعشة مثل الرمل الجاف."²، تذكرها " أوراق أشجار البلاطان في أمريكا حيث لونها الآجوري شبيه بلون القدس وحيطانها وتربتها. وتشم رائحة وطنها من خلال رائحة فلافل أبي نجيب"³، التي تستحضرها عبر ذاكرتها.و عبر ترديد أغاني أجدادها الأندلسية، الذين سرقت أرضهم و أشواقهم منذ ثمانية قرون ونييف:

آه يا أسفي على ما مضى

من ذاك الزمان اللي فات و انقضى

آه يا فرقة الديار، ديار الأندلس

ما هانوا علي، ما هانوا علي."⁴

ولأن الإنسان يستعيد اللحظات البانية لمفهوم الانتماء، من خلال استعادة المكان، و إيجاد معادل موضوعي، يرتبط بمجموعة من العناصرو التفاصيل والأحداث و المواقف، التي يتشكل منها مفهوم الوطن. أسست مي بنيويورك مطعما عصريا بحلة شرقية، تستعيد من خلاله رائحة الوطن و الأهل" الذين يزورون هذا المطعم بالذات لا يأتون فقط للأكل والشرب، ولكن للتمتع بالموسيقى و التجول عبر المعرض الفني. للشرق رائحة يريدون أن يعثروا عليها في الألوان والوجوه و اللغة."⁵.

¹ - آمنة الرميلي: سوناتا لأشباح القدس لواسيني الأعرج، الذاكرة ولعبة الكتابة، مجلة القدس العربي،

www.alquds.co.uk/10/2012

² - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص 147.

³ - المصدر نفسه، ص 147.

⁴ - المصدر نفسه، ص 147.

⁵ - واسيني الأعرج: البيت الأندلسي، ص 329.

إن المنافى طاحونة قاسية و قاتلة، وليست قصصا ممتعة نقرؤها، إنها مصائر ناس تحن وتتألم، وتبحث عن اعتراف، وقد تموت وحيدة " قد يبدو المنفى مجرد كلمة صغيرة، ولكنها مثل النار، تخبئ و راءها إرثا ثقيلًا و مرا مخترقا بالأشواق و الفقدان و مؤثثا بالسعادات الهاربة".¹، فأقصى عقوبة تسلط على المرء هي أن يقذف به خارج وطن، سيظل معلقا في الذاكرة، يعيش على وجع المنفى واغتراب الروح وحلم العودة. و بلغة الشجب و الاستنكار، تساءلت مي عن " القانون الذي يحرم إنسانا من رؤية أرض نبت فيها و عجن من تربتها وشمسها، أكثر من ذاك الذي سرق الأرض"²، وعن مرارة شعور الاقتلاع من الوطن " هل جربت أن تسرق منك مدينتك الوحيدة، بالضبط في اللحظة التي بدأت تعرفها فيها وتستنشق كل صباح عطر تربتها؟ أنا جربت ذلك وأشعر بعنف الغياب"³. و أيقنت بعد طول فراق، أن القدس سرقت منها، ولم تعد أرضها " أعرف أن القدس لم تعد قدسي، لقد سممتها أشباح كثيرة لم أعد أعرفها"⁴، هو وضع عمق مأساتها و جعلها تعيش مفارقة وجودية، تجسد حالة الذات المتصدعة و المغترية، الذات المجتثة من جذورها المنفصلة عن المنبت، والمنقطعة الوصائل مع الأهل ودفء العائلة، الذات المثقلة بهواجس القلق والإحساس الحاد بالاغتراب و العزلة، الذات المتأزمة الباحثة عن هويتها و وجودها وانتمائها الثقافي خارج فضاءات الوطن الأم، أين يغدو البحث عن الوطن بحثا عن الروح في الجسد. فكثيرا ما تمنى العودة حين يعصف بها الحنين الجارف، ويشد بها المرض " لا أعرف سر هذا الحزن كلما انتابتي أرضي الأولى، مثل المرض العضال و الخوف الذي لانعرف له مصدرا، مع أنني قضيت حياتي كلها في هذه

¹ - واسيني الأعرج: أنثى السراب، ص354.

² - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص 85.

³ - المصدر نفسه، ص 93.

⁴ - المصدر نفسه، ص185.

المدينة في مقاومة هذه الفكرة.¹، "أتمنى أن أرحل و لو بروحي و آخذ حفنة من تراب القدس و أشمها، ثم أزرعها على الفراش، و أتوسدها كأبي درويش مأخوذ بسحر المتهم".². وعندما يئست العودة، انتهت فقط أن يبعثر رمادها "على مياه نهر الأردن، ربما وجد طريقه نحو جذور هذه الأرض، وفي أحياء القدس العريقة التي عجنت طفولتي، (...). ومقام جدي العظيم سيدي بومدين لمغيث".³.

لا شك في أن كل خطاب ثقافي يحمل مؤشرات الهوية الثقافية، و يعمل على تجلية الهوية التاريخية والحضارية و تكثيف مظاهرها، وقد اختارت مي "الريشة و السكينة الحادة و الفرشاة، أدوات لتقطيع الزمن والألم و الألوان وإعادة تركيبها"⁴. وبثت نفيها و حزنها في لوحاتها، التي وضعت فيها كل معاناتها و شوقها لأرض أجدادها، و حكاية شعب شرد، فعاش وحشة المنفى والاعتراب، و الحرمان و مرارة الواقع، في "محاولة تثبيت لمحيط ظل ينزلق من بين أصابعها كالرمل الناشف، يغلب على عملها الأصفر و الأحمر و الرمادي، ألوانها المفضلة تختبئ من ورائها بخجل ظلال مدينة قديمة تشبه القدس بقببها و كنائسها"⁵، و استطاعت بفنها تحويل المنفى إلى طاقة إبداعية، و مصدر إلهام لا ينضب، يفتح فضاءات جديدة للنفس و آفاقا عديدة للبصر و البصيرة، ففي لوحة نيويورك هسهسة الأوراق الميتة، لوحتها الأخيرة، اختصرت آلامها وشوقها الكبير لأرض لم تعرفها إلا في الطفولة، وترجمت من خلالها ملامح هويتها المنفية القلقة المنشطرة بين عوالم عديدة، ذات مشتتة بين الماضي و الحاضر، ومرتدة إلى ذكرياتها و دفء ماضيها "أشعر أحيانا أنني متشظية في الأعماق بين أوطان متعددة، ووطن كان اسمه فلسطين،

¹ - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص 46-47.

² - واسيني الأعرج: البيت الأندلسي، ص 386.

³ - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص 138.

⁴ - المصدر نفسه، ص 74.

⁵ - المصدر نفسه، ص 61.

فأستعير له بالقوة اسما آخر لا علاقة له بوجوداني، ووطن ثاني منحني القدرة على الحياة و الحرية، اسمه أمريكا، ووطن خفي لا يراه أحد غيري تماما اسمه الطفولة.¹ لقد ألقت نفسها في عالمين متباينين، وبين هويتين وثقافتين مختلفتين أو أكثر. تنتمي لكلا العالمين، دون أن تنتمي لأي منهما انتماءً كاملاً، تعيش في أمريكا كمواطنة وتحمل جنسيتها، لكنها ظلت أبداً تشعر أنها في غير مكانها المناسب.

واعتمدت مي الكتابة والفن أداة تواصل بين الماضي و الحاضر و المستقبل، ونداء للآخرين الغائبين لأجل التحاور و التواصل معهم. و حاربت بها النسيان محاولة إعادة بناء المكان والذاكرة وتثبيت للهوية، وضمنت لوحاتها أحلامها و آلامها وهمومها، واستيهاماتها و تمثلاتها عن الفضاءين "كانت كلما رسمت أو حتى كلما تكلمت، تتألم و تتمزق، كل سنوات عمرها لم تحدث إلا بياض اللوحة و الألوان و نزيها و ذاكرتها الجريحة".² لقد مثل الرسم صلة الوصل بين فضاءي الوطن الأصل و الوطن الثاني، وكان المعيار الذي حققت به استقرارا نفسيا مؤقتا. وحافظت بكراستها المحفوظة في الصندوق الخشبي على ذاكرة بأكملها، الكراسية النيلية، كانت أكثر من أوراق، كانت الخيط الذي يربطها بوطنها الأول قبل التهجير، في ذلك اليوم البارد الثقيل الذي رأت فيه أهل مدينتها ينفون دون عودة، ضاقت البلاد بهم ولم يعد بالإمكان البقاء فيها، جزء منها اغتصب بالقوة، والآخر سيؤخذ بالسياسة والتقسيمات.

في الكراسية، كتبت مي حكايتها مع ذاكرتها و راهنها، ماضي القدس و الطفولة والفراشات والعائلة والألوان، وحاضر نيويورك المنفى و الاغتراب والموت. فيها شيء من ذكرى المكان وجواز سفر للعودة إلى الوطن المسروق، رمزية أدركها يوبا الابن، فسارع

¹ - المصدر السابق ، ص ص180-181.

² - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص31.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

بها إلى أمه، التي ترقد بمستشفى السرطان، تنتظر أجلها " هي بالنسبة لك كل ما تبقى لك من أشياءك الجميلة التي سرقت منك: لا تهتمي خليها بجانبك، فهي صوتك الذي يناديك دائما، وأرضك الجميلة التي تأوين إليها كلما ضاقت عليك سبل الدنيا "¹.

وللأسف، لم يقدر لمي، كما غيرها من ملايين المنفيين و المهجرين العودة إلى الأوطان، و تنفس نسيمها وإرواء عطشهم و جوعهم منها، وأسدل الستار على حياتها المثقلة بالغصص و مرارة الفقد، بعد صراع طويل مع سرطان الرئة، لكن يوبا أبى إلا أن يجسد سوناتا الغياب، ويكمل سمفونيته، ويحقق مشروعه الكبير عن أجداده الأندلسيين، الذين انتزعوا من تربتهم، تنفيذا لوصية والدته وتحقيقا لحلمها " أجدادك يستحقون أن ننتبه لهم و أن نعيدهم كامل محبتنا."². هو حب للأجداد أورثته مي ليوبا، بالرغم من أنها حاولت حرمانه منه كي لا يعلق بين سماءين " لقد حاولت قدر المستطاع أن أبعدك عن شبح الأجداد، لأنني كنت أظن أنه يمكنني أن أخون تاريخا صغيرا مقابل الحفاظ عليه بعيدا عن هوس الهويات المعطوبة والممزقة إلى ألف قطعة...ولكن الدنيا تجبرنا أحيانا على فعل ما لا نريده."³ و أراد أن تلامس نواته فراشات القدس أشباح مي و أحلامها، وأن تسترجعها و تخلدها "بالضبط هذا ما كنت أريده، و أبحث عنه طوال السنوات التي انقضت، فراشات القدس هكذا أسميه، لقد نشأ من تمزقي و أشواقي"⁴، وقد حملت من ذاكرتها و روحها الكثير "هذا هو بالضبط مفصل السوناتا، التي تجسد أحلام مي، وهي تفتش في جرحها عن لون لمدينتها المسروقة."⁵.

¹- واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص25.

²- المصدر نفسه، ص129.

³- المصدر نفسه ، ص 83.

⁴- المصدر نفسه ، ص 83.

⁵- المصدر نفسه ، ص32

و في رواية البيت الأندلسي، يحضر الجد غاليلو (الخليل بن أحمد) كناقل و حافظ و مدون لتراث و تاريخ أجداده الموركسيين من خلال احتفاظه بالمخطوطة الأندلسية، ويؤدي العم مراد باسطا حفيده دور حارس هذا الموروث الثقافي.

و"تطرح أوراق المخطوطة قضية هجرة الموريكسيين و الأهم فهي أقرب لأدب المذكرات، دون فيها الجد غاليلو مجريات الأحداث التي صاحبت تهجيريه من وطنه الأندلس و منفى مريرا دام ثمانية قرون انتهى بمذابح"كل ما سمعته منك اليوم يضعني أمام تاريخي و أنا أجز من جبال البشرات، ثم في كنيسة الموت في غرناطة، على حواف المارية أتمزق بيأس"¹.

اضطرارالروخو إلى الخروج من الأندلس جاء عقب حملات التهجير القسري و التطهير العرقي التي شنتها محاكم التفتيش الإسبانية لتفريغ الأندلس من الوجود الإسلامي و اليهودي، المنفى كان بداية حياة حملت معها الشقاء و الألم و ربما الفرح و الأسئلة، ركب سفينة التهجير و آلاف من المهجرين نحو الجزائر، تاركا وراءه و طنا ينزف و تفاصيل حياته و حبا لسلطانة بالاثيوس المارونية من يهود الأندلس يكاد يكون مستحيلا، حب سيحارب حتى ينتصر"كنت أنا و أهلي سنبيع كل شيء أعمارنا و أموالنا، مقابل ألا نفصل عن تلك الأرض التي سرقت من تحت أرجلنا، ربما لم تكن لنا، ولكننا بالتأكيد كنا لها، لم تكن إلا هي، ولم نعرف غيرها"². لم تكن الأندلس بقعة مادية فحسب، بل كانت جزءا من الكينونة و الوجود، فعلاقتنا بالمكان" تتطوي على جوانب شتى و معقدة تجعل من معاشتنا له عملية تجاوز قدرتنا الواعية، لتتوغل في لأشعورنا... و الإنسان لا يحتاج فقط إلى مساحة فيزيقية جغرافية يعيش فيها، ولكنه يصبو إلى رقعة يضرب فيها جذوره

¹ - واسيني الأعرج: البيت الأندلسي، ص 291

² - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص 291.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

وتتأصل فيها هويته"¹، ولطالما لعب المكان دورا أساسيا في تعزيز الهوية الثقافية و مواجهة الآخر المخترق، باعتباره موقعا رمزيا مقدسا للذاكرة و المخيال اللذين تكونا تاريخيا و" معطى سيميوطيقيا، يتغلغل عميقا في الكائن الإنساني، حافرا مسارات وأخاديد غائرة في مستويات الذات المختلفة، ليصبح جزءا صميما منها، فالمكان هو الفسحة التي تحتضن عمليات التفاعل بين الأنا و العالم"²، و لا شك في أن مفهومه يتلخص في " أنه الكيان الاجتماعي الذي يحتوي على خلاصة التفاعل بين الإنسان و مجتمعه، ولذا فشأنه شأن أي نتاج اجتماعي آخر يحل جزءا من أخلاقية و أفكار ووعي ساكنيه، ومنذ القدم كان المكان هو القرطاس المرئي والقريب الذي سجل عليه الإنسان ثقافته و فكره وفنونه، مخاوفه و آلامه و أسراره، وكل ما يتصل به و ما وصل إليه من ماضيه ليورثه إلى المستقبل، دلالة المكان و ما يحمله من علامات وطقوس دالة على شعوب لها حضارة عريقة في تاريخ"³.

ولعل ألم المنفى و الحنين إلى الوطن هو ما جعل الروخو يشيد البيت الأندلسي في الجزائر الوطن الجديد، وينقل إليه المعالم الحضارية الأندلسية ذات المعاني الرمزية لاسيما المعمار و اللغة و بعض العادات والتقاليد، و يسترجع من خلاله وطننا ضائعا "هذا ما أراده الروخو الذي يحارب في القرن السادس عشر من أجل عودة ما يمكن عودته، لا من أجل البقاء في الماضي، بل من أجل السيرورة التاريخية، الإبادة التي تعرض لها بلده و أهله، إلا أنه مفتوح الأفق على أنظار جديدة لأرض أحبها و صارت

¹ - سيزا قاسم، يوري لوتمان و آخرون: جماليات المكان، ط1، دار قرطبة، 1988، ص63.

² - خالد حسن حسين، شعرية المكان في الرواية الجديدة، الخطاب الروائي لإدوارد الخياط، مؤسسة اليمامة، ط1، الرياض، 2000، ص06.

³ - أحمد شحيط: المكان الضائع في سرديات الرواية الإفريقية، مرجع سابق، ص26.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

وطنه، وستكون وطننا لأجيال من بعده، حيث بنى رسمه لموروث هناك، وهو بيته الأندلسي في وطن آخر، وهو الجزائر¹.

لقد ظل الوطن المسروق حيا، لم يغب لحظة واحدة عن ذهنه، فكثيرا ما كان يطيل الوقوف على البحر، معلق القلب، مشدود النظر إلى القوارب والسفن على أمل العودة " في لحظات الألم والغبن والكبرياء و صفاء الذهن، كان يصعد إلى أعلى قمة من قمم جبال امسيردا، ويرمي بصره بعيدا، مخترقا كل الحواجز الطبيعية ليستعيد أندلسا صارت اليوم نثار حلم مستحيل. "²، وحين يئس العودة، جلب أندلسه إلى منفاه، ونقل غرناطة إلى بيته الأندلسي، و جمع فيه كل الزهور و النباتات التي تفوح بعطر الوطن "مسك الليل الإشبيلي، ياسمين غرناطة، وردة الشام، عنب بزول الوردية، جاء به من جبال البشرات المتوحشة، التفاح الأندلسي."³. فكل التفاصيل في البيت تعبق برائحة أرضه الأولى و أجداده، أشجاره و مسكه و نافورته وموشحاته الأندلسية والفرقة الموسيقية، وتؤكد أن "البيت ليس قبرا صامتا، و ليس مساحة خالية من الأحاسيس."⁴، إنما هو الوجود و الهوية الراسخة، التي تأتي الاندثار، والتي لن تحدد إلا في وجود مرتكزات، عقديّة وفكرية، ولعل أبرزها الفضاء الجغرافي "إن الإنسان لا يحتاج إلى مساحة فيزيقية جغرافية يعيش فيها، ولكنه يصبو إلى رقعة يضرب فيها بجذوره، وتتأصل فيها هويته، ومن ثم يأخذ البحث عن الكيان والهوية شكل الفعل على المكان لتحويله. إلى مرآة ترى فيها الأنا صورتها"⁵. هي مقولة تقيم علاقة بين الهوية المعمارية هوية المكان و هوية الإنسان الثقافية. فالبيت في ظاهره انجاز مادي محسوس، لكنه في جوهره إبداع يترجم

¹-وسيلة سناني: في نظرية النقد الثقافي، دار فضاءات للنشر، ط1، عمان، الأردن، 2006، ص131.

²- واسيني الأعرج: أنثى السراب، ص352.

³- واسيني الأعرج: البيت الأندلسي، ص130.

⁴-المصدر نفسه، ص64

⁵- سيزا قاسم، يوري لوتمان و آخرون: جماليات المكان، مرجع سابق، ص63.

خلجات الذات الإنسانية، ورؤيتها الوجودية و ذوقها الفني الجمالي " إن لهذه الدار، دار لالة سلطانة بلاثيوس قصة غريبة وكبيرة تعيدني إلى زمن كم اشتهيت أن أنساه و ألا أورثه لأحد. لكن في هذا البيت بعض دمي و صراخي و سعادتي".¹، ذلك أن علاقة الإنسان بالمكان أعمق من أن يكون حيزا جغرافيا محضا، إنه يبعث شعورا بتجذر الذات و رسوخها، إنه يتعلق بالكيان والوجود و الهوية و الانتماء. فكلما تعلق به الإنسان اكتملت إنسانيته، إن " المكان الأول الذي يتجذر في الذات الإنسانية، هو البؤرة المركزية التي تستقطب تفاصيل الحياة الشاملة و النواة الخفية التي تتمحور حولها التجربة الشعرية".².

وجد الروخو نفسه وعالمه وهويته وجذوره في البيت الأندلسي الذي بناه بأنامله، لذلك أصر على البقاء فيه، وظل ملتصقا بحجارتة حتى قضى، مؤمنا بأن "مغادرة البيت تقطع الحبل السري بيننا، وبين حجارتة وأنفاسه"³. وموقنا " أن البيوت الخالية تموت يتيمة"⁴. ظل يكرر على مسامع أبنائه و حفدته والمحيطين به وصاياه: " حافظوا على هذا البيت فهو من لحمي و دمي، ابقوا فيه و لا تغادروه حتى و لو أصبحتم خدما فيه أو عبدا"⁵.

لقد أظهر التاريخ البشري " أن الشعوب تزداد اشتغالا بماضيها الموسيقي حين يكون حاضرها مأزوما (...)، فالأزمة التي تطال الأنا الحاضر تدفع تلقائيا إلى البحث عن الأنا الماضي بالعودة إلى مؤشرات موسيقية تعيد لذاته المضطربة اعتبارها من جديد".⁶ لذلك، وعقب التحاق لالة سلطانة بالروخو في وهران، كونت فرقة موسيقية بمساعدة المرحلات

¹ - واسيني الأعرج: البيت الأندلسي، ص 64.

² - إبراهيم رمانى: المدينة في الشعر العربي، الجزائر نموذجاً، الهيئة العامة للكتاب، ط1، مصر، 1997، ص 205.

³ - واسيني الأعرج: البيت الأندلسي، ص 384.

⁴ - المصدر نفسه، ص 31.

⁵ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁶ - سمير بشة: الهوية و الأصالة في الموسيقى العربية، المرجع السابق، ص 132.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

القديمات والجديدات من غرناطة، واخترن لها اسم جاهاركا أو لا كازا أندلوسيا، أي البيت الأندلسي. واستحضرت في عزفها و فرقتها الموسيقية الأندلسية المصطلحات الموسيقية الأندلسية، كالنوتة، الوصلة، النوبة، التوشية، لخلق ألفة مع الوطن الجديد الجزائر. ويأتي حبكها الجيد داخل نصوص الرواية كوسيلة لنقل معالم التراث الأندلسي، و تأكيداً على رسوخ الأصالة و الهوية الثقافية. فاستحضر الموروث الشعبي بتتويغاته من موسيقى و حكايات، وأغان وأشعار وأمثال، وأحداث تاريخية ومرويات، و شخصيات وطنية و قومية، يضفي عراقة و أصالة، و يمثل نوعاً من الامتداد في الماضي، وهو سلاح فعال ضد النسيان وإمكانيات طمس الهوية وتدجينها، و ضد كل محاولات الاختراق الثقافي، وهنا تظهر أهمية تفعيل التراث، و توظيفه فنياً وأدبياً لحفظ الهوية و الخصوصية الثقافية.

إن المادي و الإنساني لا ينفصلان، وإن قراءة الماضي و التاريخ تتم من خلال المعالم الفيزيائية للمكان، لذلك شكل البيت جزءاً من الذاكرة والتاريخ، وشاهد مادي يسجل حضوره و يستمر في ربط الأجيال، و قد ساعد هذا التراث على التأليف بين الهويات المتباينة، و بناء كيان موحد قادر على صون الهوية من خطر التلاشي والاضمحلال، "فهذا التراث يمتلك خيطاً سحرياً يجمع بينه و بين أهله، وإن هذا الخيط يمثل رابطة وجدانية تربطه بهم و يجذبهم إليه، فهو السبيل المتواصل بينهم، لأن الشعوب تتواصل بقدر ما يتناغم فيها من قيم وسلوكيات مشتركة تمر بالتعاطف و التقارب الروحي"¹. لقد حمل البيت الأندلسي ذاكرة أمة، وهوية حضارات تعاقبت عليه" السكان الأوائل، الرومان،

¹ - محمد قرانيا: التراث و الأصالة المعاصرة، ملامح و نظرات، المعرفة السورية، العدد 390، آذار نيسان، 1996، ص ص 37-38.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

المسلمون، الأندلسيون، الأتراك، الفرنسيون، ثم ناس ما بعد الاستقلال¹، كل وضع بصمته الخاصة في المكان و أضاف عليه جزءا من هويته.

و لأن للأجداد والتاريخ رائحة خاصة، أقدمت وزارة التربية في خطوة محمودة، على تعريف التلاميذ بتاريخهم وتراثهم وموروثهم الحضاري المادي و اللامادي، فقررت في إطار برنامجها "أيام التراث"، فتح أبواب المتاحف والبيوت القديمة أمامهم. استقبل مراد باسطا تلاميذ مدرسة الاستقلال في البيت الأندلسي، ليعلمهم " أن التاريخ ليس بعيدا عنهم، إنه في أكلهم وبيوتهم و ألبسة أهاليهم"². وبما أنه ينتمي للماضي، فهو جزء من هويتهم الثقافية، وسيبقى حاضرا فيهم و معهم، هو حقيقة اختصرتها مقولته: "للمخطوطة رائحة خاصة جدا، لها مفعول غريب على كل حواسي الباطنية."³، و عبارة تؤكد أن المكان بالنسبة له تجاوز كونه رقعة جغرافية معينة، و تحول إلى قيمة رمزية، حملت في طياتها ذاكرة شعب جماعية و أخرى فردية، ولا يزال يذكره بآلام من سكنه و آمالهم، بجراحاتهم و أفراحهم، بنجاحاتهم وإخفاقاتهم، وبجحيم النفي وصرخات الاستغاثة وهم يجرون نحو الجحيم، وبروائح الليمون و البرتقال و الياسمين الإشبيلي ومسك الليل " تصوري يا سارة، إلى اليوم ما زلت أشم روائح من عبروا من هنا منذ أكثر من أربع قرون (...). أحس الوجوه و علامات حيرتها، أسمع الصرخات القادمة من بعيد، و أحدد مصادرها و أسباب نزفها، لا شيء يمر بالصدفة في هذا البيت، لقد سجنني و أعتقد أن كل الذين أحبوه سجنوا فيه"⁴.

¹ - واسيني الأعرج: البيت الأندلسي، ص121.

² - المصدر نفسه، ص129.

³ - المصدر نفسه، ص50.

⁴ - المصدر نفسه، ص54.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

و حين أقرت اللجنة العقارية هدم البيت الأندلسي، سارع إلى مراسلة رئيس البلدية ومدير الديوان العقاري، ووزير العدل لإنقاذه، لكن المحكمة قضت بعدم أحقيته به، وأسقطت حقه في توارثه من أجداده، بحجة أنه ملكية للدولة، ولها مطلق الحق في التصرف فيه و استثماره، وفي المقابل قررت تعويضه ماديا، بحيث سلمته بيتا حديثا و مبلغا ماليا كباقي الورثة، بيت وجده مراد بلا روح و لا رائحة، فأعاد فيه بعث ماضيه، ونقل إليه تاريخ أجداده بما تبقى من أثاث و نبات وأزهار، محاولا "تجسير المسافة في الزمان و المكان بين حياته اليوم وحياته بالأمس"¹، و إحياء عوالم لم تعد موجودة، واستعادة أمكنة كان لها الأثر الكبير في تكوين هويته. وهو بذلك يحافظ على ذاكرة الوطن و المكان المفقود، عبر استعادة جغرافيته وتجاربه فيه.

ومن المؤكد أن استمرارية التراث تتحقق بحضور السلف في الخلف، هذا الأخير يمثله سليم، الوحيد من الأحفاد الذي ارتبط بالبيت بشكل غريب، كان يملك الفضول للبحث عن تاريخه وتاريخ العائلة و الموركيين أجداده، كان مولعا بكل ما هو قديم، فتعلم كيف يتنفس عطره وروائح و ذاكرته، لذلك درس علم المكتبات و حضر دكتوراه في الحفاظ على الوثائق، وتوظف في قسم المحفوظات في المتحف الوطني، هو من أسس هذا الجناح، وزوّده بمخطوطات قيّمة من "أدرار، بسكرة، الطاسيلي و حتى تومبوكتو، واشترى نسخا مصورة من مخطوطات نادرة من أسبانيا ووضعها تحت تصرف المؤتقين والمحققين، وجاءنا من قسنطينة من عائلة لفقون بأجمل المخطوطات الأندلسية."²

¹ - إدوارد سعيد: خارج المكان، تر: فواز طرابلسي، دار الآداب، ط1، بيروت، لبنان، 2000، ص22.

² - واسيني الأعرج: البيت الأندلسي، ص.13

و درس خلال مسيرته العلمية أربعة وثائق موريسكية¹ الأولى نسخة نادرة من ألف ليلة وليلة، هربها الشيخ لفقون مع مخططات أخرى، من بلنسيا إلى قسنطينة (...)، الثانية القرآن الموريسكي، وجده عند العائلة نفسها، كتب بالخيميادو.¹، تلك اللغة التي ابتدعها الموريسكيون عندما كانوا "محاربين في حياتهم و دينهم، كتبوا بها نصوصهم و قرآنهم، وتفاسيرهم و قوانينهم، ليدافعوا بها عن أنفسهم، كانوا يرفضون أن يموت تاريخهم"². ولفك رموز لغته اضطر إلى الإقامة في إسبانيا مدة أربع سنوات، وكأن صوتا عميقا كان يناديه من الأقاليم، والمخطوطة الثالثة هي "نوح الطيب للمقري كاملة وغير منقوصة (...)"، ومخطوطة جده النادرة (...)، أوراق غاليلو، سيدي أحمد بن خليل.³ التي حاول جاهدا أن يقنع جده بوضعها في المتحف الوطني حفاظا عليها من التلف، فهي مخطوطة نادرة عن هجرة الموريسيين، وبداية حياتهم في الجزائر قبل خمسة قرون⁴.

إن الرغبة في الكشف عن حقيقة المخطوطة وتاريخ الموريسيين، هي مؤشر على حنين فياض لمعرفة الأصول والهوية المفقودة، هذا الشغف أصاب ماسيكا ذات الأصول الموريسكية من جهة أمها، لقد ابتليت بعدوى البيت، فجعلته قضيتها الأولى رغم أنها غريبة عنه" لم أقم أبدا في البيت الأندلسي ولو يوما واحدا، ولست وريثة لاشريعة و لا غير شرعية لممتلكاته. ربما كان إحساس أمي الخفي و جاذبية أصولها البعيدة، هو الذي قادني نحو هذا البيت.⁵، و" يبدو أنني تورطت في البيت الأندلسي و أصبحت أعرفه أكثر من الذين سكنوه و أقاموا فيه."⁶ وازداد هوسها به، فأنفقت عمرا و مالا ليسا بالقليل

¹ - المصدر السابق، ص 57.

² - المصدر نفسه، ص 145.

³ - المصدر نفسه، ص 58.

⁴ - واسيني الأعرج: البيت الأندلسي، ص 13.

⁵ - المصدر نفسه، ص 07.

⁶ - المصدر نفسه، ص 22.

وخاطرت بحياتها لفك ألغازه والإمام بتاريخه، خاصة وأنها تتقن لغة الخيميادو" لقد قضيت أكثر من عشر سنوات أرتب هذه التنقلات المختلفة التي جعلت من فكرة الوصول إلى شيء مقارب للحقيقة أمرا صعبا، حتى ظنني البعض محققة مدنية في قضية غامضة.¹ حتى أنها خاطرت بحياتها، وكادت أن تهلك إثر حريق مهول مقصود استهدف البيت، واستطاعت بشجاعة نادرة إنقاذ المخطوطة، لكنها أصيبت بحروق شديدة.

كما تحضر رواية الأمير عبد القادر، مسالك أبواب الحديد، كدليل قاطع على أن انفتاح المرء على الآخر المغاير ثقافة ودينا ومعتادا، و قبوله بالاختلاف و التعايش و التعارف، لا يعني البتة أنه قد تجرد من خصوصيته وانصهر في الغيرية، وقطع جذوره بأرض المنبت، و مرجعيته الفكرية و العقديّة. لقد تشبث الأمير عبد القادر في منفاه في قصر لمبواز، استعدادا لترحيله إلى مكة المكرمة، بهويته العربية الإسلامية التي شكلت حافظا للوقوف في وجه فرنسا، فبرغم طول مدة أسره في فرنسا، وعدم تكافؤ الفرص، و الإغراءات المادية الكثيرة، التي مارستها الحكومة الفرنسية، و قادتها الكبار على أمل أن يتمثل حياة الفرنسيين و يكتشف حضارتهم، مثل إبراهيم باشا خديوي مصر، و ينسلخ عن جذوره و يصير أحد مواطنيها. وعلى كثرة الضغوط، ظل الأمير متمسكا بهوية الثقافية و ثوابته العربية الإسلامية، حريصا على الخصوصية و الفرادة، وعلى مطلب الرحيل إلى بلد إسلامي يقاسمه الفضاء الثقافي و الاجتماعي نفسه، لهذا لن نستغرب رغبة الآخر المحمومة في مسخ هويته و تدميره حتى بعد تسليمه السلاح، وهو الذي كان يرغب في تدجينه، و يحلم بأن يجعله مواطنا من نويه، حيث اقترح عليه الجنرال بيجو تبني فرنسا كوطن له" أتمنى أن تصل إلى قرار تبني فرنسا كوطن لك و تطلب من الحكومة أن تمنحك أنت و أهلك قطعة أرض غنية، وستكون لك حياة مساوية لحياة أي مواطن فرنسي

¹ - المصدر السابق، ص22.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

محترم، أعرف أن مقترحا مثل هذا قد لا يغيرك كثيرا، ولكن فكّر في مستقبل أبنائك و حاشيتك، أنت ترى أنهم يموتون يوميا مالا وكما¹، وتساءل مندهشا: كيف لفرنسا ذلك البلد الجميل أن يفشل في تغييره مع كثرة الإغراءات المادية؟

إن فكرة إلغاء الأنا العربية المسلمة لم تقف عند حدود رجال الدولة وقادة الحرب الفرنسيين، فقد شكلت فكرة التنصير هاجسا لدى رجال الدين، خاصة الراهب ديبوش الذي عمل بجد على تنصير الأمير عبد القادر "كنت أريده مسيحيا يخدم رسالة المسيح العالية، وكنت مستعدا أن أرحل بصحبته إلى البابا لتعميده ليصير واحدا منا"²، الرفض القاطع، والممانعة التامة هي جواب الأمير، الذي ظل مشدودا إلى وطنه وذاكرته طيلة الأسر وبعده، يحدوه جوع عميق لكل ما افتقده، التراب و الروائح و الشمس و الأمطار، يوقظ فيه أوجاعا عميقة. فمأساته لم تكن في الهزيمة، لأنه قاوم عدوه قرابة العشرين سنة، إنما كانت في النفي الإجباري "التراجيديا هي عندما تستيقظ فجرا وتترك فجأة أن الأرض التي نبت فيها، و نبت فيها الذين تحبهم لم تعد قادرة على تحملك و أنك ستموت بعيدا عنها، و أن تربتها ستظل جائعة إليك، وتظل أنت كذلك جائعا إليها، هناك جاذبية بين الأجساد و الأرض الأولى"³

قد يخرج الإنسان قهرا وينفى بعيدا عن أهله ووطنه بقرار سياسي من السلطة، إذا عاش في وطن، تعدد الأصوات فيه غير مسموح، و الاختلاف و الإبداع ليسا حقا بل تمردا، و البقاء فيه يتطلب امتثالا وتكميما، هو تضيق و حصار يدفع الإنسان إلى الهجرة واختيار النفي "هربا من الاضطهاد و الأوضاع الصعبة التي لا يتمكن من التغلب عليها، إلى بلد آخر يؤمن له الحرية و العمل و الظروف و المجالات التي

¹ - واسيني الأعرج: كتاب الأمير، ص542.

² - المصدر نفسه، ص542.

³ - المصدر نفسه، ص615.

يفقدها في بلده"¹. وفي هذه الحالة، و حتى وإن كانت الهجرة قسرية أحيانا، تبقى إمكانية العودة متاحة، ويتحرر النأي- نسبيا- من دلالات القسر، لأن فيه جزءا من الاختيار الحر لمكان النفي.

يتعلق الأمر بالكاتب يونس مارينا، السياسي الذي أزعجت كتاباته السلطة، فأصبح مطاردا بتهمة المساس بأمن الوطن و استقراره، بدأت قصة مأساته أيام كان شابا طموحا، يأمل في أن تتجاوز كتاباته فضاء الوطن و تحلق في سماء العالمية. فعقب انقلاب عام 65، ضد الرئيس أحمد بن بلة، صديق والده أيام الثورة، " دخل في عمق لعبة لم يكن مهيا لها، رهن العمر على لعبة لا يتقنها ؟ مجرد لعبة لم يدرك مخاطرها، قبل أن تتحول إلى عقوبة عمر"². كتب يونس مارينا، واسمه الحقيقي سلطان حميد مقالا تعاطف فيه معه بعنوان الانقلابيون، نشره صديقه موسى لحر في الجريدة السرية "معذبو الأرض"، نشره باسم مستعار. لم يكن حينها يدرك خطورة عمله، ولم يُكنّ الولاء لأي حزب سياسي. و استمرت كتاباته عن الرئيس و معاناته في السجن تحت ضغط الوحدة والعزل، وعن تفكيره في الانتحار حين قارب على الجنون. لم تكن كتاباته حقيقة، إنما مزج فيها بين الصحيح والتمثيل، يقول متحسرا "كذبة صنعت مني كاتبا، صدفة قاسية استثنائية، رمت بي نحو المنافى، سرقت من حياة و منحتني أخرى، وصدفة أسوأ، تضعني الآن على رأس المهتدين بالموت"³، في مقاله الأخير "ذئاب العقيد" تحدث مارينا عن تقنن ذئاب العقيد في تعذيب الرئيس بابانا المسجون وتحقيره، بأمر من العقيد ذاته "لا يهمني أنا و جماعتي، سنفعل كل ما يأمر به العقيد، لأننا كلابه و ذئابه أيضا، وإذا لم نفعل،

¹ - حليم بركات: غربة الكاتب العربي، دار الساقى، ط1، بيروت، لبنان، 2011، ص272.

² - واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص67.

³ - المصدر نفسه، ص101.

ستفعل بنا كلاب أقوى و أضخم الشيء نفسه"¹. أغضب المقال العقيد ورجاله، وعلى الفور اتهم مارينا بالخيانة الوطنية وبأنه عدو للثورة، وبات مطاردا و مطلوباً حياً أو ميتاً، وحدث يوماً أن اقتحم رجال الأمن العسكري (السيكرية) بيته، رآهم ينزلون من السيارة، فسارع إلى إحراق كل الأوراق، وودع والدته بما جوهر دون رجعة، وعلى الفور تماهى عن الأنظار، ليبدأ رحلة النفي و العذاب "أية جريمة ارتكبتها، قبل أربعين سنة، عندما كتبت مقالا لم تكن تعرف مخاطره بعد انقلاب 65؟ كنت شاباً، وتظن أن الكلام والحقيقة صديقان، فوجدت نفسك في باخرة مليئة بالسلع و الفئران، تقطع موانئ المتوسط و مساحات لا تنتهي من الخوف، هل كنت تعلم أن الكتابة ستوصلك إلى هذه الحالة؟ لو كنت تعلم، لما أقدمت على هذا الجنون"².

الاقتلاع من الوطن تراجيديا إنسانية عميقة، يغدو بموجبها النفي و الهجرة رديفاً للموت، حيث تتعمق أحاسيس الانتماء والحنين إلى الماضي وحلم العودة، يشيع "افتراض غريب عار تماماً من الصحة، بأن المنفي قد انقطعت صلته كليا بموطنه الأصلي، فهو معزول عنه، منفصل الروابط إلى الأبد منه... لكن الواقع يقول بغير ذلك، إذ لا تقتصر الصعوبة التي يعيشها المنفي على كونه قد أرغم على العيش خارج وطنه، بل إنها تعني أن يعيش مع كل ما يذكره بأنه منفي"³. فكلما هاجه الشوق وتراءت له ربوع الوطن، هرع يونس مارينا إلى المطار، يشم رائحة القادمين من أرضه المسروقة، يبقى الساعات الطوال، ويعود بعدها محملاً بشعور هو مزيج من الألم و السعادة، لقد أيقن أنه في المنافي، سيموت وحيداً خارج وطنه و خارج أهله، " فعندما نحط الرجال في مكان ما لا وجود للمؤقت بعدها، المنفى ليس لعبة مؤقتة نفككها و نرتبها كما نشاء، حقيقة مرة

¹ - واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص 79.

² - المصدر نفسه، ص 29.

³ - إدوارد سعيد: المثقف و السلطة، تر: محمد عناني، رؤية للنشر و التوزيع، ط1، القاهرة، 2006، ص ص 94-95.

تنام في عمق كل الأشياء الحساسة، تأكلنا الحياة و لكن عندما يطل علينا الموت من شقوق النوافذ، تقفز إلى أذهاننا أرضنا الأولى، حبنا الأول و تربتنا الأولى وحتى حماقاتنا الأولى¹ فالأماكن "تخرج من الطبيعة إلى الفكر، من الشيء الجامد إلى الفعل، وبذلك تسهم في تشكيل نواة الوعي التاريخي برمزية المكان، ودلالته في تعميق الهوية و الشعور بالانتماء، وعلاقة الطبيعة والإنسان والمجتمع متينة، ذات رباط موحد. وإن ارتحل الإنسان من المكان تبقى الذاكرة موشومة بالصور و الذكريات، تطابق فعلي بين الأنا و ذاتها، وما تحمله من وقائع عن الماضي و الحاضر"².

و حين تنشط الذاكرة، تنشط معها عمليات استعادة المكان و الذات، عن طريق وقائع تظل محفورة فيها، منها لحظات سقوط المطر، التي ترمي بيونس نحو وطنه المسروق و ذكريات طفولة راسخة في الذهن اعتقد موتها، يتذكر الشوارع، المدن و القرى، ورائحة الأتربة الممزوجة بالمطر " تراءى له نفسه في عز طفولته الأولى، و هو يركض في دروب مارينا مع أصدقائه و سارة ابنة الحاخام، التي كثيرا ما وضع معطفه على ظهرها، وهم يصرخون متحدّين البرد والمطر و الرياح:

يا النو صبي... ما تصببش علي

حتى يجي خويا حمو

ويغطيني بالزربية"³.

و منها أيضا، لوحة الذبابة بقيمتها الرمزية، بعطر المنفى الأول و مذاق الخوف تمنحه القوة في المقاومة والاستمرار "لها علاقة بي، مشدود إليها، لا لقيمتها الافتراضية،

¹ - واسيني الأعرج: أنثى السراب، ص 351

² - أحمد شحيط: المكان الضائع، مرجع سابق، ص 27.

³ - واسيني الأعرج أصابع لوليتا، ص 280.

ولكن لأن بها شيئاً غامضاً يخصني"¹،" بها رائحة جدتي و جراحات المنفى القاسي، وعزلة أول يوم في هذه الأرض مثل آدم عندما أخرج من جنة لم تكن له، فوجد نفسه على أرض عليه أن يقاوم فيها و يثبت جدوى وجوده، و إلا مآله الموت و التحول إلى جزء من التربة، هذه اللوحة هي التي منحنتني بعض الألفة، و جعلتني أخرج من خراب الخوف و العزلة القاسية"². لهذا " أقول لك دائماً إن قيمها الأخرى دون قيمتها الرمزية."³.

وقد نجد أنفسنا في حضور شخصية لها وقع كبير في مسارات حياتنا و تكويننا الفكري، هناك قوة باطنية طارت بيونس مارينا نحو برشلونة، للقاء الرئيس بابانا " وكأن شيئاً غامضاً ناداه نحوها، مانع و رفض، لأن برشلونة لم تكن تعني له يوماً شيئاً خاصاً، ثم فجأة استجاب لقوة الجاذبية الغامضة التي نبتت في أعماقه، قبل أن يستسلم نهائياً لطوفان داخلي قاده نحو تيه، لم يكن يدري أن به حرائق الذاكرة و بعض رمادها"⁴، "إنها الرحلة التي وضعتني فجأة وجهاً لوجه أمام ذاكرتي التي ظننتها انطفأت أو اختفت بسبب الذكريات الجديدة التي تراكمت عليها، أو ربما لنسيان شبح أمي الذي ينتابني من حين إلى آخر، فقط ليذكرني بأنها مازالت هنا (...)، يما جوهر دائماً هنا حيث تركتها للمرة الأخيرة بعد أن وضعت الكوفية الحمراء على عنقي، وهي تكرر: أعرف أنك لا تحب الكوفيات، ولكنها صنعة يدي، كبيرة و ستقيك برد هذا الشتاء القاسي، ربي يحفظك يا وليدي حميم من كل أذى... ربي يحفظك"⁵. لقاء استثار حرائق و هيج عواطف، وأعاد ذكريات حزينة، ظن يونس أنها خمدت و برئت "كنت أقف أمام تراجيديا هو نفسه لم يكن ليدركها: أهذا هو الرجل الذي كان وراء كل شيء وقع لي في حياتي ؟ كان وراء منفاي و ألمي

¹ - واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص 127.

² - المصدر نفسه ، ص 217.

³ - المصدر نفسه ، ص 217.

⁴ - المصدر نفسه ، ص 350.

⁵ - المصدر نفسه ، ص 326.

الكبير... ووراء الحكم علي بالإعدام و منفاي... كان هو الرجل الذي رأيت فيه وجه أبي الغائب"¹. هو لقاء حرره من أسر المنفى، وفتح أمامه فضاءات البوح و التنفيس، ليلتها كتب يونس مارينا عن أمه " كتبت أكثر من 50 صفحة عن أمي، التي بقيت غصتها تحرق القلب، بركان اجتاحني فجأة، فأحسست أن أمي هي من يحررني، وربما الرئيس بابانا أيضا"²، أوليس " فعل الكتابة هو اعتراف مني بالفقدان"³. هو تجمّع فتق الجراح، وأعاد تاريخا بأكمله بألمه وانكساراته و نجاحاته، بعد خمسين سنة مازال للذاكرة ألم وجرح، عاد به إلى الطفولة المتعبة، فتذكر لحظة تأكيد الرئيس بابانا استشهاد والده، والوعد الذي لم يتحقق بإحضار رفاته ودفنه في مقبرة الشهداء، تذكر الفراغ الذي عوضه العم معوض في غيابه، وحزن الأم جوهرة وجنونها بعد ما لاقته من تعذيب في السجون، ثم موتها وحيدة مشردة في الشوارع. وكان وفي الوقت ذاته " صدفتي التي وجدت نفسي بطلها، وكنت مرآته المائية المنفلتة من بين أصابعه"⁴.

و قد يتجسد الوطن في توظيف الأم رمزا له، وكثيمة للعطاء و السكينة و الحب و الكينونة، ليقيم علاقة لا انفصام فيها بين الإنسان و روحه" فالأم هي الحبل السري الذي يربطنا بتربة الأرض"⁵، لقد أحب يونس "أمه من دون منافس كما اشتهاها، ولم يشبع يشبع منها مطلقا، فظلت عالقة بكل تفاصيله الخفية، في لباسه، ابتسامته، صمته، حزنه الذي يشبه الصمت، والكوفية الحمراء"⁶، التي نسجتها يما جوهر بنفسها، لم تكن كوفية عادية، ولا كان دفؤها عابرا، بها قوة باطنية تسعف يونس وتضمد جراحاته، تضعه أمام

¹ - واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص331.

² - المصدر نفسه، ص335.

³ - واسيني الأعرج: أنثى السراب، ص355.

⁴ - واسيني الأعرج: أصابع لوليتا، ص 333.

⁵ - المصدر نفسه، ص98.

⁶ - المصدر نفسه، ص157.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

ذاكرته، قبل أربعين سنة غادر بيته للمرة الأخيرة، ذاكرة ظنّها انطفأت أمام حياته الجديدة، تأخذه في رحلة تذكّر واستشفاء، يشم فيها رائحة أمه، وتراب وطنه، عبق القرنفل و الزعتر، وماء الزهر وعطر البرتقال، و قشور الرمان "كلما ارتداها، شيء غريب يغرقه في وجه أمه، في ملامحها الحزينة، في رشاقة يديها، وهي تصنع الصوف لبيعه، لم يحفظ إلا حركتها الأخيرة و هي تردد: ربي يحفظك يا وليدي حميد من كل أذى...كنت حابه نبيعه، ولكن على عنقك أفضل"¹.

ففي كنف الأم الوطن رمز الوجود و الكينونة، يجد المنفي المقتلع من جذوره وتربته و لغته و ماضيه، جزءا من ذاته و عالمه الداخلي "أخرج نحو قرينتك الصغيرة، اشبع من وجه أمك التي كلما تحدثت عنها غلبتك حسرة أنك لم تبق معها، طوال هذا العمر إلا شهورا قليلة احك معها، اسمع أنينها الداخلي... خذ عرشك الأدبي الجميل وارحل صوب بحرك الأول، وشمسك الأولى، وتربتك الأولى، ولا تسأل عن البقية، عندما يقف الموت على عتبات لن نتذكر ما عشناه ولا ما لم نعيشه، ولكن ما كان يمكن أن نعيشه وتركاناه لبلادة اليومي والمتكرر (...)، سيساعدك وجه ماما ميزار المتعب من كثرة الهزات المتكررة التي لم تعد قادرة على تحملها، أنا متأكدة أنك تستطيع أن تستعيد ما هرب من طفولتك هناك"².

من جهة أخرى، لم يعد حصرا انتقال الذات من وسط ثقافي إلى آخر اقتلاعا ثقافيا، وإنما أصبح انتقالا سلسا في عصر سقطت فيه الحدود الثقافية و الجغرافية و الزمنية، وتزايد اتصال المجتمعات و تقاربها فيما بينها. فقد يخرج الإنسان من وطنه طوعا بحثا

¹ - واسيني الأعرج: أصابع لوليتا ، ص146.

² - واسيني الأعرج: أنثى السراب، ص ص 199 - 200.

عن أفق و حياة جديدين، أو رغبة في المغامرة وكشف المجهول و الانخراط في التجربة الإنسانية.

ينطبق الوصف على حالة العالم العربي المغترب آدم، ترك وطنه بغداد، و التحق بأمريكا لاستكمال دراسته العليا، و العمل في مخابرها النووية، سارت حياته هناك على نحو جيد، فأسس أسرة، وأقام علاقات جيدة مع زملائه في الجامعة ثم العمل، وحقق نجاحات كثيرة بفضل ذكائه و عمله الدؤوب، وفجأة وجد نفسه أسيرا في قلعة أميروبا، محروما من أبسط حقوقه الإنسانية، واقعا تحت جنون قائدها البيغ بروذر، " يعرف جيدا أنه مراقب، وأنه ليس سيد نفسه، منذ أن أدخلوا الشريحة تحت جلده، ومنذ أن شحنوها بما أرادوه، لكنه صمم أن يقاوم ذلك كله، كما الكثيرين، بل الملاين غير المرئيين، ويسير لا وفق الساعة الداخلية المدمجة في الشريحة، ولكن وفق ساعته البيولوجية التي بقيت حية نسبيا و لم تمت أبدا (...).، اليد البشرية تمس كل شيء وتهيكله كما تشاء، إلا جوهر القلب و عمق التخيل (...).، الإنسان في النظام ساعة خارج النظام".¹

السياقات الجديدة المفروضة عليه بحيثياتها النفسية و الحضارية، أوقعته في حالة من القلق و الانشطار بين ثقافته الأصلية و ثقافة البلد المهاجر إليه، وأدخلته في جو من الضياع المكاني و الزماني، فالذات في حال انتقلت قسرا ودون أية مساحة للاختيار، من مكان تتواءم معه وتلتحم بجماعته، إلى آخر بديل ستفتقد فيه لا محالة معنى الوجود و الألفة. هذا التمزق يؤكد أن ثمة علاقة معقدة بين المكان وأهله، وبين الأنا العربي غير المرحب به في فضاء الأخرالغربي، فالنظرة الكولونيالية المبنية على العرقية و الاستعلاء، بقيت متجذرة في وعيه، وفي معاملاته مع الغيرية. حقيقة يثبتها رفض البيغ بروذر الاعتراف بجنسية آدم الأمريكية، مع أنه عاش في أمريكا حياته كلها و " يعرف الإنجليزية

¹ - واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص 245.

التي كبر في أحضانها. الفرنسية و الإسبانية و الألمانية. تعلم بسرعة الأورولينغوا، التي أصبحت لغة المجتمع. معرفته الإنجليزية خفف عليه عناء تعلمها "1. موقف عنصرى، جعل آدم يشعر بالمفارقة بين وطنية زائفة مثبتة في الأوراق الرسمية، وأخرى أصلية، عريقة، متأصلة، راسخة في الوجدان، "لا أدري يا مارشال لماذا لم يدخل في عقلكم أنني أمريكي، ولست في حاجة إلى لجوء سياسي، ولا إلى زواج من أجنبية، أنظر في القلعة كم من أصل فيها في ناسها وفي حجاتها أيضا، وكم من دين؟ ألا يهزكم هذا؟ نعم كبرت في أرابيا والدي وأجدادي وأختي تالا منها"2.

اللغة والهوية وجهان لشيء واحد، والإنسان في جوهره ليس سوى لغة وهوية، فباللغة يحقق المرء وجوده ويصون هوية، هي حقيقة تبينت لآدم العربي الأمريكي، لذلك ظل يكتب بالعربية، رغم أنها انقرضت وتوحشت كأهلها، وهو مستمتع بذلك " أستغرب كيف لأمريكي أن يصر على الكتابة بلغة ماتت من زمان ؟".3. لقد أيقن أن لغة أجداده هي المنفذ، نوع من أنواع من الحماية، و المخلص الذي سينقله من حالة التيه و التوتر، و يسمح لهبتشكيل عالم يزول فيه ذلك الإبعاد القصري و العنف الرمزي والمادي المسلط ضده، ليصنع عالما آخر، يعج بتفاصيل الحياة، ويحقق له توازنا نفسيا مؤقتا.

الحلم في العودة هاجس أرقه، وقض مضجعه، وفقدان المكان أورثه " شكا بأنه خارج الدائرة الحميمية للانتماء البشري"4، لكن إلى أين الرجوع؟ إلى وطن تفكك واحترق، وصار أوطانا ممزقة، شذرات رماد متطاير، إنها عودة مشوبة بمشاعر الخيبة والقهر" كنت أعلم أن زمنا مظلما آت لا محالة، سيعمي البصرة والبصيرة، وسيحرق النفوس قبل

1 - المصدر السابق، ص23.

2 - المصدر نفسه، ص375.

3 - المصدر نفسه، ص23.

4 - إبراهيم الكوني: الكتابة والمنفى.. تلك الهوية الرمادية، صوت ULTRA، 29، فبراير 2016.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

الأجساد، ويغترب أهل البلاد، ويسكن بأرض الأجداد غرباء القلب والروح، لهذا سأظل كما أنا.¹

وافتقاده للألفة أوقعه تحت توتر مكثف و إحساس فاجع بالافتقار و اللانتماء، ودفعه إلى الهروب نحو عالمه الداخلي، يلتمس السلام، و يستسلم لظلال الذاكرة، بقعة النور والوعي الحميمي للزمن الماضي والدليل إلى الهوية، لذلك لملم سيرته المتشظية بألبوم من الصور والذكريات والأحداث الهاربة، والفضاءات الضائعة، تصب كلها في غاية واحدة، هي التأسيس للذات، فبالذاكرة يصمد المرء أمام الزمن ويحافظ على كيانه ووجوده "إذ المرء لا يدرك أهمية هويته إلا في لحظة مأزومة يواجه فيها المختلف، عندئذ يرتد إلى مكوناته الأصلية التي تمنحه الإحساس بوجوده، و بتميزه واختلافه عن الآخر، فيحس بضرورة الحفاظ على هذه المكونات مهما كانت التحديات، إذ كلما زادت المواجهة مع الغير، زاد تمسك المرء بمكونات هويته وخصوصيته، حتى تكاد أناه، تصبح وهذه المكونات شيئاً واحداً"².

لقد أصبح النبذ علامة فاصلة في حياة آدم، لا يعزیه شيء عن فقدان الماضي، ولا يقلل من مرارة الحاضر. إيقاع الخوف والضياح، ومشاعر التضيق و العزلة و الوحدة، عوامل دفعه إلى الاستنجاد بذاكرة متعبة، تسترجع ماضيها البعيد، و تعيد خلق الأمكنة الحميمية المفقودة، عن طريق الرحيل في الجغرافيا والزمن وذاكرة الذات "³، التي يمثلها الذئب رماد "ينام في داخله منذ أن جاء إلى هذه الدنيا، أفهمته جدته أن رماد هو جدهم الأول يقف على رأس السلالة. يموت الجميع و يظل هو حارسا شرسا على الهضبة

¹ - واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير ، ص42.

² - ماجدة حمود إشكالية الأنا و الآخر، نماذج روائية عربية، مرجع سابق ص13.

³ - شرف الدين ماجدولين: الفتنة و الآخر - أنساق الغيرية في السرد العربي، منشورات الاختلاف، ط1، 2012، ص113.

العليا.¹ لا يستسلم للموت و الهزيمة "سر، ولا تلتقت، في كل التفاتة موت محتمل، وراءك حمم و رماد وعالم ينتقي...سريا سيد السلالة التي خرجت من قلبها، وانتميت إلى عينيها، سر بلا هواده يا سيدي و داخلي"². لقد رافق رماد آدم منذ الطفولة إلى سن الخمسين، ورسم توجهاته و أفكاره وجانبا كبيرا من هويته الفردية " أنت جدي، طريقي و مسلكي في الزمن الضيق حريتي التي لا أريدها أن تسرق مني، بصيص الضوء في عمق الظلمات. أركض وسأظل أقتفي آثارك حتى ولو كانت دما أو رائحة أو أنفاسا. أنت معلمي في الهضاب وقودتي"³، رماد هو علامة آدم في ضياعه، وسر قوته وثباته" ابق حيث أنت أيها الجد الأبعد، لقد احتلوا غاباتك ومساكنك وقلبك السخي، وعينيك، وتلاكك القصة فقط، لكي يهجروك، لكني أشعر بك هنا، في الأوقات العسيرة، أنت من يمنحني أنس الأمكنة الخالية، وفي الأوقات المريحة، أنت من يمنحني القدرة على الاستمرار والحياة، لا يجب أن تموت بهذه الطريقة، قدرك أن تستمر فينا، فيّ تحديدا"⁴.تلكم هي وصية والد آدم له "أكبر كما يكبر الرجال على هذه الأرض الصلبة بتربتها و نارها و خوفها، والسخية ببحرها و رمادها وخيرها، ومت أيضا كما يموت ذئابها بحرية ورفعة رأس و انتصار للمظلوم"⁵. لقد تعذب الناس لتثبتوا للأخريين أن أجدادهم فيهم، وأن تاريخهم هو تفكيرهم"⁶.

رماد هو رمز الهوية العربية الضائعة التي مزق الإرهاب المعولم و الرأسالية الإمبريالية الغربية لحمتها، بمعية بعض حكامها الخونة، وتركوها جريحة مهزومة، تلملم

¹ - واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص86.

² - المصدر نفسه، ص196.

³ - المصدر نفسه ، ص227.

⁴ - المصدر نفسه، ص 194.

⁵ - المصدر نفسه ، ص120.

⁶ - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص144

شتاتها على أمل أن تبعث من جديد، و تعيد أمجادها "منذ مائة سنة و الذئب رماد يركض بلا تعب ولا نهاية، مخترقا هذه الجبال (...). فقد أنقذ رماد أكثر من قطيع كان على حافة الموت بين أنياب الذئاب الأخرى التي لا تحمل لون عينيه (...).، وكاد يموت وهو يخوض معاركه ضدها بلا هواده، لولا أن لعق جراحه بلسانه طويلا قبل أن يرتقها بلعابه، ويرفع من جديد نظراته الحادة".¹

المطلب الثاني: الهوية الرمادية الهجينة.

لقد خلقت العولمة سياقات جديدة لا يمكن معها النظر إلى الهوية باعتبارها ناجزة سكونية أو مكتملة، ولم يعد من الحكمة التفكير في الاختلاف الثقافي من خلال الثنائيات المتضادة، الشرق و الغرب، الأنا والآخر، لأن الحوار بينها بات شرطا ضروريا لإيجاد موقع جديد و استكشاف إمكانات الوجود و الاستمرارية. ففي سياق العولمة تتغير العلاقات مع الأشياء، ويتشكل واقع جديد، وهوية جديدة متعددة الانتماءات، مفتوحة بين الأنا و الآخر، تقبل بالتعدد و الاختلاف. اصطلح عليها اسم الهوية الهجينة، "مصطلح الهجنة (Hybridization)، مستمد من حقل علم الوراثة، ويعني الاختلاط بين جنس و آخر، لكن دلالاته تحورت في دراسات ما بعد الكولونيالية، إلى عملية اختلاط الثقافات و تمازجها من تفكيك المركزية الأوروبية، وتجاوز الفكر و الذات الاستعلائية، فمن المهم مواجهة الذات الاستعمارية ثقافيا، الهجنة تعني ذلك الفضاء الذي يحمل المعاني و الآثار الثقافية، وفيه أيضا آثار المعاني و الهويات الأخرى، هناك هجنة و تقارب وتلاقي بين الثقافات، ولا توجد ثقافة نقية خالصة"². انتقل هذا المصطلح من علم البيولوجيا و علم النبات، إلى ميدان الدراسات الثقافية، ليساهم في تقويض الصورة

¹ - واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص18.

² -مصطفى عطية جمعة: الاستعمار و التهجين الثقافي في ضوء السرديات الأدبية، منصة الإبداع العربي، يوم14-

المنمطة عن العلاقة بين الذات عن الآخر، القائمة على الفوقية والصراع، وعلى ثنائية المركز والهامش وفكرة والنقاء الثقافي والعرقى، بهدف بناء هويات منفتحة تستجيب لنداء التقارب و التعارف. و الهوية الهجينة هي ثمرة التلاحق و التوليد بين الثقافات، و مشروع ضيافة، وتجربة مسكونة بالتحول و الاستعارات.

ويأتي فكر الهجنة إذا "كتجاوز، و كسر لهذه الحلقة الخطابية المغلقة، التي يدور في فلكها الفكر الهوي، إنها قفزة خلف تخوم الصمت، نحو أفق الاختلاف، حيث يغدو الإنسان مواطنا عالميا، دون أن يفقد شيئا من فرديته و استقلاله، بل هي انتصار للمجتمع المفتوح على أعدائه، وحده فكر الهجنة (...).، يمكن إنسان العولمة، هذا الإنسان الأخير من تجاوز تلك البقايا الإمبريالية، التي لا تقفأ تعود تحت ألقنة كثيرة: حوار الحضارات، صدامها، نهاية التاريخ،...، فهي أشبه بمسودات كانت خفية لمستندات المشروع الإمبريالي، أعيد سحبها و تجريبها بعد افتضاح المدونة الأصلية".¹

وقد ارتبط هذا الفكر بسؤال الهوية و بجدلية الأنا و الآخر، وبكتابة المنفى، بعد أن أصبح المنفى قضية سياسية أيديولوجية أكثر منها اجتماعية، و تجاوز مفهومه معنى الشوق و الحنين و البعد، ولم يعد أدب نوح وجراح و حسرة فحسب، إنما اتسع ليدل على الانتماء و الهوية و الأصل، و بات ينظر إليه باعتباره " تجربة مجازية تدل على النظر بعيون جديدة إلى العالم و تجارب البشر، و تفاعل الثقافات، و مفهوم الحرية، والرؤية غيرالمتحيزة، و الابتعاد عن مفهوم الهوية المغلقة، و طرح مفاهيم مثل الأصل و القومية في الآداب الوطنية"²، و عرف بوصفه حالة فقدان، قد تسهم فعليا في تحرير الثقافة من أوهام النقاء والهوية الصلبة، إلى فضاء التعدد و تقبل الاختلاف، تلك الفضاءات البيئية،

¹ - فخري صالح: أدب المنفى، مجلة الكلمة، العدد 10 أكتوبر، 2007، ص 11.

² - المرجع نفسه، ص 07.

أين تلتقي التضادات الثقافية لتتعارف و تتعايش. لقد غدا فكر المنفى مفهوما فلسفيا " ينظر من خلاله الكاتب للعالم بمنظور مختلف، لا يخيم عليه الهزيمة و الانكسار وحلم العودة، يتخلله صراعات وجودية لا حد لها، منها صراع الثقافات و صراع الهوية، وصراع الحضارات والأديان"¹.

و تستمد كتابة المنفى " مادتها من الاغتراب والنفور وتراوح بين هويتين متباينتين، ومع ذلك فهي كتابة كاشفة تقوم على فرضية تفكيك الهوية الواحدة، مقترحة هوية رمادية مركبة من عناصر كثيرة. كتابة المنفى هي كتابة عابرة للحدود الثقافية والجغرافية والتاريخية والدينية تتعالى على التسطیح، تشرح أوضاع المنفى بقساوة وصراحة، سواء للجماعة الأصلية أو الجماعة الحاضنة، لكنها من جهة أخرى كتابة تتأى بنفسها عن الحقد والكراهية والتعصب"². و تحرر الثقافة من فوقيتها، وتبصرها بأوهامها.

فأدب المنفى أدب مسافر في المشترك الانساني، وتشكيل عبر ثقافي وعبر قومي، يتيح النظر إلى المشكلات المكان و الهوية و الذاكرة التاريخية من زاوية قوامها التعددية، و الرؤية عند المنفي مزدوجة، فهو يرى ما أمامه بمنظور ما خلفه وراءه، وبتحاور التجريبتين، يتحرر من الداء الأصولي والعنصرية القاتلة. فالذات المنفية تتصل دوما بجذورها المترسخة في المخيال كبنية سردية موروثية، وفي الوقت ذاته تتأفح عن التعدد والاختلاف" لا أظن أن المنفى رغم عذاباته التي لا تحصى، وهستيريا اللامكان الذي لا يختزل محض انفصام روحي وجسدي وفكري عن العالم والوجود، بقدرما هو مختبر الوجود الأكثر فاعلية وخصوبة، والأكثر تعقيدا أمام مواجهة الذات والوطن والعالم، وأمام الحيات التي يجترحها الفنان والكاتب والسياسي والمناضل. المنفى هو تعدد الهوية الأكثر

¹ - إبراهيم الكوني: الكتابة والمنفى.. تلك الهوية الرمادية، صوت ULTRA، 29، فبراير 2016، ص3.

<https://www.ultrasawt.com>

² - المرجع نفسه، ص4.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

قدرة على التحرر من وهم القوميات، وخرافة العادات والتقاليد، وجغرافيا التاريخ.¹ إن فكرة التعددية الثقافية أو الهجنة التي تشكل الأساس الحقيقي للهوية اليوم لا تقضي بالضرورة إلى السيطرة و العداوة، بل تؤدي إلى المشاركة و تجاوز الحدود وإلى التواريخ المشتركة والمتقاطعة².

ولا شك أن عملية الهجنة هي لقاء بين عناصر متباعدة، تمازجت و انصهرت في هوية استثنائية، هوية بينية من هذا وذاك. تدحض علاقة الصراع و الفرقة و الانقسام بين الأنا والآخر، وتستند على التلاحق والتواصل عبر النهل من ثقافات متعددة "ومع أن خطوات الإنسان في هذه البقعة من العالم تصاولت واصطدمت بثقافات وافدة، فإنها احتفظت بالنقاء وفقدت بعض الطهارة والبراءة، وهذا ناتج عن الاحتكاك الذي لا بد أن يتشرب الجديد، فيفقد بعض معدنه و براءته، وليس في ذلك ما يستغرب لأن تلك طبيعة الحياة المعاصرة ولا سيما بعض هذا التلاحم الذي بدا قريبا من الامتزاج"³.

و الهجنة نظريا هي ضرب من ضروب كسر الانغلاق و التحرر من الفكر الهوي، عملية مركبة، تهدف إلى بناء وساطة حيوية، تكشف الذات بقدر ما تقرأ و تترجم الآخر، وهي تجربة مسكونة بالتحول والاستعارات وعملية لا تسير في اتجاه واحد، إنما هي ضيافة و تلاحق متبادل يولد منه المشترك الانساني. وهي نتاج لحركة التثاقف الانساني، بهدف التأسيس لهوية عالمية تعترف بالتنوع، وتناقض كل المزاعم القائمة على التمرکز والنقاء الثقافي والعرقى والجغرافى.وتشرع الهجنة للإقامة بين الثقافات، ولإدانة سياسة الهوية المنغلقة والثقافة النكوصية ومزالق القومية، والصراع القائم باسم الأصول

¹ - المرجع السابق.ص5.

² - إدوارد سعيد: الثقافة و الإمبريالية، تر: كمال أبو ديب، دار الآداب، ط3، بيروت، 2004، ص 10.

³ - إبراهيم الناصر الحميدان: أسباب فقدان الهوية في الفن الابداعي، مجلة الفيصل، مجلة ثقافية شهرية، مركز النمر التجارى المملكة العربية السعودية، العدد23، 1999، ص275.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

و الأعراق و الجغرافيا و الدين، فسكان أمريكا" كلهم جاءوا من آفاق متعددة، من الشرق، من إيطاليا، إسبانيا، أيرلندا، هولندا و كولومبيا وبورتوريكو والإكوادور، ليشكلوا اليوم غالبية سكان سود البرونكس، وهارلم، و هايتي بروكلين، وروس ليتل أوديسة، ويوناني كوينز ويهود أوروبا الوسطى و بلدان أخرى"¹.

كما تغير حي نوليتا الشعبي الواقع شمال الحي الايطالي، و لم يعد كما كان في بدايات الموجات الأولى للهجرة، جلب إليه الوافدون " عطرهم و أكلهم و خصوماتهم القديمة، وطرائقهم في الحب و الكراهية، بدأ الحي الصيني في السنوات الأخيرة يقضم أطرافه، ويتوغل فيه عميقا، حي لونييتا لا يشبه بقية أحياء مانهاتن في أي شيء"².

إن هذه الهجنة الخلاقة، و التعايش بين الفرقاء في الحي الواحد، تدحض علاقة الصراع و الفرقة والانقسام بين الأنا و الآخر، وتستند على التلاقح و التواصل عبر النهل من ثقافات متعددة، فالهويات الثقافية هي في الواقع دائمة الحركة ومتغيرة، تتضمن بعدا أصوليا ثابتا يمكن للأفراد المنتمين إليها اليوم التحرر منه، كل حسب خياراته وقناعاته و قدرته على التمازج و الاندماج، وقد تتعدد الثقافات في الهوية الواحدة، كما أنه قد تتنوع الهويات في الثقافة الواحدة، أو ما يعرف بالتنوع في إطار الوحدة، حيث تمتزج العناصر الثقافية المختلفة، و تتلاقح مكوناتها وتتبلور في هوية واحدة. " إن التنوع الخلاق لمكونات الهوية له دلالاته، لأنه يركب تصورات بمقدار ما يسعى لأن يتفاعل مع الثقافات الأخرى و يختلف عنها في الوقت نفسه، ضمن إطار عام له القدرة على التعدد والحوار و التواصل بما يغني فروضه، ويخصب من إمكانات التجدد"³.

¹ - واسيني الأعرج: رماد الشرق، خريف نيويورك الأخير، ص 41.

² - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص 68.

³ - عبد الله إبراهيم: المطابقة و الاختلاف ج 1، مرجع سابق، ص 33.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

وعليه، تغدو الهجنة مفهوما مناوئا للهوية الصلبة التي تصنف نفسها نقيضا للآخر، وتقيم الحواجز بين العوالم، خاصة "وأن جميع الثقافات جزئيا بسبب تجربة الإمبراطورية، منشبكة إحداها في الأخرى، ليست بينهما ثقافة منفردة ونقية محضة، بل كلها مهجنة مولدة، متخالطة، متميزة إلى درجة فائقة وغير واحدة"¹.

وعطفا على ما سبق يكون للهوية بعدان: أحدهما ثابت راسخ يعبر عن الانتماء، وآخر متفاعل استجابة لمستجدات العصر، يكسب الهوية تكوينات جديدة في ظل وجود الآخر المختلف "الأول تاريخي مبني على الذاكرة الجمعية، ويعبر عن جوهر ثابت و دائم سكوني سرمدى، وآخر عملي نفعي يقيم في الحاضر معنا"².

تجسد مي عربية الأصل والمولد، وأمريكية النشأة و المنبت، حالة اللاجئيين الفلسطينيين الذين تتنازعهم هوية منشطرة، فهم موزعين بين الجذور الضاربة في أعماق الروح والوعي، والأجساد التائهة في فضاء المنفى. يعيشون انشطارا ذاتيا في الزمان و المكان، بين عالمين أو ربما عوالم كثيرة، فالمنفى يعيش عالمين مختلفين يتنازعانه: عالم الأنا وهو المفقود، وتسعى إلى إعادة تشكيله الذاكرة، وعالم جديد يسعى إلى التعايش معه، وهو "لا يستطيع الانخراط الكامل في المجتمع الجديد . و لا يتمكن من قطع الصلة بالمجتمع القديم الذي ولد فيه، فيتوهم صلة مضطربة وانتماء مهجنا، وتتشكل هويته مضطربة هجينة، تراوح منطقة الانتماء المزدوج إلى هويتين متباينتين تآبى الانتماء إلى أحدهما، لتتكشف لنا هوية رمادية مركبة من عناصر كثيرة، قائمة على فرضية تفكيك الهوية الواحدة"³. لقد فشلت مي في التماهي التام مع الآخر و نسيان جذورها و تربتها،

¹ - إدوارد سعيد: الثقافة و الامبريالية، مرجع سابق، ص24.

² - جاد عبد الكريم الجباعي: حرية الآخر، نحو ديمقراطية للمسألة القومية، دار حوران، ط1، دمشق، 1995، ص99.

³ - إبراهيم عبد الله: بيان المنفى، ضمن كتاب: الكتابة و المنفى، تحرير و تقديم: عبد الله إبراهيم، منشورات الاختلاف، ط1، دار الأمان، الرباط، 2011، ص09.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

وظلت عربية منجذبة نحو أصولها، على الرغم من غوايات نيويورك، فهناك دائماً بين أي ثقافتين مسافة وهوة، لا يمكن ردمها، مهما صغرت.

لقد تمكنت مي بريشتها و إنسانيتها من إقامة صداقات كثيرة مع رسامين عالميين من مختلف الجنسيات والديانات" لم يمنعي أصلي العربي من الدخول إلى الكثير من البيوت الأمريكية و المتاحف، حظنا في أمريكا أن كل الناس على الايقاع نفسه، كلهم غرباء وأبناء هذه الأرض في الوقت نفسه، يحاول البعض أن يخل بهذا التوازن الاستثنائي، ولكنهم لن يختصروا هذه البلاد في دين، أو أثنى متفردة صغيرة"¹. صحيح أنها تشربت الفكر الغربي، واستوعبت اتجاهاته ونظرياته ومناهجه الحديثة، واشتغلت بمنظور وآليات تلك النظريات والمناهج. لكن أبقها ظل إنسانياً، ومدى تفكيرها كونياً، يتحرك على الحدود المفتوحة ما بين الثقافات والهويات، حاملاً أسمى القيم والأفكار النبيلة، أهمها التسامح و التعايش و الحرية.

وعالما اليوم ملئاً بالهويات المتباينة، التي تتاحرت طورا و تتناغمت طورا آخر، باحثة عن و جود إنساني مشترك متحرر من النزعة الإقصائية و التمرکز الثقافي، ومن وهم الانتماء المغلق المعادي للحوار.

وعليه، قد يمارس الانتماء الهوياتي في زمن العولمة متزامنا مع كيانات أخرى، وإن عدم الإخلاص و الولاء للكيان الذاتي لم يعد خيانة، فالناس منخرطون في إعادة تعريف مستمرة لذواتهم، وهذا لا ينفي أن ثمة نسبة من الثبات في الهوية، إلى جانب وجود تشكيل جديد للهوية في بعض جوانبها. فهي مرنة متحررة و لا محددة ومنفتحة على التغيير و التعديل، إن الهوية سيرورة من البناء و إعادة البناء و إنتاج تاريخي، في حالة من التشكل الدائم و التطور المستمر، إنها عملية علائقية، تفكك فيها الذات و يعاد تعريفها

¹ - واسيني الأعرج: سوناتا لأشباح القدس، ص 45.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

في لقاءها مع الآخرين وبحسب نوعية العلاقات التفاعلية معهم" الهوية الثقافية التي تقوم على الاختلاف، لا تقر بالثبات ولا الشمول، فيما تصطنع ثقافة الهوية المتمركزة أصولا عرقية ودينية و فكرية توافق مضمونها، فإن هوية الاختلاف المركبة من موارد عدة، تتجنب إنتاج أيديولوجيا لها صلة بهذه الركائز، فاتصالها بالركائز المذكورة اتصال تاريخي طبيعي ليس له بعد أيديولوجي متصل بمعنى الهوية المختلق، الذي يفترض الصفاء المطلق والديمومة. هوية التمركز تدعي الصفاء المطلق، فيما هوية الاختلاف رمادية، تمتزج فيها بتفاعل تام الأطياف المتنوعة و المؤثرات المتعددة، وتجعل من تلك العناصر مكونات فاعلة فيها، وهي تمثل جانبا من جدلها الذاتي مع نفسها وغيرها¹..

إن تخبط الهوية بين الرغبة في الأمن و الانتماء للجماعة و الرغبة في الحرية و التفرد والخصوصية، وبين الحاجة إلى الدعم الاجتماعي و إلى الاستقلالية، جعل الناس يعيدون التفكير في موروثاتهم وقناعاتهم، ويسعون إلى اكتساب عناصر هوية جديدة. وقد نسفت هذه اللقاءات بين الأنا و الآخر وهم الهوية الثابتة في إطار الانتماء الأثني والثقافي والوطني الضيق. وجاءت حاجة للرغبة في الانتماء إلى الجماعة وطلب الدعم الاجتماعي والنفسي، والخوف من الوحدة و العزلة. متأثرة إلى حد بعيد بالعالم الخارجي والحرية التي تتمتع بها الذات الإنسانية. مثل هذا الواقع القائم آدم العربي الأصل الأمريكي الجنسية، الذي جمع بين الثقافة الغربية وثقافته العربية الأصيلة، مال في صغره إلى الأدب و الشعر، وتعلق بالمتنبي و مالارمي و رامبو و إليوت وشيلر...، كما درس الفيزياء النووية في جامعة بنسلفانيا، يعرف الآخر الغربي جيدا ثقافة و تفكيراً و لغة، يتقن الإنجليزية و الفرنسية والألمانية و الإسبانية و لغته العربية الأم، تغذت هويته من عناصر كيميائية تفاعلت فيها ثقافات مختلفة، وتمازجت فيها أيديولوجيات متباينة، ما يثبت أن

¹ - عبد الله إبراهيم: المطابقة و الاختلاف، ج1، ص32.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

الهوية ليست إحالة دائمة إلى الماضي والتراث الذي يمارس سلطته الزمنية والرمزية على الإنسان، إنها مفتوحة على قيم التواصل و التفاعل مع الآخر، مكنه هذا التمازج من استيعاب الغير، وإثبات نفسه في عالمهم الذي يحكم على الآخرين بالنظر إلى انتماءاتهم وهوياتهم الضيقة.

وتثبت صحة هذه الهوية البينية في قصة البيت الأندلسي الذي عمر أكثر من أربعة قرون، توالى عليه الحملات، الرومان، المسلمون، الأندلسيون، الأتراك، الفرنسيون، ثم جزائري والاستقلال. " أبناء كل الحملات التي مضت، لم نأت من فراغ، فينا من كل هؤلاء الذين سبقونا إلى هذه الأرض، ولن نكون في النهاية إلا هذا نحن المختلط"¹.

كما تتجلى في حكاية يوبا المثقل بروائح الشرق والغرب، الباحث عن أناه المتشظية، و التي لن تكتمل إلا باكتمال السوناتا، تلك السمفونية التي تبشر بالإنسان الكوني للتحجر و الانغلاق و الهوية القاتلة.

من جانب آخر هناك من المفكرين و الفلاسفة من يرى أنه، تحت سياق الخطاب التفكيكي لما بعد الحداثة، تكون الهجنة مشروعاً للتعدد الثقافي الهوياتي، لكنها " في نهاية المطاف، مقولة ثقافية تصلح للمتقنين والأكاديميين المنتمين إلى العالم الثالث و القاطنون بالغرب، يستعملونها لتأسيس هويات متغيرة في المهجر، لتجاوز غربة المكان، ولذلك فهي فعل خطابي و إنشاد أدبي يتوافق مع فضاء الجامعة أكثر منه في معترك الصراعات السياسية"². ويؤكدون أن تكسير الحواجز بين الهويات وتأسيس عالم إنساني في عالمنا المشحون بالصراعات و التناقضات و الرغبة المحمومة بالسيطرة لا

¹ - واسيني الأعرج: البيت الأندلسي، ص138.

² - هشام بن الهاشمي: إدوارد سعيد، من دنيوية النقد إلى هجنة الهويات، مجلة دراسات و قراءات، الأزمنة الحديثة، العدد8، ص160.

الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج

يزال حلما طوباويا. ورغم الاعتراض على الثنائيات، لا مفر من الاعتراف بأن الهوية لا تتشكل إلا عبر الآخر.



خاتمة



في العمل تعاريف بالعولمة وأنواعها: الإقتصادية و السياسية و الإعلامية و آليات كل نوع ،و تعريف بالثقافة والهوية، وبيان للعلاقة بينهما ،و للآليات التي توظفها العولمة الثقافية للتأثير في المرجعيات و الثوابت التقليدية الأصيلة للأمم و الشعوب .بينت فيه تجليات العولمة الثقافية في روايات واسيني الأعرج ، بشقيها السلبي :ممثلة في مظاهر الصراع الحضاري، والصدام الثقافي، كالتطرف الفكري والديني والإرهاب العالمي و التفكك وصراع الأديان، وخطاب الكراهية، باعتبار العولمة الثقافية نزعة غربية تسلطية فوقية ،ترفض التعدد الثقافي و تهمش الآخر،و تسعى لفرض نموذجها الحضاري على العالم مستعينة بالقوة. والشق الإيجابي ممثلا في: الحوار الحضاري و التقارب الثقافي ،النابع من الاعتراف بالغيرية والحق في الإختلاف ،ومن أن الهوية الثقافية سيرورة ديناميكية مفتوحة. كما قاربت الأطروحة مظاهر تأثير الثقافة المعولمة في الفضاء السوسيو ثقافي، القيمي و الأخلاقي ، على المرأة و الأسرة و العقيدة و التراث .

وخلص العمل إلى جملة من النتائج، أجمالها فيما يأتي:

- العولمة حركة وسيرورة تاريخية قديمة جسدها الديانات السماوية القديمة، والتوسعات الاستعمارية ،التي نحت إلى فرض هيمنتها على المناطق المفتوحة، واصلت مسار تطورها، وارتبطت بمجموعة من العمليات المرتبطة و المتزامنة في مجالات الاقتصاد و السياسة و الثقافة وتكنولوجيا التواصل و الإعلام، فأضحت حقيقة واقعة، وظاهرة بالغة التعقيد، تتضمن كل أنواع التناقضات بين المحلي والعالمي وبين الخصوصي و الكوني.

- أصبحت الدول في عصرالعولمة ضحايا للسوق المفتوح و التجارة الحرة ورأس المال الأجنبي،مرتنة من قبل القوى الاقتصادية، ومختربة من قبل الشركات العالمية متعددة الجنسيات و المنظمات الدولية، وعرضة للاحتجاجات الداخلية والانتماءات القطرية الضيقة،لأنها لم تعد الفاعل الأساس في السياسة الداخلية .

- تدويل حقوق الإنسان والديمقراطية عالميا، ما هو إلا حجة اعتمدها العولمة السياسية، لاختراق سيادة الدول و تطويعها قسرا للأجندة الغربية، الهدف منها هو إزالة كل المعوقات التي تحول دون تدخل الدول العظمى في الشأن الداخلي للدول الضعيفة قصد إضعاف سيادتها.
- وسائل الاتصال أدوات ثقافية تقوم على وحدة المضمون بمنطق العولمة الإعلامية، لا يقتصر دورها على إنتاج و توزيع الثقافة فحسب، بل يتعداه إلى الانتماء والهوية، وينعكس سلبا على الذاتية الثقافية لشعوب العالم، التي تعيش تبعية إعلامية. بفعل تقليص سلطة الدولة في المجالين الإعلامي و الثقافي.
- روجت العولمة الإعلامية للثقافة الاستهلاكية، ما أدى إلى تشويه البنى التقليدية، وتغريب الإنسان، وتشكيكه في قناعاته الدينية و الوطنية و القومية، كما سيّدت قيم الاستهلاك المظهري، وزادت من فرص تقليد النموذج الغربي و محاكاته.
- تمثل الثقافة مختلف المنتجات الفكرية و المادية الإنسانية، وهي ما يمنح الشعوب هويتها وخصوصيتها. وكلاهما تكتسب سمة الدينامية و التطور.
- عولمة الثقافة تعني هيمنة ثقافة واحدة على بقية الثقافات، وهي طبعا الثقافة الغربية الأورو أمريكية، باعتبارها النموذج الأقوى، لذلك يواجه التنوع الثقافي في أواخر القرن العشرين تهديدا واسعا يتعلق بالإمبريالية الثقافية، التي تعرف بأنها توجه استعماري جديد يطال ثقافة الشعوب وهويتها القومية والوطنية، ويخترق منظومتها الفكرية والعقدية والقيمية، وينذر بمخاطر الاستلاب والغزو الثقافي، وإفراغ الهوية من كل محتوى أصيل. بما يحمله من جنوح واضح لكسر القواعد والمعايير الإنسانية، والانفلات من النظام الاجتماعي الضابط.
- العالم يسير نحو الترابط والانكماش الذي تجاوزالمجالين الاقتصادي والسياسي، وتحول إلى ربط ثقافي إنساني، لكن هذا الواقع لا يعني بالضرورة إنهاء البعد الوطني ،

و إفراغ الهوية الثقافية من محتواها، كما لا يعني استبدال الخارج بالداخل، فما يحدث هو إضافة أبعاد خارجية إلى الممارسة الثقافية المحلية.

• المنطق الذي يحكم العولمة ومشروعها الكوكبي يقوض مبدأ خصوصية التجربة الإنسانية، حيث يجري تسليع الممارسات والتجارب الثقافية الرأسمالية الغربية في شكل منتجات إعلامية، ذات نزعة استهلاكية عابرة للحدود القومية، تستهدف عولمة الخيال، وتغرس قيما نفعية معادية للأنساق الثقافية المحلية الأصيلة، لا مكان فيها للقيم الأخلاقية و الروحية و الدينية.

• انقسام العالم بصورة فاضحة، و انتشار الإرهاب، و العداء العرقي و القومي و الديني في العديد من بقاعه على الصعيدين المحلي و العالمي، يدحض مقولة اليوطوبية للثقافة العالمية. فالعلاقة بين الأنا و الآخر تعبر عن وجود صراع تاريخي وأزمة وجودية، أكبر مما تعبر عن التضاييف و الحوار بينها.

• ارتبطت العولمة في العالم العربي بتفجر الصراعات الداخلية و الحروب الأهلية، التي نتجت عن هشاشة النظام السياسي وعدم قدرته على مجارة التحولات لحل الأزمات، علاوة على فشله الذريع في دمج الأقليات الأثنية والدينية في الحياة الوطنية، ووقوع الدولة تحت ضغط السياسات الخارجية، و أجندة الصراعات الدولية.

• الحداثة المعولمة لم تكن سوى مطية استخدمها الفكر الغربي للسيطرة على الشعوب ونهبها خيراتها، لتحقيق أطماعه التوسعية بحجة نقلها من مصاف التخلف والجهل إلى مصاف الحضارة والتمدن. فمنظومة الحداثة المعولمة هي منظومة إمبريالية داروينية كما تحققت فعليا وتاريخيا، وليس كما أرادها الفلاسفة التنويريين حضارة إنسانية هيومانية.

- تتحاز مقولة نهاية التاريخ إلى النظام الليبرالي الأمريكي الذي يجسد غاية ما يمكن أن تصل إليه البشرية في مسيرتها التاريخية، وعلّة العلاقة بين العولمة و النظام الأمريكي تعود إلى أنه يمثل قوة ضاغطة ومهيمنة.
- الترويج لفكرة صراع الحضارات وصدامها لا صلة له بالأهداف الإنسانية النبيلة التي تتبع من المبادئ والقيم الحضارية الإنسانية. والصراع بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية في أواخر القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين لا يغدو أن يكون سوى استكمالاً لتاريخ الصدام بين الحضارة الغربية المسيحية و الحضارة العربية الإسلامية (الحروب الصليبية). وهو سمة متأصلة في الفكر الغربي.
- يقوم الحوار الحضاري و التعاون الإنساني على التقارب والتفاهم والتعايش، وينطوي على عناصر تغذي نزوع الإنسانية الفطري نحو الرقي و التحضر بدافع التنافس الطبيعي و التدافع الحضاري.
- الترجمة إحدى قنوات المثاقفة، وهي نشاط سوسيوثقافي، وجسر تعارف بين الشعوب والثقافات، ووسيلة للتقريب بينها. لكن يجب التأكيد على الترجمة اللاعنف، التي تتحرر من التطرف و النظرة الفوقية، لتقيم حورا جادا وبناء بين الذات الآخر.
- انطلقت الحداثة المعولمة من مبدأ الذاتية، وقد قاد هذا الفكر إلى التشيؤ والاعتراب وسقوط مفهوم الإنسانية نفسه. فبتغييب العقل النقدي والمعيارية، اتسع نطاق الحريات الفردية والنسبية، فقدم الإنسان الحداثي بعده الأدوات المنفعية على بعده الغائي الأخلاقي، وتحول من كونه غاية إلى كونه وسيلة نفعية في ظل العلم المادي المتحرر من القيمة الأخلاقية والإنسانية.
- ومع عصر الحداثة وما تلاها، ظهر الاهتمام المحموم بالجسد الذي بات جزءا هاما من الذات الحديثة، وتحرر الجنس وتحول من نشاط فطري يحقق توازن الإنسان إلى نشاط مادي حيواني، يتحاشى فيه الفرد الثبات والارتباط و المسؤولية.

- أنتجت الثقافة المعولمة خطابا نسويا عالميا يمارس استبدادا ناعما على المرأة، يتدثر باسم الحرية والمساواة، استثمر كورقة ضغط على الحكومات و المجتمعات، ووظفته المؤتمرات الدولية المنعقدة باسمها، لتحقيق أهدافها التفكيكية، وكنتيجة لهذا تراجعت القيم الأخلاقية والدينية وتفككت الأسرة وتسلمن جسد المرأة، وقدّم على أنه مادة للاستهلاك، كما استخدم في الترويج والتسويق للمنتجات لزيادة الأرباح.
- قطعت القراءات الحداثية للقرآن الكريم علاقتها بالتراث التفسيري، و غلبت العقل للنظر فيه، واستبعدت مفهوم القداسة في التعامل مع الوحي. وأسقطت كل عنصر ميتافيزيقي يفرض نفسه كمقنن ومشرع للبشرية، وأخضعت كافة المعتقدات المتوارثة إلى التحليل العقلي والتجربة.
- لقد نجحت ثقافة العولمة - بصورة نسبية - في خلخلة الثوابت والمرويات الكبرى للمجتمعات العربية، لكن هذه الأخيرة، لم تفك ارتباطها بالموروثات الدينية والفكرية نهائيا، ولم تتخلص من رواسب الدين و التاريخ و التراث و لم تتسلخ عن سردياتها الكبرى التي شكلت هويتها الثقافية، وتغلغلت إلى أدق تفاصيل حياتها، وخالطت تصوراتها ورؤاها.
- تقوم سرديات المنفى على ثيمة الهوية والتاريخ و الذاكرة و المكان، وتستكشف التصورات حول الوطن والشتات و التشرذ و الإنزياح عن المكان و الانتماء الثقافي و الوطني و اللا انتماء، وتعكس هذه السرديات تاريخيا موجات الهجرة المزامنة لسقوط الامبراطورية الأوروبية و تحرر الشعوب من هيمنتها استعمارية، وترسانة الحروب الأهلية و الجوع و العنف السياسي و الكوارث البيئية والتجارة... ضف إليها صعود العولمة. و تفتح الهوية المهجنة إمكانات التحرر من إرهاب الأصول، وتخفف من النقاء العقائدي والتمييز العنصري و التطهير العرقي الذي يمارسه أصحاب الهويات الصافية.



قائمة المصادر والمراجع



• المصحف الشريف برواية ورش عن نافع، دار المعرفة، دمشق، (د ط)، 1440هـ.

أولاً: المدونات:

واسيني الاعرج:

1- أنثى السراب: دار بيروت للآداب، ط1، بيروت، لبنان، 2010.

2- مملكة الفراشة: ط1، دار بغداد للطباعة والنشر والتوزيع، الرويبة، الجزائر.

3- سوناتا لأشباح القدس: دار الآداب للنشر و التوزيع، ط1، بيروت، لبنان، 2009.

4- أصابع لوليتا: دار الآداب للنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 2012.

5- البيت الأندلسي : منشورات الجمل، ط1، بيروت ، لبنان، 2010.

6- رماد الشرق، خريف نيويورك الأخير، ج1، منشورات الجمل، بيروت، لبنان،

2013.

7- رماد الشرق، 2، الذئب الذي نبت في البراري، منشورات الجمل، ط2، بيروت،

لبنان، 2013.

8- سيدة المقام، موفم للنشر، الجزائر، ط2، 1997،

9- كتاب الأمير، مسالك أبواب الحديد، مكتبة طريق العلم، ط2، بيروت، لبنان.

10- 2084 حكاية العربي الأخير، موفم للنشر، الجزائر، 2015.

ثانياً: المراجع العربية:

1- إبراهيم أحمد خليفة: حقوق الإنسان، أنواعها و طرق حمايتها في القوانين المحلية

و الدولية، المكتب العربي الحديث، الإسكندرية، 2008.

2- إبراهيم رمانى: المدينة في الشعر العربي، الجزائر نموذجاً، الهيئة العامة للكتاب،

ط1، مصر، 1997.

- 3- أحمد بن النعمان: الهوية الوطنية، الحقائق و المغالطات، شركة دار الأمة للطباعة و النشر، دط، الجزائر، 1995.
- 4- أحمد زايد وآخرون: الاستهلاك في المجتمع القطري، أنماطه و ثقافته، مركز الوثائق للدراسات الانسانية، دط، الدوحة، 1991.
- 5- أحمد شحيط: المكان الضائع في سرديات الرواية الإفريقية، مؤسسة هنداوي، ط1، 2020.
- 6- أسعد السحمرائي: ويلات العولمة على الدين و اللغة و الثقافة، دار النفائس، ط1، 2002.
- 7- إسماعيل الشطي: الفساد والحكم الصالح في البلاد العربية، بحوث و مناقشات الندوة الفكرية، مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع المعهد السمري، ط1، بالإسكندرية، 2004.
- 8- إسماعيل صبري عبد الله: الكوكب الرأسمالية، المرحلة الإمبراطورية، كتب الوحدة العربية، ط1، بيروت، لبنان، 1999.
- 9- إسماعيل مهنانة: في تفكير الهجنة مع إدوارد سعيد، فتوحات ما بعد الحداثة، ضمن كتاب إدواود سعيد: الهجنة، السرد، الفضاء الامبراطوري، اشراف: اسماعيل مهنانة، ط1، ابن النديم للنشر والتوزيع، 2013.
- 10- إسماعيل نوري الربيعي: التاريخ و الهوية، دار حامد، دط، عمان، 2002.
- 11- امحمد برقوق: مفاهيم في السياسة المقارنة، كلية العلوم السياسية والعلاقات الدولية، محاضرات في مادة النظم السياسية المقارنة، جامعة الجزائر، 2008-2009.

- 12- أنور الجندي: الفكر الغربي دراسة نقدية ، وزارة الأوقاف و الشؤون الدينية ، سلسلة ثقافتك الإسلامية العدد4، ط1987، ص1، 197.
- 13- أنور الجندي: قضايا العصر ومشكلات الفكر تحت ضوء الإسلام، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1981.
- 14- أنور الجندي: معالم تاريخ الإسلام المعاصر، دار الاعتصام، دط، القاهرة، مصر، 1987.
- 15- بركات محمد مراد: ظاهرة العولمة بين رفض العرب والاسلاميين والترويج الغربي، سلسلة كتاب الأمة، ط1، مركز البحوث والدراسات، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر، 2002.
- 16- برهان غليون: المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات، ط3، بيروت، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012.
- 17- بن عامر تونسي: قانون المجتمع الدولي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، ط5، الجزائر، 2004.
- 18- بومدين طاشمه: ظاهرة الإسلاموفوبيا في أوروبا، دراسة لخصوصية المسلمين في فرنسا، مؤلف جماعي ضمن كتاب الإسلاموفوبيا في أوروبا الخطاب والممارسة، ط1، المركز الديمقراطي العربي، 2019.
- 19- تركي الحمد: الثقافة العربية في عصر العولمة، دار الساقى، ط1، بيروت، لبنان، 1999.
- 20- ثابت أحمد و آخرون: العولمة و تداعياتها على العالم العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، لبنان، 2003.
- 21- الجابري محمد عابد، التراث والحداثة، ط1، المركز الثقافي العربي، 1991.

- 22- جاد عبد الكريم الجباعي: حرية الآخر، نحو ديمقراطية للمسالة القومية، دار حوران، ط1، دمشق، 1995.
- 23- جلال الدين علي الصغير: الدلالة التكوينية، الحق الطبيعي للمعصوم، ط2، بيروت، دار الأعراف، 1998.
- 24- جلييلة المليح الواكدي: مفهوم الهوية، مساراته النظرية والتاريخية في الفلسفة وفي الأنثروبولوجيا، وفي علم الاجتماع، مركز النشر الجامعي، دط، منوبة، تونس، 2010..
- 25- جميل حمداوي: مستجدات النقد الروائي، ط1، الألوكة، 2011.
- 26- الحاج دواق: التثاقف من مسلووية الاحتواء إلى معقولية التعارف، كتاب جماعي حول التثاقف في زمن العولمة، منشورات مخبر حوار الحضارات و العولمة، جامعة باتنة، الجزائر، 2011.
- 27- حسن الباش: صدام الحضارات حتمية قدرية أم لوثة بشرية؟ دار قتيبة، ط2، بيروت، لبنان، 2005.
- 28- حسن الضيقة: الآخر من منظور الفكر الغربي الحديث، دار الفكر اللبناني، ط1، بيروت، لبنان، 1994.
- 29- حسن حماد: المقدس و الأمل، تراجيديا الإله المخلص وتجلياتها في السرديات المقدسة، ضمن سلسلة المقدس و السرديات الكبرى، تنسيق و تقديم الحاج أوحمنة دواق، سلسلة ملفات بحثية، الدين و قضايا المجتمع الراهنة، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات و الأبحاث، 2016.
- 30- حسن حنفي، صادق جلال العظم: ما العولمة؟ دارالفكر المعاصر، ط2، دمشق، سوريا، 2000.

- 31- حسن عبد الله العايد: انعكاسات العولمة على السيادة الوطنية، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، دط، الأردن، 2008.
- 32- حسين خريف: العولمة الإعلامية والهوية الثقافية، كتاب العولمة والهوية الثقافية، إشراف فضيل دلهو، مخبر علم اجتماع الاتصال للبحث والترجمة، جامعة قسنطينة، 2010 .
- 33- حليم بركات: الاغتراب في الثقافة العربية، متاهات الانسان بين الحلم و الواقع، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، لبنان، 2006.
- 34- حليم بركات: غربة الكاتب العربي، دار الساقى، ط1، بيروت، لبنان، 2011.
- 35- حليم بركات، أزمة الحداثة والوعي التقليدي، رياض الريس للكتب و النشر، دط، بيروت، لبنان، 2004.
- 36- حميدان سليم، بن سعدون اليامين: بناء الخريطة الإدراكية للإسلام والمسلمين في الغرب، الإسلاموفوبيا واقعا، ضمن كتاب الإسلاموفوبيا في أوروبا الخطاب والممارسة، المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية، ط1، برلين، ألمانيا، 2019.
- 37- خالد حسن حسين: شعرية المكان في الرواية الجديدة، الخطاب الروائي لإدوارد الخياط، مؤسسة اليمامة، ط1، الرياض، 2000.
- 38- خضر أحمد عطاء الله: دراسات في آفاق الفكر الاسلامي، دار الفكر للنشر والتوزيع، دط، دبي، 1990.
- 39- خلود السباعي: الجسد الأنثوي وهوية الجندر، ط1، بيروت، جداول للنشر والتوزيع، 2011.

- 40- خليل مصطفى أبو العنين: القيم الإسلامية والتربية، ط1، الحلبي، السعودية، 1988.
- 41- خليل نوري مسيهر العاني: العولمة الإسلامية في زمن العولمة الثقافية، سلسلة الدراسات الإسلامية المعاصرة، العدد58، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، بغداد، 2009.
- 42- خيرة لكمين: ظاهرة اللجوء في أوروبا، ثنائية التهديد والأمن، دراسة في تنامي الإسلاموفوبيا، ضمن كتاب الإسلاموفوبيا في أوروبا الخطاب والممارسة، المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية و الاقتصادية، ط1، برلين، ألمانيا، 2019.
- 43- رابح زغوني: صعود اليمين المتطرف، تعبير عن عداء سياسي أم مجتمعي للإسلام، ط1، مؤلف جماعي، ضمن كتاب الإسلاموفوبيا في أوروبا الخطاب والممارسة، المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية، ط1، برلين، ألمانيا، 2019، 2019.
- 44- رجب مصطفى: العولمة ذلك الخطر القادم، أسبابها، تداعياتها الاقتصادية وأثارها التربوية، مؤسسة الوراق للنشر و التوزيع، دط، عمان، 2009.
- 45- رضا شريف: الهوية العربية الإسلامية و إشكالية العولمة عند الجابري، كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011.
- 46- رضا عبد الواحد أمين: لإعلام و العولمة، دارالفجر للنشر والتوزيع، ط1، مصر، القاهرة، 2007.
- 47- رضوان السيد، أحمد برقايوي: المسألة الثقافية في العالم العربي و الإسلامي، دار الفكر، ط2، دمشق، 2001.

- 48- ريجينا الشريف، أحمد عبد الله عبد العزيز: الصهيونية غير اليهودية، جذورها في التاريخ العربي، المؤسسة الوطنية للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، 1985.
- 49- زهير الخويلدي: الفلسفة الدينية بين تحديات القدسي و استجابات السرد، ضمن سلسلة المقدس و السرديات الكبرى، تنسيق و تقديم الحاج أوحمنة دواق، سلسلة ملفات بحثية، الدين و قضايا المجتمع الراهنة، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات و الأبحاث 2016.
- 50- سعد البازعي: قلق المعرفة، إشكاليات فكرية و ثقافية، المركز الثقافي العربي، ط1،الدار البيضاء، المغرب، 2010.
- 51- سعد الدين العلمي: الصحة النفسية و سيكولوجية الشخصية، المكتبة الجامعية، ط2، الاسكندرية، مصر، 2009.
- 52- سعود آل سعود: لمحات عن العولمة من منظر إسلامي، جامعة الملك سعود، الرياض، السعودية، 2004.
- 53- سعيد إسماعيل علي: الهوية و التعليم، عالم الكتب، ط1، القاهرة، 2005.
- 54- سعيد حارب: الثقافة والعولمة، دار الكتاب الجامعي، ط1، العين، الإمارات المتحدة، 2000.
- 55- سمير إبراهيم حسن: الثقافة و المجتمع، دار الفكر، ط1، دمشق، 2007.
- 56- سمير أمين: نحو نظرية للثقافة، نقد التمرکز الأوروبي المعكوس، معهد الإنماء العربي، بيروت، لبنان، 1989.
- 57- سمير بشة: الهوية و الأصالة في الموسيقى العربية، اشكاليات و قراءات، مراجعة و تقديم: منير السعيداني، كارم الشريف، ط1، 2012.

- 58- السيد أحمد مصطفى عمر: إعلام العولمة و تأثيره في المستهلك، كتاب: العولمة و تداعياتها على الوطن العربي،، سلسلة كتب المستقبل العربي، 64، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، بيروت، 2004.
- 59- السيد عاطف: العولمة في ميزان الفكر، دراسة تحليلية، مطبعة الانتصار، دط، الإسكندرية، 2001.
- 60- السيد ولد أباه: عالم ما بعد 11 سبتمبر 2001، الدار العربية للعلم، ط1، بيروت، لبنان، 2005.
- 61- السيد يسين: إعادة اختراع السياسة، من الحداثة إلى العولمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، القاهرة، 2006.
- 62- السيد يسين: الكونية والأصولية وما بعد الحداثة، أسئلة القرن الحادي والعشرين، نقد العقل التقليدي، ج1، المكتبة الأكاديمية، ط1، القاهرة، مصر، 1997.
- 63- سيزا قاسم، يوري لوتمان و آخرون: جماليات المكان، ط1، دار قرطبة، 1988.
- 64- شراف شناف: المقدس و السرديات الكبرى بين النص المطلق و الكتابات الأجنبية، حوار مع المفكر و الناقد الأدبي الدكتور " عبد الله العشي"، ضمن سلسلة المقدس و السرديات الكبرى، تنسيق و تقديم: الحاج أوحمنة دواق، سلسلة ملفات بحثية، الدين و قضايا المجتمع الراهنة، مؤمنون بلا حدود، 2016.
- 65- شرف الدين ماجدولين: الفتنة و الآخر- أنساق الغيرية في السرد العربي، منشورات الاختلاف، ط1، 2012.
- 66- شوقي جلال: العولمة، الهوية، المسار، الدار المصرية اللبنانية، 2007.

- 67- صالح صالحي:أوهام و تكاليف الانفتاح الليبرالي و العولمة العشرية، دار الخلدونية، دط، الجزائر، 1998.
- 68- صبحي الطعان: عالم عبد الرحمان منيف الروائي(تنظير وانجاز)، دار كنعان للدراسات والنشر، ط1،دمشق1995.
- 69- صلاح السروي: المثاقفة وسؤال الهوية، مساهمة في نظرية الأدب المقارن، الكتبي للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، مصر،2012.
- 70- صلاح صالح: سرد الآخر،المركز الثقافي العربي، ط1، المغرب،2003 .
- 71- طه عبد الرحمان: روح الحداثة، المدخل إلى تأسيس الحداثة الاسلامية، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2006.
- 72- طه عبد الرحمن: سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة العربية، المركز الثقافي العربي، ط3، بيروت، لبنان،2006.
- 73- عادل فريحات: مرايا الرواية، دراسات تطبيقية في الفن الروائي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2000.
- 74- عامر عبد زيد الوائلي: تجديد العلاقة مع المقدس، رهان تفكيك، رغبة الموت، سلسلة المقدس والسرديات الكبرى، ملفات بحثية في الدين و قضايا المجتمع الراهنة، تنسيق و تقديم الحاج أوحمنة دواق، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات و الأبحاث، 2016.
- 75- عبد الإله بلقزيز: نقد الثقافة الغربية، في الاستشراق و المركزية الأوروبية، العرب و الحداثة 4، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1،بيروت، لبنان، 2017.
- 76- عبد الاله بلقزيز، العولمة والهوية الثقافية،عولمة الثقافة أم ثقافة العولمة؟ العرب والعولمة

- 77- عبد الحليم عمارغربي: العولمة الاقتصادية، رؤى استشراقية في مصطلح القرن الواحد و العشرين، مجموعة دار أبي الفداء العالمية للنشر والتوزيع و الترجمة، حماة، سوريا 2013.
- 78- عبد الحي يحيى الزلوم: نذر العولمة، هل بوسع العالم أن يقول لا للرأسمالية المعلوماتية؟، المؤسسة العربية للدراسات النشر، ط1، بيروت، لبنان، 1999.
- 79- عبد الرزاق الدواي: في الثقافة والخطاب عن حرب الثقافات، حوار الهويات الوطنية في زمن العولمة، المركز العربية للأبحاث ودراسات السياسات، ط1، قطر، 2013.
- 80- عبد الرزاق بلعقروز: تحولات الفكر الفلسفي المعاصر، أسئلة المفهوم والمعنى والتواصل، الدار العربية للعلوم، ط1، ناشرون، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2009.
- 81- عبد الرشيد عبد الحافظ، الآثار السلبية للعولمة على الوطن العربي و سبل مواجهتها، مكتبة مدبولي، ط1، القاهرة، مصر، 2005.
- 82- عبد السلام بوزيرة: طه عبد الرحمان ونقد الحداثة، جداول للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان ط1، 2011.
- 83- عبد العزيز بلقزيز: النظام الإعلامي السمعي البصري و الاختراق الثقافي، كتاب إشكالية العلاقة الثقافية مع الغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1997.
- 84- عبد الغني عماد: سوسيولوجيا الهوية، جدليات الوعي والتفكك وإعادة البناء، مركز دراسات الوحدة العربية، الحمراء، ط1، بيروت، لبنان، 2017.

- 85- عبد القادر زهير النقوزي: المفهوم القانوني لجرائم الإرهاب الداخلي والدولي، منشورات حلبي الحقوقية، ط1، بيروت، لبنان، 2008.
- 86- عبد القادر فيدوح: تأويل المتخيل، السرد والأنساق الثقافية، صفحات للدراسات و النشر والتوزيع، ط1، 2019.
- 87- عبد الله إبراهيم: المركزية الإسلامية، صورة الآخر في المخيال الإسلامي خلال القرون الوسطى، دط، المركز الثقافي العربي، 2001.
- 88- عبد الله إبراهيم: المطابقة و الاختلاف، ج1، ط1، مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع، المملكة المغربية، الرباط، 2017.
- 89- عبد الله ابراهيم: السرديات الكبرى، مكتبة الفكر الجديد، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2012.
- 90- عبد الله ابراهيم: المركزية الغربية، إشكالية التمركزو التكون حول الذات، المركز الثقافي العربي، ط1، المغرب، 1997.
- 91- عبد الله إبراهيم: بيان المنفى، ضمن كتاب: الكتابة و المنفى، تحرير و تقديم: عبد الله إبراهيم، منشورات الاختلاف، ط1، دار الأمان، الرباط، 2011.
- 92- عبد الله العروي: الأيديولوجية العربية المعاصرة، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 1995 .
- 93- عبد الله الغزامي: القبيلة و القبائلية أوهويات مابعد الحداثة، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، المغرب، 2009.
- 94- عبد المالك أشبهون: الحساسية الجديدة في الرواية العربية، روايات إدوارد الخراط نموذجاً، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2010.

- 95- عبد المطلب عبد الحميد: العولمة والاقتصاديات و البنوك، ط1، الدار الجامعية للطباعة والنشر، 2001.
- 96- عبد الوهاب الكيلاني: موسوعة السياسة، ج1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، لبنان، 1990.
- 97- عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، المجلد2، ط1، دار الشروق، القاهرة، 2002.
- 98- عبد الوهاب المسيري: دريدا في القاهرة، التفكيكية والجنون، ضمن كتاب: جاك دريدا والتفكيك، ط1، تحرير: أحمد عبد الحليم عطية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 2010.
- 99- عبد الوهاب المسيري: قضية المرأة بين التحرير... والتمركز حول الأنثى، ط2، سلسلة في التنوير الاسلامي 38، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 2010.
- 100- عبد الوهاب المسيري: نهاية التاريخ وصراع الحضارات، كتاب صراع حضارات أم حوار حضارات، منظمة تضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية، القاهرة، 1997.
- 101- عدي بن الرقاع العاملي: ديوان عدي بن الرقاع العاملي، جمع وشرح ودراسة حسن محمد نور الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1990.
- 102- عز الدين الخطابي: سوسيولوجية التقليد والحداثة بالمجتمع المغربي، منشورات عالم التربية، الدار البيضاء، المغرب، 2001.
- 103- عز الدين المناصرة: المثاقفة والنقد المقارن-منظور إشكالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1996.

- 104- عفيف البهنسي: الهوية الثقافية بين العالمية و العولمة، منشورات وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب، دط، 2009.
- 105- علي حرب: حديث النهايات، فتوحات العولمة و مآزق الهوية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، المغرب، 2004.
- 106- عماد الدين خليل عمر: المرأة والأسرة المسلمة من منظور غربي، ط1، التفسير للنشر والإعلان، أربيل، العراق، 2008.
- 107- عماد عبد الغني: سوسيولوجيا الثقافة، المفاهيم والإشكالية، من الحداثة إلى العولمة، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2006.
- 108- عماد يونس: العولمة، تاريخ، أبعاد ومؤثرات على العالم العربي، بحث في التاريخ السياسي، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، 2005.
- 109- عمار جيدل: حوار الحضارات و مؤهلات الإسلام في التأسيس للتواصل الانساني، ط1، دار الحامد، 2003.
- 110- عواطف عبد الرحمان: قضايا التبعية الإعلامية و الثقافية في العالم الثالث، سلسلة كتب ثقافية شهرية، المجلس الوطني للثقافة و الفنون والآداب، الكويت، 1990.
- 111- فارح مسرحي الحداثة في فكر محمد أركون، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2006.
- 112- الفتلاوي سهيل حسين: العولمة و أثارها في العالم العربي، دار الثقافة للنشر و التوزيع، دط، عمان، 2009.
- 113- فريد الزاهي: الجسد والصورة والمقدس في الإسلام، أفريقيا للشرق، دط، المغرب، 1999.

- 114- كمال الدين عبد الغني المرسي: الخروج من فخ العولمة، المكتب الجامعي الحديث، ط1، الاسكندرية، مصر، 2002.
- 115- لمياء طالة: الإعلام الغربي و التغريب الثقافي، دار أسامة للنشر و التوزيع، ط1، الأردن، عمان، 2014.
- 116- ليلي لعوير: العولمة وانتهاك المقدس، كتاب العولمة و الهوية الثقافية، اشراف فضيل دلهو، مخبر علم اجتماع الاتصال للبحث والترجمة، جامعة قسنطينة، 2010.
- 117- ماجد عرسان الكيلاني، رسالة مفتوحة إلى الفتاة المسلمة في ظل العولمة، دار القلم، ط1، دبي، 2005،
- 118- ماجدة حمود إشكالية الأنا والآخر، نماذج روائية عربية، ط1، المجلس الوطني للثقافة و الفنون والآداب، 2013.
- 119- ماجدة حمود: صورة الآخر في التراث العربي، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2010.
- 120- مجدي عزيز إبراهيم: موسوعة المناهج التربوية، مكتبة الانجلو المصرية، دط، القاهرة، 2002.
- 121- محسن الخضيرى: مقدمة في فكر و اقتصاد و إدارة عصر الدولة، مجموعة النيل العربية للنشر، ط1، القاهرة، 2000.
- 122- محمد أحمد علي مفتي: نقد الجذور الفكرية للديمقراطية الغربية، مكتبة الملك فهد، ط1، الرياض، 2002.
- 123- محمد الباردي: إنشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة، مركز النشر الجامعي، دط، 2004.

- 124- محمد الجوهري و آخرون: علم الاجتماع الاقتصادي، دار المسيرة للنشر والتوزيع، ط1، عمان، 2009.
- 125- محمد الداوي: صورة الأنا والآخر في السرد، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2013.
- 126- محمد الديدوي: مفاهيم الترجمة، المنظور التعريبي لنقل الترجمة، المركز العربي الثقافي، الدار البيضاء، المغرب، 2007.
- 127- محمد السويدي: مفاهيم علم الاجتماع الثقافي و مصطلحاته، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، الجزائر، 1999.
- 128- محمد بكاي: أرخبيلات ما بعد الحداثة، رهانات الذات الإنسانية، من سطوة الانغلاق إلى إقرار الانعتاق، مكتبة مؤمن قريش، ط1، لبنان، 2017.
- 129- محمد بوبوش: أثر التحولات الراهنة على مفهوم السيادة الوطنية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2008.
- 130- محمد حيدر: الدولة المستباحة، من نهاية التاريخ الى بداية الجغرافية، رياض الرس للكتب والنشر، دط، بيروت، 2004.
- 131- محمد سليمان: أسئلة الهويات والمثاقفة في عصر العولمة، معهد إبراهيم للدراسات الإعلامية والثقافية، ط1، رام الله، فلسطين، 2008.
- 132- محمد عابد الجابري: التراث و الحداثة، دراسات و مناقشات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1991.
- 133- محمد عابد الجابري: قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، بيروت، لبنان، 2003.

- 134- محمد عابد الجابري: نحن والتراث، قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي، ط6، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 1993.
- 135- محمد علي شمو:الاتصال الدولي والتكنولوجيا الحديثة، مكتبة الإشعاع،الإسكندرية، مصر،2002.
- 136- محمد عمارة: مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، نهضة مصر للطباعة والنشر و التوزيع،ط1، مصر،1999.
- 137- محمد عمارة: العطاء الحضري للإسلام، سلسلة اقرأ، رقم26، دار المعارف، القاهرة، 1997.
- 138- محمد عمارة: بين العالمية الاسلامية و العولمة الغربية، مكتبة الامام البخاري للنشر و التوزيع، دار الكتاب المصرية، ط1، القاهرة، 2009.
- 139- محمد عمارة: في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام، ط1، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2003.
- 140- محمد محمود العاملي: الأنبياء، ج1، إيران، دارالحسين للنشر و لتبليغ، ط1،إيران، 2000.
- 141- محمد مراح: نحو رؤية إسلامية لتعارف الحضارات، كتاب تعارف الحضارات إعداد زكي ميلاد، دار الفكر، دمشق، سوريا،2006.
- 142- محمود إسماعيل: الخطاب الأصولي المعاصر، ط1، رؤية، القاهرة،2015.
- 143- محمود حمدي زقزوق، الإسلام والغرب، مكتبة الشروق الدولية، ط1، القاهرة، 2005.

- 144- محي الدين تيتاوي، العولمة و تحديات الاختراق الثقافي، في كتاب العولمة وأثرها في الاقتصاد العربي، دط،بيت الحكمة، بغداد، العراق، 2002.
- 145- ممدوح محمود منصور: العولمة، دراسة في المفهوم و الظاهرة و الأبعاد، دار الجامعة الجديدة، دط، 2003.
- 146- مية الرحبي، النسوية مفاهيم وقضايا، الرحبة للنشر والتوزيع، ط1، دمشق، سوريا، 2014.
- 147- نبيل راغب: أقنعة العولمة السبعة، دارغريب للطباعة و النشر والتوزيع، 2001.
- 148- نصر حامد أبو زيد: الخطاب والتأويل: "سلطة السياسة وسلطة النص"، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2005.
- 149- نصر حمد عارف: الحضارة، الثقافة، المدنية، دراسة السيرة المصطلح و دلالة المفهوم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2، عمان، 1994.
- 150- هاني شحاتة الخوري: تكنولوجيا المعلومات على أعقاب القرن الحادي والعشرين، مركز الرضا للكمبيوتر، ط1، دمشق، سوريا، 1998.
- 151- وسيلة سناني: في نظرية النقد الثقافي، دار فضاءات للنشر، ط1، عمان، الأردن، 2006.
- 152- وليد حمارنة: الترجمة وإشكالات المثاقفة، ط1، منتدى العلاقات العربية والدولية، 2016.
- 153- يوسف المراشدة: العولمة و أثرها على العالم العربي، مشروع الشرق الأوسط الكبير، دار الكندي للنشر و التوزيع، دط، بغداد، 2007.

ثالثا: المراجع المترجمة إلى العربية:

- 1- إدوارد سعيد: المثقف و السلطة، ترجمة: محمد عناني، رؤية للنشر و التوزيع، ط1، القاهرة، 2006.
- 2- إدوارد سعيد: الثقافة و الإمبريالية، تر: كمال أبو ديب، دار الآداب، ط3، بيروت، 2004.
- 3- إدوارد سعيد: خارج المكان، ترجمة: فواز طرابلسي، دار الآداب، ط1، بيروت، لبنان، 2000.
- 4- آرمان ماتلار: التنوع الثقافي والعولمة، ترجمة: خليل أحمد خليل، دار الفارابي، ط1، 2008.
- 5- أنتوني غدنز: علم الاجتماع، ترجمة وتقديم فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2005.
- 6- برتراند بادي: الدولة المستوردة، تغريب النظام السياسي، ترجمة لطيف فرج، العالم الثالث، دط، القاهرة، 1996.
- 7- جاك دريدا: ما الذي حدث في حدث 11 ديسمبر، ترجمة صفاء فتحي، مراجعة: بشير سباعي، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة 2002.
- 8- جوليا كريستيفا: علم النص، ترجمة: فريد الزاهي، ط1، دار طوبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1990.
- 9- جون توملنسون: العولمة و الثقافة، تجربتنا الاجتماعية عبر الزمان و المكان، ترجمة: إيهاب عبد الرحيم محمد، عالم المعرفة، الكويت، 2008.

- 10- جون هارتلي: الصناعات الإبداعية، كيف تنتج الثقافة في عالم التكنولوجيا و العولمة ؟ ترجمة: بدر السيد سليمان الرفاعي، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، 2007.
- 11- حنا أرنندت: في العنف، ترجمة: إبراهيم أنيس، ط1، دارالساقى، 1992.
- 12- دنيس كوتش: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، تر: منير السعيداني، مراجعة: الطاهر لبيب. مركز دراسات الوحدة العربية، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، لبنان، 2007.
- 13- ديفيد هيلد: نماذج ديمقراطية، ترجمة: فاضل جتكر، معهد الدراسات الاستراتيجية، دط، العراق، 2006.
- 14- زيجمونت باومان: الثقافة السائلة، ترجمة: حجاج أبو جبر، تقديم: هبة رؤوف عزت، الشبكة العربية للأبحاث و النشر، ط1، بيروت، 2016.
- 15- سارة جاميل: النسوية وما بعد النسوية، دراسات و معجم نقدي، ترجمة أحمد الشامي، مراجعة هدى الصدة، المشروع القومي للترجمة، العدد483، المجلس الأعلى للثقافة، الجيزة، القاهرة، ط1، 2002.
- 16- صامويل هنتجتون: صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة: طلعت الشايب، تقديم: صلاح قنصوة، ط2، 1999.
- 17- فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ وخاتم البشر، ترجمة: حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط1، 1993.
- 18- فريدمان توماس: السيارة ليكساس و شجرة الزيتون، محاولة لفهم العولمة.، ترجمة: ليلي زيدان، مراجعة: فايزة حكيم، الدار الدولية للنشر والتوزيع، ط2، القاهرة، مصر، 2001.

- 19- مارتن هايدغر: التقنية-الحقيقة-الوجود، ترجمة: محمد سبيلا و عبد الهادي مفتاح، المركز العربي الثقافي، بيروت، 1995.
- 20- مارتين، هانس بيتر وآخرون: فتح العولمة، الأعداء على الديمقراطية والرفاهية، ترجمة و تقديم: عدنان عباس علي، مراجعة و تقديم: رمزي زكي، عالم المعرفة، دط، الكويت، 2003.
- 21- مالك بن بني: مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، ط4، دمشق، سوريا، 1894.
- 22- مالك بن نبي: مشكلات الحضارة، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة: بسام بركة وأحمد شعبو، تقديم: عمر مسقاوي، دار الفكر المعاصر، ط1، بيروت، لبنان، 1988.
- 23- مايك فيذرستون: الثقافة الاستهلاكية و الاتجاهات الحديثة، ترجمة: محمد عبد الله المطوع دار الفارابي، ط1، بيروت، 1991.
- 24- محمد أركون: الفكر الإسلامي، قراءة علمية، ترجمة هاشم صالح، ط2، مركز الانماء القومي، بيروت، لبنان، المركز الثقافي، الدار البيضاء، المغرب، 1996.
- 25- محمد أركون: الفكر الأصولي و استحالة التأصيل، نحو تاريخ آخر للفكر الاسلامي، ترجمة: هاشم صالح، دار الساقى، 1999.
- 26- محمد أركون: القرآن التفسير الموروث إلى نقد الخطاب الديني، ترجمة هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، لبنان ط1، 2001.
- 27- محمد أركون: أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟ ترجمة و تعليق: هاشم صالح، ط2، دار الساقى، بيروت، لبنان، 1995.

- 28- محمد أركون: قضايا في نقد العقل الديني، كيف نفهم الإسلام اليوم، ترجمة وتعليق: هاشم صالح، دار الطليعة للطباعة و النشر، ط3، بيروت، 2004.
- 29- نعوم تشومسكي: السيطرة على الإعلام، ترجمة أميمة عبد اللطيف، دار الشروق الدولية، ط8، القاهرة،، 2003.
- 30- نعوم تشومسكي: ردع الديمقراطية، ترجمة: فاضل جتكر، دار كنعان للدراسات و النشر، ط1، سوريا، 1992.
- 31- هيربرت ماركوز: الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الآداب، دط، بيروت، 1973.
- 32- هيرسك وفيتش ملفيل: أسس الأنثروبولوجيا الثقافية، ترجمة: رباح النفاخ، وزارة الثقافة، دمشق، 1974.
- 33- ولتر برستون: كيف تحول ثورة المعلومات عالمنا، أصول السيادة، ترجمة: سمير عزت نصار وجورج خوري، دار النسر للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 1995.

رابعا: المذكرات والاطروحات:

- 1- بن حصير رفيق: الأمازيغية والأمن الهوياتي في شمال إفريقيا، دراسة حالة الجزائر و المغرب، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم السياسية. جامعة باتنة- دفعة 2012-2013.
- 2- بن قانة شانز: حقوق الإنسان بين العالمية و النسبية الثقافية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التنظيم السياسي والإداري، كلية العلوم السياسية و الإعلام، الجزائر، 2005-2006.

3- تيغزة زهرة: الهيمنة العالمية الأمريكية في ظل المتغيرات الدولية الجديدة، مذكرة النيل شهادة الماجستير في العلوم السياسية والعلاقات الدولية، جامعة الجزائر، 2003.

4- جمال مبارك: الغرب في الرواية العربية الحديثة، بحث مقدم لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الأدب العربي الحديث، جامعة الحاج لخضر باتنة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية وآدابها، 2008-2009.

5- شبلي هجيرة: إشكالية مستقبل العلاقة بين الحضارات، زكي ميلاد نموذجاً، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في فلسفة الحضارة، جامعة الحاج لخضر باتنة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والاسلامية، قسم العلوم الانسانية، شعبة الفلسفة، 2012-2013.

6- عميرات عبد الحكيم: التنمية ومشروع التغريب، قراءة تحليلية، سوسيولوجية لبعض المعاني الكامنة في فكرة التنمية، ماجستير علم الاجتماع، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر 2، 2005-2006.

7- نعيمة غالية: تداعيات منظومة القيم الغربية الاستشراقية على المنطقة الغربية في ظل استراتيجيات العولمة الثقافية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية والعلاقات الدولية، كلية العلوم السياسية والاعلام، جامعة الجزائر، 2006-2007.

خامسا: المجلات والدوريات والجرائد:

1. إبراهيم الحيدري: عولمة الثقافة وثقافة التصنيع، الحوار المتمدن، مواضيع وأبحاث سياسية، العدد 5118، 30 مارس 2016.

2. إبراهيم الناصر الحميدان: أسباب فقدان الهوية في الفن الابداعي، مجلة الفيصل، مجلة ثقافية شهرية، مركز النمر التجاري المملكة العربية السعودية، العدد 23، 1999.
3. إبراهيم عبد الله: حوار الثقافة والقيم و المجتمعات التقليدية، ثقافتنا للدراسات و البحوث، المجلد 5، العدد 17، 2007.
4. أحمد إبراهيم محمود: الإرهاب الجديد، الشكل الرئيسي للصراع المسلح في الساحة الدولية، السياسة الدولية، العدد 147، يناير 2002.
5. أحمد مجدي حجازي: العولمة وتهميش الثقافة الوطنية رؤية نقدية من العالم الثالث، عالم الفكر، المجلد 28، العدد 2، أكتوبر 1999.
6. أمل عبيد: العولمة و تطورات العالم المعاصر، مجلة الحوار المتمدن، العدد 178، 2007، العراق.
7. أوريدة عبود: تماهي التاريخ و التخيل في رواية " سوناتا لأشباح القدس " لواسيني الأعرج، مجلة اللغة العربية، وادي سوف، المجلد 21، العدد 44، 2019.
8. بليل نور الدين: القنوات الفضائية و تأثيراتها على القيم الاجتماعية و الثقافية والسلوكية لدى الشباب الجزائري، مجلة اتحاد الإذاعات الدولية، العدد 4، 2004.
9. تيسير شيخ الأرض: الترجمة بين الفعل والانفعال الثقافي، مجلة الوحدة، العدد 61-62، أكتوبر، نوفمبر، 1989.
10. جاسم المؤيد: أثر العولمة على الهوية الوطنية، مجلة قضايا سياسية، جامعة النهريين، كلية العلوم السياسية، بغداد، المجلد 4، العددان 23/24/2011، نقلا عن شفيعة حداد و أسماء بلاغماس، تأثير العولمة في بعدها الثقافي الهوياتي المجلة الجزائرية للأمن الإنساني المجلد 04، العدد 02، جويلية 2019.

11. جعفر الهادي: السرد الروائي العربي و تحديات العولمة، مجلة البلاد، 15 أكتوبر، 2022.
12. جفال سامية: التجلي الثقافي لفلسفة العولمة المعاصرة، هل تقبل الثقافات التعولم؟ حوليات جامعة الجزائر1، العدد33، الجزء الأول، مارس2019.
13. جلال الشافعي: العولمة الاقتصادية و أثرها على الضرائب في مصر، مجلة الأهرام الاقتصادي، 2002.
14. جلال أمين: العولمة والهوية الثقافية والمجتمع التكنولوجي الحديث، مجلة المستقبل العربي، العدد60.
15. جمال مبارك: الشخصية الغربية في رواية المخطوطة الشرقية لواسيني الأعرج، خطاب المركز والهامش، مجلة قراءات، مخبر وحدة البحث في نظريات القراءة ومناهجها، جامعة بسكرة.
16. جمعون نوال: ثقافة الاستهلاك و ضغوط العولمة، مجلة" دراسات في الاقتصاد و التجارة و المالية"، مخبر الصناعات التقليدية لجامعة الجزائر3، المجلد07، العدد1، 2018.
17. حربي خالد: العولمة بين الفكرين الإسلامي والغربي، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، 2010، نقلا عن المعتصم بالله أحمد الخلايلة: بعاد العولمة الثقافية على الهوية العربية في عصر الأحادية القطبية، مجلة التراث، جامعة الأردن، مؤتة، العدد 01، 2018.
18. حسن توفيق إبراهيم: العولمة، الأبعاد والانعكاسات السياسية، مجلة عالم الفكر، العدد27، الكويت، 1997.

19. حسنين توفيق إبراهيم: العولمة، الأبعاد و الانعكاسات السياسية، رؤية أولية من منظور علم السياسة، مجلة عالم الفكر، الكويت ع 27، 1997.
20. حمدي حسن عبد الحميد المحروقي: دور التربية في مواجهة تداعيات العولمة على الهوية الثقافية، مجلة دراسات في التعليم الجامعي، مركز تطوير التعليم الجامعي بجامعة عين شمس، القاهرة، العدد7، 2004.
21. حميد الجميلي: العولمة الاقتصادية و آليات الهيمنة و الاحتكار الجديدة، مجلة المنتدى، منتدى الفكر العربي، المجلد 28، العدد 207، أيار، آب، 2013.
22. راضية فويال: العولمة الثقافية و مفهومها، ضمن الركن الثقافي لجريدة الخبر اليومية، 5 يونيو 2013.
23. رحمة عيساني: ثقافة الاستهلاك و مخاطر تدمير الهوية الوطنية في زمن العولمة الثقافية، كلية العلوم الاجتماعية و العلوم الاسلامية، مجلة الإحياء، العدد10.
24. رشيد برهون: الترجمة ورهانات العولمة والمثاقفة، مجلة عالم الفكر، العدد 1، الكويت، سبتمبر 2002.
25. رواء محمد النعاس: المثاقفة والمثاقفة النقدية في الفكر النقدي العربي، مجلة القادسية في الآداب والعلوم والتربية، العدد3-4، المجلد7، 2008.
26. سارة زرزور: الترجمة والمثاقفة، جسور المعرفة، المجلد الثالث، العدد11، سبتمبر 2017.
27. سعيد يعقوب: الهوية و العولمة، مجلة الفكر السياسي، العدد2002، 16، نقلا عن بوزعاية باية، وابن داود العربي: إشكالية الهوية و العولمة الثقافية، عدد خاص، الملتقى الدولي الأول حول الهوية و المجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري، مجلة العلوم الانسانية و الاجتماعية.

28. الشيخ حبيب آل جميع: العولمة في المجال الثقافي، مجلة المناهج، العدد 23، السنة السادسة، 2001.
29. صادق جلال العظم: ما هي العولمة؟، ورقة عمل بحثية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1996، نقلا عن: العرب و العولمة مشكلات الحاضر و تحديات المستقبل: ميهوب غالب أحمد، مجلة المستقبل العربي، العدد 256، السنة 23 حزيران، 2000.
30. عادل حمدي عباس أحمد: الآخر في الفكر الغربي، مركزية الذات وتنامي مفهوم الاستعلاء وانحدار الغيرية، مجلة كلية أصول الدين والدعوة، جامعة الأزهر، المنوفية، القاهرة، العدد 40، 2008.
31. عباس برادة السني: العولمة الاقتصادية، ملامح، أبعاد، اتجاهات، منشورات المعرفة للجميع، العدد، 12، يناير 2000.
32. عبد الإله بلقزيز: العولمة و الهوية الثقافية، عولمة الثقافة أم ثقافة العولمة؟، مجلة المستقبل العربي، مجلد 20، العدد 229، 1998.
33. عبد العزيز منصور: العولمة و الخيارات العربية المستقبلية، مجلة جامعة دمشق، دمشق، سوريا، العدد 2، 2009.
34. عبد الغني رجواني، عصر المعلومات، سلسلة المعرفة للجميع، ع9، منشورات رمسيس الرباط، المغرب، 1999.
35. عبد الله عبد الخالق: العولمة جذورها، فروعها، كيفية التعامل معها، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد 28، 1999.
36. علي أسعد وطفة، إشكالية الهوية و الانتماء في المجتمعات العربية المعاصرة، مجلة المستقبل العربي، العدد 282، 2002.

37. علي حرب: صدمة العلمنة في نظام النخبة، جريدة السفير، العدد 8012، 06 حزيران 1998.
38. عماد يوسف: مفهوم الاستلاب العقلي، الفكري والثقافي، الحوار المتمدن، العدد 3271، 2001.
39. عمر جاه: العولمة و التغيرات الاجتماعية و الثقافية في العالم الإسلامي، المعرفة مجلة إسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بيروت، العددان 37-38، السنة 10، 2004.
40. فاطمة قوال: "مفهوم السيادة في ظل المجتمع المعلوماتي"، مجلة فكر مجتمع، الجزائر، طاكسيج كوم للدراسات و النشر و التوزيع، الجزائر، عدد 16 أبريل، 2013.
41. فخري صالح: أدب المنفى، مجلة الكلمة، العدد 10، أكتوبر 2007.
42. فضل الله أحمد: مقاربات الأنا و الآخر، قاف لخدمات الطباعة المتكاملة، السودان. نقلا عن: سمير بولقدام: معالم الهوية الثقافية في ظل التباين الثقافي، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، المجلد 10، العدد 01، جوان 2019..
43. كريمة حداد، بوجمعة شتوان: الحوار وعيب الذات واستقبال للآخر،" رواية كتاب الأمير، مسالك أبواب الحديد "أنموذجا، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، المجلد 10، العدد 3، 2021.
44. لامية طالة: إشكالية التغريب الثقافي الأمريكي و المواقف العالمية منه، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، المجلد 33، العدد 01، 2019.

44. مجموعة من المؤلفين الاستغراب: الذاتية الغيرية-إشكال الإنسان على الإنسان، دورية فكرية، العدد10، السنة4، المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت، 2018.
45. محمد أحمد النابلسي: الإسلاموفوبيا كمظهر لجنون العظمة الغربي، شبكة العلوم النفسية العربية، العدد 38، 2015.
46. محمد حافظ دياب: الترجمة وأسئلة النهضة العربية، مجلة الوحدة، العدد61-62، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، 1989.
47. محمد سعيد الريحاني: الترجمة جسر عبور بين تقديم الذات والتعريف بالآخر، مجلة الجوبة، العدد33، الرياض، مؤسسة عبد الرحمن السديري الخيرية، المملكة العربية السعودية، 2011.
48. محمد شومان: عولمة الإعلام و مستقبل النظام الإعلامي العربي، مجلة عالم الفكر، العدد1، 02 أكتوبر 1999.
49. محمد عابد الجابري، العولمة و الهوية الثقافية، ندوة العرب والعولمة، مجلة المستقبل العربي، العدد2، بيروت، لبنان، 1998.
50. محمد فائق: حقوق الانسان بين الخصوصية والعالمية، مجلة المستقبل العربي، القاهرة، العدد 245، يوليو، 1997.
51. محمد قرانيا: التراث و الأصالة المعاصرة، ملامح و نظرات، المعرفة السورية، العدد 390، آذار نيسان، 1996.
52. مسعود ظاهر: الاتجاهات الأساسية لحركة الترجمة في لبنان والوطن العربي، مجلة الوحدة، العدد61-62، أكتوبر/نوفمبر، 1989.

54. مصطفى عمر التير: الهوية الثقافية العربية و التعليم في الوطن العربي في ظل العولمة، مجلة الفكر العربي، السنة 20، العدد 97، بيروت، 1999.
55. مصطفى مرتضى: العولمة و ثقافة الاستهلاك لدى الشباب الجامعي، دراسة اجتماعية ميدانية، مجلة حوليات آداب، عين شمس، الجيزة، 2011.
56. مطاع صفدي: نهاية التاريخ، بيان التيموسية المظفرة، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، العدد 100 - 101، بيروت، لبنان، 1993.
57. مفيد كاصد ياسر: الخصوصية في مواجهة المركزية الغربية، مجلة آفاق عربية، العدد 7-8، تموز، آب، 1996.
58. موشاع فاطمة: مقارنة سيميائية في رواية 2084 حكاية العربي الأخير، لواسيني الأعرج، مجلة الأبحاث القانونية و السياسية والإدارية، العدد 31، 2 ديسمبر 2021.
59. نبيل علي صالح: الحداثة العربية: مقومات ومعايير، جريدة الاتحاد الاماراتية، أبوظبي، العدد 246، 6-2-2012.
60. هشام بن الهاشمي: إدوارد سعيد، من دنيوية النقد إلى هجنة الهويات، مجلة دراسات و قراءات، الأزمنة الحديثة، العدد 8.
61. واسيني الأعرج: انهيار الدولة العربية والتفكك المتواتر، مجلة القدس العربي، 9-12-2015.
62. واسيني الأعرج: تنامي ثقافة العدمية على هامش اعتداءات نيس الإرهابية، جريدة الأهرام الجديدة الكندية، 22 يناير، 2017.
63. وهيبة سماعل، رشيد رايس، تضاييف اللغة و الهوية في رواية " مملكة الفراشة" لواسينيا الأعرج، مقارنة ثقافية. مجلة العلوم الاجتماعية و الإنسانية، العدد 14، جامعة العربي التبسي، تبسة 31-12-2017.

سادسا: المؤتمرات والملتقيات والندوات:

- 1- برهان غليون : العولمة و أثرها على المجتمعات العربية، ورقة مقدمة اجتماع خبراء اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا، يوم 19-21 ديسمبر 2005، بيروت.
- 2- سمير أمين: ندوة العرب و النظام العالمي الجديد، في الكتاب الصادر عن الأسبوع الثقافي الثالث لقسم الفلسفة، بكلية الآداب، جامعة دمشق، 1997.
- 3- سيار الجميل: تعقيب على مداخلة السيد ياسين، ندوة العرب و العولمة، بحوث و مناقشات الندوة الفكرية، مركز دراسات الوحدة العربية، تحرير: أسامة أمين الخولي، ط1، بيروت، لبنان، 1998.
- 4- السيد ياسين: في مفهوم العولمة، ندوة العرب و العولمة، بحوث و مناقشات الندوة الفكرية، مركز دراسات الوحدة العربية، تحرير: أسامة أمين الخولي، ط1، بيروت، لبنان، 1998.
- 5- السيد ياسين: في مفهوم العولمة، ندوة العرب و العولمة، ضمن كتاب: بحوث و مناقشات الندوة الفكرية، مركز دراسات الوحدة العربية، تحرير: أمين الخولي، ط1، بيروت، لبنان، 1998.
- 6- سيليني نور الدين: تيمة الجنس في خطاب الروائي واسيني الأعرج، بين الوعي الملتقى الوطني الأول حول النقد الأدبي الجزائري 21-22، ماي 2006.
- 7- عبد الإله بلقزيز: العولمة والعولمة الثقافية، عولمة الثقافة أم ثقافة العولمة، ندوة العرب و العولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، تحرير: أسامة أمين الخولي، ط1، بيروت، لبنان، 1998.

- 8- عبد السلام بن عبد العالي: الترجمة وإشكالية الآخر، في الترجمة وإشكالات المثاقفة، تحرير مجاب الإمام ومحمد عبد العزيز، أعمال مؤتمر منتدى العلاقات العربية والدولية في الدوحة، 26-27 فبراير/شباط، 2014.
- 9- مجاب الامام، محمد عبد العزيز: الترجمة وإشكالات المثاقفة، الترجمة عبر تباينات القوة، اللغة والهوية في عالم الترجمة اللامتكافئة، ثائر أديب، ط1، منتدى العلاقات العربية والدولية في الدوحة 26-27 فبراير، 2014.
- 10- محمد الأمين موسى: توظيف الوسائل المتعددة في الإعلام الإلكتروني العربي، مؤتمر "صحافية الانترنت، الواقع و التحديات، الإمارات العربية المتحدة، نوفمبر، 2005.
- 11- محمد عبد الله الجعيدي: انتقال التكنولوجيا الحديثة بين خوفين، يقظة الآخر وسطوة القوة، ثقافة الخوف، مؤتمر فيلادلفيا الدولي الحادي عشر، جامعة فيلادلفيا الأردن، يوم: 24- 26/أبريل /2006.
- 12- نبيل علي صالح: الحداثة العربية: مقومات ومعايير، جريدة الاتحاد الاماراتية، أبوظبي، العدد246، 6-02-، 2012.
- 13- هادي نعمان الهيتي: الثقافة العربية أمام تحديات الفضائيات الوافدة، كتاب العولمة والهوية، أوراق المؤتمر العالمي الرابع لكلية الآداب و الفنون، منشورات جامعة فيلادلفيا، دارمجدلاوي، ط2، عمان، الأردن، أيام4-6أيار، 1991.
- سابعا: المعاجم والقواميس:
- 1- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري:لسان العرب، ج9 ، مادة ثقف،تحقيق:عبد الله علي الكبير وآخرون،نشر أدب الحوزة،إيران، 1405هـ.

- 2- أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي: كتاب المصباح المنيرفي شرح غريب الشرح الكبير، ج1، مادة ثقف ،المكتبة العلمية ، بيروت، لبنان.
- 3-جميل صليبا: المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية و الفرنسية و الانجليزية واللاتينية، ج2، دار الكتاب اللبناني، 1982.
- 4-محمد عاطف غيث: قاموس علم الاجتماع، دارالمعرفة الجامعية، مصر، 2006.

ثامنا: المواقع الالكترونية:

- 1-إبراهيم الكوني: الكتابة والمنفى.. تلك الهوية الرمادية، صوت ultra،
<https://www.ultrasawt.com>
- 2-أحمد جاب الله: الحوارالديني، مفهومه، أهدافه، ضوابطه، بحث مقدم للدورة 21
لمجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث، دبلن، إيرلندا،
<https://www.e-.cfr.org/blog/>
- 3-آمنة الرميلى: سوناتا لأشباح القدس لواسيني الأعرج، الذاكرة ولعبة الكتابة،
مجلة القدس العربي، www.alquds.co.uk
- 4-توفيق بن عامر: المثاقفة والتغيير، المؤتمر السابع عشر، ثقافة التغيير،
جامعة فلادلفيا، عمان، الأردن، الثلاثاء 2012/11/06،
www.philadelphia.edu.jo/arts/17th/day.../tawfiq.doc
- 5-تيسير أبو عودة، المنفى و سرديات الهوية المرتحلة، الجزيرة
نت، <www.aljazeera.net>blogs

6- دعد ديب: محاورات الرواية العربية مع الأدب العالمي، "فرانكشتاين وأصابع لوليتا أنموذجا،

<https://www.albinaa.com/archives/article/163450>. البناء

7- دون مؤلف .: أدب المنفى و المهجر، مجلة فكر الثقافية، topic-
www.fikrmag.com detail

8- راضية الشرعبي: الإعلام العربي و تحديات العولمة الثقافية، مركز العهد الثقافي، مصر أنظر الموقع على شبكة المعلومات الدولية
www.alahd.com

9- رويترز: الأعرج يسحب رواية جورج أورويل 1984 على العالم العربي،
www.youm7.com/story/.../26225.

10- سمير شطارة: نوبل السلام بين التسييس والاستقلالية،
www.aljazeera.net

11- صالح المغامسي: تأملات قرآنية، تأملات في سورة النجم، المكتبة الشاملة،
<http://www.islamweb.net>.

12- عاصم الخواجا: الاستعمار الفكري وصراع الحداثة في العالم العربي، مجلة العربي الجديد،
<https://www.alaraby.co.uk>

13- عمون: واسيني الأعرج "رواية العربي الأخير" تستلهم أجواء 1984 لجورج أورويل بإسقاط عربي،
www.ammonnews.com/article/269347.

14- محمد ذويب: إرهاب العولمة وعولمة الإرهاب، الحوار المتمدن.
alhewar.m.asp.org

15- مصطفى عطية جمعة: الاستعمار و التهجين الثقافي في ضوء السرديات الأدبية، منصة الإبداع العربي،
www.elhayatarabiya.net.

16- معن الطائي: المرويات الكبرى وجماليات تزييف الواقع في الثقافة

الكولونيالية. <https://m.ahewar.org>

17- نيسان بيغازي: ثقيف السياسة أم تسييس الثقافة، www.zowaa.org

18- هالة نهرا: الجازصوت الروح الثائرة ضد العبودية، المياديننت،

postaj.com

19- وليد أحمد السيد: التراث والهوية و العولمة، مقاربات نظرية أساسية.

edu.najah.repository

20- ويبيكيديا: جائزة نوبل للسلام. ar.m.wikipedia

21- ويكيبيديا: محاكم التفتيش الأسبانية، سلطة قضائية في إسبانيا.

wiki.ar.m.wikipedia.org.

22- اليوم الدولي لموسيقى الجاز - اليونسكو، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم

والثقافة <https://ar.unesco.org/jazzday>



فهرس الموضوعات



| الصفحة | العنوان |
|---|---|
| | شكر و عرفان |
| | مقدمة |
| | أ- ز |
| مدخل تمهيدي: تلقي العولمة في الفكر العربي الحديث و المعاصر :العولمة بين الرفض و الترحيب. | |
| 22-10 | تلقي العولمة في الفكر العربي الحديث والمعاصر، بين الرفض و الترحيب |
| الفصل الاول: في فضاء المفاهيم:العولمة، الثقافة، العولمة الثقافية، الهوية ، الهوية الثقافية، المفاهيم والماهية | |
| 24 | المبحث الأول: في ماهية العولمة. |
| 24 | المطلب الأول: إشكالية مصطلح العولمة. |
| 24 | أ و لا : المفهوم اللغوي للعولمة |
| 24 | 1 - في اللسان العربي. |
| 25 | 2 - العولمة في اللسان الأجنبي. |
| 27 | ثانيا: المفهوم الاصطلاحي للعولمة. |
| 31 | 1- مفهوم العولمة السياسية. |
| 35 | 2- مفهوم العولمة الاقتصادية. |
| 24 | 3 - مفهوم العولمة الإعلامية. |
| 50 | المطلب الثاني: آليات العولمة و مؤسساتها. |
| 50 | أولا: الآليات الاقتصادية. |
| 50 | 1 - الشركات المتعددة الجنسيات. |
| 53 | 2 - البنك الدولي. |
| 54 | 3 - صندوق النقد الدولي. |
| 56 | 4- منظمة التجارة العالمية. |

| | |
|---|---|
| 58 | ثانيا: الآليات السياسية. |
| 58 | 1 - حقوق الإنسان |
| 61 | 2 - الديمقراطية |
| 67 | ثالثا: الآليات الإعلامية |
| 71 | 1-الإنترنت |
| 75 | 2-القنوات الفضائية، البث التلفزيوني المباشر |
| 77 | المبحث الثاني: في ماهية العولمة الثقافية وعلاقتها بالهوية |
| 77 | المطلب الأول: في تعريف الثقافة. |
| 77 | أولا: المفهوم اللغوي للثقافة. |
| 77 | 1- في الفكر العربي. |
| 79 | 2- في الفكر الغربي. |
| 81 | ثانيا: المفهوم الاصطلاحي للثقافة. |
| 81 | 1- في الفكر العربي. |
| 83 | 2- في الفكر الغربي. |
| 86 | ثالثا: في ماهية العولمة الثقافية. |
| 95 | المطلب الثاني: في ماهية الهوية الثقافية. |
| 96 | أولا: المفهوم اللغوي للهوية. |
| 97 | ثانيا: المفهوم الاصطلاحي للهوية. |
| 100 | ثالثا: مفهوم الهوية الثقافية. |
| 105 | المطلب الثالث: آليات العولمة الثقافية. |
| 105 | أولا: الثقافة المصنعة |
| 110 | ثانيا: الثقافة العالمية المعولمة |
| 119 | ثالثا: الثقافة الاستهلاكية |
| <p>الفصل الثاني : العولمة الثقافية بين صراع الحضارات و تحاورها في المنجز الروائي لولسيني الأعرج</p> | |

| | |
|---|---|
| 129 | المبحث الأول: مظاهر الصراع الحضاري و الصدام الثقافي |
| 136 | المطلب الأول: الإسلاموفوبيا وخطاب الكراهية. |
| 155 | المطلب الثاني: التطرف الفكري و الديني |
| 170 | المطلب الثالث: الإرهاب الدولي و الجريمة المنظمة |
| 182 | المطلب الرابع: الداء الأصولي و تفكك الذات. |
| 199 | المطلب الخامس: المركزية الغربية. |
| 213 | 1-نهاية التاريخ |
| 219 | 2-الاستيطان و التمركز اليهودي في فلسطين |
| 223 | 3-التحيز الثقافي : جائزة نوبل |
| 227 | المطلب السادس: صراع الأديان |
| 233 | المبحث الثاني: مظاهر الحوار الحضاري و الثقافي |
| 236 | المطلب الأول: الوشائج الإنسانية (الرباط الروحي) |
| 245 | المطلب الثاني: حوار الأديان |
| 255 | المطلب الثالث: المثاقفة. |
| 271 | المطلب الرابع: الترجمة. |
| 283 | المطلب الخامس: الفن و الموسيقى. |
| الفصل الثالث: تجليات الثقافة المعولمة في المنجز الروائي لواسيني الأعرج | |
| 295 | المبحث الأول: العولمة الثقافية وسؤال القيم و الأخلاق |
| 295 | المطلب الأول: الأزمة الإنسانية وصعود اللامعنى |
| 309 | المطلب الثاني: عولمة جسد المرأة. (تشيؤ جسد المرأة) |
| 319 | المبحث الثاني: العولمة الثقافية والتغريب. |
| 319 | المطلب الأول: سؤال الهوية و التغريب. |
| 336 | المطلب الثاني: التمركز حول الأنثى وتقويض السلطة الذكورية |
| 349 | المطلب الثالث: عولمة الأسرة وتحرير الجنس |
| 369 | المبحث الثالث: الإطاحة بالمركزيات الكبرى، وزعزعة اليقينييات |

| | |
|-----|--|
| 370 | المطلب الأول: القراءة الحداثية للقرآن الكريم |
| 384 | المطلب الثاني: تهميش الدين و جلد الذات. |
| 384 | 1- تهميش الدين |
| 398 | 2- جلد الذات |
| 407 | المطلب الثالث: الثقافة الاستهلاكية و العبث بالتراث |
| 420 | المبحث الرابع: الاقتلاع المكاني وتجانبات الهوية. |
| 420 | المطلب الأول: الذات، الوطن، الذاكرة المجروحة |
| 451 | المطلب الثاني: الهوية الرمادية الهجينة. |
| 462 | خاتمة |
| 468 | قائمة المصادر والمراجع |
| 502 | الفهرس |
| | الملخص |

ملخص:

يرمي هذا العمل إلى الكشف عن آليات العولمة الثقافية، وتمظهراتها في المنجر الروائي لواسيني الأعرج، وبيان التحولات التي طالت الأنساق الثقافية التقليدية و النظم المركزية للمجتمع الجزائري خاصة، والمجتمعين العربي و العالمي بصفة عامة.

وقد خلص إلى أن العولمة الثقافية تستند على نزعة مركزية وعرقية ثقافية ومنظومة أيديولوجية إعلامية و إجتماعية و إقتصادية و سياسية، تهدد ثقافة الشعوب وهويتها القومية والوطنية، وتخترق منظومتها الفكرية و العقديّة والقيمية، وتندّر بمخاطر التغريب، وباستمرارية الصراع الحضاري والصدام الثقافي محليا و عالميا، وبالمقابل تفرض حتمية الحوار الحضاري والقبول بالاختلاف والتعددية الثقافية، لبناء جسور التعايش و التعارف، وعليه يغدو تميمط العالم وتوحيده وفق النموذج الغربي بعيد المنال.

Abstract:

This work aims to reveal the mechanisms of cultural globalization and their manifestation in the novelist Wassini Laaraj. Also, it shows the transformations that affected the traditional cultural patterns and central systems of Algerian society in particular, in addition to Arab and international societies in general.

He concluded that cultural globalization is based on a centralized ethnocultural tendency and an ideological system of media, social, economic, and political. The aforementioned threatens people's culture and their national and national identity, penetrates their intellectual, doctrinal, and value systems, portends the dangers of Westernization, and ensures the continuity of civilizational conflict and cultural clash locally and globally. On the other hand, it rejects the inevitability of civilizational dialogue and acceptance of difference and cultural pluralism to build bridges of coexistence and acquaintance, and therefore the stereotyping and unification of the world according to the Western model become elusive.